البربر في الأندلس

وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري

422-92 هـ = 711-1031 م

تأليف

الأستاذ الدكتور عبد القادر بوباية

أستاذ التعليم العالي في تاريخ المغرب الإسلامي
قسم التاريخ - جامعة وهران



http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Title : **BERBERS OF ANDALUSIA**

And Their attitude concerning the troubles of The fifth century of The Hegira 92-422 H. = 711-1031 A.D.

Classification: History

Author : Dr. ʿAbdul-Qādir Būbāyah

Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Pages : 544

Size : 17* 24

Year : 2011

Printed in : Lebanon

Edition : 1st

الكتاب : البربر في الأندلس

وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري

التصنيف : تاريخ

المؤلف : د. عبد القادر بوباية

الناشر : دار الكتب العلميـــة - بيروت

عدد الصفحات : 544

قياس الصفحات: 24 *17

سنة الطباعة : 2011

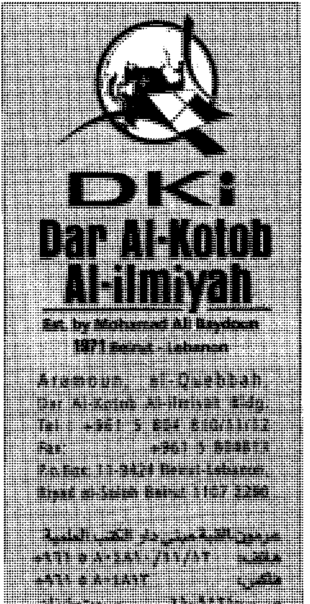
بلد الطباعة : لبنـــان

الطبعة : الأولى

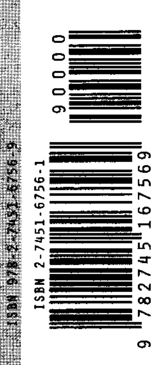
الآراء والاجتهادات الواردة في هذا الكتاب

تعبّر عن رأي المؤلف وحده

ولا تُلزم الناشر بأي حال من الأحوال



ISBN 978-2-7451-6756-9



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يعتبر دور البربر في التاريخ الأندلسي من المواضيع الهامة التي ما تزال في حاجة ماسة إلى المزيد من البحث والدراسة نظرا لارتباطه الوثيق بالتطور التاريخي الذي مرّت به بلاد الأندلس حيث كان البربر في طليعة الفاتحين لهذه المنطقة من خلال الحملة الأولى التي قادها طارق بن زياد الولهاصي النفزي، وكان جلّ رجالها من المغاربة، وقد نجحت هذه الحملة في القضاء على القوة العسكرية للقوط الغربيين، ومن ثمّ يسّرت عملية الفتح الإسلامي، كما ساهم المغاربة في الأحداث التي عاشتها العدوة الأندلسية خلال عصر الولاة الذي امتدّ من سنة 95هـ - 714م إلى سنة 138هـ - 788م، وكان لهم دور كبير في قيام الإمارة الأموية على يد مؤسسها عبد الرحمن بن معاوية، وبفضلهم نجح هذا الأخير في إعادة الوجود لبني أمية الذين قضي على دولتهم من طرف العباسيين بالمشرق سنة 132هـ - 749م.

كان البربر أيضا طرفا رئيسا في التطور التاريخي للأندلس خلال عصر الإمارة الذي امتدّ من سنة 138هـ - 755م إلى سنة 300هـ - 912م، وهو تاريخ اعتلاء عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله سدّة الحكم بقرطبة وبه ستدخل الأندلس مرحلة جديدة من تاريخها وبخاصة بعد إعلانه عن قيام الخلافة الأموية التي يعتبر عصرها ذروة الازدهار الحضاري بالمغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، هذا الازدهار الذي سيستمر إلى غاية حفيده هشام بن الحكم المؤيد بالله، ولكن عن طريق

حاجبه المنصور محمد بن أبي عامر الذي استعان بالبربر في تكوين جيش جديد يدين له بالولاء والطاعة، وبواسطته تمكن الحاجب العامري من فرض هيبة الأندلس على أعدائها في الخارج، وبخاصة نصارى الشمال، وبما أن البربر كانوا يشكلون العنصر الرئيس في هذا الجيش، فقد كان لهم دور كبير في الانتصارات العسكرية التي حققها المنصور خلال غزواته التي بلغ عددها نيفا وخمسين غزوة.

كان للبربر أيضا علاقة وطيدة بالأحداث التي عاشتها دار الإسلام عامة، ومدينة قرطبة وأرباضها بصفة خاصة خلال الربع الأول من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، والتي جاءت لتضع حدّا لعصر الوحدة والقوة والازدهار التي ميزت العدوة الأندلسية خلال معظم فترات القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي).

تلك الأحداث التي اصطلح على تسميتها بالفتنة البربرية، وبخاصة من طرف بعض المؤرخين الأندلسيين، ويأتي في مقدمتهم أبو مروان بن حيان القرطبي، لكن ما الذي حدث في قرطبة في هذا التاريخ؟ وما هي الأسباب التي أدّت إلى وقوع تلك الفتنة؟ وما هوالموقف الذي اتخذه البربر منها؟ وما هو الدور الذي لعبوه في أحداثها؟ وما هي الأسباب التي أدّت بهم إلى الانغماس في تلك الأحداث الدامية؟ وقبل ذلك ما هي الأوضاع التي عاشها البربر بالعدوة الأندلسية في الفترة التي سبقت قيام هذه الفتنة؟

تلك هي بعض التساؤلات التي سنحاول الإجابة عنها من خلال هذا البحث الذي يدور موضوعه حول البربر بالأندلس، وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري.

إن الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع قليلة جدا سواء لدى المؤلفين المشارقة أو نظرائهم المغاربة. فالمشارقة وبخاصة منهم المنتمين إلى مدرسة التاريخ الأندلسي[1] قد كتبوا عن الفتنة ضمن سياق الدراسات العامة التي خصّصوها لتاريخ العدوة الأندلسية، ولذلك جاءت المعلومات المتعلقة بهذا الموضوع مقتضبة جدا، واقتصرت على الأحداث الكبرى التي ميزتها، ولا تتناول الإجابة عن التساؤلات التي طرحناها أعلاه، أما الدراسات المغربية المتعلقة بموضوع هذه الدراسة فهي قليلة، ومنها رسالة

---

(1) د. السيد عبد العزيز سالم /د. أحمد مختار العبادي/د. حسين مؤنس وغيرهم...

الماجستير التي تقدم بها عبد العزيز فيلالي، وعنونها بـ"العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب".[1] ومن المواضيع التي تضمنتها هذه الرسالة الهجرات البربرية إلى بلاد الأندلس ومواطن استقرارها والثورة التي قام البربر بالأندلس عام 123هـ - 741م، وقمع الشاميين بقيادة بلج بن بشر لها في الباب الأول، أما في الباب الثاني فقد تحدث صاحب الرسالة عن القبائل البربرية المهاجرة إلى العدوة الأندلسية خلال عهد الناصر والحكم، وسياسة المنصور بن أبي عامر تجاه المغاربة واستدعائهم للخدمة في جيشه، وإغداق الأموال عليهم، وخصص حيزا من الفصل الثاني من هذا الباب إلى الفتنة القائمة بالأندلس، وقد أورد المؤلف أبرز الأحداث التي ميزت هذه الفترة من تاريخ الأندلس (399 - 422هـ/1008 - 1031م)[2]. إلا أن ما يلاحظ على هذه الدراسة هو عدم التعمق الكافي في تحليل الوقائع التاريخية المتعلقة بموضوع دراستنا باعتباره قد ركز أكثر على العلاقات السياسية بين الأموين في الأندلس ودول بلاد المغرب.

وأخرى تقدم بها فرّاد محمد أرزقي، وعنونها بـ"القوى المغربية في الأندلس خلال عهد ملوك الطوائف"، والتي لا تتعرض لأوضاع البربر بالأندلس، والفتنة القائمة بها خلال القرن الخامس الهجري إلا بصورة موجزة ضمن الفصل الأول من هذه الرسالة، أما بقية الفصول وعددها أربعة فقد خصصها صاحبها لممالك الطوائف البربرية وسقوطها[3].

وإذا انتقلنا إلى العدوة المقابلة للمغرب، فإن هناك محاولات جادة لتسليط الضوء على الوجود البربري بالأندلس، وموقف المغاربة من الأحداث التي مرّت بها هذه البلاد، ومن ذلك الدراسة القيمة التي قامت بها هيلينا دي فيليبي، وعنونتها بـ"هوية

---

(1) عبد العزيز فيلالي - العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - 1982م - 318 ص..

(2) نفسه - صص 253 - 269.

(3) فرّاد محمد أرزقي - القوى المغربية في الأندلس خلال عهد ملوك الطوائف - القرن 5هـ (11م) - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - 1991م - 175ص.

وأسماء البربر بالأندلس"[1]، والتي قامت فيها بإيراد جملة من المعلومات المتعلقة بأبرز البيوتات البربرية المقيمة بالأندلس، ورجالاتها البارزين في جميع المجالات. وبلغ عدد البيوتات التي تضمنتها هذه الدراسة تسعا وخمسين (59) بيتا مع ذكر البارزين من أفرادها، وأهم المواطن التي استقرت بها، وتضمنت الدراسة مجموعة هامة من الملاحق أهمها ملحق خاص بشجرة أنساب أبرز البيوتات البربرية. وقد اعتمدت مؤلفة هذه الدراسة القيمة على عدد كبير من المصادر الأندلسية والمغربية والمشرقية، المخطوطة منها والمطبوعة، ومع ذلك فإنها لم تسلط الضوء على أوضاع البربر قبل وخلال زمن الفتنة القائمة سنة 399هـ - 1008م، ولم تتطرق إلى موقفهم من الفتنة الأندلسية حيث اكتفت بتقديم تراجم لأبرز رجالات البيوتات البربرية بالأندلس.

ويضاف إليها مجموعة من المقالات المخصصة للتواجد البربري بالأندلس، وموقف المغاربة من الفتنة القائمة بالأندلس في الربع الأول من القرن الخامس الهجري، والتي نشرت في المجلات الإسبانية المتخصصة في تاريخ الأندلس الإسلامية، وسنورد بعضا منها ضمن فهرس المصادر والمراجع.

هذه هي جملة من الدراسات التي خصصت - على حدّ علمنا - لموضوع البربر بالأندلس، والتي لم تتناول العناصر التي سنركز عليها في بحثنا هذا، ونسعى إلى الإلمام بجميع جوانبها لنخرج في نهاية المطاف بصورة واضحة عن الوجود البربري ببلاد الأندلس، ومكانة المغاربة في الحياة السياسية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية، ومن ثمّ الموقف الذي اتخذه المغاربة من الفتنة القائمة بالأندلس، والدور الذي لعبوه في أحداثها.

إن اختياري لهذا الموضوع وإقدامي على الخوض في جوانبه المختلفة تقف وراءه جملة من الدوافع وأهمها إلى جانب قلة الدراسات المتعلقة به:

1 - تسليط الضوء بمزيد من التفصيل على فترة تعتبر من أصعب فترات

---

(1) Helena de felipe - Identidad et Onomastica de los Bereberes de el Andalus - CSIC - Madrid - 1987 - 446p.

الوجود الإسلامي بالعدوة الأندلسية، خاصة وأنها تميزت بالاقتتال العنيف بين الإخوة في الدين والوطن وتدمير وتخريب ما أنجز خلال القرون التي سبقت القرن الخامس الهجري، وبتكالب النصارى على المسلمين، واستغلال خلافاتهم للاستيلاء على المزيد من أراضي دار الإسلام، والانتقام من أهلها.

2 - محاولة الوصول إلى حقيقة الدور الذي لعبه البربر في هذه الأحداث التي يسميها بعض المؤرخين الأندلسيين بالفتنة البربرية، مع العلم أن جلّ كتابات المؤرخين الأندلسيين المتوفرة لدينا تمثل وجهة نظر طرف واحد يشايع الأمويين خاصة والعرب بصفة عامة، ويمثل هذا الطرف كتّابا عرفوا بعدائهم الشديد لملوك الطوائف عامة، وللبربر على وجه الخصوص، وهو الأمر الذي أشار إليه مؤلف "مفاخر البربر" حين قال على هامش مقدمة كتابه: "إنني أرى أن جميع ما يوجد من ذمّ البربر أوجلّ ما يوجد إنما هو من وضع شياطين الأندلس"[1]، وكان هذا المخطوط الذي حققته في إطار رسالة ماجستير حافزا دفعني لاستجلاء حقيقة الموقف البربري من الفتنة، ودورهم فيها، خاصة وأن هذا الموضوع لم ينل ما يستحق من الدراسة إذ اقتصر المؤرخون على الإشارة إليه ضمن السياق العام لتاريخ الأندلس، وحتى عندما أشاروا إليه؛ فإنهم كثيرا ما اعتمدوا على المصادر التي تحمل البربر لوحدهم مسؤولية الأحداث الدامية والمدمرة التي شهدتها العدوة الأندلسية خلال الربع الأول من القرن الخامس الهجري.

3 - المساهمة في إثراء المكتبات بدراسة موضوعية تسلط الضوء على فترة زمنية عصيبة مرّ بها هذا الصقع من العالم الإسلامي، خاصة وأن الكتّاب المعاصرين لم يفردوه ببحث خاص يتتبع تطور الأحداث بدقة، ويحاول البحث في الأسباب والدوافع الحقيقية لما حدث، ومن خلال ذلك يحاول تحديد المسؤوليات، وذلك ما سنسعى للقيام به رغم الصعوبات التي تنطوي عليها مثل هذه الدراسة، ولا سيما الذاتية منها، ذلك أننا في بلاد المغرب عامة، والجزائر بصفة خاصة مازلنا لم نقم إلى حد الساعة بدراسة كل المواضيع التاريخية التي لها صلة وثيقة بماضينا، والتي قام بمعظمها

(1) مجهول - مفاخر البربر - مخطوط بالخزانة العامة - الرباط - رقم ك 1275 ورقة 58.

الكتاب المشارقة، وحتى الدراسات المغربية القليلة المنجزة حديثا فإنها لم تغص في هذا الموضوع بالشكل الذي يسمح بتوضيح الرؤيا، والكشف عن الحقيقة.

إن الخوض في موضوع كهذا يجعل الباحث في مواجهة صعوبات جمّة لعلّ أبرزها هو ندرة المعلومات المتعلقة بالبربر في المصادر التاريخية عامة، والأندلسية بصفة خاصة لأنها تركز في معظمها على العنصر المسيطر على السلطة السياسية والإدارية بالأندلس، وأعني بهم العرب، ومن ثمّ فإن الإشارات المتعلقة بالمغاربة قليلة جدا، وإن وجدت فهي ترد بشكل مقتضب وغير واضح، كما أنها تركز عادة على الجانب السلبي لهذه الفئة من المجتمع الأندلسي، ويعود ذلك إلى كون جلّ الكتابات المتوفرة لدينا جاءت إما بتوجيه من الحكام أو الوزراء أو الأمراء، أو كتبت زلفى لهم وقربة منهم، وهي من تأليف العرب أو المولدين الذين كثيرا ما ركزوا كتاباتهم على بني عمومتهم، وأهملوا بقية العناصر الأخرى، ومع ذلك فقد بذلت جهدي للإطلاع على ما أمكنني من المصادر المتعلقة بتاريخ الأندلس، سواء في أرض الوطن أو في الخارج، حيث زرت المملكة المغربية، واطلعت على محتويات الخزانة العامة بالرباط والمكتبة الجامعية بها، وإسبانيا التي زرت بعضاً من مكتباتها، واطلعت على محتوياتها، وبخاصة مكتبة الإسكوريال ومكتبة معهد التعاون العربي الإسباني (مكتبة باريخا بمدريد) ومكتبة المجلس الأعلى للبحوث العلمية (C. S. I. C) ومدرسة الدراسات العربية (غرناطة)، كما زرت مصر واطلعت على محتويات مكتبة جامعة القاهرة ومكتبة جامعة الإسكندرية فضلا على ما قمت باقتنائه من المؤلفات (مصادر ومراجع) المتعلقة بهذا الموضوع خلال زيارتي للبلدان السالفة الذكر.

يقوم البحث الذي أنا بصدد إنجازه وفق المنهجية التالية: بدأت بالحديث عن القبائل البربرية التي دخلت إلى بلاد الأندلس منذ سنة 92هـ - 711م، والأماكن التي استقرت بها، وأهم الهجرات التي قام بها المغاربة إلى العدوة الأندلسية ودوافعها، وعلاقة البربر بالسلطة الحاكمة بقرطبة، والدور السياسي والعسكري والثقافي الذي لعبوه في العدوة، والمكانة الاقتصادية والاجتماعية التي احتلّوها، والعلاقات التي كانت بينهم وبين بقية عناصر المجتمع الأندلسي.

وركزت في بحثي على مكانة البربر خلال القرن الرابع الهجري، وبخاصة خلال عهد المنصور محمد بن أبي عامر ونتائج ذلك، وقيام الفتنة وأسبابها، وتطور أحداثها، ودور البربر في أحداثها، وحاولت خلال ذلك تحديد المسؤوليات فيما جرى من أحداث جسام بالأندلس في بداية القرن الخامس الهجري، وختمت ذلك بذكر أبرز النتائج السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية المترتبة عن الفتنة.

وقد سعيت في بحثي هذا إلى اعتماد النقد والتحليل خلال عرضي لمختلف عناصر الموضوع، كما حاولت أن ألتزم بالمنهج العلمي القائم على المقارنة بين مختلف النصوص، واستخلاص النتائج مع استبعاد كثير من الروايات المبالغ فيها، والتي كثيرا ما أوردها المؤرخون المسلمون في العصور الوسطى، ولجأت خلال عرضي لأحداث الفتنة، وموقف البربر منها إلى المصادر التاريخية الأولية، ولم أعد إلى المراجع والدراسات إلاّ نادرا لاعتقادي أن جلّ مؤلفيها قد اعتمدوا على نصوص معينة دون غيرها أو لعدم اطلاعهم على كافة النصوص المتعلقة بهذا الموضوع، ومن ثمّ فقد جاءت كتاباتهم مترجمة لآراء بعض المؤرخين الذين ألقوا باللائمة على البربر بمفردهم في الأحداث المؤلمة التي عاشتها العدوة الأندلسية خلال القرن الخامس الهجري، ومن ذلك كتابات الدكتور السيد عبد العزيز سالم المستوحاة من مؤلفات ابن حيان، أما كتب المستشرقين، وعلى رأسهم ليفي بروفنسال فلم أعد إليها في الغالب إلاّ من أجل ضبط التاريخ الهجري بما يقابله في التاريخ الميلادي لاعتقادي أن كتاباتهم تحمل الكثير من المغالطات والتزييف للتاريخ الإسلامي فضلا على أنهم سعوا من خلال مؤلفاتهم إلى رسم صورة خاطئة للمجتمعات الإسلامية، ولذلك فمن واجبنا أن نعود إلى المصادر مباشرة لإعادة كتابة هذا التاريخ، وتطهيره مما لحقه من تشويه.

قسمت الرسالة إلى بابين رئيسيين يتألف كل منهما من ثلاثة فصول، وقدمت لهما بمقدمة وتمهيد.

أما المقدمة فتشتمل على عرض عام لموضوع البحث، ومنهج الدراسة الذي اتبعته فيها، ويليه عرض عام لأهم المصادر المعتمد عليها في إنجاز هذا البحث، وتحليل المعلومات الرئيسة الواردة فيها ونقدها، وأهمية كل مصدر منها في عناصر

بحثي هذا، وخصّصت التمهيد لإبراز الخصائص الكبرى لأوضاع الأندلس السياسية والحضارية خلال القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، نظرا لما لها من ارتباط وثيق بموضوع البحث، وبخاصة في بابه الأول المتعلق بأوضاع البربر بالعدوة الأندلسية خلاله، ودورهم في المجال السياسي والعسكري، ومكانتهم في المجال الاقتصادي والاجتماعي، ومساهمتهم في الحركة الثقافية والعلمية.

أما معالجتي لموضوع البحث فجاءت على النحو التالي:

الباب الأول: تناولت فيه بالبحث أوضاع البربر بالأندلس قبل قيام فتنة القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، وقسّمته إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: وخصّصته لتتبع استقرار البربر بالأندلس، ومراحل هذا الاستقرار، وأهم الهجرات التي قام بها المغاربة إلى هذه البلاد، والأسباب التي دفعتهم إلى ذلك، والعوامل التي شجعتهم على الاستقرار بها، وبخاصة في عهد المنصور محمد بن أبي عامر، والمواطن الرئيسة التي استقروا بها.

الفصل الثاني: وخصصته لدور البربر في المجالين العسكري والسياسي؛ فذكرت دورهم في فتح الأندلس، وفي قيام الإمارة الأموية بها، واعتماد الأمراء والخلفاء عليهم في مواجهة أعدائهم، وبخاصة نصارى الشمال الأسباني، ودورهم في حماية الثغور الشمالية والشمالية الشرقية، وختمت ذلك بذكر أبرز القادة العسكريين من أصل بربري، وركّزت في المجال السياسي على المساهمة البربرية في تولي الوظائف الإدارية والقضائية، وأبرزت ضعف مساهمتهم في هذا المجال قبل القرن الرابع الهجري، وازدياد الاعتماد عليهم في هذا المجال خلال القرن الرابع الهجري، وأشرت إلى العوامل التي ساعدت على ذلك، كما ذكرت البربر الذين تولوا مناصب إدارية وقضائية خلال القرن الرابع الهجري، وقبله من أجل المقارنة.

الفصل الثالث: وركزت فيه على المساهمة البربرية في الحركة العلمية، ومكانتهم الاقتصادية والاجتماعية؛ فذكرت عوامل ازدهار الحركة العلمية بالأندلس بداية من منتصف القرن الثالث الهجري، ونصيب البربر من هذه الحركة؛ فبينت ضعف هذه المشاركة قبل القرن الرابع الهجري، واتساعها خلاله، والعوامل التي تسببت في

الظاهرة الأولى، وتلك التي شجعت على الظاهرة الثانية، كما ذكرت أهم الفروع العلمية التي شارك فيها البربر وبرزوا فيها، وأبرز العلماء، إضافة إلى النتائج التي تمخضت عن هذه المشاركة العلمية والثقافية الواسعة لهم.

وبالنسبة لمكانة البربر الاقتصادية والاجتماعية؛ فقد تطرقت إلى احتكار العرب للأراضي، وحرمان البربر منها، وذكرت بعض البيوتات البربرية الثرية، ومكانتها الاجتماعية، والحرف التي مارسها البربر من حضر وبدو، والمكانة التي احتلوها في الهرم الاجتماعي للأندلس، وبينت الصورة المنحطة التي رسمها بعض الكتاب والأدباء الأندلسيين للبربر.

الباب الثاني: وتناولت فيه بالبحث فتنة القرن الخامس الهجري، وموقف البربر منها، وقسمته إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: وخصّصته لقيام الفتنة ومراحلها وأسبابها البعيدة؛ فبدأت بقيام الفتنة على يد محمد بن هشام بن عبد الجبّار المهدي، والسياسة التي انتهجها، والنتائج التي أدّت إليها، ومنها مبايعة البربر للمستعين بالخلافة، وبداية الصراع الدموي بين المسلمين، والذي انتهى في مرحلته الأولى بدخول البربر مدينة قرطبة، ثم استيلاء الحموديين على منصب الخلافة، وتطور الفتنة خلال حكمهم، ثم تطرقت إلى عودة بني أمية للحكم، والمرحلة الأخيرة من عصر الخلافة التي انتهت بقرار إلغائها، ونفي أفراد البيت الأموي من الحضرة، وأتبعت موضوع الفتنة بمحاولة استقصاء الأسباب البعيدة التي كانت وراء قيامها.

الفصل الثاني: وخصّصته لموقف البربر من الفتنة، ومحاولة تحديد المسؤوليات، حيث تطرقت لموقف البربر عند قيام المهدي على الخليفة هشام وحاجبه عبد الرحمن شنجول، وسياسة الخليفة الجديد إزاءهم، وردّ الفعل البربري على ذلك، وبداية الصراع بين البربر وغيرهم من أفراد المجتمع الأندلسي الذي انتهى بانتصار البربر، ودخولهم مدينة قرطبة سنة 403هـ، وقيام المستعين - الخليفة الأموي - بتقسيم أجزاء من جنوب الأندلس ووسطها على زعماء القبائل البربرية، وظهور دويلات خاصة بهم، ثم تعرضت إلى موقف البربر من الفتنة عقب ذلك التاريخ،

وتصدّيهم لهجوم المرتضى المرواني وحلفائه من الصقالبة وأمراء الثغور وانتصارهم عليهم، وختمت هذا الفصل بمحاولة تحديد المسؤوليات فيما جرى من أحداث بالأندلس خلال الربع الأول من القرن الخامس الهجري، ولاحظت الاختلاف الكبير بين المؤرخين القدامى والمعاصرين في هذا المجال؛ فأوردت مختلف أرائهم، وسعيت إلى تحديد المسؤول عن قيام الفتنة اعتمادا على النصوص التاريخية الواردة في المصادر التي كتبت عن أحداثها.

الفصل الثالث: وخصصته لذكر نتائج الفتنة القائمة خلال الربع الأول من القرن الخامس الهجري بالعدوة الأندلسية؛ فبدأت بالنتائج السياسية، وأدرجت ضمنها الممالك التي أسسها البربر وتطورها التاريخي، وعلاقتها بغيرها من الممالك التي أسستها بقية عناصر المجتمع الأندلسي، وبخاصة العرب والصقالبة، وأبرزت تكالب النصارى على المسلمين وبلادهم خلال ذلك، ثم تطرقت إلى النتائج الاقتصادية التي نتجت عن الفتنة، والآثار الاجتماعية التي ترتبت عن ذلك من انتشار للمجاعة والأوبئة، وبينت في آخر هذا الفصل أثر الفتنة على الحياة الثقافية والعلمية من قتل للعلماء، وفرار البعض الآخر، وجمود الحركة العلمية في مدينة قرطبة خاصة، وازدهارها في غيرها من حواضر الأندلس، والعوامل المساعدة على ذلك.

أما الخاتمة؛ فقد ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث، وأتبعتها بملاحق عدة تضمنت شجرة أنساب أبرز البيوتات البربرية بالأندلس.

عرض عام وتحليل لأهم مصادر البحث:

قبل الخوض في دراستي لموضوع البربر بالأندلس، والموقف الذي اتخذوه من الفتنة القائمة بالعدوة الأندلسية مع مطلع القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، وجب على تقديم عرض عن أهم المصادر التي اعتمدت عليها في إنجاز عملي هذا، والتي أفادتني كثيرا في التطرق إلى مختلف جوانب الموضوع، وسيكون التركيز في هذا العرض على تلك التي كان اعتمادي عليها بدرجة كبيرة.

تتنوع المصادر التي اعتمدت عليها في إنجاز بحثي هذا، حيث تشمل كتب التاريخ وكتب التراجم والطبقات، وكتب الأدب وكذا كتب الجغرافية.

أ - كتب التاريخ:

1 - تاريخ افتتاح الأندلس: لأبي بكر بن القوطية الذي كان "عالما بالنحو، حافظا للغة"، وله مؤلفات كثيرة في هذا المجال منها: "كتاب تصاريف الأفعال"، و"كتاب المقصور والممدود"، كما كان حافظا لأخبار الأندلس، ملما "برواية سير أمرائها، وأحوال فقهائها وشعرائها، يملي ذلك عن ظهر قلب"[1]، ومما أملاه على تلاميذه كتاب "تاريخ افتتاح الأندلس"، ويؤكد ذلك عدم ذكر ابن الفرضي لهذا الكتاب عند ترجمته لمؤلفه رغم أنه كان من أساتذته بقرطبة.

يبدأ ابن القوطية كتابه بالحديث عن أحفاد آخر ملوك القوط الغربيين بحكم انحداره من أصلابهم، ثم يستعرض أخبار الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس، وأخبار

---

(1) ابن الفرضي - تاريخ علماء الأندلس - تحقيق إبراهيم الأبياري - دار الكتاب المصري (القاهرة) - دار الكتاب اللبناني (بيروت) - ط1 - 1404هـ - 1984م - ج 2 ص 447 - 448/ د. أحمد مختار العبادي - في تاريخ المغرب والأندلس - دار النهضة العربية - بيروت - 1978م - ص 314.

الولاة وأمراء بني أمية حيث يصل بأخباره إلى سنة 323هـ[1]، وفيها كانت "غزاة أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر لدين الله إلى سرقسطة، أم الثغر الأعلى"[2].

الكتاب عبارة عن مجموعة من الأخبار القصيرة، ويتميز مؤلفه بتعصبه الكبير لبني جلدته، ويبرز ذلك جليا عند حديثه عن أرطباس بن غيطشة وأخباره مع الصميل بن حاتم القائد العربي، وميمون العابد، وهي الأخبار التي تظهر العرب في صورة الجهّال والأجلاف، وتصور أرطباس الأمير القوطي في صورة الرجل ذي المواهب العظيمة والخلق الحميد اللطيف[3].

أفادني الكتاب كثيرا في إنجاز الفصلين الأول والثاني من خلال الأخبار المتعلقة بالفتح الإسلامي لبلاد الأندلس، والدور الذي قام به البربر في ذلك، إضافة إلى الأخبار المتعلقة بالفتن القائمة بين البربر والعرب، وبخاصة خلال عهد الولاة والنتائج المترتبة عنها.

2 - أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها: وتدور الفقرات التي يتألف منها هذا الكتاب حول أحداث التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي إلى خلافة عبد الرحمن الناصر، وأهم الفقرات وأوفرها مادة تلك التي تتعلق بدخول طارق بن زياد الأندلس، والفتح الإسلامي لها، ودخول بلج بن بشر إلى العدوة الأندلسية، والفتن والحروب التي دارت بين العرب من جهة، وبينهم وبين البربر من جهة أخرى، وأخبار الولاة، وتلك المتعلقة بدخول عبد الرحمن بن معاوية، وتأسيسه للإمارة الأموية بالأندلس، إضافة إلى أخبار من خلفه إلى غاية عهد عبد الرحمن الثالث، والأعمال التي قام بها خلال حكمه الذي دام نصف قرن من الزمن،[4] ويخطيء المحقق عندما

(1) أبوبكر بن القوطية - تاريخ افتتاح الأندلس - تحقيق إسماعيل العربي - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - 1989م - ص 91.

(2) ابن حيان - المقتبس في أخبار بلد الأندلس - ج5 - تحقيق شلميتا وآخرون - المعهد الإسباني العربي للثقافة - كلية الآداب بالرباط - مدريد - 1979م - ص357.

(3) تاريخ افتتاح الأندلس - ص 44 - 45.

(4) مجهول - كتاب أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها - تحقيق إسماعيل العربي - =

ذكر أن مؤلف هذا الكتاب قد مات قبل وفاة الخليفة الناصر لدين الله، رغم أنه قال في كتابه: "واتصل ملك عبد الرحمن خمسين سنة في غنى متسع وسلطان قاهر، وافتتاح للبلدان شرقا وغربا"[1].

يعتبر هذا الكتاب مصدرا أساسيا فيما يتعلق بالفتح الإسلامي لبلاد الأندلس، والأحداث التي سبقت عصر الإمارة، نظرا لاعتماد مؤلفه على كافة المصادر المسموعة والمكتوبة حول هذه المواضيع، إضافة إلى توخي الدقّة في إيراد الروايات المختلفة التي تضمنها الكتاب[2].

استفدت من الكتاب كثيرا في الباب الأول حيث أمدني بالأخبار المتعلقة بدور البربر في فتح الأندلس، والمناطق التي استقروا بها، إضافة إلى الحروب الدائرة بينهم وبين العرب، وما جرى لهم من جرّائها.

1 - مؤلفات ابن حيان القرطبي: وهو أبومروان حيان بن خلف بن حسين ابن حيان الذي يعتبر من أعظم مؤرخي الأندلس[3].

كان أبو مروان بن حيان "فصيحا في كلامه، بليغا فيما يكتبه بيده، وكان لا يعتمد كذبا فيما يحكيه في تاريخه من القصص والأخبار، وذكره أبو علي الغسّاني في شيوخه؛ فقال: "كان قوي المعرفة، مستبحرا في الأداب، بارعا فيها، صاحب لواء "التاريخ بالأندلس"، ووصفه بالصدق فيما حكاه في تاريخه[4].

وعلى الرغم من ذلك، نجده في بعض الأحيان لا يخفي نزعته الأموية، وكراهيته الكبيرة للعناصر المغربية المقيمة بالعدوة الأندلسية، متهما إياها بالهمجية

=

المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - 1989م ص 176.

(1) نفسه - ص 176 - 177.

(2) أحمد مختار العبادي - نفس المرجع - ص 315.

(3) نفسه - ص 319/ السيد عبد العزيز سالم - التاريخ والمؤرخون العرب - دار النهضة العربية - بيروت - 1981م - ص 113.

(4) ابن بشكوال - كتاب الصلة - نشر وتصحيح السيد عزت العطار الحسيني - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط 2 - 1414هـ - 1994م - ج1 ص 150 - 151.

والتطاول على أولي الأمر، ومنددا بقسوتها، وحقدها الدفين على الدولة القائمة بالأندلس[1].

عاصر ابن حيان عظمة الخلافة الأموية، كما عايش الأحداث الدامية التي أدت إلى سقوطها، وبداية عصر الطوائف، وبذلك كان شاهد عيان لحقبة طويلة من تاريخ العدوة الأندلسية (377 - 469هـ/987 - 1076م).

كتب ابن حيان مؤلفات كثيرة بلغ عددها خمسين مؤلفا، ضاعت كلها تقريبا، ولم يبق منها إلاّ أجزاء يسيرة منها:

أ - كتاب "المقتبس في أخبار بلد الأندلس": الذي أرّخ فيه للأندلس من لدن افتتاحها إلى أواخر القرن الرابع الهجري، وقد اقتبس مادة كتابه من مؤلفات المؤرخين الذين سبقوه، ولا سيما أحمد بن محمد الرازي المتوفى سنة 344هـ - 955 م، وابنه عيسى المتوفى سنة 379هـ - 989م، ومحمد بن يوسف الورّاق القيرواني المتوفى سنة 363هـ - 973م، ومعظم كتابات هؤلاء مفقودة، ومن ثم فإن ما كتبه ابن حيان يكتسي أهمية خاصة لكونه قد حفظ لنا مادة تاريخية هامة لمؤلفين عاصروا تاريخ الدولة الأموية بالأندلس، والأحداث التي مرّت بها، كما أن أهمية الكتاب تكمن أيضا في كون مؤلفه قد اطلع على الوثائق الرسمية المحفوظة في خزائن الدولة، وذلك عن طريق والده الذي كان من كتّاب المنصور محمد بن أبي عامر.

ب - كتاب "المتين" الذي يقول ابن سعيد عنه: "وأما التواريخ فكتاب ابن حيان الكبير المعروف بالمتين في نحو ستين مجلدة"، ويضيف قائلا: "والمتين يذكر فيه أخبار عصره ويمعن فيها مما شاهده، ومنه ينقل صاحب الذخيرة"[2].

يعتبر كتاب المتين في عداد المصادر التاريخية المفقودة، ولكن المؤلفين الذين جاءوا بعده نقلوا عنه، وحفظوا لنا في مؤلفاتهم جزءا هاما من هذا المؤلف الضائع،

---

(1) أنخل قنثالث بالنثيا - تاريخ الفكر الأندلسي - تعريب د. حسين مؤنس - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة - 1955م - ص 202 - 203.

(2) المقري أحمد بن محمد - نفح الطيب - ج 3 ص 181.

وقد قام أحد المؤرخين مؤخرا بجمع الشذرات المتناثرة من كتاب المتين ونشرها محققة،[1] إلاّ أنها جاءت مشوهة نتيجة الأخطاء المطبعية الكثيرة الواردة فيها.

يبدأ التاريخ في كتاب "المتين" بأحداث الفتنة القائمة في العدوة الأندلسية سنة 399هـ - 1008م، وينتهي قبل وفاة المؤلف بسنوات قليلة أي سنة 463هـ - 1071م، ومعنى ذلك أنه يتناول تاريخ حوالي أربع وستين سنة من حياة الأندلس التي عاصرها ابن حيان، وتتمثل في معظمها في سنوات الفتنة، وفي عصر ملوك الطوائف.[2]

قدم لنا ابن حيان من خلال كتابيه معلومات هامة عن بعض البيوتات البربرية، وأفرادها الذين كان لهم دور كبير في الحياة السياسية والإدارية، إضافة إلى النشاط العسكري الذي قام به المغاربة، وبخاصة في عهد عبد الرحمن الناصر، فضلا على الوظائف الهامة التي تقلدوها خلال حكمه، وكذا دورهم المتزايد في الجيش الأندلسي بداية من عهد ابنه الحكم المستنصر بالله، كما أن المعلومات التي كتبها ابن حيان عن الفتنة - رغم قلّتها -، وعن عصر ملوك الطوائف كانت خير معين لنا في إنجاز جزء هام من فصول الباب الثاني من بحثنا.

4 - كتاب "التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة":

لمؤلفه الأمير عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبّوس بن ماكسن بن زيري بن مناد، آخر ملوك دولة بني زيري بغرناطة، المخلوع من قبل المرابطين عام 483هـ - 1090م[3].

يكتسي كتاب التبيان أهمية كبرى لدارسي تاريخ الأندلس في الفترة الممتدة من سقوط الدولة العامرية (399هـ - 1008م) إلى خلع آخر ملوك الطوائف (487هـ - 1094م)، حيث يغطي الثلاثين السنة التي تلت نهاية تاريخ ابن حيان، كما يساعد على

---

(1) أبو مروان بن حيان - من نصوص كتاب المتين - تحقيق د. عبد الله محمد جمال الدين - المجلس الأعلى للثقافة - مدريد - 1977م - 386 ص.

(2) ابن حيان - المقتبس من أنباء أهل الأندلس - تحقيق محمود علي مكي - دار الكتاب العربي - بيروت - 1393هـ - 1973م - ص 69 من مقدمة التحقيق.

(3) عبد الله بن بلقين - كتاب التبيان - تحقيق أمين توفيق الطيبي - منشورات عكاظ - الرباط - 1995م - ص 38.

التثبت مما ورد في رواية ابن حيان أو يزودنا بمادة جديدة.

لا يزودنا كتاب التبيان بوجهة نظر أحد ملوك الطوائف فحسب؛ بل إنه كذلك رواية ملك من أصل بربري في حين أن جلّ الكتابات المتوفرة لدينا إلى الآن عن هذه الفترة من التاريخ الأندلسي تمثل وجهة نظر جانب واحد مشايع للأمويين، ويمثله كتّاب أندلسيون كابن حيان وابن حزم عرفوا بعدائهم الشديد لملوك الطوائف عامة، وللبربر على وجه الخصوص[1]. ومن بين النقاط المهمة التي يؤكدها الكتاب انقسام الأندلس في بداية القرن الخامس الهجري إلى جماعتين عرقيتين متنافرتين: الأندلسيين والبربر.[2]

أفادني الكتاب كثيرا بما احتواه من معلومات قيمة عن انتقال بني زيري الصنهاجيين إلى بلاد الأندلس، وانخراطهم في صفوف الجيش الذي شكله المنصور بن أبي عامر، كما عرفني بموقفهم من الفتنة القائمة بالأندلس خلال الربع الأول من القرن الخامس الهجري، ودوافع الردّ البربري على الاعتداءات التي لحقتهم من قبل أهل الأندلس، إضافة إلى التفاصيل الدقيقة عن المواجهة التي دارت بين بني زيري والأندلسيين بقيادة المرتضى المرواني.

5 - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: لمؤلفه أبي العباس أحمد بن محمد المعروف بابن عذاري المراكشي الذي كان بقيد الحياة عام 712هـ - 1312م.

يكتسي هذا الكتاب أهمية خاصة نظرا لما يزخر به من روايات مستقاة من مصادر معاصرة لزمن البحث، كما يعتبر هذا المؤلف من أهم مصادر تاريخ الغرب الإسلامي نظرا لما يتضمنه من معلومات ذات قيمة تاريخية كبيرة أغلبها مقتبس من مصنفات عبثت بها أيام الدهر، ولم تصل إلينا، مثل كتاب الرقيق القيرواني، والورّاق وابن حيان وغيرهم، ولهذا السبب جاء الكتاب حافلا بمعلومات تاريخية قيمة ينفرد بها عن غيره من المصادر،

---

(1) نفسه - ص 16 - 17.

(2) نفسه - ص 61.

وبناء على ما سبق ذكره؛ فإن كتاب البيان المغرب يعتبر من المصادر المهمة والأساسية في دراسة تاريخ الأندلس والمغرب، ومن أكثرها جدارة بالثقة[1].

يتألف كتاب البيان من خمسة أجزاء، خصص مؤلفه الجزء الثاني للحديث عن تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى وفاة المنصور محمد بن أبي عامر، أما الجزء الثالث فهو يتحدث عن تاريخ هذه المنطقة منذ تولي المظفر عبد الملك منصب حجابة هشام المؤيد سنة 392هـ - 1002م، والي عصر ملوك الطوائف، كما يتضمن الجزءان الرابع والخامس معلومات كثيرة عن الأندلس في ظل الحكم المرابطي ثم الموحدي.

بناء على ما سبق، فقد ساعدني كتاب البيان المغرب كثيرا في إنجاز بحثي، وذلك من خلال المعلومات الغزيرة التي تضمنها، والمتعلقة بدور البربر في تاريخ الأندلس بداية من الفتح وإلى غاية عصر ملوك الطوائف، كما أنه المصدر الوحيد الذي يقدم لنا أدّق التفاصيل عما جرى بالأندلس عامة، وبمدينة قرطبة بصفة خاصة فيما بين تاريخ قيام الفتنة (399هـ - 1008م)، وتاريخ إلغاء الخلافة الأموية بالأندلس (422هـ - 1031م)، حيث يرصد المؤلف جميع التفاصيل المتعلقة بتحرك الطرفين المتنازعين (البربر والأندلسيين) والأحداث الجسام التي وقعت خلال ذلك على عكس المصادر الأخرى (كتاب المتين، نهاية الأرب، أعمال الأعلام وغيرها) التي تركز على تداول الخلفاء في قرطبة، وذكر بعض الأحداث الهامة الواقعة في أثناء ذلك التداول.

6 - "مفاخر البربر" لمؤلف مغربي مجهول كان كسابقه بقيد الحياة عام 712هـ - 1312م.

يورد هذا المؤلف من خلال مقدمة كتابه سبب التأليف فيقول: "إنه لما كانت

---

(1) أحمد مختار العبادي - في تاريخ المغرب والأندلس - ص330/رضا هادي عباس - الأندلس: محاضرات في التاريخ والحضارة - منشورات إلجا - فاليتا - 1998م - ص 62/ محمد المنوني - المصادر العربية لتاريخ المغرب - منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط - 1404هـ - 1983م - ج 1 ص 66/محمود ماهر حمادة - المصادر العربية والمعرّبة - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط 6 - 1407هـ - 1987م - ص 316.

البربر عند كثير من جهلة الناس أخسّ الأمم وأجهلها، وأعراها من الفضائل، وأبعدها عن المكارم، رأيت أن أذكر ملوكهم في الإسلام ورؤساءهم وثوارهم وأنسابهم، وبعض أعلامهم وتواريخ أزمانهم ".[1]

يورد المؤلف خلال عروضه معلومات ينفرد بها عن أي مصدر آخر معروف؛ فيستمدها من الكتب الضائعة، ككتب عبد الملك بن موسى الوراق الموسوم بـ"المقباس في أخبار المغرب والأندلس وفاس"، وابن حماده السبتي الموسوم بـ"المقتبس في أخبار المغرب وفاس والأندلس"، وعبد الله بن أبي المجد المغيلي واضع كتاب "أنساب البربر وملوكهم"، وخالد بن خراج صاحب كتاب "تاريخ افريقية"، أو يستمدها من تحرياته الخاصة، ويدلنا على ذلك الإضافات الكثيرة التي يثري بها ما يقتبسه من مؤلفات الكتّاب السابقين له كابن حيان وابن حزم وابن بسام الشنتريني وغيرهم.

أفادني الكتاب كثيرا من خلال المعلومات الكثيرة التي خصّصها مؤلفه لدور البربر في حروب الدولة الأموية على عهد الحكم المستنصر بالله والمنصور، وأعلامهم بالعدوة الأندلسية، إضافة إلى أنسابهم وأبرز بيوتاتهم بها.

7 - كتاب "أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام": لمؤلفه محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني الغرناطي المعروف بلسان الدين ابن الخطيب المتوفى بمدينة فاس سنة 776هـ - 1374م.

يتألف هذا الكتاب من ثلاثة أقسام، ويهمنا منها القسم الثاني الذي خصصه المؤلف لتاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى عصره، ولكنه لا يطيل كثيرا في تناول موضوع الفتح وعصر الولاة إذ يختصر ذلك في صفحة ونصف من الكتاب المحقق،[2] وإذا كان ابن الخطيب يمر مرور الكرام على هذه المرحلة الأولى من الوجود الإسلامي

(1) مجهول - مفاخر البربر - تحقيق عبد القادر بوباية - رسالة ماجستير غير منشورة - معهد التاريخ - جامعة وهران السانية - 1996م - ص 115.

(2) ابن الخطيب - أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام - تحقيق ليفي بروفنسال - دار المكشوف - بيروت - 1956 - ط2 - ص6 - 7.

بهذه البلاد (92 - 138هـ/711 - 755م)، فإنه على العكس من ذلك يفصِّل في تناول الأحداث الواقعة بها في الفترة الممتدة من قيام الإمارة الأموية إلى عصره، أي إلى القرن الثامن الهجري (الرابع عشر ميلادي)، ويخصص الكاتب بعض الصفحات للحديث عن مقامه بالمغرب ورحلاته بين العدوتين المغربية والأندلسية،[1] ويذيل كتابه بإيراد أخبار تتعلّق بالممالك المسيحية المتواجدة في العدوة الأندلسية، ويخص بالذكر منها قشتالة وليون وبرتقال (البرتغال).

ساعدني الكتاب كثيرا في إنجاز بحثي هذا بما احتواه من معلومات قيمة، وإن كانت مختصرة جدا، عن دور البربر في تاريخ الأندلس، وبخاصة في المجال العسكري، وموقفهم من الفتنة القائمة بها، ودورهم في أحداثها، إضافة إلى المعلومات المتعلقة بالممالك التي أسسوها عقب زوال الخلافة الأموية.

ب - كتب التراجم:

1 - تاريخ علماء الأندلس: لمؤلفه الحافظ أبي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي المشهور بابن الفرضي المتوفى سنة 403هـ - 1013م.

وعن دوافع تأليفه يقول ابن الفرضي: "هذا كتاب جمعناه في فقهاء الأندلس وعلمائهم ورواتهم وأهل العناية منهم، ملخصا على حروف المعجم...وغرضنا فيه ذكر أسماء الرجال وكناهم وأنسابهم، ومن كان يغلب عليه حفظ الرأي، ومن كان الحديث والرواية أملك به وأغلب عليه، ومن كانت له إلى المشرق رحلة...ومن كان يشاور في الأحكام ويستفتى، ومن ولي منهم خطّة القضاء"[2]، ويتضمن الكتاب 1649 ترجمة.

وقبل ذكر العلماء والفقهاء والرواة، يورد المؤلف نبذا عن حكام الأندلس بداية بمؤسس الإمارة الأموية، وانتهاء بالمؤيد بالله هشام بن الحكم.

---

(1) نفسه - ص 321.

(2) ابن الفرضي - تاريخ علماء الأندلس - تحقيق إبراهيم الأبياري - دار الكتاب اللبناني - مكتبة المدرسة - بيروت - ط1 - 1403هـ - 1983م - ج1 ص23.

يكتسي هذا الكتاب أهمية كبرى في دراسة كثير من جوانب التاريخ العلمي والثقافي للأندلس على عهد الأمويين، وبالنظر إلى كل ما سبق؛ فإنه يعدّ من أوثق ما كتب في التراجم، وقد أعانني كثيرا في الفصل المخصص للحديث عن المساهمة البربرية في الحركة العلمية بالأندلس، والترجمة للبربر الذين تولوا وظائف قضائية خلال الحكم الأموي.

2 - كتاب الصلة: ومؤلفه أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن سعود بن بشكوال الأنصاري المتوفى سنة 578هـ - 1183م.

يعتبر ابن بشكوال من أعظم علماء الأندلس، وكان شيخ عصره حفظا وصدقا ورواية، ويعتبر كتابه هذا صلة أي إكمالا لتاريخ علماء الأندلس الذي ألفه ابن الفرضي، وهو لا يقل عنه أصالة وصدقا، بل إن تراجمه تمتاز بأنها أطول وأكثر تفصيلا.[1]

يتضمن كتاب الصلة 1541 ترجمة لعلماء أندلسيين وطارئين، وقد رتبها المؤلف ترتيبا أبجديا زمنيا، أي من الأقدم وفاة إلى الأحدث.

لقد أفادني الكتاب كثيرا في الفصل المخصص لدور البربر في الحركة العلمية بالأندلس، كما اقتبست منه تراجم العلماء الذين لقوا حتفهم في المواجهات التي دارت بين البربر وأهل مدينة قرطبة خاصة، وأهل الأندلس عامة.

3 - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك: لمؤلفه أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي القاضي المتوفى سنة 544هـ بمدينة مراكش.

يوضح القاضي عياض الغاية من تأليف هذا الكتاب؛ فيقول: إنه سعى إلى وضع "كتاب حاو لأسماء أعيان المالكية وأعلامهم، وتبيين طبقاتهم وأزمانهم، وجمع عيون فضائلهم وآثارهم، ونظم نثر فنون سيرهم وأخبارهم".[2]

---

(1) حسين مؤنس - معالم تاريخ المغرب والأندلس - دار الرشاد - القاهرة - ط3 - 1420هـ - 1999م - ص251.

(2) القاضي عياض - ترتيب المدارك وتقريب المسالك - تحقيق محمد سالم هاشم - دار الكتب =

زودني الكتاب بكثير من التراجم المتعلقة بالفقهاء ذوي الأصول البربرية الذين نبغوا بالعدوة الأندلسية قبل وخلال القرن الرابع هجري.

جـ - الكتب الأدبية:

1 - مؤلفات ابن حزم الأندلسي، وهو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم المتوفى سنة 456هـ - 1064م في بادية لبلبة بالقرب من إشبيلية.

كان ابن حزم أديبا وفقيها ومؤرخا، ولذلك جاءت مؤلفاته التي بلغت نحو أربعمائة مجلد حسب رواية ابنه الفضل مزيجا من هذا وذاك، ومن أهم ما كتب المؤلف:

أ - جمهرة أنساب العرب: الذي سجل فيه المؤلف أنساب القبائل العربية الثلاث (عدنان وقحطان وقضاعة)، وألحق بها ذيولا من بينها جمهرة نسب البربر وبيوتاتهم بالأندلس، ومن هنا تكمن أهمية هذا المؤلف بالنسبة لبحثي حيث أمدني بمعلومات عن أهم البيوتات البربرية بالأندلس، وأبرز رجالاتها.

ب - كتاب طوق الحمامة في الألفة والألاّف: الذي ألفه ابن حزم خلال زمن الفتنة (سنة 410هـ)، ويقول إنه: "رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة"،[1] ويركّز الكتّاب الذين تناولوا هذا المؤلف بالدراسة على هذا الجانب، ويغفلون ما احتواه من أخبار متعلقة بالتأريخ لبلاد الأندلس، خاصة وأن مؤلف الكتاب قد عايش الفتنة الأندلسية، واكتوى بنارها، وساهم في أحداثها.

تكمن أهمية الكتاب في احتفاظه بكثير من الأخبار المتعلقة بأحداث الفتنة الأندلسية، وبخاصة ما جرى بمدينة قرطبة وأرباضها من أعمال القتل والنهب

=

العلمية - بيروت - ط1 - 1418هـ - 1998م - ج1 - ص8.

(1) ابن حزم - طوق الحمامة في الألفة والألاّف - تحقيق حسن كامل الصيرفي - دار الفكر - القاهرة - 1383هـ - 1998م - ص 2.

والتخريب، إلى جانب الآثار المترتبة عن ذلك من انتشار للمجاعة والأوبئة، وترويع للسكان، وتدمير للعمران، وهي الأخبار التي ساعدتني كثيرا في الفصل المتعلق بنتائج الفتنة الأندلسية، إضافة إلى بعض الشذرات التي أوردها ابن حزم، وتتعلق بالجانب الثقافي والعلمي للأندلس.

ج - نقط العروس في تواريخ الخلفاء: الذي يخطيء كثير من الدارسين عند تعريفه بقولهم إنه: "عبارة عن تراجم متفرقة لخلفاء بني أمية في الأندلس"[1]، والحقيقة أن الذي يطالع الكتاب بتمعن يدرك أنه يتضمن معلومات مقتضبة عن خلفاء المسلمين في المشرق والمغرب وحكامهم، مرتبة على شكل فصول بحسب قواسم مشتركة تربط بينهم، مثل "أول الأسماء التي وقعت على الخلفاء"، و"تسمية من ولي الخلافة في حياة أبيه"، و"من ولي منهم صبيا"، و"أكثر الخلفاء عمرا"، و"من ولي الخلافة وأخوه أسنّ منه"، و"امرأة تزوجّها ثلاثة خلفاء"، و"رجل تزوج بناته أربعة خلفاء"، وما إلى ذلك.[2]

2 - "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لمؤلفه أبي الحسن علي بن بسّام الشنتريني المتوفى سنة 542هـ - 1148م، ويشتمل على 154 ترجمة مسهبة لأعيان الأدب والسياسة ممن عاصرهم أو تقدموه قليلا.[3]

يعتبر هذا الكتاب موسوعة أدبية تاريخية، ولما كان ابن بسام أديبا وليس مؤرخا؛ فقد اعتمد في الجزء التاريخي من مؤلفه على ما كتبه المؤرخ أبو مروان بن حيان في كتاب المتين، وبذلك فقد حفظ لنا الشيء الكثير من هذا المصدر الضائع.

استفدت من الكتاب كثيرا في فصول الباب الثاني، وبخاصة في الفصل الأول

---

(1) العبادي - في تاريخ المغرب والأندلس - ص324/النويري - نهاية الأرب في فنون الأدب تحقيق مصطفى أبوضيف - دار النشر المغربية - الدار البيضاء1984 - ص37.

(2) ابن حزم - نقط العروس في تواريخ الخلفاء - نشر سيبولد Revista Del Centro de Estudios Historicos de Granada y su Reino 1911 - pp163 - 180 /237 - 248.

(3) خير الدين الزركلي - الأعلام - دار العلم للملايين - بيروت.ط11 - 1995م - المجلد الرابع - ص 266.

الخاص بتطور الفتنة الأندلسية، حيث أمدني بمعلومات غزيرة عن الخلفاء الذين تولوا حكم الأندلس خلال زمن الفتنة، كما ساعدني أيضا في التأريخ للممالك التي أسسها البربر عقب تقسيم سليمان المستعين لجنوب الأندلس ووسطها بين زعماء القبائل البربرية.

د - الكتب الجغرافية:

1 - كتاب "ترصيع الأخبار وتنويع الآثار": لمؤلفه أحمد بن عمر بن أنس العذري المعروف بابن الدلائي المتوفى سنة 478هـ - 1085م.

لم تصلنا من هذا المؤلف سوى بعض النصوص المتعلقة بالأندلس، ولم يقتصر كاتبها على المعلومات الجغرافية فقط، بل ضمّن كتابه الكثير من الأخبار المتعلقة بالتاريخ، وهو أمر لم يسبق إليه أحد من الذين ألفوا في مادة الجغرافية في بلاد الغرب الإسلامي.

يتميز العذري بوصفه الجغرافي المسهب الذي نهج فيه منهجا سليما، فهو يقسم كتابه إلى ما يشبه الفصول، ويدور كل فصل منها حول كورة من كور الأندلس، كما يعتبر كتابه من أجود الكتب، وأحسنها في الحديث عن الثغور الإسلامية، وعن الأسر المستقلة بها، وعلاقتها بقرطبة من جهة، وبالنصارى من جهة أخرى، وينفرد الكتاب أيضا بذكر عدد كبير من الغزوات التي قادها المنصور محمد بن أبي عامر.[1]

زودني الكتاب بمعلومات هامة عن بعض الأسر البربرية المستقلة ببعض الثغور، كما أمدني بمعلومات قيمة عن الكور الأندلسية والأقاليم التابعة لها، إضافة إلى الأخبار المتعلقة بالدور العسكري الذي قام به أحد القادة البربر البارزين في عهد عبد الرحمن بن الناصر.

2 - كتاب "الروض المعطار في خبر الأقطار": لأبي عبد الله محمد بن

(1) كمال السيد أبومصطفى - تاريخ الأندلس الاقتصادي في عصر دولتي المرابطين والموحدين - مركز الإسكندرية للكتاب - إسكندرية - بدون تاريخ - ص23.

عبد الله بن عبد المنعم الحميري، وقد اهتم مؤلفه بذكر المواضع المشهورة عند الناس من العربية والعجمية، والأصقاع التي تعلقت بها قصة، أو كان في ذكرها فائدة، أو كلام فيه حكمة، أو لها خبر طريف، أو معنى يستملح أو يستغرب ويحسن إيراده".[1]

لقد جاءت مواد الجزء المنشور عن الأندلس مرتبة ترتيبا أبجديا، ويضم هذا الجزء معظم الأعلام الجغرافية الهامة التي يرد ذكرها في كتب المؤلفين الأندلسيين.

كان اعتمادي على الحميري بالدرجة الأولى في التعريف بالمدن الأندلسية الوارد ذكرها في بحثي رغم إغفاله لذكر المصادر التي استقى منها معلوماته.

هذه هي أهم المصادر التي اعتمدت عليها في إنجاز بحثي، وبالإضافة إليها استعنت بمصادر ومراجع أخرى كان لها الفضل الكبير في تيسير معالجة فصول هذا الموضوع، والإلمام بجميع أجزائه، وسيرد ذكرها في قائمة المصادر والمراجع.

وفي الأخير لا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر والامتنان إلى اللطيف المنان الذي أمدني بالقوة والصبر، وأعانني على إنجاز هذا العمل المتواضع، وأسأله تعالى أن يتقبله مني، ويجعله خالصا لوجهه تعالى.

(1) ابن عبد المنعم الحميري - صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار - نشر إ.ليفي بروفنسال - القاهرة - 1937م - ص ج.

تمهيد: أوضاع الأندلس قبل فتنة القرن الخامس الهجري (11م):

يمثل عصر الخلافة بالعدوة الأندلسية ذروة الازدهار الحضاري بالغرب الإسلامي، فبالإضافة إلى تحقيق وحدة الأندلس، وترسيخ سلطة الحكم المركزي بها، تمكنت الخلافة الأموية من دعم نفوذها سواء في أوروبا، أو في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، كما نجحت في تحقيق تطور اقتصادي تجلى في تعاظم نشاطها التجاري.

وتشير أغلب المؤشرات إلى أن عصر الخلافة الأموية بقرطبة كان بحق مرحلة متميزة في التاريخ الأندلسي، ويبتدئ هذا العصر منذ إعلان الخلافة من طرف عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر لدين الله سنة 316هـ - 929م.

أوضاع الأندلس على عهد عبد الرحمن الناصر: تجمع المصادر التاريخية على الظروف الصعبة التي كانت الأندلس تمرّ بها عندما اعتلى عبد الرحمن الثالث سدّة الحكم بقرطبة، حيث وليها وهي "نار تضطرم، وجمرة تتقد شقاقا ونفاقا"[1]، كما وجدها " مضطربة بالمخالفين، مضطرمة بنيران المتغلبين"[2].

لقد تميز عهد جدّه وسلفه عبد الله بن محمد (275 - 300هـ/888 - 912م) بفتنة عارمة كان من نتائجها ظهور العديد من المنتزين على السلطة القائمة بقرطبة، حيث استغلت بعض البيوتات العربية والبربرية وبعض المولدين ضعف حكام قرطبة للثورة عليهم، والانتزاء بمقاطعاتهم، كما أعلن النصارى عن بداية هجماتهم ضد

(1) النويري أحمد بن عبد الوهاب - تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط - ص 115.

(2) أحمد بن محمد المقّري - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - تحقيق إحسان عباس - دار صادر - بيروت - بدون تاريخ - ج 1 ص 353.

الحدود الشمالية للإمارة، وأمام هذه الأوضاع السياسية المتردية اضطرّ الناصر إلى قضاء فترة من حكمه في محاولة إعادة ترتيب البيت الأندلسي.

بعد مجهودات كبيرة نجح عبد الرحمن في تحقيق وحدة العدوة الأندلسية حيث "أطفأ تلك النيران واستنزل أهل العصيان"، وبفضل ذلك "استقامت له الأندلس في سائر جهاتها" وذلك "بعد نيف وعشرين سنة من أيامه"[1].

استطاع عبد الرحمن الناصر أن يعيد إلى المجتمع الأندلسي وحدته، حيث قضى على الزعامات العربية التي كان يتكتل وراءها من كان ينتمي إلى البيوتات العربية، والقيادات المسيحية التي كان يلجأ إليها الخارجون على النظام من المولدين، كما أراح أهل الأندلس من بعض البيوتات البربرية التي كانت ثائرة ببلاد الأندلس.

أعاد عبد الرحمن بسط سلطة قرطبة على أقاليم الأندلس وثغورها، ومن أجل تدعيم هذه المنجزات، وضمان استمرارية المركزية السياسية، عمد الناصر إلى تقوية الجيش المركزي، وذلك بالاستكثار من الصقالبة، كما طالت الإصلاحات التي قام بها الجهاز الإداري، وبواسطة قرارات العزل والمصادرة التي كثيرا ما مست رجالات الدولة والوزراء والكتّاب، نجحت الخلافة الأموية في ترويض الخطط الإدارية التي فقدت سلطاتها التقريرية لتصبح مجرد أدوات طيعة في يد الخليفة على غرار العلاقة بالجند.

عمل الناصر على دعم نفوذه الخارجي؛ فأرسل الحملات العسكرية إلى بلاد المغرب التي احتدم فيها الصراع الأموي الفاطمي من أجل السيطرة على هذا الجزء من العالم الإسلامي، ونجحت قرطبة في بسط هيمنتها على الثغور المغربية الهامة مثل سبته وأصيلة ومليلة، كما أصبح إرسال الصوائف والسرايا تقليدا ثابتا في سياسة قرطبة تجاه ممالك الشمال المسيحية.

كان عبد الرحمن الناصر "كثير الجهاد بنفسه، والغزو إلى دار الحرب إلى أن هزم في عام الخندق سنة 327هـ - 939م، ومنذ ذلك التاريخ "قعد عن الغزو بنفسه،

---

(1) نفسه - ج 1 ص 353.

وصار يردد الصوائف في كل سنة حتى أوطأ عساكر المسلمين من بلاد الإفرنج ما لم يطأوه قبل في أيام سلفه"[1]، كما أغار الأسطول الحربي البحري على سواحل بلاد الفرنجة والمناطق المخالفة حتى غدا الحوض الغربي للبحر المتوسط منطقة نفوذ أموي بلا منازع[2].

تمكن الناصر بفضل النشاط العسكري الذي قام به جيشه في البر والبحر من فرض هيبة الخلافة الأموية على بلاد الأندلس كما فرضها على الممالك الأوروبية ونتيجة لذلك "مدت إليه أمم النصرانية من وراء الدروب يد الإذعان، وأوفدوا عليه رسلهم وهداياهم من روما والقسطنطينية في سبيل المهادنة والسلم، والاعتمال فيما يعن في مرضاته."

لقد سعت دول أوروبا إلى كسب ودّ حاكم قرطبة، كما عمد حكام نصارى بلاد الأندلس إلى إعلان الطاعة له بهدف الحفاظ على الإمارات التي قام الأمراء بإنشائها في أقصى شمال البلاد، ومن أجل ذلك "وصل إلى سدّته الملوك من أهل جزيرة الأندلس المتاخمين لبلاد المسلمين بجهات قشتالة وبنبلونة، وما ينتسب إليها من الثغور الجوفية؛ فقبلوا يده والتمسوا رضاه، واحتقبوا جوائزه وامتطوا مراكبه"[3].

استطاع عبد الرحمن الناصر بفضل الأعمال التي قام بها في المجال السياسي والعسكري أن يعيد إلى المجتمع الأندلسي وحدته السياسية، كما فرض هيبة الدولة على أعدائه من نصارى الأندلس، وعلى الأمم الأوروبية قاطبة، كما أن الانتصارات العسكرية التي حققها على مناوئية من المنتزين على الخلافة من جهة، وعلى الإمارات المسيحية من جهة أخرى، قد أدّت إلى انتشار الأمن والطمأنينة في ربوع العدوة

---

(1) المقري - نفح الطيب - ج 1 ص 353 - 354.

(2) محمد المنوني وأخرون - التاريخ الأندلسي من خلال النصوص - شركة النشر والتوزيع - الدار البيضاء - ط 1 - 1412هـ - 1991م - ص 39 - 40.

(3) نفح الطيب - ج 1 ص 354/
Watt W Montgomery - L'INFLUENCE de l'islam sur l'Europe Midievale - Lib Orientaliste - P Geuthner - Paris - 1974 p 57.

الأندلسية، وبالتالي إلى إقبال الناس على أعمالهم في جدّ ونشاط[1].

نتيجة لذلك نجح المسلمون في تحويل الأندلس إلى حديقة غناء حيث أدخلوا إليها طرقا جديدة في الري والزراعة، وعلى نقيض إسبانيا الحالية التي تكثر فيها الأراضي المهملة، فإنه لم يكن في الأندلس الإسلامية شبر واحد بدون استغلال، "وكان البرتقال والليمون والرّمان والقطن والأرز وقصب السكر من الثمار والنباتات التي عني المسلمون بزراعتها"[2].

وبلغ الإنتاج الفلاحي من الضخامة، والمساحات المزروعة والمسقية من الشساعة أن قيل أنّ الدولة الأموية بركت في وسط المرعى[3].

إضافة إلى الزراعة التي شهدت تطورا كبيرا، اهتم المسلمون بالصناعة حيث "عزّز آلاف من الحائكين والدباغين صناعات قطن وصوف وحرير وجلد مزدهرة، واكتسب السجّاد والبسط شهرة دولية، وكذلك اكتسبت سيوف طليطلة ودروعها الفولاذية الدقيقة المطعمة بالذهب والفضة مثل هذه الشهرة، ولقد ضاهت صناعة الخزف والزجاج في بلنسية أروع منتجات فارس وبلاد الشام في هذا الميدان"[4].

نتيجة للازدهار الاقتصادي، بلغ النمو الحضري ذروته، وتجلى ذلك في اتساع مختلف المدن الأندلسية حجما وكثافة ونشاطا، "وبينما كانت سائر بلدان أوروبا تتمرّغ في الأقذار والحطة، نعمت الأندلس بمدن نظيفة منظمة، ذات شوارع معبّدة ومضاءة، وكان في ميسور قرطبة وحدها أن تعتزّ بنصف مليون من السكان، وسبعمائة مسجد، وثلاث مائة حمام عمومي، وسبعين مكتبة عامة، وعدد كبير من دكاكين الوراقين"[5]،

---

(1) عبد الحليم عويس - ندوة الأندلس: الدرس والتاريخ - جامعة الأسكندرية - كلية الآداب - دار المعرفة الجامعية - 1414هـ - 1994م - ص337.

(2) روم لاندو - الإسلام والعرب - تعريب منير البعلبكّي - دار العلم للملايين بيروت - ط1 1962 م - ص 177.

(3) محمد المنوني وآخرون - التاريخ الأندلسي من خلال النصوص - ص 40.

(4) روم لاندو - الإسلام والعرب - ص 177.

(5) نفسه - ص 177.

كما تم تأسيس مدن جديدة مثل الزهراء التي جعلها الناصر عاصمة إدارية، والمرية التي جعلها قاعدة للأسطول البحري الأندلسي[1].

احتضنت هذه الحواضر من الدروب الحرفية والأسواق التجارية والفنادق والحمامات والمطاعم، ومختلف أنواع الخدمات ما يفصح عن حدوث نهضة تجارية وصناعية نموذجية.

كما ساهمت عملية إصلاح الطرق، وشق مسالك جديدة، وإقامة الجسور، وإصلاح ما تهدم منها في إرساء بنية تحتية متينة مركزها قرطبة، وشرايينها تغطي مجموع البلاد[2]، وبوفاة عبد الرحمن الناصر لدين الله، طويت ألمع صفحة في تاريخ العدوة الأندلسية.

لقد استقرت الخلافة في عهد الناصر على أسس ثابتة، وسحقت حركات الثورة والتمرد التي قام العرب والبربر والمولدون بها، وكادت تقضي على ملك بني أمية وعلى الوجود الإسلامي ككل في بلاد الأندلس، كما ردع الناصر أمراء النصارى الراغبين في توسيع ممالكهم على حساب دار الإسلام.

ونتيجة لذلك كله تمتعت البلاد بعهد من السلم والاستقرار والرخاء الذي لم يعرف المسلمون مثله قبل تاريخ تولي الناصر لسدّة الحكم.

أوضاع الأندلس على عهد الحكم المستنصر: ورث الحكم بن عبد الرحمن الذي اتخذ لقب المستنصر بالله من أبيه الناصر خلافة إسلامية قوية ممهدة، ونتيجة لذلك سارت الأمور مسيرتها في عهده.

لقد كان الحكم الثاني (350 - 366هـ/961 - 976م) خبيرا بشؤون الحكم والإدارة حيث سبق أن أشركه أبوه في تدبير أمور الدولة، كما استفاد من تجربة أبيه الذي حكم طيلة نصف قرن من الزمن[3].

---

(1) محمد المنوني وآخرون - التاريخ الأندلسي - ص 41.

(2) نفسه - ص 41.

(3) علي حسني الخربوطلي - الإسلام في حوض البحر المتوسط - دار العلم للملايين - بيروت - =

كان الحكم المستنصر "حسن السيرة، فاضلا، عادلا، مشغوفا بالعلوم، حريصا على اقتناء دواوينها، يبعث فيها إلى الأقطار والبلدان، ويبذل في أعلاقها ودفاترها أنفس الأثمان ونفق ذلك لديه، فحملت من كل جهة إليه حتى غصّت بها بيوته، وضاقت عنها خزائنه"[1].

رغم ميله للعلم ولاقتناء الكتب، إلاّ أن بلاد الأندلس ظلت تتمتع في عهده بالازدهار والرخاء حتى بلغ دخل الحكم الثاني ضعف دخل أبيه، كما غدت تجارة الأندلس على جانب كبير من الأهمية[2].

وبوفاته سنة 366هـ - 976م، بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الخلافة الأموية بالأندلس، ذلك أن هشام بن الحكم الذي خلف أبيه في حكم البلاد لم يكن له من الأمر شيء تقريبا بسبب صغر سنه من جهة، وسيطرة أمه على مقاليد الحكم في بداية عهده، وكانت في الأصل جارية بشكنسية من إقليم نابارة الواقع في أقصى شمال الأندلس من جهة أخرى.

كانت أم هشام، وتسمى صبح، تتمتع بنفوذ كبير داخل قصر قرطبة[3]، وعن طريقها ظهرت شخصية أخرى موهوبة لم تلبث أن سيطرت بدورها على الخليفة الطفل وأمّه، ويتعلق الأمر بشخصية محمد بن أبي عامر الذي مكن أسرته من الاستبداد بالحكم طيلة الفترة الممتدة ما بين سنتي 366هـ و399هـ/976 - 1008م.

أوضاع الأندلس في ظل الدولة العامرية: كان المنصور محمد بن أبي عامر "آية من آيات الله في الدهاء والمكر والسياسة، عدا بالمصاحفة على الصقالبة

=

ط1 1970م - ص120.

(1) أحمد مختار العبادي - في تاريخ المغرب والأندلس - ص 210.

(2) ابن الأبّار - الحلة السيراء - تحقيق حسين مؤنس - دار المعارف - القاهرة - ط2 1985م - ج1 ص200 - 201.

(3) ابن بسام الشنتريني - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - تحقيق د. إحسان عباس - الدار العربية للكتاب - ليبيا - تونس - ط2 1401هـ - 1981م - ق1 - م1 - ص60.

حتى قتلهم، ثم عدا بغالب على المصاحفة حتى قتلهم، ثم عدا بجعفر بن الأندلسي على غالب حتى استراح منه، ثم عدا بنفسه على جعفر حتى أهلكه، ثم انفرد بنفسه ينادي صروف الدهر، واستقام له أمره منفردا بسابقة لا يشاركه فيها غيره"[1].

نجح محمد بن أبي عامر بفضل مكره ودهائه في التخلص من كافة خصومه، وأصبح من جرّاء ذلك سيد الأندلس بلا منازع، ومن أجل إضفاء نوع من الشرعية على حكمه"، رتب الرتب وأظهر هيبة الخلافة، وقمع الشرك، وحضّ المسلمين عامة على الغزو"[2].

ولتنفيذ هذا البرنامج سعى المنصور إلى إيجاد قوة يستند إليها؛ فألغى النظام العسكري السائد بالأندلس، والمرتكز على الإقطاع القبلي، حيث تم توزيع القبائل العربية على الكور والمدن الأندلسية بعد انتهاء عملية الفتح، وأبيح لها حق استغلال الأراضي الواقعة تحت نفوذها، وجباية عطائها من أموال غلالها مقابل المساهمة في الحملات العسكرية التي يجردها حكام الدولة ضد النصارى، والمناوئين لهم من الفئات الاجتماعية المقيمة في دار الإسلام.

استبدل المنصور هذا النظام العسكري بنظام آخر يجعل الجيش كله وحدة نظامية متماسكة خاضعة لقيادته، ويضم هذا الجيش فرقا متعددة، تتألف كل فرقة من عناصر مختلفة كالعرب والبربر والصقالبة، وكل جندي فيه يتقاضى مرتبا شهريا تدفعه إليه الدولة حسب رتبته، وبفضل هذا النظام نجح الحاجب العامري في إزالة العصبية القبلية بين الفرق المختلفة المشكلة لقوة الأندلس العسكرية[3].

اعتمادا على هذا الجيش الذي تشكل عموده الفقري من البربر، غزا محمد بن

(1) ابن الخطيب - تاريخ إسبانية الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام - ص77/ ابن عذاري - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - تحقيق ج.كولان - إ ليفي بروفنسال - دار الثقافة - بيروت - ط2 - 1400 - 1980 ج2 ص286.

(2) عبد الله بن بلقين - كتاب التبيان - ص58.

(3) ر. دوزي - المسلمون في الأندلس - ترجمة حسن حبشي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - 1994م - ج2 ص 114.

أبي عامر الممالك المسيحية المتاخمة لحدود المسلمين الشمالية، وكانت له في كل عام غزوتان، وبلغ عددها في نهاية عهده نيفا وخمسين غزوة باشرها كلها بنفسه، ولم ينهزم في واحدة منها طوال حكمه الذي دام خمسا وعشرين سنة.

حارب المنصور في جبهات النصارى المتعددة، في قشتالة وليون ونابارة وقطلونيا، وأنزل بهذه البلاد خسائر فادحة، ووصل فيها إلى ما لم يصل إليه ملك من ملوك الإسلام السابقين، فدانت له جميع بلاد الأندلس شمالها وجنوبها[1].

كان من نتائج هذه الحملات أن اكتسب المنصور شعبية كبيرة، وزادت هيبته وسيطرته في داخل دار الإسلام وخارجها، حيث "ملأ الأندلس غنائما وسبيا من بنات الروم وأولادهم ونسائهم، وفي أيامه تغالى الناس بالأندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلي والدور، وذلك لرخص أثمان بنات الروم"[2].

إلى جانب حركة الجهاد التي قام بها ضد نصارى العدوة الأندلسية، سار المنصور على خطى سياسة عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر التي تقوم على ضرورة وضع العدوة المغربية تحت السيطرة الأندلسية لتكون خط دفاعها المتقدم في مواجهة الخطر الفاطمي، ونجح الحاجب في ذلك نجاحا كبيرا لم يبلغه لا من سبقه ولا من جاء بعده من حكام الأندلس، إذ دخلت في طاعة الأمويين كل البلاد المغربية الممتدة جنوبا إلى سجلماسة سنة 369هـ - 980م، وإلى ولايتي تلمسان وتاهرت شرقا سنة 381هـ - 991م[3].

لم يكتف حاجب هشام المؤيد بالنشاط العسكري فقط، بل كان له نصيب وافر في البناء والتشييد، إذ يعود إليه الفضل في بناء مدينة جديدة أطلق عليها اسم الزاهرة، وكانت قريبة من العاصمة الأندلسية، وبعد الانتهاء من تشييدها، "انتقل إليها بأهله

(1) أحمد مختار العبادي - نفس المرجع - ص 231/ النويري - نهاية الأرب - ص 123.

(2) عبد الواحد المراكشي - المعجب في تلخيص أخبار المغرب - تحقيق سعيد العريان وم. العربي العلمي - دار الكتاب - الدار البيضاء - ط7 - 1978م - ص60 - 61.

(3) العبادي - نفسه - ص 234.

وولده وحواشيه"[1]، كما قام بتوسيع المسجد الجامع بقرطبة، إضافة إلى بناء القناطر على نهري الحضرة وإستجة[2] (الوادي الكبير ورافده نهر شنيل).

كانت حياة محمد بن أبي عامر المنصور نشاطا متواصلا دام خمسا وعشرين سنة وأربعا وأربعين يوما[3]، قضاها كلها في جهاد النصارى المتاخمين لحدود دار الإسلام الشمالية، وفي البناء والتشييد، وقد ختم حياته بغزوة إلى بلاد جليقية سنة 392هـ، ورغم اشتداد وطأه المرض عليه إلاّ أنه استمر في قيادة جنده طيلة أربعة عشر يوما[4]، وفاضت روحه بمدينة سالم في 27 رمضان سنة 392هـ ليلة 11 أوت 1002م[5]، ولله درّ من قال فيه:

آثاره تنبيك عن أخباره   حتى كأنك بالعيون تراه
تالله ما ملك الجزيرة مثله   حقا ولا قاد الجيوش سواه[6]

لم يغب المنصور محمد بن أبي عامر عن الساحة السياسية في العدوة الأندلسية دون أن يترك حضورا في المؤسسة التي أقامها، وارتبطت به إلى حدّ كبير، ذلك أن منصب الحجابة الذي هيمن من خلاله على الخلافة الأموية، ومن ورائها على دار الإسلام بالأندلس لمدة تزيد عن ربع قرن تجاوز معه حدود هذا المنصب السياسي بحيث تحول إلى دولة مستقلة لها ملامحها الخاصة، ولذلك جاء الابن الأكبر للمنصور عبد الملك المظفر إلى الحكم، وكأنه يتلقى حقا طبيعيا اكتسبه بالوراثة، أما الخليفة الشرعي الذي لم يعد طفلا؛ فإنه لا يزال يعيش بأحلام الطفولة في سجنه المترف، غير

(1) النويري - نهاية الأرب - ص 123.
(2) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - القسم الثاني - ص 76/ المقري - نفح الطيب - ج 1 ص 408 - 409.
(3) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 301.
(4) ابن بسام - الذخيرة - ق4 م 1 ص 73 - 74.
(5) E. Lévi Provençal - opcit TII P 254 - 255.
(6) نفسه - ج 2 ص 301/ وجاء البيت الثاني مختلفا عند كل من النويري والمقري وهو:

تالله لا يأتي الزمان بمثله أبدا   ولا يحمي الثغور سواه

(نهاية الأرب - ص 124/ نفح الطيب - ج 1 ص 398.).

شاعر بما يجري من حوله[1].

كان عبد الملك بن محمد بن أبي عامر نسخة شبيهة بصورة أبيه في إدارة أمور الخلافة، حيث افتتح عهده بإسقاط سدس الجباية على الرعية في كافة أنحاء البلاد، ونتيجة لذلك "أحبه الناس سرّا وعلانية، وانصبَّ الإقبال والتأييد عليه انصبابا لم يسمع بمثله"، كما حرص على إظهار العدل، وحماية الشرع، ونصرة المظلوم، وقمع أعداء الدين، وفي عهده بلغت الأندلس" إلى نهاية الجمال والكمال وسعة الحال"[2].

سار عبد الملك المظفر على سياسة والده المنصور في مجال الجهاد ضد ممالك النصارى في بلاد الأندلس، حيث غزا بلادهم سبع غزوات[3]، وأوغل في أراضي برشلونة وقشتالة حتى أجبر حكّامها على الصلح والمهادنة، ولم يلبث هؤلاء الحكّام أن اعترفوا بسلطانه، واحتكموا إليه فيما نشب بينهم من خلاف[4].

كما واصل خليفة المنصور سياسة أبيه في تعمير البلاد التي يتم استرجاعها من العدو المتاخمة حدوده لأراضي المسلمين، ويؤكد ذلك ابن عذاري حين يقول: "وعهد الحاجب المظفر وقت الفتح إلى المسلمين ألاّ يحرقوا منزلا ولا يهدموا بناء لما ذهب إليه من إسكان المسلمين فيه"، ولتأكيد نيته في ذلك الأمر "شرع للوقت في إصلاحه - أي الحصن الذي تم فتحه - ونادى في المسلمين من أراد الإثبات في الديوان بدينارين في الشهر على أن يستوطن في هذا الحصن فعل، وله مع ذلك المنزل والمحرث؛ فرغب في ذلك خلق عظيم، واستقروا به في حينهم"[5].

---

(1) إبراهيم بيضون - الدولة العربية في إسبانيا - دار النهضة العربية - بيروت - ط 3 - 1406هـ - 1986م - ص 335.

(2) ابن بسام - الذخيرة - ق4 م1 ص78/ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 84 - 85/ابن عذاري - البيان المغرب - ج3 ص3/النويري - نهاية الأرب - ص125.

(3) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 3 ص 3/ ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 87 ويقول النويري إنه غزا الروم ثماني غزوات (نهاية الأرب - ص 125).

(4) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 87.

(5) ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 7.

اتبع عبد الملك أيضا سياسة أبيه الحازمة في العدوة المغربية، وانعكس ذلك على زعماء زناتة الذين سارعوا إلى مبايعته، والدعاء له وللخليفة الأموي هشام المؤيد على المنابر[1].

لقد نجح المنصور محمد بن أبي عامر وابنه عبد الملك في البلوغ ببلاد الأندلس الإسلامية إلى أوج القوة والكمال من خلال ما قاما به من أعمال كانت على نسق ما قام به عبد الرحمن الناصر في مستهل هذا القرن الرابع الهجري، ومع ذاك فقد بدأت بوادر الانتقاض والتمرد في الظهور بمجرّد وفاة المنصور سنة 392هـ - 1002م، ذلك أن المظفر قد اضطر إلى معاقبة "بعض الفتيان العاصين، وأخرج بعضهم إلى سبتة، فما قفلوا عنها إلاّ عند وثوب المهدي بن عبد الجبار على الدولة العامرية"[2].

وجاء آخر أفراد البيت العامري ليوفر الذرائع لبني أمية كي يثوروا ضد الخليفة هشام المؤيد، ويستولوا على سدّة الخلافة بقرطبة، وذلك بسبب تهوّره وإقدامه على طلب ولاية العهد له من قبل الخليفة الأموي[3]، وهو الأمر الذي لم يتجرأ على طلبه لا المنصور ولا ابنه عبد الملك رغم ما قاما به من أعمال، وما حققوه من قوة وتطور للعدوة الأندلسية.

إن طلب ولاية العهد الذي أجبر الخليفة على منحه للحاجب عبد الرحمن شنجول سيكون بداية الانتقاض والثورة بقرطبة، وبالتالي دخول الأندلس في دوّامة الاقتتال والتدمير الذاتي الذي يطلق عليه بعض المؤرخين الأندلسيين اسم "الفتنة البربرية".

وقبل التطرق إلى موضوع الفتنة التي حدثت بالأندلس، وأسبابها المختلفة ومراحلها الدامية ونتائجها، سنحاول التعرف على أوضاع البربر بالأندلس خلال الفترة السابقة لقيام الفتنة أي خلال القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وذلك من أجل

---

(1) أعمال الأعلام - ص 84/ المقري - نفح الطيب - ج 1 ص 423/ العبادي - نفسه - ص 249.
(2) ابن بسام - الذخيرة - ق 4 م 1 ص 78.
(3) محمد المنوني وآخرون - التاريخ الأندلسي من خلال النصوص - ص 42.

محاولة فهم موقفهم من الفتنة، وإدراك الدور الذي قاموا به في أحداثها، ومن ثمّ محاولة إثبات أو نفي التهمة التي ألصقت بهم، والمتمثلة في تحميلهم لوحدهم مسؤولية ما جرى بالعدوة الأندلسية خلال الربع الأول من القرن الخامس الهجري، وبخاصة من طرف المؤرخ الأندلسي أبو مروان بن حيان القرطبي.

الباب الأول

البربر في الأندلس قبل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر ميلادي)

الفصل الأول: البربر بالأندلس: استقرارهم ومواطنهم.

الفصل الثاني: دور البربر العسكري ومكانتهم في الجهازين الإداري والقضائي بالأندلس.

الفصل الثالث: مساهمة البربر في الحركة العلمية والثقافية ومكانتهم الاقتصادية والاجتماعية في الأندلس.

الفصل الأول

البربر بالأندلس: الاستقرار والمواطن

1 - الهجرة والاستقرار

2 - أهم المواطـن

تمهيد

إن المتتبع لتاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط يلاحظ ظاهرة هامة تتمثل في التبادل السكاني بين ضفتية، الشمالية المتمثلة في جنوب أوروبا، والجنوبية المتمثلة في بلاد المغرب، وهو الأمر الذي شهدته بوضوح منطقة حوض المتوسط الغربي مع وصول الطلائع الأولى للفتح الإسلامي إلى بلاد الأندلس، حيث ازدادت الهجرة بشكل ملفت للانتباه من الجنوب إلى الشمال.

أعقب الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس سنة 92هـ - 711م انطلاق هجرة كثيفة من بلاد المغرب، وتتكون في أغلبيتها الساحقة من البربر، واستمرت هذه الظاهرة طيلة الوجود الإسلامي بهذه المنطقة، ويؤكد ذلك جلّ المؤرخين الذين تطرقوا إلى دراسة وتأريخ الأحداث التي عاشتها العدوة الأندلسية في ظل التواجد الإسلامي.

ومن هؤلاء ليفي بروفنسال الذي يقول: "استمرّ تيار الهجرة من المغرب نحو إسبانيا بشكل منتظم"[1]، ويؤيده في ذلك حسين مؤنس حين يقول: "أما البربر فقد كان تيار هجرتهم متصلا"،[2] وهو نفس الرأي الذي يذهب إليه خالد الصوفي الذي يقول: "كانت الهجرات البربرية من إفريقيا الشمالية نحو الأندلس في تجدد دائم، لا تنقطع أبدا."[3]

إن هذه الأراء وغيرها تتفق حول ظاهرة الهجرة البربرية المستمرة نحو بلاد الأندلس على الرغم من أنها لا تمدنا بالتفاصيل الدقيقة عن أهم الهجرات، ولا عن تاريخ حدوثها، والأسباب الكامنة وراءها، لأن أصحابها لم يفردوا هذه القضية بدراسة

---

(1) Levy Provençal - l'Espagne Musulmane au 10eme siècle - ed. larose - Paris - 1932 - p 10.

(2) د. حسين مؤنس - فجر الأندلس - الدار السعودية للنشر والتوزيع - جدّة - الطبعة الثانية - 1405هـ - 1985م - ص379.

(3) خالد الصوفي - تاريخ العرب في إسبانيا - المطبعة التعاونية - دمشق - 1959م - ص33.

خاصة، وإنما اكتفوا بالحديث عنها في سياق دراسات عامة أنجزوها حول التاريخ الأندلسي بصفة عامة، ومرحلة الفتح على وجه الخصوص، إلاّ أننا وبالاعتماد على المصادر التاريخية والكتب الجغرافية وكتب الأنساب والتراجم يمكننا التعرف على أهم الهجرات التي قام بها المغاربة إلى بلاد الأندلس، وتاريخ قيامهم بها، وأهميتها من حيث عدد المشاركين فيها.

إن الباحث في مسألة الهجرة البربرية إلى الأندلس يواجه الكثير من الصعوبات نظرا لعدم وجود مؤلفات خاصة بهذا الموضوع سواء منها تلك التي أنجزت في العصور الوسطى، أو تلك التي دونت في العصور اللاحقة لها، ومع ذلك فإن استمرار الهجرات البربرية يسمح لنا بالتعرف على الفترات البارزة لهذه الظاهرة، والدوافع الكامنة وراءها والنتائج المترتبة عنها.

يتفق جلّ المؤرخين على تقسيم تاريخ الأندلس في ظل الوجود الإسلامي إلى عدد من العصور البارزة، وبالاعتماد عليها سنعمل على إبراز المحطات الرئيسة التي مرت بها الهجرات البربرية إلى العدوة الأندلسية، وسنخصص عنصرا مستقلا لفترة الفتح باعتباره نقطة انطلاق لهذه الظاهرة حيث شهد حركة سكانية كبيرة بين العدوتين، وسيكون لها الأثر الكبير في تشكيل الخريطة السكانية لبلاد الأندلس في ظل الحكم الإسلامي.

هجرة واستقرار البربر بالأندلس:

الهجرة والاستقرار في مرحلة الفتح: (92 - 95هـ/711 - 714م) بدأت هجرة المغاربة مع انطلاق عملية الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس، وتتكون الموجه الأولى من الدفعة التي قادها الفاتح البربري، واسمه الكامل كما أورده ابن عذاري نقلا عن صالح بن أبي صالح: هو "طارق بن زياد بن عبد الله بن رفهو بن ورفجّوم بن ينزغاسن بن ولهاص بن يطوفت بن نفراو"، ويضيف مؤلف كتاب البيان المغرب قائلا: إن " الأكثرون من المؤرخين يرون أنه بربري من نفزة."[1]

(1) ابن عذاري المراكشي - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - ج 2 ص 5.

إن الحملة التي قادها طارق بن زياد هي التي قامت بالدور الرئيس في فتح الأندلس، ونشر الإسلام في ربوعه، وقد اختلف المؤرخون في تحديد أعداد البربر الذين شاركوا فيها؛ فمنهم من جعل عدد المشاركين يقل عن ألفين، ومثال ذلك ابن قتيبة الدينوري الذي يقول: "فسار طارق في ألف رجل وسبع مائة، وذلك في شهر رجب سنة ثلاث وتسعين،"[1] ومنهم من قدّر عدد المشاركين في الحملة بعشرة آلاف وثلاثمائة رجل، ومثال ذلك ابن خلدون الذي يقول: "وأجاز البحر أي طارق سنة اثنتين وتسعين من الهجرة بإذن أميره موسى بن نصير في نحو ثلاثمائة من العرب، [واحتشد][2] معهم من البربر زهاء عشرة آلاف."[3]

ولكن الأغلبية من المؤرخين يتفقون على تحديد عدد البربر الذين شاركوا في الحملة التي قادها طارق بن زياد باثني عشر ألف رجل، ومن هؤلاء الطبري الذي يقول وهو يتحدث عن سنة اثنتين وتسعين "وفيها غزا طارق بن زياد مولى موسى بن نصير الأندلس في اثني عشر ألفا "[4]، ويورد ابن الأثير العبارة نفسها دون تغيير[5]، ومنهم مؤلف أخبار مجموعة الذي يقول: "فتوافى المسلمون بالأندلس عند طارق اثنا عشر ألفا".[6]

---

(1) ابن قتيبة الدينوري - الإمامة والسياسة - تحقيق خليل المنصور - دار الكتب العلمية - بيروت - ط 1 - 1418هـ - 1997م - ج 2 ص 237.

(2) في الأصل: "وانتهب"، ولا معنى لها في سياق الكلام والتصويب من المقّري التلمساني - نفح الطيب - ج1 ص233.

(3) ابن خلدون عبد الرحمن - العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر - دار الكتاب اللبناني - مكتبة المدرسة - بيروت - 1983م - ج7 ص254.

(4) الطبري أبو جعفر - تاريخ الرسل والملوك - تقديم ومراجعة صدقي جميل العطار - دار الفكر - بيروت - الطبعة الأولى - 1418هـ - 1998م - ج8 ص35.

(5) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الخامسة - 1405هـ - 1985م - ج4 ص119.

(6) مجهول - كتاب أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها - تحقيق وتعليق إسماعيل العربي - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - 1989م - ص 98.

ويؤيد هؤلاء ابن عذاري حيث يقول: "وكان اجتمع لطارق اثنا عشر ألفا من البربر، فأجمع طارق على غزو الأندلس"،[1] ويدعم هذا الرأي عدد مهم من الباحثين المعاصرين، ومنهم عبد الرحمن علي الحجي الذي يقول: إن "موسى بن نصير جهز جيشا من سبعة ألاف جندي من المسلمين البربر، ليس فيهم من المسلمين العرب إلا العدد القليل، واختار طارق بن زياد - والي طنجة - قائدا لهذه الحملة التي تلتها - فيما بعد - نجدة من خمسة آلاف بقيادة طريف بن مالك،"[2] وحسين مؤنس الذي يقول: إن طارقا" عبر في رجب سنة 92هـ (أبريل - ماي 711م) مضيق جبل طارق في قوة يقدر عددها بسبعة ألاف معظمهم من البربر، وفيهم عدد قليل من الموالي، وعدد أقلّ من العرب الحلفاء"، وعند توصله بأخبار الجيش الكبير الذي جمعه لذريق ملك القوط لمواجهة المسلمين، طلب طارق مزيدا من الجند"؛ فأرسل له موسى خمسة ألاف أخرى، وبهذا أصبح جيشه اثنا عشر ألفا"،[3] والمستشرق الهولندي دوزي الذي يقول: "ولم يفعل موسى والعرب أكثر من جني ثمار النصر الذي أصابه طارق وبربره الإثنا عشر ألفا على جيش القوط الغربيين."[4]

من خلال ما أورده هؤلاء المؤرخين القدامى والمعاصرين يتبين لنا أن أعداد المشاركين في فتح الأندلس من البربر كانت تزيد بأضعاف على أعداد العرب، ولم تقتصر هذه الأعداد على من شارك في حملة طارق بن زياد فحسب؛ بل إن تيار الهجرة البربرية تواصل بعد ذلك، وبخاصة عقب الفتح مباشرة، وهو الأمر الذي يؤكده المقّري نقلا عن الرازي الذي يقول: "وتسامع الناس من أهل برّ العدوة بالفتح على يد طارق بالأندلس وسعة المغانم فيها، فأقبلوا نحوه من كل وجه، وخرقوا البحر على كل ما

---

(1) ابن عذاري المراكشي - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - ج2ص 6.

(2) عبد الرحمن علي الحجي - التاريخ الأندلسي - دار القلم - دمشق - الطبعة الرابعة - 1415هـ - 1994م - ص 46 - 47.

(3) حسين مؤنس - موسوعة تاريخ الأندلس - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة - الطبعة الأولى - 1416هـ - 1996م. ج 1 ص 17 - 18.

(4) رينهارت دوزي - تاريخ مسلمي إسبانيا - ج1 - ص 156.

قدروا عليه من مركب وقشر، فلحقوا بطارق."[1]

إلى جانب تواجدهم بأعداد كبيرة في حملة طارق بن زياد، شارك البربر في الجيش الذي قاده موسى بن نصير سنة 93هـ - 712م، ولا تعطينا المصادر التاريخية عدد الذين شاركوا فيه من المغاربة حيث يكتفي ابن خلدون بالقول: "ونهض أي موسى من القيروان سنة ثلاث وتسعين في عسكر ضخم من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر"[2]، بينما يذكر ابن عذاري أن "موسى بن نصير خرج في عشرة آلاف من إفريقية"[3] نقلا عن الرازي دون ذكر إنتماءات هؤلاء المشاركين العرقية، أما عبد الواحد المراكشي فيكتفي بالقول: إن موسى "خرج متوجها إلى الأندلس، واستخلف على القيروان ابنه عبد الله، وذلك في رجب من سنة 93هـ، وخرج معه حبيب بن أبي عبيدة الفهري"، إضافة إلى نفس الفئات التي ذكرها ابن خلدون[4]، ويضاف إلى هؤلاء المؤرخين صاحب كتاب "ذكر سبب فتح الأندلس وأمرائها"، حيث يقول: "دخل موسى الأندلس ومعه ثمانية عشر ألفا من قريش والعرب ووجوه الناس"[5]، ولعل وجوه الناس في قوله هذا تقابل "عرفاء البربر" الواردة في كتابي المعجب والعبر.

من خلال هذه النصوص التاريخية، يتبين لنا جليا أن حملة موسى بن نصير كانت في معظمها مؤلفة من العرب، وكأنها جاءت بهدف إيجاد توازن بشري (عددي) بين العرب والبربر في بلاد الأندلس، ويدل على ذلك ما أوردته المصادر التاريخية، وبخاصة المتعلقة منها بالفتوحات الإسلامية حول الخلاف الذي حدث بين موسى بن

(1) المقّري - نفح الطيب - ج 1 ص 259.
(2) ابن خلدون - العبر وديوان المبتدأ والخبر - ج 7 ص254.
(3) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 13.
(4) عبد الواحد المراكشي - المعجب في تلخيص أخبار المغرب - تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي - دار الكتاب - الدار البيضاء - ط7 - 1978م - ص22.
(5) مجهول - كتاب ذكر سبب فتح الأندلس وأمرائها - تحقيق لويس مولينا - المجلس الأعلى للأبحاث العلمية - مدريد - 1994م - ص 24.

نصير وطارق بن زياد، والذي تجلى في تأنيب موسى لقائده الذي توغل في العدوة الأندلسية دون إذن والي بلاد المغرب، ومن المؤرخين الذين ذكروا ذلك البلاذري حيث يقول: "أن موسى بن نصير كتب إلى طارق كتابا غليظا لتغريره بالمسلمين، وافتتانه عليه بالرأي في غزوه، وأمر أن لا يجاوز قرطبة"[1]، وابن عبد الحكم الذي يقول: إن موسى "خرج مغيظا على طارق".[2]

ومؤلف كتاب "ذكر سبب فتح الأندلس" الذي يقول: إن موسى "أظهر ما بنفسه عليه وقنعه السوط ووبخه"[3]، ومؤلف كتاب "أخبار مجموعة" الذي يقول: "فوضع موسى السوط على رأسه، ووبّخه فيما كان من خلاف رأيه."[4]

إن هذه النصوص التاريخية كلها تؤكد وجود خلافات بين عنصري الفتح الإسلامي منذ خطواته الأولى، ومردّها في البداية إلى رغبة الوالي العربي في احتكار شرف الفتح ونتائجه دون غيره، وبخاصة إذا كان هذا الغير من عنصر مختلف، ويؤكد ذلك الكثير من الأحداث التي وقعت خلال عملية الفتح أو بعدها.

من خلال النصوص التاريخية السابقة وغيرها، يمكن استنتاج الدوافع التي جعلت أعدادا كبيرة من البربر والعرب يلتحقون بحملات الفتح التي قادها كل من طارق بن زياد وموسى بن نصير، ويأتي في مقدمتها الرغبة في المشاركة في الجهاد من أجل نشر الدين الإسلامي في ربوع هذه البلاد، وهي المهمة التي كلّف بها المسلمون منذ بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، ويضاف إليها كثرة الغنائم التي جناها الفاتحون الأوائل، وحفّزت الآخرين على الإلتحاق بهم، واتساع الأراضي وخصوبتها، وتوفر المياه وغزارتها بالمناطق المفتوحة من بلاد الأندلس.

---

(1) البلاذري - فتوح البلدان - تحقيق عبد الله أنيس الطبّاع - عمر أنيس الطباع - منشورات مؤسسة المعارف - بيروت - 1407هـ - 1987م - ص323.

(2) عبد الرحمن بن عبد الحكم - فتوح إفريقية والأندلس - تحقيق عبد الله أنيس الطباع - مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني - بيروت - 1964م - ص76.

(3) مجهول - فتح الأندلس - ص 25.

(4) مجهول - كتاب أخبار مجموعة - ص 103.

على غرار نظرائهم القدامى، يجمع المؤرخون المعاصرون أيضا على تشكيل العرب لأغلبية الجيش الذي قاده موسى بن نصير[1]، ويشذّ عنهم محمد عبد الله عنان الذي يقول: إن والي المغرب قد "عبر البحر إلى إسبانيا في عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر"[2]، ولا يذكر المصادر التي اعتمد عليها فيما ذهب إليه، ومع ذلك يمكن الاعتماد على ما جاء به هذا المؤرخ بالنظر إلى الكمّ الضخم من المصادر، وبخاصة المخطوطة منها التي اعتمد عليها من أجل إنجاز موسوعته الموسومة بـ"دولة الإسلام في الأندلس"، ومهما يكن من أمر؛ فإنه من المستبعد أن لا يشارك البربر؛ وبأعداد وفيرة في هذه الحملة، وذلك لأسباب عديدة سنذكرها لاحقا.

هناك سؤال طالما أرّق المؤرخين، وهو هل استصحب الفاتحون أسرهم معهم أم لا؟ لأن الإجابة عليه كفيلة بإرشادنا إلى العدد التقريبي للذين استقروا في الأندلس من العرب والبربر. وقد أولى هذا الموضوع الأستاذ بيير قيشار عناية خاصة، وبعد تحليله للمسألة يقول المؤرخ الفرنسي: "إن تقاليد الجيش الإسلامي في هذا العصر كانت تقتضي مرافقة أسرة المجاهد له، ولكن هذه العملية لم تكن تتم إلاّ بعد انتهاء المجاهدين من عملية الفتح"[3]، ومعنى ذلك أن عدد البربر المقيمين ببلاد الأندلس سيتضاعف عدة مرّات في حالة حدوث مثل هذا الأمر، والذي يؤكد حدوثه فعلا هو احتفاظ البربر بلغتهم وأنظمتهم الاجتماعية وتقاليدهم، والتي لا يمكنهم الاحتفاظ بها لو تزاوج البربر بالإسبانيات، ويوجد ضمن المصادر الكثير من الأدلة التي تثبت احتفاظ البربر بهويتهم رغم اختلاطهم بالعناصر الأخرى المكونة للمجتمع الأندلسي، وسنورد بعضا منها في حينها.

---

(1) حسين مؤنس - فجر الأندلس - ص 90 - 91/أحمد مختار العبادي - في تاريخ المغرب والأندلس - ص70/عبد الرحمن علي الحجي - التاريخ الأندلسي - ص72.

(2) محمد عبد الله عنان - دولة الإسلام في الأندلس - العصر الأول - القسم الأول - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط4 - 1417هـ - 1997 م - ص 52.

(3) Pierre Guichard - Structures sociales orientales et occidentales dans l'Espagne Musulmane - Mouton Paris 1977 p 137 - 138.

الهجرة والاستقرار في عهد الولاة: (95 - 138هـ/714 - 755م):

استمرت هجرة البربر إلى بلاد الأندلس إلى غاية سنة 123هـ - 741م، وذلك باستمرار الفتوحات التي امتدت إلى ما وراء جبال البرتات، ومن حقنا أن نتساءل الآن عن الدوافع والأسباب الكامنة وراء هذه الهجرة المستمرة للبربر من بلادهم إلى العدوة الأندلسية، ويمكننا تحديد الدوافع الرئيسية لاستمرار هذه الهجرة بما يلي:

أ - **رغبة البربر في الجهاد ونشر الإسلام:** لقد شارك البربر في عمليات الفتح رغبة في الجهاد ونشر الإسلام في ربوع بلاد الأندلس، وبخاصة بعد استقرار الإسلام في صفوفهم، وفي ذلك يقول ابن خلدون نقلا عن أبي محمد بن أبي زيد القيرواني: "إن البربر ارتدّوا اثنتي عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة، ولم يستقر إسلامهم حتى أجاز طارق وموسى بن نصير إلى الأندلس، بعد أن دوخ المغرب وأجاز معه كثيرا من رجالات البربر وأمرائهم برسم الجهاد، فاستقروا هنالك من لدن الفتح."[1]

لقد استقر البربر في كافة نواحي الأندلس، وبخاصة في المناطق الشمالية المواجهة للنصارى، وهو ما يؤكد نية هؤلاء في الجهاد ونشر الإسلام، ويثبت تواجد المغاربة بهذه المناطق صاحب كتاب "أخبار مجموعة" حين يتكلم عن التفاف البربر لمواجهة المتربصين بهم من العرب، وبخاصة بلج بن بشر بن عياض القشيري الذي كان واليا على طنجة وما والاها، وذلك عقب ثورتهم سنة 123هـ - 741م فيقول: "إن البربر حشدوا من جليقية واشتورقة وماردة وقورية وطلبيرة، فأقبلوا في شيء لا يحصيه عدد حتى جازوا نهرا يقال له تاجة[2]، وتوجد هذه المناطق كلها في أقصى شمال الأندلس أي أنها التخوم المواجهة للإسبان الراغبين في طرد المسلمين واسترجاع بلادهم.

ب - **أسباب أخرى:** إلى جانب الدافع الديني، وهو السبب الرئيس الذي

(1) ابن خلدون عبد الرحمن - العبر - ج 11 ص 220.

(2) مجهول - أخبار مجموعة - ص 115.

جعل البربر يشاركون بكثافة في الحملات التي قادها الفاتحون الأوائل إلى بلاد الأندلس، نجد هناك أسبابا أخرى يمكن تلخيصها فيما يلي:

1 - غنى الأندلس وكثرة ثرواتها، وهو الأمر الذي يؤكده النص الذي أورده المقّري نقلا عن الرازي، والذي سبق أن ذكرناه، وأدى إلى استمرار عملية الهجرة البربرية نحو العدوة الأندلسية.

2 - تطلع البربر إلى تحسين أوضاعهم المادية بفضل ما تتمتع به بلاد الأندلس من ثروات طبيعية (أراضي زراعية، ثروة مائية، مناطق رعوية، ثروة معدنية).

3 - قرب بلاد الأندلس وسهولة الجواز إليها، ودليلنا في ذلك النص الوارد في كتاب نفح الطيب، والذي يدل على أن الإنسان بإمكانه اجتياز المضيق الفاصل بين المغرب والأندلس بأبسط الوسائل، وذلك في قوله: "وخرقوا البحر على ما قدروا عليه من مركب وقشر"[1].

وقد استمرت الهجرة البربرية إلى الأندلس مع استمرار عمليات الفتح التي وصلت إلى ما وراء جبال البرتات، والتي لم تتوقف مؤقتا إلاّ بعد هزيمة المسلمين في موقعة بلاط الشهداء سنة 114هـ - 732م.

توقف الهجرة البربرية: توقفت هجرة البربر إلى العدوة الأندلسية بعد سنة 123هـ - 741م، وذلك عقب تعرضهم إلى مطاردة عنيفة من قبل الجيوش الشامية بقيادة بلج بن بشر الذي انتقل إلى الأندلس بعد انهزام العرب الذين أرسلهم هشام بن عبد الملك (105 - 125هـ/724 - 743م) من أجل إخماد الثورة التي قام بها البربر ببلاد المغرب.

وتعود ثورة البربر إلى السياسة التي انتهجتها الدولة الأموية، والتي تقوم على مبدأ سيادة الجنس العربي، وتفضيله على من سواه من العناصر الأخرى، والذي نتج عنه حرمان أهل البلاد الأصليين رغم اعتناقهم الإسلام من المساواة السياسية والاجتماعية بالعرب، بل وفرضت عليهم الجزية كما حدث مع عبيد الله بن الحبحاب

---

(1) المقّري - نفح الطيب - ج 1 ص 259.

(والي إفريقية فيما بين سنتي117هـ و123هـ) في بلاد المغرب، واستغلّ الخوارج تذمر الأهالي من أجل نشر مذهبهم القاضي بعدم حصر الخلافة في بيت معين أو جنس محدد.

نتيجة لذلك قام البربر بثورة عامة بالمغرب الأقصى سنة 122هـ - 740م تحت قيادة زعيم قبيلة مطغرة الزناتية، ويدعى ميسرة المطغري، وانتصروا في معركة دارت بأحواز طنجة في نفس السنة، كما انتصروا على الجيش الشامي الذي قاده كلثوم بن عياض القشيري في موقعة بقدورة سنة 123هـ - 741م، وكان البربر في هذه المعركة تحت قيادة خالد بن حميد الزناتي.

لم ينج من هذه المعركة إلاّ تسعة آلاف رجل تمكنوا من دخول بلاد الأندلس بقيادة بلج بن بشر القشيري بعد قيام البربر هناك بثورة مماثلة عقب سماعهم للأخبار المتعلقة بثورة إخوانهم في المغرب، وانتصارهم على العرب.

ثار البربر بالأندلس لمسانده أخوانهم، وتأييد مطالبهم من جهة، ومن أجل تحسين أحوالهم السياسية والاجتماعية من جهة أخرى لأن ظروفهم بالأندلس لم تختلف كثيرا عن ظروف إخوانهم بالمغرب، ويعود ذلك أساسا إلى احتكار العرب للسلطة السياسية، ومن ثم استحواذهم على معظم ثروات البلاد، وإقصاء المغاربة من ذلك كله، وبخاصة منهم المتواجدين بالمناطق الشمالية القاحلة.[1]

ساعد بلج بن بشر القشيري عبد الملك بن قطن والي الأندلس (114 - 124هـ/732 - 741م) في محاربة البربر الذين اقتدوا بإخوانهم في بلاد المغرب، وثاروا "ضد العرب، وظهروا على الساكنين منهم بجليقية واشتورقة والمدائن التي

---

(1) أبو بكر بن القوطية - تاريخ إفتتاح الأندلس - ص28 - 29/ مجهول - أخبار مجموعة - صص 110 - 115/مجهول - فتح الأندلس - صص51 - 53/ابن عذاري - البيان المغرب - ج1 صص52 - 56/أحمد مختار العبادي - في تاريخ المغرب والأندلس - صص 86 - 88 /إبراهيم بيضون - الدولة العربية في إسبانيا - دار النهضة العربية - بيروت - ط3 1406هـ - 1986م - ص 106وما بعدها.

خلف الدروب؛ فقاتلوهم واطردوهم لكثرتهم هنالك وقلة العرب"[1].

بدأ والي الأندلس بمساعدة بلج ورجاله بمحاربة "جمع من البربر اجتمعوا بشذّونة تحت قيادة رجل زناتي؛ فأبادوهم وأصابوا أمتعتهم ودوابهم"[2]، ثم "ساروا بأجمعهم إلى جهة طليطلة أين اجتمع معظم البربر؛ فهزمهم العرب، وقتلوا منهم في الهزيمة ألافا عند وادي سليط من أحواز طليطلة سنة 123هـ - 741م.[3]

ويلاحظ أن العرب باستثناء الأقلية المتمثلة في البلديين، وهم العرب الذين استقروا بالبلاد مع الفاتحين الأوائل، وتعايشوا مع إخوانهم من العناصر الأخرى بسلام قد أجمعوا على إبادة البربر، وهي الكلمة التي استعملها ابن عذاري المراكشي للدلالة عن الحقد الدفين الذي كان يكّنه هؤلاء العرب الشاميين لإخوانهم في الدين الإسلامي. ولم يكتفوا بذلك بل نجدهم يرتكبون ما هو أعظم وأدهى، فهذا ثعلبة بن سلامة، ويقال سلمة العاملي الذي ولي الأندلس في شوال سنة 124هـ - 742م يقوم بغزو من بقي من البربر والعرب البلديين المقيمين بماردة، ويقتل عددا كبيرا منهم في يوم العيد[4]، ولم يكتف بذلك بل "أقبل إلى قرطبة بعدد من السبي كثير - يقدره المؤرخون بنحو الألف - حتى نزل طرف المصارة من قرطبة ومعه الأسرى والسبي من عرب البلد والبربر، وهو يبيع السبي في النداء، ويعبث ويبطر؛ فكان يبيع الشيوخ والأشراف ممن ينقص لا ممن يزيد."[5]

نتيجة لهذه الحروب المستمرة بين العرب والبربر، شغل أهل الأندلس عن

---

(1) مجهول - فتح الأندلس - ص 52/مجهول - أخبار مجموعة - ص 114.

(2) ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص31/ مجهول - فتح الأندلس - ص53.

(3) ابن عذاري - نفسه - ج2 ص31/ مجهول - فتح الأندلس - ص 53.

(4) ابن عذاري - نفسه - ج2 ص33/مجهول - أخبار مجموعة - ص118 - 119/مجهول - فتح الأندلس - ص58/ابن القوطية - إفتتاح الأندلس - ص30، ويشذ عنهم ابن الأثير الذي يسميه ثوابة بن سلمة الحداني (الكامل في التاريخ - ج4 ص291، وابن خلدون الذي يسميه ثعلبة بن سلامة الجذامي (العبر - ج7ص259).

(5) ابن عذاري - نفسه - ج 2 ص 33.

عمارة بلادهم، وكانت جموع كثيرة من المغاربة وأعداد قليلة من العرب قد اشتغلت بفلاحة الأرض، وبعد الحرب العنيفة التي دارت بين الطرفين، وانتصار العرب على البربر، اشتدّ العرب في الانتقام منهم؛ فخاف من بقي من البربر، واضطروا إلى ترك البلاد، والإنصراف عن الزراعة[1]، وتبعا لذلك قلّ الخير، وعمّ الجوع وبخاصة بعد "المحل الذي عمّ الأندلس سنة 131هـ، وتمادى إلى سنة 136هـ."[2]

نظرا لكل هذه الأحداث، خلا الإقليم الواسع الممتد بين نهر الدويرو ونهر المنهو من سكانه المسلمين وأغلبهم من البربر، كما ذكر ذلك صاحب كتاب "فتح الأندلس"[3]، واستغلّ النصارى ذلك لاحتلال هذه المساحة حيث استفادوا من ظروف المسلمين القاسية؛ "فثار أهل جليقية على المسلمين، وغلظ أمر علج يقال له بلاي[4]؛ فخرج من الصخرة، وغلب على كورة استورش، ولما كانت سنة 133هـ هزمهم وأخرجهم عن جليقية كلها؛ فصار جلّهم إلى خلف الجبل، إلى اشتورقة حتى استحكم الجوع فاخرجوا - أي النصارى - المسلمين عن اشتورقة وغيرها."[5]

وهكذا فقدت دار الإسلام معظم المناطق التي سبق أن استولى عليها الفاتحون الأوائل، ولم يكن الخلف جديرا بالمحافظة عليها بسبب الصراعات والتطاحن البعيد عن مبادىء وأسس الدين الذي سبق أن وحدّ المسلمين، ومكّنهم من الانتصار على أعدائهم، والاستيلاء على أراضيهم، والنتيجة النهائية لكل ذلك هي أن "خرج أكثر الناس إلى طنجة وأصيلا (أزيلة) وريف البحر في العدوة."[6]

---

(1) حسين مؤنس - فجر الأندلس - ص 204.

(2) ابن عذاري - ج 2 ص 38.

(3) مجهول - فتح الأندلس - ص 52.

(4) بلاي (Pelayo): (114 - 133هـ/731 - 751م) هو بلاي بن فافلة دوق كنتبرية، من أهل اشتريش من جليقية، اجتمع النصارى حوله وعينوه ملكا عليهم؛ فأقام فيهم تسع عشرة سنة، وهلك سنة 133هـ/751م - حسين مؤنس - فجر الإسلام - صص331 - 333.

(5) مجهول - أخبار مجموعة - ص129/ ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص38.

(6) نفسه - ج2 ص38/ مجهول - أخبار مجموعة - ص 129.

الهجرة والاستقرار في عهد الإمارة (138 - 316هـ/755 - 929م): بعد توقف الهجرة البربرية إلى الأندلس خلال الفترة الأخيرة من عهد الولاة أي بعد سنة 123هـ - 741م نتيجة للمطاردة العنيفة التي شنّها بعض الولاة الأمويين على البربر، استؤنفت بداية من وصول عبد الرحمن بن معاوية، ويعود ذلك إلى أسباب سبق أن ذكرناها عند حديثنا عن الهجرة والاستقرار خلال عهد الولاة[1]، ويضاف إليها دافع جديد يتمثل في استخدام البربر في الجيش الأندلسي، ويعتبر السبب الرئيس الذي شجّع المغاربة على ترك بلادهم، والانتقال إلى الضفة المقابلة، وقد بدأ ذلك منذ أن وطئت أقدام مؤسس الإمارة الأموية أرض الأندلس.

كان عبد الرحمن بن معاوية إبنا لامرأة بربرية من قبيلة نفرة، وربما كان ذلك سببا في الجهود التي بذلتها العديد من القبائل البربرية لحمايتة من بطش عبد الرحمن ابن حبيب الفهري (والي إفريقية من سنة 126هـ إلى سنة 137هـ) طوال السنوات الأربع التي قضاها "صقر قريش" في أرض المغرب، "حيث حكى غير واحد - من المؤرخين - أنه لما هرب من الشام إلى إفريقية قاصدا الأندلس، نزل بمغيلة؛ فصار بها عند شيخ من رؤساء البربر يدعى وانسوس ويكنى أبا قرّة؛ فاستتر عنده وقتا."[2]

كما أن ثقته في البربر الذين عاشرهم خلال هذه السنوات، واختباره لشجاعتهم وبطولتهم جعلته يعتمد عليهم في استعاده أمجاد دولة أبائه وأجداده في الأندلس بعد ما قضى بنو العباس على الأمويين بالمشرق سنة 132هـ - 750م، خاصة وأن ذلك الأمر يتطلب قوة بشرية تتحلى بصفات الشجاعة والبطولة.

إضافة إلى البربر، اعتمد "صقر قريش" على العرب في إقامة دولته حيث "كتب إلى الأجناد كلها والبربر، فأجابته اليمن بأسرها، ولم يجبه من قيس إلا ثلاثة أفراد، ومن ثقيف عدد مماثل، وفي المقابل وقفت مضر كلها إلى جانب خصمه يوسف بن

(1) ينظر إلى ذلك في الصفحة 22 - 23.

(2) المقري - نفح الطيب - ج 1 ص 333.

عبد الرحمن بن حبيب الفهري[1] الذي ولاّه العرب على الأندلس سنة 129هـ - 748م وأطاعوه في أغلبيتهم.[2]

وبواسطة ما اجتمع إليه من العرب والبربر، سيعمل عبد الرحمن على تحقيق الهدف الذي جاء من أجله إلى هذه البلاد؛ "فلما دخل الأندلس، واستتب أمره به، سار إليه أبو قرّة وانسوس البربري فأحسن إليه وحظي عنده، وأكرم زوجته تكفات البربرية التي خبّأته عندما فتشت رسل ابن حبيب بيتها عنه"[3].

ومن المرجّح أن أبا قرّة وانسوس المغيلي لم يلتحق بضيفه السابق بمفرده إذ بحكم منصبه يكون قد اصطحب معه عددا من ابناء عشيرته، وبهم تدعم صف الأموي، كما تدعم بالتحاق غيرهم من البربر بصفوفه، ومنهم بنو الخليع الذين انضموا إليه بمجرد توصلهم بخبر دخوله إلى الأندلس، وأتوه في أربعمائة فارس، كما تبعهم في ذلك جد بني إلياس المغيلي في عدد كثير من بني عمومته[4]، وبايعه عبد الأعلى بن عوسجة وجميع أهل تاكُرُنّا وإبراهيم بن شجرة، كبير بربر كورة موررور مع أهلها[5]، وقام عبد الرحمن بن معاوية بتعيين هذا الأخير على رأس من انضوا تحت لوائه من المغاربة في موقعة المصارة (المسارة)[6].

استعان عبد الرحمن الداخل بالبربر الموالين له من أجل كسب ولاء إخوانهم الذين انضموا إلى الثائرين ضده ومنهم عبد الغفار، عامل يوسف بن عبد الرحمن، ويورد لنا ابن القوطية في هذا الشأن نصّا يدل على دور البربر في قيام الإمارة الأموية

(1) مجهول - أخبار مجموعة - ص 139.

(2) ابن الأبار - الحلة السيراء - ج2 ص 347 - 348/ ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 35 - 36.

(3) المقّري - نفح الطيب - ج 1 ص 333.

(4) ابن القوطية - تاريخ إفتتاح الأندلس - ص 36.

(5) مجهول - فتح الأندلس - ص 85 - 86/ حسين مؤنس - فجر الأندلس - ص 380.

(6) المصارة (المسارة): وتقع شمالي قرطبة، ويذكر لافوينتي القنطرا في قاموسه الجغرافي الذي ذيّل به ترجمته للأخبار المجموعة أن موضعها كان موضع طاحونة زيت (المصارة: المعصرة وبالإسبانية ALMAZARA - حسين مؤنس - فجر الأندلس - ص380.

بالأندلس من جهة، وعلى احتفاظ البربر بمقوماتهم الخاصة كاللغة مثلا من جهة أخرى.

يقول المؤلف: إن عبد الرحمن "أشرف على القوم، ويعني بهم جند يوسف بن عبد الرحمن، والي الأندلس، فلما كان بالعشي، ركب مع ثقات من مواليه ورجاله ونفر من العسكر؛ فسمع البربر يتكلمون في العسكر بالبربرية؛ فدعا بمواليه من البربر مثل بني الخليع وبني وانسوس وغيرهم، فقال لهم: خاطبوا بني عمكم وعظوهم وأعلموهم أنه إذا تغلب العرب"، ويعني بهم المناوئين لبني أمية، "وقطعوا دولتنا فلا بقاء لهم معهم"، وهو بذلك يذكر البربر بما جرى لهم على أيدي بلج بن بشر والشاميين عقب الثورة التي قاموا بها سنة 123هـ - 741م، ويحذرهم من مغبة عدم مساعدته في إقامة دولة تضمن لهم الأمن والاستقرار بالعدوة الأندلسية، وكان لذلك وقعه على البربر، حيث استجاب بنو الخليع وبنو وانسوس لطلب عبد الرحمن، وسيعملون على تنفيذه حينما يحين الوقت المناسب؛ "فلما أظلم الليل دنوا من المعسكر وخاطبوهم أي إخوانهم بالبربرية؛ فأجابوهم إلى ما أحبوه ووعدوهم"، وكان هؤلاء البربر عند وعدهم، ومن أجل الإلتزام بذلك، لجأوا إلى استعمال الحيلة من أجل الإنسحاب من صفوف الجيش المعادي لصقر قريش"، ذلك أنه لما أصبح الصباح، قالوا للعرب: إننا لا نحسن الحرب إلاّ فرسانا، فاحملوا من بقي منا على الخيل"، ولم يشك هؤلاء لحظة فيما كان يخطط له المغاربة، ولذلك زودوهم بالخيل اللازمة لحملهم، وكانت النتيجة أن "اخترقوا إلى عبد الرحمن، ووقعت الهزيمة على عبد الغفار، فذهب هو وذهب ممن معه ثلاثون ألفا، وانصرف عبد الرحمن وقد ظفر"[1]، وبذلك تخلص من أكبر المنافسين له، وأصبح بإمكانه وضع الأسس الأولى لملك بني أمية الجديد.

من خلال النص السابق نخرج بعدة استنتاجات منها انقسام العرب المقيمين بالعدوة الأندلسية بين مؤيدين لوالي الأندلس ومعظمهم من المضريين، ومؤيدين لصقر قريش وجلهم من اليمانية، وهو الانقسام الذي سيكون له دور كبير في الكثير من

---

(1) ابن القوطية - تاريخ إفتتاح الأندلس - ص 39.

الحروب التي ستقوم في البلاد، والتي ستكون لها عواقب وخيمة على المسلمين وعلى دار الإسلام.

ثاني استنتاج هو الدور الكبير الذي لعبه البربر في قيام الإمارة الأموية حيث كان هؤلاء بفضل الشجاعة والبطولة من جهة، والذكاء من جهة أخرى، حجر الزاوية في قيام ملك بني أمية من جديد.

بعد نجاحه في إقامة الدولة الأموية الجديدة بالأندلس، واجه عبد الرحمن بن معاوية صعوبات جمّة في الحفاظ على وجودها حيث "كثرت ثورات رؤساء العرب بالأندلس عليه ونافسوه ملكه، واستراب آخر أمره بالعرب لكثرة من قام عليه منهم"[1]، ولم يجد وسيلة تخلصه من معارضيه والطامحين من العرب في الوصول إلى سدّة الحكم سوى توجيه أمر "باشتراء المماليك من كل ناحية، فكان منهم في ديوانه من البربر والمماليك أربعون ألفا"[2]، ومن المرجح أن عدد البربر كان كبيرا على الرغم من أن المصادر لا تقدم لنا الأرقام المتعلقة بالمجندين عامة، وبالمغاربة على وجه الخصوص.

بفضل هذا الإجراء الذي اتخذه أمير الأندلس 156هـ - 773م "استظهر على الأندلس، وضعف أمر العرب، وغلظت الأموية عليهم"[3]، ويؤكد ابن خلدون هذا الأمر دون أن يحدد القبائل التي عمل عبد الرحمن بن معاوية على ضمها إلى الجيش الذي أنشأه حيث يقول: إنه "رجع إلى اصطناع القبائل من سواهم واتخاذ الموالي"[4]، ويقصد بعبارة "من سواهم" أنه تجنب القبائل العربية التي كانت تسبب له المشاكل الجمّة بوقوفها إلى جانب الثائرين ضده من زعمائها.

ومع ذلك لا ننفي وجود ثورات قادها بعض البربر ضد حكم عبد الرحمن بن

---

(1) ابن خلدون - العبر - ج7 ص 268 /المقّري - نفح الطيب - ج1 ص333.

(2) مجهول - فتح الأندلس - ص104/محمد عبد الفتاح شرف الدين - تاريخ السيادة الإسلامية على الأندلس - مكتبة الآداب - القاهرة - 1411هـ - 1990م - ص81.

(3) مجهول - فتح الأندلس - ص 104.

(4) ابن خلدون - العبر - ج7 ص268 / المقّري - نفح الطيب - ج1 ص333.

معاوية، من ذلك أن مكناسيا يدعى شقنا أو شقيا عبد الواحد، وكان معلما للصبيان قد ادعى أنه فاطمي، وآمن بدعوته أغلبية العناصر البربرية المقيمة في شمال شرق الأندلس، وقاد ثورة - بداية من سنة 151هـ - 768م - نجح من خلالها في إخضاع ماردة وقورية ومدلين انطلاقا من شنت برية الواقعة شمال شرقي طليطلة[1].

ولم يتخلص حاكم الأندلس منه إلاّ عن طريق البربر رغم الحملات العديدة التي قادها شخصيا ضده أو كلف قادته بها، حيث اغتاله اثنان من أصحابه أحدهما أبو معن داود بن هلال المديوني الزعيم البربري المنافس له، وذلك سنة 160هـ - 776م.[2]

ولكن الملاحظ هو أن ثورات البربر كانت نادرة الوقوع مقارنة بتلك التي كان العرب يقومون بها، وإذا كان المغاربة يثورون من أجل الاستقلال ببعض المناطق؛ فإن زعماء العرب كانوا يسعون إلى التخلص من الأمير باعتباره يمثل دولة لم يكونوا مستعدين للدخول في طاعتها، وعصبية رفضوا الإنصياع لها، ولذلك كان عدد المحاولات التي قام بها هؤلاء كثيرة جدا أحصى مؤلف أخبار مجموعة منها إحدى عشر ثورة في حين أن البربر لم يقوموا إلاّ بثورة واحدة فقط[3] طيلة حكم عبد الرحمن بن معاوية الذي دام ثلاثة وثلاثين عاما.

بفضل الجيش الذي ألفه من "البربر والمماليك"، نجح صقر قريش في توحيد الأندلس سياسيا، وتطويع الزعامات العربية التي كانت وراء هذا التمزق، والقضاء على طموحاتها، وذلك بقضائه على جميع محاولات الجنوح عن الحكم المركزي القائم في قرطبة[4].

إلى جانب عبد الرحمن بن معاوية الذي كان سببا في انتقال العديد من البربر

---

(1) ابن عذاري - البيان - ج2 ص80 - 81/مجهول - أخبار مجموعة - ص152 - 153/ابن الأثير - الكامل - ج5 ص605 / ابن خلدون - العبر - ج7 ص267.

(2) ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 - صص82 - 83/مجهول - أخبار مجموعة - ص155.

(3) مجهول - أخبار مجموعة - ص149 - 158.

(4) إبراهيم بيضون - الدولة العربية في إسبانية - ص205.

إلى العدوة الأندلسية والاستقرار بها، انتقل عدد آخر منهم إليها بفضل معارضي صقر قريش الذين اعتمدوا هم كذلك على سكان العدوة المغربية في تشكيل قوة تمكنهم من تحقيق طموحاتهم، ومن ذلك أن عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلبي أو بالقلعي قد دخل الأندلس قادما من إفريقية سنة 162هـ - 778م، وأعلن الثورة على أمير الأندلس انطلاقا من كورة تدمير في السنة الموالية معتمدا على جيش بربري[1]، وقد اغتاله رجل من البرانس من أهل أوريط يقال له شجعان، وأخذ خيله والتحق بالأمير الأموي[2].

وسيتكرر نفس الأمر في عهد الحكم بن هشام (180 - 206هـ/796 - 822م)، حيث خرج عليه عمه سليمان بن عبد الرحمن بن معاوية الذي عاد إلى الأندلس بعدما نفاه أخوه هشام عقابا له على معارضته لتوليه الحكم، وتنصيب نفسه أميرا في مدينة طليطلة التي كان واليا عليها في عهد أبيهما.

عاد سليمان بعد تسع سنوات من النفي إلى بلاده، وذلك سنة 183هـ - 799م رفقة جماعة من البربر، وحاول بمساعدتهم الوصول إلى تحقيق ما عجز عنه مع أخيه سابقا، ونتيجة لذلك دارت الحرب بينه وبين ابن أخيه، وانتهت بإنهزامه وقتله سنة 184هـ - 800م[3].

هجرة البربر واستقرارهم بالأندلس خلال القرن الرابع الهجري (10م): بلغت الهجرة البربرية إلى الأندلس أوجّها خلال القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، والأخبار المتعلقة بها متوفرة بكثرة في أمهات المصادر التاريخية وفي

---

(1) البيان - ج2 ص55/ العبر - ج7 ص268/ النويري - نهاية الأرب - ص166/ الكامل - ج5 ص 60 ويذكر أن العبور كان سنة 160أو 161هـ.

(2) مجهول - أخبار مجموعة - ص154/ البيان المغرب - ج2 ص83/ الكامل في التاريخ - ج5 ص60/ ابن خلدون - العبر - ج7 ص268.

(3) ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 صص63 - 70/ ابن خلدون - العبر - ج7ص 273/ ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 15 / ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج5 ص60 ويقول ان عودته الى الأندلس كانت سنة 182هـ، وذكر أنه قتل سنة 185هـ.

غيرها نظرا لتزامنها مع انطلاق التأليف التاريخي الأندلسي بشكل واسع، وبالتالي فإن المؤلفين من أمثال ابن حيان وابن حزم والعذري وغيرهم قد أوردوا لنا جملة من المعلومات المتعلقة بهذه الهجرات، والفترات التي تمت فيها، وفي أحيان كثيرة عدد الذين شاركوا فيها ونوعيتهم.

إن المعلومات الكثيرة المتوفرة لدينا تساعد المؤرخ بلا شك في رسم صورة واضحة للهجرة البربرية إلى العدوة الأندلسية، ومن خلالها يمكن دراسة الأوضاع التي عاشتها الأندلس الإسلامية خلال هذه الفترة الزمنية، والأحداث اللاحقة التي مرّت بها، والتي سيكون لها انعكاس مباشر على مصير هذا الجزء من الدولة الإسلامية.

إن الهجرة الكثيفة للبربر خلال هذا القرن تعود إلى أسباب عديدة سنتطرق إليها لاحقا، وقبل ذلك سنعمل على تتبع أبرز الهجرات، ولتسهيل ذلك قمنا بتقسيم القرن الرابع الهجري إلى ثلاث فترات رئيسية:

خصصنا الأولى للناصر عبد الرحمن، والثانية لابنه الحكم المستنصر الذي تحولت خلال عهده نظرة الأمويين إلى البربر، أما الثالثة فخصّصناها للمنصور بن أبي عامر الذي بلغت الهجرة البربرية ذروتها في عهده نظرا لاعتماده الكبير عليهم في تشكيل جنده وإدارة أموره، وينطبق نفس الأمر على أبنائه من بعده.

الهجرة والاستقرار في عهد عبد الرحمن الناصر: (300 - 350هـ/ 912 - 961م) شهد عهد عبد الرحمن الناصر بداية الصراع الفاطمي الأموي، وكان الهدف من هذا الصراع رغبة كل من الفاطميين والأمويين في فرض سيطرتهما على بلاد المغرب التي كانت مسرحا لحركة التوسع التي بدأها العبيديون، من ذلك أن مصالة بن حبّوس المكناسي الذي ولاه عبيد الله على تيهرت سنة 299هـ - 911م، قد استولى على نكور - وهي مدينة كبيرة مقابلة لمالقة من برّ الأندلس[1] - سنة 305هـ -

(1) أبو عبيد البكري - المسالك والممالك - تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري - الدار العربية للكتاب - بيت الحكمة - تونس - 1992م - ج2 ص764/مجهول - كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار - تحقيق سعد زغلول عبد الحميد - دار النشر المغربية - الدار البيضاء - =

917م، وانتهبها وقتل رئيسها سعيد بن صالح بسبب رفضه الدخول في طاعة الفاطميين[1].

نتيجة لذلك خرج بنو صالح فارين بأنفسهم إلى الأندلس، ونزلوا بمرسى مالقة، قاعدة ريّة ومنها إلى قرطبة أربعة أيام[2]، وبجانة التي كانت المدينة المشهورة قبل المرية، وعندما انتقل أهلها إلى هذه الأخيرة خربت وتبعد عنها بفرسخين[3].

اجتاز بنو صالح إلى العدوة الأندلسية؛ فعهد عبد الرحمن الناصر إلى رجاله بإنزالهم والتوسع عليهم، وخيّروا في القدوم إلى قرار السلطان أي قرطبة، أو الإقامة في ذلك المكان الذي نزلوا به؛ فاختاروا الإقامة بمالقة لقربها من بلدهم[4]، وبذلك كان بنو صالح أول البربر الداخلين إلى الأندلس، والمستقرين بها على أيام الناصر، ومع ذلك فقد اختاروا الاستقرار بمدينة تقابل بلدهم، وكأنهم يفكرون من البداية في العودة إلى وطنهم.

استمرت الهجرة البربرية إلى الأندلس بتشجيع من عبد الرحمن الثالث، وفي ذلك يقول ابن حيان: إن الخليفة الأموي عمل منذ سنة 317هـ - 930م على "اجتذاب كثير من فرسان البرابر وحماة رجالهم إلى حضرته"، ويعطينا المؤلف الدافع الكامن وراء ذلك فيضيف قائلا: إنه "استعان بهم في حروبه"، ونتيجة لذلك "قويت أسباب

=

1985م - ص 136.

(1) البيان المغرب - ج1 ص177 - 179/العبر - ج11ص273 - 274/جمال الدين سرور - سياسة الفاطميين الخارجية - دار الفكر العربي - القاهرة - 1994م - ص 219.

(2) الإدريسي - القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس - تحقيق إسماعيل العربي - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - 1983م - ص 297 - 298.

(3) نفسه - ص293/ياقوت الحموي - معجم البلدان - دار صادر - دار بيروت - بيروت - 1404هـ - 1984م - ج1 ص339.

(4) البكري - كتاب المسالك والممالك - ج2 ص771 - 772/ ابن عذاري - البيان المغرب - ج1 ص175.

ملكه وبعد صيته وهابته ملوك الأمم حوله"[1].

من المعروف أن عبد الرحمن بن محمد قد واجه في بداية حكمه الكثير من الثورات، ويؤكد ذلك النص الذي أورده المقّري حيث يقول: أنه "وجد الأندلس مضطربة بالمخالفين، مضطرمة بنيران المتغلبين"[2]، ومن أجل القضاء على الثوار، وإخماد النيران كان في حاجة إلى رجال أنجاد.

نجح الناصر بالاعتماد على جند الأندلس، والبربر الذين جلبهم من العدوة المغربية في تحقيق المهمة الأولى التي أولاها عنايته، حيث "أطفأ تلك النيران، واستنزل أهل العصيان"، ومن جرّاء ذلك "استقامت له الأندلس في سائر جهاتها."[3]

شهد عهد الناصر هجرات أخرى، ومنها هجرة جماعة من قبيلة ازداجة بعد تعرضها إلى هجوم قام به يعلى بن أبي محمد اليفرني، أمير بني يفرن وخليفة الناصر لدين الله على بلاد العدوة المغربية، ونجح من خلاله في امتلاك وهران وتاهرت سنة 343هـ - 954م، وعلى إثر ذلك "استلحم ازداجة، ولحق رئاستهم بالأندلس؛ فكانوا بها."[4]

كما هاجر إلى الأندلس حميد بن يصليتن، ويسميه ابن خلدون حميد بن يصل الذي خلف أباه في ولاية تاهرت التابعة للعبيديين، وخلافا لأبيه فقد دعا لخليفة قرطبة، وهو ما يعني أنه انتقض على المنصور، ثالث خلفاء الفاطميين الذي حاربه وانتصر عليه، ومن أجل تفادي انتقام حكام إفريقية "اجتمع مع بني خزر، أمراء جراوة على

(1) المقّري - نفح الطيب - ج 1 ص 353.
(2) نفسه - ج 1 ص 353.
(3) نفسه - ج1 ص 353.
(4) ابن أبي زرع الفاسي - الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس - دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط - 1972م - ص89 - 90 /ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص219 /ابن خلدون - العبر - ج11 ص295 /نفسه - ج13 ص36 - 37.

ولاية المروانية، ثم أجاز إلى الأندلس"[1].

وبهذه الجماعة الأخيرة اكتمل ما أوردته المصادر التاريخية وغيرها حول ظاهرة هجرة القبائل البربرية إلى بلاد العدوة الأندلسية، واستقرارهم بها على عهد أول حكام الخلافة الأموية بهذا الجزء من العالم الإسلامي.

الهجرة والاستقرار في عهد الحكم المستنصر: (350 - 366هـ/961 - 976م) شهد عهد الحكم بن عبد الرحمن الناصر الذي تولى الخلافة سنة 350هـ - 961م، توافد عدد كبير من البربر الذين تركوا بلادهم نتيجة للظروف الصعبة التي كانت تمر بها، وبخاصة خلال فترة الصراع المحتدم بين الأمويين والفاطميين من جهة، وبين القبائل البربرية من جهة أخرى، ويعود سبب هذا الصراع الأخير بالدرجة الأولى إلى الانقسام السياسي الذي ساد بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري، إذ دخلت بعض القبائل البربرية في طاعة دولة العبيديين القائمة في إفريقية، بينما دان البعض الآخر منها بالولاء لخلفاء بني أمية بالعدوة الأندلسية، ومن ثم فإن النزاع الذي قام بين قرطبة والمهدية سينعكس على البربر إذ سيجدون أنفسهم في خضم هذا الصراع في مقدمة صفوف المتناحرين على فرض السيادة على بلاد المغرب، أما بقية القبائل التي لم تخضع إلى أحد الطرفين المتصارعين فإنها كانت تسعى إلى حماية استقلالها، ومن ثم كانت مجبرة إما للتصدي للقبائل الراغبة في التوسع على حسابها، أو لمهاجمة هذه الأخيرة من أجل إبعاد الخطر عن حدودها، وفي كل الحالات فإن الطرف المنهزم من سكان العدوة المغربية كان يفضل الانتقال إلى الأندلس بحثا عن الأمن والاطمئنان على النفس والأهل.

بدأت الهجرة البربرية إعتبارا من سنة 360هـ - 970م، وذلك نظرا لحدوث أمور مستجدّة منها تعيين الفاطميين الذين انتقلوا إلى مصر للصنهاجي بلقين بن زيري نائبا عنهم في بلاد المغرب، وتزويده بجيش كبير، وتكليفه بفرض سيطرته على كامل

(1) ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 - صص212 - 213/ابن خلدون - العبر - ج11ص236 - 266/237.

بلاد البربر، وهو الأمر الذي سيشرع في تحقيقه بداية من سنة 361هـ - 971م، حيث توغل في أراضي زناتة وانتصر عليهم، وأجلاهم عن المغرب الأوسط، كما طاردهم إلى ما وراء نهر ملوية[1].

وفي نفس الفترة ثار زعيم الأدارسة الحسن بن جنون على الأمويين بعدما كان يواليهم قبل ذلك، حيث استغلّ فرصة الحملة التي قادها بلقين بن زيري على المغرب الأقصى للقيام بذلك، ونجح في الاستيلاء على طنجة وتطوان وأصيلا، واختار القلعة الحصينة المسماة بـ"قلعة النسر" الواقعة شمال شرقي القصر الكبير لتكون مقرا لقيادته[2].

نتيجة لذلك كله، دارت حروب طاحنة بين الأمويين والأدارسة من جهة، وبين القبائل الموالية لهم وقبيلة صنهاجة من جهة أخرى، وأمام هذه الأحداث الخطيرة التي أدّت إلى تقلص النفوذ الأموي في بلاد المغرب، وخروج بعض الثغور الهامة من أيدي حكام قرطبة، رأى الحكم بن عبد الرحمن أنه من الضروري أن يحافظ على أمن دولته وسلامتها، ولذلك لم يتوان في تعبئة جيوشه وأساطيله استعدادا لعبور المضيق، والذي شرع في تنفيذه بداية من سنة 361هـ - 971م[3].

أدت هذه الحروب أيضا إلى انعدام الأمن بالعدوة المغربية، ومن ثمّ فقد اضطر كثير من المغاربة إلى تركها، والالتجاء إلى الضفة المقابلة، والدخول في طاعة حكامها وخدمتهم، وأهم الهجرات التي قام بها البربر خلال عهد الحكم هي:

أ - **هجرات سنة 360هـ - 970م**: شهدت هذه السنة هجرة العديد من المغاربة، ويؤكد ذلك ابن حيان، وهو يتناول أحداث سنة 360هـ، حيث يقول: "فلما

---

(1) مجهول - مفاخر البربر - ص129 - 130/ ابن خلدون - العبر - ج13 ص56 - 57/ ابن الخطيب - المغرب العربي في العصر الوسيط من كتاب أعمال الأعلام - تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني - دار الكتاب - الدار البيضاء - 1964م - ص 221.

(2) نفسه - ص220 - 221/مجهول - مفاخر البربر - ص130/ ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص244 - 245، ويقول أنه تحوّل إلى دعوة الفاطميين.

(3) مجهول - مفاخر البربر - ص130/ ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص244 - 245.

كان يوم الأربعاء لسبع خلون من شوال، ورد الخبر من الساحل القبلي بحلول يحيى بن علي المعروف بابن الأندلسي - الذي ترأس وفد زناتة القادم برأس زيري بن مناد إلى الخليفة المستنصر الأموي[1] بمرسى محملة من عمل بجّانة، وبحلول رجال بني خزر القادمين بمرسى المرية، "وبنو خزر هؤلاء من مغراوة، وهي إحدى بطون قبيلة زناتة[2]، وقد هاجروا إلى الأندلس عقب تحول جعفر بن علي، أمير قبائل زناتة النازلين بأكناف المسيلة عن الدولة العبيدية وموالاة المروانيين، وهو الأمر الذي سيعرضه إلى الانتقام الفاطمي[3]، ويزودنا ابن حيان في نفس النص الذي أوردنّاه سابقا بأسماء عدد من زعماء بني خزر الذين هاجروا إلى الأندلس، حيث يقول: "إن رؤساء الواصلين إلى المرية من بني خزر هم عبدون بن الخير بن محمد بن خزر ومسعود بن عطية بن عبد الله بن خزر ومقاتل بن أبي خزرون بن أبي العزيز خزر."

وفي نفس السنة التي هاجر فيها بنو خزر إلى الأندلس برفقة يحيى بن علي الأندلسي، التحق بهم فريق آخر من البربر، ويتعلق الأمر ببني برزال، وهم فخذ من بني يفرن، إحدى بطون قبيلة زناتة[4]، وكانوا قاطنين بالزاب الأسفل من إفريقية[5].

كان هؤلاء البرازلة في خدمة جعفر بن علي بن حمدون الذي انتقض على الفاطميين سنة 360هـ - 970م بسبب عدم تعيينه خليفة لهم على إفريقية، وتفضيل بلقين بن زيري بن مناد عليه رغم الخدمة التي قدمها لهم قبل هذا التاريخ، وهو الأمر الذي أدى إلى قيام حروب بينه وبين بني زيري الصنهاجيين، وقد انتصر عليهم في البداية، وقتل كبيرهم زيري بن مناد، عامل المعز لدين الله الفاطمي على أشير وتاهرت،

---

(1) ابن خلدون - العبر - ج11 ص432 - 433.

(2) مجهول - مفاخر البربر - ص128 - 129/ ابن خلدون - العبر - ج13 ص59 - 60.

(3) ابن حيان القرطبي - المقتبس في أخبار بلد الأندلس - تحقيق عبد الرحمن علي الحجي - دار الثقافة - بيروت - ص39 - 40/ مجهول - مفاخر البربر - ص129.

(4) ابن خلدون - العبر - ج13 ص3 - 4/عبد الوهاب بن منصور - قبائل المغرب - المطبعة الملكية - الرباط - 1388هـ - 1968م ج1 ص311.

(5) مجهول - مفاخر البربر - ص 182.

ثم كانت الدائرة عليه؛ فانهزم أمام بلقين بن زيري، وخاف بنو برزال على أنفسهم أمام صنهاجة؛ "فأجازوا به البحر إلى الأندلس أيام الحكم المستنصر بالله، فاستخدمهم ونظمهم في طبقات جنده، إلى ما كان لحق به من قبائل زناتة وسائر البربر أيام أخذهم بالدعوة الأموية ومحاربتهم عليها للأدارسة؛ فاستقروا جميعا بالأندلس، وكان لبني برزال من بينهم ظهور وغناء، وكانوا في زهاء ستمائة شخص؛ فألحقوا بالجيش"[1].

نلاحظ من خلال هذه الأحداث التي عاشتها أجزاء من العدوة المغربية التحول الذي حدث لولاءات القبائل البربرية؛ فالبرازلة كانوا يوالون الفاطميين بحكم انضواء زعيمهم جعفر بن علي تحت لوائهم، ولكن مجرد حرمان هذا الأخير من منصب سياسي جعله ينقلب في ولائه من طرف إلى نقيضه، وتحولت القبيلة بأكملها تبعا لذلك، ونفس الأمر حدث مع الحسن بن قنون (جنون) الإدريسي الذي كان يوالي الأمويين بالأندلس، ولكن اجتياح بلقين بن زيري للمغرب الأقصى، وتغلبه على زناتة الخاضعة للأمويين جعله بدوره يتحول إلى ولاء العبيديين، وهو ما يعني أن الولاءات كانت ترتبط إلى حد كبير بالمصلحة السياسية من جهة، وقوة الطرف الذي يعطى له الولاء من جهة أخرى.

ب - **أهم الهجرات خلال سنة 362هـ - 973م**: كانت هذه السنة حافلة بقدوم عدد كبير من البربر الذين غادروا بلادهم جرّاء تفاقم النزاع المسلح القائم بين الأدارسة بقيادة الحسن بن قنون (جنون) ومن يواليه من البربر والأمويين الساعين إلى إخضاع المغرب الأقصى لسلطانهم من جديد؛ "ففي غرّة جمادى الآخرة دخل جمع من مصمودة ممن كان مع الحسن بن قنون (جنون) "، وتقدر المصادر التاريخية عددهم بـ"سبعين رجل"، وتذكر سبب دخولهم إلى قرطبة في هذا التاريخ فتقول: إنهم "نزعوا

---

(1) ابن حيان - المقتبس - ج6 ص192/ابن عذاري - البيان المغرب - ج2ص278/ابن خلدون - العبر - ج13ص111 - 112/مجهول - مفاخر البربر - ص127 - 128/العبر - ج13 ص14 - 56 - 78.

إلى الطاعة"[1].

وفي شهر رجب من نفس السنة "وصل إلى قرطبة إبراهيم بن مسهول الصنهاجي ومحمد بن خلف الكتامي"، وهما "وجهان من وجوه قومهما في نفر من أصحابهما"[2]، ومعنى ذلك أن الهجرة البربرية لم تكن محصورة في الطبقات الشعبية فقط، بل كانت تمتد أيضا إلى الأشراف والزعماء، وهو ما يدل على قوة الجذب التي كانت تمثلها العدوة الأندلسية، وشدّة وطأة الأوضاع التي كان يعيشها المغرب في هذا الوقت.

وفي يوم الثلاثاء لست خلون من شهر رمضان من سنة 362هـ، استقبلت الأندلس وفدا كبيرا من قبائل كتامة، وكدأبه مع الوافدين عليه من العدوة المغربية، خصّص الحكم المستنصر بالله لهؤلاء المغاربة إحتفالا عظيما، "عهد فيه أمير المؤمنين إلى الوزراء بالقعود لرؤساء البرابر القادمين من العدوة، المتكامل عددهم، وكان الإنذار بموعد الإستقبال قد نفذ إلى جميعهم فحضروا"، وبدأ الإحتفال الذي ترأسه نيابة عن الخليفة الوزير الكاتب صاحب المواريث جعفر بن عثمان بدعوة "إمامهم أبي العيش أيوب بن بلال، رئيس كتامة، الذي دفع إليه سجله المعقود له على قومه من قبائل كتامة الذين عاهدوه على طاعة أمير المؤمنين، وخلع على ابنه، ثم دعي بمن معه من الرؤساء أولا فأولا"[3]، ويقدم لنا ابن حيان عدد الذين رافقوا رئيس كتامة حيث يقول: بأن "عدد فرسانهم فيما ذكروه ثلاثة ألاف وخمسمائة ونيف، ورجّالتهم ستة ألاف وأربعمائة معروفون بالبسالة"[4].

اختتمت الهجرة البربرية إلى العدوة الأندلسية خلال هذه السنة في أعقاب شهر رمضان، حيث "وصل إلى قرطبة عدد جمّ من قبائل البربر الجانحين إلى الطاعة، كان فيهم من الأعلام المذكورين نحو من الستين فارسا؛ فأنزلت جماعتهم وتوسع عليهم،

(1) ابن حيان - المقتبس - ج 6 ص 96/ ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 246.

(2) ابن حيان - المقتبس - تحقيق الحجي - ص 105.

(3) نفسه - ص 110 - 111.

(4) نفسه - ص 111.

يقدمهم رئيس غمارة مع أصحابه"[1].

من خلال ما سبق نلاحظ أن عدد البربر المهاجرين إلى الأندلس كان كبيرا، كما نلاحظ أن أغلب هؤلاء المهاجرين من الفرسان والرجالة الذين تمرسوا على القتال في بلادهم، وهو الأمر الذي سيؤدي إلى تغير سياسة الحكم المستنصر بالله تجاههم، ذلك أنه كان قبل هذا التاريخ يتبع نهج أبيه عبد الرحمن الناصر في التعامل مع بلاد المغرب وسكانها، ويقوم هذا التعامل على أساس السعي الدؤوب إلى "ملك فرضة بلد العدوة، ومن ورائها البرابرة"، ومن أجل تحقيق ذلك كان مقتصرا على موالاة البربر له عن بعد، "غير مستدع لهم إلى العبور إليه، ولا مستكثر منهم بالإمداد لهم"، لأنه كان مقتنعا برجال أندلسه وصنائع سلفه، وكانت نظرته إلى استخدام البربر تختلف تماما عما ستكون عليها بعد سنة 362هـ، حيث كان "لا يستخدم من البرابر إلا أراذلهم وعبدانهم من أشابتهم[2] وأساودهم، موقعا عليهم اسم الطنجيين"، ولم يكتف بذلك، بل كان "مقتصرا بهم على أدنى الملاحق، قاصرا لهم على أقل الرواتب، مصرفا لهم في أشق الخدمة طيلة صدر دولته"، ولكن ما هي الأسباب التي جعلته يعاملهم بهذا الشكل؟ وللإجابة عن ذلك نقول: إن طول مكوث الحكم في ظل أبيه قد جعله يقتدي بكثير من صفاته، ولعلّ منها معاملته للبربر بهذا الاحتقار والانتقاص، إضافة الى أنه لم يختبرهم، ولم يتعامل معهم ليعرف حقيقتهم وإمكاناتهم، وهو الأمر الذي سيكتشفه عند ما حارب الحسن بن قنون (جنون)، واختبر بسالة جنده وشجاعتهم وفروسيتهم، وهي الصفات التي تعطي للجيش قوته، إضافة إلى أن استعمال البربر قبله كان على نطاق ضيق، ولهذه الأسباب كلها عامل الحكم المستنصر المغاربة بهذا الشكل، كما أن نظرة بقية عناصر المجتمع الأندلسي، وبخاصة منهم العرب إليهم كان لها نصيبها في هذا النوع من المعاملة.

---

(1) نفسه - ص 105.

(2) أشابتهم: الأشابة من الناس هي الأخلاط - الزمخشري أبو القاسم - أساس البلاغة - دار صادر - بيروت - ط1 1412هـ - 1992م - ص 17.

ولم يتوقف المستنصر بالله عند هذا الحد من المعاملة مع البربر، بل تجاوزه إلى درجة أنه "أصبح أشدّ ذيادا لغلمانه وأحشامه وأجناده عن التشبه بالبرابرة، والتشكل بشكلهم، والإستعمال لشيء من زيهم في ملابسهم ومراكبهم"، ويورد لنا ابن حيان في كتابه قصة تؤكد مقت الحكم لهؤلاء البربر حيث يقول: إن" عينه وقعت يوما في موكب له كان إلى الزهراء[1] على غلام له راكب على فرس بسرج عدوي الصنعة...فأنكره إنكارا شديدا وازورّ عنه، ولم يتمالك إلا أن سارّ فيه إلى حاجبه جعفر منكرا غفلته عن تغييره"، ولم يكتف بذلك، بل "تقدم إليه بإغلاظ عقاب العبد، وإحراق السرج بدار الجند قدّام من حضر منهم إثر نزوله إشاعة لإنكاره"، وكانت نتيجة ذلك العمل الذي قام به الحكم المستنصر بالله أن "ارتدع من شاهد ذلك"، لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا غيّر الخليفة الأموي نظرته إلى البربر ومعاملته لهم إلى النقيض تماما؟ وماهي السياسة الجديدة التي اتبعها لاحقا في التعامل مع سكان العدوة المغربية؟

وللإجابة على هذين السؤالين نعود من جديد إلى نص ابن حيان ومن خلاله سنجد الإجابة؛ فعن سبب تغير نظرة الحكم ومعاملته للبربر يقول مؤلف المقتبس: إن الخليفة الأموي قد أعلن الحرب على "بني محمد الحسنيين المنتزين عليه بأرض العدوة، وأرسل جنوده إليهم، وأرسل أكابر قواده، وغطّى البحر بينه وبينهم بأساطيل الأموال والأسلحة والعدد والأطعمة"، ورغم الإمكانات الضخمة التي جندها الحكم إلاّ أنه فوجيء من طرف البربر، حيث "لاقى من صدق مراس رجالهم، وشدّة بأسهم على قلة عددهم ما ملأوا به عباب سيله"، وما يثبت ذلك هو أنهم "قتلوا ابن طملس[2]

---

(1) الزهراء: مدينة في غربي قرطبة، بناها الناصر عبد الرحمن، بينها بين قرطبة خمسة اميال، كانت عظيمة مدرجة البنية، وهي مدينة فوق مدينة، وكل ثلث منها له سور، كان الحّد الأعلى قصورا، والحد الأوسط بساتين وروضات، والحد الأسفل فيه الديّار والجامع، ثم خرّب ذلك كله - الحميري - صفة جزيرة الأندلس - ص95.

(2) ابن طملس: هو محمد بن القاسم بن طملس، قائد أرسله الحكم المستنصر لقتال الحسن بن قنون سنة 362هـ، والتقى الجمعان في أحواز طنجة، فحص بني مصرخ، مهران في مفاخر البربر، ودارت بينهما معركة عظيمة قتل فيها قائد الحكم - الأنيس المطرب - ص91 /البيان المغرب - =

القائد الجليل"، وعلى الرغم من أنه انتصر في نهاية الحرب على البربر وقهرهم، واستولى على ديارهم، إلا أن ذلك البأس والشدّة اللذين أظهرهما رجال بني محمد الحسنيين، أدّيا إلى تغيير السياسة التي كان ينتهجها الخليفة الأموي معهم حيث "استضمّ رجال هؤلاء الحسنيين وألحقهم بجنده، ونعشهم بعطائه، وبهم استكمل فئة بربرية رائقة ضخمة تتكون من ثلاث فرق: رجال بني حسن، ورجال ابني الأندلسي ورجال البرازلة"، وبهم تمّ تشكيل "عسكر ضخم يقارب السبعمائة فارس، جميعهم من البربر الذين طال مقت السلطان لهم وزهده فيهم."

لقد تحولت نظرة الحكم المستنصر إلى البربر من النقيض إلى النقيض، فمن إنكاره الشديد لما قام به أحد غلمانه كما تقدم معنا سابقا، "ظلّ أيام علّته يشرف عليهم - أي فرسان البربر - من قصبة دار الرخام، معجبا بهم، يقول لمن حوله: انظروا إلى انطباع هؤلاء القوم على خيولهم؛ فكأنّهم الذين عناهم الشاعر[1] بقوله:

فكأنمـا ولـدت قـياما تحـتهم   وكـأنهم ولـدوا على صـهواتها[2]

بداية من سنة 362هـ - 973م، أصبح الحكم يشجع هجرات القبائل البربرية إلى العدوة الأندلسية من أجل دعم قواته، وذلك بإلحاق رجال المغاربة بجنده، كما رفع منزلة هؤلاء الرجال الذين عبروا لخدمته؛ فأصبحت فيهم رئاسة الجيوش وقيادة المعارك نظرا لما كانوا يتحلون به من بأس وشجاعة وإقدام[3]، وسيتأكد ذلك خاصة في عهد المنصور محمد بن أبي عامر الذي اعتمد عليهم في تكوين جيشه، والقيام بمعاركه، حيث تجمع المصادر التاريخية على أنه لم يهزم قط خلال كل المعارك التي خاضها بها.

=

ج1 ص246/مفاخر البربر - ص130.

(1) الشاعر هو أبو الطيب المتنبي، والبيت من قصيدة يمدح فيها أبا أيوب أحمد بن عمران الانطاكي - عبد العزيز فيلالي - نفس المرجع - ص 212 هامش 1.

(2) ابن حيان القرطبي - المقتبس - الحجي - صص 189 - 193.

(3) عبد العزيز فيلالي - نفس المرجع - ص 211.

أهم الهجرات البربرية في سنة 363هـ - 974م: كان من نتائج تغير سياسة الحكم المستنصر بالله تجاه البربر أن توجه إلى الحضرة عدد مهم من المغاربة الراغبين في الخدمة العسكرية؛ ففي غرّة صفر من هذه السنة حلّ بقرطبة "ثعبان أو شعبان بن أحمد البربري، قاتل محمد بن عبد السلام خال الفاسق محمد بن جنون في وجوه من رجال البصرة"، ويذكر ابن حيان سبب هجرته إلى الأندلس بأهله وولده؛ فيقول: أنه "آثر الانتقال إليها والخدمة بعسكرها"[1]، ومعنى ذلك أن سياسة الحكم الجديدة قد أصبحت تحفز الكثير من أهل العدوة المغربية على الهجرة والاستقرار بالأندلس نظرا لما كانت تدره على هؤلاء من عطاءات ومنح، فضلا على المكانة التي أصبحت تولى إليهم في صفوف الجيش الأندلسي، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك.

ومن أبرز الهجرات التي تمت خلال هذه الفترة تلك التي جاءت بعد أسر الحسن بن قنون (جنون) على يد غالب[2]، حيث "حمل إلى قرطبة ومعه رجاله وأهله، ورتب الحكم من حاشيته في الديوان سبعمائة من أنجاد المغاربة"[3]، ويقول مؤلف "مفاخر البربر" في ذلك: إن الحكم "أثبت رجاله - أي رجال الحسن بن قنون (جنون) - جميعا في الديوان، وكانوا أنجادا ما كملوا سبعمائة، ولقد شجّوا سبعة ألاف من رجال الحكم بالعدوة"، ويضيف متحدثا عن سياسة الحكم تجاه البربر قائلا: إن ذلك هو الذي "حمل الحكم على اعتمادهم بالصنيعة، واتخاذهم للدولة، وهذا كان السبب في توافر هذه الطائفة بالأندلس"، وينفرد صاحب "مفاخر البربر" عن غيره من المؤرخين بإيراده أسماء بعض هؤلاء المغاربة الذين جندهم الخليفة الأموي؛ فيقول:

---

(1) ابن حيان - المقتبس - الحجي - ص 144.

(2) غالب: هو غالب بن عبد الرحمن الناصري الذي أضحى أيام الحكم من كبار رجالات الدولة، وقد عين حاكما للثغر الأعلى ومقره مدينة سالم، دخل حصن حجر النسر، وانتصر على الحسن بن قنون (جنون) سنة 363هـ، ثم عارض المنصور بن أبي عامر؛ فدارت الحرب بينهما عام 371 هـ، ومات في المعركة - ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص278/ ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 63 - 64.

(3) ابن حيان - المقتبس - الحجي - ص 196/ ابن خلدون - العبر - ج 11 ص452.

إن "من مقدميهم ومن أبرّ على الأقران عنهم محمد بن فرجولة وحسين الخليع وأحمد بن رجاء بن مقاتل وسليمان النقرات وأبو شفة بن ميمون وخلف الله بن مزكيدة وفتحون بن عساكر وخلوف الشرقي ومطروح بن مساوش وثعبان الكتامي وغيرهم"[1].

قام الحكم بضم هؤلاء الأنجاد إلى الجند، وبهم أصبح يواجه تكالب النصارى في الشمال، كما كان يعتمد عليهم أيضا في مواجهة المنتزين عليه بأرض العدوة.

استمرّت هجرة البربر إلى العدوة الأندلسية والاستقرار بها بعد سنة 364هـ - 974م، حيث أجاز الخليفة الأموي "جماعة من أدمر"، وبنو دمر من بطون زناتة[2]، وهم أعيان ورجالات حرب فيمن أجاز إليها من زناتة وسائر البربر أيام أخذهم بدعوة الحكم المستنصر، وضمهم السلطان إلى عسكره[3].

بانتقال هذه الجماعات الأخيرة إلى العدوة الأندلسية، تنتهي الهجرات البربرية التي تمت خلال عهد الحكم المستنصر، وسنتطرق بعدها إلى الحديث عن الحركة السكانية التي تمت بين العدوتين في عهد محمد بن أبي عامر المنصور وابنيه عبد الملك وعبد الرحمن شنجول باعتبارهم المتحكمين في السلطة الفعلية رغم وجود خليفة يمثل البيت الأموي.

الهجرة والاستقرار في عهد المنصور محمد بن أبي عامر وولديه (366 - 399هـ/ 976 - 1008م): عهد الحكم بولاية العهد لابنه أبي الوليد هشام المؤيد، وهو طفل صغير لا يتجاوز العاشرة من عمره، ولكن بمجرد وفاته سنة 366هـ - 976م، ظهر خلاف حاد بين رجال الدولة حول من يتولى منصب الخلافة، وانقسم هؤلاء إلى فريقين، الفريق الأول وضمّ في صفوفه الصقالبة ورجال الجيش والحرس الخليفي، ويتزعمهم فائق النظامي وجؤدر الذين رشحوا المغيرة بن عبد الرحمن الناصر

---

(1) مجهول - مفاخر البربر - ص 132.
(2) ابن خلدون - العبر - ج13 ص108.
(3) نفسه - ج13 ص 109.

لدين الله[1]، أما الفريق الثاني فضمّ في صفوفه أصحاب الهاشمية وبني برزال، بطانة الحاجب المصحفي، وسائر قواد الأجناد الأحرار الذين التزموا بعهدهم للحكم حيث بايعوا لهشام المؤيد بالخلافة[2]، ونجح أعضاء الفريق الأخير في حسم الصراع لصالحهم، وذلك من خلال التخلص من مرشح العسكريين، وتحقيق رغبة الخليفة المتوفى بجلوس ابنه هشام على عرش أبائه وأجداده، ومع ذلك فإن هذا الأخير لم يكن له من السلطة شيء، "إذ لم يزل متغيبا، لا يظهر ولا ينفذ له أمر"[3].

ساهم البربر في جلوس هشام المؤيد على كرسي الخلافة، إذ انضمّ جعفر بن عثمان المصحفي، حاجب الخليفة الحكم بن عبد الرحمن والبرازلة الذي كانوا "بطانته من سائر الجند"[4] إلى الفريق الثاني، وبذلوا جهدهم رفقة أعضائه في التخلص من المغيرة، وضمان الخلافة لولي العهد.

إن تاريخ الخلافة الأموية في الفترة ما بين 366هـ ونهاية القرن الرابع الهجري هو تاريخ أسرة حاكمة فرضت وجودها بفضل محمد بن أبي عامر الذي "لم تزل الهمّة تحدوه، والجدّ يحظيه، والقضاء يساعده، والسياسة الحسنة لا تفارقه حتى قام بتدبير الخلافة، وأقعد من كان له فيها إنافة، وساس الأمور أحسن سياسة، وداس الخطوب بأخشن دياسة؛ فانتظمت له الممالك، واتضحت به المسالك"[5].

نجح محمد بن أبي عامر في الوصول إلى السلطة، ومن أجل الحفاظ عليها وفرضها على بلاد الأندلس كان في حاجة إلى قوة عسكرية تسنده، لذلك أعاد النظر في النظام العسكري السائد في الدولة قبل وصوله إلى سدّة الحكم، ووضع أسس جيش

---

(1) ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص260 - 261/ عبد العزيز فيلالي - العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب - ص 197.

(2) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 260.

(3) عبد الواحد المراكشي - المعجب في تلخيص أخبار المغرب - ص 45.

(4) ابن عذاري - نفس المصدر - ج 2 ص 260 - 261.

(5) نفسه - ج 2 ص 259.

نظامي موحد يكون هو المتحكم في زمامه[1].

اعتمد محمد بن أبي عامر في تكوين هذا الجيش على رجال المغاربة الذين استقدمهم من العدوة المغربية، وفي ذلك يقول ابن خلدون: "ولما أراد المنصور بن أبي عامر الإستبداد على خليفته هشام، وتوقع النكير من رجالات الدولة وموالي الحكم، استكثر ببني برزال وغيرهم من البربر، وأفاض فيهم الإحسان، فاعتزّ أمره، واشتدّ إزره حتى أسقط رجال الدولة، ومحا رسومها، وأثبت أركان سلطانه"، وبعد ما تخلص من زعيمهم جعفر بن علي بن حمدون "استمالهم من بعده؛ فأصبحوا له عصبة، وكان يستعملهم في الولايات النبيهة والأعمال الرفيعة"[2]. ويضيف في مكان آخر من كتابه أن المنصور بن أبي عامر "استدعى أهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة، فرتّب منهم جندا، واصطنع أولياء وعرّف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال ومكناسة وغيرهم"، وبواسطة ما اجتمع إليه من قبائل البربر، "تغلب على هشام وحجره، واستولى على الدولة"[3].

ويؤكدّ ابن عذاري ما ذهب إليه ابن خلدون حين يقول: إن "المنصور استبدل جند الأندلس بالبربر، وأقام لنفسه جندا اختصّهم باستصناعه، واسترقّهم بإحسانه، ونسخ بهم في المدة القريبة جند الخليفة الحكم كما فعله في سائر أموره"[4].

نتيجة لسياسة المنصور محمد بن أبي عامر هذه في المجال العسكري، تكاثر عدد البربر الوافدين إلى حضرته بهدف الإنضمام إلى القوة التي شكّلها الحاجب، والإستفادة من المزايا التي أغدقها على أفرادها، وهكذا شهدت بلاد الأندلس قدوم أعداد كبيرة من البربر.

---

(1) نفسه - ج2 صص257 - 261/ عبد الواحد المراكشي - المعجب - ص 45 ومابعدها/ المقّري - نفح الطيب - ج1 ص 396 - 397.

(2) نفسه - ج2 ص ص257 - 261/المعجب - ص 45 ومابعدها/نفح الطيب - ج1 ص 396 - 397.

(3) نفسه - ج13 ص22/مفاخر البربر - ص189/العبر - ج11 ص265/ نفسه - ج7 ص 319.

(4) ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص 393.

ففي سنة 367هـ - 978م قرر جعفر بن علي الأندلسي بعد انهزامه أمام قبيلة برغواطة[1] "الجواز إلى الأندلس، والإنضمام إلى محمد بن أبي عامر"، ولم يهاجر لوحده بل "جذب إليه البرابر"، ونقلهم معه إلى العدوة الأندلسية[2].

شهد المغرب الأقصى سنة 381هـ - 991م غزوا قام به بلقين بن زيري على رأس جموع صنهاجة بهدف الثأر لأبيه زيري بن مناد المقتول من قبل زناتة التي لم يستطع أفرادها الوقوف في وجه خليفة الفاطميين بإفريقية؛ "فهربوا إلى سبتة، وضاقت عليهم أرض العدوة"، واستغل وزراء الخلافة الأموية ذلك؛ فقالوا للمتصرف في أمورها الحاجب محمد بن أبي عامر: "قد أمكنك الله من اصطناع فرسان زناتة، واعتقاد المنّة عليهم؛ فارسل إليهم يأتوك سراعا، فيجد إحسانك إليهم مكانا"، واستجاب المنصور لطلبهم؛ "فأنفذ كتبه إلى قبائل العدوة يستدعيهم، ويتضمن الإحسان إليهم والتوسعة عليهم"، ونتيجة لذلك "كثر البربر بالأندلس، وحسنت أحوالهم، وكثرت أموالهم"، وكان ذلك سببا في كثرتهم بالعدوة الأندلسية حتى "صار منهم القبائل بأسرها"[3].

وفي سنة 382هـ - 992م اختلف بنو يفرن[4] على أبي يداس بن دوناس[5]،

---

(1) برغواطة: من بطون المصامدة، كانوا شعوبا كثيرة ومواطنهم في بسائط تامسنا وريف البحر المحيط، وقال ابن أبي زرع: هم أخلاط من قبائل شتى، ويذهب البعض إلى أن التسمية مرتبطة بنحلة دينية أطلقت على القبائل التي اتبعت صالح بن طريف البرباطي، وأحال العرب الكلمة إلى برغواطة وأضافوا إليها هاء الجمع؛ فصارت برغواطة. - العبر - ج11 ص428/ جذوة المقتبس - ج1 ص67/ الأنيس المطرب - ص 130/ابن منصور - قبائل المغرب - ج1 ص 322 - 323.

(2) مجهول - مفاخر البربر - ص 139.

(3) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 294.

(4) بنو يفرن: من شعوب زناتة وأوسع بطونهم، وهم عند نسابة زناتة بنو يفرن بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا، وكانوا بإفريقية وجبل أوراس والمغرب الأوسط - العبر - ج13 ص22.

(5) أبو يداس بن دوناس: قتل ابن عمه حبوس بن زيري بن يعلى، رئيس بني يفرن طمعا في الرئاسة، ولكن قومه اختلفوا عليه فعبر البحر إلى الأندلس سنة 382هـ وصار من جملة الرؤساء والأمراء =

وعندما أخفق أمله في اجتماعهم على الإعتراف بسلطته، "أجاز إلى الأندلس برفقة إخوانه أبي قرة وأبي زيد وعطاف، وحلّ كلهم من المنصور محلّ التكرمة والإيثار"، وبخاصة أبي يداس الذي "نظمه في جملة الرؤساء والأمراء، وأسنى له الجراية والإقطاع"، ولذلك السبب "بعد صيته وعلا في الدولة كعبة."[1]

لم ينتقل أبو يداس بن دوناس بمفرده إلى العدوة الأندلسية، بل "جاء بجمع عظيم كانوا الأصل في تكاثر القبيلة بعسكر ابن أبي عامر"[2] الذي "أثبت رجاله في الديوان، ومن أجاز من قومه"[3]، وبذلك ازداد عدد البربر الذين دخلوا في خدمة الدولة العامرية، وتدعم عدد هؤلاء المغاربة ببني يرنيان[4] الذين كان لهم صولة واعتزاز في بلدهم مما جعل المنصور يقوم بجلبهم إلى حضرته ضمن من جلب من قبيلة زناتة في المائة الرابعة، و"كانوا من أفحل جند الأندلس وأشدّهم شوكة"[5]، وبهم حقق المنصور الانتصار في كل الغزوات التي خاضها طيلة وجوده على رأس بلاد الأندلس.

إضافة إلى بطون زناتة الملتحقة بالأندلس، والتي اعتمد عليها حاجب الخليفة هشام المؤيد بالله وذكرناها سابقا، "إستظهر مؤسس الدولة العامرية أيضا ببني دمر، وهي إحدى بطون زناتة."[6]

اعتمد المنصور بن أبي عامر أيضا في تشكيل جيشه على قبيلة صنهاجة التي

=

وقتل خلال حروب الفتنة الأندلسية - ابن خلدون - العبر - ج13 ص45 - 46/ مجهول - مفاخر البربر - ص 154.

(1) ابن خلدون - العبر - ج 13 صص 45 - 46.

(2) مجهول - مفاخر البربر - ص 154.

(3) ابن خلدون - العبر - ج 13 ص 46.

(4) بنو يرنيان: هم إخوة مغراوة وبني يفرن وينسبون إلى جانا وهو زناتة ومواطن جمهورهم بملوية بالمغرب الأقصى ما بين سجلماسة وكرسيف وكانوا مجاورين لمكناسة - ابن خلدون - العبر - ج13 ص101.

(5) ابن خلدون - العبر - ج13 ص101.

(6) نفسه - ج 13 ص 109.

هاجر قسم منها إلى الأندلس سنة 391هـ - 1001م، ويتعلق الأمر ببني زيري[1]، وكان ذلك عقب انهزامهم أمام حماد بن بلقين - مؤسس الدولة الحمادية - حيث "أجاز زاوي بن زيري وبنيه وبني أخيه وحاشيته البحر إلى الأندلس، ونزل الجميع على الحاجب؛ فأحسن نزلهم وأكرم وفادتهم، واصطنعهم لنفسه، واتخذهم بطانة لدولته وأوليائه"، وتضيف المصادر التاريخية أن المنصور الساعي إلى قهر الدولة، والسيطرة على الخلافة"، نظمهم - أي بني زيري - في طبقات زناتة وسائر رجالات البربر الذين أدال بجموعهم جند السلطان وعساكر الأموية وقبائل العرب"، ونتيجة لذلك حمل هؤلاء البربر "دولة المنصور بن أبي عامر وولديه المظفر والناصر من بعده على كاهلهم"[2].

لم تشر المصادر التاريخية إلى وجود هجرات بربرية إلى الأندلس بعد سنة 391هـ - 1001م، واكتفت بإيراد أخبار تتعلق باشتراك أعداد هامة من المغاربة في الغزوات التي قام بها عبد الملك بن محمد بن أبي عامر، ومنها غزوته الأولى التي وجهها إلى بلاد الفرنج، وبالتحديد إلى ثغر برشلونة سنة 393هـ - 1003م، وفي ذلك يقول ابن عذاري: "ووافت الحضرة لأول هذا الوقت طوائف كثيرة من مطوعة العدوة المجاهدين للحسبة، فيهم جماعة كبيرة من أمرائهم وزعمائهم، وعصابة كثيرة من فقهائهم، يبغون مشاهدة هذه الغزوة"[3].

وشارك هؤلاء المتطوعين في غزوة عبد الملك الأولى، وحققوا معه انتصارات كثيرة على النصارى، وبعد الانتهاء منها "أذن الحاجب لجميع المطوعة في القفول إلى

---

(1) بنو زيري: وهم بنو زيري بن مناد بن منقوش بن صنهاج الأصغر وهو صناك، وينتمون إلى تلكاتة، إحدى بطون صنهاجة، وكانت مواطنهم بالمسيلة إلى حمزة إلى الجزائر والمدية ومليانة - ابن خلدون - العبر - ج11 صص 310 - 312.

(2) ابن خلدون - العبر - ج11 ص367/ابن عذاري - البيان المغرب - ج3 ص263/عبد الله بن بلقين - كتاب التبيان - ص57.

(3) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 3 ص 4.

بلادهم"[1]، ونميل إلى الاعتقاد بأن المغاربة لم يعودوا كلهم إلى بلادهم، ودليلنا في ذلك النص الذي ورد في كتاب البيان المغرب، ويشير إلى أن عبد الملك قد انتهج سياسة حكيمة تتمثل في إعادة إصلاح وتعمير بعض الحصون والقلاع التي يتم استرجاعها من النصارى بواسطة المسلمين، حيث "نادى في المسلمين"، وعرض عليهم "الإثبات في الديوان بدينارين في الشهر" مقابل الإقامة في هذا الحصن، ولتشجيعهم على ذلك، قرّر منح كل مسلم يسكن بالحصن "المنزل والمحرث"، وكانت الاستجابة للنداء كبيرة إذ "رغب في ذلك خلق عظيم واستقروا به في حينهم"[2].

إن وجود عدد كبير من المتطوعين المغاربة في جيش حاجب هشام المؤيد رغبة في الجهاد كفيل بجعل عدد مهم منهم يستقرّ في العدوة الأندلسية، وبخاصة في المناطق التي افتتحها عبد الملك والمتاخمة لدار الكفر، وهو ما يعني مواصلة هؤلاء البربر لمهمة الجهاد التي جاءوا من أجلها إلى هذه البلاد.

هذه هي أبرز الهجرات التي قام بها البربر إلى الأندلس خلال القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي -، والتي أدّت إلى استقرار أعداد هامة من سكان العدوة المغربية بها، حيث استعملهم خلفاء الدولة الأموية وحاجبها المنصور بن أبي عامر ثم ابنه عبد الملك في تقوية سلطانهم، ومحاربة معارضيهم، ومواجهة النصارى الذين كانوا يسعون جاهدين لاسترجاع المناطق التي فتحها المسلمون منذ أن وطأت أقدامهم القسم الجنوبي الغربي من القارة الأوروبية.

دوافع الهجرة البربرية إلى الأندلس خلال القرن الرابع الهجري (10م):

تميزت الهجرة البربرية إلى العدوة الأندلسية خلال القرن الرابع الهجري) العاشر الميلادي) بالإستمرارية والكثافة مقارنة بالقرن السابق الذي شهد ركودا نسبيا في هذا المجال تسببت فيه الأحداث التاريخية التي شهدتها بلاد الأندلس وبخاصة في المجال السياسي.

---

(1) نفسه - ج 3 ص 7.

(2) نفسه - ج 3 ص 8.

لقد واجهت الإمارة الأموية العديد من الثورات التي قام بها مختلف عناصر المجتمع الأندلسي، ونجحوا من خلالها في إقامة دويلات مستقلة عن قرطبة؛ فالمولودون كونوا عدة ممالك، ومنهم بنو قسي الذين استقلّوا بمنطقة الثغر الأعلى[1]، وبنو مروان الجليقي الذين انفصلوا بولاية بطليوس الواقعة في الغرب[2]، وبنو حفصون الذين بدأت ثورتهم سنة 267هـ، وتمكنوا من بسط سيطرتهم على المرتفعات الجنوبية الممتدة بين مدينتي رندة غربا ومالقة شرقا، واتخذوا من قلعة ببشتر قاعدة لهم[3].

أما زعماء العرب فقد كثرت ثوراتهم وأنشأوا بدورهم دويلات مستقلة، من ذلك قيام قبائل بكر بن وائل في إلبيرة والجزيرة الخضراء وجيان بالثورة، وتأسيس دويلة لهم بهذه المناطق[4]، كما قام بنو حجاج المنتسبين إلى قبيلة لخم اليمنية[5] بتكوين دولة مستقلة في إشبيلية، وأقام بنو خلدون إمارة خاصة بهم في نواحي إشبيلية[6]، ونفس الأمر قام به بنو المهاجر التجيبيون بالثغر الأعلى[7]، ومحمد بن أضحى الهمداني في كورة إلبيرة[8].

ولم يشذّ عنهم البربر حيث انتزى بنو ذي النون بمنطقة الثغر الأدنى وقاعدته مدينة طليطلة[9]، ومحمد بن عبد الكريم بن إلياس وأبناؤه الذين استقلوا بقلعة ورد من

---

(1) ابن حيان - المقتبس - إسماعيل العربي - ص35/ مصطفى أبو ضيف - القبائل العربية في الأندلس - ص207.

(2) المقتبس - ص 32 - 33/ البيان المغرب - ج2 ص135/ ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 21.

(3) البيان المغرب - ج 2 ص 106/ المقتبس - إسماعيل العربي - ص 72 - 73.

(4) مصطفى أبو ضيف أحمد - القبائل العربية في الأندلس - ص 245.

(5) ابن حيان - المقتبس - ص 27 - 28/ ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص125 - 126.

(6) ابن حيان - المقتبس - ص 91.

(7) نفسه - ص108 - 109/ مصطفى أبو ضيف أحمد - نفسه - ص 245.

(8) ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص137/ ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 27.

(9) ابن حيان - المقتبس - صص36 - 37/ أحمد مختار العبادي - في تاريخ المغرب والأندلس - ص368.

كورة شذّونة[1]، وبنو المهلب الذين ثاروا بكورة إلبيرة، وملكوا حصن قرذيرة وحصن إشبرغرة[2].

نتيجة لذلك كله كثرت الحروب بين هذه الدويلات وحكومة قرطبة من جهة، وفيما بينها من جهة أخرى، واستغلّ النصارى ذلك من أجل شنّ هجمات على أراضي المسلمين، خاصة وأن المستعربين، وهم الإسبان الذين تعرّبوا واحتفظوا بديانتهم المسيحية - قد تحالفوا معهم وسهّلوا مهمتهم في تحقيق أهدافهم[3].

إضافة إلى ما سبق ذكره، شهدت العاصمة الأندلسية قيام ثورة الربض أو شقندة الواقعة قبالة قرطبة سنة 202هـ - 817م، وشارك فيها عامة هذا الربض وفقهاؤه، وعملت على الإطاحة بالأمير الحكم بن هشام، ولكن هذا الأخير قمعها بقسوة وعنف، وأمر عقب ذلك بإجلاء جميع سكان الربض، ونتيجة لذلك غادر العديد منهم بلاد الأندلس، وتوجه قسم منهم إلى العدوة المغربية حيث استقرّ أربعة ألاف منهم بمدينة فاس، بينما توجه القسم الآخر نحو مصر، وقُدّر عدد أفراده بعشرين ألف شخص[4].

إن هذه الظروف المتسمة بكثرة الثورات والإضطراب لا تشجع المغاربة على الهجرة، ولذلك ركدت هذه الظاهرة خلال معظم القرن الثالث الهجري، وبخاصة في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (238 - 273هـ/852 - 886م) والأمير عبد الله بن محمد (275 - 300هـ/888 - 912م) الذي "أفضت الخلافة إليه وقد تحيفها النكث ومزقها الشقاق، وحلّ عراها النفاق، والفتنة مستولية...وتألب على أهل الإسلام أهل الشرك ومن ضاهاهم من أهل الفتنة الذين جرّدوا سيوفهم على أهل الإسلام؛ فصار هؤلاء بين قتيل ومحروب، ومحصور يعيش مجهودا ويموت هزلا، قد انقطع الحرث

(1) ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص136.

(2) نفسه - ج 2 ص 137.

(3) ابن حيان - المقتبس - ص 73.

(4) أعمال الأعلام - ص15 - 16/ ابن سعيد الأندلسي - المغرب في حلى المغرب - تحقيق خليل المنصور - دار الكتب العلمية - بيروت - ط1 - 1417هـ - 1997م ج1 ص15 - 16/البيان المغرب - ج 2 صص75 - 77.

وكاد ينقطع النسل"[1]، ولم تعد هجرة البربر إلى الأندلس لسابق عهدها إلا خلال القرن الرابع الهجري، وبخاصة بعد تمكن عبد الرحمن الناصر من إخماد الثورات، وإخضاع المنتزين، وإعادة الأمن والاستقرار إلى ربوع العدوة الأندلسية.

ومن خلال تتبع أبرز الهجرات يمكننا التعرف على الأسباب التي دفعت سكان المغرب إلى مغادرة بلادهم، وبأعداد كبيرة كما أكّد ذلك المؤرخون الذين تطرقوا إلى تأريخ الأحداث التي مرّت بها بلاد الأندلس وبلاد المغرب خلال هذا القرن، ويمكن تقسيم هذه الدوافع إلى دوافع سياسية ودينية وعلمية واقتصادية.

أ - الدوافع السياسية: يمكن اعتبار الدوافع السياسية من الأسباب الرئيسة الكامنة وراء الهجرات البربرية المكثفة خلال القرن الرابع الهجري، وبخاصة في عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله والحاجب محمد بن أبي عامر، وتتمثل هذه الدوافع فيما يلي:

1) الغزو الفاطمي لبلاد المغرب وبداية الصراع مع الأمويين: بعد قيام الدولة الفاطمية في إفريقية سنة 297هـ - 910م، سعى حكامها إلى فرض هيمنتهم على بلاد المغرب كلها، ومن أجل تحقيق ذلك جرّدوا حملات عسكرية قادها مصالة بن حبّوس المكناسي ثم جوهر الصقلي من بعده، ونظراً لقوة الجيش العبيدي أجفلت القبائل البربرية الموالية للأمويين في الأندلس أو الرافضة للوجود الفاطمي ببلاد المغرب أمامه، واضطرّ كثير من أفراد هذه القبائل إلى الهجرة والاستقرار ببلاد العدوة الأندلسية طلبا للأمن، ومن ذلك هجرة بني صالح من نكور بعد استيلاء الفاطميين عليها سنة 305هـ، وهجرة الكتاميين بقيادة حميد بن يصلتين عقب انتقاضه على الفاطميين، وتخوفه من انتقامهم منه، وذلك سنة 343هـ، وهجرة بني برزال مع زعيمهم جعفر بن علي بن حمدون خوفا من الفاطميين سنة 360هـ.

وأثناء محاولتها لفرض هيمنتها على بلاد المغرب، اصطدمت الدولة الشيعية بالأمويين في الأندلس الذين سعوا بدورهم إلى إيجاد منطقة نفوذ لهم في بلاد المغرب

(1) ابن عذاري - اليان المغرب - ج 2 - ص 121.

يقفون بواسطتها في وجه أعدائهم العبيديين، وذلك بداية من سنة 319هـ - 931م، وتمكنوا من بسط نفوذهم على بعض الثغور المغربية[1]، وبواسطتها وضعوا أقدامهم في العدوة المغربية، ولم يكتف حكام الأندلس بالسيطرة على أصحاب هذه الثغور، بل "تخطاهم عبد الرحمن إلى من سكن خلفهم من زعماء قبائل البربر، يستألفهم ويحمل أهل الطاعة على أهل المعصية منهم، ممدا لمن عجز برجالة، مقويا لمن ضعف بماله، متفقدا لهم في سائر الحالات بألطافه، متعهدا بوجوه رسله وخواصه إلى أن تميز أكثر بوادي زناتة في حزبه، وارتسموا بطاعته، ولا سيما عند امتياز أضدادهم صنهاجة في حزب أعدائه بني عبيد الله، وجرت بأسباب ذلك بين الطائفتين من أولياء الدعوتين حروب يطول القول فيها، ووقائع يبعد تقصيها، هلك باختلافها من ملوك الدعوتين وزعماء الطائفتين جماعة"[2].

كان الصراع الفاطمي الأموي سببا مباشرا في قيام نزاع مرير بين القبائل البربرية، ذلك أن هناك قبائل انضوت تحت لواء العبيديين، ونخصّ بالذكر منها قبيلتي كتامة وصنهاجة، بينما انضمّت قبائل أخرى إلى الجانب الأموي، ومن أبرزها قبيلة زناتة، وبخاصة بعض بطونها كبني يفرن ومغراوة[3].

كان انضواء القبائل تحت لواء طرف دون الآخر على أساس سياسي في غالب الأحيان، ويرتبط ذلك بقوة الطرف الظرفية، وبحكم موقعه الجغرافي بالنسبة إليه؛ فقبيلتي كتامة وصنهاجة والت العبيديين لقربهما منهم من جهة، ولقوة الدولة الفاطمية من جهة أخرى، والعكس حدث مع قبائل زناتة وغيرها المنتشرة في المغربين الأوسط والأقصى، والتي انضوت تحت لواء الأمويين، كما أن الجانب المادي قد لعب دورا هاما في ذلك باعتباره المحفز على الولاء، إذ أن الطرفين المتصارعين على السيادة

---

(1) نجح عبد الرحمن الناصر في احتلال سبتة سنة 319هـ (ابن حيان - المقتبس - ج5 ص288 - 289) وأصيلا سنة 322هـ - 934م (نفسه - ص 347) ومليلية ونكور سنة 324هـ - 936م، بينما عجز عن احتلال ثغر طنجة رغم حصاره له بسبب حلول فصل الشتاء (نفسه - ص 382).

(2) مجهول - مفاخر البربر - ص 123.

(3) ابن خلدون - العبر - ج 11 ص 50.

بالغرب الإسلامي، وأعني بهما الأمويين والفاطميين، قد بذلوا لأتباعهم الأموال والهبات والهدايا بهدف جلبهم إليهم، وإخضاعهم لسلطانهم، ومقابل ذلك أعطت القبائل البربرية ولاءها لطرف أو لآخر.

نتيجة لذلك وقعت الحروب بين القبائل البربرية، ومنها الحرب التي دارت بين بني زيري الصنهاجيين، وبخاصة في عهد زيري بن مناد وابنه بلقين، وبني خزر الزناتيين - إحدى شعوب مغراوة[1] -، والتي انتهت بهجرة الزناتيين إلى بلاد الأندلس بداية من سنة 360هـ عقب انهزامهم أمام أعدائهم، وتلك التي دارت بين قبيلتي مكناسة الموالية للعبيديين وأزداجة التابعة للأمويين، وأسفرت عن انهزام القبيلة الثانية، وهجرة كثير من أفرادها إلى العدوة الأندلسية.

2) **النزاعات داخل القبائل البربرية**: إضافة إلى الصراع الذي دار بين القبائل البربرية المختلفة بحكم ولائها لطرف أو لآخر، دار نزاع آخر داخل القبيلة البربرية الواحدة، وكان في غالب الأحيان بين أفراد الأسرة الحاكمة الذين كانوا يرغبون في الزعامة بين إخوانهم، ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما حدث بين زاوي بن زيري وابن أخيه حماد بن بلقين الصنهاجيين، والذي نتج عنه اقتتال بين أفراد الأسرة الواحدة، وهجرة المنهزمين منها إلى الأندلس التي انتقل إليها زاوي بن زيري بن مناد وبنيه وبني أخيه ماكسن وحاشيته سنة 391هـ.

دار نزاع مماثل بين أفراد الأسرة الحاكمة في بني يفرن الزناتية، وجاء عقب قيام أبي يداس بن دوناس بقتل حبوس بن زيري الذي خلف ابن أخيه يدو بن يعلى اليفرني على رأس بني يفرن سنة 381هـ[2]، وذلك من أجل الوصول إلى السلطة، ولكن أفراد القبيلة رفضوا الإعتراف به زعيما عليهم، وإضطرّه ذلك إلى أن يهاجر إلى الأندلس سنة 382هـ - 992م برفقة إخوته ونفر من قومه.

3) **الحرب بين الأدارسة والأمويين**: كان الحسن بن قنون (جنون)، زعيم

---

(1) ابن خلدون أبو زكريا - بغية الرواد - ص 84/ ابن خلدون - العبر - ج13 ص 77.

(2) ابن خلدون - العبر - ج13 ص 43 - 44/ مجهول - مفاخر البربر - ص 154.

الأدارسة والقبائل البربرية الخاضعة لسلطته مواليا لبني أمية، ولكنه انقلب عليهم سنة 361هـ - 971م مستغلا في ذلك الحملة الكبيرة التي قام بها بلقين بن زيري الصنهاجي[1] في هذا التاريخ، وتمكن خلالها من اكتساح المغربين الأوسط والأقصى، وإخضاع من كان بهما من البربر.

استغلّ الحسن تلك الحملة، وبخاصة بعد عودة خليفة الفاطميين إلى إفريقية، ليعلن الثورة على حكام الأندلس، ونجح من خلال ذلك في استرجاع معظم الثغور التي احتلت في عهد عبد الرحمن الناصر، ونتيجة لذلك قامت الحرب بين الأمويين والأدارسة، ومن أجل القضاء على الإدريسي، جَنَّد الخليفة الأموي الحكم المستنصر كل إمكانات الدولة البشرية والمادية بداية من سنة 362هـ - 972م، حيث "أنفذ إليه وزيره محمد بن القاسم بن طملس في جيش عظيم وعدة كاملة"، ولكنه هزم وقتل معه من الجند الأندلسيين خلقا عظيما"، ولذلك استدعى الحكم مولاه غالب من مدينة سالم فيمن معه من رجال الثغر، وضمّ إليه جيشا عظيما، وحمل معه أموالا جسيمة وعدة واسعة عريضة"[2].

لقد جرّد الخليفة الأموي إمكانات ضخمة، بشرية ومادية، من أجل القضاء على ثورة الحسن بن قنون (جنون)، ويؤكد ذلك ابن حيان حين يقول: إن الحكم المستنصر "قاد خيول الأندلس إليهم، وربط أكابر قواده بثغرهم، وغطّى البحر بينه وبينهم بأساطيل الأموال والأسلحة والعدد والأطعمة"[3]، ورغم مبالغة المؤلف إلا أن ذلك يدلّ بوضوح على أهمية العدوة المغربية بالنسبة لحكام قرطبة لأنها تمثل بالنسبة إليهم صمّام الأمان الذي يبعد عنهم العدو الشيعي المقيم بإفريقية، والممثل في هذا الوقت من طرف بني زيري الصنهاجيين.

إن الإمكانات الضخمة التي استعملها الخليفة الأموي في حربه ضد الأدارسة

---

(1) بدأت هذه الحملة سنة 361هـ - 971م - مجهول - مفاخر البربر - ص 129.

(2) نفسه - ص 130 - 131.

(3) ابن حيان - المقتبس - تحقيق عبد الرحمن علي الحجي - ص 191.

تؤكد على تصميم الحكم على استعادة سلطانه على ثغور المغرب الأقصى من جهة، كما تدل على ضراوة الحرب التي دارت بين الطرفين من جهة أخرى، ونتيجة لذلك اضطرّ عدد كبير من البربر إلى هجرة بلادهم، والتوجه إلى العدوة المقابلة نظرا لانعدام الأمن ببلادهم أو رغبة في الدخول في طاعة الأمويين طمعا في المغانم، كما أن عددا آخر من المغاربة قد حملوا إلى قرطبة عقب انهزام زعيم الأدارسة سنة 364هـ - 974م.

من خلال كل ما سبق ذكره يتبين لنا جليا أن الأوضاع السياسية التي عاشها المغرب خلال القرن الرابع الهجري، والتي ميزها الصراع الأموي الفاطمي من أجل فرض الهيمنة على بلاد المغرب، وبخاصة المغربيين الأوسط والأقصى كانت السبب الرئيس في ازدياد الهجرة البربرية إلى العدوة الأندلسية، إذ نتج عنه انعدام الأمن والاستقرار، وتدهور الأوضاع الاقتصادية بفعل الحروب المستمرة بين الطرفين، وانتشار أعمال القتل بين المتحاربين، ولم ينج من ذلك حتى المسالمين منهم، كما أن ذلك من شأنه أن يدفع المزارعين إلى هجرة أراضيهم، ومن ثم إلى إهمال النشاط الزراعي، وكنتيجة لذلك يقل الإنتاج وترتفع الأسعار، ويؤدي ذلك إلى ركود التجارة نظرا لضعف القدرة الشرائية للسكان بفعل قلة المداخيل من جهة، وانعدام الأمن عبر الطرق التجارية من جهة أخرى.

إن هذه الأوضاع المتردية من شأنها أن تدفع المجتمعات التي تعيشها إلى البحث عن مناطق بديلة توفر لها ما افتقدته في بلادها الأصلية، وهو ما سعى المغاربة إلى تحقيقه من خلال هجرتهم إلى بلاد الأندلس.

4) **سياسة حكام الأندلس تجاه المغاربة**: نظرا لكثرة الثورات التي قام بها مختلف عناصر المجتمع الأندلسي، وبخاصة منهم المولدين والعرب، لجأ حكام الأندلس خلال القرن الرابع الهجري إلى الإعتماد على البربر والصقالبة في مواجهة أعدائهم، ولعلّ العامل الرئيس الذي دفعهم إلى الإعتماد على المغاربة هو ما تميزوا به من صفات الشجاعة والبأس والفروسية والنجدة، وقد تأكدوا من ذلك عقب حروبهم معهم، وبخاصة خلال المواجهة بين الأدارسة والأمويين.

لقد واجه عبد الرحمن الناصر في بداية حكمه العديد من الثورات وحركات العصيان التي قام بها المولدون والعرب خاصة، كما استغلّ النصارى تلك الظروف؛ فقاموا بعدة هجمات على بلاد المسلمين، وبخاصة ضدّ حدود الدولة الإسلامية المتاخمة لهم، لذا كان الخليفة الأموى في حاجة إلى قوة يعتمد عليها في إخماد الثورات التي كانت منتشرة في أنحاء كثيرة من دولته، ويستطيع بواسطتها إيقاف المدّ الإسباني، ومن أجل تحقيق ذلك سعى إلى جلب عدد كبير من فرسان البربر إلى الحضرة، والاستعانة بهم في تحقيق أهدافه[1]، وذلك بداية من سنة 317هـ - 929م.

وإذا كان اعتماد الناصر على البربر محدودا في المجال العسكري مقارنة بابنه الحكم وحاجب حفيده هشام؛ فإن هذا الأخير سيجعل منهم حجر الزاوية في تشكيل جيشه الجديد.

لقد عمد المنصور بن أبي عامر إلى تكوين جيش يدين له بالولاء والطاعة التامتين، وتتوفر فيه المواصفات التي تجعله قادرا على تمكين قائده من فرض سلطته على الجميع، ومن أجل إنشاء هذه القوة، "أنفذ المنصور كتبه إلى العدوة" يستدعى من خلالها فرسان البربر وأنجادهم، "ويتضمن الإحسان إليهم والتوسعة عليهم حتى كثروا بالأندلس، وقد صار بها منهم القبائل بأسرها"[2]، ويؤكد ذلك أحد أحفاد البربر الذين شملهم هذا الإستدعاء حين يتكلم عن جواز أجداده إلى العدوة الأندلسية سنة 391هـ - 1001م حيث يقول: "فاستجلب المنصور من رؤساء البربر وحماتها وأنجادها من بلغه فروسيته"[3].

كان الهدف من وراء استدعاء البربر وجلبهم إلى بلاد الأندلس، وبخاصة منهم الفرسان والأنجاد واضحا؛ فقد استدعى المنصور بن أبي عامر أهل العدوة من رجال القبائل البربرية من أجل غاية واحدة؛ "فقد رتب منهم جندا واصطنع أولياء وعرّف

---

(1) ابن حيان - المقتبس - ج5 ص 257.
(2) ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص 294.
(3) عبد الله بن بلقين - كتاب التبيان - ص 57.

عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال ومكناسة وغيرهم"، وبواسطة هذا الجيش الذي شكله الحاجب الأموي "تغلب على هشام وحجره واستولى على الدولة"[1]، وكانت تلك غايته القصوى من تكوين هذا الجيش الجديد.

من خلال ما سبق يتأكد لنا فعلا أن الظروف السياسية كانت السبب الرئيس في انتقال البربر بأعداد كبيرة إلى العدوة الأندلسية، ذلك أن الحروب التي كانت تعيشها بلادهم بسبب الأطماع الفاطمية والأموية من جهة، والصراع القبلي من جهة أخرى، جعلت الكثير منهم يبحث عن مناطق آمنة يعيشون في كنفها، كما أن اعتماد حكام الأندلس، وبخاصة المنصور محمد بن أبي عامر عليهم في المجال العسكري جعل أعدادا كبيرة من المغاربة يهاجرون إلى العدوة الأندلسية، وشجّعهم على ذلك الإغراءات المادية التي حباهم الحكام بها حيث "أحسنوا إليهم وتوسعوا عليهم"[2].

ب - **الدوافع العلمية**: يجمع المؤرخون والدارسون[3] على أن الأندلس بلغت في عهد الخلافة ذروة التقدم والإزدهار في جميع المجالات، وبخاصة في المجال العلمي والفكري حيث اجتمع في حواضرها الكبرى عدد كبير من الكفاءات من العلماء والدارسين والراغبين في العلم، وقصدها العلماء وطلاّب العلم من المشرق الذي ضاق بأهل العلم والمعرفة، ومن المغرب نظرا للظروف التي كان يمر بها خلال القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي -، ولم يتردد حكام قرطبة من جانبهم في مباركة هذا النشاط العلمي، حيث سعوا إلى توفير الأمن والاستقرار لهؤلاء الوافدين؛ فأحاطوهم برعايتهم وغمروهم بعطاياهم.

---

(1) ابن خلدون - العبر - ج7 ص 319.

(2) ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص 294.

(3) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 38/د. عبد الرحمن علي الحجي - التاريخ الأندلسي - ص 299/د. أحمد مختار العبادي - في التاريخ العباسي والأندلسي - دار النهضة العربية - بيروت - بدون تاريخ ص 414/حسين مؤنس - معالم تاريخ المغرب والأندلس - ص382/ السيد عبد العزيز سالم - في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس - مؤسسة شباب الجامعة - إسكندرية - 1985ص 379../ L. Provençal - Opcit - T2 P163

كان حكام قرطبة مستنيرين يقدرون العلم والمشتغلين به[1]، من ذلك أن الحكم المستنصر بالله كان "جامعا للعلوم، محبا لها، مكرما لأهلها"، ولم يكتف بذلك بل "جمع من الكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله هنالك، وذلك بإرساله عنها إلى الأقطار، واشترائه لها بأغلى الأثمان"[2].

ولم يخرج المنصور بن أبي عامر عن هذه القاعدة؛ فكان هو الآخر كما يقول عنه الضبّي "محبا للعلم، مؤثرا للأدب، مفرطا في إكرام من ينسب إليهما، ويفد عليه متوسلا بهما"، وبالإضافة إلى هذا كله، كان له "مجلس معروف في الأسبوع يجتمع فيه أهل العلوم للكلام فيها بحضرته ما كان مقيما بقرطبة"[3].

بفضل السياسة الحكيمة التي انتهجها حكام قرطبة، والمتمثلة في إكرام العلماء وإحاطتهم برعايتهم، تقدمت العلوم تقدما ملموسا، وبخاصة في عهد الخلافة، واشتغل كثير من الأندلسيين في مجالات علمية وفكرية متنوعة، ونبغوا في الكثير من هذه العلوم[4]، وهو الأمر الذي انعكس إيجابا على مركز الأندلس العلمي، حيث أصبحت هذه البلاد قبلة للعلماء وطلاّب العلم.

ونظرا للظروف التي كان يمر بها المغرب، والتي يميزها الصراع الفاطمي الأموي من جهة، والصراع بين القبائل البربرية من جهة أخرى، اضطرّ الكثير من العلماء وطلاب العلم إلى اجتياز المضيق والاستقرار بالعدوة الأندلسية، فمن الذين هاجروا من المغرب بهدف التعليم:

* أبو الحسن علي بن سعيد بن أحمد الهواري الذي قدم إلى طليطلة سنة

---

(1) جاسم بن محمد القاسمي - تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس - مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية - 1999 - ص 101.

(2) الحميدي - جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس - تحقيق روحية عبد الرحمن السويفي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط1 1417هـ - 1997م ص19.

(3) نفسه - ص 70.

(4) السيد عبد العزيز سالم - في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس - ص283 - 284.

399هـ/1009م، وحدّث بها، وسمع عنه العديد من الأندلسيين[1].

* أبو زيد عبد الرحمن بن بكر بن حماد التيهرتي، من أهل القيروان، وقدم إلى الأندلس حيث حدّث عن أبيه، وكتب عنه غير واحد من شعر أبيه ومن حديثه[2].

* أبو هارون موسى بن يحيى الصديني، من أهل فاس، كان فقيها حافظا للمسائل عالما بالرأي، وقد دخل الأندلس وتردد في الثغر، وكتب عنه هناك[3].

* أبو محمد سرواس بن حمود الصنهاجي الذي سكن طليطلة، وحدّث بها عن أبي ميمونة درّاس بن إسماعيل الذي كان من أصحابه، وكان معلما للقرآن[4].

* أبو سعيد خلف بن مسعود الجراوي الذي قال ابن حيان عنه: إنه قدم قرطبة سنة 393هـ - 1003م؛ فحمل عنه بها علم كثير[5].

أما الذين هاجروا إلى الأندلس طلبا للعلم فمنهم:

* أبو الفضل أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد التميمي التيهرتي البزّاز الذي دخل قرطبة، وهو ابن ثمان سنين مع أبيه، وسمع من علماء الأندلس، واختصّ بالقاضي منذر بن سعيد، وسمع منه تواليفه كلها - ولد سنة 309هـ - 921م، ودخل الأندلس سنة 317هـ - 929م[6].

* أبو علي الحسين بن علي الفاسي الذي ذكره الحميدي، وقال: إنه كان من أهل العلم والفضل مع العقيدة الخالصة، وقال عنه أيضا: لم يزل يطلب ويختلف إلى

(1) ابن بشكوال - كتاب الصلة - تحقيق السيد عزت العطّار الحسيني - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط2 1414هـ - 1994م - ج2 ص 406.

(2) ابن الفرضي - تاريخ علماء الأندلس - - مكتبة المدرسة - دار الكتاب اللبناني - ط1 1403هـ - 1983م ج 1 ص 457.

(3) ابن الفرضي - تاريخ علماء الأندلس - تحقيق إبراهيم الأبياري - دار الكتب الإسلامية - ط1 - 1404 هـ - 1984م - ج2 ص855.

(4) ابن بشكوال - نفس المصدر - ج1 ص 227.

(5) نفسه - ج1ص 175.

(6) الضبي - بغية الملتمس - ص 171 - 172/ ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج 1 ص 86.

العلماء محتسبا حتى مات[1].

* أبو عبد الرحمن يصلتين بن داود الأغماتي، ويقول ابن الفرضي: إنه قدم علينا قرطبة طالبا؛ فسمع معنا، وجمع كتبا عظيمة، وخرج منصرفا إلى بلده سنة 371هـ، أو 372هـ - 981 أو 982م[2].

* أبو عمران بن عيسى بن أبي حاج الغفجومي الفاسي الذي قدم الأندلس طالبا للعلم؛ فسمع العديد من علمائها، ثم توجه إلى بغداد سنة 399هـ - 1009م[3].

* أبو يحيى زكرياء بن بكر بن أحمد الغسّاني، وهو من أهل تيهرت، دخل الأندلس مع أبيه وأخيه سنة 326هـ - 937م، وسمع بقرطبة من علمائها، ثم رحل إلى المشرق طلبا للعلم، وبعدها عاد إلى قرطبة؛ فاستقرّ بها حتى وفاته[4].

* أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن محمد الأصيلي، من أهل أصيلا، ويقول عنه ابن الفرضي: "سمعته يقول: قدمت قرطبة سنة 342هـ - 953م؛ فسمعت بها من أحمد بن مطرف وأحمد بن سعيد ومحمد بن معاوية القرشي وأبي بكر اللؤلئي وأبي إبراهيم، ورحلت إلى وادي الحجارة، إلى وهب بن مسرّة؛ فسمعت منه، وأقمت عنده سبعة أشهر، وكانت رحلتي إلى المشرق في المحرم سنة 351هـ - 962م[5].

* أبو ميمونة درّاس بن إسماعيل المالكي الفاسي الذي "دخل الأندلس، وتكرّر بها طالبا، كما سمع منه غير واحد لأنه كان فقيها حافظا[6].

ج - **الدوافع الدينية**: وتتمثل في رغبة الكثير من أهل العدوة المغربية مشاركة

---

(1) الحميدي - جذوة المقتبس - ص169/ ابن بشكوال - الصلة - ج1 ص138/ الضبي - بغية الملتمس - ص228.

(2) ابن الفرضي - تاريخ علماء الأندلس - ج 2 ص 948 - 949.

(3) ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج 2 ص 577 - 578.

(4) الحميدي - جذوة المقتبس - ص 275 - 276.

(5) ابن الفرضي - تاريخ علماء الأندلس - ج2 ص426 - 427/ ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج1ص213.

(6) الضبي - بغية الملتمس - ص 251.

إخوانهم الأندلسيين في الجهاد، ومحاربة النصارى المتواجدين بالتخوم الشمالية والشمالية الشرقية لبلاد المسلمين، وبخاصة مع وجود حكام أبلوا البلاء الحسن في هذا المجال؛ فمن ذلك أن المنصور بن أبي عامر لوحده جرّد "نيفا وخمسين غزوة، وفتح فتوحا كثيرة"[1].

ومن البربر الذين انتقلوا إلى العدوة الأندلسية من أجل الجهاد بشكل فردي نذكر كلا من:

* موسى بن يحيى الصديني الذي دخل الأندلس، وتردد في الثغر[2].

* دراس بن إسماعيل أبو ميمونة الذي دخل الأندلس، وتكرر بها طالبا ومجاهدا[3].

* أبو علي الحسين بن أبي العافية الذي قدم طليطلة مرابطا[4].

* محمد بن الخير بن محمد اليفرني الذي تنازل عن رئاسة قومه لصالح ابن عمه، وارتحل إلى الأندلس يرسم جهاد الروم سنة 344هـ - 955م[5].

* أبو جعفر أحمد بن خلوف المسيلي المعروف بالخياط الذي سكن الثغر أعواما كثيرة مجاهدا حتى شهر فيه، وعلا ذكره هناك[6].

* أبو زكرياء يحيى بن خلف الصدفي السبتي، وأصله من بصرة المغرب، الذي دخل الأندلس غير مرّة مرابطا في ثغرها ومجاهدا[7].

مما لا شكّ فيه أن البربر المتحمسين للذود عن دينهم قد ساهموا بشكل كبير في مواجهة اعتداءات النصارى على المسلمين، وصدّوا حملاتهم المتعددة، وذلك

---

(1) نفسه - ص 100.

(2) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج2 ص 855.

(3) ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج 1 ص 139.

(4) ابن أبي زرع الفاسي - الأنيس المطرب - ص 88.

(5) ابن الفرضي - تاريخ علماء الأندلس - ج 1 ص 129.

(6) نفسه - ج 2 ص 926.

(7) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 3 ص 5.

بالتطوع في الجيوش التي كان يقودها الخلفاء أو من ينوب عنهم، وكانت أعدادهم كبيرة رغم إغفال المصادر لذكرها، وقد أوردنا فيما سبق نصا لابن عذاري عند حديثه عن أولى غزوات عبد الملك المظفر إلى بلاد جليقية[1]، ويؤيده في ذلك أي في كثرة المتطوعين المغاربة في صفوف الجيش الأندلسي لسان الدين بن الخطيب حيث يقول: إن الحاجب العامري: "كان يفيض العطاء في المطوعة التي تعبر البحر للجهاد معه من أرض العدوة وجبال البرابرة"[2].

إن هذين النصين يثبتان فعلا أن البربر كان لهم دور كبير في مواجهة النصارى، ولو ذكرت المصادر التاريخية كل المعلومات المتعلقة بالمشاركين في الغزوات التي جردها الخلفاء الأمويين وحكام الدولة العامرية لأمكننا العثور على معلومات أوفى تؤكد الدور الجهادي الذي قام به المغاربة.

د - **الدوافع الاقتصادية:** كانت بدورها وراء هجرة العديد من سكان المغرب إلى العدوة الأندلسية التي تميزت في هذه الفترة أي القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي - ببلوغها ذروة التقدم والإزدهار في المجال الاقتصادي.

لقد شهدت الأندلس خلال هذا القرن تطورات هامة مسّت الأساليب التقنية للفلاحة مما أدى إلى اتساع المساحات المزروعة وضخامة الإنتاج الزراعي[3]، كما احتضنت الحواضر الأندلسية من الدروب الحرفية والأسواق التجارية، والفنادق والحمامات، ومختلف أنواع الخدمات ما يفصح عن حدوث نهضة تجارية وصناعية نمودجية[4]، ولم تتوقف دور الضرب طوال عصر الخلافة عن إصدار الدراهم الفضية والدنانير الذهبية التي اشتهرت بجودتها وحسن عيارها حتى غدت نموذجا للسك لدى

(1) نفسه - ج 3 ص4.
(2) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 87.
(3) Gustave Lebon - la civilisation des arabes - SNED - Alger - 1969 - p 208/
المنوني وآخرون - التاريخ الأندلسي من خلال النصوص - ص40.
(4) نفسه - ص 41.

العديد من الممالك الإسلامية والمسيحية على حد سواء[1]، وقام الضرب فيها من خالص الذهب والفضة[2].

وبلغت مداخيل بيت المال في عهد الحكم الثاني ثلاثمائة مليون دينار[3]، "مع عظم مرافقه وجباياته ووفور خزانته وأمواله"، وكانت سكة دار ضربه على الدنانير والدراهم ضمانها في كل سنة مائتا ألف دينار، ويكون عند صرفه سبعة عشر بدينار، ثلاثة آلاف وأربعمائة ألف درهم[4].

ويدل على هذا الرخاء ما أقدم عليه عبد الرحمن الناصر عند بنائه لمدينة الزهراء، حيث عرض أربعمائة درهم على كل من يرغب في بناء دار إلى جواره، وكانت الاستجابة واسعة حيث تسارع الناس إلى العمارة، وتكاثفت الأبنية وتزايدت[5]، وهو الأمر الذي يثبت أن الخليفة الأموي قد أنفق مبالغ مالية ضخمة في بناء هذه المدينة، وفي تشجيع الناس على البناء فيها.

استغلّ حكام قرطبة هذا الرخاء الاقتصادي والثراء المادي من أجل كسب المزيد من الأنصار والأتباع، من ذلك أنهم قاموا بتوزيع مبالغ مالية ضخمة بهدف جلب فرسان البربر إلى الحضرة، أو كسب القبائل البربرية إلى صفهم، ويؤكد ذلك ما تضمنته وصية الخليفة الأموي الحكم المستنصر بالله لقائده غالب، مولى الناصر عند تكليفه بحرب الأدارسة الثائرين على الحكم الأموي، حيث قال له: "وابسط يدك في الإنفاق، فإن أردت نظمت الطريق بيننا قطار مال"،[6] ومن ذلك أيضا أن الحكم دفع إلى جعفر ويحيى ابني علي ولاة المغرب الأقصى باسمه سنة 365هـ - 975م "مالا

---

(1) نفسه - ص 41.

(2) ابن حيان - المقتبس - ج 5 ص 243 - 244.

(3) Gustave Lebon - opcit p 209.

(4) ابن حوقل - صورة الأرض - دار الكتاب الإسلامي - القاهرة - بدون تاريخ - ص 104.

(5) ابن حوقل - صورة الأرض - ص 107.

(6) مجهول - مفاخر البربر - ص 131.

وكسى واسعة للخلع على ملوك العدوة"[1].

في الوقت الذي كانت فيه بلاد الأندلس تنعم بالرخاء الاقتصادي، كان المغرب يعاني من حالة اقتصادية متدهورة، وبخاصة الأجزاء الخاضعة للحكم الفاطمي حيث كانت سياسة الفاطميين تقوم على جشع مالي بالغ؛ فقد كانوا يجبون من المال مبالغ ضخمة إلى درجة أنهم فرضوا على الحجاج جميعا المرور بالمهدية من أجل دفع ضريبة الحج، ومع ذلك كله لم يشقوا طريقا، ولا أنشأوا سوقا، ولا نفعوا قبيلة من القبائل التي خدمتهم، أما التي لم تخضع لسلطتهم مثل زناتة فقد حاربها العبيديون، واثقلوا كاهل أفرادها بالجبايات حتى يظلوا في فقر، ولا يفكروا في الثورة عليهم.

نتيجة لهذه السياسة ثارت القبائل المعادية لحكام إفريقية، وأكبر ثورة واجهها هؤلاء تلك التي قادها أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي، ودامت أربع عشرة سنة، وكاد من خلالها أن يقضي على الوجود الفاطمي ببلاد المغرب لولا تحالف الصنهاجيين مع العبيديين، وتدعيمهم في حربهم ضد الثائرين عليهم، وبفضل مساعدتهم نجح الفاطميون في القضاء على ثورة أبي يزيد سنة 336هـ - 948م[2].

تسببت هذه الثورات في أعمال القتل والتخريب والتدمير، وهي العوامل التي لا تشجع الناس على الاستقرار والعمل، وبالعكس فهي تحفزهم على مغادرة البلاد، والبحث عن موطن جديد يضمن لهم ولأهلهم الأمن والاستقرار ووسائل العيش.

لقد تدهورت الأوضاع الاقتصادية في بلاد المغرب جرّاء الأحداث السياسة التي عاشتها خلال القرن الرابع الهجري؛ ففي بدايته دارت حروب طاحنة بين الفاطميين الراغبين في بسط سلطانهم على كامل تراب المغرب، وإخضاع القبائل البربرية التي رفضت الإنضواء تحت لوائهم على غرار ما فعلته قبائل كتامة وصنهاجة الموالية لهم، ومن القبائل التي رفضت الخضوع لهم زناتة (بنو يفرن، بنو خزر..)

---

(1) نفسه - ص 136.

(2) السيد العزيز سالم - المغرب الكبير - ج 2: العصر الإسلامي - دار النهضة العربية - بيروت 1981م ص 605/ حسين مؤنس - معالم تاريخ المغرب والأندلس - ص 152 - 155.

ومكناسة، ومن أجل الوقوف في وجه العبيديين، استجاروا بالأمويين الذين لم يدخروا جهدا ولا مالا من أجل مواجهة حكام إفريقية، والعمل على إبعادهم عن المناطق المغربية القريبة منهم، ونتيجة لذلك دار صراع مرير بين الطرفين، ومن خلاله بين القبائل البربرية الموالية لأحدهما، وكانت النتيجة أن انعدم الأمن والاستقرار، وهجر الفلاحون أراضيهم وقلّ الإنتاج، وساءت الأحوال الاجتماعية لأهل المغرب، وعلى العكس من ذلك لاحظ هؤلاء الإمكانات الضخمة التي سخرها بنو أمية، والأموال الطائلة التي أنفقوها من أجل تحقيق أهدافهم، وهو الأمر الذي أثار في نفوسهم الرغبة في الهجرة إلى العدوة الأندلسية على أمل تحسين ظروفهم الاقتصادية والاجتماعية.

استقرار البربر بالأندلس والعوامل المتحكمة فيه: بعد تعرفنا على أهم الهجرات التي قام بها البربر إلى الأندلس، والدوافع التي كانت وراءها، يجدر بنا الآن أن نتطرق إلى المناطق التي استقرّ بها هؤلاء المهاجرين الذي اختاروا العدوة الأندلسية كموطن جديد لهم.

يتفق جلّ المؤرخين والدارسين حول فكرة استقرار البربر في المناطق الجبلية والهضاب الجافة، بينما استقرّ العرب في المناطق السهلية، ولكنهم يختلفون بعد ذلك في تفسير أسباب هذا التوزع.

ومن الذين قالوا بهذه الفكرة المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال الذي يؤكد في دراساته المختلفة المتعلقة بتاريخ المسلمين في الأندلس، أن البربر قد استقروا في المناطق الجبلية، ويرجع سبب ذلك إلى استحواذ العرب على أخصب الأراضي، وتوجيه البربر نحو الجبال والهضاب الجافة[1].

ويؤيده في ذلك دوزي حين يقول: إن البربر هم الذين فتحوا بلاد الأندلس فعلا، "ولم يفعل موسى والعرب أكثر من جني ثمار النصر الذي أصابه طارق وبربره الإثنا عشر ألفا على جيش القوط الغربيين"، ويضيف أنه "حينما وطئت أقدام العرب

---

(1) E. L. Provençal - Histoire de L'espagne musulmane - t1 - p. 8 / E. L Provençal - L'espagne Musulmane au 10éme siecle - pp. 23 - 25.

الساحل الإسباني لم يكن باقيا أمامهم إلا احتلال بعض البلدان التي ما كان لها إلا أن تستسلم عند أول ضربة، ومع ذلك ورغم قلة المجهود الذي بذلوه؛ فإنهم خرجوا بنصيب الأسد حين جاء دور تقسيم ثمار الفتح، حيث نال العرب أحسن ما في الغنيمة ألا وهو حكومة الإقليم وأخصب بقاعه"[(1)].

لقد استأثر العرب بالأندلس الجميلة الخصبة، واقصوا أتباع طارق إلى سهول لامانشا وإسترمادورا الجدباء، والمناطق الجبلية القاحلة في ليون وغاليسية واستوريش حيث وقع عليهم بلا انقطاع عبء مكافحة النصارى[1].

وبنفس الفكرة اقتنع الدارسون الإسبان الذي يتفقون على أن الأراضي الجبلية كانت من نصيب البربر، بينما استولى العرب على الأراضي السهلية، ومن ذلك أن باحثة إسبانية تقول، وهي تتحدث عن توزيع الأراضي بين العرب والبربر: "لقد تأكد في مناسبات مختلفة أن العرب اختصوا أنفسهم بالمناطق الأكثر خصوبة، ودفعوا سكان شمال إفريقيا أي البربر إلى المناطق الجبلية والجافة"، وتفسر سبب ذلك التوزيع غير العادل قائلة: "إن العرب فرضوا هذا التقسيم نظرا لتحكمهم في البلاد"[(2)]، أي امتلاكهم للسلطة حيث أن الولاة الذين تعاقبوا على حكم الأندلس كلهم من أصول عربية، ويحمل بعضهم فكرة التعصب لبني جلدته، وهو ما سيتأكد للدارس من خلال التطرق إلى تصرفات بعض الولاة، وما تسببوا فيه من حروب بين عناصر المجتمع الأندلسي بصفة عامة، وبين العرب والبربر بصفة خاصة.

اقتنع المؤرخون والباحثون العرب أيضا بفكرة استقرار البربر في المناطق الجبلية، ولكنهم اختلفوا مع غيرهم في تفسير ذلك.

يقول مصطفى أبو ضيف: "أما البربر وكانت مواطنهم في جبال الريف المطلة على البحر المتوسط وغيرها من الجبال التي تطل على ساحل المحيط الأطلسي؛ فقد ألفوا المناطق الجبلية في الأندلس مثل منطقة رندة الجبلية في الجنوب"، ولتأكيد

---

(1) دوزي رينهارت - تاريخ مسلمي إسبانيا - تعريب حسن حبشي - ص 156 - 157.

(2) Helena De Felipe - Opcit - p 278.

تفضيل البربر للمناطق الجبلية على غيرها يذكر في مكان آخر أنهم رفضوا خلال الفتح منطقة سهلية أقطعت لهم في قرطاجنة، ويعلق على ذلك قائلا: "وفي هذا عدم إهتمام البربر بالسهول، وتفضيلهم المناطق الجبلية حيث يقفون على أبواب غاليسية كمرابطين لنشر الإسلام"[1].

ويقول عبد الرحمن علي الحجي في نفس السياق: "لعلّ سكنى بعض النواحي الجبلية من قبل مجموعات من مسلمي البربر قد تم بناء على رغبتهم، وذلك يتناسب مع ما اعتادوا عليه في الشمال الإفريقي حيث بعض مناطقهم جبلية مرتفعة معروفة على الشاطئين الشمالي (البحرالمتوسط) والغربي (المحيط الأطلسي)[2].

من خلال هذين النموذجين للمؤرخين العرب، نلاحظ أنهم يتفقون مع نظرائهم الأوروبيين في مسألة استقرار البربر في المناطق الجبلية، ولكنهم يختلفون معهم في تفسير أسباب ذلك، وإذا كان المؤرخون الأوروبيون السابق ذكرهم قد أرجعوا ذلك إلى إرغام العرب لهم على الاستقرار بهذه المناطق؛ فإن الباحثين العرب أعطوا تفسيرا آخر تمثل في أن البربر هم الذين اختاروا الاستقرار في المناطق الجبلية لكونهم كانوا في مواطنهم الأصلية من سكان الجبال، وذلك أمر فيه نظر إذ من خلال تصفحنا لكثير من المصادر التاريخية يتبين لنا أن البربر لم يكونوا مقتصرين على سكنى الجبال في بلادهم الأصلية.

إن اختيار البربر للمناطق الجبلية كمناطق استقرار لا يمنع وجود من سكن السهول والمدن منهم، ذلك أن بلادهم لم تكن جبلية بحتة، وفي بلدانهم هذه كان من البربر من يسكن الجبال، ومنهم من يسكن المناطق المنبسطة والمدن، وما يؤكد ذلك هو ما جاء على لسان مؤلف كتاب الإستبصار حين يتكلم عن موطن البربر بالمغرب؛ فيقول متحدثا عن جبل فازاز: "وهو جبل كبير تسكنه أمم كثيرة من البربر، ويطردهم

---

(1) أبو ضيف مصطفى أحمد - القبائل العربية في الأندلس - ص 79.

(2) عبد الرحمن علي الحجي - التاريخ الأندلسي - ص 137.

الثلج منه؛ فينزلون إلى ريف البحر الغربي، وهم أهل كسب من الغنم والبقر والخيل"[1]، ويؤيده في ذلك ابن الأحمر الذي يقول: "أما البربر فمن كان من أهل الحاضرة استقرّ في المدن، ومن كان من أهل البادية استقرّ بالوادي[2].

من خلال هذين النصين نستنتج أن البربر كانوا يسكنون الجبال والسهول، البوادي والحواضر في مواطنهم الأصلية، وبالتالي فإن الدارسين الأوروبيين قد ارتكزوا على الدراسات التي قام بها الأنتروبولوجي (Montagne) الذي يخلص إلى أن "البربر يفضلون حياة العزلة والبعد عن السلطة، ومن أجل تحقيق ذلك ينكمشون في المناطق الجبلية"[3]، وهي الخلاصة التي لا تنطبق تماما مع واقع سكان بلاد المغرب.

ومع ذلك فهناك من الباحثين الأوروبيين من خرج عن هذه القاعدة، ويتعلق الأمر خصوصا بالباحث الفرنسي بيير قيشار الذي يعطي تفسيرا أكثر توازنا حيث يقول: إن "البربر يقطنون في مناطق جبلية كثيرة، ولكن هذا لا يمنع وجودهم في مناطق سهلية في حوض الوادي الكبير وسهول شرق الأندلس"[4]، وهو في ذلك يرتكز على جملة من الإشارات التي وردت في المصادر العربية، والتي تؤكد على استقرار البربر في المناطق السهلية الخصبة، وسنعود إليها عند ذكر مواطن البربر في الأندلس.

يتفق معظم الباحثين العرب على أن إقامة البربر بالمناطق الجبلية كان نابعا من رغبتهم، ولم يجبرهم العرب على ذلك، وفي هذا الشأن يقول حسين مؤنس، وهو يعقب على رأي دوزي السالف الذكر: إن جماعات بربرية كثيرة كانت مستقرة في أخصب نواحي الأندلس في الجنوب والشرق والغرب، بل كادت ناحية الجزيرة الخضراء أن تكون مقصورة عليهم لكثرة من نزلها من بطونهم وعشائرهم"، ويفسر ذلك

---

(1) مجهول - كتاب الاستبصار في خبر الأقطار - ص187.

(2) ابن الأحمر وآخرون - بيوتات فاس الكبرى أو ذكر بعض مشاهير فاس في القديم - دار المنصور - الرباط - 1972م - ص25.

(3) Montagne.R. - la Vie Soc. Et Pol. Des Berberes ; Regards Sur le Maroc - Cheam - Paris - 1986 - pp 32 - 33.

(4) Guichard Pierre – opcit - P 275.

بقلة العرب مقارنة بالبربر، وهو ما يجعل استحواذهم على كل سهول بلد عظيم واسع كالأندلس من الأمور المستحيلة، كما أن الكثير من العرب كانوا أهل جهاد مقيمين دوما في منطقة جبال البرت[1] (البرتات) وما وراءها من نواحي أربونة[2]".

ويقول مصطفى أبو ضيف أحمد: "وحقيقة الأمر أن المسلمين الفاتحين الذين دخلوا البلاد عربا وبربرا استقروا حيث نزلوا أو ساروا، ولجأ كل فريق منهم إلى ما يناسب مزاجه من النواحي، فأما العرب فكانوا يفضلون دائما البسائط والمنخفضات والنواحي الدافئة والقليلة المطر في الجنوب والشرق والغرب وناحية سرقسطة، أما البربر فقد اختاروا المناطق الجبلية في الأندلس، ومع ذلك فقد استقرت القبائل البربرية أيضا في المناطق السهلية"[3]، وهو بذلك يناقض ما ذهب إليه سابقا من أن البربر كانوا يفضلون المناطق الجبلية على غيرها.

يتفق أغلب الباحثين العرب أيضا على أن حرية اختيار الموطن كانت متروكة لكل الفاتحين، وبالعودة إلى المصادر التاريخية يمكننا إثبات ذلك.

إن المسلمين الذين استقروا في الأندلس إبّان الفتح اختاروا المناطق التي سكنوها حسب الموقع الذي يناسبهم، لقد سكن العرب والبربر مع بعضهم البعض أو انفرد كل عنصر بناحية من بلاد الأندلس، فالعرب الأوائل الذين اشتهروا فيما بعد باسم البلديين "لما رأوا بلادا أشبه ببلادهم خصبا وتوسعة سكنوا واغتبطوا وتمولوا"[4]، وبعد التحاق موسى بن نصير بطارق بن زياد سار الجيش الإسلامي نحو الشمال، "وكانت

---

(1) البرت أو البرتات وتسمى بالإسبانية Pirineos هي جبال تفصل بين الأندلس وجنوب فرنسا، وأصل الكلمة لاتيني Porta أي الباب أو المدخل، ويقول البكري عنها: "ومنها جبل البرت، وهو الحاجز بين بلاد الإسلام وبلد غاليش" - البكري - جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك - تحقيق عبد الرحمن علي الحجي - بيروت - 1378هـ - 1968م - ص 85.

(2) حسين مؤنس - فجر الأندلس - ص196.

(3) أبو ضيف مصطفى أحمد - القبائل العربية في الأندلس - ص 78.

(4) (4)ابن الأبار - الحلّة السيراء - ج 1 ص 63/ ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص33/ المقري - نفح الطيب - ج 1 ص 280.

العرب والبربر كلما مرّ قوم منهم بموضع استحسنوه حطّوا به، ونزلوه قاطنين، فاتسع نطاق الإسلام بأرض الأندلس...وأقام من آثر السكنى في مواضعهم التي كانوا قد اختطوها واستوطنوها"[1].

إن الإختيار كما نلاحظ سار وفق رغبة المسلمين الفاتحين وطبيعة بيئتهم السابقة، وإذا كانت المناطق الجبلية تناسب البربر؛ فقد اختارها منهم من أراد "إذ كان البربر يرغبون عن سكنى المدن والقرى، وإنما بغيتهم سكنى الجبال والصحارى"[2]، فالرأي الصائب إذا هو أن البربر استقروا كل حسب ما يلائم موطنه الأصلي، ومع ذلك فإن تطور الأحداث في الأندلس سيغير الشيء الكثير من هذه الحقيقة.

لقد كان طارق بن زياد محبا للفتح والجهاد، لذلك لم يستقر الفاتحون الذين رافقوه، وهم في أغلبيتهم من البربر كما تجمع على ذلك معظم المصادر التاريخية، ولكن، ومع وصول موسى بن نصير، وإتمام عملية فتح بلاد الأندلس، شرع في توزيع الأراضي وفق القاعدة التي ذكرناها سابقا، وهي اختيار الفاتح للمنطقة التي تلائمه، ومع ذلك فهناك من فرض عليه الإختيار ذلك أنه، ومن أجل مواجهة القوط المعتصمين بأرض جليقية - أقصى شمال غرب الأندلس - قام موسى بن نصير بتكوين جدار دفاعي يحمي الأجزاء الوسطى والجنوبية من أذاهم، ومن أجل تحقيق ذلك أمر باستقرار القبائل البربرية في الجبال الواقعة في شمال طليطلة وشمال غرب الأندلس، ويؤكد ذلك ابن خلدون فيقول: "وقفل موسى بن نصير عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثغورها"[3].

وما يدفعنا إلى القول بأنه أمر القبائل البربرية بالاستقرار في هذه المناطق النصوص التاريخية التي أوردها كلا من مؤلفي أخبار مجموعة وفتح الأندلس حيث يقول الأول: "إن بربر الأندلس لما بلغهم ظهور بربر العدوة على عربها وأهل الطاعة[4]،

---

(1) المقري - نفح الطيب - ج 1 ص 276 - 280/ مجهول - فتح الأندلس - ص 33.

(2) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 7.

(3) ابن خلدون - العبر - ج 7 ص 255.

(4) يحيل المؤلف إلى ثورة البربر بالمغرب على عمال بني أمية سنة 123هـ - 741م.

وثبوا في أقطار الأندلس، فأخرجوا عرب جليقية وقتلوهم، وأخرجوا عرب أسترقة والمدائن التي خلف الدروب؛ فلم يرَ ابن قطن والي الأندلس إلاّ وبلج قد قدم عليه، وانضمّ عرب الأطراف كلها إلى وسط الأندلس إلا ما كان من عرب سرقسطة وثغرهم، فإنهم كانوا أكثر من البربر[1] ؛ فلم يهج عليهم البربر"[2].

يتبين من خلال هذا النص الذي يتكلم عن أحداث ثورة سنة 123هـ - 741م، أن عددا كبيرا من البربر كانوا مستقرين بالمناطق الجبلية الواقعة في شمال العدوة الأندلسية، وكانوا يشكلون أغلبية المسلمين المتواجدين بها باستثناء سرقسطة، قاعدة الثغر الأعلى التي كان أغلب مسلميها من العرب، وإذا لم يكن البربر هم الذين اختاروا الاستقرار بها طواعية نظرا لتلائمها مع بيئتهم الأصلية؛ فمن المرجح لدينا أنهم وجّهوا للإقامة بها من طرف موسى بن نصير الذي أقام جدارا دفاعيا لحماية ثغور دار الإسلام من اعتداءات النصارى.

ويؤكد النص الثاني نفس الرأي حيث يقول مؤلف كتاب فتح الأندلس: "وتطاولت البربر أيضا بالأندلس إلى العرب، فاتصلت فتنتهم في العدوتين في هذا التاريخ، وظهروا بالأندلس على العرب الساكنين بجليقية وأسترقة والمدائن التي خلف الدروب؛ فقاتلوهم وأطردوهم لكثرتهم هنالك وقلة العرب"[3].

ويؤيد الإصطخري فكرة وجود البربر بأعداد كبيرة في المناطق الشمالية حين يقول: "وأما نفزة ومكناسة منهم بالأندلس بين الجلالقة وبين مدينة قرطبة، وأما هوارة ومديونة فهم سكان شنتمرية"[4].

إن وجود أعداد كبيرة من البربر في المناطق الشمالية الجبلية يتطابق أيضا مع

---

(1) معنى ذلك أن البربر في المناطق الأخرى كانوا يشكلون أغلبية السكان، ولهذا تمكنوا من إخراج العرب من جليقية وأسترقة والمدائن التي خلف الدروب.

(2) مجهول - أخبار مجموعة - ص 114.

(3) مجهول - فتح الأندلس - ص 52.

(4) الأصطخري - المسالك والممالك - تحقيق م. جابر الحسيني وإ. محمد الفاسي - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - القاهرة - 1381هـ - 1961م ص 36.

مجموعة البيوتات البربرية التي ذكرها ابن حزم في جمهرته، والتي تكون خطا واحدا يبدأ من نواحي جبال البرت عند لاردة ووشقة، ثم ينحدر إلى ناحية مدينة سالم والدائرة الواسعة التي تحيط بها، وتضم شنتمرية (سهلة بني رزين) ووادي الحجارة وأحواز طليطلة، ثم تمتد مواطن البربر شمالا؛ فتشمل تيروال والبونت، ثم تتصل هذه السلسلة البربرية بناء على البيانات التي يقدمها صاحبا "أخبار مجموعة" وكتاب "فتح الأندلس"؛ فتشمل مناطق طلبيرة وماردة وقورية الواقعة بين نهري تاجة ودويرو، ثم تصل إلى ساحل البحر المحيط عند قلنبيرة.

ويذكر ابن حزم فرعا من بني الفرج، وهم من البربر الذين سكنوا طرسونة، وهم من بقايا البربر الذين كانوا يعمرون أقصى شمال الأندلس، وكانت مواطنهم تمتد بحذاء خليج بسكاية، ويستقرون في حوض نهر منهو (مينيرو)، ويتوغلون في أراضي جليقية[1]، ويؤكد ما ذكرناه سابقا الباحث سيزر دوبلر الذي اكتشف مواضع كثيرة تحمل كلها أسماء بربرية في هذه النواحي القاصية من بلاد الأندلس.

لقد ذهب هذا الباحث في كتابه القيم الموسوم بـ"منازل البربر في الأندلس" الذي نقل عنه حسين مؤنس هذه الفقرة إلى التنقيب عن أسماء المواضع الإسبانية والبرتغالية التي يمكن ردّها إلى أصل بربري، واستنتج من خلال هذه الأسماء أن البربر لا بدّ أن يكونوا قد سكنوها، وبالتالي أعطوها أسماءهم، واستطاع بذلك أن يكتشف الكثير من المنازل البربرية التي لم يسجلها المؤرخون، وترجع هذه المواضع التي ذكرها دوبلر، والواقعة في أقصى الشرق أو الشمال أو في أقصى الغرب إلى عصر الفتح الأول، لأن البربر الذين نزلوا الأندلس بداية من عهد الناصر كانوا يستقرون في المناطق الجنوبية والوسطى والشرقية، وبالاعتماد على ذلك يمكن القول بأن المواضع التالية يمكن اعتبارها منازل البربر الأولى في بلاد الأندلس، وهذه المواضع هي:

---

(1) مجهول - أخبار مجموعة - ص 114 - 115/ مجهول - فتح الأندلس - ص52/ ابن حزم الأندلسي - جمهرة أنساب العرب - مراجعة لجنة من العلماء - دار الكتب العلمية - بيروت - ط 1 1403هـ - 1983م - ص 498 - 502.

الإسم الحالي	النسبة إلى القبيلة البربرية
Villa Nova de ourem	نسبة إلى بربر وهران، وتقع في البرتغال الحالية.
Alquerubim	نسبة إلى بربر القيروان، وتقع في البرتغال.
Arzila	نسبة إلى بربر أرزيلا، وهي أصيلا، وتقع في البرتغال.
Adzenata	نسبة إلى زناتة وتقع في الشرق على مقربة من قسطليون
Senetأو Sanet	نسبة إلى زناتة، وتقع قرب لاردة.
Benisanet	نسبة إلى زناتة، وتقع بالقرب من طركونة.
Barasal	نسبة إلى بني برزال الزناتية، وتقع قرب قواردا في البرتغال.
Mequinenza	نسبة إلى مكناسة، وتقع في الثغر الأعلى عند ملتقى نهر الأيبروبنهر شقر
Cenija	نسبة إلى صنهاجة، وهي ضاحية من ضواحي سرقسطة.
Azinhaga	نسبة إلى صنهاجة، وتقع في البرتغال.
Cotanes	نسبة إلى كتامة، وتقع قرب بلد الوليد.
Cotanillos	نسبة إلى كتامة، وهو حي من أحياء شقوبية.
Gomara	نسبة إلى غمارة، وتقع بناحية سرية.
Gomeriz/Gomeris	نسبة إلى غمارة، وتقع في جليقية (غاليسيا).
Albornos	نسبة إلى البرانس، وتقع بناحية أبلة، وير ذلك من المواضع[1].

(1) حسين مؤنس - فجر الأندلس - ص 381 - 382.

وقد ذكرنا هذه الأمكنة على سبيل المثال لنستنتج أن القبائل البربرية قد انتشرت في كل أنحاء الأندلس، وبخاصة في المناطق الشمالية والغربية المتاخمة للنصارى الراغبين في استرجاع بلادهم.

لقد كانت معظم النواحي الواسعة الواقعة على نهر دويرو شمالا والحوض الأعلى لنهر إيبرو ثم ما بين نهري دويرو وتاجه عامرة بالمسلمين، ومعظمهم من البربر، وبذلك كانت تشكل حاجزا منيعا يحول دون توغل النصارى في بقية الأراضي الإسلامية، ولكن الأحداث المؤلمة التي رافقت ثورة البربر على العرب في سنة 123هـ - 741م عقب قيام إخوانهم في المغرب بثورة ضد جور وتعسف ولاة الأمويين، وهي السياسة نفسها التي انتهجها ولاة الأندلس التابعين لبني أمية، وأدت إلى ظهور فوارق اقتصادية واجتماعية كبيرة بين عنصري الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس رغم الدور الكبير الذي لعبه المغاربة في هذا الإنجاز، إضافة إلى حرمان هؤلاء من المشاركة في حكم بلاد كانوا في طليعة الفاتحين لها قد أدت إلى إضعاف المسلمين المرابطين بالثغور.

واستغلّ النصارى تلك الأحداث؛ "فثار أهل جليقية على المسلمين، وغلظ أمر علج يقال له بلاي؛ فخرج من الصخرة وغلب على كورة أستورش، ثم غزا المسلمين من جليقية، ولما كانت سنة ثلاث وثلاثين ومائة هزمهم وأخرجهم عن جليقية كلها، وصار جلّهم إلى خلف الجبل إلى أشتورقة"[1].

نتيجة للأحداث الواقعة خلال هذه الثورة؛ وعقب سنوات الإقتتال بين المسلمين، انتشرت مجاعة كبرى كان سببها "المحل الذي عمّ الأندلس سنة 131هـ - 748م، وتمادى إلى سنة 136هـ حيث استحكم الجوع والقحط في سنة 134هـ - 752 م وسنة 135هـ - 753م وبعض سنة 136هـ - 754م"[2] من جهة، وهجرة معظم الفلاحين لأراضيهم جرّاء الحروب الواقعة بين العرب والبربر من جهة أخرى، واستغلّ

---

(1) مجهول - أخبار مجموعة - ص 129.

(2) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 38.

النصارى هذه الظروف "فأخرجوا المسلمين عن اشترقة وغيرها"، ولذلك "انضمّ الناس إلى ما وراء الدروب والأخرى إلى قورية وماردة في سنة ست وثلاثين ومائة"[1].

نظرا لهذه الظروف كلها، اضطرّ البربر الذين كانوا يشكلون أغلبية المسلمين في المناطق الشمالية الواقعة "ما وراء الدروب" أي شمال نهر دويرو إلى الإنسحاب جنوبا أو العودة "إلى طنجة وأصيلا وريف البحر في العدوة"[2].

من خلال ما سبق، يتأكد لنا أن البربر استقروا وبأعداد كبيرة في المناطق الجبلية الواقعة في أقصى الشمال كما استقروا في المناطق الأخرى، وكان للظروف التي مرّ بها المسلمون في العدوة الأندلسية دور هام في تعديل الخريطة السكانية لهذه البلاد، ومن ذلك مثلا القرار الذي اتخذه أمير قرطبة الحكم بن هشام (180 - 206هـ/ 796 - 822م) عقب إخماد الثورة التي قام بها أهل الربض (شقندة) ضده سنة 202هـ - 817م، والقاضي بطرد جميع السكان من منازلهم[3]، وكان منهم عدد كبير من البربر الذين اضطروا إلى الانتقال إلى مناطق أخرى، ومنها طليطلة كما فعل يحيى بن يحيى الليثي الفقيه البربري وأسرته، وفي ذلك يقول ابن الفرضي "وكان يحيى ممن اتهم في الهيج - يعني به ثورة الربض - فهرب إلى طليطلة"[4]، وكان سبب فراره تخوفه من إلقاء القبض عليه وقتله، وحدث فعلا أن قتل أخاه عندما اكتشف أمره وهو يحاول الخروج من المدينة[5].

إن موضوع استقرار البربر والعرب بالأندلس يجرنا بالضرورة إلى الحديث عن الأرض وكيفية تقسيمها، فهل قادة العرب هم الذين قاموا بتقسيم الأرض بين الفاتحين،

---

(1) مجهول - أخبار مجموعة - ص 129.

(2) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 38.

(3) عبد الرحمن علي الحجي - التاريخ الأندلسي - ص 242.

(4) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص15 - 16/ ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص76 - 77.

(5) ابن الفرضي - تاريخ علماء الأندلس - ج2 ص900/ ابن سعيد - المغرب في حلى المغرب - ج 1ص16.

وباعتبارهم أولي الأمر استحوذوا على الأراضي الخصبة، ودفعوا البربر إلى استيطان الهضاب والمناطق الجبلية؟ أم أن الفاتحين عربا وبربر هم الذين قرروا اختيار مناطق استقرارهم بكل حرية؟

بدأ الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس سنة 92هـ - 711م، وبعد الانتصار على القوط الغربيين، والسيطرة على معظم أراضي العدوة الأندلسية، صار بإمكان الفاتحين أن يقتسموا الأراضي التي فتحوها عنوة، بينما يحتفظ المصالحون من سكان البلاد المفتوحة بأراضيهم.

لقد بسط المسلمون أيديهم على أراض العدوة الأندلسية بأشكال مختلفة، فبعضها ملكوه عنوة مثل الجنوب؛ وبخاصة أقاليم قرطبة وإشبيلية وماردة[1]، وبعضها الآخر وجده الفاتحون خاليا من السكان؛ فاستولوا عليه دون قتال مثل ما حدث مع مدينة طليطلة[2]، أما الأراضي الأخرى فقد نزل أهلها على الصلح، ومنها إقليم تدمير وقاعدته مرسية[3]، وبلاد جليقية وإشبيلية حسب بعض المؤرخين[4]، وبالتالي فقد احتفظ أهل هذه الأخيرة بأراضيهم، وجرى التعامل بينهم وبين الفاتحين بموجب شروط معاهدة تم عقدها بين الطرفين في رجب سنة 94هـ - 713م[5]، وبموجبها يدفع أصحاب الأرض جزية على رؤوسهم وخراجا على أراضيهم وجزءًا من غلتها، وما عدا هذا النوع الأخير من المناطق المفتوحة، فإن جميع الأراضي الأخرى التي وقعت بين أيدي المسلمين تم اقتسامها بينهم على أساس نزول كل قوم فيما طاب لهم من الأرض[6]، ولكن السؤال يبقى مطروحا حول كيفية تقسيم هذه الأراضي: فهل قسمت

---

(1) ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 صص10 - 16/ مجهول - فتح الأندلس - صص20 - 23/ مجهول - أخبار مجموعة - صص 98 - 103.

(2) ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص12.

(3) ابن عذاري - البيان - ج2 ص11/مجهول - أخبار مجموعة - ص 100.

(4) مجهول - فتح الأندلس - ص20/ البيان المغرب - ج2 ص 16.

(5) الحميري - الروض المعطار - ص 62 - 63.

(6) المقري - نفح الطيب - ج 1 ص 276.

على أسس شرعية أم على أساس القوة والغلبة؟

إن المصادر على اختلاف أنواعها لا تقدم لنا صورة واحدة عن هذه المسألة، بل تورد لنا أقوالا متناقضة، ونتيجة لذلك انقسم الدارسون لهذا الموضوع إلى فرقتين:

* فرقة أولى تذهب إلى أن أرض الأندلس قد قسمت على أسس شرعية، ومن أبرز القائلين بهذا الرأي:

1 - مؤلف "أخبار مجموعة" الذي يقول: "فلما ولي عمر بن عبد العزيز (99 - 101هـ/718 - 720م)، ولّى إسماعيل "بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي على "إفريقية" سنة 99هـ[1]، و"ولّى السمح بن مالك" الخولاني القضاعي على "الأندلس" سنة 100هـ - 719م"[2]، وأمره أن يخمس أرضها ويخرج منها ما كان عنوة، خمسا لله من أرضها وعقارها، ويقرّ القرى في يد غنّامها بعد أن يأخذ الخمس"[3].

2 - ابن خلدون عبد الرحمن الذي يقول: "ثم بعث عمر بن عبد العزيز السمح بن مالك الخولاني على رأس المائة من الهجرة، وأمره أن يخمّس أرض الأندلس؛ فخمّسها"[4].

3 - ابن القوطية ويقول: "فوجه عمر بن عبد العزيز جابرا مولاه ليخمس الأندلس، ثم أتته وفاة الخليفة فرفع يده على التخميس"[5].

4 - مؤلف كتاب "فتح الأندلس"، ويقول متحدثا عن الخليفة عمر بن عبد العزيز: "وأمره أي السمح بن مالك أن يخمس ما بقي من أرضها وعقارها، ويخرج منها خمس الله تعالى، ويقرّ القرى بأيدي أربابها"، ثم يضيف "قال: وقد تقدم الأثر

(1) ابن الأبار - الحلة السيراء - ج2 ص 335/مجهول - أخبار مجموعة - ص105 هامش 3.

(2) ابن القوطية - تاريخ افتتاح الأندلس - ص26/مجهول - أخبار مجموعة - ص106 /عبدالرحمن علي الحجي - التاريخ الأندلسي - ص185.

(3) مجهول - أخبار مجموعة - ص 106.

(4) ابن خلدون - العبر - ج 7 ص 257.

(5) ابن القوطية - تاريخ افتتاح الأندلس - ص 26.

الصحيح بأن موسى بن نصير خمسها"[1].

من خلال هذه النصوص نلاحظ الإختلاف الموجود بين الكتاب الأربعة حول قضية تخميس الأراضي بالأندلس، وتوزيعها وفق الشريعة الإسلامية، ويتمثل الإختلاف الأول حول زمن قيام المسلمين بتخميس هذه الأراضي: فهل كان ذلك خلال مرحلة الفتح (92 - 95هـ/711 - 714م) أي في عهد موسى بن نصير، أم كان في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (99 - 101هـ/718 - 720م)؟

أما الإختلاف الثاني: فهو حول الشخص الذي قام بهذه المهمة، فهل هو موسى بن نصير أما السمح بن مالك الخولاني أم جابر مولى عمر بن عبد العزيز؟

أما الإختلاف الثالث والأهم: فهو هل تمّ فعلا تخميس الأراضي، وبالتالي توزيعها وفق الشريعة الإسلامية؟ لأنه لو كان موسى بن نصير قد قام بتخميس الأراضي؛ فلماذا يكلف عمر بن عبد العزيز من يقوم بذلك سواء كان السمح أو مولاه جابرا، ثم حتى في عهده لم يتم تخميس كل الأراضي، والدليل على ذلك هو قول مؤلف "أخبار مجموعة" "ويقرّ القرى في يد غنامها"، ومؤلف كتاب فتح الأندلس "ويقرّ القرى بأيدي أربابها"، ومعنى ذلك الإعتراف بالأمر الواقع الذي تمّ قبل تاريخ تولي الخليفة عمر للسلطة.

أما ابن القوطية فيقول: إن المكلف بتخميس أراضي الأندلس لم يتم عمله بعد ما بلغته وفاة الخليفة، كما أن المصادر التاريخية تشير إلى عزل السمح بن مالك الخولاني مباشرة بعد وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز سنة 101هـ - 720م، ومعنى ذلك أن عملية التخميس لم تتم لأن نفس المصادر لا تذكر قيام الولاة الذين أعقبوا السمح بإتمام هذه المهمة.

من خلال ما سبق يتضح لنا أن أراضي الأندلس لم يتم تخميسها، وبالتالي توزيعها على أسس شرعية، وهو ما يؤكده الفريق الثاني من الكتّاب الذين يجمعون على أن أرض الأندلس لم تقسم وفق الشريعة الإسلامية، وإنما تحكم في تملكها منطق

---

(1) مجهول - فتح الأندلس - ص 46.

القوة والغلبة، ومن الذين قالوا بذلك:

1 - أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي الذي يقول: "أما أرض الأندلس فقد طعن فيها بعض الناس، وزعم أنها أو أكثرها فتحت عنوة، وأنها لم تخمس ولم تقسم، غير أن كل قوم وثبوا على طائفة منها بغير إقطاع من الإمام"[1].

2 - ابن حزم الأندلسي أبو محمد الذي أكد "أن الأندلس لم تخمّس وتقسم...لكن نفذ الحكم فيها بأن لكل يد ما أخذت، ووقعت فيها غلبة بعد غلبة، ثم دخل البربر والأفارقة فغلبوا على كثير من القرى دون قسمة، ثم دخل الشاميون في طالعة بلج بن بشر بن عياض القشيري؛ فأخرجوا أكثر العرب والبربر المعروفين بالبلديين عما كان بأيديهم "[2].

3 - الزهري أبو عبيد الله: ويقول نقلا عن أبي بكر الملقب بالرازي صاحب "كتاب الفلاحة": "إن بركة هذه الأرض من وجه نذكره إن شاء الله، وذلك أنه لما فتح المسلمون بلاد الأندلس أخذ القوي فيها بقوته والضعيف بضعفه، ولم تنقسم على الحقيقة؛ فكان جميع ما ملك فيها على غير قوام إلا مدينة مرسية وتعرف بتدمير، فإن أهلها تصالحوا عليها مع موسى بن نصير؛ فلم يملك فيها شيء إلاّ عن حق إما بشراء من الروم أو ممن أسلم من الروم فبقي في مكانه بماله في يده إرثا عن آبائه وأجداده"[3].

وقد خصّص أحد الباحثين المعاصرين دراسة قيمة للإقطاع وأثره في تاريخ الأندلس، وتطرق فيها إلى مسألة أرض الأندلس، وبعد الدراسة والنقد والتمحيص توصل في آخر المطاف إلى أن ملكية الأرض في شبه جزيرة إيبيريا لم تخضع لقانون

(1) الداودي أبو جعفر - كتاب الأموال - تحقيق محمد سالم شحادة - مركز إحياء التراث المغربي - الرباط - ص70.

(2) ابن حزم - رسائل ابن حزم الأندلسي - تحقيق إحسان عباس - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - ط2 - 1987م - ص175.

(3) الزهري أبو عبد الله - كتاب الجعرافية - تحقيق محمد حاج صادق - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة - ص100 - 101.

يتماشى مع روح الشريعة الإسلامية منذ الفتح الإسلامي لها، وظلّ مبدأ القوة والغلبة هو القاعدة المتبعة، واستمرّ كذلك في عصر الولاة نتيجة دخول قوة جديدة ساهمت في تعقيده، ولم تتغير الوضعية في عصر الإمارة بل زادت تفاقما في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي - نظرا لما طرأ في هذه الفترة من أحداث ساعدت على التملك اللاشرعي للأرض[1].

وبناء على استقراء المصادر التاريخية والجغرافية المختلفة؛ فنحن نرجح الرأي القائل بعدم توزيع الأرض على أسس الشريعة الإسلامية، وتحكم منطق القوة والغلبة في تملك الأرض، ودليلنا في ذلك ما ورد في المصادر التاريخية وغيرها المتعلقة بالعدوة الأندلسية، من ذلك مثلا قيام يوسف الفهري والصميل بن حاتم رئيس المضرية، والمتغلب على الوالي[2] بالاستيلاء على أراضي البربر الذين هاجروا إلى العدوة المغربية عقب المجاعة الكبرى التي حدثت بالأندلس بداية من سنة 133هـ - 751م، وبقيت في ملكيتهما بدون عقود[3].

ويذكر ابن حزم الأندلسي أن الجند الوافد من المشرق في طالعة بلج بن بشر إلى الأندلس طرد البربر من أراضيهم التي استحوذوا عليها عقب الفتح واستولى عليها[4].

ويقول المقّري: "كان العرب والبربر كلما مرّ قوم منهم بموضع واستحسنوه، حطّوا به ونزلوه قاطنين"[5].

ويقول العذري: إنه "لما دخل المسلمون الأندلس، وتقدموا إلى الثغر الأعلى، حصروا وشقة وأهلها نصارى، وبنوا عليها المساكن وغرسوا الكروم وحرثوا لمعاشهم،

---

(1) إبراهيم القادري بوتشيش - أثر الأقطاع في تاريخ الأندلس السياسي - منشورات عكاظ - الرباط - 1992 - ص 80.

(2) ابن الأبار - الحلة السيراء - ج1 - ص67 - 68.

(3) القادري بوتشيش - أثر الأقطاع - ص80.

(4) ابن حزم الأندلسي - رسائل ابن حزم الأندلسي - ص 175.

(5) المقري - نفح الطيب - ج 1 ص 276.

واتصل ذلك من فعلهم سبعة أعوام"[1].

إن هذه النصوص كلها تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن المنطق الغالب الذي ساد في امتلاك الأراضي هو منطق القوة والغلبة، وبمعنى آخر فإن أرض الأندلس المفتوحة عنوة لم يتم تقسيمها وفق الشريعة الإسلامية، ومما يؤيد رأينا هذا أيضا أن أبا الخطار الحسام بن ضرار الكلبي، والي الأندلس المتعصب لقومه من اليمانية[2] فيما بين سنتي 125و128هـ (743 - 746م)، قد قام بتفريق العرب الشاميين الغالبين على البلد عن دار الإمارة قرطبة إذ كانت لا تحملهم[3]، وأنزلهم مع العرب البلديين، وتوسع لهم في البلاد، وبقي العرب البلديون من الجند الأول على ما بأيديهم من أموالهم، لم يعرض لهم في شيء منها، فلما رأوا بلادا شبه بلادهم خصبا وتوسعه سكنوا واغتبطوا وتمولوا[4].

ولا تتكلم المصادر ذاتها عن مصير البربر الذين تجمع على أنهم كانوا العنصر الغالب على بلاد الأندلس؛ وبخاصة المناطق الخصبة، فهل جردوا من هذه الأراضي وأجبروا على البحث عن مناطق أخرى يستوطنونها؟ ولعلّ في ما قاله ابن حزم سابقا الإجابة عن هذا التساؤل، ونتيجة لذلك التجأوا إلى المناطق الجبلية والهضاب الواقعة في الشمال والغرب.

من المرجّح أن البربر قد فقدوا الكثير من مواطنهم الأولى نظرا للسياسة التي اتبعها بعض الولاة المتعصبين لبني جلدتهم كما فعل يوسف الفهري والصميل اللذان

---

(1) العذري أحمد بن عمر - نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار - تحقيق عبد العزيز الأهواني - مطبعة معهد الدراسات الإسلامية - مدريد - 1965 ص 56.

(2) ابن الأبار - الحلة السيراء - ج 1 ص 61 - 66/ الحميدي - جذوة المقتبس - ص 177.

(3) يورد ابن القوطية سببا آخر لاخراجهم من الحضرة إذ يقول: إن ذلك كان بطلب من العرب البلديين والبربر الذين كان بينهم وبين الشاميين حرب منذ قضائهم على ثورة البربر سنة 123هـ - 741م - ابن القوطية - تاريخ إفتتاح الأندلس - ص 32.

(4) ابن الأبار - الحلة السيراء - ج1ص61 - 63/تاريخ إفتتاح الأندلس - ص32/مجهول - فتح الأندلس - ص58.

استوليا بالقوة على أراضي البربر المهاجرين إلى العدوة المغربية إبّان المجاعة الكبرى التي حدثت بالأندلس[1]، ويقول عنها ابن عذاري: "وفي سنة 131هـ أمحلت الأندلس، وعمّ المحل، وتمادى إلى سنة 136هـ، وفي سنة 133هـ ثار أهل جليقية، وترددت الغارات عليها، ثم استحكم الجوع والقحط في سنة 134هـ و135هـ وبعض سنة 136 هـ؛ فخرج أكثر الناس إلى طنجة وأصيلا وريف البحر من العدوة"[2].

نتيجة لكل هذه العوامل البشرية والطبيعية اضطرّ البربر إلى الاستقرار في المناطق الجبلية والهضاب، ومع ذلك لا يمكننا أن نعمم هذه الظاهرة على كل المغاربة، إذ أن المصادر تورد لنا أخبارا تتعلق باستقرار البعض منهم في مناطق سهلية شديدة الخصوبة، وأبرز مثال على ذلك أسرة بني رزين البربرية التي استقرّت في كورة السهلة التي تعرف بشنتمرية الشرق أو سهلة بني رزين، ويقول عنها ابن عذاري: "وليس في بلد الثغر أخصب بقعة من سهلته المنسوبة إلى بني رزين"[3].

يلاحظ أن استقرار البربر في المناطق الجبلية بصفة عامة هو الرأي السائد لدى أغلبية الدارسين، ويمكن من خلال ما كتبوه أن نستنتج العوامل التي دفعت المغاربة إلى الإقامة في هذه المناطق، ومنها السياسة التي اتبعت في تقسيم الأراضي في الأندلس، وجهل البربر بقواعد تقسيم الأرض المفتوحة إذ أنهم كانوا حديثي عهد بالإسلام، كما كانوا متحمسين أكثر للجهاد ونشر الرسالة المحمدية، والاستراتيجية التي وضعها قائد الفتح موسى بن نصير والرامية إلى حماية الأراضي المفتوحة، وذلك بوضع جدار أمني يمتد على طول الثغور الشمالية المتاخمة للنصارى، إضافة إلى الأحداث التي مرّ بها تاريخ الوجود الإسلامي في بلاد الأندلس، واحتكار العرب لمقاليد الحكم والإدارة واستغلالها لخدمة مصالحهم، والتعصب لبني جلدتهم، كل هذه العوامل كرّست في الأخير استقرار البربر في المناطق الجبلية بصفة عامة.

(1) بوتشيش - نفس المصدر - ص 80.

(2) ابن عذاري - نفس المصدر - ج 2 ص 38.

(3) ابن عذاري - البيان المغرب - ج3 ص 182/ عبد الرحمن علي الحجي - التاريخ الأندلسي - ص 137.

تحديد مواطن البربر في الأندلس: بعد تعرفنا على مختلف الآراء المتعلقة باستقرار الفاتحين من عرب وبربر ببلاد الأندلس، وكيفية تقسيم الأراضي المفتوحة بين المسلمين، نحاول الآن التعرف على مواطن البربر بهذه المناطق، ومن خلال ما ذكرنا سابقا؛ فإن المهاجرين المغاربة قد انتشروا في جميع أصقاع العدوة الأندلسية، ومع ذلك نلاحظ وجود تباين في أعداد البربر المستقرين بها.

مواطن البربر في جنوب الأندلس: يعتبر الجنوب أولى المناطق التي فتحها المسلمون بقيادة طارق بن زياد، وكان البربر بإجماع المؤرخين يشكلون معظم الجند الذين قادهم الفاتح البربري، وبالتالي فإن أعدادا هامة من هؤلاء البربر قد استقرّوا في أهم المدن الموجودة بهذا القسم من بلاد الأندلس ومنها:

*الجزيرة الخضراء: شكل البربر جزءًا هاما من سكان منطقة الجزيرة الخضراء حيث يوجد بها إقليم كامل يحمل إسم "إقليم البربر"[1]، ويؤكد ذلك اليعقوبي الذي يقول: "وبغربي شذّونة مدينة يقال لها الجزيرة، نزلها البربر وأخلاط من العرب قليل"[2]، ويضيف ابن حيان أن "معظم هؤلاء البربرمن البرانس، ومن قبيلة مصمودة"[3] على وجه التحديد، كما يوجد قصر كتامة في هذه المنطقة،[4] وهو ما يدل على وجود بربر ينتمون إلى هذه القبيلة.

*شذّونة: كانت أول منطقة يستقر بها البربر، وبخاصة قبيلة ملزوزة[5] وقبيلة مغيلة[6] وقبيلة زناتة حيث كان "بنو دمر - إحدى بطونها - مقيمين

(1) العذري - ترصيع الأخبار - ص 120.

(2) اليعقوبي أحمد - كتاب البلدان - دار إحياء التراث العربي - بيروت ط1 1408هـ - 1988م ص 110.

(3) ابن حيان القرطبي - المقتبس من ابناء أهل الأندلس - تحقيق محمود علي المكي - دار الكتاب العربي - بيروت - 1393هـ - 1973م - ص 7.

(4) ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج 4 ص 362.

(5) ابن حزم - الجمهرة - ص 499 - 500/ المقري - نفح الطيب - ج 4 ص 362.

(6) ابن حزم - الجمهرة - ص 499/ العذري - ترصيع الأخبار - ص 113.

بشذّونة"،[1] وقد ترأس أحد هؤلاء الزناتيين البربر عند قيامهم بثورة ضد العرب[2]، وفي ذلك يقول مؤلف كتاب "فتح الأندلس": "وكان بشذّونة جمع من البربر عليهم رجل زناتي، قاتلهم العرب حتى استباحوهم"،[3] وذلك سنة 123هـ - 741م، كما دعم بربر المنطقة عبد الرحمن بن معاوية، وكانوا أغلب الجيش الذي التفّ حوله، وساعده في التغلب على أعدائه، وإقامة دولة بني أمية من جديد حيث "تلقاه جدّ بني إلياس - من مغيلة - القاطنين بشذّونة في عدد كثير"[4].

*مورور: إستقرّ بها العديد من العناصر البربرية، وينتمي معظمهم إلى البرانس، وهم أبناء بربر بن برنوس، وتشمل قبائل مصمودة وغمارة وأوربة وكتامة وأوريغة وإزداجة وعجيسة وصنهاجة ولمطة وهسكورة وجزولة ومسطاسة وهوارة[5] - وكان يترأسهم عند دخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس إبراهيم بن شجرة البرنسي، وفي ذلك يقول الراوي: "ارتحلنا إلى كورة مورور فبايعه - أي عبد الرحمن - كبيرها إبراهيم بن شجرة مع جميع أهلها"[6]، وحاربوا إلى جانبه يوسف الفهري وأتباعه، وكان رئيس مورور "على خيل من صحبه من البربر"[7]، كما كان بنو دمر من زناتة مقيمين بمورور"[8].

*إشبيلية: استوطنتها أعداد جمّة من القبائل البربرية، ومنها زناتة التي كان فرع منها مقيما في لبلة الواقعة شمال غربي إشبيلية[9]، وكان فرع آخر منها مستقرا بمدينة

(1) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 3 ص 113.
(2) نفسه - ج 2 ص31/ ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج5 ص251/ مجهول - فتح الأندلس - ص53.
(3) نفسه - ص 53.
(4) ابن القوطية - تاريخ إفتتاح الأندلس - ص 36.
(5) مجهول - مفاخر البربر - ص 220.
(6) مجهول - فتح الأندلس - ص 86.
(7) مجهول - أخبار مجموعة - ص142.
(8) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 3 ص 113.
(9) ابن حزم - جمهرة أنساب العرب - ص 499/ مجهول - مفاخر البربر - ص 265.

شنت فيلة الواقعة بين إشبيلية وقرطبة[1]، كما استقرّ بنو جهور من هوارة بمرشانة من إشبلية[2]، ومما يدل على كثرة البربر بهذه المنطقة ما ذكره ابن عذاري حين تكلم عن التمرد الذي قام به عبد الغافر اليماني سنة 142هـ - 759م، حيث قال: إن هذا الأخير "ثار على الأمير عبد الرحمن بإشبيلية وتغلب على ما جاور قرطبة"، ومن أجل التغلب عليه "داخل الامام عبد الرحمن البربر وكانوا العدد الوافر الأكبر، فنزع الأكثر منهم إليه، وصاروا في حزبه ولديه"[3].

*جيان: وتقطنها جماعات كثيرة من البربر، ومنهم بنو درّاج الصنهاجيون الذين كانوا مقيمين بقسطلة دراج[4]، وهي مدينة من أعمال جيان[5]، كما يوجد بهذه المنطقة أسر أخرى من صنهاجة وهوارة، وكانت تقيم في جيان وما حولها[6].

*إلبيرة: وتقع بين القبلة والشرق من قرطبة[7]، وقد سكن بها بربر كتامة، وينتمون إلى بني المهلب[8]، وأقام آخرون منهم في كورة إلبيرة[9].

*إستجة: وهي بين القبلة والغرب من قرطبة[10]، وقد أقام بها وحولها أفراد من صنهاجة[11]، ومنهم بنو عبد الوهاب الذين سكنوا أشونة[12]، وهي من كور

(1) ابن حزم - الجمهرة - ص 499/ العذري - ترصيع الأخبار - ص 106 - 176.

(2) ابن حزم - الجمهرة - ص 500.

(3) ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص 50 - 51.

(4) ابن حزم - الجمهرة - ص501 - 502/ مجهول - مفاخر البربر - ص 264.

(5) ابن سعيد الأندلسي - المغرب في حلى المغرب - ج 2 ص 50.

(6) عبد الواحد ذنون طه - استقرار القبائل البربرية في الأندلس - مجلة أوراق - المعهد الإسباني العربي للثقافة - مدريد - العدد الرابع 1981 - ص 39.

(7) الحميري - الروض المعطار - ص 30.

(8) ابن حزم - الجمهرة - ص501.

(9) نفسه - ص501/ ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص137.

(10) الحميري - الروض المعطار - ص 14.

(11) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 70.

(12) ابن حزم - الجمهرة - ص 502/مجهول - مفاخر البربر - ص264/ ابن خلدون - العبر - ج 11ص311.

إستجة[1]، وبنفس المدينة أقام بنو طاهر الصنهاجيين وبنو طريف المنتمين إلى قبيلة مصمودة[2]، وكان للبربر المقيمين بهذه المنطقة دور كبير في قيام دولة بني أمية في الأندلس، وفي ذلك يقول ابن القوطية: "ووصل الخبر إلى بني الخليع من مديونة، وكانوا في تاكُرُنّا الواقعة بمقربة من إستجه؛ فأتوا في أربع مائة فارس"[3]، واستوطن نفس المدينة بربر من مصمودة ونفزة، كما أقاموا في المناطق المحيطة برندة[4]، وهي من مدن تاكُرُنّا.

من خلال استعراض مواطن استقرار البربر بالجنوب، يتضح لنا بجلاء أن هذه المنطقة كانت من بين المناطق الأكثر جذبا للسكان المغاربة، وبالتمعن في أعداد من استقرّ بها يمكن تقسيم المنطقة الجنوبية إلى قسمين من حيث عدد الساكنين بها، حيث توجد مناطق ذات كثافة سكانية بربرية كبيرة، وتتمثل على الخصوص في كور موررور وتاكُرُنّا، ويعود السبب في ذلك إلى أن هذه المناطق قد جلبت إليها السكان بسبب خصوبة أراضيها ووفرة مياهها فضلا على أن جبالها جلبت إليها هي الأخرى البربر الذين ألفوا العيش في بيئة مماثلة لها في بلادهم الأصلية.

وهناك مناطق تميزت بضعف الاستيطان البربري، وينطبق ذلك على جيان وإلبيرة وشذّونة التي يقتصر تواجد البربر فيها على مناطق محدودة، ويمكن تفسير ذلك بكون هذه المناطق الجنوبية من التي استحوذ عليها العرب، وبخاصة فيما يعرف بالكور المجندة، ومن بين المناطق الجنوبية التي أنزل فيها هؤلاء العرب المعروفين بالشاميين، ويذكرها ابن الأبار نقلا عن الرازي "كورتي لبلة وإشبيلية اللتان انزل فيهما جند حمص، وكورتي شذّونة والجزيرة وانزل فيهما جند فلسطين، وكورة ريه التي انزل فيها جند الأردن، وكورة إلبيرة التي أنزل فيها جند دمشق، وكورة جيان التي أنزل فيها جند

---

(1) الحميري - الروض المعطار - ص 23.

(2) ابن حزم - الجمهرة - ص500 - 502/ مجهول - مفاخر البربر - ص 269/ Guichard p. opcit p 370.

(3) ابن القوطية - تاريخ إفتتاح الأندلس - ص 36.

(4) الخشني - أخبار الفقهاء والمحدثين - ص 360.

قنسرين"[1].

ونلاحظ في البداية أن أبا الخطار الحسام بن ضرار الكلبي الذي قام بتوزيع هؤلاء العرب الشاميين قد حرص كل الحرص على اختيار أمكنة مشابهة إلى حدّ كبير لتلك الأماكن التي جاء منها هؤلاء، ويؤكدها لنا مؤلف كتاب "أخبار مجموعة" حيث يذكر أن الجيش الذي أخرجه هشام بن عبد الملك لمحاربة البربر عقب ثورة سنة 123هـ - 741م ببلاد المغرب كان يضم "جند أهل الأردن ومن أجناد الشام ومن أهل قنسرين ومن أهل مصر"[2].

كما نلاحظ أن هذه الكور تقع كلها على ضفاف الوادي الكبير أو في جنوبه، وهي تشكل معظم جنوب العدوة الأندلسية، وبمعنى آخر المناطق التي استقر فيها البربر عقب الفتح، وقد أدى إنزال هؤلاء الجند الشاميين - العرب - إلى نزوح ساكنيها الأوائل من المغاربة إلى الشمال أو الغرب أو الشرق.

بعدما انتهينا من الحديث عن مواطن البربر في جنوب الأندلس، ننتقل إلى الكلام عن المناطق التي استقروا بها في إقليم قرطبة، ورغم وقوعه جغرافيا ضمن الجنوب إلا أننا ارتأينا أن نفرد له عنصرا مستقلا نظرا لكثافة الإستيطان البربري به.

مواطن البربر في موسطة الأندلس (قرطبة وذواتها): كانت قرطبة قاعدة الأندلس وأم مدائنها، ومستقرّ خلافة الأمويين بها[3] من أهم المناطق التي استوطنتها القبائل البربرية، وبخاصة قبائل مصمودة وهوارة وكتامة ومغيلة[4].

فمن المصامدة الذين سكنوها بنو وسلاس الذين اشتهروا بالفقه والقضاء، واستمرّوا على تلك الحال حتى القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)[5].

---

(1) ابن الأبار - الحلة السيراء - ج 1 ص 61 - 62.

(2) مجهول - أخبار مجموعة - ص 110 - 111.

(3) الحميري - الروض المعطار - ص 153.

(4) ذنون طه - نفس المرجع - ص 38.

(5) أبو عبد الله بن عبد الملك المراكشي - الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة - تحقيق محمد بن شريفة - دار الثقافة - بيروت - د.ت. - ق1 ص188 - 190/الخشني - قضاة قرطبة =

ومن هوارة بنو القمرّاطي الذين سكنوا غرب قرطبة[1]، وسكن فرع من كتامة شقندة، وهي قرية صغيرة بعدوة نهر قرطبة قبالة قصرها وتقع على الضفة اليسرى لنهر الوادي الكبير[2].

ومن الذين استقروا بهذه المدينة أيضا أفراد من قبيلة أزداجة عبروا إلى الأندلس بقيادة أبي دليم بن خطاب الذي أصبح بعض أحفاده من الفقهاء والمحدثين المشهورين في هذه المدينة[3]، كما استقر فيها أيضا فرع من قبيلة جراوة، ويدل على ذلك وجود موضع بهذه المنطقة يعرف باسم القبيلة[4].

هذه هي أهم القبائل التي سكنت مدينة قرطبة، أما خارجها فقد استقرّ العديد من المغاربة، وبخاصة فيما يعرف بفحص البلّوط الذي يقول عنه ياقوت الحموي" إنه "ناحية بالأندلس تتصل بجوف أوريط وجوف من قرطبة"، ويضيف مؤكدا بذلك وجود البربر به فيقول: "يسكنه البربر وسهله منتظم بجبال منها جبل البرانس"[5]، ومن أبرز القبائل التي سكنت بهذا المكان قبيلة نفزة التي كانت ممثلة في ولهاصة، وينتمي إليها قاضي قضاة قرطبة في عهد عبد الرحمن الناصر[6].

عرفت منطقة قرطبة استيطانا بربريا مهما حيث كانت كل جهاتها آهلة بسكان بربر ينتمي أغلبهم إلى قبائل زناتة ونفزة وصنهاجة ومصمودة، ومن المحتمل جدا أن يكون عدد مهم من هؤلاء المغاربة قد هاجروا منها عقب ثورة أهل الربض التي قضى

=

وعلماء إفريقية - تحقيق السيد عزت العطار الحسيني - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط2 1415 - 1994م ص 172/ الجمهرة - ص500.

(1) نفسه - ص 500/ مجهول - مفاخر البربر - ص 268.

(2) ابن حزم - الجمهرة - ص 501/ الحميري - الروض المعطار - ص 104.

(3) ابن حزم - الجمهرة - ص 498/ ابن خلدون - العبر - ج13 ص293 - 294/ - H.de felipe opcit p 118.

(4) ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج 2 ص 117.

(5) نفسه - ج 1 ص492/ الحميري - الروض المعطار - ص 142.

(6) الخشني - قضاة قرطبة وعلماء إفريقية - ص175/ ابن الأثير - الكامل - ج8 ص674/ ابن الفرضي - تاريخ علماء الأندلس - ج 2 ص 144.

عليها الحكم بن هشام (180 - 206هـ/ 796 - 822م) بقسوة وعنف وطرد سكانها[1]، ومن بين أبرز الأسر البربرية التي هاجرت من الربض - ويسمى ربض شقندة - أسرة يحيى بن يحيى الليثي التي انتقلت إلى طليطلة[2].

مواطن البربر بوسط الأندلس: استقر البربر في وسط الأندلس أو ما يعرف بمنطقة الثغر الأوسط، وتمتد منطقة الاستقرار البربري عبر نهر تاجه وروافده من طليطلة وطلبيرة شمالا إلى وادي آنه في الجنوب، حيث تقع ماردة ومدلين، وكانت عاصمة هذا الإقليم في البداية مدينة سالم ثم انتقلت إلى طليطلة[3].

يقول بيير قيشار: إن المنطقة الممتدة من طليطلة حتى المحيط الأطلسي هي مناطق آهلة بالسكان ذوي الأصول البربرية[4]، وتتركز أغلبية هؤلاء البربر في مدينة طليطلة[5]، كما عاشت جماعات من قبيلة نفزة في حوض وادي آنة[6]، ويؤكد الأصطخرّي ذلك حيث يقول: "أما نفزة ومكناسة فهم بالأندلس بين الجلالقة وبين مدينة قرطبة"، ويذكر قبائل أخرى تعيش بهذه المناطق حيث يضيف "أما هوارة ومديونة فهم سكان شنبترية"[7].

من خلال النص السابق نستنتج أن بربرا من قبيلة مكناسة سكنوا في هذه

---

(1) ابن الأبار - الحلة السيراء - ج1 ص44 - 45/ عبد الرحمن علي الحجي - التاريخ الأندلسي - ص242.

(2) أبو الفضل عياض اليحصبي - ترتيب المدارك وتقريب المسالك - تحقيق محمد سالم هاشم - دار الكتب العلمية - بيروت - ط1 1418هـ - 1998م - ج1ص316/ ابن سعيد - المغرب في حلى المغرب - ج1ص16.

(3) عبد الرحمن علي الحجي - التاريخ الأندلسي - ص38/ المقري - نفح الطيب - ج 1 ص166.

(4) Pierre Guichard - opcit p 275.

(5) ذنون طه - نفس المرجع - ص 41.

(6) ابن حيان القرطبي - المقتبس في أخبار بلد الأندلس - نشر ملشور. م. انطونية - باريس - 1937 - ص137.

(7) الاصطخري - المسالك والممالك - تحقيق محمد جبار عبد العالي الحسيني - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - القاهرة - 1381هـ - 1961م - ص 36.

المنطقة، ويؤكد ذلك وجود قرية بهذا الإسم بين طلبيرة وقصريش[1]، ويقول ياقوت الحموي: إن "مكناسة حصن بالأندلس من أعمال ماردة"[2]، ومن المناطق المأهولة بالبربر جبل البرانس، وسمي جبل المعدن أيضا، ويقع إلى الجنوب الشرقي من وادي آنة[3]، ومن خلال اسمه نستنتج أن أغلب البربر القاطنين به من البرانس.

وبشرق هذا الجبل سكن قوم من أزداجة - وتسمى أيضا وزداجة - في حصن مسطاسة الواقع قرب اوريط[4]، وهي مدينة عظيمة مذكورة مع طليطلة، وتقع في منطقة قلعة رباح الواقعة بين قرطبة وطليطلة[5].

ومما يؤكد تواجد البربر بكثرة في هذه المنطقة النص الذي أورده ابن حيان، وهو يتحدث عن ثورة ابن القط الأموي - وهو أحمد بن معاوية بن هشام بن معاوية بن الأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية - الذي انتزى على الأمير عبد الله بن محمد) 275 - 300هـ/888 - 912م)، ودعا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد، وأنكر على الأمير عدم قيامه بذلك، وقد التحق به عدد كبير من البربر والعرب - بلغ عددهم ستين ألف رجل - ؛ فسار بهم تجاه سمورة حيث دارت الحرب بينه وبين ملك جليقية، وانتهت بانتصار هذا الأخير، وقتل ابن القط، وكان ذلك في 20 رجب سنة 288هـ (10جويلية 901م)، وكان السبب الرئيس في انهزامه مغادرة أغلب البربر له بقيادة زعيمهم زغلل بن يعيش بن فرانك النفزي[6].

---

(1) نفسه - ص 36/ ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج 5 ص 181.

(2) نفسه - ج5 ص181.

(3) الحميري - الروض المعطار - ص142/ابن حيان - المقتبس - تحقيق المكي - ص331 - 615هامش456.

(4) نفسه - ص 631 - 638 - 639/ ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج5 ص126/ ابن الأبار - الحلة السيراء - ج2 ص178/ ابن حزم - الجمهرة - ص498.

(5) الحموي - الروض المعطار - ص 33 - 163.

(6) ابن حيان - المقتبس في تاريخ الأندلس - تحقيق إسماعيل العربي - منشورات دار الأفاق الجديدة - الدار البيضاء - ط1 1411هـ - 1990م - ص 155 - 159/ ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص140/ Levi Provençal Opcit.T1 PP 384 - 385.

يقول ابن حيان: إنه "صار بأرض الجوف في بلاد البربر هناك، فحلّ بترجالة، واضطرب بنفزة يستدعي الناس، ويكاتب قبائل البرابرة"، ويضيف في مكان آخر أنه "اجتمع عنده من الفرسان والرجّالة نحو من ستين ألف، وقيل أكثر من ذلك؛ فسار بهم من نفزة يريد سمّورة مدينة الكفرة"[1]، وهي دار مملكة الجلالقة[2].

رغم المبالغة في عدد الذين التحقوا بثورة ابن القط التي كان هدفها الأساسي هو محاربة النصارى المتاخمين لحدود المسلمين الشمالية، فإن هذا النص يثبت بما لا يدع مجالا للشك وجود أعداد هامة من البربر المقيمين بمنطقة الثغر الأعلى، وهو الأمر الذي تؤكده أسماء المواضع الكثيرة الموجودة بهذا الجزء من العدوة الأندلسية، والتي تعود كلها إلى أصول بربرية.

لقد كان البربر باستمرار الجند الذي يعتمد عليهم حكام الدولة الأموية، من ذلك انضمام العديد من القبائل البربرية إلى صفّ عبد الرحمن بن معاوية، ومساعدته في إقامة ملك بني أمية بالأندلس، ومن هؤلاء البربر الذين بايعوه - وقد سبق ذكرهم - بنو الخليع من مديونة الذين كانوا مقيمين في تاكُرُنّا، وقد انتقل العديد منهم إلى طلبيرة وترجالة - وهي حصن منيع بين ماردة وطلبيرة[3] - في نهاية القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي)[4].

كما انضمّ البربر أيضا إلى الثائرين ضد الحكم الأموي، من ذلك مثلا أنهم ساندوا عبد الرحمن بن يوسف الفهري "الذي نقض عهده، وخرج سنة 141هـ - 759م - على عبد الرحمن الداخل -، ولحق بطليطلة، واجتمع إليه زهاء عشرين ألفا

(1) ابن حيان - المقتبس - نشر ملشور انطونيا - ص 139 - 140.

(2) الحميري - الروض المعطار - ص 98.

(3) نفسه - ص 63.

(4) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 64 - 82 - 142/ مجهول - مفاخر البربر - ص 267/ ابن خلدون - العبر - ج 7 ص 272.

من البربر"[1].

كما كان البربر من جملة الثائرين ضد ثعلبة بن سلامة العاملي الذي ولي الأندلس سنة 124هـ - 742م، حيث "جمع له أهل البلد من العرب والبربر جمعا بماردة وجلّهم من البربر"[2].

إضافة إلى المناطق المذكورة سابقا، استقرّ البربر بكثرة في قورية القريبة من ماردة[3]، وينتمون في أغلبيتهم إلى قبائل مصمودة ومكناسة[4].

يقول اليعقوبي، وهو يتكلم عن طليطلة: إنها "مدينة منيعة جميلة، ليس في الجزيرة أمنع منها، وأهلها يخالفون على بني أمية، وهم أخلاط من العرب والبربر والموالي"[5]، ويقول عن وادي الحجارة: إنه "كان عليها رجل من البربر يقال له منتيل بن فرج الصنهاجي، وأهلها يخالفون على بني أمية، ثم صار ولده وذريته بعده إلى هذه الغاية في البلد"[6]، وتدل هذه النصوص التي ذكرناها سابقا أن البربر كانوا متواجدين بكثرة بهذه المناطق إلى درجة أنهم أصبحوا حكام بعض المدن المتواجدة بهذا الثغر الأوسط الذي يعتبر أقصى المناطق التي يسكنها المسلمون، وهم بذلك يتاخمون الحدود الجنوبية لمملكة النصارى الواقعة خلف نهر دويرو، ويعبر عن ذلك بيير قيشار فيقول: إن "دار الإسلام تبدأ بالحصون: شنترين - القنطرة - وهو حصن بينه وبين ماردة يومان، ويقع على نهر القنطرة[7] - ونفزة وخاصة طلبيرة وطليطلة، وهناك بين نهر التاجة والسلاسل الجبلية

(1) المقري - نفح الطيب - ج 1 ص 329.
(2) مجهول - أخبار مجموعة - ص 118 - 119/ مجهول - فتح الأندلس - ص 58.
(3) الحميري - الروض المعطار - ص 164.
(4) اليعقوبي - كتاب البلدان - ص 110.
(5) ذنون طه - نفس المرجع - ص 43.
(6) نفسه - ص 110.
(7) الحميري - الروض المعطار - ص 164 ويسميها قنطرة السيف.

بعض القلاع المتقدمة مثل قورية - القريبة من ماردة، وهي من أحصن المعاقل[1] - التي كانت تراقب البلاد التي لا نجد فيها إلا بعض القبائل البربرية المتناثرة التي تحيا حياة الترحال"[2]، ويؤكد قيشار بذلك تواجد البربر حتى في المناطق المتاخمة للنصارى، وهي المناطق التي نزح عنها أغلب سكانها بفعل العوامل البشرية والطبيعية التي سبق ذكرها.

مواطن البربر في غرب الأندلس: يشتمل غرب الأندلس على المناطق الواقعة بين نهر الدويرو شمالا، عند التقائه بنهر تاجه ووادي آنه عند مدينتي ماردة وبطليوس في الجنوب الشرقي، ثم يمتد إلى سواحل البحر المحيط، ويضم العديد من المدن الأندلسية الهامة[3].

يتواجد البربر بأعداد كبيرة في هذه المناطق، ويؤكد ذلك ابن حيان الذي يقول: إن "أرض الجوف هي بلاد البرابر"[4].

وتعتبر ماردة ومدلين الواقعتين على ضفاف وادي آنه أكثر المناطق ازدحاما بالسكان ذوي الأصول البربرية، وتحتوي المصادر التاريخية على إشارات كثيرة تدل على ذلك، حيث ترد بها معلومات تتعلق بسكان هذه المنطقة[5].

من ذلك ما يورده مؤلف أخبار مجموعة عند حديثه عن ولاية ثعلبة بن سلمة العاملي، وحروبه مع الثائرين ضده، حيث يقول: "نزل أهل البلد من البربر والعرب؛ وجلهم من البربر على ماردة"، ويضيف في مكان آخر؛ "فلما كان صبيحة العيد، خرج عليهم فهزمهم، وقتلهم وسبى ذراريهم"، وبلغ عدد الذين تم سبيهم عشرة آلاف أو

---

(1) نفسه - ص 164.

(2) P. Guichard opcit p 194.

(3) المقري - نفح الطيب - ج 1 ص 167/ الحجي - التاريخ الأندلسي - ص 38.

(4) ابن حيان - المقتبس - نشر انطونيا ملشور - ص 139.

(5) مجهول - أخبار مجموعة - ص118 - 119/مجهول - فتح الأندلس - ص58/ابن عذاري - البيان المغرب - ج 1 ص 56 - ج 2 ص 33.

يزيدون[1]، ويحدد لنا ابن خلدون القبائل البربرية التي كانت قاطنة بماردة فيقول: "كان بها جموع من العرب ومصمودة وكتامة"[2].

ومن القبائل البربرية التي استقرت بغرب الأندلس هوارة من خلال بني فرفرين، وكانوا مقيمين في ماردة ومدلين، وقد انتقل بعضهم إلى الثغور الشمالية والشرقية عقب ثورة البربر سنة 123هـ - 741م[3].

ومن قبيلة مصمودة كان بنو دانس بن عوسجة، وقد استقروا في الأقسام الجنوبية من البرتغال بقصر أبي دانس الذي ينسب إلى بانيه أبي دانس بن عوسجة المصمودي، وقال ابن حزم: إن "بني دانس بن عوسجة كانوا أصحاب قلنبيرة - من بلاد ترتقال، بينها وبين شنترين ثلاث مراحل - وإلى جدّهم ينسب قصر أبي دانس في الجوف، ويسمى حاليا قصر الملح[4].

وأقامت جماعات من نفزة أو مديونة حسب ابن حزم في حصن أم جعفر الواقع في كورة ماردة[5]، كما استقرّ فرع من زواغة في هذه المناطق حيث كان لهم حصن بالقرب من بطليوس[6]، ومازال يحمل نفس الإسم إلى يومنا هذا[7]، وهو (Azuaga).

كما عاشت جماعات من قبيلتي مغيلة وزناتة في منطقة بطليوس، ويدلّ على ذلك وجود أماكن مازالت تحمل اسم هاتين القبيلتين مثل Gineta (زناتة) وMaguilla

---

(1) مجهول - أخبار مجموعة - ص118 - 119.

(2) ابن خلدون - العبر - ج 7 ص 290.

(3) ابن حزم - الجمهرة - ص 500/ مجهول - مفاخر البربر - ص 268.

(4) ابن حزم - الجمهرة - ص 501/ ابن الأبار - الحلة السيراء - ج 2 ص 272هـ 1/ الحميري - الروض المعطار - ص 164.

(5) ابن حيان - المقتبس - ملشور انطونيا - ص 22 - 23/ ياقوت الحموي - ج1ص250/ الجمهرة - ص 500.

(6) ذنون طه - نفس المرجع - ص 43.

(7) الإدريسي - القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس - ص 307.

(مغيلة)[1]، وأقام البربر أيضا في مدينة المدور، ويؤكد ذلك نص أورده مؤلف كتاب "أخبار مجموعة" حيث يقول: "ثم إن موالي له من البربر، من أهل المدور طرقوه، فسرقوا خشبته، فكان المكان يقال له "مصلب عبد الملك بن قطن"[2].

هذه هي أهم المناطق التي سكنها البربر في غرب الأندلس، وبطبيعة الحال فإن معلوماتنا عنها ناقصة لأن المصادر لا تقدم لنا المعطيات الوافية حول حقيقة التواجد السكاني، ثم إنها في غالب الأحيان لا تركز إلاّ على الأسر ذات النفوذ السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو الثقافي، ومن هنا فإن معلوماتنا تبقى دائما قليلة، في انتظار ظهور مصادر أخرى جديدة عن الاستقرار البشري في العدوة الأندلسية في ظل الحكم الإسلامي.

مواطن البربر بشرق الأندلس: يضم شرق الأندلس العديد من المدن الكبرى، ومنها مرسية (تدمير) وأوريولة ولقنت وبلنسية وغيرها، وقد استقر العديد من البربر في هذه الناحية، وبخاصة في منطقة بلنسية وتدمير (مرسية الحالية)، ويؤكد ذلك ابن الأبّار حين يورد ترجمة الحاجب في عهد الحكم المستنصر بالله فيقول إنه: "جعفر بن عثمان بن نصر بن قوي بن عبد الله بن كسيلة من برابر بلنسية"[3].

ويذكر العذري أقاليم بلنسية، ومن ضمنها إقليم زناتة وجزء مصمودة[4]، كما سكن قوم من صنهاجة مناطق قسطليون ولقنت ومرسية[5]، واستقر فرع من كتامة في البونت من أشهر أسره بني قاسم[6]، وأقام فرع من أوربة بالقرب من دانية، وتسمى المنطقة التي سكنوها باسمهم الآن، وهي Orba[7].

(1) ذنون طه - نفس المرجع - ص 44.
(2) مجهول - أخبار مجموعة - ص 117.
(3) ابن الأبّار - الحلة السيراء - ج 1 ص 257.
(4) العذري - ترصيع الأخبار - ص 20.
(5) ذنون طه - نفس المرجع - ص 44.
(6) ابن حزم - الجمهرة - ص 501.
(7) ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج 1 ص 278/
Asin Palacios Miquel - contribucion a la toponimia arabe de espana - Madrid - 1944
=

كما شغلت ولهاصة النفزية منطقة شاطبة، وامتاز الولهاصيون بكثرة عددهم في هذه المنطقة، وتمكنت بعض الأسر منهم من تولي الحكم في شاطبة، ومناطق أخرى من الجزء الشمالي الشرقي[1]، ومازالت في هذه المنطقة مدينة تحمل اسمهم إلى يومنا هذا، وهي Nifzies[2].

عاشت جماعات من زناتة في بلنسية وتدمير ولقنت، ويدل على ذلك وجود إقليم زناتة في بلنسية[3]، وماتزال كثير من الأماكن تحمل اسم هذه القبيلة إلى يومنا هذا، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: Adsaneta وsanety في محافظة بسيطة، و Azenanet، وCeneta وIfre نسبة إلى بني يفرن إحدى بطون زناتة في محافظة مرسية[4].

سكن البربر الزناتيون من بني الخرّوبي مدينة لقنت[5]، وآل صبرون بن شبيب المنتسبين إلى قبيلة أورية مدينة إلش[6].

على غرار البربر المستقرين بالأندلس، كثيرا ما كان هؤلاء من الرافضين لحكم بني أمية، والمدعمين للثائرين ضدهم، ويؤكد ذلك اليعقوبي حين يتكلم عن بلنسية فيقول: "وهو بلد واسع جليل نزله قبائل البربر، ولم يعطوا بني أمية الطاعة"[7]، ومن الأدلة التي تثبت وقوف سكان هذه المنطقة ذوي الأصول البربرية إلى جانب الثائرين ضد حكم بني أمية ما ذكره ابن خلدون حيث يقول: "ثم سار عبد الرحمن بن حبيب

=

p126.

(1) ابن حزم - الجمهرة - ص 499/ مجهول - مفاخر البربر - ص 268.

(2) Ribera Maria Jesus - las tribus Arabes en valencia en disertaciones y opusculos - Madrid.1928 T2 p 214.

(3) العذري - ترصيع الأخبار - ص 20.

(4) Asin Palacios – Op.cit - p. 43/ Mados P - diccionario geografico estadistico - Historico de Espana - Madrid 1848 - 1850 - T. III p. 211 - T.VI P. 309 T. IX P.384.

(5) ابن حزم - الجمهرة - ص 499/ مجهول - مفاخر البربر - ص 265.

(6) نفسه - ص 270/ الجمهرة - ص 499.

(7) اليعقوبي - كتاب البلدان - ص 111.

الفهري المعروف بالقلعي من إفريقية إلى الأندلس، مظهرا للدعوة العباسية، ونزل بتدمير، واجتمع إليه البربر"[1]، ويدل هذا النص على أن المغاربة كانوا مستقرين بأعداد كبيرة أيضا في هذا الإقليم الشرقي.

خلاصة القول أن البربر كانوا متواجدين بأعداد هامة، وكان استقرارهم بهذه المناطق منذ بداية الفتح الإسلامي لهذه البلاد.

<u>مواطن البربر في الشمال الشرقي</u>: وتعرف هذه المنطقة بالثغر الأعلى، وتمتد من جبال البرت أو البرتات إلى وادي نهر دويرو، ومن أعمال الثغر الأعلى سرقسطة، وهي أم ذلك الثغر، ولاردة وقلعة رباح (تسمى البيضاء) وتطيلة ومدينتها طرسونة ووشقة ومدينة سالم وقلعة أيوب وبربطانية وباروشة[2].

أقامت بعض القبائل البربرية في سرقسطة مثل هوارة[3]، ومكناسة حيث تحمل منطقة واقعة على ضفاف نهر الإيبرو إسمهم، وهي Mequinenza[4]، ويضيف الأصطخري إليها قبائل نفزة وكتامة حيث يقول: "أما نفزة ومكناسة وكتامة فهم بالأندلس بين الجلالقة وبين مدينة قرطبة"[5].

وتتميز سرقسطة بضعف التواجد البربري، ويؤكد صاحب أخبار مجموعة ذلك حين يتكلم عن ثورة البربر سنة 123هـ - 741م؛ فيقول: "إلا ما كان من عرب سرقسطة وثغرهم، فإنهم كانوا أكثر من البربر"[6] في إشارة إلى تغلب البربر على العرب في المناطق الأخرى من الثغر الأعلى لتفوق أعداد المغاربة، ومع ذلك فإن أعداد البربر ستزداد مع مرور الزمن بفعل الأحداث التي مرت بها الأندلس حيث نجد البربر الدعامة الرئيسة للثائرين ضد الحكم الأموي، وفي ذلك يقول ابن حيان: "وأخرج الناصر

(1) ابن خلدون - العبر - ج 7 ص 268.

(2) المقري - نفح الطيب - ج 1 ص 166/ الحجي - التاريخ الأندلسي - ص 38.

(3) مجهول - مفاخر البربر - ص 268.

(4) Asin Palacios - op cit P 121.

(5) الأصطخري - المسالك والممالك - ص 36.

(6) مجهول - أخبار مجموعة - ص 114.

لدين الله القائد محمد بن سعيد بن المنذر القرشي إلى حصن ورشة سنة 323هـ، وهو أحد حصون محمد بن هشام التجيبي المنتزي بسرقسطة، أم الثغر الأعلى، وكان فيه أخوه إبراهيم بن هشام، فنازله وضيّق عليه، ولاذ من كان حوله من البربر بالطاعة وأفردوه، فافتتحه محمد بن سعيد"،[1] ومن خلال النص نلاحظ الدور الهام الذي قام به البربر في هذا الحدث؛ فبمجرد انسحابهم تمكن القائد الأموي من فتح الحصن، وهو ما يؤكد كثرة البربر المساندين للثائر، وبالتالي المستقرين في هذه المدينة وضواحيها.

وتتمثل المراكز المأهولة بالبربر في كل من مدن وادي الحجارة ومدينة سالم وقلعة أيوب وشنتبرية وويذة، وتعتبر قبيلة مغيلة من أقدم القبائل دخولا إلى هذه المنطقة مع طارق بن زياد، وسكنت وادي الحجارة، وأصبح أحد زعمائها، وهو محمد بن إلياس المغيلي قائدا للحامية الإسلامية الأولى التي أقيمت في هذه المدينة،[2]، و"إلياس المغيلي هو آخر أعلام البربر الداخلين إلى الأندلس مع طارق"[3].

كما عاش بعض أفراد قبيلة مغيلة أيضا في المنتانية وشنتبرية الواقعة إلى الجنوب الشرقي من وادي الحجارة، ومنهم بنو زروال وأفراد من أسرة بني إلياس القادمين من شذّونة[4]، واستقر عدد من برانس مصمودة في منطقة وادي الحجارة التي أصبحت تحمل اسم مدينة الفرج نسبة إلى جد بني سالم، ويدعى الفرج بن مسرّة بن سالم[5] الذي تنسب إليه مدينة سالم الواقعة في شمال وادي الحجارة، ولا تزال تحمل نفس الإسم إلى يومنا هذا، وهو Medinacelli،[6] كما عاش بنو الفرج أيضا إلى

(1) ابن حيان – المقتبس – نشر شالميتا – ج5 ص 361.
(2) ذنون طه – نفس المرجع – ص 45.
(3) مجهول – مفاخر البربر – ص 213.
(4) ابن حزم – الجمهرة – ص 499/ مجهول – مفاخر البربر – ص 266.
(5) ابن حزم – الجمهرة – ص 501/ مفاخر البربر – ص 269/ ابن حيان – المقتبس – مكي ص 79.
(6) ابن حزم – الجمهرة – ص 501/ العذري – ترصيع الأخبار – ص 44.

الشمال من هذه المنطقة في طرسونة الواقعة بالقرب من تطيلة[1].

واستقر فرع من هوارة، ويتمثل في بني ذي النون في وبذة، وهي حصن على واد بقرب أقليش، وفي هذه المدينة الأخيرة حيث كانوا الأمراء بها[2].

واستقرت أسر مصمودية في منطقة الثغور المتاخمة للنصارى، وبخاصة في شنتبرية ووادي الحجارة، ومن جملتها بنو أران وبنو مضى وبنو رسين[3]، وأقام بعض الأفراد من غمارة في مكان مازال يحمل إسمهم إلى الآن، ويدعى Bengamar، ويقع في محافظة كوينكا[4].

كما استقر أفراد من قبيلتي هوارة ومديونة بهذه المنطقة، ويؤكد ذلك الأصطخري حين يقول: "أما هوارة ومديونة فهم سكان شنتبرية"[5]، ومن القبيلة الأولى بنو رزين الذين سكنوا قرطبة أولا، ويؤكد ذلك ابن حيان حين يقول: "وكانت خطة منية الرصافة لرزين البرنسي، أحد أكابر رجال البربر الداخلين إلى الأندلس في جيش طارق، وكان له تقدم في الجيش، وإليه ينسب البلاط الذي بها، والزيتون الذي بإزائها، ولرزين هذا آثار كثيرة بقرطبة وبرّها، منها المسجد المنسوب إليه بالربض الغربي...وانتقلت الرصافة عن ورثتها؛ فاشتراها الأمير الداخل عبد الرحمن بن معاوية"[6].

ويؤكد هذا النص ما ذكرناه سابقا من أن البربر قد استقروا أولا بالأراضي الخصبة الموجودة في جنوب ووسط الأندلس، ولكنهم هاجروا منها بعد ذلك نظرا للأحداث التي مرت بها هذه البلاد، ومنها قمع العرب الشاميين للبربر عقب الثورة التي قاموا بها سنة 123هـ - 741م، ومن البربر الذين هاجروا من بلادهم بنو رزين هؤلاء،

(1) ابن حزم - الجمهرة - ص 501.

(2) نفسه - ص 500/ الحميري - الروض المعطار - ص 194/ مفاخر البربر - ص 264.

(3) ابن حزم - الجمهرة - ص499 - 501/ ابن حيان - المقتبس - مكي ص161 - 162.

(4) Madoz - opcit T IX P 205.

(5) الإصطخري - المسالك والممالك - ص 36.

(6) ابن حيان - المقتبس - مكي ص 234.

واستقروا في مكان يدعى السهلة، وينسب إليهم؛ فيسمى سهلة بني رزين، وأصبح أفراد من هذه الأسرة أمراء هذه المنطقة(1)، ولازالت عاصمتهم تحمل نفس الإسم إلى يومنا هذا، وتقع إلى الغرب من تيروال وهو Albarracin(2)، إضافة إلى السلسلة الجبلية التي كانت تحدّ السهلة من الشمال والشمال الشرقي، وتسمى Sierra de Albarracin(3).

عاشت جماعات عديدة من نفزة أيضا في الشمال الشرقي، ومنها بنو عميرة وبنو غزلون وبنو نعمان وبنو بلال، وكانوا مستوطنين لمدن شنتبرية ووادي الحجارة وتيروال(4).

ومن قبيلة مديونة سكن بنو هذيل، وكانوا أمراء في الثغور، وبخاصة في شنتبرية ووادي الحجارة(5)، كما استقر بعض أفراد قبيلة ملزوزة في شنتبرية، والى أحد أفراد هذه القبيلة ينسب بلاط عوسجة الواقع في هذه المنطقة(6).

ومن قبيلة زناتة كان بنو عزّون الأمراء في شنتبرية ووادي الحجارة(7)، واستقر أفراد آخرون من هذه القبيلة في منطقة سرقسطة، وإلى الشمال منها في نواحي لاردة، وبالقرب من مصب نهر إيبرو، ومازالت أسماء بهذه المنطقة إلى يومنا هذا تدل على ذلك، ومنها SanetوBenisanet و Butsenit(8).

---

(1) ابن حزم - الجمهرة - ص499 - 500/ ابن الأبار - الحلة السيراء - ج 2 ص286/ ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص205/مفاخر البربر - ص267/ابن عذاري - البيان المغرب - ج3 ص181 - 182.

(2) Asin Palacios - opcit p 43 - 79.

(3) ذنون طه - نفس المرجع - ص 46.

(4) ابن حزم - الجمهرة - ص499 - 500/ مفاخر البربر - ص268/ الأصطخري - المسالك والممالك - ص36.

(5) ابن حزم - الجمهرة - ص 499.

(6) نفسه - ص 499 - 500/ مجهول - مفاخر البربر - ص 267.

(7) ابن حزم - الجمهرة - ص 499.

(8) الحموي - معجم البلدان - ج 2 ص 151/ Madoz. op. cit T IV P224 - 682 T XIV P 732.

ومن قبيلة صدينة سكنت أسر منها في سرية وشنتبرية ووادي الحجارة[1]، ومما يؤكد تواجد البربر بكثرة في هذه المناطق ما أورده مؤلف كتاب "فتح الأندلس" حول ثورة أحد المغاربة حيث يقول:" وفي سنة 151هـ ثار على عبد الرحمن بن معاوية رجل من البربر يسمى شقنا بن عبد الواحد الفاطمي، وينسب إلى أمه فاطمة، وكان مكناسيا، ثار بجانب شنتبرية، وبايعه كثير من البربر"[2].

من خلال ما سبق يتضح لنا جليا أن هذه المنطقة الشمالية الشرقية كانت من أكثر المناطق الأندلسية جلبا للسكان حيث استقرت بها أعداد هائلة من الأسر البربرية، وباجتماعها كانت تشكل خطرا على الدولة الأموية الحاكمة بالأندلس، وهو ما يؤكد نزوح البربر إليها من المناطق التي استقروا بها عقب الفتح الإسلامي لهذه البلاد.

مواطن البربر في أقصى الشمال الغربي: تمكن المسلمون بقيادة موسى بن نصير من الوصول إلى أقصى بلاد الأندلس، ويؤكد ذلك المقّري حيث يقول: إن هذا القائد "افتتح حصن بارو - في بلد الوليد - وحصن لكّ - بأرض جليقية - وبثّ السرايا حتى بلغوا صخرة بلاي، وهي أقصى نقطة من أشتريس على المحيط الأطلسي"[3]، وعندما عاد المسلمون إلى الجنوب قام موسى بن نصير بإنشاء العديد من الحاميات في الشمال والشمال الغربي، ولا تقدم لنا المصادر التاريخية المعلومات المتعلقة بهذه الحاميات، ولا بعدد أفرادها ولا بالعناصر التي كانت تضمها، لكن الإشارات الواردة في المصادر حول أحداث لاحقة للفتح توضح لنا حقيقة هذه الحاميات.

ويذكر ليفي بروفنسال أن البربر يتواجدون بكثرة في المناطق الشمالية المتاخمة للنصارى[4]، وبناء على ذلك نرجح أن يكون معظم المقيمين بهذه المناطق من البربر.

(1) ابن حزم - الجمهرة - ص 499/ ابن حيان - المقتبس - مكي ص 323.
(2) مجهول - فتح الأندلس - ص 102.
(3) المقّري - نفح الطيب - ج 1 ص 276.

(4) Levi Provençal op. cit T I P 382.

ويقول حسين مؤنس: "لا نعلم على وجه التحقيق كيف حكم المسلمون ما فتحوه من نواحي كنتابرية وجليقية ممايلي الصخرة - صخرة بلاي وتعرف بـ"كوفا دونقا" - ولكن إشارات متناثرة تدل على أنهم أنزلوا بها جماعات من المسلمين، معظمهم من البربر، أقاموا هناك مرابطين ومستقرين، وكان يرأس هذه الجماعات البربرية رؤساء من بني جلدتهم، وتتفق المصادر على ذكر واحد منهم هو مونوسة.

كان مونوسة من رؤساء الجند في جيش طارق بن زياد، والغالب أن موسى وطارقا تركاه حاكما على أشتريش وما يصاقبها من نواحي جليقية، ثم امتدت منطقة نفوذه بعد ذلك حتى شملت شمال العدوة الأندلسية كلها"[1].

يتبين لنا إذا من الكلام السابق أن البربر كانوا يمثلون النسبة الكبرى في أعداد المسلمين الذين آثروا الاستقرار في هذه المناطق القاصية على استيطان غيرها من نواحي العدوة الأندلسية، وما يثبت ذلك فعلا هو ما أوردته المصادر التاريخية عند تطرقها لأحداث ثورة البربر سنة 123هـ - 741م، والتي تجمع على أن المغاربة كانوا يمثلون القسم الأكبر من سكان هذه المناطق، وقد أوردنا فيما سبق نصين لمؤلفي كتاب "فتح الأندلس" وكتاب "أخبار مجموعة" يؤكدان فيهما هذه الحقيقة، ويؤيدهما في ذلك ابن عذاري حين يقول: "واتفق أن تطاولت البربر أيضا بالأندلس، وفاضحوا العرب، وظهروا على الساكنين منهم بجليقية وغيرها؛ فقتلوهم وطردوهم[2].

إن هذه الإشارات كلها تؤكد وجود ساكنة بربرية مهمة في المناطق الشمالية من الأندلس، ويثبت ذلك العبارات المستخدمة للدلالة على الكثرة، إضافة إلى الانتصارات المحققة من قبل البربر على العرب، وهو ما يدل على كثرتهم مقارنة بهم ومقارنة بالنصارى المتواجدين في أقصى شمال الأندلس، والراغبين باستمرار في استرجاع ما فتحه المسلمون واستخلصوه من أيديهم.

كان البرانس يؤلفون أغلبية البربر الذين اختاروا الاستقرار في هذه المناطق

---

(1) حسين مؤنس - فجر الأندلس - ص 315/ .Helena de Felipe op. cit. p286 - 287

(2) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 30.

الشمالية الجبلية في أغلب أنحائها أو أرغموا عليه، ولكن الظاهر هو أنهم اختاروه طواعية لكونه يناسبهم أكثر من غيره من مناطق الأندلس، والسبب في ذلك هو التشابه الكبير الموجود بين هذه المناطق وبين أماكن سكناهم الأصلية في بلاد المغرب[1].

ومن الدلائل التي تؤكد تواجد البربر بأعداد كبيرة في هذه المناطق الشمالية من العدوة الأندلسية النتائج التي توصل إليها الباحث سيزر دوبلر (Cezar Dubler) الذي استطاع، في دراسته المخصّصة لأسماء المواضع الجغرافية وعلاقتها باستقرار البربر في بلاد الأندلس، أن يتوصل إلى معرفة العديد من الأماكن التي تحمل أسماء قبائل بربرية، وهو ما يدل على تواجد أعداد كبيرة من المغاربة في هذه المناطق.

إن الإشارات الواردة في المصادر التاريخية، والنتائج المتوصل إليها من قبل الباحثين المتخصصين تؤكد كلها على وجود استقرار كبير للمسلمين ذوي الأصول البربرية في هذه المناطق الجبلية الواقعة في الشمال، وبذلك كانوا الخط الدفاعي الأول الذي وفر الحماية لدار الإسلام من هجمات الأعداء المتربصين بها، ولكن النزاعات القائمة بين المسلمين والنتائج المترتبة عنها، جعلتهم يفقدون هذه المناطق، وبالتالي يتعرضون إلى غزوات النصارى.

---

(1) حسين مؤنس - فجر الأندلس - ص 315.

الفصل الثاني
دور البربر العسكري
ومكانتهم في الجهاز السياسي
والإداري والقضائي

1 - الدور العسكري للبربر في الأندلس ومكانتهم في جيشها.

2 - مكانة ومشاركة البربر في الجهاز السياسي والإداري والقضائي في الأندلس.

1 - الدور العسكري للبربر في الأندلس ومكانتهم في جيشها

الدور العسكري للبربر في الأندلس إبان الفتح وفي عصر الولاية

(92 - 138هـ/711 - 755م): لعب البربر منذ سنة 92هـ - 711م الدور الأساسي في فتح بلاد الأندلس، ونشر الإسلام في ربوعها، كما أنهم كانوا العنصر الفعال في حماية ثغور المسلمين من الإعتداءات التي قام بها من نجا من القوط الغربيين.

ويجمع المؤرخون على أن البربر كانوا العنصر الأساسي في فتح الأندلس، وإدخالها في حظيرة الدولة الإسلامية، ومنهم ابن عذاري الذي يقول: "وقد اتفق الجميع فيما يظهر على أن متولي كبر فتح الأندلس وجلّه ومعظمه طارق بن زياد"[1]، والبربر الذين تولى قيادتهم في حملته على بلاد الأندلس، ويؤيده في ذلك أبو إسحاق الرقيق الذي يقول: "وبلغ موسى أن طارق بن زياد فتح الأندلس ودخلها؛ فخاف أن يحظى بذلك عند الخليفة"[2]، والبلاذري الذي يقول: إن "طارق بن زياد عامل موسى بن نصير هو أول من غزاها وفتحها، وذلك في سنة 92هـ"[3].

إن هذه النصوص تثبت بما لا يدع أي مجال للشك أن البربر هم الذين تولوا الفتح الأول لبلاد الأندلس، وفي المصادر التاريخية ما يؤكد هذا الرأي، وقد سبق أن

---

(1) ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص 5.

(2) أبو إسحاق الرقيق - تاريخ إفريقية والمغرب - تحقيق عبد الله العلي الزيدان وعز الدين عمر موسى - دار الغرب الإسلامي - ط1 - 1990 - ص 44.

(3) أبو العباس البلاذري - فتوح البلدان - ص 323.

أوردنا بعضها في عناصر البحث السابقة، ولم يقتصر هذا الإجماع على المؤرخين الذين عايشوا الأحداث أو جاءوا بعدها بقليل، بل إن جلّ المؤرخين المعاصرين، العرب منهم والغربيين، قد أكدوا نفس الحقيقة، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر حسين مؤنس الذي يقول: "ومن غريب الأمر أن الجيش الذي أرسله موسى كان بربريا صرفا أو يكاد، وهذه أول مرّة نسمع فيها أن قائدا إسلاميا عهد في عمل حربي خطير كهذا إلى قائد غير عربي وجند غير عرب في الغالب"، ويكمن استغراب هذا المؤرخ لأمر الإعتماد على البربر في الفتح على كونه يحدث لأول مرة منذ بداية الفتوحات الإسلامية لأن الفاتحين سابقا كانوا من العرب، وقليلا ما كان يعتمد في ذلك على عنصر غير عربي سواء في منصب القيادة أو في تركيبة الجيش الفاتح"[1]، ويذهب السيد عبد العزيز سالم إلى نفس الرأي؛ فيقول: "وهذه هي المرّة الأولى في تاريخ الفتوح العربية التي يتولى فيها جيش بأكمله من المغلوبين فتح قطر من الأقطار الكبرى كالأندلس"[2]، مع تحفظنا على عبارة "المغلوبين" التي استعملها المؤلف لأننا نرى أن المغاربة لم يدخلوا الإسلام عقب الانهزام أمام الفاتحين، وإنما دخلوه بعدما اقتنعوا بمثله وقيمه، ودليلنا في ذلك هو طول المقاومة التي أبداها البربر في وجه الحملات التي قادها الفاتحون العرب، وقد ناهزت هذه المقاومة سبعين سنة (22 - 89هـ/642 - 706م)، بينما لم يستغرق فتح بلاد الشام والعراق ومصر إلاّ بضعة سنوات فقط، ودوزي من المؤرخين الغربيين الذين أيدوا غلبة البربر على الجيش الذي قاده طارق بن زياد، وكنا قد أشرنا إلى رأي المستشرق الهولندي حول الدور الكبير الذي لعبه البربر في فتح الأندلس، وهو نفس رأي ليفي بروفنسال[3].

من خلال ما سبق يتضح جليا الإجماع حول تولي البربر عملية الفتح الأولى

---

(1) حسين مؤنس - فجر الأندلس - ص 68.

(2) السيد عبد العزيز سالم - المغرب الكبير - العصر الإسلامي - دار النهضة العربية - بيروت - 1981 - ج2ص271/ السيد عبد العزيز سالم - تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس - مكتبة الأنغلو مصرية - القاهرة - ط2 - 1986 ص 71.

(3) E.Levi.Provençal. opcit T 1. P19.

لبلاد الأندلس، وبالتالي التمهيد لبسط سيطرة الدولة الإسلامية على هذا الجزء من قارة أوربا، كما يجمع هؤلاء أيضا على أن القيادة كانت بربرية ممثلة في طارق بن زياد الذي سبق أن أوردنا ما قاله المؤرخون عن نسبه.

لم يكتف البربر بفتح الأندلس فقط، بل شاركوا قائدهم في إيصال راية الإسلام إلى المناطق الواقعة في أقصى شمالها، والقيام بدور الحماة لدار الإسلام، وذلك من خلال استقرارهم في هذه المناطق الشمالية المواجهة للنصارى الذين كانوا يسعون إلى إيقاف الزحف الإسلامي، ومن ثمّ استرجاع المناطق التي تمكن المسلمون من فتحها، وقد سبق أن قدمنا الأدلة التي تثبت وجود أغلبية بربرية في هذه المناطق الشمالية.

إضافة إلى قيامهم بالفتح وحماية دار الإسلام من محاولات النصارى، لعب البربر أيضا دورا مهما في قيام الإمارة الأموية بالأندلس، وذلك من خلال مؤازرة عبد الرحمن بن معاوية، وتقديم يد العون له في مواجهة من كانوا يريدون منعه من إقامة ملك أموي جديد، وتورد لنا المصادر التاريخية الكثير من الإشارات التي تثبت ذلك ومنها:

1 - مبايعة بني الخليع المديونيين المقيمين بتاكُرُنّا له، وتزويده بأربعمائة فارس[1].

2 - مبايعة جدّ بني إلياس المغيليين له، والذين "أتوه في عدة كثيرة بكورة شذّونة"[2].

3 - "انضمام بيوتات لها وفرة وثروة من البربر وغيرهم" بقرطبة[3].

4 - تلقي دعم إبراهيم بن شجرة البربري بمورور، والذي عينه قائدا على فرسان البربر، ونلاحظ أن أغلب البربر الذين انضووا تحت لواء صقر قريش ينتمون إلى القبائل التي آوت الأموي ببلاد المغرب بحكم الرابطة الدموية الموجودة بينه وبينها؛

---

(1) ابن القوطية - تاريخ افتتاح الأندلس - ص 50/ مجهول - فتح الأندلس - ص 85 - 86.
(2) ابن القوطية - نفس المصدر - ص 52.
(3) مجهول - أخبار مجموعة - ص 84.

فأمه بربرية، كما أن طول مقامه في كنف قبيلة مغيلة من شأنه أن يكسبه ولاءها فضلا على ولاء القبائل المنحدرة من نفس الشجرة، وأعني بها قبائل البتر، وتحديدا قبائل بني فاتن بن تمصيت، وبهم وبمن أيده من العرب حقق نصر المصارة، وبلغ منصب الإمارة(1).

ساهم البربر المنضوين تحت لواء عبد الرحمن الداخل في إقناع إخوانهم من المغاربة الذين انضمّوا إلى الثائرين على الحكم الجديد بالتخلي عنهم، من ذلك أن بني وانسوس وبني الخليع نجحوا في إقناع إخوانهم الواقفين إلى جانب عبد الغفار الثائر بلبلة الواقعة في غرب الأندلس(2)، ونتيجة لذلك هزم عبد الغفار، وقضي على ثورته(3)، بعد انسحاب البربر من جيشه.

أمام تزايد حركات التمرد التي قام العرب بأغلبيتها، اضطرّ عبد الرحمن الداخل إلى الإعتماد على البربر والمماليك في تشكيل جيش يمكنه من فرض سلطانه على بلاد الأندلس، ومن أجل ذلك أمر الإمام باشتراء المماليك من كل ناحية، فكان منهم في ديوانه من البربر والمماليك أربعون ألفا"، ويعطينا المؤلف سبب اعتماد الأمير المفرط على المماليك والبربر؛ فيقول: إنه "استوحش من العرب بسبب نبذهم لطاعته"، ونتيجة لهذا الإجراء "استظهر على الأندلس، وضعف أمر العرب، وغلظت الأموية عليهم"(4).

ظلّ الإعتماد على البربر في العمل العسكري السمة المميزة لمختلف أمراء الدولة الأموية بالأندلس رغم شحّ المصادر من المعلومات المتعلقة بذلك، ومع ذلك فإننا نعثر من حين لآخر على إشارات تثبت تجنيد البربر، من ذلك ما يورده ابن حيان، وهو يتكلم عن الأمير المنذر حيث يقول: "فأنفذ الخدم البربر فيه إلى قرطبة وهو كان خليفة فيها، يوحون إليه بشأن أخيه"(5)، وذلك من أجل أن يحضر بمناسبة موت أخيه،

(1) نفسه - ص 142 - 143.
(2) الحميري - الروض المعطار - ص 168.
(3) ابن القوطية - تاريخ إفتتاح الأندلس - ص56/ ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص50 - 51.
(4) مجهول - فتح الأندلس - ص104.
(5) ابن حيان - المقتبس - ج 3 ص 2.

ومبايعة عبد الله في منصب الإمارة، وكان ذلك في سنة 275هـ - 888م.

يورد ابن حيان أيضا إشارات أخرى تؤكد هذه السياسة، ومنها عند كلامه عن الأمير عبد الله، وانتصار قائده أحمد بن محمد بن أبي عبدة سنة 284هـ - 897م، حيث يقول: إنه قتل من أهل العسكر طنجي واحد"[1]، وستتكرر نفس الإشارة عند حديث صاحب المقتبس عن الحرب الدائرة بين جيش الإمارة وجيش ابن حفصون الثائر عليه سنة 291هـ - 904م، حيث يقول ابن حيان في حوصلة عامة لمواجهات هذا العام بين الطرفين: إنه "قتل من رجال السلطان طنجي واحد "[2].

من خلال نص آخر، يتبين أن البربر لم يجندوا من قبل الإمارة الأموية فقط، بل كانوا يشتغلون في هذا المجال لكل من يدفع لهم، وإلا فكيف نفسر ما يورده ابن حيان في مكان آخر من كتابه حين يتكلم عن إنخراط البربر - الذين كان يسميهم أمراء الدولة الأموية بالطنجيين - في صفوف بعض الثائرين ضد حكومة قرطبة، وفي ذلك يقول: "واتفق أن تهافت الطنجيون الذين في العسكر على النزوع إلى الخبيثين ابن حفصون[3] وابن هذيل"[4].

من خلال النص السابق يتبين أن البربر قد انسحبوا من جيش الإمارة الأموية، وانخرطوا في صفوف جيش الثائرين عليها، وحدث هذا الأمر في عهد الأمير عبد الله (275 - 300هـ/888 - 912م) الذي تميز بكثرة الفتن الداخلية، حيث ثار ضده العديد

---

(1) نفسه - ص 122.

(2) ابن حيان - المقتبس - ج 3 ص 141.

(3) ابن حفصون: هو عمر بن حفصون، وكان أبوه من مسالمة أهل الذمة، هو أول من فتح باب الشقاق بثورة عارمة في عهد الأمير محمد، وكان مستقرا في ببشتر وهو حصن منيع، وقد استفحل خطره خلال حكم الأمير عبد الله. ابن القوطية - تاريخ إفتتاح الأندلس - ص77 / ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص 104 - 106 - 139.

(4) ابن هذيل: هو سعيد بن هذيل الذي ثار بحصن المنتلون من كورة جيان في عهد الأمير عبد الله، هزمه الجيش فأدى الطاعة، ثم نكث وعاقد عمر بن حفصون، واستمرت ثورته إلى عهد الناصر الذي نجح في إخمادها، وأسكنه قرطبة. ابن حيان - المقتبس - ج3 ص25 - 26/ نفسه - ص 147/ ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص147.

من حكام الكور والناقمين على الحكم الأموي، ولا يمكن تفسير هذا الأمر إلاّ برغبة البربر في الحصول على امتيازات أكبر، ولذلك فهم في خدمة من يدفع أكثر، ولا يهمهم البتة من يكون هذا الذي يدفع لهم.

مكانة البربر في الجيش الأندلسي خلال عهد الإمارة: (138 - 300هـ/ 755 - 912م): كان للبربر كما ذكرنا سابقا دور هام في فتح بلاد الأندلس، وفي قيام الإمارة الأموية وتثبيت سلطانها، كما كانوا في أحيان أخرى اليد التي استعملها الثائرون ضدها، وبخاصة في عهد الأمير عبد الله بن محمد الذي شهدت فترة حكمه قيام العديد من الحركات المناوئة للأمويين، وقام بأغلب هذه الحركات العناصر العربية والمولّدون، ويؤكد ذلك المقّري عند كلامه عن تولي الناصر عبد الرحمن للسلطة، حيث يقول: "ووجد الأندلس مضطربة بالمخالفين، مضطرمة بنيران المتغلبين"[1]، لذلك سيعمل بعض الأمراء، ومن بعدهم الخلفاء على اتخاذ إجراءات تسمح لهم بتفادي انضمام البربر إلى أعداء الإمارة الأموية، وأبرز هذه الإجراءات هو تعميم الإقطاع على البربر، وبخاصة على أولئك المتواجدين منهم بالثغور المتاخمة للنصارى.

ومن جملة الأساليب التي استعملتها السلطة الأموية لحشد المؤيدين والأتباع، بالإضافة إلى الهدايا والعطاءات، منح الأراضي وإقطاعها لرؤساء القبائل والعناصر النافذة في المجتمع، ويمكن لنا أن نؤرخ لبداية ظهور الإقطاع في بلاد الأندلس اعتمادا على المصادر التاريخية مع قدوم عامل الأندلس المعين من قبل حنظلة بن صفوان - والي إفريقية - حيث عمل أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي على إخراج الجند الشاميين الذين دخلوا مع بلج بن بشر القشيري سنة 123هـ - 741م من مدينة قرطبة، وتوزيعهم على كور إلبيرة ورية وشذّونة وإشبيلية وجيان وباجة وتدمير[2]، ونتيجة لذلك أصبحوا يشكلون جيشا إقطاعيا، وتم تسجيلهم في الديوان، ومنحت لهم الأراضي، كما تم إعفاءهم من أعشارها مقابل رزق محدد ونظام مضبوط يقضي بإلزامهم حضور

---

(1) المقّري - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - ج 1 ص 353.

(2) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 33.

الغزوات التي يجرّدها الوالي أو الأمير ضد أعداء الدولة، ويؤكد ذلك ابن الخطيب حيث يقول: إن الغازي "كان يرتزق مائة دينار وازنة، ولم يكن الديوان والكتبة إلاّ في الشاميين خاصة، وكانوا أحرارا من العشر، معدّين للغزو، ولا يلزمهم إلاّ المقاطعة على أموال الروم التي كانت بأيديهم"[1].

نتيجة لهذا الإجراء تحول الشاميون إلى جيش موضوع تحت تصرف الإمارة، وملزم بالمشاركة في مجهودها الحربي في الوقت الذي كان فيه البلديون من عرب وبربر يشاركون في الغزوات تحت ألويتهم، ويؤكد ابن الخطيب هذه الحقيقة بقوله: "وكان أهل البيوتات منهم يغزون كما يغزو الشاميون"[2]، ولكنهم لا يحصلون على أية امتيازات حيث كانوا يؤدون العشر مع سائر أهل البلد، ولا ينالون العطاء عقب الغزوات التي كانوا يشتركون فيها مع غيرهم من عناصر المجتمع الأندلسي[3].

لقد كان البربر بحكم استقرار جزء كبير منهم في الثغور المتاخمة للنصارى، وتعرضهم المستمر إلى هجمات المسيحيين مجبرين على الاهتمام بالجانب العسكري من أجل صدّ هذه الاعتداءات بأنفسهم، أو القيام بذلك من خلال المشاركة في الحملات التي كان أمراء قرطبة يجردونها ضد النصارى، وكانت هذه الأعمال العسكرية تكلف البربر نفقات كبيرة.

عمل الأمراء، ومن بعدهم الخلفاء الأمويين على الاستفادة من قوة البربر العسكرية، وبالتالي إبعادهم عن العصيان أو الانضواء تحت لواء الثائرين على قرطبة، وذلك من خلال توسيع الإقطاع ليشمل المغاربة، وبخاصة المقيمين منهم في منطقة الثغور الشمالية.

وأول من قام بتوسيع الإقطاع ليشمل البربر الأمير محمد بن عبد الرحمن (238 - 273هـ/852 - 886م)، ويثبت ذلك ورود العديد من الإشارات في أمهات

---

(1) ابن الخطيب - الاحاطة في أخبار غرناطة - تحقيق محمد عبد الله عنان - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط2 - 1393هـ - 1973م - ج1ص104.

(2) نفسه - ج 1 ص 104.

(3) نفس المصدر - ج 1 ص 104.

المصادر التاريخية، ومنها ما أورده ابن حيان على وجه الخصوص بشأن بعض البيوتات البربرية المقيمة في الثغور الأندلسية، ويأتي في مقدمة هذه البيوتات بيت بني ذي النون.

يقول ابن حيان: إن الأمير محمد بن عبد الرحمن، وفي طريق عودته من إحدى غزواته إلى الثغر الأعلى، مرض له خصي من أكابر خصيانه؛ فتركه عند سليمان بن ذي النون - الذي يذكر أنه كان زعيم قومه - ؛ فعالجه، وعندما بريء من علّته، أوصله بنفسه إلى قرطبة "فكافأه الأمير محمد بن عبد الرحمن بأن أسجل له على ناحيته، وقدّمه على قومه"[1]، وكانت نتيجة ذلك الإجراء أن "اعترف ذي النون بفضل الأمير عليه، وشكر نعمته، واستقام على طاعته"[2].

وسيتكرر نفس الأمر مع بيت آخر من بيوتات البربر بالأندلس، ويتعلق ببيت بني المهلّب الذين كانوا مقيمين بكورة إلبيرة، حيث ثار خليل وسعيد ابني المهلّب كما ثار غيرهم أثناء حكم الأمير عبد الله بن محمد، ونجح الأول في السيطرة على حصن قرذيرة[3]، وملك الثاني حصن إشبرغرة[4] من كورة إلبيرة، ومع ذلك أظهرا الاستمساك بطاعة الأمير الذي أسجل لهما على ما بأيديهما، ومقابل ذلك شاركا في محاربة عمر بن حفصون الثائر على حكام قرطبة.

وفي ظل إقطاع التسجيل هذا كان المقطع يتمتع بكامل السلطة على ما بيده، ويصبح من حقه توريث ذلك إلى ابنائه[5] مع الاعتراف دائما بالتبعية لحاكم قرطبة، والمشاركة في الغزوات التي يقوم بها ضد النصارى أو ضد المتمردين على سلطته.

---

(1) ابن حيان - المقتبس - ج 2 ص 341.

(2) نفسه - ج 2 ص 342.

(3) حصن قرذيرة: ويقع في إقليم حصن اللوز على بعد 50كلم شمال غرب غرناطة - H. De Felipe - Opcit - p 320.

(4) حصن إشبرغرة: جزء من كورة إلبيرة ويبعد عن غرناطة بـ50 كلم ويقع في شمالها الغربي. H. De Felipe - Opcit - p.303.

(5) القادري بوتشيش - نفس المرجع - ص 185.

مكانة البربر في الجيش الأندلسي خلال القرن الرابع الهجري (10م):

استمرّ الناصر في اتباع السياسة التي بدأها أجداده، والمتمثلة في إقطاع حكام الكور الواقعة في الثغور مقابل الخدمة العسكرية لصالح الدولة، ويؤكد ذلك ابن حيان عند حديثه عن البيوتات المقيمة في الثغور الشمالية حيث يقول: "فقسّم بلادهم بينهم حصصا، وجدّد لهم ولأعقابهم بعدهم على أقسامهم منها كل عام سجلاتهم تضمينا وترفيها، ثم لا يغبهم بالصلات إذا وفدوا، وبالهدايا إذا بعدوا"[1]، ويذكر ابن حيان عددا من البيوتات التي استفادت من هذا الإجراء، ومنها مجموعة من البيوتات البربرية مثل آل ذي النون وآل زروال وآل رزين وغيرها، ومقابل هذه الامتيازات التي كان الناصر يمنحها لهذه البيوتات، ومنها البيوتات البربرية، كان هؤلاء المعنيين بالإقطاع يقدمون خدمات معينة لحاكم قرطبة؛ "فلا يأتلون في طاعة مع حفظ أنفسهم منها جهدا، ولا يألون عدوهم وعدو المسلمين"[2]، ولتأكيد انتقال هذه الإقطاعات عن طريق الوراثة، يضيف ابن حيان عبارة "وراثها عن الأجداد والأباء"[3]، وهو يتحدث عن المستفيدين منها، وسيتكرر نفس الإجراء مع ابنه الحكم المستنصر[4].

إن هذا النص يدل على أن ظاهرة الإقطاع قد عممت أيضا على البيوتات البربرية، وبخاصة خلال القرن الرابع الهجري الذي كان فيه الحكام في حاجة ماسة إلى الدعم العسكري لمواجهة الحركات المناوئة لهم داخل دار الإسلام، والتي كان يقوم بأغلبها العرب والمولدون، والهجومات التي كان يقوم بها النصارى على الثغور الشمالية، ونتيجة لتلك الحاجة إلى الاستعانة بأكبر عدد ممكن من عناصر المجتمع الأندلسي، تغيرت معاملة البربر عما كانت عليه في الوقت السابق، حيث كان هؤلاء يشاركون في العمل العسكري، ولكنهم لا يستفيدون من نفس الامتيازات التي تقدم

---

(1) ابن حيان - نفس المصدر - ج 5 ص 438.

(2) نفسه - ج5 ص437 - 438.

(3) نفسه - ج5 ص437.

(4) نفسه - ج6 ص203.

للمجندين الشاميين الذين كانوا يقاطعون على أراضيهم، ويعفون من دفع العشر، ويرتزقون مائة دينار بعد كل غزوة، ويسجلون في الديوان[1]، بينما كان البربر، ورغم مشاركتهم في العمل العسكري، يؤدون العشر مع سائر أهل البلد، ويغزون في ألوية معقودة كما يغزو الشاميون، ولكنهم لا يحصلون إلا على ما يصيبون من غنائم، ولا يكتبون في الديوان[2].

أصبحت ظاهرة التسجيل للبربر مقابل الخدمة العسكرية تقليدا شائعا في عهد الناصر عبد الرحمن، والخلفاء الذين سيأتون بعده، وفي ذلك يقول العذري: "ولما توفي عبد الكريم بن إلياس، أسجل الإمام عبد الله لمحمد بن عبد الكريم على قلعة ورد من كورة شذّونة، والتزم حضور الصوائف، ولما استخلف أمير المؤمنين جدّد التسجيل له، والتزم القدوم إلى قرطبة عند كل غزاة، والخروج مع أمير المؤمنين في غزواته"[3].

ويؤكد ابن حيان نفس الأمر عند كلامه عن مطرف بن موسى بن ذي النون الذي "أسجل له الناصر على بلده حصن وبذة الذي بناه وحصّنه، ورفع من حاله"، وفي مقابل ذلك "حضر معه أكثر مغازيه، وجرى على استقامة في شأنه إلى أن أسره سانشو صاحب بنبلونة وحبسه"، ولكنه استطاع الفرار من حبسه بالحيلة مع ثلاثة نفر من أصحابه، وعاد إلى بلده"؛ فعاد إلى أفضل أحواله، وشاهد غزوة الخندق (11 شوال 327هـ/1 أوت939م) مع الناصر لدين الله؛ فكرم فيها مقامه، وازدادت عند الناصر لدين الله منزلته؛ فأسجل له على مدينة الفرج من الثغر الأوسط؛ فلم يزل عليها إلى أن توفي فيها سنة 333هـ - 945م"[4].

من خلال هذين النصين يتأكد لنا أن حكام قرطبة قد استمروا خلال القرن الرابع الهجري في تجنيد كافة الطاقات الأندلسية، وبخاصة البربر من أجل مواجهة

(1) ابن الخطيب - الإحاطة في أخبار غرناطة - ج1 ص104.
(2) نفسه - ج 1 ص 104.
(3) أحمد بن عمر العذري - ترصيع الأخبار وتنويع الآثار - ص 113.
(4) ابن حيان - المقتبس - ج 3 ص 19.

أعدائهم مقابل التسجيل لهم على أراضيهم، وبذلك لعب هؤلاء المقطعين دورا هاما في الذود عن حمى دار الإسلام، وغزو النصارى في عقر دارهم، وبواسطتهم نجح عبد الرحمن الناصر لدين الله وابنه الحكم المستنصر في تحقيق عدة انتصارات على المخالفين لسلطتهم بالداخل، والنصارى الطامعين في احتلال الثغور بالخارج.

إضافة إلى تعميم التسجيل ليشمل البيوتات البربرية، وبخاصة المقيمة منها في الثغور المتاخمة للنصارى، احتفظ عبد الرحمن الناصر بالبربر الذين جندوا في عهد جدّه عبد الله، ويؤكد ذلك ابن حيان حين يتكلم عن غزوة قام بها حاكم قرطبة في سنة 301هـ - 913م ضد أهل الخلاف المنتزين ببعض الكور، ومنها شذّونة التي نجح في إخضاع المخالفين فيها، وقام ببناء حصن أشبرغيرة، وعّين عليه عاملا "وصيّر معه فيه عدّة كثيفة من الفرسان والبرابر الطنجيين والرجّالة الملحقين"[1].

لم يكتف عبد الرحمن الناصر بالبربر الذين كانوا قد جندوا في عهد جدّه، بل استجلب رجالا آخرين من العدوة المغربية، وقد سبق أن ذكرنا المهاجرين البربر إلى الأندلس في عهده، وكان أغلب هؤلاء من الفرسان، ولكنه التزم سياسة حذرة في التعامل معهم بحيث "لا يستخدم من البربر إلا أراذلهم وعبدانهم من أشابتهم وأساودهم، موقعا عليهم اسم الطنجيين، مقتصرا بهم على أدنى الملاحق، قاصرا لهم على أقل الرواتب، مصرفا لهم في أشق الخدمة"[2]، ولا يعطينا المؤلف أسباب هذه المعاملة التي كان الناصر يعامل بها الجند ذوي الأصول المغربية رغم الخدمة الكبيرة التي كانوا يقدمونها لحكومة قرطبة، ومع ذلك يمكن تفسيرها بعدم الثقة التامة من طرف الناصر في هؤلاء البربر الذين كثيرا ما شقوا عصا الطاعة، ووقفوا إلى جانب الثائرين على السلطة الأموية.

ومع ذلك فقد كانت هناك استثناءات لهذه السياسة المنتهجة من قبل الناصر في معاملة البربر، وتتمثل في استخدامه لزعماء البربر وأشراف قبائلهم، وبخاصة منهم

---

(1) نفسه - ج 5 ص 88.

(2) نفسه - ج 6 ص 190.

الذين فرّوا من المطاردة الفاطمية، ومن مشاهير هؤلاء الذين التجأوا إلى حاكم قرطبة، ودخلوا في طاعته حميد بن يصل الزناتي الذي التحق بخدمة الخليفة الأموي سنة 336هـ - 946م[1].

كان للبربر المجندين وإخوانهم المقيمين بالثغور دور كبير في مواجهة أعداء الخلافة الأموية بالأندلس، وكانوا سببا في تحقيق العديد من الانتصارات على جيوش الأعداء، وفي ذلك يقول ابن عذاري، وهو يتناول أحداث سنة 344هـ - 918م: "وفيها وردت قوّاد الثغور، وفيهم...مروان بن رزين وعامر بن مطرف ابن ذي النون يذكرون أنهم دخلوا إلى أرض العدو، وقصدوا حصنا من بلد قشتيلية، فتغلبوا على أرباضه، وقتلوا جماعة من أهله، وقفلوا عنه؛ فوافتهم جموع النصرانية؛ فأيدّ الله المسلمين، وانهزم المشركون أمامهم مقدار عشرة أميال يقتلونهم كيف شاءوا، فأحصى أنه قتل منهم مقدار عشرة آلاف"[2]، ولا يهمنا عدد القتلى المبالغ فيه بقدر ما يهمنا دور البربر في ذلك المجهود الحربي الموّجه ضد أعداء المسلمين.

ويرد في المصادر التاريخية الكثير من الأمثلة التي تدل بوضوح على الدور الكبير الذي لعبه البربر في محاربة النصارى، والتصدي للهجمات التي كانوا يقومون بها على دار الإسلام، وهو ما يثبت تمسك هؤلاء المغاربة بالقاسم المشترك الذي يجمعهم مع أهل الأندلس، والمتمثل في الوحدة الدينية التي تحتم على الجميع الانصهار في بوتقة واحدة هدفها تكوين صف واحد أمام أعداء الإسلام ومواجهتهم.

بعد وفاة الناصر عبد الرحمن سنة 350هـ - 961م، اعتلى الحكم المستنصر بالله عرش أسلافه، وانتهج في بداية حكمه نفس السياسة التي اتبعها أبوه في معاملة البربر إلى درجة أنه عاقب فارسا استعمل سرجا عدويا[3]، ولكنه غيرّ هذه السياسة في السنوات الأخيرة من حكمه، وحدث ذلك التغير عقب الحروب التي دارت بين جيش

(1) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 215.

(2) ابن عذاري - نفس المصدر - ج 2 ص219 - 220.

(3) ابن حيان - المقتبس - ج 6 ص 190.

الخلافة والبربر بقيادة الحسن بن قنون (جنون) فوق التراب المغربي.

يقول ابن حيان بعدما ذكّر بالسياسة التي انتهجها الناصر في معاملة الجند البربر الذين كانوا يشكلون أحد عناصر جيش الخلافة، وهو يتحدث عن الحرب الدائرة بين الأمويين والأدارسة؛ "فلاقى الحكم في حربه ضد الحسن بن قنون (جنون) من صدق مراس رجالهم، وشدّة بأسهم على قلة عددهم ما ملأوا به عباب سيله، ومارسوا برعالهم ألفاف كراديسة، فصابروا جلادهم، وقاوموا قراعهم، وأبرّوا في بعض المواطن عليهم حتى لقتلوا ابن طملس القائد الجليل، أشجوا فيه الخليفة الحكم وحرقوه"[1]، وهو بذلك يشير إلى الحملة الأولى التي جرّدها الحكم لمحاربة الحسن بن قنون (جنون) سنة 361هـ - 972م، والتي انتهت بالهزيمة الكبرى التي مني بها الجيش الأندلسي، ويؤكد ذلك ابن حيان قائلا: "وفي أول سنة 362هـ - 973م قتل الوزير القائد محمد بن قاسم بن طملس بفحص مهران على يدي الحسن بن قنون (جنون) يوم الأحد لسبع بقين من ربيع الأول، وقتل في ذلك النهار جملة من الجند الذين كانوا معه نحو الخمسمائة من الفرسان، ومن الرجالة نحو الألف"[2].

إن الانتصار الذي حققه الحسن بن قنون (جنون) بفضل البربر سيدفع الحكم المستنصر بالله إلى تجنيد إمكانات الأندلس البشرية والمالية الضخمة بهدف القضاء على ثورة الأدارسة، كما أنه سيؤدي أيضا إلى تغيّر واضح في سياسة المستنصر تجاه البربر، ويوضح ذلك ابن حيان، وهو يتحدث عن انتهاء الحرب، وانتصار الجيش الأندلسي، فيقول: إن الحكم قد قام بنقل عدد كبير من البربر إلى الأندلس، وبخاصة منهم الفرسان، "وألحقهم بجنده ونعشهم بعطائه وبوّأهم داره"[3]، وضمّهم إلى من أتاه من البربر قبل ذلك، "واكتملت بهم لديه آخر دولته القصيرة من هذه الفرق الثلاث البربرية الرجال: رجال بني حسن ورجال ابني الأندلسي ورجال البرازلة، عسكر ضخم

---

(1) نفسه - ج 6 ص 191.

(2) نفسه - ج6 ص 96 / ابن عذاري - نفس المصدر - ج 2 ص 367.

(3) ابن حيان - المقتبس - ج 6 ص 191.

يقاربون السبعمائة فارس، فيهم وجوه وأعلام حازوا عما قليل بالعسكر الرياسة، جميعهم من البربر الذين طال مقت السلطان لهم وزهده فيهم"[1].

إن هذا النص يثبت بما لا يدع مجالا للشك تغير سياسة الحكم المستنصر تجاه البربر، وذلك عقب اكتشافه لتفوقهم في ركوب الخيل والفروسية، ونتيجة لذلك عمل على توسيع استعمال المغاربة بحيث صار منهم في جيشه "رجال مقدمون في البأس والرجولة، اقترن بهم عما قليل رجال هؤلاء الحسنيين؛ فاستكمل بهم فئة بربرية ضخمة تعززوا بالمستأمنين قبل إليه من صبابة بني برزال المقدمين على جماعتهم في البأس والنجدة"[2].

نتيجة لهذه السياسة الجديدة، إزداد عدد البربر العاملين في صفوف الجيش الأندلسي، حيث بلغ عدد الفرسان فقط في عهد الحكم بن عبد الرحمن الناصر ما يقارب سبعمائة فارس[3].

إن تزايد عدد البربر المرتزقين بالعمل العسكري يدل بوضوح على المكانة الهامة التي أصبحوا يحتلونها في صفوف الجيش الأندلسي، والتي لم يكن من الممكن لهم أن يصلوا إليها لولا تحليهم بجملة من الصفات، ومنها الشجاعة والفروسية والإقدام، وهي الصفات التي مكنت جيش الخلافة من تحقيق العديد من الانتصارات سواء على المعارضين لحكومة قرطبة في الداخل، أو على النصارى المناوئين لقرطبة في الخارج، وتورد لنا المصادر التاريخية، وبخاصة منها الأندلسية، جملة من الأخبار المتعلقة بالانتصارات الكثيرة التي حققتها جيوش الخلافة الأموية بالأندلس سواء في عهد الناصر أو في عهده ابنه الحكم، وسنذكر البعض منها عند تطرقنا إلى ذكر بعض القادة البربر الذين برزوا في صفوف الجيش الأندلسي.

لقد تحول موقف الحكم المستنصر من النقيض إلى النقيض في التعامل مع

---

(1) نفسه - ج 6 ص 192 - 193.

(2) نفسه - ج 6 ص 192.

(3) نفسه - ج 6 ص 192.

البربر المجندين في جيش الخلافة، فمن الإزدراء والإهانة إلى الإعجاب الفائق الذي جعل الخليفة لا يستطيع الصبر عن مشاهدة جنده من البربر حتى وهو في حالة المرض، ويورد لنا ابن حيان كلاما يؤكد هذا الأمر حيث يقول: إن الحكم "ظلّ أيام علّته يشرف عليهم من قصبة دار الرخام المرسوم صحنها باعتراض الجند أيام إعطائهم، يتطلع على فرسان البرابر إذا تحركوا للعب، شاخصا إليهم، معجبا بهم، "ولم يخف ذلك الإعجاب عن أفراد حاشيته إذ كان "يقول لمن حوله: "انظروا إلى انطباع هؤلاء القوم على خيولهم، فكأنهم الذين عناهم الشاعر بقوله:

فَكَأَنَّمَا وُلِدَتْ قِيَامًا تَحْتَهُم وَكَأَنَّهُم وُلِدُوا عَلَى صَهْوَاتها

ما أعجب انقيادها لهم، كأنها تفهم كلامهم! فيعجب سامعوه من سرعة تحول رأيه فيهم"[1].

إن هذا الإعجاب الذي أبداه الخليفة الحكم بالبربر المجندين ضمن صفوف الجيش الأندلسي سيكون له أكبر الأثر في ازدياد عدد البربر العاملين في هذا المجال بالعدوة الأندلسية، وسيكون هؤلاء المجندين عند حسن ظن الخليفة بهم حيث سيساهمون في ترجيح كفة القوة الأموية على غيرها من القوى المتواجدة بالأندلس والمعارضة لحكام قرطبة، كما سيكون للبربر، وبخاصة منهم المقطعين في كور الثغور الشمالية الدور الحاسم في تحقيق الانتصار على النصارى، وذلك من خلال المشاركة في جلّ الغزوات التي كان الحكم يجردها ضد أعدائه، ومن ذلك الغزوة التي قادها غالب قائد الثغر الأعلى إلى بلاد ألبه (قشتالة)، وكان معه في هذه الغزوة عدد من حكام كور الثغور، ومنهم يحيى بن محمد التجيبي وقاسم بن مطرف بن ذي النون، وكانت نتيجتها انتصار المسلمين الذين استولوا على "حصن غرماج، ودوخوا بلاد النصارى وانصرفوا"[2].

من خلال ما سبق ذكره يتبين لنا أن بداية استخدام البربر في الجيش الأندلسي

(1) ابن حيان - المقتبس - ج 6 ص 193.

(2) ابن خلدون عبد الرحمن - العبر. - ج 7 ص 314.

كعنصر أساسي قد بدأ مع وصول الحكم المستنصر إلى سدّة الحكم، وبالتالي فإنه من الممكن اعتبار تاريخ توليه للخلافة كبداية لحركة سمّاها ليفي بروفنسال بحركة "تبربر القوات الأندلسية في العهد الأموي"[1]، إلا أننا لا نشاطر هذه الفكرة، ذلك أن ظاهرة استعمال البربر في الجيش كانت في خطواتها الأولى في عهد الحكم المستنصر لأن جلّ الذين التحقوا به من البربر كانوا في نهاية حكمه، وبالتالي يمكن اعتبار وصول ابنه الخليفة هشام المؤيد بالله، والتي تتزامن مع بداية سيطرة محمد بن أبي عامر على دواليب الحكم كبداية حقيقية لهذه الحركة التي ستؤدي إلى تفوق العنصر البربري على بقية العناصر المشكلة للجيش الأندلسي.

لقد سعى المنصور بن أبي عامر إلى تقوية مركزه، ومن أجل ذلك لجأ إلى الزيادة في عدد الصقالبة والبربر المشكلين للجيش إلى درجة أنه استدعى قبائل بربرية بأكملها[2].

عمل المنصور على الاستكثار من العناصر البربرية في الجيش الأندلسي، وكنتيجة لذلك أهمل رجال العرب الذين كانوا إلى غاية بروزه على مسرح أحداث الأندلس يشكلون معظم عناصر الجند الأندلسي وقياداته، ويذكر ابن خلدون "أنه استدعى أهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة؛ فرتب منهم جندا، واصطنع أولياء، وعرّف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال ومكناسة وغيرهم"، ولم يكتف بذلك بل "قدّم رجال البرابرة وزناتة، وأخّر رجال العرب، وأسقطهم عن مراتبهم"[3].

ولكن ما الذي جعل محمد بن أبي عامر ينتهج هذه السياسة القائمة على الإكثار من المغاربة في صفوف الجيش، والتخلي عن العرب أو بالأحرى إقصائهم من المراكز الحساسة (القيادة) التي كانوا يشغلونها قبل ذلك؟ وللإجابة على هذا السؤال

---

(1) Levi Provençal - Opcit – T. 3 – P. 80.

(2) ابن خلدون – نفس المصدر – ج 7 ص 319.

(3) نفسه – ج 7 ص 319 / المقري – نفح الطيب – ج 1 ص 174.

نعتمد على ما ذكره آخر حكام بني زيري بغرناطة الأمير عبد الله بن بلقين الذي يقول في الكتاب الذي ألفه بمنفاه: إن المنصور بن أبي عامر "استجلب من رؤساء البربر وحماتها وأنجادها من بلغه فروسيته وشدته، وتسامع الناس بالجهاد؛ فبادر إليه من شرف العدوة من كان لهم من الأثار والمكارم والبأس على النصارى مالا خفاء له بهم، وكان يصول ابن أبي عامر على العدو، وهم كانوا العدّة في الجيش والموثوق بهم عند اللقاء ومعترك الوغاء، وكان من أدهاهم رأيا، وأبعدهم همّة زاوي بن زيري عمنا، وبعده حبّوس بن ماكسن ابن أخيه، فإليهما كان الرأي والمشورة في الأمر، والحكم على من دونهم من الأجناد، فرتب ابن أبي عامر الرتب، وأظهر هيبة الخلافة، وقمع الشرك، وحضّ المسلمين عامة على الغزو؛ فعجز عن ذلك رعية الأندلس، وشكوا إليه ضعفهم عن الملاقاة، وشغلهم بالغزوات عن عمارة أرضهم، ولم يكن القوم أهل حرب؛ فقاطعهم على أن يشتغلوا بعمارة أرضهم، ويعطوا من أموالهم كل عام ما يقيم به من أجناد من يكفيهم ذلك على اتفاق ورضى منهم"[1]، ومن الطبيعي أن الميزة الأخيرة لا تعني كل العرب، وإنما الفئة الثرية منهم.

ويؤيده في ذلك ابن الخطيب حيث يقول: "ومن لدن سنة 388هـ - 998م صدر الأمر من المنصور بإعفاء الناس من إجبارهم على الغزو، إستغناء بعدد الجيش...وعرّفهم بأن من تطوع خيرا فهو خير، ومن خفّ إليه فمبرور ومأجور، ومن تثاقل فمعذور، فتمّت على الناس النعمة"[2]، ومن خلال هذا النص نستنتج أن الناس، ومنهم العرب لم يعودوا مجبرين على المشاركة في الغزو، وذلك مقابل المساهمة المالية في ذلك العمل، وهو الأمر الذي يناسب كثيرا من البيوتات العربية الثرية، والمتثاقلة عن المشاركة في الصوائف والشواتي، وسبق أن برهن العرب على ذلك من خلال موقفهم المتخاذل خلال غزوة الخندق مع الناصر.

من خلال النص الذي أورده عبد الله بن بلقين يتبين لنا أن الأسباب التي دفعت

---

(1) عبد الله بن بلقين - كتاب التبيان - ص 57 - 58.

(2) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 68.

المنصور بن أبي عامر إلى الاعتماد على البربر في العمل العسكري هي أسباب خاصة بالمغاربة، وأخرى خاصة بأهل الأندلس وعناصر جندها في السابق، وسنعود إلى دوافع الاعتماد المتزايد لحكام قرطبة على هذه العناصر بأكثر تفصيل في عنصر لا حق.

لقد ازداد اعتماد الدولة الأموية على العناصر البربرية في صفوف الجيش، وبخاصة خلال سيطرة محمد بن أبي عامر على مقاليد الحكم، وسعيه إلى إزالة العصبية من صفوف الجيش الأموي، وذلك عن طريق إقحام عنصر جديد في صفوفه، وكان الهدف من ذلك هو حفظ التوازن بين العناصر المكونة له[1].

نتيجة لهذه السياسة التي انتهجها المنصور بن أبي عامر ازداد عدد البربر الوافدين إلى الأندلس طلبا للخدمة في الجيش، ومن ذلك على سبيل المثال، وصول أبي يداس بن دوناس اليفرني إلى الأندلس صحبة جمع عظيم من قومه، وكان موقف الحاجب أن أحسن استقبالهم "فحلّ كلهم محلّ التكرمة والإيثار، ونظم القائد اليفرني في جملة الرؤساء والأمراء، وأسنى له الجراية والإقطاع، وأثبت رجاله في الديوان، ومن أجاز من قومه"[2]، وكانت النتيجة لذلك كله أن أصبح بنو يفرن من أكثر العناصر البربرية إخلاصا للدولة العامرية، ويدل على ذلك مشاركتهم في كل الغزوات التي جردها المنصور بن أبي عامر ضد النصارى في بلاد الأندلس، أو ضد الثائرين على حكومة قرطبة في العدوة المغربية[3].

تزايد عدد البربر في عهد المنصور بن أبي عامر حتى أصبحوا يشكلون النسبة الغالبة في الجند الأندلسي، وبهم خاض المنصور نيفا وخمسين غزوة لم يهزم في واحدة منها، وفي ذلك يقول ابن الخطيب، وهو يتحدث عن حاجب هشام المؤيد، ومدبر أمور الدولة المروانية: "وصرف سعيه إلى الجهاد وتمهيد البلاد؛ فاستظهر

(1) السيد عبد العزيز سالم - قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس - دار النهضة العربية - بيروت - 1971 - ج1 ص68.

(2) ابن خلدون - العبر - ج13 ص22 / مجهول - مفاخر البربر - ص260.

(3) رضوان البارودي - بنو يفرن الزناتيون في بلاد المغرب والأندلس - دار نشر الثقافة - الإسكندرية - 1991 - ص53.

بفرسان الهيجاء، وأبطال الكريهة، وأعلام السّمرة من فرسان الغرب وزناتة الواردين على بابه في سبيل الحسائف والدماء الواقعة بينهم وبين ناسهم؛ فارتاش منهم بأجنحة وافرة لم يستظهر قبله ملك بمثلها، ومغراوة وإزداجة وزناتة وصنهاجة، وانتقى الرجال فكان لا يلحق في ديوانه إلا من تقرر عناؤه، وتحقق نفعه وكرم موقفه"[1].

ويضيف في مكان آخر أن عدّة الفرسان من البرابرة الغرباء في ديوانه بلغ ثلاثة آلاف فارس[2]، بينما لم يتجاوز عددهم سبعمائة فارس في عهد الحكم المستنصر[3].

إن هذه النصوص التاريخية وغيرها تثبت بما لا يدع مجالا للشك إجماع المؤرخين على أن البربر كانوا يشكلون العنصر الأساسي في الأعمال العسكرية التي قادها المنصور بن أبي عامر ضد الأطراف المناوئة لسلطة قرطبة؛ وبخاصة ضد النصارى، كيف لا "وبلاد البربر القريبة خزّان لا ينفذ للرجال" على حدّ تعبير ليفي بروفنسال[4].

ازدادت مكانة البربر أهمية في عهد المنصور بن أبي عامر حيث "صاروا خاصته وبطانته"، وكانوا "أظهر الجند عنده، وأعلاهم مرتبة"[5]، كما كانوا "منادميه ومسايريه في كل الأوقات واللحظات"[6]، وردّ البربر الجميل فكانوا عند حسن ظن قائدهم بهم أثناء المعارك التي خاضها المنصور، وبخاصة ضد النصارى المتكالبين على الثغور المتاخمة لدار الإسلام.

يقول ابن الخطيب: إن المنصور "لم يباشر حربا أشدّ عليه، ولا أصعب مقاما، وأغلظ كريهة من حربه في غزاته صائفة سنة 390هـ، دارت الحرب، ووقعت جولات كادت الفضيحة تقع معها، والهزيمة تستمر بعدها لولا دفاع الله، وكرم صبر المنصور

---

(1) نفسه – ص 102.

(2) ابن حيان – المقتبس – ج 6 ص 192.

(3) ابن الخطيب – أعمال الأعلام – ص 66.

(4) Levi Provençal - opcit - T. 2 - p. 261.

(5) ابن عذاري – البيان المغرب – ج2 ص 279.

(6) ابن بسام الشنتريني – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة – ق4 م1 ص 79.

وجودة ثباته مع قوة رعبه"، وكادت الهزيمة أن تحلّ بجيش المسلمين "إلا أن الله أمدّهم بنصره، وبرجال أحسنوا الثبات، ووصلوا أوار الحرب حتى ردّوا من بإزائهم، وأنس من خلفهم من المتجولين بفعلهم، فكرّوا بعد الفرّ، ومنح الله النصر"، ويحدد ابن الخطيب بعد ذلك الطائفة التي كانت سببا في تحقيق النصر بعد ما أوشك الجيش على الانهزام فيقول: "وكان أظهر تلك العصابة الحامية عن الملة عبد الملك بن المنصور، ومعه أبطال من أعلام المسلمين الأندلسيين والعدويين، عامتهم فرسان البرابرة على أن الإسم منهم في هذا اليوم ذهب إلى كيدّبر الدّمّري الأبرص، من كبار القواد، وأحد ملوك بني دمر بالعدوة، وكان له إقدام عظيم قتل في احتدامه ذلك أحد قواميس بني غومس وجاء برأسه؛ فاستمرّت الهزيمة على أثره"[1].

من خلال هذا النص يتضح جليا الدور الرائد الذي كان البربر يقومون به في الغزوات التي كان المنصور بن أبي عامر يجردها ضد أعداء المسلمين من النصارى، وبفضل ذلك الدور كانت الانتصارات المتتالية التي حققها حاجب هشام المؤيد طيلة فترة حكمه، والتي مكنت مسلمي الأندلس من العيش في كنف الأمن والطمأنينة.

ويؤكد ابن خلدون دور البربر في تحقيق هذه الانتصارات؛ فيقول عن المنصور بن أبي عامر: إنه "جنّد البرابرة والمماليك، وردّد الغزو بنفسه إلى دار الحرب؛ فغزا اثنتين وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه، لم تنكسر له فيها راية، ولا فلّ له جيش، ولا أصيب له بعث، ولا هلكت سرية"[2].

كان المنصور وابنه من بعده يغدقون على البربر الهبات والعطايا، ويقطعونهم الضياع، كما اتخذوا منهم منادمين وجلساء[3].

وبعد وفاة المنصور بن أبي عامر سنة 392هـ - 1002م، خلفه في منصب الحجابة ابنه عبدالملك المظفر، واستمرّ في انتهاج نفس السياسة التي اتبعها أبوه من

---

(1) ابن الخطيب - نفس المصدر - ص69 - 70.

(2) ابن خلدون - العبر - ج 7 ص 320.

(3) ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص 278 / ابن بسام - الذخيرة - ق4 م 1 ص79.

قبله حيث "انهمك أيضا في اصطناع البرابرة العدويين، ودعا القبائل منهم إلى الدخول إليه والخدمة له، وكان من أعظم من هاجر إليه زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي...فأدخله بمن معه من إخوته"[1]، كما كان ابن المنصور "يفيض العطاء في المطوّعة التي تعبر البحر للجهاد معه من أرض العدوة وجبال البرابرة"[2]، وكان هؤلاء المتطوعين يمثلون عددا هاما من الجند الذي كان المظفر يخوض به الغزوات ضد النصارى، ومن ذلك ما يذكره ابن عذاري عند حديثه عن الغزوة الأولى التي قادها الحاجب العامري إلى بلاد الإفرنج، وذلك في سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة للهجرة (1003م) حيث يقول: "ووافت الحضرة لأول هذا الوقت طوائف كثيرة من مطوعة العدوة المجاهدين للحسبة، فيهم جماعة كبيرة من أمرائهم وزعمائهم، وعصابة كثيرة من فقهائهم يبغون مشاهدة هذه الغزوة"[3].

من خلال ما سبق ذكره، يتأكد لنا الدور الكبير الذي قام به البربر في الأندلس في المجال العسكري حيث أصبح على عاتقهم عبء مواجهة الهجمات التي كان يقوم بها الأسبان على دار الإسلام، وبالتالي الحفاظ على أمن وسلامة المسلمين المتواجدين بالثغور الشمالية، ولم يكن ذلك ممكنا لولا السياسة التي انتهجها المنصور بن أبي عامر وابنه من بعده في اصطناع البربر والمماليك، والإغداق عليهم، وهي السياسة التي جعلت هؤلاء المجندين يقدمون أرواحهم رخيصة في سبيل تحقيق النصر على الأعداء، وهو النصر الذي حالف المنصور وابنه عبد الملك المظفر طيلة توليهما الحجابة لهشام المؤيد بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر (367 - 399هـ/978 - 1008م).

<u>أشهر قادة جيش البربر</u>: لقد شكل البربر كما ذكرنا سابقا الجزء الأكبر من الجيش الأندلسي، وقد برز منهم عدد من القادة الذين أسند إليهم خلفاء الدولة الأموية

---

(1) نفسه - ق4 م1 ص81.

(2) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 87.

(3) ابن عذاري - نفس المصدر - ج 3 ص 4.

وحجابها مهمة قيادة الجيوش، وتجريد الصوائف والشواتي ضد أعداء المسلمين من النصارى المتكالبين على المسلمين وديارهم المتاخمة لممالكهم، كما كلفوا أيضا بإخماد نيران الثورات التي كان يقوم بها كثير من عناصر المجتمع الأندلسي، وبخاصة منهم العرب والمولدين، وقد سبق أن أشرنا إلى أبرز هؤلاء الثائرين في الفصل السابق، ومن أشهر هؤلاء القادة على الإطلاق أحمد بن محمد بن إلياس المغيلي، ويعتبر هذا البربري من أبرز قادة الجيش الذين خدموا تحت لواء الخليفة الناصر لدين الله عبد الرحمن.

تورد المصادر التاريخية، وبخاصة كتابات ابن حيان وابن عذاري تفصيلات كثيرة عن هذا الرجل، وعلى العكس من ذلك فإنها شحيحة فيما يتعلق بغيره من القادة الآخرين ذوي الأصول البربرية، ولذلك اضطررنا للإسهاب في الحديث عنه، والاختصار فيما يتعلق بغيره من القادة.

يعرفنا مؤلف "مفاخر البربر" بهذا البربري فيقول عند كلامه عن البيوتات البربرية التي كانت متواجدة ببلاد الأندلس إنه: "الوزير القائد الذي ولي الولاية الجليلة لعبد الرحمن الناصر أمير المؤمنين، وكان جدّه إلياس أحد أعلام البربر الداخلين إلى الأندلس مع طارق بن زياد خلال الفتح الأول"[(1)]، كما يذكر لنا نسبه فيقول متحدثا عن قبيلة مغيلة: "ومنهم أحمد بن محمد بن إلياس المغيلي"[(2)].

تولى أحمد بن محمد بن إلياس للناصر مهمة تسيير كثير من الكور بالأندلس حيث عين عاملا على كورة تدمير سنة 317هـ - 929م[(3)]، ونقل منها إلى الجزائر الشرقية (ميورقة ومنورقة ويابسة) سنة 318هـ - 930م[(4)]، وعزل عنها سنة 321هـ - 933م[(5)]، ليعين في السنة الموالية عاملا على كورتي طرسونة التي كانت مستقرّ العمال

---

(1) مجهول - مفاخر البربر - ص 266.

(2) نفسه - ص 266.

(3) ابن حيان - المقتبس - ج 5 ص 253.

(4) نفسه - ج 5 ص 285.

(5) نفسه - ج 5 ص 332.

والقواد بالثغور، وتبعد عن تطيلة باثني عشر ميلا[1]، ووشقة التي تقع بالثغر الأعلى، وتبعد عن سرقسطة بخمسين ميلا[2]، وفي سنة 324هـ - 936م عزل عن كورة وشقة وعملها[3]، ليعين في منصب الوزارة في نفس السنة[4]، وفي سنة 329هـ - 940م أصبح أحمد بن محمد بن إلياس "متقلد علياء القيادة"[5].

إن هذه التعيينات المستمرة في المناصب الإدارية والسياسية تدل بوضوح على كفاءة هذا البربري، وقدرته على التسيير الجيد، وهو الأمر الذي جعله يحظى بثقة عبد الرحمن الناصر.

من خلال ما سبق تتأكد لنا كفاءة أحمد بن محمد بن إلياس، ومقدرته على تحمل المسؤولية، والقيام بها على أحسن وجه، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه علينا بإلحاح هو كيف تمكن هذا البربري في وقت احتكر فيه العرب والصقالبة المناصب السياسية والإدارية والعسكرية الهامة من الوصول إلى تولي القيادة العليا للجيش؟ والإجابة على هذا السؤال تكمن في تتبع أهم الأعمال العسكرية التي اضطلع بها أحمد بن محمد بن إلياس المغيلي، وقام بأدائها بشكل سمح له بارتقاء المناصب في ظل الخلافة الأموية بالأندلس.

ففي سنة 316هـ - 928م خرج أحمد المغيلي غازيا إلى كور الغرب، وتمكن من افتتاح مدينتي ماردة وشنترين، وانتزاعها من أيدي المنتزين بها من الثوار[6].

وفي سنة 319هـ - 931م اشترك أحمد بن محمد بن إلياس مع يونس بن سعيد في قيادة الحملة البحرية التي جرّدها الناصر ضد أحد الأدارسة القائمين على سلطة الأمويين في المغرب، ويتعلق الأمر بالحسن بن عيسى بن أبي العيش صاحب

---

(1) عبد المنعم الحميري - الروض المعطار - ص 123.
(2) نفسه - ص 194.
(3) ابن حيان - نفس المصدر - ج5 ص 392.
(4) نفسه - ج 5 ص 390.
(5) نفسه - ج 5 ص 470.
(6) ابن حيان - نفسه - ج 5 ص238 / ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص198.

جراوة الذي لجأ بعد انهزامه أمام موسى بن أبي العافية إلى جزيرة أرشقول التي تقابل المدينة التي تحمل نفس الإسم، وتقع على نهر تافنة بالقرب من البحر الذي يفصله عنها ميلان[1]، وتمكن الأسطول البحري الأندلسي من فرض الحصار على الجزيرة، وقتل كثيرا من رجال ابن أبي العيش إلا أن تساقط الأمطار التي أغاثت الناس بعد نفاذ ماء آبارهم، واقتراب فصل الشتاء حسب ابن حيان قد حال دون الاستيلاء على الجزيرة، وهو الأمر الذي اضطرّ الأسطول إلى العودة من حيث أتى، وكان وصوله إلى المرية في شهر رمضان سنة 320هـ - 932م[2].

وفي سنة 321هـ - 933م أمر عبد الرحمن الناصر قائده أحمد بن محمد بن إلياس، وكان متواجدا بناحية بلنسية، بأن يتقدم إلى مدينة وشقة - التي تبعد عن سرقسطة بخمسين ميلا، وهي من أهم مدن الثغر الأعلى[3] - وأن يدخلها، ونفذ القائد أوامر الخليفة فعبر نهر إيبرو، وفي الطريق بلغه الخبر بأن محمد بن هشام يريد منعه من دخول هذه المدينة، ومع ذلك دخلها أحمد، وبقي بها إلى غاية قدوم الخليفة إليها سنة 322هـ - 934م وهو في طريقه إلى الشمال لمحاربة النصارى، وقبل مواصلة سيره "أدال أحمد من وشقة، وأغزاه مع نفسه، وعند رجوعه من غزوته سنة 323هـ إلى مدينة سرقسطة، أعاد أحمد إلى منصبه كعامل على وشقة مع ما كان بيده من عمالة بلنسية وطرطوشة"[4]، وفي نفس السنة زحف القائد أحمد بن محمد المغيلي إلى حصن موريل، وهو من حصون محمد بن هشام التجيبي، ويقع بالقرب من مدينة طرسونة؛ ففتحه، وقبض على أحمد بن محمد التجيبي عامله[5].

وفي السنة الموالية (324هـ - 935م)، وهي السنة التي عينه الناصر فيها في

---

(1) البكري أبو عبيد - كتاب المسالك والممالك - ج 2ص 747 - 748.

(2) المقتبس - ج5 ص313/المسالك والممالك - ج2 ص748/البيان المغرب - ج2 ص205/ Levi Provençal - op.cit - T. 2 - P. 99.

(3) عبد المنعم الحميري - الروض المعطار - ص 194.

(4) أحمد بن عمر العذري - ترصيع الأخبار وتنويع الآثار - ص 69 - 70.

(5) ابن حيان - المقتبس - ج 5 ص 360.

منصب الوزارة، "جاشت الفرنجة بالثغر الأعلى، وخرجوا على المسلمين مع صاحب برشلونة في جمع كثير"، وكان رد فعل الناصر أن كلّف قائده الأعلى بمهمة التصدّي لهم رغم كونه كان منهمكا في حصار مدينة سرقسطة، وهو ما يدل بوضوح على ثقة الناصر الكبيرة في قائده، واعتباره الأكفأ من قواده في تولي المهمات الصعبة.

نفذ القائد المهمة بمن كان معه من جند السلطان ورجال الثغر، "ووقعت بينه وبين الفرنجة حرب شديدة صبر فيها المسلمون صبرا عظيما؛ فرزقهم الله النصر، وهزم أعداء الله المشركين فقتلوا أبرح قتل...وبعث القائد أحمد مما حيز من رؤوس أعلامهم إلى باب سدّة قرطبة بألف وثلاثمائة رأس، وأتى الغرق والقتل على عشرة آلاف وأكثر منهم"[1].

وفي سنة 325هـ - 936م ثار أهل وشقة على خليفة أحمد بن محمد بن إلياس، ونتيجة لذلك عاد الوزير أحمد إلى هذه المدينة، ودارت بينه وبين محمد بن هشام التجيبي حروب كثيرة في منطقة بربشتر، وهي من أمهات مدن الثغر الأعلى الفائقة الحصانة والإمتناع[2]، وانتهت هذه الحروب بانهزام محمد بن هشام التجيبي وأخيه ومن كان معهما نحو خندق الحور الواقع بالقرب من بربشتر، وتقدم القائد أحمد بن محمد بن إلياس إلى مدينة وشقة؛ فأخرج عنها هذيل بن هشام وملكها، ودخل إلياس بن سليمان عامل أحمد وابن عمه حصن بربشتر[3]، وفي هذه السنة استقبل عبد الرحمن الناصر كتاب القائد أحمد بن محمد بن إلياس الذي يبشره فيه بالانتصار على ثوار وشقة[4].

واصل الوزير القائد تنفيذ المهمات العسكرية التي كان الناصر يكلفه بها؛ ففي سنة 326هـ - 937م قاد أحمد بن محمد بن إلياس غزوة إلى بلاد جلالقة الغرب، وذلك انطلاقا من مقر إقامته ببطليوس، وهي مدينة من إقليم ماردة، وتقع إلى الغرب

(1) نفسه – ج 5 ص 379 - 380.

(2) عبد المنعم الحميري – الروض المعطار – ص 39.

(3) العذري – نفس المصدر – ص 70 - 71.

(4) ابن حيان – نفس المصدر – ج 5 ص 394.

منها على وادي نهر يانة (آنة)[1]، وكان الهدف الرئيس من هذه الحملة العسكرية هو مهاجمة أمية بن إسحاق القرشي المنتزي بمدينة شنترين، قاصية غرب الأندلس، وإحدى مدن كورة باجة[2]، وعندما بلغه الكتاب الذي أرسله الناصر، ويأمره فيه بالتحرك إلى مواجهة الكفّار نفّذ ذلك؛ فدخل إلى بطليوس بأصحابه ورجّالة الثغر الأدنى، والتقى بجيش العدو بداخل جليقية "فهزمهم وأذرع القتل فيهم"[3].

وفي سنة 327هـ - 938م افتتحت مدينة شنترين قاصية غربي الأندلس المتنكثة بالخائن أمية بن إسحاق القرشي المنتزي فيها على الناصر لدين الله، وذلك على يد الوزير القائد الموكّل بحربها، وهو أحمد بن محمد بن إلياس[4] الذي كان مرفوقا بإبراهيم الخصي الفتى الكبير الذي أمدّه بالجيش السلطاني.

لقد كان الناصر لدين الله كثير الثقة في الوزير القائد ذي الأصل البربري؛ فبالإضافة إلى تكليفه بالمهام العسكرية للقضاء على المنتزين بدار الإسلام، ومحاربة النصارى الطامعين في أراضي المسلمين وممتلكاتهم، لم يجد أحسن منه لحماية أهله عندما عقد العزم على الخروج إلى غزو النصارى في سنة 327هـ - 938م، وهي الغزوة المعروفة باسم "غزوة الخندق"، ويؤكد ذلك ابن حيان حيث يقول: "وكان الناصر لدين الله قد أخرج قبل خروجه لهذه الغزوة الوزير القائد أحمد بن محمد بن إلياس بقطيع من جيشه إلى ثغر الغرب احتياطا على أهله كي لا تكون للعدو عليهم حيلة عند إيغاله هو بالصائفة في أرضهم؛ فنفذ لذلك يوم الاثنين الرابع من شهر رمضان منها، ومعه ضروب من طبقات الحشم"[5].

---

(1) عبد المنعم الحميري - الروض المعطار - ص 46.

(2) نفسه - ص 113.

(3) ابن حيان - نفس المصدر - ج 5 ص 425.

(4) ورد في كتاب المقتبس اسم الوزير القائد أحمد بن يحيى بن إلياس، ولعله سهو من الناسخ لأن قائمة الوزراء لهذه السنة، والواردة في آخر أحداث سنة 327هـ، لا تتضمن اسم وزير قائد غير أحمد بن محمد بن إلياس - نفسه - ج5 ص431.[نفسه - ج5 ص431].

(5) نفسه - ج 5 ص 433 - 434.

بعد الهزيمة التي أصيب بها المسلمون بقيادة عبد الرحمن الناصر في وقعة الخندق، وذلك في 11 شوال من سنة 327هـ (فاتح أوت سنة 939م)[1]، لم يعد الخليفة يقود الغزو إلى بلاد النصارى بنفسه، بل "وكله إلى كفاته من حزمة قواده وشجعانهم، يجردهم بالصوائف كل عام لا يخلّ بها"[2]، ومن أولئك القواد أحمد بن محمد بن إلياس الذي قاد صائفة إلى نصارى جليقية سنة 328هـ - 939م، وخلالها قام الوزير القائد ببناء قلعة خليفة بثغر طليطلة وتحصينها، وإنزال الرجال بها، كما قام خلال نفس الغزوة ببناء مدينة سكتان بثغر الجوف وتحصينها، وأتمّ ذلك كله في سنة 329هـ - 940م، وهي السنة التي استنزل فيها الفتح بن يحيى بن ذي النون من حصن أقليج[3]، والحصون التي كانت بيده، وذلك بسبب خروجه عن طاعة الخليفة الأموي، وعين مكانه ابن عمه موسى بن محمد بن إلياس[4].

وفي سنة 328هـ أيضا أرسل عبد الرحمن الناصر إلى الثغور الشرقية والجوفية والغربية التي تعرضت إلى هجمات النصارى "من نخب أجناده من بعد صيته، وشهر بأسه من جلّة القواد ووجوه الرجال، وقلّد أعنّة الخيول الوزير القائد أحمد بن محمد بن إلياس، وأخرجه إلى مدينة طليطلة، موسطة الثغر في جيش كثيف"، وبفضل السرايا التي بثها الوزير القائد في نواحي عديدة من بلاد النصارى توالت أخبار الفتوح على الناصر لدين الله، وكان أولها خبر فتح قلعة ورد من قبل أحمد بن محمد بن إلياس، ثم تلاه خبر سرية أنفذها من قبل طليطلة؛ فغنمت بناحية قوقة، وأسرت وقتلت، وعادت إليه ظاهرة غانمة، وبعدها ورد كتاب آخر بفتح مثله في أهل جليقية، ثم كتاب

---

(1) أعمال الأعلام - ص36/حسين مؤنس - معالم تاريخ المغرب والأندلس - ص368/ Levi Provençal opcit t.2 p.58.

(2) ابن حيان - نفس المصدر - ج 5 ص437.

(3) أقليج والأصح أقليش، وهي مدينة لها حصن في ثغر الأندلس الأوسط، وهي قاعدة كورة شنتبرية، وقد بناها الفتح بن موسى ذي النون - عبد المنعم الحميري - الروض المعطار - ص 28.

(4) ابن حيان - نفس المصدر - ج5 ص 456 - 457/ ابن عذاري - نفس المصدر - ج2 ص 210.

ثالث بفتح أعمّ منهما على الكفرة، اقترن به أسرى ورؤوس ممن قتل منهم[1].

وفي سنة 331هـ - 942م دخل الوزير القائد أحمد بن محمد بن إلياس إلى قرطبة قافلا من غزاته إلى الثغر التي خرج إليها في عقب شوال من سنة 330هـ - 941م، ودخل في غزوته هذه كورة تدمير؛ "فأزال الخلل الواقع من أهلها"[2].

وفي سنة 332هـ - 943م أغزى عبد الرحمن الناصر الوزير القائد أحمد بن محمد بن إلياس إلى بلاد جليقية، فدخل دار الحرب وغنم، كما قام بإحراق عدد من حصون النصارى، وقفل راجعا إلى قرطبة[3].

بعد هذه الغزوة الأخيرة تنقطع الأخبار المتعلقة بهذا القائد الجليل الذي أبلى البلاء الحسن في الجهاد ضد النصارى، وإخماد الحركات المناوئة للخلافة الأموية بقرطبة، ولا تقدم لنا المصادر الأندلسية أو المغربية شيئا عنه بعد التاريخ المذكور سابقا، ولو توفرت المصادر المفقودة حاليا لأمكننا التعرف على بقية مشوار هذا الرجل العسكري.

هذه بإيجاز المحطات البارزة التي ميّزت أحد أبرز القادة البربر في ظل خلافة عبد الرحمن الناصر لدين الله، ولو أن المصادر أولت عناية أكبر بالتأريخ لهؤلاء البربر لكان بإمكاننا التعرف على عدد أكبر من المغاربة الذين برزوا في كثير من الميادين، ومنها الميدان العسكري.

إن سيرة الوزير القائد أحمد بن محمد بن إلياس تبرهن على كفاءة هؤلاء البربر عندما تسند إليهم المسؤولية، ولم يكن هذا القائد الوحيد الذي أكّد أهلية المغاربة في تولي المسؤوليات، وعلى مستويات مختلفة، وإن كانت المصادر تبخسهم حقهم، ولا تذكر الشيء الكثير عنهم في أغلب الأحيان، وإن ذكرتهم فهي تركز على سلبياتهم أكثر من الاهتمام بما قاموا به من جهد في سبيل حماية دار الإسلام، ورفع راية المسلمين

---

(1) المقتبس - ج 5 ص 451.

(2) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 210.

(3) نفسه - ج 2 ص211/ .Levi Provençal - opcit - t.2 p.64

عالية في بلد تكالب عليه النصارى في الخارج، والمتمردون والثوار بالداخل، ولعل السبب الرئيس في ذلك هو أن جلّ المصادر المتوفرة حول تاريخ الأندلس قد كتبت من طرف مؤرخين يكنون حقدا كبيرا للمغاربة، ومن ثم حاولوا تشويه صورتهم، وبخاصة عقب قيام الفتنة سنة 399هـ - 1008م.

إضافة إلى أحمد بن محمد بن إلياس الذي أولته المصادر التاريخية، وبخاصة ابن حيان من خلال كتاب المقتبس أهمية كبيرة؛ فذكرت الكثير من الأخبار المتعلقة بحياته الإدارية والعسكرية، أوردت لنا نفس هذه المصادر شذرات مختصرة جدا عن قادة آخرين ذوي أصول بربرية، ومن أبرز الذين ذكرتهم مؤلفات الأندلسيين والمغاربة كيدير الدمري الأبرص الذي يصفه ابن الخطيب بقوله: إنه "من كبار القواد، وكان له إقدام عظيم، قتل في احتدامه ذلك أحد قواميس بني غومس وجاء برأسه؛ فاستمرت الهزيمة على أثره"[1]، وكان ذلك بمناسبة إحدى الصوائف التي قادها المنصور بن أبي عامر في سنة 390هـ - 1000م، والتي "لم يباشر - أي الحاجب - حربا أشدّ عليه، ولا أصعب مقاما وأغلظ كريهة" منها[2]، وكان للبربر عامة، ولهذا القائد الدمري خاصة الدور الرئيس، والموقف الحاسم، ومن خلال نص ابن الخطيب يتبين جليا أن فضل الانتصار فيها يعود إلى المغاربة بالدرجة الأولى، وكان قائدهم هذا البادىء في وضع نواة الانتصار على قوات الكفّار.

ويليه زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي، زعيم صنهاجة وقائدها، الذي يعرفنا به ابن حيان فيقول: إنه "كبش الحروب"[3]، ويضيف ابن عذاري، وهو" مهوّن الحروب"[4].

ويقدم لنا ابن الخطيب، وصفا يدلّ على كفاءة هذا الرجل حيث يقول: إنه

(1) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 70.

(2) نفسه - ص 70.

(3) ابن بسام الشنتريني - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - ق1 م1 ص 453.

(4) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 3 ص 125.

"ليث الحروب وفلّ الوقائع، ورجل القبيل قاطبة دهاء وحزما وصبرا وإقداما ورأيا"[1]، وقد تأكدت هذه الصفات كلها خلال الفتنة الأندلسية، وبخاصة أثناء الحرب التي دارت بين المرتضى المرواني وحلفائه من جهة، والبربر بقيادة زاوي بن زيري من جهة أخرى، وكان الانتصار فيها حليف الصنهاجيين بفضل حنكة ودهاء قائدهم، وسنعود إلى هذه المعركة بالتفصيل عند تطرقنا إلى دور البربر في الفتنة الأندلسية.

هؤلاء هم أبرز القادة البربر الذين ذكرتهم المصادر التاريخية التي اطلعنا عليها، ومن المؤكد أن هناك قادة آخرين، ولكن المصادر التاريخية لم تولهم العناية التي يستحقونها لسبب أو لآخر، وعلى أي حال فإن هؤلاء المذكورين سابقا وغيرهم كانوا اليد القوية التي بطش بها خلفاء بني أمية وحكام الدولة العامرية بالأعداء المنتزين عليهم داخل دار الإسلام، وبالنصارى المغيرين على أراضي الدولة الإسلامية، والمعتدين على المسلمين وممتلكاتهم.

لقد وضع هؤلاء القادة، ومن كان تحت إمرتهم من المغاربة نصب أعينهم خدمة الإسلام والمسلمين في بلاد الأندلس رغم ما كانوا يواجهونه من بقية عناصر المجتمع الأندلسي، وبخاصة من العرب الذين كانوا يعملون على إذلالهم والحطّ من مركزهم.

بعد تعرفنا على المساهمة التي قام بها البربر في المجال العسكري، وتطرقنا إلى ذكر أبرز القادة المغاربة الذين كان لهم دور كبير في قيادة جيوش الخلافة المروانية، وتحقيق الانتصارات الكبيرة على النصارى، والثوار على حد سوّاء، يتبادر إلى أذهاننا تساؤل مشروع يطرح نفسه، ويتمثل في ماهية الأسباب والدوافع التي كانت تقف وراء الانضمام الجماعي للبربر إلى سلك العمل العسكري تحت لواء الحكم الأموي بالأندلس.

أسباب انضمام البربر إلى الجند الأندلسي: إن توافد البربر بأعداد كبيرة إلى الأندلس، وبخاصة في عهد الخلافة، وانخراطهم في صفوف الجند الأندلسي تقف

---

(1) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 228.

وراءه جملة من الأسباب والدوافع، والتي باجتماعها جعلت المغاربة يشكلون أغلبية عناصره، وبخاصة في عهد المنصور بن أبي عامر وولديه من بعده، ومن أهم الأسباب التي دفعت البربر إلى الارتزاق من العمل العسكري:

1 - الصراع الإسلامي المسيحي: نجح المسلمون في فتح بلاد الأندلس سنة 92هـ - 711م، ولكنهم لم يقضوا على كل القوط المتواجدين بها إذ لجأ عدد قليل منهم إلى الجبال الشمالية واستقرّوا بها، وعندما غفل عنهم المسلمون شرعوا في إعادة بناء دولتهم، والتوسع على حساب المسلمين، واشتدّ عود النصارى بتأسيس أول مملكة لهم سنة 121هـ - 739م، وهي مملكة ليون التي أسسها أدفونش بن فافلة (ألفونسو الأول)[1]، ونجحت هذه المملكة سنة 136هـ - 753م في إخراج المسلمين من المناطق التي كانوا قد استقروا بها منذ الفتح الأول، والواقعة في أقصى شمال الأندلس، ويؤكد ذلك مؤلف "أخبار مجموعة" حيث يقول: "وفي سنة ست وثلاثين ومائة ثار أهل جليقية، وأخرجوا المسلمين عن أشتورقة وغيرها، وانضم الناس إلى ما وراء الدرب وقورية وماردة "[2].

كانت مملكة ليون تسيطر على المناطق الشمالية، وفي القرن الرابع الهجري (10م) انفصلت عنها مملكة نبارة التي تقع في بلاد البشكنس، وقاعدتها بنبلونة، وذلك سنة 314هـ - 926م، كما استقلت عنها مملكة قشتالة، وذلك سنة 359هـ - 970م[3].

ونتيجة لذلك أصبح المسلمون خلال القرن الرابع الهجري يواجهون المحاولات المتكررة التي كانت هذه الممالك الأسبانية تقوم بها في محاولتها لاسترجاع الأراضي التي استولى عليها الفاتحون الأوائل، ويؤكد ذلك ابن خلدون الذي يقول: "وكان في أول المائة الرابعة ملك على الجلالقة يدعى أردون بن ردمير، وقد خرج سنة اثنتين وثلاثمائة إلى الثغر الجوفي، لأول ولاية الناصر، وعاث في

(1) أحمد مختار العبادي - في تاريخ المغرب والأندلس - ص 196/ عبد الرحمن علي الحجي - التاريخ الأندلسي - ص 269.

(2) مجهول - أخبار مجموعة - ص 129.

(3) عبد الرحمن علي الحجي - نفس المرجع - ص 275/ العبادي - نفس المرجع - ص 196.

جهات ماردة، وأخذ حصن الحنش"[1]، وكان هؤلاء النصارى يستغلون فترات الضعف لمواصلة اعتداءاتهم على المسلمين وأراضيهم، من ذلك ما يورده ابن الخطيب حين يقول: "ولم يكن إلاّ أن شاع خبر مهلك الحكم حتى انتقض الطاغية، وشاع كلبه على البلاد؛ فاضطرب الأمر، واستغاث أهل الثغور"[2].

نتيجة للإعتداءات المتكررة التي كان النصارى يقومون بها على أراضي المسلمين وممتلكاتهم، اضطرّ الخلفاء وحكام الدولة العامرية إلى توجيه جهودهم إلى العمل العسكري، وذلك من خلال تجريد الحملات المتتالية لصدّ النصارى، والحدّ من شوكتهم[3]، وتطلب ذلك منهم تجنيد أكبر عدد ممكن من الرجال القادرين على القيام بالعمل العسكري، وكان قرب العدوة المغربية من جهة، والظروف التي كان يعيشها البربر من جهة أخرى سببا في ازدياد عدد المغاربة المرتزقين في صفوف الجند الأندلسي.

2 - مرور الأندلس بفترات من الاضطرابات الداخلية: عاشت بلاد الأندلس مرحلة عصيبة قبيل تولي عبد الرحمن الناصر الحكم في قرطبة، حيث يجمع المؤرخون على كثرة الثائرين في دار الإسلام، وتكالب النصارى على الثغور، واعتدائهم على المسلمين وممتلكاتهم، ومن ذلك ما يورده ابن الخطيب في كتابه حيث يقول: "وتصيّرت إليه الخلافة، وقد تحيف النكث أطرافها، واقتسمها الثوار، وكلب عليها الأشرار، ولم يبق منها إلاّ الإسم فوق ظهر منبر قرطبة والقليل من غيرها"[4]، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن احتاج عبد الرحمن الناصر، ومن جاء بعده، إلى المزيد من الجند من أجل القضاء على الثوار، وبفضل الحروب التي جردها الخليفة

(1) ابن خلدون - العبر - ج 7 ص 307.

(2) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ج 2 ص 60.

(3) الحجي - التاريخ الأندلسي - ص298/العبادي - في تاريخ المغرب والأندلس - ص196 - 197/حسين مؤنس - معالم تاريخ المغرب والأندلس - ص362 - 364/دوزي - المسلمون في الأندلس - ج2 صص 26 - 29.

(4) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص27.

عبد الرحمن الثالث تم القضاء عليهم، وتوحيد الدولة تحت لوائه، وسيتكرر نفس الأمر عقب وفاة الحكم المستنصر، ووصول المنصور بن أبي عامر إلى منصب الحجابة، ومنها إلى الاستبداد بالرياسة حيث عارضه في ذلك العرب، وبخاصة منهم الذين كانوا يتولون أعلى المناصب الإدارية والسياسية في عهد الناصر وابنه الحكم المستنصر، ولذلك لجأ المنصور إلى الاستعانة بعناصر أخرى من أجل التصدي لمعارضيه، وسمح ذلك للكثير من المغاربة بالإلتحاق بالأندلس والعمل في صفوف جندها.

3 - إزدياد حملات الجهاد ضد النصارى: أمام ازدياد تكالب النصارى على دار الإسلام، اضطرّ حكّام الخلافة الأموية، ومن بعدهم العامريون إلى التصدي لهم، ونتيجة لذلك ازدادت غزوات المسلمين لأراضي النصارى المتاخمين لحدودهم، وكان الناصر من أكثر الخلفاء الأمويين جهادا، حيث لم تخلو سنة لم يقم فيها بغزو النصارى بنفسه أو بواسطة قواده "حتى أعظم في الكفر النكاية، فلم يبق عليه في الأندلس مخالف، ولا نازعه منازع، ودخل الناس أفواجا في طاعته، ورغبوا في مسالمته"[1]، ولا يختلف عنه ابنه الحكم المستنصر الذي ما إن تقلد الحكم سنة 350هـ - 961م حتى أنفذ الكتب في محرّم من سنة 351هـ إلى جميع الولاة والقواد والعمال بأقطار الأندلس، يأمرهم بارتباط الخيل والقيام عليها، والاستعداد بالعدد والأسلحة والآلات برسم الجهاد في سبيل الله"[2].

ومثلما كان خلفاء بني أمية محبين للجهاد وغزو النصارى، كان المنصور بن أبي عامر وابنه عبد الملك من المرددين لحملات الجهاد ضد ممالك الأسبان، ولا أدلّ على ذلك من عدد الغزوات التي قادها محمد بن أبي عامر إلى أراضي الأسبان، والتي زاد عددها عن الخمسين غزوة[3]، ويؤكد المنصور حبه للجهاد من خلال وصيته لابنه عبد الملك حيث يقول له فيها: "والله الله في الجهاد! فيه أعزّ الله أباك"[4]، وقد عمل

(1) نفسه - ص29.

(2) ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص235.

(3) ابن خلدون - العبر - ج 7 ص 320.

(4) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ج 2 ص 86.

الابن بالوصية؛ فكان "له في الجهاد آثار كريمة، غزا سبع غزوات، منها إلى برشلونة وبلاد الفرنجة، ومنها إلى بنبلونة، ومنها إلى غليسية، ومنها غزوة الخريقة، ومنها غزوة قلونية، وآخرها التي مات قافلا عنها"[1].

إن ازدياد حملات الجهاد ضد النصارى جعلت عددا كبيرا من البربر يلتحقون بالأندلس، وينضوون في صفوف الجند الأندلسي، فضلا على ازدياد عدد الراغبين في المشاركة في الغزو، ويؤكد ذلك ابن عذاري عند كلامه عن الغزوة الأولى التي جردها عبد الملك إلى بلاد الفرنجة حيث يقول: "ووافت الحضرة لأول هذا الوقت طوائف كثيرة من مطوعة العدوة والمجاهدين للحسبة في جماعة كبيرة من أمرائهم وزعمائهم، وعصابة كثيرة من فقهائهم يبغون مشاهدة هذه الغزوة"[2].

نتيجة لتظافر هذه العوامل، تكاثر عدد البربر بالأندلس، واتجه أغلب هؤلاء إلى العمل الذي يتقنونه أكثر من غيره، وهو العمل في العسكر، ومن هنا تزايد عدد هؤلاء المغاربة، وتفوقوا على غيرهم من العناصر المكونة لقوة الأندلس العسكرية.

4 - الإضطرابات التي عاشتها بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري (10م): جاءت هذه الاضطرابات كنتيجة للصراع المحتدم بين الدولة الأموية بالأندلس والدولة الفاطمية بالمغرب، وقد انعكس هذا الصراع على البربر، إذ قام نزاع دموي بين قبيلتي زناتة الموالية للأمويين وصنهاجة المنضوية تحت لواء الفاطميين، وكان من نتائج هذا الاقتتال الدائر بين البربر أن فرّ العديد من المغاربة، وبخاصة منهم المنهزمين في ساحات القتال إلى العدوة الأندلسية، وقد التحق أغلب هؤلاء الفارين من بلاد المغرب بالعمل في صفوف جند الأندلس، ويوجد ضمن صفحات المصادر التاريخية الكثير من الأمثلة التي تؤكد انخراط هؤلاء البربر في صفوف الجيش، ومن أبرزها ما يذكره ابن حيان عند حديثه عن الخليفة الحكم المستنصر بالله فيقول: "واكتملت بهم لديه آخر دولته القصيرة من هذه الفرق الثلاثة البربرية الرجال، رجال بني حسن ورجال

---

(1) نفسه - ج 2 ص 87.

(2) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 3 ص 4.

ابني الأندلسي ورجال البرازلة، عسكر ضخم يقاربون السبعمائة فارس فيهم وجوه وأعلام، حازوا عما قليل بالعسكر الرياسة[1] "

إن هذا النص، وغيره مما كتبه المؤرخون يثبت الانخراط الواسع النطاق للبربر في صفوف الجند الأندلسي، وبخاصة خلال القرن الرابع الذي عمّ فيه الاضطراب بلاد المغرب، ودفع هؤلاء المغاربة إلى مغادرته، والالتحاق بالعدوة المقابلة أملا في ظروف معيشية آمنة، وهو ما وفرّه حكام قرطبة لهؤلاء النازحين من بلادهم، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك عند حديثنا عن دوافع استقرار البربر ببلاد الأندلس.

5 - تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بلاد المغرب: نتيجة للحروب الدائرة بين الفاطميين وبعض القبائل البربرية من جهة، وبينها وبين الأمويين من جهة أخرى، وبين القبائل البربرية الموالية لأحد الطرفين، تدهورت الأوضاع الاقتصادية بشكل كبير، وهو الأمر الذي انعكس على أوضاع البربر الاجتماعية التي ساءت كثيرا، واضطرّت هؤلاء إلى البحث عن موطن جديد يوفر لهم الأمن والاستقرار، والمهنة التي توفر لهم الرزق، ولم يجد هؤلاء المغاربة أحسن من الإنخراط في الجند الأندلسي لتحقيق ذلك، خاصة وأن حكام الخلافة الأموية قد وعدوهم بالإحسان إليهم، والتوسعة عليهم، إضافة إلى أن العدوة الأندلسية كانت تعيش تطورا اقتصاديا أدى إلى ارتفاع مستوى معيشة الأندلسيين.

ومما شجع البربر على اختيار الأندلس كموطن لهم، والعمل في المجال العسكري كمصدر رزق ما وصلت إليهم من أخبار متعلقة بأولئك المغاربة الذين التحقوا بصفوف الجند الأندلسي، وما حصلوا عليه من امتيازات، ومن ذلك ما يورده ابن عذاري في هذا الشأن حيث يقول: إن المنصور بن أبي عامر "مازال يستدعيهم، ويتضمن الإحسان إليهم، والتوسعة عليهم إلى أن أسرعوا إلى الأندلس، يجيء الرجل منهم بلباس الخلق على الأعجف؛ فيبدل له بلباس الخز الطرازي وغيره، ويركب الجواد العتيق، ويسكن قصرا لم يتصور له في منامه مثله"، ونتيجة لهذه الإغراءات صار

(1) ابن حيان - المقتبس - ج 6 ص 192.

البربر "أكثر أجناد الأندلس...وهم أظفر الجند نعمة، وأعلاهم منزلة"[1].

6 - الخصال العسكرية الرفيعة التي يتميز بها البربر: ومنها إتقان الفروسية والشجاعة، وسرعة الحركة والشدة، وهي الصفات التي تؤكد المصادر التاريخية تحلّي المغاربة بها، ومن ذلك ما جاء على لسان عبد الله بن بلقين إذ يقول: "فاستجلب المنصور من رؤساء البربر وحماتها وأنجادها من بلغه فروسيته وشدّته"، وهذه الصفات هي التي جعلت حاجب هشام المؤيد "يصول بهم على العدو، وهم كانوا العدة في الجيش، والموثوق بهم عند اللقاء ومعترك الوغاء"[2]، وإذا كان هذا قول أحد المغاربة الذين انتقل أجدادهم إلى الأندلس في هذه الفترة؛ فما هو قول عمدة مؤرخي الأندلس في ذلك؟ والإجابة نجدها عند حديث هذا الأخير عن تغير سياسة الحكم المستنصر تجاه البربر حيث يقول: إن هذا الأخير "لاقى من صدق مراس رجالهم، وشدة بأسهم على قلة عددهم"[3] ما جعله يجلب أعدادا كبيرة منهم، ويضمهم إلى جنده، ويضيف ابن حيان متحدثا عن البربر فيقول: إنهم "صابروا جلاد هم، وقاوموا قراعهم، وأبرّوا في بعض المواطن عليهم حتى لقتلوا ابن طملس القائد الجليل"[4].

لقد اكتشف الحكم المستنصر قوة البربر عندما واجهوا الحملة العسكرية التي سيرّها إليهم بقيادة ابن طملس سنة 361هـ، ورغم قلة عددهم وعدّتهم مقارنة بالجند الأندلسي إلا أنهم انتصروا عليه وقتلوا قائده، إضافة إلى قضائهم على ألف من الرجّالة وخمسمائة من الفرسان المرافقين له في موقعة فحص مهران الواقع بأحوار طنجة، ويسميه ابن أبي رزع بفحص بني مصرخ[5].

هذه الصفات إذا جعلت خلفاء بني أمية، وبخاصة منهم الحكم المستنصر، ثم حجّاب هشام المؤيد يشجعون البربر على الانتقال إلى الأندلس، والإنخراط في

(1) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 279.

(2) عبد الله بن بلقين - كتاب التبيان - ص 57.

(3) ابن حيان - المقتبس - ج 6 ص 191.

(4) نفسه - ص 191.

(5) ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص 246/ ابن أبي رزع - الأنيس المطرب - ص91.

صفوف الجند إلى درجة أن عدد الفرسان فقط من البربر بلغ في عهد المنصور بن أبي عامر ثلاثة ألاف فارس[1].

من خلال ماسبق ذكره يتأكد لنا أن تشجيع حكام قرطبة لقدوم البربر إلى الأندلس، ودخولهم في خدمة الجند الأندلسي لم يكن ممكنا لولا تميز هؤلاء المغاربة بصفات تمكنهم من البروز في المجال العسكري، وبالتالي تسمح لهؤلاء الحكام بتنفيذ مخططاتهم المتمثلة على وجه الخصوص في بسط سلطتهم على دار الإسلام من جهة، والتصدي لهجمات النصارى على أراضي المسلمين من جهة أخرى.

2 - مكانة ومشاركة البربر في الجهاز السياسي والإداري والقضائي للأندلس

إلى جانب الدور الفعال الذي قام به البربر في المجال العسكري والمكانة التي احتلوها في الجند الأندلسي كنتيجة لذلك، ساهموا أيضا في تسيير وإدارة الشؤون السياسية والقضائية للأندلس، وذلك منذ دخول عبد الرحمن بن معاوية إليها سنة 138هـ - 755م.

لقد كان البربر متواجدين بكافة الوظائف الإدارية والقضائية المرتبطة بالدولة الأموية بالأندلس، ولكننا وبمقارنة عدد من تولى هذه الوظائف من ذوي الأصول البربرية بغيرهم من الذين تولوها، وبخاصة العرب نخلص إلى نتيجة هامة، وهي أن عدد المغاربة الذين تقلدوا هذه المناصب قليلون جدا، ولإبراز ذلك نورد مثالا واحدا، ويتعلق بمنصب الولاية في عهد الناصر، وهو العهد الذي تميز عن غيره بكثرة من استخدم من البربر في المناصب الإدارية والقضائية لنتأكد من هذه الحقيقة، ففي سنة 322هـ - 935م على سبيل المثال، ومن مجموع الولاة الذين عينهم الناصر، والبالغ عددهم واحدا وعشرين (21) واليا لا نجد إلاّ مغربيا واحدا تولى هذا المنصب، ويتعلق الأمر بأحمد بن محمد بن إلياس المغيلي الذي نقل من ولاية وشقة إلى مدينة

(1) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ج2 ص102.

طرسونة[1].

ويدل هذا المثال بوضوح على قلة استعمال البربر في الوظائف السياسية والإدارية والقضائية، واحتكار هذه المناصب من قبل البيوتات العربية النافذة في الدولة الأموية، وسنعود إلى أسباب هذه الظاهرة أي قلة عدد البربر في الوظائف الهامة للدولة فيما سيأتي لاحقا.

البربر والوظائف الإدارية والقضائية قبل سنة 300هـ - 912م:

بدأ استعمال البربر منذ قيام الإمارة الأموية بالأندلس، ولكن المشاركة المغربية في تسيير الشؤون الإدارية والقضائية كانت ضئيلة جدا، حيث لم يستعمل من البربر خلال الفترة الممتدة من قيام الإمارة الأموية إلى نهاية القرن الثالث الهجري (9م) إلاّ العدد القليل مقارنة بعدد الذين ثم توظيفهم من عناصر المجتمع الأخرى.

لقد تولى البربر جلّ المناصب الإدارية التي كانت متواجدة بالعدوة الأندلسية، وعلى الرغم من قلة استخدامهم إلا أنّهم تولوا مناصب إدارية هامة وحساسة جدا كالحجابة، كما تولوا مناصب أدنى من ذلك مكانة كالولاية على الكور مثلا.

أول من تولى وظيفة إدارية في الأندلس على عهد الأمويين من البربر هو ميمون بن سعيد البربري الذي يخبرنا عنه ابن الأبّار عند كلامه عن ابنه داود بن ميمون بن سعيد؛ فيقول: إنه "دخل الأندلس مع عبد الرحمن بن معاوية فولاّه طليطلة"، ويضيف أن ميمون هذا هو الذي قتل يوسف بن عبد الرحمن الفهري[2]، والي الأندلس المعارض لتولي "صقر قريش" الحكم بالأندلس.

كان ميمون بن سعيد البربري فاتحة عهد تولي المغاربة للمناصب الإدارية المختلفة ومنها الحجابة، ويعتبر الحاجب بمثابة النائب للسلطان[3]، ويتميز عن بقية

(1) ابن حيان – المقتبس – ج 5 ص 355 - 356.

(2) ابن الأبّار – التكملة لكتاب الصلة – تحقيق عبد السلام الهرّاس – دار الفكر – بيروت – 1415هـ - 1995م ج1 ص255.

(3) المقري – نفح الطيب – ج 1 ص 216.

الوزراء بمباشرته له في كل وقت، ولذلك ارتفع مجلسه عن مجلسهم[1]، وأول من تولى هذا المنصب من البربر هو سفيان بن عبد ربه، وأصله من برابر بيانة[2].

كان سفيان من "أكابر رجال أهل الخدمة، الكفاة المستقلين بأعبائها، ممن جمع إلى الغناء والكفاية الثقة والأمانة، ولم يزل ينتقل في مراتب الخدمة إلى أن نال الحجابة[3]، وقد تولى هذا المنصب في عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم (206 - 238هـ/822 - 852م)، وبقي فيه حتى وفاته سنة 211هـ - 826م[4].

إضافة إلى منصب الحجابة، تولى البربر الوزارة "وكانت مشتركة في جماعة يعينهم صاحب الدولة للإعانة والمشاورة، ويخصهم بالمجالسة، وكانت هذه المراتب عند بني أمية بالأندلس كالمتوارثة في البيوت المعلومة"[5].

كان الوزير يستشير السلطان والقاضي في كل عمل يريد القيام به، ولهذا الأخير سلطة الرقابة عليه إذ لا يمكنه أن يقدم على عمل أو أمر إلاّ بموافقته، وبذلك فالوزير هو الواسطة بين الخليفة أو الأمير والقاضي، ومن المهام الموكلة له تحديد صلاحيات العمّال والمتصرفين وغيرهم حتى لا يتعدى أحد منهم على أكثر مما أوكل إليه من صلاحيات[6].

ومن البربر الذين تولوا الوزارة حامد بن محمد بن سعيد بن موسى بن عيسى الزجّالي الذي "ورث مكان أبيه من الأدب والمعرفة والكتابة والبلاغة"، وتفوق عليه في "خدمة السلطان؛ فارتقى بخطة الوزارة في حضرة الأمير محمد بن عبد الرحمن"[7]

(1) ابن خلدون - العبر - ج 1 ص 424.
(2) ابن حيان - المقتبس - ج2 ص28.
(3) نفسه - ج 2 ص 25.
(4) نفسه ج 2 ص 78.
(5) المقري - نفس المصدر - ج 1 ص 216.
(6) ابن عبدون التجيبي وآخرون: ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب - تحقيق إ. ليفي بروفنسال - المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية - القاهرة - 1955 - ص14 - 15.
(7) ابن حيان - نفس المصدر - ج2ص36/ابن سعيد - المغرب في حلى المغرب - ج1ص254.

(238 - 273هـ/852 - 886م).

تولى البربر أيضا هذا المنصب في عهد الأمير عبد الله بن محمد (275 - 300هـ/888 - 912م) الذي استوزر بربريا آخر هو سليمان بن محمد بن وانسوس المكنى بأبي أيوب، وكان سليمان بن وانسوس المذكور سابقا من أدباء الأشراف من أصحاب السلطان، وأصله من البرابر، وقد ولي خطة الوزارة للأمير عبد الله بن محمد[1]، كما كان هذا الوزير أيضا "أديبا مفتّنا وشاعرا مطبوعا، حسن البيان بليغا، حصينا داهيا"، وهذه الصفات مجتمعة جعلته ينال "حظوة" لدى الأمير عبد الله[2].

اشتغل البربر أيضا بالكتابة، وبخاصة كتابة الرسائل التي كان من يتولاها يحمل اسم الكاتب، "وكان أهل الأندلس كثيرو الإنتقاد لصاحب هذه المهمة، حيث لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة"[3]، ولذلك لم يكن يعين في هذا المنصب إلاّ من توفرت فيه شروط منها إتقان اللغة وفنون الكتابة والتعبير.

ومن البربر الذين تولوا وظيفة الكتابة حجّاج المغيلي الذي قام بهذه المهمة للحكم الربضي بن هشام (180 - 206هـ/796 - 822م)[4]، ويؤكد ذلك ابن سعيد فيقول: وهو يتكلم عن الحكم الربضي، "وكتب عنه حجاج المغيلي، وهو شاعر"[5]، وهناك اختلاف كبير حول تاريخ وفاته؛ فابن سعيد يقول: إنه توفي سنة 198هـ[6]، بينما يذكر ابن حيان تاريخا آخر حيث يقول: عند كلامه عن أحداث سنة 210هـ - 825م، "وفيها توفي حجاج المغيلي الكاتب، كاتب الترسيل"[7]، ونحن نرجّح ما قاله الثاني

(1) المقتبس - ج2 ص189/ابن الأبّار - الحلة السيراء - ج1 ص160/ ابن القوطية - تاريخ إفتتاح الأندلس - ص84.

(2) ابن الأبّار - الحلة السيراء - ج1 ص160.

(3) المقري - نفح الطيب - ج1 ص 217.

(4) ابن حيان - المقتبس - ج2 ص 77.

(5) ابن سعيد - المغرب في حلى المغرب - ج1 ص17.

(6) نفسه - ج1 ص17.

(7) ابن حيان - المقتبس - ج2 ص77.

باعتباره أقرب إلى أحداث الأندلس، وأكثر اطلاعا على وثائقها الرسمية بحكم تولي أبيه وتوليه هو أيضا لوظائف إدارية، ومن كتاب هذه الفترة أيضا محمد بن سعيد الزجّالي، وهو مؤسس بيت من بيوت الشرف بقرطبة.

وهو محمد بن سعيد بن موسى بن عيسى الزجّالي، وينتمي إلى بني يطوفت، أحد أفخاذ قبيلة نفزة، ويلقب بالأصمعي لذكائه وقوة حفظه، وكان الأمير عبد الرحمن بن الحكم أول من اصطنعه ثم استكتبه[1]، وسبب ذلك أن الأمير عبد الرحمن الثاني "عثرت به دابته وهو سائر في بعض أسفاره وتطأطأت؛ فكاد أن يكبو لفيه، ولحقه جزع؛ فتمثل إثره لما استقلت به مطيته بقسم بيت جرى بفيه، وهو: "وَمَا لا يُرَى مما يَقي الله أكثر"

وطلب صدر هذا البيت؛ فغرب عنه وتعلق باله؛ فسأل عنه أصحابه؛ فأضلّوه، وأمر بسؤال كل من تسمى بمعرفة في عسكره؛ فلم يكن أحد يقف عليه غير محمد بن سعيد الزجّالي لما أراده الله من تحريكه؛ فقال لسائله: حاجة الأمير عندي فليدنني أتمها له؛ فقال له أصلح الله الأمير، أول هذا البيت هو: "تَرَى الشَيْءَ مما يُتَّقَى فَتَهَابُهُ"؛ فاستخدمه واستخصّه ثم استكتبه بعد حين لسرّه، وكان قبل هذا قد اتخذه كاتبا لوزرائه إشراكا لهم فيه"[2].

كان محمد بن سعيد أحد عجائب الدنيا في قوة الحفظ إلى درجة جعلته مضرب الأمثال في هذا المجال[3]، وقد بقي في هذا المنصب إلى غاية وفاته سنة 232هـ - 846م، وخلفه في هذه الوظيفة ولدان له هما عبد الله الذي كتب مدة ستة أشهر لمحمد بن عبد الرحمن وعاجلته المنية، وحامد بن محمد الذي لزمته الكتابة، وشهر بها إلى أن مات سنة 268هـ - 881م[4]، وبعدهما حفيده عبد الله بن محمد بن عبد الله بن محمد بن سعيد الزجّالي الذي تولى الكتابة للأمير عبد الله بن محمد سنة

---

(1) نفسه - ج 2 ص 32.

(2) نفسه - ج2 ص34/ ابن سعيد - المغرب في حلى المغرب - ج1 ص254.

(3) ابن حيان - نفس المصدر - ج2 ص35/ ابن سعيد - نفس المصدر - ج1 ص254.

(4) نفسه - ج2 ص32/ ج 3 ص 6.

287هـ900م، وبقي في هذه الوظيفة إلى عهد عبد الرحمن الناصر حيث توفي في سنة 302هـ - 914م[1].

إضافة إلى وظيفة الكتابة، تولى البربر أيضا خطّة السوق، وتتمثل في وظيفة الحسبة، وهي وظيفة دينية تدخل ضمن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2]، وكان المحتسب يسير بنفسه في الأسواق، ومعه أعوان يحملون المكاييل والموازين، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحثّ التجّار على عدم الغشّ والتدليس[3].

أول بربري تولى هذه الوظيفة هو سليمان بن وانسوس الذي كان "مذكورا بالأدب والعلم والعقل وعزة النفس"[4]، وقد "تولى خطة السوق للأمير محمد بن عبد الرحمن، ثم عزله عنها، "ويعطينا ابن حيان سبب عزله؛ فيقول: إن الأمير قام بذلك "لكلمة أجمع الناس أنها كانت قوله داعيا متملقا، وقد طلع عليهم الأمير يوما خارجا إلى مجلس قعوده: اللّهم سلّم هذا الشخص الكريم"! وكان رد فعل الأمير محمد أن "استبرد كلمته وعابها عليه من يومه ومقته، وعجّل صرفه عن ولايته وأقصاه[5].

تولى البربر أيضا وظيفة "ولاية المدينة"، وتعرف أيضا بخطة الشرطة، وكان صاحبها عظيم القدر عند السلطان؛ فهو الذي يحدّ على الزنا وشرب الخمر، كما ينظر في الجرائم وإقامة الحدود[6].

ومن بين الذين تولوا هذه الخطة البربري عبد الله بن محمد الزجّالي الكاتب، وذلك سنة 275هـ - 888م، أي في عهد الأمير عبد الله بن محمد[7].

---

(1) العبر - ج1 ص398/ الماوردي - الأحكام السلطانية - دار الكتب العلمية - بيروت - ط1 1405هـ - 1985م - ص299.

(2) ابن حيان نفس المصدر - ج2 ص 32.

(3) السيد عبد العزيز سالم - في تاريخ وحضارة الإسلام بالأندلس - ص 329.

(4) الضبي - بغية الملتمس - ص 260.

(5) ابن حيان - المقتبس - ج 2 ص 189 - 190.

(6) ابن خلدون - العبر - ج 1 ص 393.

(7) ابن حيان - نفس المصدر - ج 3 ص 6.

ومن بين الوظائف التي تولاّها البربر وظيفة القضاء، وهي "أعظم الخطط عند الخاصة والعامة بالأندلس لتعلقها بأمور الدين"[1]، وتتمثل مهمة القضاء في الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي وقطعا للتنازع، وذلك وفق الأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنّة[2].

ومن البربر الذين تولوا خطة القضاء أبو موسى عبد الرحمن بن موسى، وهو من أهل إستجة، وقد استقضي على بلده أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم وقبله الأمير الحكم بن هشام[3]، وتولاها أيضا أبو العلاء عباس بن ناصح، وأصله من بربر نفزة، ويقال لأبيه ناصح بن يلتيت المصمودي، وهو من أهل الجزيرة الخضراء[4].

رحل عباس مع أبيه صغيرا فنشأ بمصر، وتردّد بالحجاز طالبا للغة العرب، ثم رحل به أبوه إلى العراق، ولقي الأصمعي وغيره من علماء البصرة والكوفة، ثم انصرف إلى الأندلس؛ فلم يزل مترددا على الحكم بن هشام بالمديح حتى استقضاه على شذّونة والجزيرة، ولم يعينه الحكم قاضيا مكافأة على مدحه له بل "كان له حظ من الفقه والرواية، ولكنها لم تشهر عنه لغلبة الشعر عليه"[5]، وبعد وفاته تولى ابنه نفس الوظيفة، وهو عبد الوهاب بن عباس بن ناصح الذي قال عنه ابن الفرضي: "كان ابن عباس من أهل العلم باللغة العربية، وكان له حظ من الفقه والرواية، وقد ولي القضاء ببلده أي الجزيرة الخضراء."[6]

من الوظائف الأخرى التي تولاها البربر وظيفة المشاورة، وتتمثل في تعيين عدد من الفقهاء إلى جانب القاضي، وتتمثل مهمتهم في تقديم المشورة له والفتوى

---

(1) ابن حيان – نفس المصدر – ج 3 ص 6.
(2) ابن خلدون – العبر – ج 1 ص 390.
(3) القاضي عياض – ترتيب المدارك – ج1 ص 294 /ابن فرحون – الديباج المذهب – ص242.
(4) ابن الفرضي – تاريخ علماء الأندلس – ج 2 ص 458.
(5) نفسه – ج 2 ص 505.
(6) نفسه – ج 2 ص 458.

كتابة، ويعين هؤلاء المشاورين الأمير أو الخليفة[1].

ومن البربر الذين تولوا هذه الوظيفة أحمد بن يحيى بن يحيى الليثي، وهو من أهل قرطبة، وكان من جملة المشاورين في عهد الأمير عبد الله بن محمد، ومارس هذه الوظيفة إلى غاية وفاته سنة 297هـ - 909م[2]، كما تولاها أيضا أبو مروان عبيد الله بن يحيى الليثي القرطبي الذي "كان مقدما في المشاورة في الأحكام[3]، وتوفي سنة 297هـ[4]، ويحيى بن إسحاق بن يحيى بن أبي عيسى أحمد بن عيسى بن يحيى بن يحيى بن يحيى بن أبي عيسى الذي كان عالما بالفقه وراوية للشيخ محمد بن وضاح ولعمه أبي مروان عبيد الله بن يحيى، وقد صُيّر في جملة المشاورين في الأحكام على عهد الأمير عبد الله بن محمد[5].

من خلال ما سبق يبدو واضحا قلة استعمال البربر في الوظائف السياسية والإدارية والقضائية؛ فعدد المناصب التي شغلها هؤلاء لا يتجاوز سبعة عشر منصبا، ولكن عدد الذين تولوها هو خمسة عشر شخصا، وذلك خلال مدة عصر الإمارة وهي 162سنة، وينتمي أربعة منهم إلى بيت بني الزجّالي، وثلاثة إلى بيت بني يحيى الليثي، واثنان إلى بيت بني ناصح المصمودي بمعنى أن النصف منهم قد ورثوا هذه المناصب، خاصة وأننا قد أشرنا سابقا إلى أن هذه الوظائف كانت محصورة في بيوتات معينة بالنسبة للأندلس، والعدد قليل جدا بالمقارنة مع الفترة الزمنية الطويلة التي استغرقتها هذه المرحلة التي تمتد من قيام الدولة الأموية بالأندلس سنة 138هـ - 755م إلى غاية سنة 300هـ - 912م، مع الإشارة هنا إلى أننا لم نقم بإحصاء إلاّ البربر المصرّح بنسبهم في المصادر التاريخية المختلفة، وبخاصة منها كتب التراجم.

(1) ابن عبدون - نفس المصدر - ص 9.
(2) ابن الفرضي - تاريخ علماء الأندلس - ج 1 ص 62 - 63.
(3) نفسه - ج 1 ص 429.
(4) الضبي - بغية الملتمس - ص 309.
(5) ابن حيان - المقتبس - ج 3 ص 8 - 9.

مشاركة البربر في إدارة وقضاء الأندلس خلال القرن الرابع الهجري (10م):

يمثل هذا القرن أوّج المساهمة البربرية في إدارة وتسيير شؤون العدوة الأندلسية، ويدلنا على ذلك مثال واحد يتعلق بعدد المغاربة الذين تولوا مناصب إدارية أو قضائية خلال عهد عبد الرحمن الناصر (300 - 350هـ/912 - 961م)، حيث بلغ عدد الموظفين من البربر في عهده نفس عدد المغاربة الذين تولوا هذه الوظائف خلال كل الفترة التي سبقت تاريخ تولي الناصر للسلطة.

ويدل هذا المثال بوضوح على ازدياد الإعتماد على العنصر البربري في تسيير الشؤون الإدارية والقضائية للأندلس مع بداية القرن الرابع الهجري الذي تميز بإدخال نظم إدارية جديدة من قبل عبد الرحمن الناصر، وكان هدفه منها إعطاء خلافته الهيبة والمكانة التي أصبحت تحتلها، وبخاصة على الصعيد الخارجي، ونتيجة لذلك ازداد البلاط القرطبي ضخامة ووجاهة، وكثر القواد في الجيش وتعددت مراتبهم، كما ازداد عدد الخطط (الوزارات)، وبالتالي عدد الوزراء[1]، وسنعود لاحقا إلى العوامل التي ساعدت على ذلك التوظيف الكبير للمغاربة.

من الوظائف التي تولى البربر الإشراف عليها خلال القرن الرابع الهجري خطة الحجابة التي شغلها جعفر بن عثمان المصحفي، وهو "أبو الحسن جعفر بن عثمان بن نصر بن فوز بن عبد الله بن كسيلة، وينتمي إلى برابر بلنسية، وكان لطيف المنزلة من الحكم المستنصر بالله، قديم الصحبة له، وقريب الخاصة منه[2]، وقد ولاّه هشام المؤيد منصب الحجابة يوم السبت العاشر من صفر سنة 366هـ - 976م، ولكنه لم يعمّر طويلا في هذا المنصب، إذ استطال عليه محمد بن أبي عامر بمساعدة غالب القائد، مولى عبد الرحمن الناصر؛ فألقى عليه القبض[3] وعلى ولده وأخيه هشام وسائر أقاربه،

---

(1) حسين مؤنس - معالم تاريخ المغرب والأندلس - ص 372.

(2) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 254.

(3) الحلة السيراء - ج1 ص257 - 258/ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - ق4 م1 ص64 - 65 =

وطالبهم بالأموال، كما كان ابن أبي عامر يحمل جعفرا معه في الغزوات تأنيبا وانتقاما منه، وعندما ظهر عجزه وضعف، وضع بالمطبق أي السجن إلى أن هلك فيه سنة 372هـ - 983م، وقيل قتل خنقا، وزعم بعض الناس أن محمد بن أبي عامر دسّ له شربة سمّ قضت عليه[1]، ومما قاله جعفر بن عثمان المصحفي في نكبته مايلي:

لا تَأْمَنَنَّ مِنَ الزَّمَانِ تَقَلُّبًا ... إنَّ الزَّمَانَ بأَهْلِهِ يَتَقَلَّبُ
وَلَقَدْ أَرَانِي وَاللُّيُوثُ تَخَافُنِي ... وَأَخَافَنِي مِنْ بَعْدُ ذَاكَ الثَّعْلَبُ
حَسْبُ الْكَرِيمِ مَذَلَّةً وَنَقِيصَةً ... أَلاَّ يَزَالَ إلى لَئِيمٍ يَطْلُبُ
وإذا أَتَتْ أُعْجُوبَةٌ فَاصْبِرْ لها ... فالدَّهْرُ يَأْتِي بالَّذِي هُوَ أَعْجَبُ[2]

إضافة إلى خطة الحجابة، تولى عدد من البربر منصب الوزارة، وأول من تولاها منهم محمد بن سليمان بن وانسوس الذي ولاّه عبد الرحمن الناصر خطة الوزارة سنة 301هـ - 913م[3]، وبقي فيها إلى غاية وفاته في العاشر من شهر رمضان سنة 307هـ - 919م[4]، كما عين الخليفة عبد الرحمن بن عبد الله الزجّالي في نفس المنصب سنة 325هـ - 937م[5]، ثم عزله عن هذه الوظيفة في سنة 329هـ - 941م، ويؤكد ذلك ابن حيان حين يقول: "وفي يوم عزل فطيس بن أصبغ عن الوزارة - النصف من ربيع الآخر سنة 329هـ - عزل الناصر لدين الله جميع الوزراء عن الوزارة بغتة، لسبب أنكره عليهم، صرفهم به جميعا"، وكانوا سبعة وزراء منهم عبد الرحمن بن عبد الله الزجّالي[6].

=

/نفس المصدر - ج2 ص272.

(1) ابن الأبّار - الحلة السيراء - ج1ص259/ ابن بسام - الذخيرة - ق4 م1 ص66.

(2) نفسه - ق4 م1 ص69/ ابن الأبّار - نفس المصدر - ج1 ص267، وفي آخر البيت الرابع "بعدما" عوضا عن "بالذي" - ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 272.

(3) ابن حيان - المقتبس - ج 5 ص 97.

(4) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 175.

(5) ابن حيان - نفس المصدر - ج 5 ص 416.

(6) نفسه - ج 5 ص 470.

لقد انتهج عبد الرحمن الناصر أسلوبا جديدا في التعامل مع موظفي الخلافة إذ كان يقوم بالتغيير المستمر للوزراء، وتبديل الخطط الموكلة إليهم من حين لآخر، ونقل العمال من كورة لأخرى، ويدلنا على ذلك قوائم الوزراء والعمال التي يوردها المؤرخون في ثنايا كتبهم، وبخاصة منهم ابن حيان القرطبي وابن عذاري المراكشي، ولعلّ الهدف الرئيس من ذلك هو سعي الناصر إلى تفادي بقاء هؤلاء الموظفين في مناصبهم لمدة زمنية طويلة، ومن ثم تفكيرهم في الإستبداد بالسلطة دون الخليفة، وهو ما كان يحدث خلال عهد الإمارة التي تميزت بانتزاء كثير من حكّام الكور، واستقلالهم في حكمها عن الأمير بقرطبة.

وفي غرّة ذي القعدة من نفس السنة أعاد الخليفة هذا البربري إلى منصبه[1]، كما عين فردا آخر من بيت بني الزجّالي في منصب الوزارة، ويتعلق الأمر بمحمد بن عبد الله الزجّالي، وفي ذلك يقول ابن عذاري متحدثا عن سنة 314هـ - 927م، "وفيها ولي محمد بن عبد الله الزجّالي الوزارة"، وذلك يوم السبت للنصف من جمادى الأولى[2].

وآخر بربري عينه الخليفة في منصب الوزارة القائد أحمد بن محمد بن إلياس المغيلي، ويؤكد ذلك ابن حيان حين يقول: "وولي الوزارة أحمد بن محمد بن إلياس في آخر ذي القعدة منها"، أي من سنة 324هـ - 936م[3].

من خلال ما سبق يتأكد ما ذكرناه سابقا من أن استعمال البربر في الوظائف الإدارية قد ازداد بشكل كبير خلال هذا القرن، ولا أدلّ على ذلك من تضاعف عدد من تولى الوزارة خلال عهد الناصر فقط على ما كان عليه طيلة الفترة التي سبقت سنة 300هـ أي في عهد الإمارة، وسيستمر توظيف المغاربة في المناصب العليا في عهد خلفاء الناصر.

---

(1) نفسه - ج 5ص 471.

(2) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص192/ ابن حيان - نفس المصدر - ج5 ص208.

(3) نفسه - ج 5 ص 390.

ففي عهد ابنه الحكم المستنصر (350 - 366هـ/961 - 976م)، تولى الوزارة عدد آخر من البربر، ومنهم جعفر بن عثمان المصحفي، وفي ذلك يقول ابن الأبّار متحدثا عنه: "وكان قد أدّب الحكم"، وعندما اعتلى هذا الأخير سدّة الخلافة "إستوزره"[1].

ومنهم عبد الله بن عبد الرحمن الزجّالي الذي "استوزره المستنصر بالله، وكان خيّرا فاضلا، أديبا عالما"[2]، ويقول عنه القاضي عياض: "واستوزره الحكم تنويها بمكانه، فلم تستفزّه الدنيا بحال، ومات وهو مخطط بالوزارة في جمادى الأولى سنة 375هـ" - 985م[3]، ومن خلال ما سبق يتضح أن عبد الله بن عبد الرحمن الزجّالي قد احتفظ بمنصبه في عهد خليفة الحكم هشام المؤيد بالله، والدليل على ذلك هو قول القاضي عياض إنه "مات وهو مخطط بالوزارة في جمادى الأولى سنة 375هـ مع العلم أن هشام بن الحكم قد ارتقى إلى سدّة العرش في عام 366هـ - 976م، وفي عهده "قدّم هشام بن محمد بن عثمان إلى خطة الوزارة"، وهذا الأخير هو ابن أخي جعفر بن عثمان المصحفي الحاجب[4].

إضافة إلى منصب الوزارة الذي شغله سبعة من المغاربة خلال عهد الخلافة، تولى البربر وظائف إدارية أخرى في بلاد الأندلس خلال القرن الرابع الهجري، ومنها وظيفة الكتابة، وتولاها منهم عبد الله بن محمد الزجّالي في عهد الناصر، ويؤكد ذلك ابن عذاري حين يقول: "وكان على الكتابة عبد الله بن محمد الزجّالي، فأقرّه عليها عبد الرحمن الناصر"،[5] وسبق لنا أن ذكرنا بأن هذا البربري قد تولى الكتابة في عهد عبد الله بن محمد، جدّ الناصر لدين الله، ويضيف ابن عذاري في مكان آخر قائلا:

---

(1) ابن الأبّار - الحلّة السيراء - ج 1 ص257 - 258.
(2) ابن الفرضي - تاريخ علماء الأندلس - ج 1 ص 409 - 410.
(3) القاضي عياض - ترتيب المدارك - ج 2 ص 182.
(4) ابن الأبّار - الحلة السيراء - ج 1 ص 258.
(5) ابن عذاري - نفس المصدر - ج 2 ص 158.

"وتوفي عبد الله بن محمد الزجّالي الوزير الكاتب في ربيع الأول سنة 301هـ[1]، كما تولى وظيفة الكتابة فرد آخر من أسرة الزجّالي، وهو عبد الرحمن بن عبد الله الزجّالي الذي عينه الناصر خلفا للوزير عيسى بن فطيس الذي عزل من منصبه سنة 329هـ - 941م[2].

ومن بيت بني المصحفي تولى خطة الكتابة جعفر بن عثمان المصحفي، ويؤكد ذلك ابن عذاري الذي يقول: "فلما أفضت الخلافة إلى الحكم قلده بعد ثلاثة أيام من خلافته خطة الوزارة، وأمضاه على الكتابة الخاصة، ثم جمع له الكتابة العليا بالخاصة[3]، وفي مكان آخر من كتابه يقول: "وخرج الكاتب جعفر بن عثمان المصحفي إلى ميورقة وذواتها لإصلاح ما فسد من حالها."[4]

ومن البربر الذين تولوا وظيفة الكتابة أبو عمر أحمد بن محمد بن درّاج الكاتب المعروف بالقسطلي، وينسب إلى قسطلة درّاج، وهي قرية في غرب الأندلس، وكان أبو عمر المنسوب إليها كاتبا من كتّاب الإنشاء في أيام المنصور بن أبي عامر، وهو معدود في جملة العلماء والمقدّمين من الشعراء"، ولم ينل هذه الوظيفة عفويا، بل "اختبر واقترح عليه فبرز وسبق"[5]، وقد تولى هذه الوظيفة أيضا أبو بكر إسماعيل بن بدر بن إسماعيل بن زياد، وفي ذلك يقول ابن عذاري متحدثا عن عبد الرحمن الناصر، "وولى إسماعيل بن بدر كتابته خاصة، أرتبه لها، وذلك في ربيع الآخر سنة 300هـ"[6].

تولى البربر أيضا وظيفة العرض والخيل، وهما وظيفتان عسكريتان، ومن الذين

---

(1) نفسه - ج 2 ص 165/ ابن حيان - المقتبس - ج 5 ص 97.

(2) نفسه - ج 5 ص 471.

(3) ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص254، ويقصد بالكتابة العليا كتابة الرسائل - المقري - نفح الطيب - ج1 ص217.

(4) نفسه - ج2 ص 215.

(5) الحميري - الروض المعطار - ص190/ الحميدي - جذوة المقتبس - ص97/ ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج 1 ص 44.

(6) ابن عذاري - نفس المصدر - ج2 ص 159.

تولوها من البربر عبد الرحمن بن عبد الله الزجّالي الذي عينه الناصر في خطّة العرض سنة 300هـ، كما عين في نفس السنة بربريا آخر في هذه الوظيفة، وهو محمد بن سليمان بن وانسوس[1].

وفي 301هـ - 913م عين في نفس الوظيفة محمد بن عبد الله الخرّوبي[2]، وهو من بيت بني الخرّوبي المنتمين إلى قبيلة زناتة، وأصلهم من لقنت،[3] وهي مدينة صغيرة بينها وبين دانية على الساحل سبعون ميلا، ولها قصبة منيعة جدا في أعلى جبل يصعد إليه بمشقة وتعب[4]، وفي سنة 310هـ - 922م ولي إلى جانبها خطة الخيل لأيام يسيرة خلفا لأفلح بن عبد الرحمن الذي عزله الناصر، ويشرف صاحب هذه الخطة على شؤون الخيل اللازمة للجيش، وما يتصل بها من سرج وقرابيس وما إلى ذلك، وكانت وظيفة إدارية في الغالب، وقد يتولاها قائد من القواد[5]، وعين الخليفة الأموي معه في خطة العرض أحمد بن عبد الله الخرّوبي أخاه[6]، وفي سنة 315هـ - 928م عين الناصر ابنه عبد الله بن محمد بن عبد الله الخرّوبي في نفس الوظيفة[7]، وفي السنة الموالية عين بربري آخر في خطة الخيل، وهو عبيد الله بن عبد الله الزجّالي[8]، وكان قد تولى في سنة 314هـ - 927م خطة العرض[9]، التي تولاّها ايضا إسماعيل بن بدر سنة 304هـ - 915م[10].

---

(1) نفسه - ج2 ص159.

(2) نفسه - ج2 ص 164.

(3) ابن حزم - جمهرة أنساب العرب - ص499/ مجهول - مفاخر البربر - ص265.

(4) عبد المنعم الحميري - الروض المعطار - ص170.

(5) ابن الأبّار - الحلة السيراء - ج 2 ص 233 هامش 2.

(6) ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص183/ابن الأبّار - الحلة السيراء - ج1 ص 243 - هامش 4.

(7) ابن عذاري - نفس المصدر - ج2 ص195.

(8) نفسه - ج2 ص199.

(9) نفسه - ج2 ص 193.

(10) نفسه - ج2 ص 169.

إضافة إلى هؤلاء المذكورين سابقا تولى هشام بن محمد بن عثمان، وهو ابن أخي جعفر بن عثمان المصحفي، حاجب هشام المؤيد خطة الخيل في عهد هذا الأخير[1].

من خلال ما سبق ذكره نلاحظ أن خطتي العرض والخيل العسكريتين قد احتكرتهما أسرتان بربريتان، ويتعلق الأمر ببني الخرّوبي وبني الزجّالي طيلة حكم عبد الرحمن الناصر، ويمكن تفسير ذلك بكون مهمة هاتين الوظيفتين ترتبط إلى حدّ كبير بالجانب العسكري، وقد عرفنا سابقا أن البربر كانوا يشكلون في أغلب فترات هذا القرن الرابع معظم الجيش الأندلسي، ومن ثمّ فوجود المغاربة في خطتي العرض والخيل يسهل إلى حدّ كبير التحكم في السير الحسن للجيش، ومن ثمّ تأديته لواجباته على أحسن وجه.

تولى البربر أيضا وظيفة أخرى لها علاقة مباشرة بالجيش، وهي خزانة السلاح، وتولاّها من المغاربة في عهد الناصر محمد بن عبد الله الخرّوبي وذلك في سنة 300هـ - 912م[2]، ولا تورد المصادر إشارة إلى عزله من هذا المنصب مما يعني أنه بقي فيه إلى غاية وفاته، وذلك في مستهل صفر سنة 314هـ - 927م[3]، كما تولى نفس الوظيفة عبد الله بن محمد الخرّوبي، وذلك في سنة 313هـ - 926م[4].

إلى جانب الوظيفة السابقة، عُيّن البربر ايضا للإشراف على خزانة المال، ومنهم محمد بن عبد الله الزجّالي الذي ولاّه الناصر هذه المهمة في شهر رمضان سنة 307هـ - 919م[5]، كما عين الناصر بربريا آخر في هذه الوظيفة، وهو عبد الرحمن بن عبد الله الزجّالي، وكان ذلك في سنة 316هـ - 929م[6]، وعزل عن هذه الوظيفة في

(1) ابن الأبّار - الحلّة السيراء - ج1 ص 258.
(2) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 158 - 159.
(3) نفسه - ج2 ص 193.
(4) نفسه - ج 2 ص 191.
(5) نفسه - ج 2 ص 175.
(6) نفسه - ج2 ص 199.

سنة 320هـ - 933م[1].

تولى البربر أيضا الإشراف على دار السكّة أو الضرب، وتتمثل مهمتها في إصدار النقود، وأول بربري تولى الإشراف على دار السكّة هو عبد الله بن محمد الخرّوبي، وقد عينه عبد الرحمن الناصر في هذه الوظيفة سنة 332هـ - 943م[2].

كما تولى البربر أيضا وظيفة المواريث، حيث عين عبد الرحمن الناصر عبيد الله بن عبد الله الزجّالي للقيام بهذه المهمة، وذلك سنة 315هـ - 928م[3]، وبقي في هذا المنصب إلى أن توفي في شهر رمضان سنة 320هـ - 933م كما يؤكد ذلك ابن عذاري[4]، الذي يضيف أن الخليفة الناصر عين إسماعيل بن بدر في نفس الوظيفة سنة 304هـ - 915م[5].

إضافة إلى ما سبق، تولى البربر وظيفة صاحب المدينة، ويقصد به حاكم المدينة، ويراد بالمدينة عادة العاصمة قرطبة[6]، ومن بين المغاربة الذين عينوا في هذه الوظيفة محمد بن عبد الله الخرّوبي، ويشير إلى ذلك ابن عذاري عند حديثه عن سنة 310هـ؛ فيقول: "وفيها عزل أفلح بن عبد الرحمن عن الخيل، ووليها صاحب المدينة محمد بن عبد الله الخرّوبي أياما يسيرة"[7]، ولا تعطينا المصادر تاريخ تولي هذا البربري لوظيفة صاحب المدينة، ولكنها تذكر أنه بقي في هذه المهمة إلى غاية وفاته، ويؤكد ذلك ابن عذاري عند كلامه عن سنة 314هـ، حيث يقول: "وفيها توفي محمد بن عبد الله الخرّوبي صاحب المدينة مستهل صفر"[8]، وبالإضافة إلى البربري السابق ذكره،

---

(1) نفسه - ج 2 ص 208.

(2) ابن حيان - المقتبس - ج 5 ص 244.

(3) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 195.

(4) نفسه - ج 2 ص 208.

(5) نفسه - ج 2 ص 170.

(6) ابن الأبّار - الحلة السيراء - ج 1 ص 233 هامش 2.

(7) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 183.

(8) نفسه - ج 2 ص 193.

تولى وظيفة صاحب المدينة فردان من أسرة بني المصحفي، ويتعلق الأمر بمؤسس هذا البيت، وهو جعفر بن عثمان المصحفي، ويؤكد ذلك ابن عذاري عند كلامه عن أحداث سنة 365هـ - 975م؛ فيقول: "وفيها نفذ عهد الحكم إلى الوزير صاحب المدينة جعفر بن عثمان المصحفي"[1]، كما تولى ابنه محمد بن جعفر بن عثمان المصحفي نفس الوظيفة، وفي ذلك يقول ابن عذاري: "فخرج أمر الخليفة - هشام المؤيد - بصرف محمد بن جعفر بن عثمان عن المدينة"، وكان ذلك في شوال سنة 366هـ عقب عودة محمد بن أبي عامر من غزوته الثانية[2].

تولى البربر أيضا وظيفة السوق أو الحسبة حيث قام عبد الرحمن الناصر بتعيين محمد بن عبد الله الخرّوبي في هذه الوظيفة، وكان ذلك في ربيع الآخر سنة 301هـ - 913م[3]، كما عين في نفس الوظيفة إسماعيل بن بدر، ويؤكد ابن الفرضي ذلك حيث يقول: "وولي أحكام السوق فحمد أمره فيها، وقد توفي سنة 351هـ - 962م"[4].

كما تولى البربر أيضا خطة الشرطة، وهي تنقسم إلى قسمين:

1 - الشرطة العليا: وكانت تتمثل في أمن الأمير وقصوره وأهل بيته وكبار الناس.

2 - الشرطة الوسطى: وتتعلق بأعمال الشرطة المعروفة أي الأمن العام في المدينة نفسها، ويعيّن الأمير أو الخليفة الموظف في هذه الخطة [5].

إحتكر البربر هذه الوظيفة في عهد هشام المؤيد، وينتمي كل الذين تولّوا هذه الخطة إلى بيت بني المصحفي حيث عين فيها أبناء الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، وهم محمد وعثمان وعبد الرحمن إضافة إلى أخيه سعيد بن عثمان وابن

---

(1) نفسه - ج 2 ص 250.
(2) نفسه - ج 2 ص265 - 266.
(3) ابن حيان - المقتبس - ج5 ص97.
(4) ابن الفرضي - تاريخ علماء الأندلس - ج 1 ص 133.
(5) ابن الأبّار - الحلة السيراء - ج 1 ص233 - 234.

أخيه محمد، وقد تولّى جميعهم الشرطة العليا والوسطى[1].

ولقد أزعج ذلك كثيرا من البيوتات العربية التي كان لها نفوذ كبير في الدولة، وخشيت على امتيازاتها من ازدياد نفوذ هؤلاء المغاربة؛ فتعصّبت ضدّ المصاحفة، وشجّعت محمد بن أبي عامر وساعدته في القضاء على نفوذهم المتزايد، وذلك من خلال التخلص من كبيرهم الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي الذي كان فيما سبق ولي نعمة من سيصير فيما بعد الرجل الأول في العدوة الأندلسية.

إضافة إلى ما ذكرناه سابقا، مارس البربر وظائف إدارية أقل أهمية من الوظائف السابقة، وتتمثل في تسيير شؤون الكور؛ ففي عهد عبد الرحمن الناصر عين عدد من المغاربة كعمال على رأس بعض الكور الأندلسية:

ففي سنة 317هـ - 930م ولي أحمد بن محمد الزجّالي على إشبيلية، وأحمد بن محمد بن إلياس المغيلي على تدمير، ويحيى بن أبي الفتح بن ذي النون على شنتبرية، ويحيى بن أدانس وعبد الله بن عمر بن أدانس على قصر أبي دانس الواقع بالساحل الغربي وما يليه من الجبل[2].

وفي السنة الموالية عين مالك بن محمد الزجّالي على أستجة[3]، وأحمد بن محمد بن إلياس على الجزائر الشرقية ميورقة، مينورقة ويابسة[4]

وفي سنة 321هـ - 934م عين الناصر لدين الله موسى ويحيى ابني محمد بن إلياس معا على بلنسبة، والفتح بن يحيى بن ذي النون على كورة شنتبرية خلفا لأبيه يحيى بن أبي الفتح[5]، وفي نفس السنة عزل أحمد بن محمد بن إلياس عن الجزائر الشرقية[6].

---

(1) نفسه - ج 1 ص 258.

(2) ابن حيان - المقتبس - ج 5 ص 253 - 254.

(3) نفسه - ج 5 ص 284.

(4) نفسه - ج5 ص 285.

(5) نفسه - ج 5 ص 331.

(6) نفسه - ج 5 ص 332.

وفي السنة الموالية عزل الخليفة موسى ويحيى ابني محمد بن إلياس عن بلنسية وشاطبة، بينما نقل أحمد بن محمد بن إلياس من كورة وشقة إلى مدينة طرسونة[1].

وفي سنة 323هـ - 936م عين الخليفة يحيى بن محمد بن إلياس على بلنسية وشاطبة من جديد، بينما كلّف موسى بن محمد بن إلياس بإدارة شؤون مدينة طرطوشة[2] التي تبعد عن بلنسية بمائة وعشرين ميلا، وعن طركونة بخمسين ميلا، وبينها وبين البحر الشامي عشرون ميلا[3].

وفي سنة 324هـ - 937م عزل عبد الرحمن الناصر كل عمّال الكور الأندلسية ذوي الأصول البربرية عن المدن التي كانوا يتولون تسيير شؤونها، ولم يعين بداية من هذا التاريخ أي مغربي في منصب عامل الكور، وشمل هذا القرار يحيى بن محمد بن إلياس (بلنسية وأعمالها)، والفتح بن يحيى بن ذي النون (شنتبرية)[4]، وموسى بن محمد بن إلياس (طرطوشة)، وأحمد بن محمد بن إلياس (وشقة وعملها)[5].

لقد سبقت الإشارة إلى أن ظاهرة العزل والنقل للوزراء والعمال من مناصبهم أصبحت إجراء مألوفا في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله لكونه كان يسعى إلى تفادي ما وقع فيه من سبقه من أمراء بني أمية الذين كثرت في عهدهم حركات الثورة والانتزاء عن الحضرة بسبب طول مدة مكوث العامل أو الوزير في منصبه إلى درجة تجعله يستبد بالحكم دون الأمير، وبالتالي فإن الهدف من وراء هذا الإجراء هو عدم منح الفرصة لهؤلاء العمال أو الوزراء من أجل تكوين حلفاء يساعدونهم على الثورة والانفصال عن قرطبة، قلت سابقا إن الخليفة عبد الرحمن الناصر لم يعين بداية من سنة 324هـ أي بربري في منصب عامل الكورة، ودليلنا في ذلك خلو قوائم العمال

---

(1) نفسه - ج 5 ص 355 - 356.

(2) نفسه - ج5 ص377.

(3) عبد المنعم الحميري - الروض المعطار - ص 124.

(4) ابن حيان - المقتبس - ج 5 ص 391.

(5) نفسه - ج5 ص 392.

التي يوردها ابن حيان، والمتعلقة بالسنوات التالية لهذا التاريخ من أي اسم لمغربي، والتفسير الوحيد الذي نتوفر عليه من خلال المصادر التاريخية يتعلق بحالة واحدة فقط، وهي حالة أحمد بن محمد بن إلياس الذي عزله الناصر في هذه السنة عن تسيير كورة وشقة وأعمالها، ويعود سبب ذلك إلى تعيين الخليفة له في منصب الوزارة في نفس السنة(1) وبداية من سنة 330هـ - 942م لا نتوفر على الأخبار المتعلقة بعمال الكور في المصادر المتوفرة لدينا، ولذلك لا يمكننا إعطاء المزيد من المعلومات المتعلقة بهذا المنصب.

ويذكر العذري أن جعفر بن عثمان المصحفي الكاتب ولي كورة إلبيرة، وكان في سجله المرية ثم عزل عنها، وذلك في سنة عشرين وثلاثمائة (933م)، وأقرّه الناصر على عمل إلبيرة، ثم عزل سنة 329هـ - 941م(2)، كما يذكر ابن الأبّار أنه تولى جزيرة ميورقة في أيام عبد الرحمن الناصر لدين الله(3)، ويذكر مؤلف كتاب "التكملة" أن الخليفة الناصر ولّى أحمد بن عبد الله بن يحيى بن يحيى بن يحيى الليثي حصن مجريط، وهي مدينة صغيرة وقلعة منيعة بناها الأمير محمد بن عبد الرحمن، وتقع بمقربة من طليطلة(4)، وبقي به إلى أن استشهد سنة 324هـ - 937م(5).

من خلال استعراض قائمة المغاربة الذين عينوا كولاة على الكور الأندلسية خلال الثلاثين سنة الأولى من حكم عبد الرحمن الناصر، نلاحظ جليا عددهم القليل مقارنة بعدد الكور الأندلسية من جهة، وعدد الذين تولوا إدارة شؤونها من جهة أخرى، وقد سبق أن قدمنا مثالا على قلة استعمال البربر في هذه الوظيفة في مقدمة هذا المبحث.

إن هذا العدد القليل من الولاة البربر لا يمكن تفسيره إلا باحتكار الأسر العربية

---

(1) نفسه - ج 5 ص 390.
(2) أبو عمر العذري - ترصيع الأخبار - ص 81.
(3) ابن الأبّار - الحلة السيراء - ج 1 ص 257.
(4) عبد المنعم الحميري - الروض المعطار - ص 180.
(5) ابن الأبّار - التكملة لكتاب الصلة - ج 1 ص 15.

للمناصب العليا في الدولة، ومن ثمّ تحكمها في تعيين الولاة أوعمال الكور، والذي يجعلنا نؤكد ذلك هو ازدياد عدد الولاة المغاربة كلما ارتقى عدد أكبر من المغاربة إلى هذه الوظائف العليا؛ فوصول جعفر بن عثمان المصحفي إلى منصب الحجابة جعلت هشام المؤيد يقدّم "ابن أخيه هشام بن محمد بن عثمان إلى خطّة الخيل ثم إلى الوزارة، ويولّي بنيه محمدا وعثمان وعبد الرحمن وأخاه سعيدا وابن أخيه محمدا خطة الشرطة العليا والوسطى"[1]، وحدث العكس عندما عزل من منصبه، حيث فقد كل هؤلاء مناصبهم مباشرة بعد فقدان كبيرهم لمكانته السياسية في الدولة الأموية بالأندلس.

هذه هي أهم المحطات المشكلة للمساهمة البربرية في الإدارة الأندلسية، والتي كما نلاحظ لم تكن بحجم الساكنة المنتمية إلى الأصول المغربية المتواجدة بالعدوة الأندلسية، وسنعود إلى العوامل التي أدت إلى ذلك بعد استعراض المشاركة البربرية في الوظائف القضائية.

الوظائف القضائية: شارك البربر في تولّي وظائف القضاء بالأندلس، وإذا كانت هذه المشاركة هزيلة في الفترة السابقة للقرن الرابع الهجري، واقتصرت في غالب الأحيان على المناصب القضائية المتواضعة كقضاة الأحكام أو المشاورين؛ فإنها في القرن الرابع الهجري قد ارتقت إلى مختلف المناصب، وإلى أعلى الدرجات، ومن ذلك تولّي البربر منصب قضاء الجماعة، فضلا عن توظيف العديد من المغاربة في قضاء الردّ أو المظالم، كما تولوا أيضا بقية الوظائف القضائية الأخرى كالحسبة وقضاء الأحكام والمشورة وغيرها.

قضاء الجماعة: كان قاضي الجماعة بالأندلس ينظر في المواريث والوصايا والتحجير والأحباس، كما يؤم الناس في صلاة الجماعة[2]، وكان لا يمارس مهمته إلاّ في مدينة قرطبة، ويعتبر قضاء الجماعة أرفع مناصب القضاء[3].

---

(1) ابن الأبّار - الحلة السيراء - ج 1 ص 258.

(2) السيد عبد العزيز سالم - في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس - ص327.

(3) نفسه - ص 328.

تولّى عدد من المغاربة هذا المنصب خلال القرن الرابع الهجري، وأولهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الليثي المعروف بابن أبي عيسى القاضي، وقد ولاّه عبد الرحمن الناصر قضاء الجماعة في قرطبة في ذي الحجة سنة 326هـ - 938م، ثم جمع له هذه الوظيفة مع الصلاة إلى أن توفي الخليفة الناصر[1]، وقد تولّى هذه الوظيفة "بسياسة محمودة، ورياسة في الدين مبرمة القوى مجهودة، والتزم فيها الصرامة في تنفيذ الحقوق، والحزمة في إقامة الحدود، والكشف عن البينات في السرّ، والصدع بالحق في الجهر، لم يستمله مخادع، ولم يكده مخاتل، ولم يهب ذا حرمة، ولا داهن ذا مرتبة، ولا أغضى لأحد من أسباب السلطان وأهله حتى تحاموا جانبه، فلم يجسر أحد منهم عليه"[2].

إضافة إلى قيامه بوظيفة قضاء الجماعة، كان الخليفة يكلفه بمهام أخرى مثل السفارات إلى كبار الأمراء، وأمانات الثغور والأطراف والإشراف عليها، وبناء حصون الثغور أو ترميمها، والإطلاع على أحوالها، كما كان يرسله على رأس الجيوش المتوجهة للغزو، وقد كلّفه أيضا بالإشراف إلى جانب غالب مولاه على بناء مدينة سالم[3].

كان القاضي ابن أبي عيسى كثيرا ما يخرج إلى الثغور، ويتصرف في إصلاح ما وهى منها، وفي آخر خرجاته اعتلّ فمات في بعض الحصون المجاورة لمدينة طليطلة، وذلك سنة 337هـ - 949م[4]، بينما يقول ابن فرحون وابن الفرضي: إن وفاته كانت في

(1) القاضي عياض - ترتيب المدارك - ج2ص84 - 85/ابن حيان - المقتبس - ج5 ص428.

(2) المقري - نفح الطيب - ج2 ص12 - 13/الفتح بن خاقان - مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح الأندلس - تحقيق محمد علي شوابكة - دار عمّار مؤسسة الرسالة - بيروت ط1 - 1403هـ - 1983م - ص260.

(3) القاضي عياض - ترتيب المدارك - ج2 ص85 - 86/ ابن الحسن النباهي - تاريخ قضاة الأندلس - تحقيق مريم قاسم الطويل - دار الكتب العلمية - بيروت - ط1 1415هـ - 1995م - ص 82.

(4) المقري - نفح الطيب - ج 2 ص 15.

عام 339هـ - 951م[1]، وكان مولده سنة 284هـ - 896م[2].

وكان ثاني بربري يتولى وظيفة قضاء الجماعة بعد السابق هو منذر بن سعيد البلّوطي، وهو منذر بن سعيد بن عبد الرحمن بن قاسم بن عبد الله أبو الحكم[3]، ويعرف بالبلّوطي نسبة إلى فحص البلّوط، وهو موضع بالأندلس، بينه وبين قرطبة مرحلتان أو ثلاث[4]، وعن أصله يقول ابن خلدون: "منذر بن سعيد، قاضي الجماعة بقرطبة من ظواعن ولهاصة، من سوماتة منهم"[5]، وسوماتة بطن من بطون بني يطوفت بن نفزاو بن لوا الأكبر بن زحيك بن مادغيس الأبتر، جد البرابر البتر[6]، ويؤكد مؤلف "مفاخر البربر" انتسابه إلى ولهاصة حين يعرف به؛ فيقول إنه: "القاضي البلوطي الولهاصي" نسبة إلى ولهاصة، وهم أبناء ولهاص بن يطوفت بن نفزاو بن لوا الكبير بن زحيك بن مادغيس[7].

كان مذهبه في الفقه مذهب النظّار والإحتجاج وترك التقليد، وكان عالما باختلاف العلماء، ويميل إلى رأي داود بن علي بن خلف العباسي ويحتجّ له[8]، ويضيف النباهي أنه "كان متضلعا في علوم مختلفة، ويأخذ بالمذهب الظاهري، ولكنه يحكم وفق مذهب مالك"[9].

قُدّم منذر بن سعيد إلى قضاء الجماعة بقرطبة بعد محمد بن أبي عيسى الليثي، وذلك يوم الخميس الخامس من ربيع الآخر سنة 339هـ - 951م، وولي الصلاة

---

(1) ابن الفرضي - تاريخ علماء الأندلس - ج 2 ص719/ابن فرحون المالكي - الديباج المذهب - ص 361.

(2) المقري - نفح الطيب - ج1 ص15/ابن الفرضي - تاريخ علماء الأندلس - ج2 ص719.

(3) نفسه - ج2 ص 845.

(4) عبد المنعم الحميري - الروض المعطار - ص 142.

(5) ابن خلدون - العبر - ج11 ص 210.

(6) نفسه - ج 11 صص 229 - 231.

(7) مجهول - مفاخر البربر - ص 213.

(8) ابن الفرضي - تاريخ علماء الأندلس - ج2 ص 845.

(9) النباهي - تاريخ قضاة الأندلس - ص 74.

بجامع مدينة الزهراء؛ فلم يزل قاضيا إلى أن توفي[1].

وقد ولي قضاء الجماعة بقرطبة أيام عبد الرحمن الناصر "فناهيك من عدل أظهر، ومن فضل أشهر، ومن جور قبض، ومن حق رفع، ومن باطل خفّض"[2].

ظلّ منذر بن سعيد قاضيا إلى أن مات عبد الرحمن الناصر لدين الله سنة 350هـ - 961م، ثم ولي ابنه الحكم المستنصر بالله؛ فأقرّه على قضاء الجماعة بقرطبة[3]، وفي خلافته توفي بعد أن طلب الإعفاء من وظيفته مرارا ولكنه لم يُعْفَ، ورغم طول المدة التي قضاها في منصبه "لم تحفظ عليه قضية جور، ولا عُدَّت عليه في حكومته زلّة"[4].

وعن سبب توليته وظيفة قضاء الجماعة وبلوغه في أدائها القمة يقول ابن خاقان: "إن الناصر لما احتفل لدخول ملك الروم، صاحب القسطنطينية بقصر قرطبة الإحتفال الذي اشتهر ذكره وانبهر أمره، أحبّ أن يقوم الخطباء والشعراء بذكر جلالة مقعده، ووصف ما تهيأ له من توطدّ الخلافة، وتقدم إلى الأمير ابنه بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء"[5]، وكان الحكم المستنصر شغوفا بأبي علي القالي يؤهلّه لكل مهم في بابه؛ فلما ورد رسل ملك الروم أمره أن يقوم خطيبا، فلما كان في ذلك الوقت، وشاهد أبو علي الجمع، وعاين الحفل جبن، ولم تحمله رجلاه، ولا ساعده لسانه، وفطن له أبو الحكم منذر بن سعيد فوثب وقام من مكانه، وارتجل خطبة بليغة على غير أهبة، وأنشد لنفسه في آخرها:

هذا المقال الذي ما عابه فند ... لكن صاحبه أرزى به البلد

لوكنت فيهم غريبا كنت مطرفا ... لكنني منهم فاغتالني النكد

---

(1) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج2 ص 845 / مجهول - مفاخر البربر - ص 213.

(2) ابن خاقان - مطمح الأنفس - ص 238.

(3) الخشني - قضاة قرطبة - ص 175 - 176.

(4) ابن خاقان - نفس المصدر - ص 238.

(5) نفسه - ص 239 - 240.

لـولا الخلافـة أبقـى الله بهجـتها ما كنت أبقى بأرض ما بها أحد[1]

أعجب الجميع بما قاله هذا البربري، وعلى رأسهم العلج - ونعني به ملك الروم - الذي قال: "هذا والله كبش الدولة"، وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه، وثبات جنانه، وبلاغة لسانه، وكان الخليفة الناصر لدين الله أشدّ تعجبا منه، وعند ما ابتنى الجامع بمدينة الزهراء ولاّه الصلاة فيه، ثم توفي محمد بن أبي عيسى القاضي، فولاّة قضاء الجماعة بقرطبة، وأقرّه على الصلاة بالزهراء[2]، وبقي في منصب القضاء منذ ذلك التاريخ إلى أن توفي عقب ذي القعدة من سنة 355هـ - 966م؛ "فكانت ولايته كقاض للجماعة المعبّر عنها في المشرق بقاضي القضاة ستة عشر عاما، لم يحفظ عليه فيها جور في قضية، ولا قسم بغير سويّة، ولا ميل بهوى، ولا إصغاء إلى غاية، ودفن بمقبرة قريش بالربض الغربي من قرطبة بقرب داره"[3].

أما ثالث بربري تولىّ منصب قضاء الجماعة فهو أبو العباس أحمد بن ذكوان، وهو أحمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان بن عبد الله بن عبدوس بن ذكوان الأموي، ويكنى أبا العباس، وأصلهم من جيان، أما ابن حيان فيقول: إن أصلهم من برابر فحص البلّوط[4]، وكان أبو العباس أكمل رجالات الأندلس وأتمهم عقلا[5].

قلّده المنصور محمد بن أبي عامر قضاء الجماعة بعهد الخليفة هشام بن الحكم المؤيد بالله يوم الأربعاء الرابع عشر من المحرم سنة 392هـ - 1002م، وتقلد بعدها خطّة الصلاة سنة 394هـ - 1004م، ولم يزل يتقلدهما إلى أن صرف عنهما يوم الخميس لثلاث خلون من ذي الحجة سنة 394هـ، ثم أعيد ابن ذكوان إلى قضاء قرطبة والصلاة معا؛ فلم يزل يتولاّهما معا إلى أن صرف عنهما يوم الخميس لخمس خلون

(1) الحميدي - جذوة المقتبس - ص315 - 316.
(2) ابن خاقان - نفس المصدر - ص 245.
(3) المقري - نفح الطيب - ج 2 ص 21 - 22.
(4) القاضي عياض - ترتيب المدارك - ج 2 ص 253.
(5) نفسه - ج 2 ص 253.

من جمادى الأولى سنة 401هـ - 1010م[1].

إضافة إلى اضطلاعه بمهمة قضاء الجماعة بقرطبة، كان أبو العباس بن ذكوان "من جملة أصحاب المنصور بن أبي عامر وخواصه، ومحلّه منه فوق محلّ الوزراء، يفاوضه في تدبير سائر شأنه، ولم يتخلف عنه في غزوة من غزواته، ولا فارقه في ظعن ولا إقامة، وكذلك كان حاله مع ولديه المظفر والمأمون بعده، قد تيمنوا رأيه، وعرفوا النجاح في مشورته.

جمع له المنصور القضاء والصلاة والخطبة إلى أن هلك، ثم أقرّه عبد الملك على ذلك إلى أن فسد ما بين القاضي وبين وزير الدولة عيسى بن سعيد بسبب فسخ عقد ضيعة اشتراها عيسى من ولد ابن السليم السفيه؛ فقضى ابن ذكوان بردّها إلى السفيه وفسخ بيعه؛ فالتحمت بينهما العداوة، واتهم أبو العباس بالقدح في الملك؛ فصرفه المظفر عن القضاء والصلاة، ثم أعاده إلى منصبه بعد تسعة أشهر من عزله"[2].

كان أبو العباس بن ذكوان ضابطا للحق، صلبا فيه، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان الناس والخصوم يلتزمون في مجلسه من الوقار وغضّ الصوت الغاية[3].

توفي أبو العباس بن ذكوان قاضي الجماعة سنة 413هـ - 1023م بعد محنة مرّ بها خلال الفتنة القائمة بالأندلس، وكان مولده سنة 342هـ - 953م[4].

إضافة إلى توليهم أعلى وظائف القضاء ممثلة في قضاء الجماعة التي احتكرها البربر طيلة ثمان وثلاثين سنة من القرن الرابع الهجري، تولى المغاربة أيضا وظائف قضائية أخرى، ومنها قضاء الأحكام التي تمارس في الكور الأندلسية، ومن الذين تولوا هذه الوظيفة:

---

(1) ابن بشكوال - كتاب الصلة - نشر وتحقيق السيد عزت العطار الحسيني - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط1 - 1414هـ - 1994م - ج1 ص37/ الضبي - بغية الملتمس - ص 160.

(2) النباهي - تاريخ قضاة الأندلس - ص 113/القاضي عياض - ترتيب المدارك - ج2 ص 254 - 255.

(3) نفسه - ج 2 ص 255.

(4) ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج1 ص38 / الضبي - بغية الملتمس - ص 160.

* أبو الحكم منذر بن سعيد البلوطي الذي ولي قضاء ماردة وماوالاها من مدن الجوف، ثم ولي قضاء الثغور الشرقية قبل أن يتولى قضاء الجماعة بقرطبة سنة 339هـ[1].

* أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي دليم، وهو من أهل قرطبة، وقد ولاّه أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله قضاء إلبيرة وبجانة، وكانت له منه مكانة، وتوفي هذا القاضي في جمادى الأولى سنة 351هـ في القصر بمدينة الزهراء[2].

* أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بابن أبي عيسى القاضي القرطبي، وينتمي إلى بيت بني يحيى بن يحيى الليثي، وكان "منتهى النباهة والرئاسة في العلم، وقد استقضاه الخليفة عبد الرحمن الناصر ببجّانة وطليطلة وجيّان، وكان آخر ما ولاّه قضاء إلبيرة، وقلّده مع القضاء أمانة الكور والنظر على عمالها، فكانوا لا يقدمون ولا يؤخرون إلاّ عن أمره، ولا يظلم أحد في جانب الكور إلاّ نصره وقام معه"[3]، وقد تولى وظيفة قضاء الأحكام في هذه الكور كلها قبل سنة 326هـ، وهي سنة تقليده قضاء الجماعة في قرطبة، وقد أشرنا إلى ذلك سابقا.

* أبو العباس أحمد بن ذكوان الذي تولّى قضاء الأحكام بفحص البلّوط قبل أن يعين في وظيفة قاضي الجماعة بقرطبة سنة 392هـ[4].

* فضل الله بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن قاسم بن عبد الله بن نجيح النفزي، من أهل قرطبة وهو شقيق قاضي الجماعة منذر بن سعيد البلّوطي، رحل مع أخيه منذر إلى المشرق طلبا للعلم، وشاركه في أشياخه، وعندما عادا إلى الأندلس ولي فضل الله قضاء الأحكام بفحص البلوط سنة 330هـ - 942م، وتوفي بعدها بخمس

(1) ابن الفرضي - تاريخ علماء الأندلس - ج2 ص845 - 846.
(2) نفسه - ج 1 ص 399 - 400.
(3) القاضي عياض - ترتيب المدارك - ج2 ص84 - 85 / النباهي - تاريخ قضاة الأندلس - ص81 - 82.
(4) ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج 1 ص 37.

سنين[1].

* أبو القاسم خلف بن سليمان بن عمرون البزّاز الإستجي، وأصله من صنهاجة، وقد ولي قضاء شذّونة والجزيرة الخضراء، وتوفي بقرطبة في ذي القعدة من سنة 378هـ[2].

* أبو الأصبغ عيسى بن عبد الرحمن بن حبيب بن واقف بن يعيش بن عبد الرحمن بن مروان بن سكتان، وهو بربري من قبيلة مصمودة، من أهل شذّونة، وقد قام برحلة إلى المشرق طلبا للعلم، وعندما عاد إلى الأندلس استقضاه الحكم المستنصر بالله على أشونة وأعمالها، وبها توفي سنة 366هـ - 976م[3].

* معن بن محمد بن معن الأنصاري، ونسبه في البربر، وهو من أهل سرقسطة، وأحد رجالاتها، "كان حصين العقل، معروفا بالدهاء، حاضر الجواب، حسن الردّ، وله فهم وإدراك"، وقد ولي قضاء سرقسطة سنة 326هـ من قبل عبد الرحمن الناصر، وبقي في هذا المنصب إلى غاية وفاته سنة 330هـ - 942م[4].

* أبو عيسى يحيى بن عبد الله بن يحيى بن يحيى بن يحي الليثي، من أهل قرطبة، وقد ولي قضاء بجّانة وإلبيرة، وتوفي في رجب سنة 367هـ - 977م[5].

* نافع بن محمد بن رحيق بن إبراهيم بن حارث بن خلف بن راشد السوماتي من البربر، وقد ولي قضاء الجزائر الشرقية (ميورقة، مينورقة ويابسة) للناصر عبد الرحمن بن محمد، وهو أول قاض استقضي بها، وذلك يوم الأربعاء لسبع بقين من رمضان سنة 325هـ - 937م؛ فلم يزل قاضيا بها إلى أن صرفه بعّمه أحمد بن رحيق سنة 333هـ - 944م[6].

---

(1) الضبي - بغية الملتمس - ص388/ ابن الفرضي - تاريخ علماء الأندلس - ج2 ص595.

(2) نفسه - ج 1 ص 249 - 250.

(3) نفسه - ج 2 ص 562.

(4) ابن الأبّار - التكملة لكتاب الصلة - ج 2 ص 202.

(5) ابن فرحون - نفس المصدر - ص434/ابن الفرضي - نفس المصدر - ج2 ص919 - 920.

(6) ابن الأبّار - التكملة لكتاب الصلة - ج 2 ص 216.

* أحمد بن رحيق بن إبراهيم بن حارث بن خلف بن راشد السوماتي، وقال الرازي عند ذكره لقبيلة كتامة بقرطبة، ومنهم بيت الحسن بن سعيد وبيت بني رحيق، وقد ولي قضاء الجزائر الشرقية بعد ابن أخيه نافع بن محمد المذكور سابقا، وذلك في عام 333هـ، ويؤكد ذلك ابن حيان حيث يذكر أن جعفر بن عثمان المصحفي خرج في يوم الخميس لثلاث بقين من جمادى الآخرة سنة 333هـ قائدا إلى الجزائر الشرقية ميورقة وذواتها، وولى أحمد بن رحيق القضاء بها، فلم يزل قاضيها إلى أن توفي في العاشر من رمضان سنة 343هـ - 954م غريقا في البحر مع رشيق مولى الناصر عامل الجزائر[1].

* عبد الوهاب بن عباس بن ناصح، وأصله من نفزة، وقد ولي القضاء بالجزيرة الخضراء بلده[2].

* ومحمد بن عبد الوهاب بن عباس بن ناصح، وكان فقيها، حافظا للمسائل والرأي، بصيرا بالفتيا على مذهب مالك وأصحابه، وقد تولى القضاء ببلده الجزيرة الخضراء[3]، وقال السيوطي: إنه توفي سنة 328هـ - 939م[4].

* أبو حاتم محمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان الذي صحب القاضي أبا بكر بن زرب وتفقه عنده، وقد تولى الشورى بقرطبة مجموعة له إلى قضاء فرّيش وغيرها[5]، وفرّيش موضع بالأندلس يقع بين الجوف والغرب من قرطبة، ويفصلها عن هذه الأخيرة أربعون ميلا[6].

من خلال استعراضنا لقائمة القضاة ذوي الأصول البربرية الذين تولوا وظائف

---

(1) نفسه - ج 1 ص 16.
(2) القاضي عياض - ترتيب المدارك - ج 2 ص 458.
(3) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 2 ص 694.
(4) السيوطي - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الفكر - بيروت - ط2 - 1399هـ - 1979م - ج1 ص169.
(5) ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج 2 ص 477.
(6) عبد المنعم الحميري - كتاب الروض المعطار - ص 143.

القضاء من جهة، والكور التي تولوا مهمة القضاء فيها من جهة أخرى، نلاحظ أن أغلبهم قد تولى هذه الوظيفة في مناطق معينة تتمثل بصفة خاصة في المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية، (الجزيرة الخضراء - شذّونة - إلبيرة - بجّانة)، والثغور الشمالية والشمالية الشرقية (طليطلة - سرقسطة)، ويرتبط توزيعهم هذا مع النواحي التي تتميز بتواجد ساكنة بربرية هامة، كما نلاحظ أيضا تزايد عدد المغاربة الذين تقلّدوا منصب القضاء بنوعيه (قضاء الجماعة وقضاء الأحكام) مقارنة بالفترة السابقة للقرن الرابع الهجري، وهو ما يدل على التحسن الكبير الذي طرأ على المستوى العلمي للبربر لأن وظيفة القضاء لا يتولاها إلاّ من توفر على رصيد فقهي كبير يمكنه من مواجهة الخصومات القائمة بين الأفراد، ومن ثمّ إيجاد الحلول المناسبة لها.

إلى جانب الوظيفة السابقة، تولى البربر أيضا وظيفة الردّ أو المظالم التي يعرفها الماوردي بقوله: إنها "وظيفة تقود المتظالمين إلى التناصف بالرهبة، وتقمع الظالم من الخصمين، وتزجر المعتدين، وكان صاحب المظالم يمضي ما عجز القضاة عن إمضائه"[1].

وقد تولي عدد من البربر هذه الوظيفة، ومنهم خلال القرن الرابع الهجري:

* يحيى بن عبد الله بن يحيى بن يحيى بن يحيى الليثي، وقد تولاها عند ما كان أخوه محمد بن عبد الله قاضيا للجماعة بقرطبة، أي بداية من سنة 326هـ[2].

* أبو مروان عبد الملك بن منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن عبد الله بن نجيح، من أهل قرطبة الذي ولي خطة الردّ[3]، ويؤكد ذلك ابن حيان حين يتكلم عن أحداث سنة 362هـ فيقول: "وفي هذا الوقت خرج صاحب الردّ، قاضي فحص البلوط عبد الملك بن منذر بن سعيد..."[4]، والقاضي عياض حيث يقول:

---

(1) الماوردي - الأحكام السلطانية والولايات الدينية - ص 97.

(2) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 2 ص 919 - 920.

(3) نفسه - ج 1 ص 466.

(4) ابن حيان - المقتبس - ج 6 ص 104.

"بعد طلب عبد الملك بن منذر صاحب الردّ"[1].

* أبو بكر عبد الله بن هرثمة بن ذكوان، من أهل قرطبة، وأصله من جيان، وقد ولي خطة الردّ بعد عبد الملك بن منذر بن سعيد؛ فلم يزل عليها إلى أن توفي[2]، ويذكره القاضي عياض في سياق كلامه عن ابنه أبي العباس أحمد، قاضي الجماعة بقرطبة فيقول: "وكان أبوه أبو بكر عبد الله من أهل العلم، وولي خطة الردّ بقرطبة، وله مكانة من المنصور"[3]، وكانت وفاته بكركي، وهي حصن من أعمال أوريط (مدينة بالأندلس)[4]، في غزاة الصائفة الكائنة في صدر رمضان سنة 370هـ - 980م، ودفن بقرطبة[5].

* أبو العباس أحمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان الذي كان بخطة الردّ قبل أن يوليه المنصور محمد بن أبي عامر قضاء الجماعة سنة 392هـ[6].

* أبو حاتم محمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان الذي ولاّه المظفر عبد الملك بن محمد بن أبي عامر خطّة المظالم حين كان أخوه قاضيا للجماعة بقرطبة[7]، ويؤكد ذلك ابن بشكوال حيث يقول عنه إنه: "تولى أحكام المظالم في قرطبة"[8].

نظرا لعلاقتها الوطيدة بوظيفة القضاء، نلاحظ أن خطة الردّ قد تولاّها أفراد ينتمون إلى ثلاثة بيوتات بربرية تقلد أحد أعضائها قضاء الجماعة بقرطبة، وبالتالي صار بإمكانهم بحكم المنصب الذي كانوا يحتلونه أن يساهموا في تعيين أفراد من أسرهم

---

(1) القاضي عياض - ترتيب المدارك - ج 2 ص 253.
(2) نفسه - ج1 ص405/ السيوطي - بغية الوعاة - ج2 ص65.
(3) القاضي عياض - ترتيب المدارك - ج 2 ص 253.
(4) ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج4 ص263/ عبد المنعم الحميري - ص 33.
(5) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج1 ص405/ السيوطي - نفس المصدر - ج2 ص65.
(6) ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج1 ص 37 - 38.
(7) القاضي عياض - ترتيب المدارك - ج2 ص256.
(8) ابن بشكوال - نفس المصدر - ج2 ص 477.

في مناصب لها ارتباط مباشر بالقضاء.

ومن أجل مساعدة القاضي في تأدية مهامه على أحسن وجه، كان يتم تعيين عدد من الفقهاء إلى جانبه، وتتمثل مهمة هؤلاء الفقهاء في تقديم المشورة والفتوى كتابة للقاضي، ويقوم الخليفة بتعيين هؤلاء المشاورين، ويتراوح عددهم ما بين عضوين وأربعة أعضاء، وعن القائمين بهذه المهمة يقول ابن عبدون: "ويجب أن يجلس معه من الفقهاء كل يوم اثنان بدولة لتقع المشورة فيكون ذلك بالناس أرفق، وللحكم أنفذ وأصدق، ويطلع القاضي في أمورهما ما يستحسنه أو ينكره، ولا يكون الفقهاء المشاورون أكثر من أربعة"[1].

وقد أخذ المرابطون بهذا النظام حيث كان علي بن يوسف بن تاشفين "إذا ولى أحدا من قضاته، كان فيما يعهد إليه ألاّ يقطع أمرا، ولا يبت حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلاّ بمحضر أربعة من الفقهاء"[2]

وقد تولى عدد من البربر هذه الوظيفة، وهم:

* أبو عبد الله يحيى بن عبيد الله بن يحيى بن يحيى الليثي، وكان يشاور مع أبيه ويستفتى، وكانت وفاته سنة 303هـ - 916م[3].

* أبو علي حسن بن سعد بن إدريس بن رزين بن كسيلة الكتامي، من أهل قرطبة، الذي كان يذهب إلى النظر وترك التقليد، ويميل إلى قول محمد بن إدريس الشافعي، وكان يحضر الشورى، وعند ما رأى الفتيا دائرة على مذهب المالكيين ترك شهودها، ولزم بيته إلى أن توفي سنة 332هـ - 944م[4].

ويعني ذلك أن كل المذاهب الفقهية كانت ممثلة في هيئة الشورى، ويمثل علي بن حسن هنا المذهب الشافعي إلاّ أن المذهب الرسمي في بلاد الأندلس هو المذهب المالكي، ومن ثمّ فإن الفتوى كانت تصدر على أساسه، وهو الأمر الذي يفسر

(1) ابن عبدون التجيبي - نفس المصدر - ص 9.

(2) عبد الواحد المراكشي - المعجب في تلخيص أخبار المغرب - ص 253.

(3) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج2 ص 910.

(4) نفسه - ج 1 ص 201.

لنا انسحاب هذا الفقيه من وظيفة المشاورة واعتزاله لها.

* أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن محمد الأصيلي الذي قدم إلى قرطبة سنة 342هـ - 953م طلبا للعلم، ثم رحل إلى المشرق، ودخل بغداد سنة 351هـ - 962م حيث سمع من أبي بكر الشافعي وأبي علي الصوّاف، ثم عاد إلى الأندلس في آخر أيام الخليفة المستنصر بالله؛ فشوور، وكانت وفاته في ذي الحجة من سنة 392هـ - 1002م[1].

* محمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان الذي تولّى الشورى بقرطبة مجموعة له إلى قضاء فرّيش كما ذكرنا سابقا[2].

* أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن يحيى بن يحيى بن يحيى الليثي الذي شاوره قاضي الجماعة أحمد بن بقي بن مخلد[3]، وذلك قبل أن يتولى قضاء الجماعة بقرطبة سنة 326هـ[4].

* أبو إسماعيل يحيى بن إسحاق بن يحيى بن يحيى الليثي، وكان مشاورا في الأحكام، وقد توفي سنة 303هـ - 916م[5].

وتولى البربر أيضا وظيفة الحسبة، ومنهم:

* إسماعيل بن زيد، وهو زوج أخت قاضي الجماعة أبي العباس أحمد وأبي حاتم ابني ذكوان، وهو "أحد وجوه قرطبة المتقدمين في الشعر والعربية، وولي أحكام السوق بها في أيام الخليفة الحكم المستنصر بالله"[6].

---

(1) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج1 ص 426 - 427.

(2) ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج 2 ص 477.

(3) ولي القضاء سنة 314هـ/927م للناصر عبد الرحمن الذي كان عارفا بحقه ومجلاّ له؛ فلم يعزله ولا كره شيئا من حاله إلى أن توفي سنة 324هـ/936م - النباهي - تاريخ قضاة الأندلس - ص 86 - 87.

(4) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 2 ص718 - 719/ الضبي - بغية الملتمس - ص 148.

(5) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 2 ص 910.

(6) صاعد الأندلسي - كتاب طبقات الأمم - مطبعة السعادة - القاهرة - د. ت - ص106.

* أبو بكر إسماعيل بن بدر بن إسماعيل بن زياد، من أهل قرطبة، وقد ولي أحكام السوق؛ فحمد أمره فيها، وكانت وفاته في أول خلافة الحكم المستنصر بالله، وذلك سنة 351هـ - 962م[1].

العوامل المتحكمة في تولي البربر للوظائف الإدارية والقضائية: بعد استعراضنا لأهم الوظائف التي تولاّها البربر في المجال الإداري بالعدوة الأندلسية يمكن ملاحظة قلة عدد الذين تولوا هذه الوظائف قبل القرن الرابع الهجري، أي خلال عهد الإمارة، مقارنة بالفترة التالية له أي عهد الخلافة الذي يمثل أوج المشاركة البربرية في الوظائف الإدارية.

وإذا كان عدد البربر الذين تم توظيفهم خلال الفترة السابقة لسنة 300هـ (912 م) لا يتجاوز خمسة عشر فردا، فإن عددهم قد تضاعف حوالي أربع مرّات خلال القرن الرابع الهجري، مع ملاحظة الفارق الزمني الكبير بين كل من الفترتين (162سنة مقابل قرن من الزمن).

لقد تميزت هذه الفترة بقلة عدد المغاربة الذين تقلدوا مناصب إدارية أو قضائية، حيث لم يتجاوز عددهم الخمسة عشر فردا، وعلى العكس من ذلك فقد تميز القرن الرابع الهجري بالزيادة الكبيرة في عدد الأندلسيين ذوي الأصول البربرية الذين تم توظيفهم في الجهاز الإداري والقضائي للدولة الأموية.

لقد بلغ عدد البربر الذين وظفوا من قبل حكام بني أمية خلال الفترة الممتدة من سنة 300هـ (912م) إلى سنة 399هـ (1008م) في الإدارة الأندلسية سبعة وخمسين مغربيا، ويتوزعون على الشكل التالي:

- منصب الحجابة وتولاه بربري واحد، ومنصب الوزارة وتولاه سبعة مغاربة.
- وظيفة الكتابة وتولاها خمسة أفراد.
- الخطط الأخرى وتولاها 27 بربريا.
- ولاية الكور وتولاها 17 بربريا.

(1) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 1 ص 133.

أما بالنسبة لوظائف القضاء فقد بلغ عدد البربر الذين تقلدوا مختلف أنواعها ثلاثون مغربيا، منهم ثلاثة تولوا قضاء الجماعة، وهو أعلى وظائف القضاء.

إن هذا العدد الكبير من البربر الذين وظفوا في إدارة وقضاء العدوة الأندلسية خلال هذه المدة القصيرة من الزمن مقارنة بالفترة السابقة لهذا القرن الرابع الهجري تدل بوضوح على ازدياد أهمية المغاربة، وارتفاع مستواهم العلمي، إضافة إلى أسباب أخرى سنذكرها لاحقا، وهو الأمر الذي أهّلهم لارتقاء المناصب الإدارية والقضائية المختلفة، ومع ذلك فإن هذا العدد ورغم ضخامته مقارنة بما سبقه إلاّ أنه يبقى قليلا إذا ما قارناه بعدد العرب الذين تولوا المناصب الإدارية والقضائية في بلاد الأندلس، وقد سبق أن أوردنا مثالا عن الولاة ولاحظنا الفرق الكبير جدا بين عدد الولاة العرب ونظرائهم من المغاربة، ونفس الأمر ينطبق على بقية الوظائف وهو ما يعكس السيطرة السياسية التي مارستها الأسر العربية على غيرها من الأسر والبيوتات المكونة للمجتمع الأندلسي.

ما يمكن ملاحظته أيضا على المشاركة البربرية في الوظائف الإدارية والقضائية هو الإحتكار الذي فرضته بعض البيوتات على المناصب العليا، ومن ذلك احتكار بيت بني الزجّالي للوظائف السياسية في الأندلس خلال القرن الثالث الهجري وبداية القرن الرابع الهجري، وبيت بني المصحفي الذين سيطروا على معظم الوظائف السياسية والإدارية خلال عهد الحكم المستنصر بالله وبداية عهد ابنه هشام المؤيد بالله قبل أن يتمكن محمد بن أبي عامر من القضاء على نفوذهم، وبيت بني وانسوس الذين احتكروا العمل السياسي خلال عهد الناصر، وتنطبق نفس الملاحظة على الوظائف القضائية التي تميزت ببروز بيت بني يحيى بن يحيى الليثي وسيطرتهم على جزء كبير من المناصب القضائية خلال القرن الثالث الهجري وبداية القرن الرابع الهجري، وتوجت بارتقاء أبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بابن أبي عيسى إلى منصب قضاء الجماعة.

الملاحظة الأخرى التي نخرج بها من خلال استعراض المشاركة البربرية في الإدارة الأندلسية هو انتماء أغلب الإداريين ذوي الأصول المغربية إلى قبيلة زناتة،

وهوما يدل على انتماء أغلب البربر المتواجدين بالأندلس إلى هذه القبيلة البترية؛ فأبرز الذين تولوا وظائف سياسية وإدارية ينتمون إلى مغيلة ومديونة ومكناسة، وكلها من بطون زناتة؛ فبنو الزجّالي من ولهاصة[1]، وبنو وانسوس ينتمون إلى مكناسة[2]، وبنو إلياس ينتمون إلى مغيلة[3]، وينتمي بنو الخرّوبي إلى قبيلة زناتة[4].

وينطبق نفس الأمر على الوظائف القضائية التي احتكر جزءا هاما منها بيت بني يحيى الليثي، وينتمون إلى زانا وهو أبو زناتة[5].

إن الملاحظة الكبرى التي نخرج بها من خلال ما سبق ذكره هو ازدياد عدد البربر الموظفين في الأعمال الإدارية والقضائية خلال القرن الرابع الهجري وبشكل كبير؛ فما هي العوامل التي أدّت إلى ذلك؟ وما هي العوائق التي جعلت عددهم قليلا بالمقارنة مع غيرهم من عناصر المجتمع الأندلسي وبخاصة منهم العرب؟

عوامل ضعف المشاركة البربرية في إدارة وقضاء الأندلس:

1 - إحتكار العرب وهيمنتهم على الجهاز الإداري والقضائي: فرض العرب منذ نجاح المسلمين في فتح بلاد الأندلس سيطرة شبه كلية على جميع الوظائف الإدارية والقضائية، من ذلك أن كل الولاة الذين تداولوا على حكم ولاية الأندلس في الفترة الممتدة بين سنة 95هـ - 714م، وسنة 138هـ - 755م كانوا من أصول عربية، ولم يتغير الوضع كثيرا بعد سنة 138هـ، وهي سنة قيام الإمارة الأموية بقيادة عبد الرحمن بن معاوية.

وخلال عهد هذه الدولة، كانت جلّ المناصب الإدارية والقضائية، وبخاصة منها الوظائف العليا حكرا على البيوتات العربية رغم وجود نزاعات مستمرة بين فروعها المختلفة على هذه الوظائف، وبخاصة بين القيسية والمضرية، ومع ذلك فإن

(1) ابن حزم - جمهرة أنساب العرب - ص 500 / مجهول - مفاخر البربر - ص 267.
(2) نفسه - ص 499 / نفسه - ص 266.
(3) نفسه - ص 499 / نفسه - ص 266.
(4) نفسه - ص 499 / نفسه - ص 265.
(5) نفسه - ص 499 / نفسه - ص 265.

هذه النزاعات لم تؤثر في ظاهرة الإحتكار الذي فرضه العرب على هذه الوظائف.

استمر حكم بني أمية للأندلس إلى غاية الإعلان عن إنهاء الخلافة سنة 422هـ - 1031م، وقد تخللته فترات غاب أو غُيّب فيها حكم الأمويين؛ فخلال عهد الأمير عبد الله بن محمد غاب الحكم الأموي، وتقاسم الثوار الكور والثغور الأندلسية طيلة فترة حكمه الطويلة (275 - 300هـ/888 - 912م)، أما في عهد هشام المؤيد بالله فقد غُيّب الحكم الأموي بفعل استبداد المنصور محمد بن أبي عامر اليمني بالسلطة في غياب خليفة قوي يفرض سلطة الأمويين، واستمرّ الإستبداد العامري إلى غاية قيام فتنة القرن الخامس الهجري بداية من سنة 399هـ - 1008م، حيث حاول الأمويون استرداد سلطتهم المغتصبة، ولكنهم عوضا عن ذلك أدخلوا العدوة الأندلسية في أزمة سياسية عقب الإنقلاب الذي قام محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ضد هشام المؤيد الخليفة الأموي سنة 399هـ - 1008م، وسوء معاملته لأحد أهم عناصر المجتمع الأندلسي، وهم البربر، ونتيجة لذلك عصفت هذه الأزمة بكل المنجزات التي تمّ تحقيقها خلال عهد الحكام السابقين، وبخاصة منهم عبد الرحمن الناصر لدين الله.

على الرغم من كل هذه التطورات التي شهدتها بلاد الأندلس، بقيت مقاليد الحكم في يد العرب سواء كانوا من المضريين أو من القيسيين أو من اليمنيين أو من الأدارسة الحموديين الذين استولوا على منصب الخلافة خلال زمن الفتنة (407 - 414هـ/1016 - 1023م) والذين يحاول بعض المؤرخين اعتبارهم كبربر بحكم استقرارهم الطويل ببلاد المغرب وتأثرهم بهم، وبخاصة من الجانب اللغوي، ومن ذلك أن حسين مؤنس يقول عنهم: "وقد ظهر من بين أولئك الصنهاجيين بيت يسمى بني حمود، ينتسبون إلى الأدارسة، ولكنهم كانوا قد اندرجوا في جملة البربر بعد نهاية الأدارسة"[1]، ويذهب عبادة كحيلة في نفس الاتجاه حيث يقول: إن "بني حمود وهم من الأدارسة يعدّون في جملة البربر"، ثم يناقض نفسه بعد ذلك حين يقول: "إنهم

---

(1) حسين مؤنس - معالم تاريخ المغرب والأندلس - دار الرشاد - القاهرة - ط3 - 1420هـ - 1999م - ص413.

علويون هاشميون"[1].

مما لا شك فيه أن هؤلاء الحموديين ينتمون إلى الأدارسة، وبالتالي فهم أحفاد إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه[2]، ومن ثم فهم من بني هاشم - أحد فروع البيوتات العربية الكبرى -، ومما يؤكد عدم انصهارهم في المجتمع البربري الموقف الذي اتخذه أول الحموديين الواصلين إلى سدّة الخلافة بقرطبة، وهو على بن حمود الذي ولي سنة 407هـ - 1016م، ولما صارت الخلافة إليه "قهر البرابرة حتى صار أقل الرعية يرفع أعيانهم إلى الحكّام بما شاء من وجوه الدعاوى، فتجري عليهم الأحكام"[3].

بقيت العناصر الاجتماعية الأخرى المكونة للمجتمع الأندلسي مقصاة من الحكم، ومن بينها العناصر المغربية التي ساهمت كما يتفق على ذلك جلّ المؤرخين، وبقسط كبير في فتح الأندلس، وفي حماية ثغور المسلمين من اعتداءات النصارى فيما بعد.

تحكم العرب بمختلف عناصرهم في مقاليد الحكم، ومن ثمّ فقد جعلوا الوظائف السياسية والإدارية والقضائية حكرا على أبناء جلدتهم، وقد أوصلتهم هذه الرغبة الجامحة في السيطرة على مقاليد الحكم بجميع فروعه إلى معارضة تولي أي عنصر أجنبي عنهم لهذه المناصب، وفي حالة وصول أي عنصر غير عربي؛ فإنهم كانوا يبذلون قصارى جهدهم من أجل عزله عن منصبه، وإبعاده عن مركز القيادة والنفوذ.

إن المصادر التاريخية تحمل في ثنايا صفحاتها الكثير من الإشارات التي تؤكد ذلك، ومنها ما أورده الخشني عند كلامه عن القاضي أبي عبد الله عمرو بن عبد الله الذي ولاّه الأمير محمد بن عبد الرحمن (238 - 273هـ) قضاء الجماعة بقرطبة سنة 250هـ - 874م، وكان مولى لأبيه عبد الرحمن حيث قال: "وهو أول من ولي قضاء

(1) عبادة كحيلة - المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب - المطبعة الإسلامية الحديثة - القاهرة - 1418هـ - 1997م - ص233.

(2) مجهول - مفاخر البربر - ص286.

(3) ابن عذاري - البيان المغرب - ج3 ص121/ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ج2 ص129.

الجماعة للخلفاء من الموالي؛ فشقّ ذلك على العرب، وتأثروا منه، وتكلموا فيه"، وعند ما بلغ الأمير ذلك قال: "وجدت فيه ما لم أجد فيهم"، ومع ذلك فإنهم استمروا على رأيهم في رفضه، وقالوا: "أما القضاء فإنا لا نعترض فيه لأنه من سلطانه، وأما الصلاة فإنا لا نصلي وراءه"، واستجاب الأمير لرغبتهم مرغما فلم يوله على الصلاة[1].

ومنها أيضا قول الزبيدي عند حديثه عن أبي موسى الهواري: "وكانت الخلفاء رضى الله عنهم لا يقدمون للصلاة إلاّ العرب"[2].

ومنها أيضا ما أورده ابن عذاري عند كلامه عن جعفر بن عثمان المصحفي، حاجب هشام المؤيد في بداية حكمه حيث يقول: "فلما أحظى المستنصر بالله جعفر بن عثمان المصحفي، واصطنعه ووضعه من أثرته حيث وضعه"، حسده العرب، وبخاصة ليوث الوزراء منهم وذمّوه"، وكان أسرع هذه الطائفة إلى مهاودة المنصور عليه، والانحراف عنه إليه آل أبي عبدة وآل شهيد وآل جهور وآل فطيس، وكانوا في هذا الوقت أزّمة الملك وقوّام الخدمة، ومصابيح الأمّة"[3]، وقد ساعدت هذه البيوتات العربية محمد بن أبي عامر اليمني في التخلص من الحاجب البربري سنة 372هـ - 982م.

إن هذه الإشارات كلها تدل بوضوح على أن العرب كانوا يعتبرون الوظائف العليا حكرا عليهم، ولذلك فهم أول من يعمل على عزل أي فرد خارج عنهم تولى إحدى المناصب الهامة في الدولة التي كانوا يعتبرونها ملكا لهم، وهو الأمر الذي جعل عدد الذين تولوا هذه المناصب من غير العرب قليل جدا.

2 - عوامل ذاتية تتعلق بالبربر ومنها:

أ - ميلهم إلى العزلة والإستقلال: ويدل على ذلك كثرة الثورات وحركات المعارضة التي قام بها البربر أو شاركوا فيها، وبخاصة قبل تولي عبد الرحمن الناصر

---

(1) أبو عبد الله الخشني - قضاة قرطبة وعلماء إفريقية - ص101.

(2) الزبيدي أبوبكر - طبقات النحويين واللغويين - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف - القاهرة - ط2 - 1973م - ص254.

(3) ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص271 - 272.

للحكم؛ ففي عهد الإمارة فقط أي من سنة 138هـ (755م) إلى سنة 316هـ (928م)، أحصى أحد المؤرخين ثلاثا وعشرين ثورة قام بها المغاربة أوكانوا طرفا فيها، وبخاصة منها الحركات التي قام بها العرب فيما بينهم، واعتمدوا فيها على العناصر البربرية[1].

ويمكن تصنيف الثورات التي قام بها البربر إلى ثلاثة أنواع من حيث الأسباب والدوافع؛ فهناك ثورات انفصالية تطلع البربر من خلالها إلى الاستقلال عن الحكم المركزي، وقد اعتمدت على مذهب معارض للأمويين، ومن أبرز الأمثلة على ذلك ثورة البربر سنة 123هـ - 741م التي تعتبر امتدادا لثورة إخوانهم بالعدوة المغربية بزعامة ميسرة المطغري الصفري الخارجي[2]، وثورة شقيا بن عبد الواحد المكناسي الذي تنعته المصادر بالفاطمي[3]، ويعتبرها أحد المؤرخين المعاصرين أول محاولة لإقامة دولة شيعية بالمغرب الإسلامي"[4]، وقد سبق الحديث عن هاتين الثورتين في الفصل الأول.

وهناك ثورات قام بها البربر كما قام بها غيرهم احتجاجا على ثقل الجباية، والانتصار للعصبية القبلية، ومن الأمثلة عليها ثورة ابراهيم بن شجرة بمورور سنة 163هـ781م[5]، وثورة أصبغ بن عبد الله بن وانسوس المكناسي بماردة سنة 190هـ - 806م[6]، وثورة محمود بن عبد الجبار المصمودي بماردة أيضا سنة 213هـ - 828م[7].

أما ثالث وآخر نوع من هذه الثورات أو حركات المعارضة؛ فهي ثورات

(1) حمدي عبد المنعم محمد - ثورات البربر في الأندلس في عصر الإمارة الأموية - مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية - 1993م.

(2) مجهول - أخبار مجموعة - صص 114 - 116/ مجهول - فتح الأندلس - ص 52.

(3) ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص54/ مجهول - أخبار مجموعة - ص152 - 153/ مجهول - فتح الأندلس - ص 102.

(4) أحمد مختار العبادي - في التاريخ العباسي والأندلسي - ص 315.

(5) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 56.

(6) نفسه - ج 2 ص 72.

(7) النويري - نهاية الأرب في فنون الأدب - ص 95 - 96.

الحلف، وهي التي قام بها البربر لارتباطهم بحلف مع طرف آخر أو من أجل تحقيق مصلحة مشتركة، ومن ذلك ثورتهم مع عبد الرحمن بن يوسف الفهري سنة 141هـ - 759م[1]، وثورتهم مع أحمد بن معاوية الأموي المعروف بابن القط سنة 288هـ - 901م[2]، وقد سبق الكلام عنها.

كان البربر في بلاد الأندلس يفضلون العزلة وعدم الإختلاط ببقية العناصر المكونة للمجتمع الأندلسي، ويؤكد ذلك ابن الفرضي عند ما يورد لنا ترجمة لأحد علماء الأندلس فيقول متحدثا عنه: "عيشون بن إسحاق بن عيشون السمطي، من أهل إستجة، من ساكني باديتها وسط قبيلة من قبائل البربر"[3].

إن التعبير الذي استعمله ابن الفرضي لا يدع مجالا للشك في كون هؤلاء المغاربة قد اختاروا البادية ليكونوا بعيدين عن غيرهم إلى درجة أن هذا العالم أصبح وحيدا وسط أفراد هذه القبيلة.

ب - أنفة وكبرياء البربر: كان المغاربة يتميزون بصفات تتعارض مع الأخلاقيات المطلوبة فيمن يتولى الوظائف التابعة للدولة، وبخاصة منها الأنفة والكبرياء، وأبرز مثال يؤكد لنا ذلك هو ما حدث لوزير الأمير عبد الله بن محمد ذي الأصل البربري، ويتعلق الأمر بالوزير سليمان بن وانسوس.

كان هذا الوزير رجلا جليلا، أديبا من رؤساء البربر، وفي يوم من الأيام دخل على الأمير عبد الله بن محمد، وكان هذا البربري عظيم اللحية، فلما رآه الأمير مقبلا أنشد أبياتا شعرية قال فيها:

هلَّوْفَةٌ[4] كَأَنَّهَا جَوَالِقُ ... نَكْرَاءَ لاَ بَارَكَ فِيهَا الخَالِقُ

لِلْقَمْلِ فِي حَافَاتِهَا نَفَائِقُ ... فِيهَا لِبَاغِي المُتَكَّا مَرَافِقُ

---

(1) مجهول - أخبار مجموعة - ص 146/ ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص49.

(2) ابن حيان القرطبي - المقتبس - تحقيق إسماعيل العربي - صص155 - 157.

(3) ابن الفرضي - تاريخ علماء الأندلس - ج 2 ص 568.

(4) الهلّوفة أو الهلّوف: اللحية الضخمة كثيرة الشعر - المنجد في اللغة والأعلام - دار المشرق - بيروت - ط31 - 1991م - ص871.

وَفي احْتدَام الصَّيْف ظِلٌّ رَائِقُ إنَّ الَّـــذي يَحْملُهَـــا لَمَائِـــقُ

ثم قال له: "إجلس يابربيري!"؛ فجلس وقد غضب، ثم قال: "أيها الأمير، إنما كان الناس يرغبون في هذه المنزلة ليدفعوا على أنفسهم الضّيم، وأما إذا صارت جالبة للذّل، فلنا دور تسعنا وتغننا عنكم، فإن حلتم بيننا وبينها، فلنا قبور تسعنا، لا تقدرون على أن تحولوا بيننا وبينها"، ثم وضع يديه في الأرض، وقام من غير أن يسلم، ونهض إلى منزله، وكانت النتيجة أن "غضب الأمير وأمر بعزله"، وبعد مدة زمنية قصيرة"، وجد الأمير فقده لغنائه وأمانته ونصيحته وفضل رأيه"، ولم يكتم ذلك في صدره بل باح بما كان يعاني منه؛ "فقال للوزراء: لقد وجدت لفقد سليمان تأثيرا"، ولكنه لا يستطيع نظرا للمنصب الذي يحتله أن يبادر بالإرسال إليه في ذلك، ولمّح لوزرائه بأن يقوم هو أي سليمان بن وانسوس بذلك، وتطوّع أحد الوزراء للاتصال به وإبلاغه بذلك، ومن ثمّ إقناعه بالعودة إلى منصبه".

"نهض ابن غانم الوزير إلى دار ابن وانسوس فاستأذن...فأبطأ الإذن له؛ فدخل عليه فوجده قاعدا؛ فلم يتزحزح له ولا قام إليه؛ فقال له ابن غانم: ما هذا الكبر؟ عهدي بك وأنت وزير السلطان، وفي أبّهة رضاه تتلقاني على قدم، وتتزحزح لي عن صدر مجلسك، فقال له: نعم لأني كنت حينئذ عبدا مثلك وأنا اليوم حرّ".

إن هذه القصة تثبت بما لا يدع مجالا للشك أن بعض البربر، وبخاصة منهم الذين تولوا وظائف عليا كانوا يرفضون التعرض إلى الإذلال والإهانة والخضوع للغير حتى ولوكان ذلك الغير هو حاكم الدولة، وذلك ما نستشفه من جواب سليمان بن وانسوس على تساؤلات ابن غانم الوزير؛ فهو يعتبر نفسه في ظل العبودية عندما كان وزيرا، بينما يرى نفسه حرّا بعد تخليه عن الوزارة، وهذا في الوقت الذي كان فيه آخرون يسعون بكل ما أوتوا من قوة من أجل الفوز بإحدى الوظائف وبخاصة العليا منها، وقد أتت السياسة التي اتبعها الوزير البربري أكلها بعد حين إذ "ابتدأ الأمير بالإرسال إليه، وردّه إلى أفضل ما كان عليه"[1].

---

(1) الحميدي - جذوة المقتبس - ص198 - 199/ابن الأبار - الحلة السيراء - ج1 - ص 123 - 124.

ج - ضعف المستوى الثقافي للبربر: إن تولي الوظائف الإدارية والقضائية يتطلب مستوى ثقافيا عاليا يساعد صاحبه على القيام بأعباء المهمة المنوطة به على أحسن وجه، وعند تصفحنا لكتب التراجم وغيرها نلاحظ أن عدد البربر ذوي المستوى الثقافي العالي قليل جدا قبل منتصف القرن الثالث الهجري (9م)، وهو الأمر الذي يفسر قلة عدد المغاربة الذي تولوا مناصب إدارية أو قضائية خلال هذه الفترة، وسنعود بالتفصيل إلى مكانة البربر العلمية عند تطرقنا لاحقا إلى هذا الموضوع.

بعد استعراضنا لأهم العوامل التي أدت إلى ضعف المشاركة البربرية في الإدارة والقضاء الأندلسي، سنحاول التعرف فيما يلي على العوامل التي أدّت إلى ارتفاع عدد البربر الذين تولوا مناصب إدارية وقضائية هامة، وبخاصة خلال القرن الرابع الهجري (10م).

1 - عامل الولاء: سمح عامل الولاء بإلحاق البربر بالبيوتات العربية، وكان أكثر الموالي بالأندلس من المغاربة الذين دخلوا في ولاء بني أمية أو عُمّالهم، وعلى عكس بلاد المشرق التي كان المولى فيها في وضع اجتماعي أدنى من وضع الحرّ، فقد كان الولاء في العدوة الأندلسية شارة امتياز، ذلك أن أغلب الموالي كانوا في مركز اجتماعي لا يقل في شيء عن مركز الأحرار إلى درجة أن الوظائف الإدارية والقضائية الكبرى أصبحت مقصورة عليهم، ويعود سبب ذلك إلى حرص بني أمية، حكام الأندلس، على الاحتفاظ بولاء بيوتات الموالي، وذلك من خلال إعطائهم مكانا ممتازا في الإدارة والمجتمع[1].

إلى جانب بيوتات موالي بني أمية ذات الأصول المشرقية، كانت هناك بيوتات من الموالي ذات الأصول البربرية، ومن أبرزها بيت بني الزجّالي الذي ينسب إلى محمد بن سعيد الزجّالي الذي اصطنعه عبد الرحمن بن الحكم[2]، وبيت بني يحيى بن

(1) حسين مؤنس - فجر الأندلس - ص 397 - 408.

(2) ابن حيان - المقتبس - ج 2 ص 32.

يحيى بن كثير بن وسلاس، وكان جدهم يتولى بني الليث[1]، وبيت بني وانسوس بن أصبغ الذي كان مولى لسليمان بن عبد الملك[2]، وبيت بني ذكوان الأموي[3]، وبيت عثمان المصحفي، وينتمي إلى قيس بالمحالفة[4].

من خلال هذه النماذج من البيوتات البربرية، والتي لعبت دورا هاما في إدارة وتسيير شؤون الأندلس كما عرفنا سابقا يتبين دور الولاء في ترقية هذه العائلات إلى المكانة السياسية والاجتماعية الهامة التي احتلتها في هرم المجتمع الأندلسي.

ب - ضعف العصبية العربية خلال اضطرابات نهاية القرن الثالث الهجري (9م): حيث انتزى العرب في الكثير من الكور، وهو الأمر الذي جعل حكام بني أمية في حاجة إلى من يقف بجانبهم في مواجهة الثائرين ضدّهم من العرب والمولدين، وكان البربر من جملة العناصر الاجتماعية التي اعتمد عليها بنو أمية؛ وبخاصة في عهد عبد الرحمن الناصر، كما أن اعتماد الحكم المستنصر بالله في آخر عهده عليهم، والمنصور بن أبي عامر في تدعيم مركزه على هرم السلطة بالعدوة الأندلسية مكّن البربر من الاستفادة كثيرا من الامتيازات التي منحها الحكام لكل من كان يقف إلى جانبهم إلى درجة جعلت مؤسس الخلافة الأموية ببلاد الأندلس يتخلى نهائيا عن الإعتماد على البيوتات العربية، وذلك عقب موقعة الخندق (327هـ - 936م) التي وجّه أصابع الاتهام فيها إلى العرب، وبخاصة قادة الجيش في كونهم سبب الهزيمة النكراء التي مني بها المسلمون في هذه المعركة.

ج - إرتفاع المستوى الثقافي للبربر: إرتفع المستوى الثقافي للبربر بداية من منتصف القرن الثالث الهجري (منتصف 9م)، ويدلنا على ذلك العدد الكبير من المغاربة الذين نبغوا في جلّ العلوم، وهذا التطور في المستوى الثقافي هو الذي جعل حكام قرطبة يعتمدون على البربر في الوظائف العليا الإدارية والقضائية، ومن خلال

(1) ابن الفرضي - تاريخ علماء الأندلس - ج 2 ص 898.

(2) ابن الأبّار - الحلة السيراء - ج 1 ص 160.

(3) نفسه - ج 1 ص 37.

(4) نفسه - ج 1 ص 257.

تصفح ما كتبناه عند كلامنا عن الذين وظفوا من المغاربة نجد أنهم كانوا كلهم ذوي مستوى ثقافي رفيع، وفي كافة أنواع العلوم وبخاصة التي تتطلبها الوظائف التي أوكلت إليهم، وعلى سبيل المثال لا الحصر، فأبو عبد الله محمد بن عبد الله الليثي القاضي كان "حافظا للرأي، معتنيا بالآثار، جامعا للسنن، متصرفا في علم الإعراب"[1]، ومنذر بن سعيد البلوطي القاضي "كان عالما فقيها وأديبا بليغا، وخطيبا على المنابر وفي المحافل مصقعا"[2]، كما "كان متضلعا في علوم مختلفة"[3]، والكاتب أبو عمر أحمد بن درّاج القسطلي الذي "كان معدود في جملة العلماء والمقدمين من الشعراء والمذكورين من البلغاء، وله طريقة في البلاغة والرسائل يستدل بها على اتساعه وقوته"[4].

وسنعود إلى هذا الموضوع بأكثر تفصيل عند تطرقنا إلى المشاركة البربرية في الحياة الثقافية والعلمية بالعدوة الأندلسية.

بعد استعراضنا لموضوع البربر في الجيش الأندلسي، والمكانة التي احتلوها في صفوفه نخلص إلى أن البربر قد لعبوا دورا كبيرا في فتح بلاد الأندلس والحاقها بدار الإسلام، كما ساهموا بقسط كبير في قيام الإمارة الأموية حيث كان قسم كبير من المغاربة المتواجدين بالعدوة الأندلسية في مقدمة صفوف المؤيدين لمؤسس هذه الإمارة.

إضافة إلى ما سبق ذكره، أصبح البربر عماد الجيش الأندلسي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وبخاصة في عهد المنصور محمد بن أبي عامر الذي زاد فيه الإعتماد على المغاربة، وهو ما أدى إلى انتقال أعداد كبيرة منهم إلى الضفة الشمالية للبحر المتوسط الشامي، وقد تمكن أحد البربر من الوصول إلى تولي القيادة العليا لهذا الجيش.

إضافة إلى دورهم العسكري، لعب البربر دورا هاما في تسيير الجهازين

---

(1) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 2 ص 718.

(2) الحميدي - جذوة المقتبس - ص 315.

(3) ابن الحسن النباهي - تاريخ قضاة الأندلس - ص 315.

(4) الضبي - بغية الملتمس - ص 136 / ابن الأبّار - كتاب الصلة - ج 1 ص 44.

الإداري والقضائي للأندلس، وإذا كانت مشاركتهم في ذلك ضعيفة قبل سنة 300هـ - 912م بسبب احتكار العرب للسلطة، ومن ثمّ هيمنتهم على إدارة وقضاء الأندلس، وإبعاد بقية عناصر المجتمع الأندلسي عنها، وتفضيل كثير من البربر للعزلة وعدم الاختلاط ببقية الأندلسيين؛ فإنها بلغت الذروة خلال القرن الرابع الهجري حيث تمكنت بعض البيوتات البربرية من احتكار كثير من المناصب الإدارية والقضائية التي كانت فيما سبق محصورة في البيوتات العربية، وقد ساعد على ذلك جملة من العوامل منها ارتفاع المستوى الثقافي للبربر، وضعف العصبية العربية خلال هذا القرن بفعل السياسة التي انتهجها عبد الرحمن الناصر ومحمد بن أبي عامر، والتي أدت إلى ازدياد الإعتماد على بقية العناصر ومنها العنصر البربري، وبخاصة في عهد الحكم المستنصر والمنصور بن أبي عامر، إضافة إلى العامل الهام المتمثل في الولاء الذي سمح لكثير من البيوتات البربرية بالإستفادة من الامتيازات التي كان يتمتع بها العرب ومنها المشاركة في تولي الوظائف الإدارية والقضائية الهامة في العدوة الأندلسية.

الفصل الثالث

مساهمة البربر في الحركة العلمية والثقافية، ومكانتهم الاجتماعية في الأندلس

1 - المساهمة البربرية في الحركة العلمية والثقافية.

2 - المكانة الاقتصادية والاجتماعية للبربر في الأندلس.

تمهيد

كان للبربر المستقرين بالعدوة الأندلسية دور هام في الحركة العلمية التي عاشها هذا الجزء من العالم الإسلامي، وبخاصة خلال القرن الرابع الهجري، وتجلى ذلك في بروز الكثير من المغاربة في مجالات شتى، وبذلك ساهموا إلى جانب العناصر الأخرى المكونة للمجتمع الأندلسي في التطور الثقافي والعلمي الذي شهدته الأندلس، وبفضل كتب التراجم خاصة والمصادر الأخرى - تاريخية وأدبية - عامة أمكننا التعرف على العديد من هؤلاء العلماء المغاربة.

لقد أولت كتب التراجم عناية كبرى للدور الذي قام به العلماء ذوي الأصول البربرية في الإزدهار الثقافي والعلمي الذي عرفته الأندلس، وتجلى ذلك في إيرادها لتراجم هؤلاء العلماء، ومع ذلك نعتقد جازمين أنها لم تذكر كل المغاربة الذين برزوا في هذا المجال، وإن ذكرتهم فإنها لا تقدم لنا كل المعلومات المتعلقة بهم، وتكتفي بإيراد نتف مختصرة جدا عنهم، كما أن هذه المصادر[1] لا تذكر في كثير من الأحيان أصول العلماء الذين تترجم لهم، وعادة ما تكتفي بكلمة "أندلسي"، وهي كلمة عامة تنطبق على كل الذين يعيشون فوق التراب الأندلسي من المسلمين، أو بإحالتهم إلى البيوتات العربية التي يدينون لها بالولاء كقولهم يحيى بن يحيى الليثي أو أحمد بن ذكوان الأموي، وهو ما يؤدي عادة إلى الإلتباس في معرفة النسب الحقيقي لهؤلاء المغاربة لولا وجود إشارات في ثنايا صفحات المصادر التاريخية والأدبية[2]، والتي بواسطتها يمكن التعرف على أصول هؤلاء البربر.

من خلال تصفح هذه المصادر بعناية نلاحظ العدد الكبير من البربر الذين نبغوا في علوم شتى، وكان هذا النبوغ الذي ميز المغاربة، وغيرهم من عناصر المجتمع

---

(1) ابن الفرضي - تاريخ علماء الأندلس/الحميدي - جذوة المقتبس/الضبي - بغية الملتمس.

(2) ابن عذاري - البيان المغرب/ابن بشكوال - كتاب الصلة/المقري - نفح الطيب/ابن حيان - المقتبس.

الأندلسي بداية من منتصف القرن الثالث الهجري ناتجا عن عوامل متعددة ساهمت في دفع الحركة العلمية بالعدوة الأندلسية قدما.

ويؤكد ذلك صاعد الأندلسي الذي يقول إنه: "لما كان وسط المائة الثالثة من تاريخ الهجرة، تحرك أفراد من الناس إلى طلب العلوم، ولم يزالوا يظهرون ظهورا غير شائع في قريب وسط المائة الرابعة"[1].

من خلال هذا النص يبدو واضحا أن الحركة العلمية في العدوة الأندلسية لم تبدأ إذا إلاّ بداية من منتصف القرن الثالث الهجري، فما هي العوامل التي ساعدت على ذلك؟

عوامل بداية الحركة العلمية بالأندلس:

1 - تشجيع حكام قرطبة للعلم والعلماء: عمل الحكام سواء في عهد الإمارة أو في عهد الخلافة على دعم الحركة العلمية ببلاد الأندلس، ويؤكد ذلك ما تورده المصادر التاريخية والأدبية عندما تتحدث عن هؤلاء الحكام، من ذلك أن عبد الرحمن بن الحكم (206 - 238هـ) وجّه عباس بن ناصح بن يلتيت المصمودي إلى العراق "في التماس الكتب القديمة فأتاه بالسّندهند وغيرها منها"[2].

كان عبد الرحمن "حامي العلماء وصديق الأدباء ونصير الفنون، وشغوفا بكل ما يتصل بالفلك والتنجيم على نحو خاص، وهو الأمر الذي جعله يوفد العالم القرطبي عباس بن ناصح إلى العراق لكي يبحث له عن المؤلفات العلمية اليونانية والفارسية التي ترجمت إلى اللغة العربية ويقوم بنسخها[3].

لقد كان هذا الأمير الأموي "مكرما لأصناف العلماء، محسنا لهم"، ومن الأدلّة التي تثبت ذلك أنه كان "يخلو بكبير الفقهاء يحيى بن يحيى ويشاوره"[4].

---

(1) صاعد الأندلسي - طبقات الأمم - ص 158 - 159.

(2) ابن سعيد المغربي - المغرب في حلى المغرب - ج 1 ص 18.

(3) ليفي بروفنسال - الحضارة العربية في إسبانيا - دار المعارف القاهرة - ط3 - 1414هـ - 1994م ص62./H. de Felipe - opcit - p190.

(4) ابن سعيد المغربي - نفس المصدر - ج 1 ص 18.

ولم يختلف ابنه الأمير محمد (238 - 273هـ) عنه إذ كان "محبا للعلوم، مؤثرا لأهل الحديث"[1]، أما الأمير عبد الله بن محمد (275 - 300هـ) فكان "متفننا في ضروب العلوم، بصيرا بلغات العرب، وكان لا يخلو في أكثر أيامه من مقاعدة وزرائه ووجوه رجاله؛ فإن انقضى خوضهم في الرأي والتدبير لأسباب مملكته، خاض معهم في الأخبار والعلوم"[2].

وكان الحكم المستنصر بالله (350 - 366م) "جامعا للعلوم محبا لها، مكرما لأهلها، وجمع من الكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد الملوك قبله هنالك، وذلك بإرساله عنها إلى الأقطار، واشترائه لها بأغلى الأثمان"[3].

وبهذه الطريقة كوّن الحكم الثاني مكتبة هائلة في قصره بقرطبة تضم ما لم يقل عن أربعمائة ألف مجلد، وكان عدد الفهارس التي فيها أسماء الكتب فقط أربعة وأربعين فهرسة، في كل فهرسة خمسون ورقة؛ وقيل عشرون ورقة، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير، كما قام المستنصر بتنظيم شبكة حقيقية من الباحثين عن الكتب والناسخين لها، وكانوا يجوبون العالم الإسلامي لحساب الخليفة الأندلسي بحثا عن المؤلفات، يشترونها أو ينسخونها، كما جنّد في قرطبة نفسها عددا كبيرا من الحذّاق في صناعة النسخ، والمهرة في الضبط، والمجيدين في التجليد والزخرفة، إستقدم بعضهم من صقلية وحتى من بغداد، يعملون تحت إشراف موظف كبير من الصقالبة على إثراء المكتبة الرائعة بنفائس المؤلفات[4].

كما انفرد الحكم بن عبد الرحمن أيضا "باتخاذ المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين حوالي المسجد الجامع، وبكل ربض من أرباض قرطبة، وأجرى عليهم المرتبات"[5].

---

(1) الحميدي - جذوة المقتبس - ص 17.

(2) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 153.

(3) الحميدي - نفس المصدر - ص 19.

(4) ليفي بروفنسال - نفس المرجع - ص 89 - 90.

(5) ابن عذاري - نفس المصدر - ج 2 ص 240.

كما قام حكام قرطبة أيضا وإسهاما منهم في نشر العلم ببلدهم بدعوة بعض علماء المشرق إلى الأندلس، وتكليفهم بإفادة أهلها من علمهم وأدبهم، ومن أبرز الأمثلة على ذلك قدوم أبي علي القالي صاحب كتاب الأمالي من بغداد إلى الأندلس بدعوة من عبد الرحمن الناصر، ولقي عنده كل إكرام، واختصّه بابنه الحكم، ونتيجة لذلك أورث أهل الأندلس علمه[1].

نتيجة للعناية التي أولاها حكام بني أمية للعلم وأصحابه، شهدت الأندلس حركة علمية كبيرة أدّت إلى نبوغ كثير من عناصر المجتمع الأندلسي، ومن بين هؤلاء الأندلسيين كثير من العناصر البربرية.

2 - الرحلات العلمية: وتتمثل في تلك الرحلات التي قام بها بعض الأندلسيين الذين ندبوا أنفسهم لتحصيل علم من العلوم، والتبحّر فيه ثم العودة إلى بلادهم من أجل نشر ذلك العلم بين إخوانهم وجيرانهم، وكانت هذه الرحلات بشكل فردي، وبالاعتماد على الإمكانات الذاتية للأفراد، وهو الأمر الذي حال دون مشاركة عدد كبير من طلبة العلم في ذلك نظرا لعدم امتلاكهم الأموال الكافية من أجل الإرتحال إلى مراكز العلم والمعرفة (القيروان - القاهرة - بغداد - المدينة المنوّرة وغيرها...).

وكان رجوع أول فوج من الأندلسيين الدارسين في المشرق، وعملهم على نشر ما تعلموه بين أهليهم وفي أرجاء وطنهم من أهم العوامل التي دفعت الأندلس إلى الولوج في حياتها الثقافية الخاصة[2].

عاد أكثر من ارتحل إلى المشرق من أجل طلب العلم إلى الأندلس، ثم راحوا يتعاونون مع من استقرّ من علماء المشرق عندهم في تدعيم الحركة العلمية والأدبية التي أخذت تشق طريقها إلى جميع أنحاء الأندلس، وفي إثراء هذه الحركة بما كانوا

---

(1) المقّري - نفح الطيب - ج 1 ص 362.

(2) أحمد هيكل - الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة - دار المعارف القاهرة - ط12 - 1997 - ص78.

يبذلونه من جهود في التدريس والتأليف.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك يحيى بن يحيى الليثي الذي رحل إلى المدينة المنورة وتتلمذ على يد الإمام مالك بن أنس، وأخذ عنه كتاب الموطأ، كما سافر إلى مصر، وأخذ عن أكبر علمائها، ثم عاد إلى الأندلس، ونشر علمه بين أهلها[1].

وكان يحيى "مشهودا له بالأمانة والدين، معظّما عند الأمراء، متعففا عن الولايات والقضاء، ومع ذلك فقد أسند إليه الأمير عبد الرحمن بن الحكم مهمة اختيار القضاة"[2].

لم يكن يحيى بن يحيى إلا نموذجا لعدد كبير من الأندلسيين الذين ارتحلوا إلى بلاد المشرق طلبا للعلم، وقد أورد المقّري في كتابه تراجم كثيرة للعديد من مسلمي الأندلس الذين استقروا بالمشرق مؤقتا من أجل التزود بالعلم، وقد بلغ من إقبال هؤلاء على ذلك أن كان الرجل يعاب عليه بأنه لم يرحل إلى المشرق[3].

كانت الحركة العلمية في بدايتها تقتصر على العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية، من ذلك أن الدراسة في تلك الآونة كانت تدور في غالب الأحيان حول كتاب الله حفظا وتفسيرا وقراءات، وحول سنّة الرسول صلى الله عليه وسلّم رواية وشرحا واستنباطا للأحكام، ثم حول لغة القرآن والسنة وما يتصل بها من الشعر والأخبار والأدب على وجه العموم[4].

من خلال ما سبق ذكره يبدو جليا أن الفضل في نشأة الحركة العلمية والأدبية في الأندلس وازدهارها يعود إلى الرحلات العلمية التي قام بها الأندلسيون إلى المشرق، أو التي قام بها العلماء المشارقة إلى العدوة الأندلسية، ولكن هذه الأخيرة

---

(1) المقّري - نفح الطيب - ج 2 ص 9 - 10.

(2) نفسه - ج 2 ص 10.

(3) عبد العزيز عتيق - الأدب العربي في الأندلس - دار الأفاق العربية - القاهرة - بدون تاريخ - ص 153.

(4) أحمد هيكل - نفس المرجع - ص 79.

كانت بدرجة أقل، ويعود ذلك إلى أسباب عديدة منها أن معظم العلماء آنذاك كانوا ممّن تقدم بهم السنّ وبعد المسافة إضافة إلى الإضطرابات التي كانت تحدث من حين لآخر سواء في بلاد المشرق أو في بلاد المغرب.

3 - الامتيازات التي نالها العلماء: كان حكّام بني أمية بالأندلس يختارون حجابهم ووزراءهم وكتابهم من مشاهير الأدباء، وقد أوردنا سابقا كيف تم توظيف محمد بن سعيد الزجّالي من طرف الأمير عبد الرحمن بن الحكم على سبيل المثال لا الحصر، وبذلك أصبح هذا الأمر ميدانا للتنافس بين أدباء كل عصر، والهدف من ذلك هو نيل حظوة الحكام والتقرب إليهم عن طريق الأدب أو العلم.

نتيجة لما سبق ذكره أصبحت المناصب الإدارية والقضائية محتكرة في أغلب الأحيان من قبل ذوي الكفاءات العلمية والأدبية، وكان ذلك حافزا مهما دفع الناس إلى طلب العلم، وكان هدف الأغلبية من ذلك هو الاستفادة من الامتيازات المادية والمعنوية التي كان العالم يحصل عليها، وعند تصفح المصادر التاريخية نجد الكثير من الإشارات التي تؤكد المكانة الهامة التي كان يحتلها العلماء بصفة عامة والفقهاء بصفة خاصة، وقد سبق أن ذكرنا أن عبد الرحمن بن الحكم كان يكرّم العلماء ويحسن إليهم، وأن الأمير محمد بن عبد الرحمن كان "مؤثرا لأهل الحديث"، ويضاف إلى ذلك قيام الحكم بن عبد الرحمن الناصر بتخصيص مرتبات تدفع للمؤدبين في مقابل قيامهم بمهمة تعليم ابناء الفئات المحرومة في جامع قرطبة وفي أرباض المدينة.

لقد كان حكام بني أمية يعرفون كأدباء وعلماء فضل الأدب والعلم، ومن أجل ذلك كانوا يحرصون على تشجيع العلماء والأدباء والشعراء بالعطاء، والاستماع إليهم في مجالسهم الأدبية، وكان من شأن هذا التشجيع المادي والمعنوي أن يزيد من حماس هؤلاء العلماء والأدباء، وأن يغريهم بضرورة وأهمية الإجادة والإبداع والتفنن في كل ما ينشئونه من شعر ونثر، وكل ما يؤلفونه في شتى فروع العلم والمعرفة[1].

بفضل هذه العوامل كلها ازدهرت الحركة العلمية بالأندلس، وظهر العديد من

---

(1) عبد العزيز عتيق - نفس المرجع - ص 156.

العلماء والأدباء من مختلف العناصر المشكلة للمجتمع الأندلسي، وبخاصة من العناصر البربرية التي سنعمل على التعريف بأبرز من نبغ منها في هذا المجال فيما سيأتي من كلام.

المساهمة البربرية في الحركة العلمية والثقافية:

أ - قبل القرن الرابع الهجري: اهتمّ البربر بكل العلوم المنتشرة في بلاد الأندلس، ومن أهمها العلوم الدينية واللغوية والعقلية، وتأتي العلوم الدينية في مركز الصدارة من حيث عدد المختصين فيها، ثم تليها العلوم اللغوية وبخاصة الأدب والشعر، وتأتي بعدها العلوم العقلية كالهندسة والحساب والطب والفلك والزراعة والفلسفة وغيرها.

ويؤكد صاعد الأندلسي هذا التوجه العلمي لدى الأندلسيين حيث يقول: "وتمادت على ذلك - أي الأندلس - لا يعنى أهلها من العلوم إلاّ بعلم الشريعة وعلم اللغة إلى أن توطد الملك فيها لبني أمية"[1].

كان للبربر في الفترة الممتدة من تاريخ قيام الإمارة الأموية بالأندلس (138هـ - 755م) إلى نهاية القرن الثالث الهجري دور محتشم في الحركة العلمية، ويتجلى ذلك من خلال العدد القليل من المغاربة الذين ذكرتهم كتب التراجم وغيرها من المصادر ضمن من ذكرتهم من سكان العدوة الأندلسية الذين برزوا في المجال العلمي، ويمكن تفسير قلة عدد العلماء ذوي الأصول البربرية في هذه الفترة بعدم وجود حركة علمية مزدهرة حيث كانت الأندلس في مرحلة بناء نفسها في هذا المجال، كما كانت تمر بمرحلة من الإضطرابات والحروب الداخلية، وهي عوامل تحول دون رواج العلم والمعرفة لأن ذلك يتطلب توفر الأمن والاستقرار.

ويدلنا على ذلك كثرة من ارتحل من سكانها إلى المشرق طلبا للعلم، وهذه الرحلات العلمية لم تكن متيسرة لجميع الأندلسيين، وبخاصة البربر لأن ذلك يتطلب من طالب العلم الراغب في التوجه إلى المشرق إمكانات مادية تعينه على القيام

---

(1) صاعد الأندلسي - طبقات الأمم - ص155 - 156.

بالرحلة، واقتناء ما يحتاجه من كتب، وهي الإمكانات التي لم تكن متوفرة لكل المغاربة.

ومع ذلك فقد برز كما ذكرنا سابقا عدد هام من العلماء البربر في عصر الإمارة ومنهم:

أ - في العلوم الدينية: تخصص الكثير من البربر في الفقه حيث نجد أن أغلب العلماء الذين عاشوا في هذه الفترة ينتمون إليه، وتفسير ذلك يكمن في أن هذا العلم كان يسمح لصاحبه بالوصول إلى المناصب العليا في الدولة، وبخاصة في مجالات القضاء المختلفة، إضافة إلى المكانة الهامة التي كان يحظى بها الفقهاء سواء لدى الحكام أو عند الرعية التي كانت ترى في الفقيه القدوة له في الحياة، وبالتالي فهي تنقاد له عن طواعية.

1 - الفقهاء البربر خلال القرنيين الثاني والثالث الهجريين (8 - 9م): نال الفقهاء المغاربة مكانة هامة ليس فقط في صفوف بني عمومتهم بل في بلاد الأندلس كلها، وقد نوهت كتب التراجم بالكثير من هؤلاء الفقهاء، ومدحتهم بصفات عديدة ستتعرف عليها من خلال التطرق إلى ذكر هؤلاء العلماء.

وأول من نبغ من هذه النخبة البربرية من الفقهاء على ما تذكره المصادر التاريخية وكتب التراجم، أبو موسى عبد الرحمن بن موسى الهواري الذي رحل في أول خلافة عبد الرحمن بن معاوية، ولقي مالك بن أنس وابن عيينة ونظرائهما من الأئمة، ثم عاد إلى الأندلس، وكان حافظا للفقه[1].

وإلى جانبه برز يحيى بن يحيى الليثي الذي "سمع من مالك بن أنس، والتقى به سنة 179هـ - 796م، كما لقي جملة من أصحابه، وقدم إلى الأندلس بعلم كثير؛ فروى كتاب "الموطأ"، وهو أول من أدخله العدوة الأندلسية مكملا مثقفا بالسماع[2]، وقد فاق

---

(1) القاضي عياض - ترتيب المدارك - ج 1 ص 294/السيوطي - بغية الوعاة - ج2 ص 91/ ابن فرحون - الديباج المذهب - ص242/ ابن الفرضي - تاريخ علماء الأندلس - ج1 ص439.

(2) نفسه - ج2 ص 898/ مجهول - ذكر بلاد الأندلس وفضلها - مخطوط بالخزانة الملكية - الرباط - رقم 558 - الورقة 77 ظ.

يحيى بن يحيى نظراءه حيث "عادت فتيا الأندلس بعد عيسى بن دينار إلى رأيه وقوله"[1]، ولذلك كان عبد الرحمن بن الحكم يبجّله ولا يرجع عن قوله، ويستشيره في جميع أمره، وفيمن يوليه ويعزله في وظيفة القضاء[2]، ويمدحه ابن سعيد فيقول: "وإليه انتهت الرياسة في الفقه بالأندلس، وبه انتشر مذهب مالك هنالك، وتفقه به جماعة لا يحصون"[3]، وكان أحمد بن خالد يقول: "لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس منذ دخلها الإسلام من الحظوة وعظم القدر، وجلالة الذكر، ما أعطيه يحيى بن يحيى، وسمع منه مشايخ الأندلس في وقته"[4]

بعد هذين العلمين البارزين يأتي فقهاء من الدرجة الثانية اكتفوا في غالب الأحيان بالرواية عن السابقين، وينتمي معظمهم إلى بيت يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاس بن شملل بن منقايا المصمودي الليثي[5]، وهم:

أحمد بن يحيى بن يحيى الليثي الذي كان في جملة المشاورين بقرطبة في أيام الأمير عبد الله بن محمد[6]، وابن عمه أبو إسماعيل يحيى بن يحيى الليثي الذي يروي عن أبيه، وكان مشاورا في الأحكام[7]، وعبيد الله بن يحيى الليثي المكنى بأبي مروان الذي "روى عن أبيه، وكان مقدما في المشاورة في الأحكام، منفردا برياسة البلد غير مدافع"[8]، وأبو القاسم إسماعيل بن يحيى بن يحيى الليثي الذي روى عن أبيه[9].

إلى جانب هؤلاء الفقهاء المنتسبين إلى بيت يحيى بن يحيى الليثي المصمودي، برز بربر آخرون في الفقه، ومنهم عباس بن ناصح بن يلتيت المصمودي

---

(1) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 2 ص 898.
(2) القاضي عياض - نفس المصدر - ج 1 ص 311.
(3) ابن سعيد - المغرب في حلى المغرب - ج 1 ص 107.
(4) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 2 ص 900.
(5) نفسه - ج 2 ص 898.
(6) نفسه - ج 1 ص 62 - 63.
(7) نفسه - ج 2 ص 910.
(8) نفسه - ج 1 ص 429.
(9) ابن الأبار - التكملة لكتاب الصلة - ج 1 ص 150.

الذي كان له حظ من الفقه والرواية، ولذلك "استقضاه الحكم بن هشام على شذّونة والجزيرة"[1].

وابنه عبد الوهاب الذي سمع بالقيروان من سحنون بن سعيد، وبمصر من أصبغ بن الفرج، وعندما عاد إلى بلده ولي قضاء الجزيرة[2].

وعمر بن حمدون المغيلي الذي كان "حافظا للمسائل على عهد عبد الرحمن بن معاوية[3]، ويحيى بن أيوب بن خيار بن خطاب بن مقسم الزهري البربري الذي سمع من سحنون بن سعيد وغيره، وكان "عالما بالرأي، حاذقا بالكلام في المسائل، عاقدا للشروط"، ومن ثمار هذا الفقيه تأليفه لكتاب في هذا الموضوع يروي فيه عن سحنون[4].

2 - الفقهاء البربر خلال القرن الرابع الهجري (10م): يعتبر القرن الرابع الهجري قرن النبوغ البربري في المجالات العلمية والثقافية المختلفة على غرار بروز غيرهم من عناصر المجتمع الأندلسي، وقد احتلّ المغاربة الصدارة في كثير من الأحيان خلال هذه الفترة نظرا لتعمقهم في الدراسة، واتساع معارفهم في كافة العلوم وبخاصة العلوم الدينية؛ ففي مجال الفقه برز عدد كبير من البربر، ومنهم:

* أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن يحيى بن يحيى المعروف بابن أبي عيسى القاضي، وكان "منتهى النباهة والرياسة في العلم"، وسبب ذلك أنه "كان حافظا للرأي، معتنيا بالآثار، جامعا للسنن"، وبناء على هذا "كان مشاورا لأحمد بن بقي - قاضي الجماعة بقرطبة -، ثم استقضاه الناصر ببجانة وطليطلة وجيان وإلبيرة قبل أن يوليه قضاء الجماعة في قرطبة في ذي الحجة سنة 326هـ - 937م، وبقي في هذه الوظيفة إلى غاية وفاته سنة 339هـ[5].

(1) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 2 ص 504 - 505.
(2) نفسه - ج 2 ص694/ السيوطي - بغية الوعاة - ج 2 ص 28.
(3) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 2 ص 541.
(4) نفسه - ج 2 ص 904.
(5) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 2 ص845 - 846/ النباهي - قضاة الأندلس - صص89 -
=

* أبـو عـبد الله يحيـى بـن يحيـى الليثـي الـذي كـان يـشاور مـع أبـيه، ويستفتى[1].

* أبو عيسى يحيى بن عبد الله بن يحيى بن يحيى، وهو شقيق قاضي الجماعة، وقد "غلبت عليه الرواية، ورحل إليه الناس من جميع الأندلس من أجل سماع رواية الموطأ وحديث الليث بن سعد"، وسمح له بروزه في مجال الفقه بأن يحظى بتعيين الناصر عبد الرحمن له على قضاء إلبيرة، والنظر في الأحباس[2].

وإلى جانب الفقهاء السابق ذكرهم، برز في مجال الفقه أبو الحكم منذر بن سعيد البلوطي الذي كان "عالما باختلاف العلماء، وكان مذهبه في الفقه مذهب النظّار والإحتجاج وترك التقليد"، وسمح له علمه بأن يولى قضاء ماردة وما والاها من مدن الجوف، ثم ولي قضاء الثغور الشرقية قبل أن يقدّم إلى قضاء الجماعة بقرطبة، وذلك يوم الخميس الخامس من ربيع الآخر سنة 339هـ، وبقي في هذه الوظيفة إلى أن توفي سنة 355هـ[3].

يجمع كتّاب التراجم على أن منذر بن سعيد البلّوطي كان يتبنى المذهب الظاهري ويدافع عنه، ومنهم الحميدي حيث يقول: إنه "كان مائلا إلى القول بالظاهر، قويا على الانتصار لذلك"[4]، والزبيدي الذي يقول: إنه "يتفقه بفقه أبي سليمان داود القياسي الاجتهادي، ويؤثر مذهبه ويحتج لمقالته"[5]، والحميدي الذي يقول: إنه "كان

=

101/الضبي - بغية الملتمس - ص 406 - 407/الخشني - قضاة قرطبة وعلماء إفريقية - ص 237.

(1) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 2 ص 910.

(2) القاضي عياض - نفس المصدر - ج 2 ص 90.

(3) القاضي عياض - ترتيب المدارك - ج2 صص84 - 86/ ابن فرحون - الديباج المذهب - ص 361/الخشني - قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص 233 - 234/مجهول - مفاخر البربر - ص 212.

(4) الحميدي - جذوة المقتبس - ص 315.

(5) الزبيدي - نفس المصدر - ص 295.

نظارًا لا يقنع بالتقليد[1]"، ويقصد بالتقليد هنا الوقوف عند النص وعدم الخروج قيد شعرة عمّا صرّح به الدين، والنطق بما نطق به في حدود ألفاظه، والسكوت عما سكت عنه[2].

رغم اعتناقه للمذهب الظاهري إلا أنه لم يعمل على نشره بل اكتفى بالأخذ به لنفسه، أما في حياته المهنية فإنه كان يحكم وفق المذهب الرسمي للخلافة الأموية بالأندلس، وهو المذهب المالكي، ولعلّ السبب في عدم عمله على نشر المذهب الظاهري هو تخوفه من ردّ فعل المعتنقين لمذهب الإمام مالك، إضافة إلى رغبته في نيل حظوة لدى الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر الذي عينه قاضيا للجماعة بقرطبة.

وحسن بن سعد بن إدريس بن رزين بن كسيلة الكتامي الذي "كان يذهب إلى النظر وترك التقليد، ويميل إلى قول محمد بن إدريس الشافعي"، وأهّله علمه لأن يحضر الشورى، ولكنه ترك شهودها عندما رأى أن الفتيا كانت تدور على مذهب المالكيين، وتفرغ للتعليم فسمع منه الناس كثيرا[3].

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي دليم الذي "كان نبيلا في الحديث، ضابطا لما روى، وقد ولاه أمير المؤمنين المستنصر بالله قضاء إلبيرة وبجانة[4].

وسهل بن إبراهيم بن سهل بن نوح بن عبد الله بن خمار، ويعرف بابن العطار الذي كان فاضلا، عالما بالحديث، بصيرا بالمذهب[5].

ومحمد بن عبد الله بن عيسى بن أبي زمنين النفزي الذي كان من الفقهاء

(1) الحميدي - نفس المصدر - ص 142.
(2) أحمد أمين - ضحى الإسلام - دار الكتاب العربي - بيروت - ط10 - بدون تاريخ - ج 3 ص17.
(3) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 1 ص 201..
(4) نفسه - ج 1 ص 399/ السيوطي - بغية الوعاة - ج 2 ص 57.
(5) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 1 ص 336 - 337.

الراسخين في العلم، وكانت له رواية واسعة[1].

وأحمد بن خلّوف المسيلي الذي يعرف بالخياط، وكان "فقيها عالما بالمسائل، حافظا على مذهب مالك، حسن التكلم في الفقه"[2].

وهشام بن محمد بن أبي رزين، وكان "حافظا للمسائل، مفتي أهل شذّونة وما والاها، ونتيجة لغزارة علمه كان الناس يرحلون إليه للسماع منه، ومما كان يرويه مدونة سحنون[3].

وعبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الزجّالي الذي قال عنه ابن الفرضي: سمعت محمد بن يحيى بن عبد العزيز يقول: ما أعرف أحدا يصلح للقضاء غيره، وقال سليمان بن أيوب: كان أولى بالقضاء من ابن أبي عيسى، وهو عبد الله بن يحيى قاضي الجماعة المذكور سابقا[4]، وتؤكد هاتين الشهادتين بما لا يدع مجالا للشك على تبحر عبد الله الزجّالي في علم الفقه.

ومن فقهاء البربر إلى جانب السابقين معن بن محمد بن معن الأنصاري، (ونسبه في البربر) الذي ولي قضاء سرقسطة بلده سنة 326هـ من قبل عبد الرحمن الناصر، وبقي في هذه الوظيفة إلى غاية وفاته سنة 330هـ[5].

ومن الفقهاء المغاربة أيضا أبو سعيد خلف بن مسعود الجراوي المالقي الذي قدم إلى قرطبة سنة 393هـ - 1003م، وروى بها مختصر النحوي للمدونة، وحمل عنه علم كثير[6].

---

(1) القاضي عياض - نفس المصدر - ج 2 ص 259 - 260/ ابن فرحون - الديباج المذهب - ص 365 - 366.

(2) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 1 ص 129.

(3) نفسه - ج 2 ص 892.

(4) القاضي عياض - نفس المصدر - ج 2 ص 182.

(5) ابن الأبار - التكملة لكتاب الصلة - ج 2 ص 202.

(6) ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج 1 ص 175.

ومحمد بن سليمان بن حارث المغيلي الذي كان أحد العدول عند القضاة[1].

وأبو الأصبغ عيسى بن عبد الرحمن بن حبيب بن واقف بن يعيش بن مروان بن سكتان المصمودي الذي سمع بالمشرق، ثم عاد إلى الأندلس؛ فاستقضاه "المستنصر بالله على أشونة وأعمالها، كما حدث بقرطبة وسمع منه جماعة من أصحاب ابن الفرضي"[2].

وعبد الله بن إبراهيم بن محمد الأصيلي الذي رحل إلى المشرق سنة 351هـ - 962م، وتفقه هنالك لمذهب مالك بن أنس، ثم عاد إلى الأندلس في آخر أيام الحكم المستنصر بالله؛ فشوور، وقرأ عليه الناس كتاب البخاري[3].

وعبد الله بن هرثمة بن ذكوان الذي ولي خطة الرد - وهي إحدى الوظائف القضائية - بعد عبد الملك بن منذر بن سعيد قاضي الجماعة بقرطبة، وبقي فيها إلى أن توفي سنة 370هـ - 980م[4].

وأبو عبد الله محمد بن خطّاب الذي كانت له عناية بطلب الحديث[5].

وأحمد بن خلف بن فرتون المديوني الذي روى ببلده مدينة الفرج، وسمع الناس منه كثيرا[6].

وأحمد بن عبد الله بن ذكوان الذي كان مشاورا لابن زرب، ثم ولاّه محمد بن أبي عامر المنصور خطّة الردّ بعد وفاة أبيه عبد الله قبل أن يعين في منصب قاضي الجماعة بقرطبة، وكان عاقلا عاملا بمذاهب المالكية[7]، وبلغ أحمد هذا درجة رفيعة

---

(1) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 2 ص 765.

(2) نفسه - ج 2 ص 562.

(3) نفسه - ج 2 ص 426 - 427.

(4) نفسه - ج1ص405/السيوطي - بغية الوعاة - ج2ص65/القاضي عياض - نفس المصدر - ج2 ص253.

(5) الحميدي - جذوة المقتبس - ص48/ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج2ص749 - 750/مفاخر البربر - ص216.

(6) ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج 1 ص 12 - 13.

(7) القاضي عياض - نفس المصدر - ج 2 ص 253.

في عهد المنصور بن أبي عامر، حيث كان "من جلّة أصحابه وخواصه، ومحلّه من فوق محل الوزراء، وكان يفاوضه في تدبير الملك وسائر شأنه"[1].

وأحمد بن عبد الله بن موسى الكتامي الذي كان من أهل الفقه[2].

وفضل الله بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن قاسم بن عبد الله بن نجيح النفزي شقيق قاضي الجماعة منذر بن سعيد، وقد رحل معه إلى المشرق وشاركه في أشياخه، وعندما عاد إلى الأندلس ولي قضاء فحص البلّوط سنة 330هـ[3]. وابن أخيه عبد الملك بن منذر بن سعيد البلّوطي الذي سمع من أبيه ومن غيره، وولي خطّة الردّ[4].

وخلف بن سليمان بن عمرون البزاز الصنهاجي الذي ولي قضاء شذّونة والجزيرة مما يستلزم تمكنه من الفقه[5].

وزكرياء بن بكر بن أحمد الغسّاني الذي حدّث بكتاب البخاري من روايته، وأجاز لتلاميذه جميع ما رواه[6].

وشعيب بن أبي شعيب أبيض بن شعيب الأوربي الذي كان فاضلا عالما، وكان له نظر في الفقه[7].

ومن البيوتات البربرية التي تخصصت في علم الفقه إلى جانب بيت بني يحيى الليثي، بيت بني أبي دليم، ومن أفراد هذا البيت الذين برزوا في هذا المجال:

عبد الله بن محمد بن أبي دليم الذي كان نبيلا بالحديث، ضابطا لما رواه، وقد ولي القضاء ببجانة وإلبيرة، وأحكام الشرطة بقرطبة، وهي وظائف تتطلب تمكن من

---

(1) النباهي - تاريخ قضاة الأندلس - ص 113 - 114.
(2) ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج 1 ص 87.
(3) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 2ص 595 / الضبي - بغية الملتمس - ص 388.
(4) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 1 ص 466.
(5) نفسه - ج 1 ص 249 - 250.
(6) نفسه - ج 1 ص 275 - 276.
(7) نفسه - ج 1 ص 343 - 344.

يتولاّها من الفقه[1].

ومحمد بن محمد بن أبي دليم أخيه الذي كان عالما فقيها، زاهدا، وكان ضابطا متقنا، ثقة مأمونا، وقد سمع منه عالم كثير[2].

ومحمد بن عبد الله بن أبي دليم الذي روى عن كثير من العلماء، وكان شيخا طاهرا ثقة، وقد سمع الناس منه كثيرا[3].

وإلى جانب أسرة بني أبي دليم، برز مغاربة آخرون في مجال الفقه ومنهم:

محمد بن عبد الله بن هرثمة الذي صحب القاضي أبا بكر بن زرب، وتفقه على يديه، وكان له بصر بالفقه، وقد ولي الشورى بقرطبة إلى جانب قضاء فرّيش وغيرها[4].

وسكتان بن مروان بن حبيب بن واقف بن يعيش بن عبد الرحمن بن مروان بن سكتان المصمودي الذي كان حافظا للفرائض، وقد سمع من عبيد الله بن يحيى وغيره[5].

وأحمد بن عبد الله بن يحيى بن يحيى بن يحيى بن كثير المصمودي الذي روى عن عمّ أبيه عبد الله بن يحيى[6].

ومحمد بن عبد الوهاب بن عباس بن ناصح المصمودي الذي كان فقيها، حافظا للمسائل وقد ولي قضاء الجزيرة[7]، وابنه عبد الوهاب الذي كان حافظا للرأي والمسائل[8].

---

(1) القاضي عياض - ترتيب المدارك - ج 2 ص 108/ ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 1 ص 704.

(2) القاضي عياض - نفس المصدر - ج 2 ص 108 - 109/ ابن فرحون - الديباج المذهب - ص 350.

(3) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 1 ص 715.

(4) ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج 2 ص 477.

(5) السيوطي - بغية الوعاة - ج 1 ص 592.

(6) نفسه - ج 1 ص 320.

(7) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 2 694.

(8) نفسه - ج 2 ص 486/ الضبي - بغية الملتمس - ص 343.

وقد حظي الفقه باهتمام أسرة بربرية أندلسية هي أسرة بني رحيق، وقد اشتهر من أفرادها نافع بن محمد بن رحيق السوماتي الذي كان أول قاض يتوّلى قضاء الجزائر الشرقية، وكان ذلك في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله[1]، وقد صرف نافع عن هذه الوظيفة سنة 333هـ، وعيّن في مكانه عمه أحمد بن رحيق بن إبراهيم بن حارث بن خلف بن راشد السوماتي، وينسبهم الرازي إلى قبيلة كتامة، وقد ولي هذا الأخير قضاء الجزائر الشرقية سنة 333هـ - 944م[2].

وعبد الله بن عيسى بن أبي زمنين النفزي الذي سمع ببجانة وقرطبة، وقال عنه القاضي أبو الوليد الباجي: "إنه كان فقيها، وقد روى عنه محمد والقاضي يونس بن مغيث وغيرهما"[3].

وابنه محمد بن عبد الله بن عيسى بن إبراهيم المري المعروف بابن أبي زمنين الذي "كان ذا حفظ للمسائل، حسن التصنيف للفقه، وله كتب كثيرة ألفها في الوثائق"، ونتيجة لذلك كله "ولع الناس بها، وانتشرت في البلدان"[4].

هؤلاء هم البربر الذين استطعنا رصدهم في كتب التراجم خلال فترة الدراسة ممن كان لهم بروز في مجال الفقه بالأندلس، وإن اختلفت درجة نصيب كل منهم من هذا العلم إلاّ أن عددهم الكبير يدلّ على نبوغ مغربي في مجال العلوم، وهو الأمر الذي سينعكس بالإيجاب على أوضاعهم الاجتماعية حيث سيتمكن هؤلاء المغاربة من تحسين مستواهم المادي، ومن ثم مركزهم في هرم المجتمع الأندلسي، ومن المؤكد أن عددهم الحقيقي يفوق ما أوردناه فيما سبق إذ لو توفرت لدينا كل المصادر، وبخاصة منها كتب التراجم المفقودة التي ألفها كتّاب الأندلس لتضاعف عدد من ترجمنا لهم من العلماء في بحثنا هذا.

(1) ابن الأبار - التكملة لكتاب الصلة - ج 2 ص 216.
(2) نفسه - ج 1 ص 216.
(3) القاضي عياض - ترتيب المدارك - ج 2 ص 193.
(4) ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج 1 ص 458.

2 - علوم القرآن: إضافة إلى الفقه الذي تخصص فيه أغلبية العلماء البربر المستقرين بالعدوة الأندلسية، اهتم المغاربة أيضا بعلوم القرآن، وكانوا أقل عددا بالمقارنة مع الفقهاء، ومن البربر الذين نبغوا في علوم القرآن قبل القرن الرابع الهجري.

أبو موسى عبد الرحمن بن موسى الهواري الذي كان بارزا في التفسير والقراءة، وله كتاب في تفسير القرآن[1].

أما في القرن الرابع الهجري فقد برز عدد أكبر من البربر في علوم القرآن ومنهم:

منذر بن سعيد البلّوطي، قاضي الجماعة بقرطبة في أيام عبد الرحمن الناصر لدين الله وابنه الحكم المستنصر بالله، وكان "حافظا لكتاب الله، وعالما بدقائقه، ومكثرا للاستشهاد به"[2]، وقد ألف منذر عددا من الكتب في علوم القرآن، ومنها كتاب "أحكام القرآن" وكتاب "الناسخ والمنسوخ"، وكتاب "الإنباه على استنباط الأحكام من كتاب الله"، وكتاب "الإبانة عن حقائق أصول الديانة"، وغيرها من المؤلفات[3].

وسهل بن إبراهيم بن سهل المعروف بابن العطّار الذي كان عالما بمعاني القرآن، وقد قرأ عليه ابن الفرضي كتابه، وأجاز له جميع رواياته[4].

ثم أحمد بن محمد القيسي الجراوي الذي أخذ القراءة عرضا عن أبي الطيب بن غلبون، قرأ عليه بالحروف وسمع منه مصنفاته، وأقرأ الناس بإشبيلية زمانا إلى أن خرج من الأندلس في الفتنة، وقصد مصر وتصدر للإقراء في جامعها، وكانت

---

(1) القاضي عياض - نفس المصدر - ج 1 ص 294/ السيوطي - بغية الوعاة - ج 2 ص 91/ ابن فرحون - الديباج المذهب - ص 242.

(2) الزبيدي أبو بكر - طبقات النحويين واللغويين - ص 242.

(3) المقّري - نفح الطيب - ج 2 ص 22/ الحميدي - جذوة المقتبس - ص 315 - 316/ أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي - فهرسة ما رواه عن شيوخه - نشر فرنشكة قدارة زيدين - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط3 1417هـ - 1997م ص 54.

(4) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 1 ص 336 - 337.

وفاته سنة 407هـ - 1016م[1].

وأحمد بن علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله الربعي الباغائي الذي "قدم إلى الأندلس سنة 346هـ - 957م، وقدّم إلى الإقراء بالمسجد الجامع بقرطبة"، ويضيف ابن بشكوال متحدثا عنه فيقول: "وكان في حفظه آية من آيات الله تعالى، وكان لا نظير له في علم القرآن: قراءته وإعرابه وأحكامه وناسخه ومنسوخه، وله كتاب حسن في أحكام القرآن نحا فيه نحوا حسنا"[2].

وسرواس بن حمود الصنهاجي الذي كان معلما بالقرآن[3].

وتذكر المصادر محمد بن عبد الله بن عيسى بن أبي زمنين المرّي النفزي الذي كان من أهل الحفظ والعلم، وقد ألف كثيرا من الكتب، ومنها كتاب "المنتخب في الأحكام" الذي ظهرت منفعته، وطار بالمشرق والمغرب ذكره، وكتاب مختصر تفسير ابن سلام للقرآن[4].

هؤلاء هم معظم العلماء البربر الذين اهتموا بعلوم القرآن، ونلاحظ أن عددهم هو أقل بالمقارنة مع الفقهاء، ويعود سبب ذلك إلى أن اهتمامهم بالقرآن الكريم لم يكن بهدف التكسب والشهرة، ونيل الحظوة لدى الأمراء والخلفاء، بل كان القصد منه التقرب إلى الله تعالى باعتباره علم الدنيا والآخرة معا، ومع ذلك فإنهم كانوا يحتلون الصدارة في تخصصهم سواء في بلاد الأندلس أو في البلاد التي هاجروا إليها، ويأتي في مقدمة هؤلاء العلماء أحمد بن علي الباغائي.

3 - علوم الحديث: إلى جانب الفقه الذي اعتنى به وتخصّص فيه عدد كبير من البربر، وعلوم القرآن التي نبغ فيها عدد أقلّ من المغاربة، اهتم هؤلاء أيضا بعلوم الحديث، وكان عدد الذين أولوها عناية أهمّ بكثير مقارنة بالعلم السابق لها، ويمكن

(1) ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج 1 ص 32.

(2) ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج 1 ص 87.

(3) نفسه - ج 1 ص 227.

(4) القاضي عياض - ترتيب المدارك - ج2ص259 - 260/ابن فرحون - الديباج المذهب - ص365 - 366/ابن خير الإشبيلي - فهرسته - ص251.

تفسير ذلك بكون هذا العلم يرتبط ارتباطا مباشرا بالفقه، ومن ثم فأغلب المتخصّصين في الفقه كان لهم اهتمام كبير بالحديث على اعتبار أن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلّم مكملة وشارحة لأحكام القرآن الكريم، ومن المغاربة الذين برزوا في علوم الحديث، وذكرتهم المصادر التاريخية والأدبية، وبخاصة كتب التراجم:

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين الإلبيري الذي "كان من كبار المحدثين، والفقهاء الراسخين في العلم، وكان من أجلّ أهل وقته حفظا للرأي، ومعرفة بالحديث واختلاف العلماء"، وقال عنه الخولاني: "كان من أهل الحفظ والعلم، وكانت له رواية واسعة كما كان حسن التأليف، مليح التصنيف"، ومن أهم الكتب التي ألفها "المغرب في اختصار المدونة وشرح مشكلها"، وقال ابن سهل إنه "أفضل مختصرات المدونة، وأقربها ألفاظا ومعاني لها"، وكتاب "المهذب في اختصار شرح ابن قرين للموطأ"، وكتاب "المشتمل في علم الوثائق"[1].

ثم سعيد بن عثمان المعروف بابن القزّاز الذي "كانت له عناية بالحديث، وروايته عالية عن قاسم بن أصبغ وغيره، وكان ثقة"[2].

وأبو محمد عبد الله بن إبراهيم الأصيلي القرطبي الذي "كان عالما بالكلام والنظر، كما كان منسوبا إلى معرفة الحديث، وقرأ عليه الناس كتاب البخاري برواية أبي زيد المروزي، كما جمع كتابا في اختلاف مالك والشافعي وأبي حنيفة سمّاه "كتاب الدلائل على أمهات المسائل"[3].

ومن المغاربة المهتمين بعلوم الحديث سهل بن إبراهيم بن سهل الإستيجي الذي كان عالما بمعاني القرآن والحديث، بصيرا بالمذاهب[4].

---

(1) القاضي عياض - نفس المصدر - ج 2 ص 259 - 260/ ابن فرحون - الديباج المذهب - ص 365 - 366 - ابن خير - فهرسته - ص 251.

(2) ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج 1 ص 206.

(3) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 1 ص 427.

(4) نفسه - ج 1 ص 336.

وأبو عبد الله محمد بن خطّاب الذي "كانت له عناية بطلب الحديث"[1]، وقد حدّث عنه الخولاني فقال: إنه "كان من أهل الفهم والطلب للحديث"[2].

وعبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي دليم الذي "كان نبيلا بالحديث، وضابطا لما رواه"[3]، ومحمد بن محمد بن أبي دليم الذي كان ضابطا متقنا، ثقة مأمونا[4].

وسرواس بن حمّود الصنهاجي الذي حدّث بطليطلة عن أبي ميمونة دراس بن إسماعيل[5].

وأبو الحسن علي بن سعيد بن أحمد الهواري الفاسي الذي قدم إلى طليطلة سنة 399هـ، وحدّث بها وسمع منه كثير من أهل الأندلس[6].

وسكتان بن مروان بن حبيب المصمودي الذي كان حافظا للفرائض[7].

والوليد بن بكر بن مخلد بن أبي زياد العمري الذي ألّف في جواز الإجازة كتابا سماه "الوجازة في صحّة القول بالإجازة"، وذكر أنه لقي في رحلته نيفا عن ألف شيخ بين محدّث وفقيه، وسمع منهم وحدّث"، وقال الخطيب إنه: "كان ثقة أمينا، كثير السماع والكتابة في بلاده، وسمع منه كثير من الأندلسيين"[8].

من خلال ما سبق يتضح لنا أن البربر قد ساهموا بنصيب كبير في تطور علوم الحديث، وذلك من خلال ما حملوه من علم وحدّثوا به، أو ألّفوه من كتب انتفع بها غيرهم داخل العدوة الأندلسية وخارجها، وإن كان هؤلاء المحدثين أقل بكثير مقارنة بعدد الفقهاء.

---

(1) الحميدي - جذوة المقتبس - ص 48.
(2) ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج 1 ص 485.
(3) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 1 ص 399/ القاضي عياض - ترتيب المدارك - ج 2 ص 108.
(4) نفسه - ج 2 ص 108 - 109/ ابن فرحون - الديباج المذهب - ص 350.
(5) ابن بشكوال - نفس المصدر - ج1ص227 /نفسه - ج 2 ص 406.
(6) نفسه - ج 2 ص 406.
(7) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 1 ص 341 - 342/السيوطي - بغية الوعاة - ج 1 ص 592.
(8) ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج 2 ص607 - 608/ أبو بكر بن خير - فهرسته - ص 283.

لقد حظي الفقه بحصة الأسد من المتعلمين المغاربة، وذلك نظرا لمكانة الفقيه في المجتمع الأندلسي من جهة، والامتيازات التي كان يحصل عليها من جهة أخرى، ولعلّ أبرزها هو الفوز بوظيفة هامة، ويؤكد ذلك عدد البربر الذي تولوا مناصب عليا؛ وبخاصة في مجال القضاء.

ب - علوم الأداب: تأتي في الدرجة الثانية من حيث ترتيب العلوم النقلية التي برز فيها البربر، وقد اهتم هؤلاء بهذه العلوم منذ بداية مشاركتهم في الحركة العلمية التي شهدتها العدوة الأندلسية أي بداية من منتصف القرن الثاني وبداية الثالث الهجري، وقد ازداد عدد المهتمين بالآداب وعلومها من نثر وشعر مع مرور الزمن ليصل إلى الذروة خلال القرن الرابع الهجري، كما حدث مع غيرها من العلوم التي نبغ فيها المغاربة في بلاد الأندلس.

1 - النثر: شارك البربر في الحركة الأدبية، وذلك منذ منتصف القرن الثالث الهجري، وبلغت المشاركة أوجها خلال عهد الخلافة الأموية بالأندلس، ولعلّ العامل الرئيس الذي ساعد على النبوغ في هذا المجال هو أن التخصص في النثر يفتح أمام صاحبه أبواب التوظيف في خطّة الكتابة، ومن البربر الذين كانوا متمكنين من النثر خلال الفترة السابقة للقرن الرابع الهجري:

* أبو عبد الله محمد بن سعيد الزجّالي الذي استكتبه الأمير عبد الرحمن بن الحكم، وكان يلقب بالأصمعي لعنايته بالآداب وحفظه للغة، وكان له حظ وافر من البلاغة[1].

* عبد الله بن محمد بن سعيد الزجّالي الذي كان كاتب تحرير للأمير[2].

* حامد بن محمد بن سعيد الزجّالي الذي ورث مكان أبيه من الأدب والمعرفة والكتابة والبلاغة، وكان أديبا حليما[3].

---

(1) ابن حيان - المقتبس - ج 2 ص 32 - 33.
(2) نفسه - ج 2 ص 32.
(3) نفسه - ج 2 ص 36.

* عبد الله بن محمد بن عبد الله بن محمد بن سعيد الزجّالي الذي كتب للأمير عبد الله بن محمد بداية من سنة 280هـ - 893م، واستمرّ في القيام بهذه المهمة إلى غاية تولي عبد الرحمن الناصر لسدّة الحكم، وتوفي سنة 302هـ - 914م(1).

* إلى جانب هؤلاء الزجّاليين، اشتهر بربري آخر بالبلاغة، وتولى خطّة الكتابة نتيجة لذلك، وهو حجّاج المغيلي، وذلك في عهد الحكم بن هشام، وكانت وفاته سنة 210هـ - 825م(2).

هذا عن الفترة التي سبقت القرن الرابع الهجري، أما خلال هذا القرن فقد نبغ في النثر العديد من البربر ومنهم:

* عبد الرحمن بن عبد الله الزجّالي، الوزير الكاتب الذي قلّده عبد الرحمن الناصر لدين الله "النظر في تنفيذ كل ما يخرجه من العهود والتوقيعات، وينفذ فيه الأمر أو الرأي وغير ذلك"(3).

* عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الزجّالي الذي استوزره الحكم المستنصر بالله، وكان أديبا عالما(4).

إلى جانب الزجاجلة الذين احتكروا خطّة الكتابة خلال قرن من الزمن تقريبا (من منتصف القرن الثالث إلى منتصف القرن الرابع الهجري)، برز مغاربة آخرون في مجال النثر ومنهم:

* جعفر بن عثمان المصحفي الذي "كان من أهل العلم والأدب البارع"(5)، ويقول ابن خاقان إن: "له أدب بارع"(6)، ويضيف ابن الأبّار قائلا: إنه "كان مقدما في

(1) نفسه – ج 2 ص 32.
(2) ابن سعيد – المغرب في حلى المغرب – ج1 ص17/ابن حيان – المقتبس – ج 2 ص 77.
(3) ابن عذاري – البيان المغرب ج 2 ص 220.
(4) ابن الفرضي – نفس المصدر – ج 1 ص 409 - 410.
(5) النباهي – تاريخ قضاة الأندلس – ص 164.
(6) ابن خاقان – مطمح الأنفس – ص 157.

صناعة الكتابة، مفضلا على طبقته بالبلاغة"[1].

* أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن العاصي الصنهاجي، ويصفه مؤلف مفاخر البربر "بالكاتب الناظم، والناثر البارع"[2]، ويقول عنه الضبّي: هو "أديب لغوي"[3].

* سعيد بن عثمان بن أبي سعيد المعروف بابن القزّاز الذي ذكره الخولاني، وقال: "كان من أهل الأدب البارع، مقدما فيه"[4].

* أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن أبي زمنين الذي يصفه القاضي عياض بقوله: "كان من أجلّ أهل وقته افتنانا في الأدب"[5].

* سليمان بن وانسوس المكناسي الوزير، و"كان أديبا مفتنا بليغا"[6].

* أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بابن أبي عيسى القاضي الذي "كان يتصرّف في علم الأدب تصرّف إتقان، وله رسوخ في أفانينه"[7].

* أبو الحكم منذر بن سعيد البلّوطي القاضي الذي "كان غزير العلم، كثير الأدب، كما كان خطيبا بليغا"[8].

* أبو عبد الله محمد بن خطّاب النحوي الأزدي الذي "كان من الأدباء المشهورين"[9].

وأبو عمر أحمد بن محمد بن درّاج القسطلي الذي "كان في المذكورين من

(1) ابن الأبار - الحلة السيراء - ج 1 ص 259.
(2) مجهول - مفاخر البربر - ص 217.
(3) الضبي - بغية الملتمس - ص 86.
(4) ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج 1 ص 206.
(5) القاضي عياض - ترتيب المدارك - ج 2 ص 259 - 260.
(6) ابن الأبار - الحلة السيراء - ج 1 ص 160.
(7) القاضي عياض - نفس المصدر - ج 2 ص 85.
(8) ابن خاقان - نفس المصدر - ص 238.
(9) الحميدي - جذوة المقتبس - ص 48.

البلغاء، وكانت له طريقة في البلاغة والرسائل يستدل بها على اتساعه وقوته"[1].

هؤلاء هم أبرز البربر الذين تمكنّا من رصدهم، وكان لهم حظ وافر من الأدب والنثر، وبالتالي كانوا من الذين حظوا بالتوظيف في خطّة الكتابة، تلك الخطة التي كانت - كما ذكرنا سابقا - لا تسند إلا لمن توفر على باع كبير في مجال الأدب، وبخاصة في النثر نظرا للإنتقاد الشديد الذي يوجّه عادة لمن يتولى هذه الوظيفة.

2 - الشعر: إلى جانب دورهم الكبير في الحركة الأدبية، وبخاصة في مجال النثر، اهتمّ البربر أيضا بالشعر، ونبغ فيه عدد منهم بداية من الربع الأخير للقرن الثاني الهجري، وقد تزايد عدد الشعراء مع استمرار تطور الحركة العلمية بالأندلس عامة، والحركة الأدبية بصفة خاصة.

وكان أول شاعر بربري ظهر بالأندلس حسب ما تذكره المصادر التاريخية هو حجّاج المغيلي الذي تولّى خطّة الكتابة للأمير الحكم الربضي بن هشام، ويؤكد ذلك ابن سعيد حين يذكر هذا الأمير الأموي فيقول: "وكتب عنه حجّاج المغيلي، وهو شاعر"[2].

وعباس بن ناصح المصمودي الذي "رحل إلى المشرق فلقي الحسن بن هانئ[3]، واستنشده، ثم رجع إلى الأندلس؛ فمدح ملوكها، وكان مصقعا، وشعره مؤلف معروف مشهور، مشروح"، ذلك أن عباس بن ناصح قد خلف ديوان شعر كان موضع عناية الأندلسيين ودراستهم، ولكنه ضاع ولم يبق من شعره إلاّ القليل، وكان شعره يتحرك غالبا في دوائر المدح والحماسة والفخر، كما كان يتناول الزهد أحيانا، ومن ذلك قوله:

مَا خَيْرُ مُدَّةِ عَيْشِ المَرْءِ لَوْ جُعِلَتْ كَمُدَّةِ الدَّهْرِ وَالأَيَّامُ تُفْنِيهَا

---

(1) ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج1ص44/الضبي - بغية الملتمس - ص 136.

(2) ابن سعيد - المغرب في حلى المغرب - ج1 ص17/ابن حيان - المقتبس - ج 2 ص 212.

(3) وهو المشهور بأبي نواس (146 - 198هـ/763 - 814م)، - خير الدين الزركلي - الأعلام - دار العلم للملايين - بيروت - ط11 - 1995 - ج 2 ص 225.

فَارْغَبْ بنَفْسكَ أَنْ تَرْضَى بغَيْر رضَى ... وَابْتَغْ نَجَاتكَ بالدُّنْيَا وَمَا فيها[1]

وقال ابن الفرضي إنه: "كان يسلك في أشعاره مسالك العرب القديمة،[2] وكان ابنه عبد الوهاب أيضا شاعرا[3].

وأبو القاسم إسماعيل بن يحيى بن يحيى الليثي، وكان أديبا شاعرا[4].

ويضاف إلى هؤلاء الشعراء المتقدم ذكرهم عباس بن فرناس، وكان شاعرا أديبا مشهورا، وقال ابن سعيد متحدثا عنه: "وكان شاعرا مفلقا"،[5] ومن شعره في قصيدة يمدح بها الأمير محمد بن عبد الرحمن عقب انتصاره على ثوار طليطلة سنة 240هـ - 854م:

قَتَلْنَاهُم أَلْفًا وأَلْفًا ومثْلَهَا ... وألفا وألفا بعد ألف إلى ألف

سوَى مَنْ طَوَاهُ النَّهْرُ في مسلحبّه ... فأغرق فيه أو تدهده من جرف

لقد نعمت فيه غزاة نسورنا ... وسمّعت الذؤبان قصفا على قصف

وجازت ثناياها على غير ما يد ... غداة قفلنا من نسورهم العجف[6]

هؤلاء هم الشعراء من البربر الذين برزوا خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين، وكان عددهم قليلا كما نلاحظ، ومع ذلك فقد احتلّوا الصدارة في الأندلس، وبخاصة عباس بن ناصح الذي كان "يتردد على قرطبة فيأخذ عنه أدباؤها"[7].

الشعراء البربر خلال القرن الرابع الهجري: تميز القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ببروز عدد كبير من المغاربة في ميدان الشعر، ويمكن تقسيمهم إلى

(1) أحمد هيكل - الأدب الأندلسي - ص 105 - 106.

(2) القاضي عياض - ترتيب المدارك - ج 2 ص 458/ ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 2 ص 504 - 505/ السيوطي - بغية الوعاة - ج 2 ص 28.

(3) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 2 ص 486.

(4) ابن الأبار - كتاب التكملة - ج 1 ص 150.

(5) الضبي - بغية الملتمس - ص 378/ ابن سعيد - نفس المصدر - ج 1 ص 255 - 256.

(6) ابن حيان - المقتبس - محمود علي المكي - ص 301.

(7) أحمد هيكل - الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة - ص 105.

صنفين: الأول اكتفى بقول الشعر، أما الصنف الثاني فقد تخصّص في نقده، ومن الذين قالوا الشعر وبرعوا فيه:

محمد بن عبد الوهاب بن عبّاس بن ناصح المصمودي الذي "كان شاعرا"[1]، وهو ثالث أفراد هذا البيت البربري الذين ورثوا قول الشعر ونبغوا فيه، وكان آخر من تخصص منهم في ذلك عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب بن عباس بن ناصح، و"كان مطبوعا في قول الشعر"[2].

أبو بكر يحيى بن عبد الله القرطبي المعروف بالمغيلي "وكان بليغا شاعرا، مؤلفا حسن الإستنباط"[3]، وقد اختصّ بالحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، ومن شعره:

تَبَيَّنْ فَقَدْ وَضَحَ المَعْلَمُ ... وَبَانَ لَكَ الأَمْرُ تَفْهَمُ
هُوَ الدَّهْرُ لَسْتَ فيه آمِنَا ... ولاَ أَنْتَ مِنْ صَرْفه تَسْلَمُ
وَإِنْ اخْطَأَتْكَ لَهُ أَسْهُمٌ ... أَصَابَتْكَ بَعْدُ لَهُ أَسْهُمُ
لَيَاليه تُدْني إِلَيْكَ الرَّدَى ... ذَوَائبُ في ذاك مَا تَسْأَمُ
أَتَفْرَحُ بالبُرْءِ بَعْدَ الضَّنا ... وفي البُرْءِ دَاؤُكَ لَوْ تَعْلَمُ
فَأَيْنَ الملُوكُ وَأَشْيَاعُهُم ... وَدُنْيَاهُم أَدْبَرَتْ عَنْهُمُ
فَهَذي القُبُورُ بهم عُمِّرَتْ ... وَتِلْكَ القُصُورُ خَلَتْ مِنْهُمُ[4]

محمد بن عبد الله بن أبي زمنين الذي كان يمتاز "بقرض الشعر"، ويقول القاضي عياض متحدثا عنه: "وله شعر في المواعظ والرقائق والزهد كثير جدا وحسن، منه:

أَيُّهَا المَرْءُ إنَّ دُنْيَاكَ بَحْرٌ ... طَامِحٌ مَوْجُهُ فَلاَ تَأْمَنَنَّها
وَطَرِيقُ النَّجَاة مِنْهَا مُبِينٌ ... وَهُوَ أَخْذُ الكَفَاف وَالقُوت مِنْهَا[5]

(1) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 2 ص 694.
(2) نفسه - ج 2 ص 486.
(3) نفسه - ج 2 ص 918/ السيوطي - نفس المصدر - ج 2 ص 336.
(4) ابن سعيد - نفس المصدر - ج 1 ص 236 - 237.
(5) ابن فرحون - الديباج المذاهب - ص365 - 366/القاضي عياض - ترتيب المدارك - ج2 ص =

* أبو الحكم منذر بن سعيد البلّوطي، قاضي الجماعة بقرطبة الذي "كان شاعرا"[1]، ومن شعره قوله:

المَـوْتُ حَـوْضٌ وَكُلُّـنَا نَـرد	لَـمْ يَـنْجُ مما يَخَافُـهُ أَحَـد
فَـلا تَكُـنْ مُغْـرَمًا بـرزْق غَـد	فَلَسْتَ تَـدْري بمـا يَجـيءُ غَـد
وَخُـذْ مـن الدَّهْـر مـا أتـاك بـه	ويَسْلَم الـرُّوحُ مـنك والجسَد
والخيـرُ والشَّرُ لا تُذعْـه فمـا	في الناس إلا التَّشنيع والحسد[2]

* أحمد بن عبد الله بن يحيى بن يحيى الليثي، و"كان حسن الشعر"[3].

* أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن يحيى القاضي الذي "كان شاعرا مطبوعا"، وقال الحسن بن محمد في كتاب الإنتخاب: إنه "لم يكن في قضاة الأندلس أكثر شعرا منه"، ولذلك السبب ذكره ابن عبد الرءوف في كتاب الشعراء بالأندلس[4].

* إسماعيل بن بدر بن إسماعيل بن زياد، وهو أحد وجوه أهل قرطبة المتقدمين في الشعر[5]، ويقول ابن الفرضي متحدثا عنه: "غلبت عليه صناعة الشعر وطارت باسمه، وكانت به ألصق، وأورد له أحمد بن فرج في كتاب "الحدائق" أشعارا كثيرة"[6]، وذكره ابن حيان فقال إنه: "شهر بصناعة الأدب؛ ورصانة الشعر؛ وجودة الوصف؛ ورِقَّة النسيب؛ والتصرف في أنواع الشعر، والإقتدار على الترسيل"[7].

=

.260 - 259

(1) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 2 ص 846.

(2) المقّري - نفح الطيب - ج 1 ص 374.

(3) السيوطي - بغية الوعاة - ج 1 ص 320.

(4) القاضي عياض - نفس المصدر - ج 2 ص 85.

(5) صاعد الأندلسي - طبقات الأمم - ص 168.

(6) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج2 ص133/الحميدي - جذوة المقتبس - ص144/الضبي - بغية الملتمس - ص 196.

(7) ابن حيان - المقتبس - ج 3 ص 45.

* أبو عبد الله محمد بن خطّاب الأزدي النحوي، "وله مع ذلك شعر مأثور"[1].

* خلف بن سليمان بن عمرون البزّاز، "وكان شاعرا"[2].

* جعفر بن عثمان المصحفي الذي يذكر ابن الأبّار "أن له شعرا كثيرا مدونا يدلّ على تمكنه من الإجادة، وتصرفه في أفانين البيان"[3]، ويضيف ابن خاقان متحدثا عنه فيقول: "وكان له أدب بارع، وخاطر إلى نظم القريض مسارع"[4]، ومما قاله في نكبته:

تأملت صرف الحادثات فلم أزل أراها توافي عند مقصدها الحرّا
فللّه أيّام مضت لسبيلها فإني لا أنسى لها أبدا ذكرا
تجافت بها عنّا الحوادث برهة وأبدت لنا منها الطلاقة والبشرا
ليالي لم يدر الزمان مكاننا ولا نظرت منا حوادثه شزرا
وما هذه الأيّام إلاّ سحائب على كلّ حال تمطر الخير والشرا[5]

ومما يقول أثناء محنته أيضا:

لي مدة لا بدّ أبلغها فإذا انقضت أيّامها متّ
لو قابلتني الأسد ضارية والموت لم يقدر لما خفت
فانظر إليّ وكن على حذر فبمثل حالك أمس قد كنت[6]

آخر الشعراء الذين أنجبهم البربر بالأندلس خلال هذا القرن الرابع الهجري، وأعلاهم درجة هو أبو عمر أحمد بن درّاج القسطلي الذي ذاع صيته، ومدحه كتاب

---

(1) الحميدي - جذوة المقتبس - ص48/الضبي - بغية الملتمس - ص64/ مجهول - مفاخر البربر - ص216.

(2) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 1 ص 250.

(3) ابن الأبار - الحلّة السيراء - ج 1 ص 259.

(4) ابن خاقان - مطمح الأنفس - ص 157/ المقّري - نفح الطيب - ج 1 ص 403.

(5) ابن الأبار - الحلة السيراء - ج 1 ص 265/ ابن خاقان - مطمح الأنفس - ص 161 مع اختلاف طفيف: مكانها بدل مكاننا وأرض بدل حال.

(6) ابن الأبار - نفس المصدر - ج 1 ص 267.

التراجم حيث يعتبره الصفدي من فحول الشعراء،[1] ويقول عنه أبو أحمد بن حزم - وكان عالما بنقد الشعر -: "لو أنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن درّاج لما تأخر عن حبيب - أبو تمام - والمتنبي"، وذكره الحميدي فقال: "كان في المقدمين من الشعراء، وشعره كثير مجموع يدلّ على علمه، وكان معروفا بالتنقيح والتجويد"[2].

وقال عنه ابن بسّام الشنتريني: "كان أبو عمر القسطلي في وقته لسان الجزيرة شاعرا، وأولا حين عدّ معاصريه من شعرائها المشهورة، وآخر حاملي لوائها، وبهجة أرضها وسمائها، وأسوة كتابها وشعرائها"[3]، وذكره ابن حيان فقال: "وأبو عمر القسطلي سبّاق حلبة الشعراء العامريين، وخاتمة محسني أهل الأندلس أجمعين"[4].

إن هذه النصوص تثبت بما لا يدع مجالا للشك المكانة المرموقة التي احتلّها هذا البربري في مجال الشعر حيث كان ذروة شعراء الأندلس أجمعين، خاصة وأن الشهادة الأخيرة التي تدلّ على الإعجاب والمدح جاءت من "عمدة" مؤرخي الأندلس الذي يتفق جلّ الكتاب على عدائه الشديد للعنصر البربري، وبخاصة خلال زمن الفتنة القائمة في بداية القرن الخامس الهجري.

إتصل أبو عمر بن درّاج بالمنصور بن أبي عامر، ومدحه بقصيدة يقول في مطلعها:

أضاء له فجر النهّى فنهاها — عن الدنف المضيء بحرّ هواها
وضللها صبح جلا ليلة الدجى — وقد كان يهديها إلى دجاها

وكانت تلك القصيدة مبعث حسد للقسطلي؛ ومثار تشكيك الوشاة فيه؛ ونتيجة لذلك استدعاه المنصور ليختبره، فاقترح عليه بعض الموضوعات، وطلب منه قول

---

(1) الصفدي صلاح الدين خليل بن أيبك - الوافي بالوفيات - نشر هلموت ريتر - دار النشر فرانز شتايز - فسبادن 1962م - ج 8 صص49 - 53.

(2) الحميدي - جذوة المقتبس - صص 97 - 99/ ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج 1 ص 44/ الضبي - بغية الملتمس - ص 136 - 138.

(3) ابن بسام الشنتريني - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - ق 1 م1 ص 59 - 60.

(4) نفسه - ق 1 م 1 ص 60.

الشعر فيها، فقال مرتجلا قصيدة مطلعها:

حسبي رضاك من الدهر الذي عتبا   وعطف نعماك للحظ الذي انقلبا
يا مالكا أصبحت كفي وما ملكت   ومهجتي وحياتي بعض ما وهبا

ثم يمضي قائلا في قدم الحاسدين لكبار الشعراء، وفي بيان تنوع قدراته الأدبية:

ولست أول من أعيت بدائعه   فاستدعت القول ممن ظن أو حسبا
إن امرأ القيس في بعض لمتهم   وفي يديه لواء الشعر إن ركبا
والشعر قد أسر الأعشى وقيده   دهرا وقد قيل والأعشى إذا شربا
وكيف أظمأ وبحري زاخر فطنا   إلى خيال من الضّحضاح قد نضبا
فإن نأى الشك عني، أو فها أنذا   مهيأ لجلي الخير مرتقبا
عبدك لنعماك في كفيه فجر هدى   سار لمدحك يجلو الشك والريبا
إن شئت أملي بديع الشعر أو كتبا   أو شئت خاطب بالمنثور أو خطبا
كروضة الحزن أهدى الوشى منظرها   والماء والزهر والأنوار والعشبا
أو سابق الخيل أعطى الحضر متئدا   والشدّ والكرّ والتقريب والخببا

ويعلق أحمد هيكل على هذه القصيدة فيقول: "وهكذا تأكدت منزلة الشاعر في بلاط المنصور حتى أصبح من كبار شعرائه إن لم يكن أكبرهم أجمعين"[1].

إلى جانب النبوغ في مجال الشعر، كان للبربر إسهام في حركة نقد الشعر، ومن الذين كان لهم باع في ذلك القاضي أبو عبد الله محمد بن عبدالله بن يحيى الذي "كان متصرفا في معاني الشعر"[2].

وملحان بن عبيدالله بن محمد بن ملحان بن سالم الذي "كان راوية للأشعار عروضيا"[3].

---

(1) أجمد هيكل - الأدب الأندلسي - صص304 - 306.
(2) النباهي - تاريخ قضاة الأندلس - ص 82/القاضي عياض - ترتيب المدارك - ج 2 ص 85.
(3) ابن الأبار - التكملة لكتاب الصلة - ج 2 ص 205.

وأبو العباس وليد بن عيسى بن حارث بن سالم بن موسى، ويعرف بالطنجي، "وكان بصيرا بالشعر، حسن الإستنباط لمعانيه، جيد النظر فيه"، وقد قام هذا المغربي "بشرح شعر أبي تمام الطائي؛ وشعر مسلم بن الوليد[1] ؛ فأخذ الناس عنه المشروحات"[2].

إضافة إلى قول الشعر ونقده، إهتم البربر أيضا بعلوم اللغة، والمتمثلة خصوصا في النحو وعلم المعاني، وقد بدأ هذا الإهتمام منذ القرن الثاني للهجرة، ومن المغاربة الذين كانت لهم عناية بهذه العلوم:

* أبو موسى عبد الرحمن بن موسى الهواري الذي كان فصيحا، ضربا من الإعراب[3].

* وعباس بن ناصح المصمودي الذي تردد بالحجاز طالبا للغة العرب، كما لقي الأصمعي بالعراق؛ وغيره من علماء البصريين والكوفيين، وكان من أهل العلم باللغة العربية[4].

كان هؤلاء هم معظم المغاربة الذين أسهموا في تطور علوم اللغة خلال الفترة السابقة للقرن الرابع الهجري، أما خلال هذا القرن فقد برز منهم في هذه العلوم:

* أحمد بن عبد العزيز بن أبي الحباب النحوي المصمودي الذي روى عن أبي علي القالي البغدادي ولزمه، وكان متفننا في ضروب اللسان، شديد الحفظ للغة، بصيرا بالعربية[5].

---

(1) مسلم بن الوليد الأنصاري بالولاء، أبو الوليد المعروف بصريع الغواني، شاعر غزل، توفي سنة 208هـ - 823م - الزركلي - الأعلام - ج 7 ص 223.

(2) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 2 ص 873.

(3) القاضي عياض - نفس المصدر - ج1 ص294/ابن فرحون - نفس المصدر - ص 242/ السيوطي - نفس المصدر - ج 2 ص 91.

(4) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 2 ص 504 - 505/ السيوطي - نفس المصدر - ج 2 ص 28.

(5) ابن بشكوال - نفس المصدر - ج1 ص25/الخشني محمد بن حارث - أخبار الفقهاء والمحدثين - ص 67 - 68/مجهول - مفاخر البربر - ص 217.

* وكان أبو عبد الله محمد بن خطّاب النحوي "من النحاة المذكورين، إذ كان يختلف إليه في علم العربية أولاد الأكابر وذوي الجلالة"(1).

* سعيد بن عثمان اللغوي المعروف بابن القزّاز الذي ذكره الخولاني، وقال إنه: "كان من أهل الأدب البارع، مقدما فيه لغويا"، وكان أبو عثمان هذا حافظا للغة العربية، حسن القيام بها، ضابطا لكتبه، وله كتاب في الردّ على صاعد بن الحسين اللغوي البغدادي، كما كان ابن القزّاز من أجلّ أصحاب القالي البغدادي، ومن طريقه صحّت اللغة بالأندلس بعد أبي علي، ومن طريق ابن أبي الحباب وأبي بكر الزبيدي(2).

* ولا يفوتنا ذكر خلف بن سليمان البزّاز الصنهاجي الذي كان نحويا لغويا، وكتب عن أبي علي القالي البغدادي، وأبي بكر محمد بن معاوية القرشي(3).

* وسهل بن إبراهيم بن سهل الذي كان حافظا للإعراب(4).

* وسكتان بن مروان بن حبيب المصمودي، وكان حافظا عالما باللغة(5).

* وأبو محمد عبد الله بن محمد بن أبي دليم الذي "كان بصيرا بالإعراب"(6).

* وعبد الله بن هرثمة بن ذكوان الذي ذكره ابن الفرضي، وقال إنه: "كان عاقلا، عالما باللغة والنحو"(7).

* وأبو عبد الملك شعيب بن أبيض بن شعيب الأوربي، وكان فاضلا عالما، من أهل النظر في اللغة(8).

* وأبو محمد عبد الله بن شعيب بن أبي شعيب الذي سمع من أبي علي القالي

---

(1) الحميدي - جذوة المقتبس - ص48/ الضبي - بغية الملتمس - ص63 - 64.
(2) ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج 1 صص 204 - 206.
(3) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج1 ص249 - 250/السيوطي - نفس المصدر - ج 1 ص 554.
(4) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 1 ص 336.
(5) نفسه - ج 1 ص 342/ السيوطي - نفس المصدر - ج 1 ص 704.
(6) نفسه - ج2ص57/ابن الفرضي - نفس المصدر - ج1ص399/ ترتيب المدارك - ج2ص 108.
(7) نفسه - ج 2 ص 253/ ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 1 ص 721.
(8) نفسه - ج 1 ص 232/ السيوطي - نفس المصدر - ج 2 ص 3.

البغدادي وأبي بكر بن القوطية، وكان له بصر باللغة العربية[1].

* محمد بن عبد الله بن يحيى بن يحيى القاضي، "وكان متصرفا في علم الإعراب[2].

* أبو بكر يحيى بن عبد الله بن محمد المغيلي الذي "كان بصيرا بالنحو"[3].

* محمد بن عبد الوهاب بن عباس بن ناصح المصمودي، و"كان عالما باللغة والإعراب"،[4] وكان ابنه عبد الوهاب "متصرفا في اللغة والإعراب"[5].

* أحمد بن عبد الله بن يحيى بن يحيى الليثي، و"كان ذا تقدم في اللغة".[6]

هؤلاء هم الذين كان لهم نصيب من علوم اللغة بمختلف فروعها، وبالرغم من اختلاف نصيب كل واحد منهم في المساهمة في تطورها إلاّ أن عددهم الكبير يدلّ على أهمية الدور الذي لعبه البربر في تطور علوم اللغة، خاصة وأنها الوسيلة الأساسية التي سمحت بنبوغ الأندلسيين في مختلف العلوم، وبخاصة خلال القرن الرابع الهجري الذي بلغت فيه العدوة الأندلسية ذروة التقدم والازدهار في جميع الميادين، وبخاصة في الميدان العلمي.

كما أن هذا العدد الكبير من البربر الذين برزوا في علوم اللغة يدل أيضا على عملية التعريب الكبيرة التي مسّتهم، وبالتالي جعلت منهم حجر الزاوية في عملية تحقيق الإزدهار الثقافي والعلمي الذي شهدته بلاد الأندلس، وبخاصة في عهد الخلافة الأموية.

ولم يكتف المغاربة بالتخصص في علوم اللغة من أجل التعرّب، وبالتالي

---

(1) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 2 ص 421 - 422.
(2) القاضي عياض - نفس المصدر - ج2 ص85/ابن فرحون - الديباج المذاهب - ص 361.
(3) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 2 ص 918.
(4) نفسه - ج 2 ص 694.
(5) نفسه - ج 2 ص 486/الضبي - بغية الملتمس - ص 343/السيوطي - نفس المصدر - ج2 ص 125.
(6) نفسه - ج 1 ص 320.

الاندماج في المجتمع الأندلسي فقط، بل إنهم ساهموا وبقسط كبير في تطور هذه العلوم، وأبرز مثال يثبت لنا ذلك هو ما ذكره كتّاب التراجم عن أبي عثمان سعيد بن عثمان حيث يعتبره هؤلاء أحد العلماء الذين صحّت عن طريقهم اللغة بالأندلس[1]، وهو لعمري دور هام جدا قام به هذا المغربي، كما أن تمكّن هؤلاء البربر من اللغة وعلومها جعل "أولاد الأكابر وذوي الجلالة" يقصدون واحدا منهم بهدف التعلّم ونيل حظ من هذه العلوم، ويتعلق الأمر هنا بالعالم البربري أبي عبد الله محمد بن خطّاب.[2]

4 - العلوم العقلية: إلى جانب العلوم النقلية التي نبغ فيها البربر، إهتم هؤلاء أيضا بالعلوم العقلية، وكان عدد المهتمين بها قليلا جدا مقارنة بالعلوم الدينية والآداب، وهي ميزة مشتركة بين كافة عناصر المجتمع الأندلسي، ومع ذلك فقد برز عباقرة من البربر تجاوزوا - بما كانوا يملكونه من قدرة وتفكير واختراع - الزمن الذي كانوا يعيشون فيه، وأبرز مثال على ذلك هو البربري عباس بن فرناس التاكرني الذي وصفه ابن حيان قائلا بأنه: "حكيم الأندلس الزائد على جماعتهم بكثرة الأدوات والفنون"،[3] ويؤكد ابن سعيد ذلك حين يذكر أنه "أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة، وكان كثير الإختراع والتوليد، واسع الحيل حتى نسب إليه السحر وعمل الكيمياء"، ومن اختراعاته أيضا "المنقانة لمعرفة الأوقات"،[4] ويعتبره أحد الكتاب من "عباقرة علماء العرب"،[5] ومن أهم العلوم العقلية التي برز فيها البربر:

علم الحساب: ومن المغاربة الذين نبغوا فيه أبو محمد عبد الله بن محمد المغيلي: "وكان رجلا عاقلا عالما بالحساب"،[6] وأبو تمام غالب بن محمد بن

---

(1) ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج 1 صص 204 - 206.

(2) الحميدي - جذوة المقتبس - ص 48 / الضبي - بغية الملتمس - ص 63 - 64.

(3) ابن سعيد - المغرب في حلى المغرب - ج 1 ص 255.

(4) ابن سعيد - المغرب في حلى المغرب - ج 1 ص 256.

(5) زهير حميدان - أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية - منشورات وزارة الثقافة - دمشق - 1996م - المجلد الخامس - ص 251.

(6) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 1 ص 392.

عبد الرحمن بن عبد الله بن نهيك الهوّاري الذي "كان معتنيا بطلب العلم منذ صغره، وكانت فنون الحساب أغلب عليه"،[1] وسهل بن إبراهيم بن سهل بن نوح بن خمار الإستجي، "وكان حافظا للحساب".[2]

الهندسة: ومن البربر الذين نبغوا فيها عبد الرحمن بن إسماعيل بن بدر المعروف بالإقليدي أو الإقليدسي الذي كان متقدما في علم الهندسة، وقد رحل عن الأندلس، واتجه إلى المشرق في أيام الحاجب محمد بن أبي عامر، وتوفي هناك.[3]

علم المنطق: وقد برز فيه من البربر عبد الرحمن بن إسماعيل بن بدر، ويقول صاعد الأندلسي إنه: "كان معتنيا بصناعة المنطق، وله تأليف مشهور في اختصار الكتب الثمانية المنطقية"،[4] وأبو القاسم عباس بن فرناس - وهو من برابر تاكُرُنّا - الذي كان "فيلسوفا حاذقا"،[5] وقد اشتهر بالفلسفة والمنطق.[6]

اهتم المغاربة أيضا بالزراعة، ومنهم أبو محمد عبد الله بن محمد المغيلي الذي يصفه ابن الفرضي قائلا عنه: "العالم بالزراعة"[7].

إلى جانب العلوم العقلية، إهتم البربر أيضا بعلوم أخرى، وإن كان عدد المهتمين بها ضئيلا جدا، ومنها:

الأخبار: وأبرز من اعتنى بها: عبد الله بن هرثمة بن ذكوان الذي "كان حافظا للمشاهد والأيام".[8]

وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن أبي زمنين النفزي، ويصفه القاضي

---

(1) ابن بشكوال - نفس المصدر - ج 2 ص 431.

(2) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 1 ص 366.

(3) صاعد الأندلسي - طبقات الأمم - ص167 - 168/زهير حميدان - نفس المرجع - ص 254 - 255.

(4) نفسه - ص 167.

(5) ابن سعيد - نفس المصدر - ج 1 ص 255 - 256.

(6) زهير حميدان - نفسه - ص 249.

(7) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 1 ص 392.

(8) القاضي عياض - نفس المصدر - ج 2 ص 253.

عياض "بالإفتنان في الأخبار".[1]

وأحمد بن عبد العزيز بن فرج بن أبي الحباب النحوي، "وكان عالما بالأخبار، حافظا ضابطا لها".[2]

وكهلان بن أبي لوا بن يصلاص المطماطي الذي "أجاز إلى الأندلس، ونزل على الناصر، وهو من أهل علم أنساب البربر".[3]

كما اهتم البربر أيضا بعلم الكلام، ومن الذين اشتهروا في هذا المجال:

أبو الحكم منذر بن سعيد البلّوطي الذي "كان بصيرا بالجدل، منحرفا إلى مذهب أهل الكلام، لهجا بالإحتجاج".[4]

ويحيى بن أيوب بن خيار بن خطّاب بن مقسم الزهري، و"كان حاذقا بالكلام في المسائل، وألف في ذلك كتابا"[5].

وحكم بن منذر بن سعيد البلّوطي وأخوه عبد الملك، ويؤكد ذلك ابن حزم حين يقول: إن حكم كان "رأس المعتزلة بالأندلس، وكبيرهم وأستاذهم ومتكلمهم وناسكهم"، ويضيف في مكان آخر من كتاب طوق الحمامة قائلا: "وكان أخوه عبد الملك بن منذر مهتما بهذا المذهب أيضا".[6]

وأبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن محمد الأصيلي الذي "كان عالما بالكلام والنظر".[7]

إضافة إلى العلوم والفنون التي نبغ فيها عباس بن فرناس، اهتم أيضا بعلم

---

(1) نفسه - ج 2 ص 259 - 260.

(2) ابن بشكوال - نفس المصدر - ج 1 ص 25.

(3) ابن خلدون - العبر - ج 11 ص 253.

(4) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 2 ص 846.

(5) نفسه - ج 2 ص 904.

(6) ابن حزم علي بن أحمد - طوق الحمامة في الألفة والألاّف - تحقيق حسن كامل الصيرفي - دار الفكر - القاهرة - 1383هـ - 1964م - ص 45.

(7) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 1 ص 427.

الطب والصيدلة حيث قرأ الطب، ودرس أعراض المرض، وطرق الوقاية والعلاج، كما بحث في الأعشاب وخصائصها وفوائدها الدوائية، وكان هذا البربري أيضا ماهراً في علم الفلك والفيزياء والكيمياء، كما أتقن الموسيقى وصناعة آلاتها[1].

من خلال ما سبق يتأكد بصفة جلية أن البربر كانت لهم مساهمة فعالة في الحركة العلمية والثقافية بالأندلس، وقد بدأت منذ قيام الإمارة الأموية.

لقد شارك المغاربة في كل الفروع العلمية والثقافية التي كانت منتشرة بالعدوة الأندلسية إلاّ أن الأغلبية الساحقة منهم اتجهت إلى العلوم الدينية وعلوم اللغة والآداب، بينما كانت المشاركة في العلوم العقلية ضعيفة بالمقارنة مع العلوم السابق ذكرها، ولا تقتصر هذه الظاهرة على البربر وحدهم بل شملت كل عناصر المجتمع الأندلسي، ولعلّ السبب الرئيس في ذلك هو المكاسب المادية التي كان يحصل عليها المتخصص في الفقه والأدب، ففضلا عن ازدياد تفقهه في دينه، وتمكنه من اللغة العربية وهي لغة هذا الدين، كان الفقيه والأديب أوفر حظا في الحصول على المناصب القضائية والإدارية وما يصاحبها من امتيازات مادية ومعنوية.

ويؤكد صاعد الأندلسي قلة المهتمين بالعلوم العقلية عند كلامه عن الأندلس فيقول: "لا يعنى أهلها من العلوم إلاّ بعلوم الشريعة وعلم اللغة إلى أن توطد الملك فيها لبني أمية"،[2] وإلى نفس الاتجاه يذهب أحمد أمين حيث يقول: "حتى إذا بدأت الأمور تهدأ، بدأ المسلمون الأندلسيين يفكرون في العلم، وأول ما فكروا فيه الدين، وتلا ذلك بعد زمان العلوم الداخلية كالفلسفة والرياضيات".[3]

من خلال الدراسة التي قمنا بها سابقا تعرفنا على المساهمة البربرية في الحركة العلمية والثقافية التي عاشتها العدوة الأندلسية، وأمكننا نتيجة لذلك التعرّف على أولئك المغاربة الذين برزوا في علوم شتى، بل وتفوق بعضهم على نظرائهم من أهل العدوة

(1) زهير حميدان – نفسه – ص 249.

(2) صاعد الأندلسي – نفس المصدر – ج 1 ص 155 - 156.

(3) أحمد أمين – ظهر الإسلام – دار الكتاب العربي – بيروت – ط 5 – 1373هـ - 1953م – ج 3 ص21 - 22.

الأندلسية، ومن أبرز الأمثلة التي تؤكد هذا النبوغ والتفوق البربري في مجال العلوم:

أبو موسى الهواري الذي "كان إذا دخل قرطبة من قرية بفحص مورور التي كان فيها سكنه، لم يفت أحد من مشائخ قرطبة، لا عيسى بن دينار ولا يحيى بن يحيى ولا سعيد بن حسان حتى يرحل عنهم"[1].

يحيى بن يحيى الليثي الذي يقول عنه أحمد بن خالد: "لم يعط من أهل العلم بالأندلس منذ دخلت الإسلام من الحظوة وعظم القدر وجلالة الذكر ما أعطيه يحيى بن يحيى، وكان الأمير عبد الرحمن بن الحكم يبجلّه، ولا يرجع عن قوله، ويستشيره في جميع أمره، وفيمن يوليه ويعزله، وإليه انتهت الرياسة بالأندلس في العلم"[2].

وسبق لنا أن ذكرنا أبو عمر أحمد بن محمد بن درّاج القسطلي الذي يقول عنه أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، وكان عالما بنقد الشعر: "لو قلت إنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن درّاج لم أبعد"، وقال مرة أخرى: "لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلاّ أحمد بن درّاج لما تأخر عن شأو حبيب والمتنبي"[3].

وقال عنه الثعالبي في كتاب اليتمة: "بلغني أن أبا عمر القسطلي كان عندهم بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام، وهو أحد شعرائهم الفحول هنالك، وكان يجيد ما ينظم"[4].

ويؤكد أحد الكتاب المعاصرين ذلك فيقول: "أما شعر القسطلي من الناحية الفنية، فأول ما يلاحظ عليه أنه يبلغ الذروة من الاتجاه المحافظ الجديد، وتتضح فيه معالم هذا الاتجاه بأكمل ما يكون الاتضاح، وتبدو فيه ناضجة كأحسن ما يكون النضج

---

(1) ابن القوطية - تاريخ إفتتاح الأندلس - ص 41.

(2) القاضي - ترتيب المدارك - ج 1 ص 311 - 312.

(3) الحميدي - جذوة المقتبس - ص99/ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج1 ص44/ الضبي بغية الملتمس - ص 138.

(4) الثعالبي - يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة - القاهرة - ط2 - 1375هـ - 1956م - ج 2 ص 104.

حتى ليمكن أن يعتبر ابن درّاج قمة هذا الاتجاه في الأندلس في أواخر القرن الرابع الهجري وأوائل القرن الخامس".(1)

ولا بدّ من الإشارة إلى عباس بن فرناس البربري الذي فاق أقرانه حيث فكّر في الطيران؛ فلقد "احتال في تطيير جثمانه؛ فكسى نفسه الريش على سوق الحرير؛ فتهيأ له أنه استطار في الجو من ناحية الرصّافة، واستقلّ في الهواء؛ فحلّق فيه حتى وقع على مسافة بعيدة".(2)

لقد شارك البربر في الحياة العلمية والثقافية إلى جانب بقية أفراد المجتمع الأندلسي، وكانوا ضمن النخبة الأندلسية التي اهتمت بالعلم، وكرّست حياتها لتعلمه داخل بلاد الأندلس وخارجها وجمع مؤلفاته، إضافة إلى نشره وتطويره، ومع ذلك فإن العلماء البربر الذين ترجمنا لهم في بحثنا هذا أقل عددا مقارنة بغيرهم من عناصر المجتمع الأندلسي، وبخاصة منهم العرب، ويعود ذلك إلى جملة من الأسباب منها تفريط المصادر في الكتابة عنهم، أو فقدان المؤلفات التي أولتهم عناية كافية، وبالتالي حرمان الباحثين من التوصل إلى حقيقة المشاركة البربرية في الحياة العلمية والثقافية الأندلسية، كما ينبغي الإشارة هنا إلى أننا لم نرصد إلاّ العلماء المصرّح بانتمائهم إلى العدوة المغربية، خاصة وأننا قد أشرنا فيما سبق من كلام إلى ظاهرة اتخاذ البربر عامة، والعلماء منهم خاصة للأسماء العربية، وذلك من أجل تسهيل عملية اندماجهم في المجتمع من جهة، ونيل الحظوة لدى حكام الإمارة الأموية، ثم الخلافة من جهة أخرى.

ومن العوائق الأخرى التي حالت دون رصد كل العلماء البربر هو تلميح الكتاب إلى وجود علماء مغاربة دون التصريح بأسمائهم، من ذلك ما يفعله ابن حزم في كتاب الجمهرة عندما يورد باستمرار عبارة "كان منهم قواد وكتّاب وفقهاء"، وهو يتحدث عن البيوتات البربرية بالأندلس.

(1) أحمد هيكل - الأدب الأندلسي - ص 321.

(2) ابن سعيد - المغرب - في حلى المغرب - ج 1 ص 255.

ومع ذلك كله فإن هذه النماذج من علماء البربر الذين نبغوا في العدوة الأندلسية تدل بوضوح على المكانة العلمية التي احتلها هؤلاء سواء داخل الأندلس أو خارجها، كما توضح لنا الدور البارز الذي لعبه هؤلاء المغاربة في الازدهار العلمي والثقافي الأندلسي.

المكانة الاقتصادية والاجتماعية للبربر في الأندلس: مما لا شكّ فيه أن دراسة الجوانب الاقتصادية والاجتماعية تكتسي أهمية كبرى في تاريخ الشعوب عامة، والإسلامية بصفة خاصة إبّان العصور الوسطى، ولكن العائق الذي يواجه الباحث في هذا الموضوع هو قلة أو توزع وتشتت المعلومات المتعلقة بهذين الجانبين في المصادر التاريخية على اختلاف أنواعها، والتي تركز في أغلب صفحاتها على الجوانب السياسية والعسكرية، ولا يأتي ذكر الجوانب الاقتصادية والاجتماعية إلاّ عرضا.

ويؤكد أحد الدارسين الغربيين المختصين في تاريخ الأندلس الإسلامية أن الحياة الاجتماعية في بلاد الأندلس إبّان الوجود الإسلامي لم تحظ إلاّ بدراسات قليلة جدا، ويضيف قائلا: إن السجلات التاريخية التي اعتمدها الباحثون حتى الآن كمصادر أساسية في دراسة تاريخ الحقب الأندلسية المختلفة لم تسمح بأكثر من إرساء السياق السياسي العام للأحداث التاريخية، ولذلك فهي لا تكاد تلمح بشيء عن حقائق الخلفية الاجتماعية السائدة، أما النصوص الأدبية والقانونية التي ظلت لزمن طويل من مواضيع الدراسات العديدة المتخصصة فإنها لا تكشف في أحسن الأحوال إلاّ عن جوانب اجتماعية محدودة مقتصرة على فئات قليلة للغاية من عناصر المجتمع الأندلسي كطبقة الكتّاب والمثقّفين ذوي الصلة الوثيقة بالحكّام.

إضافة إلى ما سبق فإنه من الصعب علينا تكوين صورة واضحة عن الأوضاع التي يعيشها سكان المدن إلاّ من خلال ما كتب الجغرافيون عن هذه الأخيرة، ولكن المعلومات التي يقدمها هؤلاء الكتاب تتميز بالإيجاز الشديد من جهة، وبكثرة التعميم من جهة أخرى[1].

---

(1) قيشار بيار – التاريخ الاجتماعي لإسبانيا المسلمة من الفتح إلى نهاية حكم الموحدين – الحضارة =

قد نتفق مع بعض ما ذهب إليه بيير قيشار، ولكن هذا لا يعني الغياب الكلي للمعلومات المتعلقة بسمات المجتمع الأندلسي الأساسية، كالعناصر المكونة له من طبقات وفئات وشرائح اجتماعية، وعن الغلاء وارتفاع الأسعار، والفاقة وندرة الأقوات، وعوامل التذمر الداخلية والخارجية، وطرق التولية والعزل، وأساليب الجباية، وحالة السجون، والأسواق، والمساجد وغيرها من المواضيع التي تدخل في باب الحالة الاجتماعية والاقتصادية.

من خلال ما سبق تتأكد لنا صعوبة الغوص في مجال الدراسة الاقتصادية والاجتماعية لبلاد الأندلس، وبالتالي فإن المعلومات التي سترد لاحقا ستكون لا محالة ناقصة جدا لأنها لا تعني إلاّ فئة قليلة من عناصر الفئة الاجتماعية المعنية بهذه الدراسة وهي البربر.

إن المعلومات الواردة في المصادر التاريخية تتعلق في أغلبيتها بالبربر الذين تولوا مناصب إدارية وعسكرية وقضائية هامة، أو كانوا من الذين نبغوا في علوم شتى، وهي بالتالي تخص الأقلية من المغاربة المتواجدين بالأندلس أي ممن يمكن تصنيفهم ضمن طبقة الخاصة، ولذلك السبب فهي لا تقدم لنا المعطيات المتعلقة بالأغلبية الساحقة، والتي كانت منتشرة في أغلب نواحي بلاد الأندلس، ومع ذلك فإن هذه المصادر التاريخية والجغرافية قد قدمت لنا شذرات متفرقة تتعلق بالنشاطات الاقتصادية والاجتماعية للبربر، ومن خلالها سنعمل على إماطة اللثام عن المكانة التي احتلها هؤلاء في المجتمع الأندلسي، وبخاصة خلال القرن الرابع الهجري، ومن ثم إدراك نظرة الفئات الاجتماعية الأخرى إليهم لنصل إلى إدراك أسباب التحالف الذي جمع بين هذه الفئات في مواجهة المغاربة خلال الفتنة الأندلسية.

من المعروف أن البربر كانوا يشكلون طلائع الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس، ومن ثم فقد كانوا أول المستحوذين على غنائم هذه البلاد، وبخاصة الأراضي الخصبة

=

العربية الإسلامية في الأندلس - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت - ط 1 - 1998م - ج 2 ص 963 - 964.

المتواجدة بها، ويؤكد ذلك ابن حزم الذي يقول: "ثم دخل البربر الأفارقة، فغلبوا على كثير من القرى دون قسمة"،[1] بمعنى أنهم استولوا على معظم الأراضي الخصبة عقب الانتصار على القوط الغربيين، ولكن التطورات التاريخية التي مرّ بها هذا الجزء من الدولة الإسلامية، وبخاصة في عهد الولاة سيؤدي إلى فقدان غالبية هؤلاء المغاربة لأراضيهم، وهو الأمر الذي يؤكده المؤلف ذاته حيث يقول: "ثم دخل الشاميون في طالعة بلج بن بشر بن عياض، فأخرجوا أكثر العرب المعروفين بالبلديين بما كان بأيديهم"[2].

ويعني المؤلف بكلمة العرب البلديين الفاتحين الأوائل لبلاد الأندلس، ودليلنا في ذلك قول ابن الأبّار إن: "العرب البلديون هم الجند الأول"[3]، أي الذين وقع على عاتقهم الفتح بينما جاء بقية الجند بعد نهايته، وكان أغلبهم قد قدم إلى الأندلس في عهد الأمويين، ومن ضمن هؤلاء الفاتحين البربر، وقد استولى الشاميون هؤلاء على أراضي الفاتحين الأوائل عقب قيام ثورة البربر بالأندلس سنة 123هـ - 741م، حيث لاحق جند بلج بن بشر المغاربة الثائرين وأخرجوهم من أراضيهم واستحوذوا عليها، وقد سبقت الإشارة إلى هذه الأحداث عند حديثنا على ملكية الأراضي بالأندلس عقب الفتح الإسلامي.

كنا قد عالجنا في عنصر سابق قضية الأراضي وكيفية امتلاك المسلمين لها، وتوصلنا إلى نتيجة هامة، وهي أن الأرض لم تقسم وفق أسس الشريعة الإسلامية، ولكنها خضعت لمبدأ القوة والغلبة، وإذا كان الشاميون بقيادة بلج قد طردوا البربر والعرب البلديين من الأراضي التي استحوذوا عليها عقب الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس؛ فإن البربر وعلى إثر قيامهم بثورة 123هـ - 741م قد انتهجوا نفس السلوك حين تغلّبوا على العرب القاطنين بالمناطق الشمالية، والذين كانوا يمثلون الأقلية مقارنة

(1) ابن حزم - رسائل ابن حزم الأندلسي - ص 175.

(2) نفسه - ص 175.

(3) ابن الأبّار - الحلة السيراء - ج 1 ص 63.

بأعداد المغاربة، وأخرجوهم من أراضيهم مما يعني أنهم استولوا عليها، ولكن الشاميين بقيادة بلج بن بشر تمكنوا فيما بعد من الانتصار عليهم، ولم يكتفوا بقتلهم في المواقع الحربية التي دارت بينهم، وبخاصة في موقعة وادي سليط بأحواز طليطلة التي دارت في نفس السنة، بل طاردوهم وأجلوهم عن أغلب المناطق التي كانوا يقيمون بها، واضطرّ كثير من البربر إلى الفرار إما في اتجاه أقصى الشمال، أو نحو المناطق الجنوبية والجنوبية الغربية، بل هناك من عاد إلى العدوة المغربية، ومعنى ذلك أن هؤلاء المنهزمين الذين كانوا يملكون أراضي، ويقومون باستغلالها من أجل توفير قوتهم أصبحوا بدون أرض، وبالتالي أصبحوا مرغمين على البحث عن عمل لدى أصحاب الملكيات الزراعية.

إن الذي يدفعنا إلى هذا الإستنتاج هو الاقتراح الذي قدمه المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار القائم على الخليفة الأموي هشام المؤيد سنة 399هـ - 1008م للبربر الملتفين حول سليمان المستعين الذي بايعه البربر بالخلافة بعد اضطهاد المهدي وجنده لهم، حيث كلف "أحد الوزراء وهو البكري فدار بقرطبة وأرباضها يقول للناس: قد عفا أمير المؤمنين المهدي عن البربر على أن يرجعوا إلى بلادهم فيصيروا حرّاثين كما كانوا"[1]، مما يعني أن جزءا هاما من المغاربة الثائرين ضدّ المهدي كانوا يعملون قبل سنة 399هـ - 1008م في ميدان الزراعة، وبما أن الأراضي قد انتزعت منهم، فإنهم كانوا يشتغلون في الأراضي التي يملكها غيرهم، وبخاصة البيوتات العربية ذات النفوذ السياسي والعسكري بالأندلس.

لقد تعددت الملكيات الزراعية في الأندلس، فهناك ضياع الخلفاء والأمراء، وأراضي التمليك الخاصة بالأفراد، وأراضي الأحباس، وهناك الأراضي التي كانت تمنح للأشخاص ذوي الخدمات الخاصة كالشعراء والعلماء وأهل الفن،[2] ومن أبرز

(1) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 3 ص 82.

(2) أحمد مختار العبادي - الزراعة في الأندلس وأثرها العلمي - الأندلس - الدرس والتاريخ - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - دار المعرفة الجامعية - 1414هـ - 1994م - ص111 - 112.

الأمثلة على ذلك بيت آل أبي عيسى بن يحيى الليثي.

لقد كان هذا البيت البربري من أغنى بيوتات قرطبة حيث توارث أبناؤه الثروة، وظلّوا على تلك الحال إلى غاية القرن الخامس الهجري (11م)، ويؤكد ذلك ابن حزم حيث يقول: "وبنو يحيى بن كثير صاحب مالك وكانت لهم ثروة وعدد"[1].

لقد اكتسب آل أبي عيسى هذه الثروة نتيجة للعمل الإداري، وبخاصة في وظائف القضاء والخدمات التي قدموها لحكّام الدولة الأموية بالأندلس، إضافة إلى ممارستهم للنشاط التجاري، واستغلال الأراضي الزراعية التي كانت بحوزتهم، وتؤكد ذلك كثير من الإشارات الواردة في المصادر التاريخية بمختلف أنواعها، من ذلك أن يحيى بن كثير قد قام بسفارة إلى الشام بطلب من الأمير عبد الرحمن بن معاوية، كما تولى تسيير شؤون الجزيرة الخضراء وشذّونة[2].

كما اجتمعت لابنه يحيى بن يحيى بفضل ما تركه مؤسس هذا البيت البربري، إضافة إلى المهام الإدارية التي قام بها في عهد عبد الرحمن الأول ثروة كبيرة قام الأمير الحكم بن هشام بمصادرتها عقب تمرد أهل الربض سنة 202هـ - 818م، هذا التمرد الذي اتهم يحيى بن يحيى بالضلوع في التحريض عليه، ولإنقاذ حياته اضطرّ الفقيه البربري إلى الفرار من قرطبة، والاستقرار في مدينة طليطلة بعد ما لجأ قبلها إلى بني عمومته من مصمودة، ولكنه اضطرّ إلى مغادرتهم لأنهم "راموا الفتك به لأخذ ما كان على بطنه من المال"،[3] ولو لم يكن معه مال كثير لما فكّر قومه في الفتك به خاصة وأن الحكم الربضي كان قد صادر معظم ممتلكاته وبخاصة أمواله عقب تمرد الربض كما ذكرنا سابقا.

عاد يحيى بن يحيى إلى قرطبة في آخر أيام الأمير الحكم بعدما "بذل له الأمان، وردّ عليه متاعه وماله"، ومما يدل على ثرائه الكبير هو بيعه لجميع عبيده بعد

---

(1) ابن حزم - جمهرة أنساب العرب - ص 500.

(2) الخشني - أخبار الفقهاء والمحدثين - ص 348.

(3) القاضي عياض - ترتيب المدارك - ج 1 ص 316.

عودته مباشرة إلى قرطبة واستبدالهم بآخرين،[1] وذلك من أجل ضمان عدم معرفة عبيده الجدد لما حدث له سابقا من اضطهاد ومطاردة، ويضاف إلى ذلك أنه "كان يلبس الوشي الرفيع يريد القطني، ثمنه المال العظيم في الأعياد والدخول على الأمراء".[2]

استمرّ ثراء آل أبي عيسى بعد يحيى بن يحيى، من ذلك أن حفيده يحيى بن عبد الله بن يحيى "كان من سراة الناس، حسن المركب والملبس، كريما، يطعم الطلبة إذا ما تم مجلس مناظرته من ثمار بستانه، فإن فضل شيء دفعه إلى الغرباء يحملونه إلى منازلهم".[3]

من خلال النص الأخير يتبين بوضوح ثراء آل عيسى، فإلى جانب الأموال والعبيد الموروثين عن الأجداد، يرد ذكر بستان يحيى بن عبد الله بمعنى امتلاك هذا البيت لأراضي زراعية سواء كان هذا التملك عن طريق شراء الأرض أو عن طريق نيلها من الحكام كهبة.

إضافة إلى بيت أبي عيسى الذي برز كثير من أفراده في مجال القضاء كما سبق أن ذكرنا ذلك، ترد في المصادر إشارات تثبت ثراء بيوتات بربرية أخرى، ومنها ما أورده ابن حزم عند كلامه عن هذه البيوتات بالأندلس؛ فعند حديثه عن بني فرفرين ولاة مدلين يقول: "وكانت لهم ثروة وعدد".[4]

ويكرر نفس الملاحظة عند ذكره لبني جهور المرشانيين، وهم من ولد أبي موسى عبد الرحمن بن موسى الفقيه،[5] وعن بني عبد الوهاب، وهم من ولد ميمون بن أبي جميل، وهو ابن أخت طارق بن زياد يقول: "وكانت لهم ثروة وعدد".[6]

إضافة إلى هذه البيوتات، اشتهر بيت بني الزجّالي بثروته العقارية، وما يؤكد

---

(1) نفسه - ج 1 ص 316.
(2) نفسه - ج 1 ص 315.
(3) نفسه - ج 2 ص 90.
(4) ابن حزم الأندلسي - جمهرة أنساب العرب - ص 500.
(5) نفسه - ص 500.
(6) نفسه - ص 502.

ذلك هو "امتلاك مؤسس هذا البيت البربري لحير الزجّالي، وهو من أجمل المنتزهات وأبدعها بمدينة قرطبة"،[1] إضافة إلى امتلاكه "لبلاد السّهلة الواقعة بين الثغر الأقصى والأدنى من قرطبة، وليس في بلد الثغر أخصب بقعة من سهلته المنسوبة إلى بني رزين"،[2] ونتيجة لامتلاك هذه الأراضي الخصبة كثر مال أصحابها إلى درجة جعلت أحد أبناء هذه الأسرة خلال الفتنة القائمة بالأندلس "أرفع الملوك همّة في اكتساب الآلات واقتناء القينات"، والدليل على ذلك هو شراءه "لجارية الطبيب أبي عبد الله الكناني بثلاثة آلاف دينار".[3]

لم يقتصر الثراء على البيوتات البربرية التي استقرت ببلاد الأندلس منذ فتحها على يد طارق بن زياد بل تعدّاه إلى البربر الطارئين على هذه البلاد خلال القرن الرابع الهجري، من ذلك أن عبد الملك بن محمد بن أبي عامر قلّد زاوي بن زيري بن مناد زعيم صنهاجة وزارته ولكن هذا الأخير رفضها، وسبب ذلك نجده في ردّه على رسول عبد الملك المظفر إذ يقول له: "إن خطّتنا ألإمارة لا الوزارة"، أي أنه استصغر هذه الوظيفة، وأعرض عن قبول توليها، "فبلغ ذلك المظفر، فحقدها له وقطع عنه الجراية"، ونتيجة لذلك أخرج زاوي من ذخائره أعلاقا نفيسة، وذخائر عظيمة القدر فباعها، وأنفقها على قومه صنهاجة، وربما اشترى منها المظفر في خفية"[4]، وهو الذي كان يسعى من وراء قراره بقطع الجراية عنه إلى معاقبته من جهة، وجعله يتراجع عن موقفه من جهة أخرى.

إن هذا النص يثبت بما لا يدع مجالا للشك أن زعيم صنهاجة قد نقل معه في هجرته إلى الأندلس ثروة كبيرة كانت تغنيه ومن كان معه من قبيلة صنهاجة عن الحاجة إلى ما تقدمه الدولة لهم.

---

(1) السيد عبد العزيز سالم - قرطبة حضارة الخلافة في الأندلس - ج 1 ص 212.

(2) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 3 ص 181 - 182.

(3) نفسه - ج 3 ص 308.

(4) أبو بكر بن العربي - ترتيب الرحلة للترغيب في الملّة - مخطوط رقم ك 1275 - الخزانة العامة - الرباط - ص 154.

إن هذه الإشارات وغيرها الواردة في طيات المصادر المختلفة تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن هناك فئة هامة من البربر قد تمكنت من تحسين مستواها الاقتصادي، ومن مكانتها الاجتماعية بفضل الوظائف الإدارية والقضائية التي حصلت عليها، ولكن ذلك لا ينطبق على الأغلبية الساحقة من المغاربة الذين لم تتوفر فيهم شروط تولي هذه المناصب المختلفة.

إلى جانب الفئات الاجتماعية السابقة، والمتمثلة في ذوي الكفاءات العلمية، استفاد أمراء الثغور من نفس الامتيازات التي حصل عليها البربر الذين تولوا وظائف هامة في الدولة، ذلك أن هؤلاء الأمراء قد حصّلوا على الإقطاعات الزراعية التي كانت توزّع على بعض البيوتات والقبائل العربية والبربرية في الكور والمدن الأندلسية بهدف استغلالها، وأخذ عطائهم من أموالها، وإرسال الفائض إلى الحضرة، وفي مقابل ذلك كان على كل بيت أو قبيلة أن تقدم عددا معينا من ابنائها في وقت الحرب.[1]

ومن أبرز الأمثلة على ذلك الإقطاع الذي حصل عليه بيت بني رزين، ويتمثل في بلاد السهلة التي امتلكها رزين البرنسي منذ عصر الولاية، وقد حازها ضمن الإقطاعات التي استحوذ عليها العسكر، وأورثها هذا البربري عقبه من بني رزين، وبذلك صاروا في عصر الإمارة أمراء السهلة بدون منازع، وأصبحت لهم ثروة كبيرة، كما تنسب إليهم أيضا الجنان التي كانت تجاور عين قبش بقرطبة.[2]

إن نسب البربر لم يحل دون وصولهم إلى أسمى الوظائف الإدارية في الدولة الأموية بالأندلس، وبالتالي احتلال مكانة هامة ضمن فئات المجتمع، ويؤكد ذلك ابن الأبّار عند ترجمته لسليمان بن وانسوس حيث يقول إنه: "علق حبال الخدمة، فتصرف للسلطان في أعمال كثيرة إلى أن ارتقى الذروة في خطّة الوزارة للأمير عبد الله، وصارت له حظوة"[3].

---

(1) الطرطوشي - سراج الملوك - تحقيق محمد فتحي أبو بكر - الدار المصرية اللبنانية - القاهرة - ط1 - 1414هـ - 1994م - ص229/العبادي - الأندلس: الدرس والتاريخ - ص11.

(2) مجهول - مفاخر البربر - ص267/عبد الرحمن علي الحجي - التاريخ الأندلسي - ص 138.

(3) ابن الأبّار - الحلة السيراء - ج 1 ص 160.

ويشبهه في ذلك بربري آخر "تجرّد للعليا، وتمرّد في طلب الدنيا، حتى بلغ المنى، ووصل إلى المنتهى، وحصل على ما اشتهى"، ذلك هو جعفر بن عثمان المصحفي الذي "استوزره المستنصر، وعنه كان يسمع وبه يبصر، فأدرك بذلك ما أدرك، ونصب لأمانيه الحبائل والشرك، واقتنى وادخر، وأرزى بمن سواه وسخر".[1]

لقد تمكّن هذا المغربي من أن يصير أحد أبرز رجال الخلافة الأموية في عهد الحكم المستنصر، وفي بداية عهد ابنه هشام المؤيد حيث "أقام في تدبير الأندلس، وهو يجري من السعد في ميدان رحب، ويكرع من العزّ في مشرب عذب".[2]

إن هذين النموذجين مجرد مثالين على المكانة الاجتماعية التي احتلها البربر بالأندلس، ويعود فضل ذلك في غالب الأحيان إلى اعتلائهم لمناصب إدارية مكنتهم من تحسين مستواهم المادي، ومن ثم تبوؤوا مراكز هامة في الهرم الاجتماعي للأندلس، ويؤكد ذلك ابن حزم عند ذكره للبيوتات البربرية المتواجدة بالأندلس حيث يقول: "فكان منهم أمراء وقواد وعلماء وقضاة وكتّاب وصالحون وأولياء"[3]، كما أنهم أصبحوا زعماء كيانات إقطاعية، ويذكر المؤرخون العديد من هذه الكيانات البربرية، ومنهم العذري الذي يتحدث عن عبد الكريم بن إلياس البربري فيقول إنه: "كان من أهل الوجاهة، وأنه عندما توفي سجّل الأمير عبد الله بن محمد لابنه على المنطقة التي كان يحكمها أبوه"[4]، وكان عبد الكريم بن إلياس قد دخل في خدمة الأمويين فحصل على إقطاع، وعرفت أرضه بأرض مغيلة في كورة شذّونة، وهو الذي أنشأ قلعة الورد التي استقرّ فيها أبناؤه بعد وفاته[5].

ويؤكد ابن حيان نفس الأمر عند كلامه عن أحداث سنة 361هـ - 955م حيث

---

(1) ابن خاقان الفتح - مطمح الأنفس ومسرح التأنس - ص 153 - 154.

(2) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 255.

(3) ابن حزم - جمهرة أنساب العرب - صص 499 - 502.

(4) العذري - ترصيع الأخبار - ص 113.

(5) E. Manzano Moreno - Bereberes de el Andalus: los Factores de una Evolucion Historica in el Qantara - CSIC - Madrid 1990 vol XI Fasc. 1 p 426.

يقول: "وفي هذا التاريخ توصل إلى أمير المؤمنين يحيى بن هذيل بن رزين وبنوه وبنو أخيه المتوفى وكانوا أربعة، أحمد وعبد الرحمن ومسرورا وحسينا ولبّا، وبني عيسى بن مروان، فرسانا نبهاء، وأثنى عليهم ووعدهم بجميل، وقسم بينهم عمل والدهم مروان أقساما، سجل لكل واحد منهم على قسطه منها عن تراض منهم واتفاق بمحضر الوزراء في بيتهم، وذلك في عقب جمادى الأولى منها".[1]

ويضيف ابن حيان: "وفي آخر رجب منها سجل الخليفة المستنصر بالله للخمسة من ولد عمريل بن تمليت المغربي المتوفى: عبد الرحمن وحكم ومضا وغالب وزروال على عمل أبيهم عمريل، مسهما فيه بينهم على رضى منهم وتسليم بين يدي الوزراء في بيتهم".[2]

إن هذا النوع من الإقطاع، والذي يسمى بإقطاع التسجيل هو ظاهرة جديدة بالأندلس، ويتمثل في إشراف سياسي يقوم به صاحب الإقطاع، ومن خلاله يقوم بممارسة السلطة السياسية على تراب الإقطاع، وذلك بموجب عقد يربط بينه وبين حاكم قرطبة، ويقوم على ثلاثة شروط أساسية هي:

1 - الولاء للحكم المركزي المتمثل في الخليفة إذ لا يمكنه بموجب ذلك أن يتحالف مع دول أخرى ضدّه، ولا يستطيع إقامة علاقات سياسية معها، ولا تبادل سفارات بينه وبينها، وبعبارة أخرى فهو لا يغدو أن يكون تابعا للخليفة في كل ما يتعلق بالعلاقات الخارجية إذ يلتزم تماما بالخط الذي ينتهجه حاكم قرطبة.

2 - أداء الجباية السنوية له.

3 - المشاركة في كل الغزوات التي يجردها الخليفة ضد أعدائه سواء تعلق الأمر بالنصارى، أو بالمسلمين المنتزين على حكّام قرطبة[3].

لقد كان لهذا الإقطاع أثر كبير في الوضعية الاجتماعية للبربر من ذلك أن بيت

---

(1) ابن حيان - المقتبس - ج 6 ص 72.

(2) نفسه - ص 73.

(3) القادري بوتشيش - أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي - ص 183 - 184.

بني ذي النون البربري لم يكن له قبل الحقبة الإقطاعية قيمة اجتماعية تذكر، ولكنه ابتداء من حكم الأمير محمد بن عبد الرحمن أصبح بيتا "ذا نباهة" على حدّ تعبير ابن سعيد(1).

إضافة إلى البيوتات البربرية التي تحصلت على الإقطاعات الزراعية، وتمكنت بواسطتها من تحسين مكانتها الاجتماعية، شكّل العاملون بالجيش إحدى الشرائح التي تسلقت الهرم الاجتماعي، وبما أن البربر كانوا في غالب الأوقات من العناصر الرئيسة المشكلة للجند، فإنهم قد استفادوا من امتيازات كثيرة سبق أن أشرنا إليها عندما تكلمنا عن دوافع الهجرة إلى الأندلس والاستيطان بها.

كان حجم هذه الامتيازات يختلف من فترة لأخرى، وكان ذلك متوقف بالدرجة الأساسية على درجة قوة السلطة المركزية، فكلما كانت قوية كان على هؤلاء العسكر الخضوع والذوبان، وكلما كانت السلطة ضعيفة كلما أمكن لهؤلاء الاستفادة من امتيازات واسعة بل كانوا في أحيان كثيرة يتمتعون باستقلال تام عن حكّام قرطبة.

تندرج شريحة وزراء وعمال الإمارة أو الخلافة في عداد الطبقة الإقطاعية، وقد استمدّ هؤلاء مكانتهم من حاجة الدولة إليهم في تسيير شؤون الإدارة(2)، وتورد المصادر المختلفة وبخاصة كتب الأنساب والتراجم أسماء الكثير من البيوتات البربرية التي احتكرت الوظائف الإدارية كبيت بني الزجّالي الذي تولى عدد من أفراده خطتي الكتابة والوزارة إضافة إلى منصب ولاية الكور لحكّام قرطبة، وبيت بني الخروبي وبني وانسوس المكناسي وغيرها، وقد سبق أن تعرفنا على أبرز رجالات هذه البيوتات الذين تقلدوا مناصب إدارية هامة في قرطبة.

بفضل احتكارها لهذه الوظائف الإدارية، تمكنت هذه العائلات من جمع ثروة هائلة أضافتها إلى ما استثمرته من أملاكها الإقطاعية، وصارت بفضل ذلك كله تحتل

---

(1) ابن سعيد - المغرب في حلى المغرب - ج 2 ص 12 / القادري بوتشيش - نفس المصدر - ص 138.

(2) Manuel Sanchez - al andalus 711 - 1031 in historia de Espana - ano - extra oct. 1980 Madrid p 87.

موقعا هاما في الخريطة الاجتماعية، وكثيرا ما لجأ إليها حكّام قرطبة عند وقوعهم في ضائقة مالية[1].

ولكن نقطة ضعف هذه البيوتات هي عدم ثبات المناصب التي تتغير بتغير الأمراء أو الخلفاء الذين كانوا يقيلون هؤلاء الموظفين من مناصبهم، وفي أحيان كثيرة يجردونهم من كافة الامتيازات التي سبق وأن حصلوا عليها، وأبرز مثال على ذلك ما حدث للحاجب جعفر بن عثمان المصحفي الذي لم يكتف هشام المؤيد بعزله من منصبه باقتراح من محمد بن أبي عامر، بل قام "بالقبض على جعفر وعلى ولده وعلى أخيه هشام وسائر أقاربه وطولبوا بالأموال"، ويدخل ذلك الإجراء ضمن سلسلة الأعمال التي قام بها المنصور محمد بن أبي عامر بهدف الوصول إلى هرم السلطة بقرطبة، وكان جعفر المصحفي ثاني حلقة في هذه السلسلة بعد تخلصه من الصقالبة"[2].

كما يذكر ابن الأبّار أن الأمير عبد الله بن محمد عزل عبد الله الزجّالي عن خطتي الوزارة والكتابة لموجدة أوجدها عليه"[3].

من خلال ما سبق نلاحظ أن ظاهرة عزل الموظفين الكبار كانت من الأمور العادية في دولة بني أمية بالأندلس، وبالتالي فإن أصحاب هذه الوظائف معرضين في أي وقت لفقدان مراكزهم الاجتماعية، وإن كان ذلك قليل الحدوث مع الموظفين البربر إذ لم نسجل إلاّ الحالتين السابقتين فقط.

إلى جانب موظفي الإدارة، احتلّ الفقهاء مكانة هامة في المجتمع الأندلسي، وذلك بفضل تقلدهم للوظائف القضائية الهامة التي مكّنتهم من الحصول على امتيازات واسعة جعلتهم يكتسبون سلطة اجتماعية مرموقة، وبفضل هذه السلطة حصلوا على الأراضي، ومن أبرز الأمثلة على ذلك أسرة أبي عيسى بن يحيى الليثي التي جمعت

---

(1) Levi Provençal - opcit - T. II p 337..-

(2) ابن الأبّار – الحلة السيراء – ج 1 ص 259.

(3) ابن الأبار – إعتاب الكتاب – تحقيق صالح الأشتر – مطبوعات مجمع اللغة العربية – دمشق – 1961م ص 172.

ثروة هامة بفضل قيام أفرادها بتقديم خدمات خاصة للأمراء أو تولي وظائف القضاء، ومما لا شك فيه أنها استثمرت هذه الثروة في شراء الأراضي الزراعية واستغلالها، وكان إنتاج هذه الأراضي كبيرا إلى درجة جعلت أحد أفراد الأسرة، وهو يحيى بن عبد الله بن يحيى بن يحيى الليثي "يطعم الطلبة إذا ما تم مجلس مناظرته من ثمار بستانه، فإن فضل شيء دفعه إلى الغرباء يحملونه إلى منازلهم"[1].

إن هذا النص يدّل بوضوح على أهمية الإنتاج الذي يدّره هذا البستان إلى الدرجة التي تمكن من إطعام عدد كبير من الطلبة، وإطعام أهاليهم خاصة وأن معظم الطلبة يأتون من جهات خارجة عن عاصمة بني أمية بالأندلس، ودليلنا على كثرة عدد الطلبة لدى هذا الفقيه هو ما أورده ابن الفرضي حيث يقول: "اختلفت إليه في سماع حديث الموطأ سنة 366هـ - 976م؛ فتّم لي سماعه منه، وسمعت منه كتاب التفسير لعبد الله بن نافع، ولم أشهد بقرطبة مجلسا أكثر بشرا من مجلسنا في الموطأ"، ويضيف في مكان آخر لتأكيد العدد الكبير الذي كان يقصد يحيى بن عبد الله من أجل سماع الموطأ فيقول: "وسمع من يحيى بن عبد الله الموطأ جماعة من الشيوخ والكهول وطبقات من الناس، وسمع منه أمير المؤمنين المؤيد بالله سنة 364هـ - 974م[2].

لقد احتل الفقهاء البربر مكانة هامة في الأندلس إلى درجة أنهم إلى جانب مهام القضاء كانوا يقومون بأعمال أخرى هي في الأصل من اختصاص الإداريين أو قادة الجيش، من ذلك أن الناصر لدين الله كان شديد الثقة في قاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن عبد الله حيث كان "لا يخليه من تصريفه في مهماته، وإخراجه في السفارات إلى كبار الأمراء، والأمانات إلى الثغور والأطراف للإشراف عليها والإعلام بمصالحها، والبنيان لحصونها، وترتيب مغازيها، وإدخال جيوشها إلى بلد الحرب، وربما أقامه في ذلك مقام أصحاب السيوف من قواد جيوشه فيغني غناهم بحسن

---

(1) القاضي عياض - ترتيب المدارك - ج 2 ص 90.

(2) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 2 ص 920.

تدبيره"[1].

نتيجة للمكانة التي احتلها الفقهاء عند حكام بني أمية، اكتسبوا موارد اقتصادية سمحت لهم بتحسين مكانتهم الاجتماعية، واحتلال مركز مرموق في المجتمع الأندلسي.

إضافة إلى آل أبي عيسى بن يحيى الليثي، احتلّ بربري آخر مكانة هامة في الدولة بحكم توليه وظيفة القضاء، ويتعلق الأمر بأبي العباس أحمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان الذي "ولاّه المنصور القضاء، وكان من جملة أصحابه، ومحلّه منه فوق محلّ الوزراء يفاوضه في تدبير الملك وسائر شؤونه، ولم يتخلف عنه في غزوة من غزواته، ولا فارقة في ظعن ولا إقامة، وكذلك كان حاله مع ولديه المظفر والمأمون بعده قد تيمنوا برأيه، وعرفوا النجاح في مشورته"[2].

إن المكانة التي احتلها أبو العباس بن ذكوان من المنصور بن أبي عامر وولديه وهم الحكام الفعليين لدولة بني أمية في غياب خليفة قوي قد مكنته من احتلال مركز يحسد عليه في المجتمع الأندلسي، ونتيجة لذلك كثرت دسائس الحسّاد عليه، وهو الأمر الذي جعل المظفر عبد الملك يعزله من منصبه لفترة زمنية قصيرة، ولكنه أعاده فيما بعد إلى منصبه فاسترجع مكانته وبالتالي امتيازاته[3].

إلى جانب الفقهاء، اكتسبت شريحة أخرى من المجتمع الأندلسي مكانة هامة بفضل ما نالته من أموال، وحصلت عليه من امتيازات، ويتعلق الأمر بالشعراء الذين سعى الحكام إلى التقرب منهم، والإغداق عليهم مقابل الإستفادة من مواهبهم الشعرية لتخليد أعمالهم المختلفة، أو لتبليغ الأمة إنجازاتهم المتنوعة، وبخاصة في المجال العسكري، وأعني بذلك انتصاراتهم على أعدائهم.

كان هؤلاء الشعراء يضفون على حكّام بني أمية وكبار موظفيهم هالة من

---

(1) القاضي عياض - نفس المصدر - ج 2 ص 85 - 86.

(2) نفسه - ج 2 ص 254.

(3) نفسه - ج 2 ص 254.

العظمة من خلال القصائد الشعرية التي ألفوها، وخلدوا بها أعمال هؤلاء.

ومن خلال المبحث المخصص للمساهمة البربرية في الحياة العلمية والثقافية، عرفنا أن هناك عددا كبيرا من البربر الذين نبغوا في مجال الشعر، وكان بعضهم من "المادحين للأمراء والخلفاء"، وأبرز هؤلاء الشعراء المغاربة الذين كانوا من المقربين لحكام بني أمية وكبار الموظفين في دولتهم، عباس بن ناصح المصمودي الذي ذكره ابن الفرضي، وقال إنه: "لم يزل مترددا على الحكم بن هشام بالمديح"[1]، وعباس بن فرناس الذي "تداول صحبة السلاطين الثلاثة، ومدحهم أجمعين"[2].

وجعفر بن عثمان المصحفي الذي مدح الحكم المستنصر بالله وابنه هشام المؤيد بالله، وقد نال مكانة هامة جعلت البيوتات العربية المقربة من حكام بني أمية تتحالف ضده، وتشجع محمد بن أبي عامر على البطش به، وتجريد أهله من جميع الامتيازات التي اكتسبوها في ظل زعامته لهذا البيت البربري[3]، ويؤكد ذلك ابن عذاري حيث يقول: إن المنصور بن أبي عامر "انبرى إلى المصحفي بصدر كان قد أوغره، وجدّ سام طال ما استقصره، فأباده ونكبه، وسلب جاهه وانتهبه...ونهب له مدّخرا ومختزنا ودمّر عليه ما كان حاط"[4].

وأبو عمر أحمد بن درّاج القسطلي الذي مدح المنصور بن أبي عامر وولديه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن شنجول، إضافة إلى مدحه لعدد هام من خلفاء قرطبة خلال الفتنة، وملوك الطوائف بعدها، وذكره ابن حيان معجبا من أخباره، معربا عن جلالة قدره، فقال: "وأبو عمر القسطلي سبّاق حلبة الشعراء العامريين، وخاتمة محسني أهل الأندلس أجمعين، وكان ممن طوّحت به تلك الفتنة الشنعاء، واضطرّته إلى النجعة، فاستقرى ملوكها أجمعين ما بين الجزيرة الخضراء، فسرقسطة من الثغر الأعلى

---

(1) ابن الفرضي - نفس المصدر - ج 2 ص 256.

(2) ابن سعيد - المغرب في حلى المغرب - ج 2 ص 256.

(3) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 267 - 268.

(4) نفسه - ج2 ص256.

يهزّ كلاّ بمديحة، ويستعينهم على نكبته"[1].

إن هؤلاء الشعراء وغيرهم قد تمكنوا بفضل مواهبهم الشعرية من احتلال مكانة هامة لدى حكام قرطبة وكبار موظفيها، وسمحت لهم هذه المكانة من الحصول على الكثير من الهبات المالية ونيل المناصب العليا لهم وللكثير من أفراد أسرهم، وهي الأمور التي مكنت هؤلاء البربر من ارتقاء السلم الاجتماعي في العدوة الأندلسية.

من خلال ما سبق يتضح جليا أن فئة هامة من البربر قد تمكنت من الوصول إلى قمة الهرم الاجتماعي لبلاد الأندلس، وذلك بفضل ما قدمته من خدمات عسكرية وإدارية وقضائية للسلطة الحاكمة بقرطبة،[2] أو من خلال ما أبدعته من شعر في مدح الحكام وكبار رجال الدولة.

إذا كانت هذه النخبة البربرية قد تمكنت من تحسين مستواها المادي، ومن ثمّ مكانتها الاجتماعية ضمن السلم الاجتماعي لبلاد الأندلس، فإن الأغلبية الساحقة للبربر، والتي لم تزودنا المصادر على اختلاف أنواعها بكل المعطيات المتعلقة بها، قد ظلت بدون شك تحت سيطرة ذوي الملكيات الزراعية الكبيرة سواء من البربر أو العرب، وبالتالي فقد ظلّت جزءا من اليد العاملة في الميدان الزراعي مقابل الحصول على دخل يسمح لها بالاستمرار على قيد الحياة، ولكن وفي غياب المعطيات التاريخية يبقى من الصعب علينا الخروج بصورة واضحة وكاملة عن الوضعية الاقتصادية والاجتماعية لهؤلاء المغاربة.

ومع ذلك فإنه بإمكاننا التعرف على أبرز الحرف التي كان البربر يشتغلون بها من خلال النص القيّم الذي يقدمه لنا مؤلف كتاب "بيوتات فاس الكبرا" الذي يخصص وريقات من مؤلفه لذكر أهم العناصر التي دخلت الأندلس عقب فتحها من طرف المسلمين، والحرف التي اشتغلت بها رفقة العناصر الأخرى التي كانت متواجدة بها، وأصبحت تعيش في كنف الحكم الإسلامي.

---

(1) نفسه - ج 2 ص256/ ابن بسام - نفس المصدر - ق 1 م 1 - ص 60 - 61.

(2) القادري بوتشيش - نفس المرجع - ص 136.

يورد لنا المؤلف جملة من الحرف التي مارسها البربر حيث يقول: إنهم "احترفوا بجلب البقر والقمح والسمن والزيت والعسل والصوف والدجاج والفواكه والملح والأعواد وخدمة الفحم والخشب ونحو ذلك"، وهذه الحرف كلها من عمل المقيمين من المغاربة في البوادي، أما الذين كانوا يقيمون في المدن الأندلسية، وبخاصة منها الجنوبية والغربية؛ فإنهم "احترفوا ضفر الحلفة، وخدمة الأوعية أي السلل للزرع، وفتل القنب والمحاريث والبراذع للبهائم والحبال، والشطاطيب لكنس الديار وبيعه في الأسواق، وخرز الدلاء، وجلب الماء والبناء، وطبخ الجير والجبس، ونحو ذلك".[1]

من خلال هذا النص يتبين لنا أن البربر كانوا يشتغلون في عمومهم بمهن حقيرة كالرعي ونقل المواد الزراعية والنباتية بالنسبة لسكان البوادي، أما أهل المدن فإنهم لم يكونوا بأحسن حال منهم إذ كانوا يشتغلون بصناعة الأدوات المخصصة لجمع الثمار ووسائل حراثة الأرض وأدوات التنظيف وجلب الماء ونقله إلى أهل المدن إضافة إلى العمل بالبناء وتوفير المواد الضرورية لذلك من جير وجبس.

إن هذه الحرف تعطينا صورة واضحة عن المكانة التي كان يحتلها هؤلاء البربر في السلم الاجتماعي الأندلسي، ومن ثمّ المكانة الاقتصادية المتدنية لشريحة واسعة منهم على الرغم من أنهم كانوا الفاتحين الأوائل للبلاد، ومن أجل القيام بذلك تحملوا الصعوبات الجسام، وستتضح الصورة أكثر عندما نقوم بمقارنتهم بالعنصر الثاني الذي ساهم في عملية الفتح، وأعني بهم العرب الذين مارسوا نشاطات تدلّ على هيمنتهم وتحكمهم في مقاليد الأمور بالعدوة الأندلسية.

يقول ابن الأحمر، وهو يتحدث عن الأعمال التي كان العرب يقومون بها: "أما بنو هاشم وقريش وبنو إسماعيل وبنو قحطان فإنهم احترفوا في الحلول بها الحرف التي ليست بخاملة نحو تدريس العلم والتوريق على الكراسي[2]، وتحمل الشهادة

(1) إسماعيل بن الأحمر - بيوتات فاس الكبرا - دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط - 1972م - ص24.

(2) سرد كتب الوعظ في المساجد - نفسه - ص 23 هامش 32.

والنساخة للكتب، وتعليم الصبيان وإمامة المساجد، والوقوف عليها على نحو إصلاح وقبض كراء وولاية نظارة وحسبة، وكتابة عند الملوك، ووزارة وولاية الأمور الصالحة، ومن احترف منهم فاحترف الفلاحة وخدمة آجنّات[1] غلّة وغرس ونسج حرير وبيع عطر...ومن تدقع منهم يبيع الفاكهة والخبز والخضر"، ويضيف أن أهل التصرّف والشورى "يدخلون في عداد الجيوش من أهل الحلّ والعقد"[2].

نلاحظ إذا الفرق الشاسع والهوّة الكبيرة التي تفصل بين البربر والعرب في مجال النشاط، ومن ثمّ في المكانة الاجتماعية، ذلك أن العنصر الثاني قد احتكر كل النشاطات والوظائف الهامة، وأصبح بذلك يهيمن على العدوة الأندلسية، وعندما نجحت بعض العناصر الاجتماعية غير المنتمية إلى العرب في الوصول إلى هذه النشاطات والوظائف قامت القيامة، وأعلن العرب الحرب على من تطاولوا وأرادوا الوصول إلى مركز السيادة في العدوة الأندلسية، ونتيجة لذلك دخلت البلاد في دوامة الاقتتال والتدمير الذاتي.

صورة البربر في الأندلس: لقد رسمت معظم المصادر الأندلسية المؤلفة خلال القرن الخامس الهجري صورة سلبية للغاية للبربري حيث هاجمته في تدينه وعاداته وإمكاناته العقلية، كما جرّدته من كل قدرة على الابتكار والإبداع، وهو ما يدلّ على الكراهية الشديدة التي كان الكتاب الأندلسيين يُكنّونها للبربر، ويعود هذا الموقف العدائي إلى سببين رئيسيين: أولهما انتماء هؤلاء الكتّاب إلى عصبيات معادية للبربر، وبخاصة منها العصبية العربية، وقد أوضحنا في الفصول السابقة جذور هذه العداوة وأسبابها المختلفة.

ثانيها يتمثل في أن هؤلاء الكتاب، وبحكم انتمائهم العرقي، قد حمّلوا البربر دون غيرهم مسؤولية استبداد محمد بن أبي عامر بالحكم دون بني أمية، ومن ثم اعتبروهم المسؤولين المباشرين عن الأحداث المؤلمة التي وقعت خلال القرن

(1) أجنّات: يريد الجنات أي الحدائق والرياض على غير قياس - نفسه - ص23 هامش 33.

(2) نفسه - ص 23.

الخامس الهجري، وسنعود إلى هذه الأسباب بالتفصيل حين تناولنا لأحداث الفتنة الأندلسية وتطورها وأسبابها البعيدة والمباشرة.

والقاسم المشترك الذي يجمع بين معظم هؤلاء الكتّاب الأندلسيين هو أنهم من الذين كتبوا مؤلفاتهم خلال القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، وما بعده أي أنهم من الذين عايشوا فتنة هذا القرن أو فترة ملوك الطوائف، وبمعنى آخر فإنهم كانوا شهود عيان للإضطرابات السياسية التي حدثت بالأندلس بين المسلمين، وكان البربر طرفا رئيسا فيها، ومن أبرز هؤلاء الكتّاب الذين أساءوا لصورة البربر الفقيه ابن حزم القرطبي الذي ينقل عنه مؤلف كتاب فتح الأندلس قوله: إن "كفار البربر كانوا أشرّ كفار، فإنهم ليسوا أهل كتاب، ولا ارتباط لهم بشرع، وكذلك مسلموهم، شرار المسلمين وأكثرهم غائلة"[1].

إن ابن حزم ينفي بهذا الكلام حدوث أي تغيير على الإنسان البربري؛ فالمسلم من المغاربة شبيه بالكافر مع أن هؤلاء قد أسلموا وحسن إسلامهم، وأكبر دليل على ذلك هو اشتراكهم في الفتوحات الإسلامية، وإيصال كلمة الإسلام إلى جزء كبير من جنوب غرب أوربا، وبخاصة إلى بلاد الأندلس، ولولا هؤلاء المغاربة لما صمد المسلمون في وجه الهجمات التي كان يشنها النصارى على دار الإسلام بالأندلس، إضافة إلى الدور الكبير الذي قام به الفقهاء البربر في نشر المذهب المالكي بهذا البلد، وبخاصة على يد يحيى بن يحيى الليثي، ويؤكد ذلك أبو عبد الملك بن عبد البر حيث قال متحدثا عن يحيى بن يحيى: "وبه وعيسى بن دينار انتشر مذهب مالك، وانتهى الناس إلى سماع الموطأ من يحيى وأعجبوا بتقليده، فقلدوه وتبعوه"[2].

لم يكن ابن حزم الوحيد الذي رسم هذه الصورة السيئة للغاية للبربر، بل جاراه في ذلك كتاب آخرون، ومنهم أبو مروان بن حيان الذي تتسم كتاباته بالازدراء الشديد للبربر، فهو يقول عنهم في أحد عناوين كتاب المقتبس: "أمم البرابر المنكرة الذين

---

(1) مجهول - فتح الأندلس - ص 55.

(2) القاضي عياض - ترتيب المدارك - ج 1 ص 311.

أحلّوا بعد حين ببلد الأندلس الفاقرة"[1]، وعن أحد فرسانهم وزعمائهم يقول: "ونعي إلينا عدو نفسه، زاوي بن زيري موقد الفتنة بعد الدولة العامرية...فلقد كان في الظلم والجور والاستحلال للمحارم والقسوة آية من آيات الله، أهان الله مثواه ولا قدّس صداه"[2].

ومنهم أيضا أبو مروان الورّاق الذي قال: "لما كثر ظلم هؤلاء البرابر وطغيانهم وعيثهم وفسادهم، أرسل الله عليهم المعتضد بن عباد؛ فلم تزل الحرب تأكل فرسانهم وأبطالهم وشجعانهم إلى أن تجفلوا بالدولة"،[3] وقال المؤلف نفسه "غزا يوسف بن تاشفين زناتة وكانوا على غاية من الظلم ونهاية من الجور والتعدي والاستباحة للظلم والقسوة وقطع الطرق، فداموا على ذلك إلى أن حان حينهم وطهّر الله الأرض من رجسهم"[4].

نلاحظ من خلال النصوص السابقة الصورة التي رسمها بعض الكتاب الأندلسيين للبربر حيث لم يفرقوا بين عامتهم وأعيّانهم، فهم يصفونهم بكل الصفات القبيحة التي يمكن أن تكون في البشر من جور وظلم واستحلال للمحارم وقسوة وتعدّ وطغيان، وهي الصفات التي جعلت الأندلسيين، وبخاصة منهم أهل قرطبة يستغلون استيلاء المهدي على الحكم للانتقام منهم، وارتكاب ما هو أدهى من هذه الصفات في حقهم، وسيأتي لاحقا تفصيل ما قام به الأندلسيون ضد البربر، وذلك أثناء تعرضنا لموضوع الفتنة الأندلسية وتطورها.

إن كره الأندلسيين للبربر وعداوتهم لهم كانت من الأمور الواضحة الواردة في أمهات المصادر، ويؤكد ذلك المقّري بقوله: "عرف أهل الأندلس ببغضهم وعداوتهم للبربر، فلا نجد أندلسيا إلاّ مبغضا بربريا وبالعكس"، وهم في نظرهم "نكد وشؤم

---

(1) القاضي عياض – ترتيب المدارك – ج 1 ص 311.
(2) ابن بسام الشنتريني – نفس المصدر – ق 1 م 2 ص 588.
(3) مجهول – مفاخر البربر – ص 182.
(4) نفسه – ص 201.

والدماء عندهم هوان، وإذا غضبوا قتلوا أو جرحوا"[1].

إلى جانب الصفات القبيحة السابق ذكرها، وصف البربر أيضا بالجهل رغم ما أوردناه من أسماء علماء بربر نبغوا في علوم شتى، بل وتفوقوا على غيرهم من أهل الأندلس في كثير منها، وأبرز مثال على ذلك ما أورده ابن عذاري عند حديثه عن أحد البربر حيث يورد لنا قصة جرت بينه وبين المنصور بن أبي عامر فيقول: "وجرت للمنصور غبّ ذلك - قتل الحاجب لابنه عبد الله - مع رجل من أعيان البربر اسمه زطرزون بن نزال البرزالي نادرة، وذلك أنه قال يوما، وقد بسطه في بعض المجالس: "يا مولاي لم قتلت عبد الله ابنك؟ ووصف شجاعته وخصاله، فقال له المنصور: لا يسوءك ذلك؛ فلو لم أفعل لقتلني، ما كان من ولدي؟ وبهذا اتهمت أمّه وكانت أمة سوء، وقد قالوا أن الأرحام الرديّة تفسد الذرية.

فقال الجاهل زطرزون: كذا يا مولاي، فحرام أمه وحرم أبيه"، فخجل المنصور، وقال شقينا بهذا الملعون في حياته وبعد موته"، وعلم ما كان عليه زطرزون من الجهالة؛ فأعرض عنه".[2]

إنه لأمر غريب فعلا أن يوصف هذا البربري بالجهل، وهو على العكس من ذلك، إذ أنّ كلامه يدل على تمكن كبير من اللغة العربية، فبالعودة إلى المنجد نجد أن استعماله لنفس الكلمة أي حرام وحرم تدل على معرفة كبيرة بمعانيها، فهي تدل في كلتا الحالتين على نفس المعنى، وهو "ضد الحلال"، يريد بذلك أن المنصور قد ارتكب فعلا مضادا للحلال من خلال مجامعته لأم عبد الله، ونفس الأمر بالنسبة لهذه الأخيرة[3]، ومع ذلك فهو يوصف بالجاهل رغم كونه من أعيان البربر.

لم يكن زطرزون الوحيد الذي أهين من قبل الكتاب بل هناك أحد الوزراء البربر ممن تعرضوا إلى الإهانة من قبل أحد حكّام بني أمية، ويتعلق الأمر بالوزير

---

(1) سامية مصطفى مسعد - صور من المجتمع الأندلسي - عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - القاهرة - ط1 - 1998م - ص 18.

(2) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 285.

(3) المنجد في اللغة والأعلام - ص 130.

سليمان بن وانسوس الذي سبق، وأن أوردنا ما جرى له مع الأمير عبد الله بن محمد حيث قال فيه هذا الأخير شعرا يذم فيه لحيته، ثم استصغره عندما قال له: "إجلس يابربيري"[1].

إن هذه النصوص تؤكد إجماع هذه الفئة من الكتاب الأندلسيين على رسم صورة سيئة للغاية للبربر، ولم تقتصر هذه الصورة على الفئات الدنيا فقط، بل شملت حتى أعيان البربر وذوي المناصب العليا منهم، ولنا في ما جرى للوزير سليمان بن وانسوس، وكان من رؤساء البربر، أبرز مثال على ذلك؛ فقد سخر منه الأمير أمام زملائه من كبار موظفي الدولة، وهو الأمر الذي جعله يترك القصر، ويتخلى عن الوزارة، ولا يعود إليها إلا بعد إلحاح شديد من الأمير نظرا لحاجته الماسة إليه بسبب كفاءته في تسيير أمور الوزارة الموكلة إليه[2].

لقد كان التهكم بالعنصر البربري قويا لاذعا خصوصا بعد خراب قرطبة، وكان الشاعر خلف بن فرج السميسر الإلبيري[3] شديدا في مهاجمة البربر، لاذعا في السخرية منهم، ومما قاله هذا الشاعر فيهم:

رَأَيْتُ آدَمَ فِي نَوْمِي فَقُلْتُ لَهُ ... أَبَا البَرِيَةِ إنَّ النَّاسَ قَدْ حَكَمُوا

أَنَّ البَرَابِرَ نَسْلٌ مِنْكَ، قَالَ:إذًا ... حَوَّاءُ طَالِقَةٌ إنْ كَانَ مَا زَعَمُوا[4]

كما جرت على ألسنة العامة من الأندلسيين بعض الأمثال الشعبية، وهي في مجموعها توضح كراهية هؤلاء للبربر واحتقارهم لهم، من ذلك المثل الذي يقول: "بحال غازي لا ينكر ولا يعطيك"، ويقول بن شريفة في شرح هذا المثل: يقصد بالغازي البربري إذا استدان وطولب بأداء الدين لا ينكر الدين الذي عليه، ولكنه في

---

(1) ابن الأبّار - الحلة السيراء - ج 1 ص 124.

(2) نفسه - ج 1 ص 124.

(3) هو أبو القاسم خلف بن فرج الإلبيري المعروف بالسميسر، شاعر هجاء، أدرك الدولة العامرية وانقراضها، توفي سنة 480هـ - 1087م - الأعلام - ج2 ص 311.

(4) رياض قزيحة - الفكاهة في الأدب الأندلسي - المكتبة العصرية - صيدا - بيروت - 1418هـ - 1998م - ص 279.

الوقت نفسه لا يؤديه، ومن أمثالهم أيضا: "عطى للبربر شبر، طلب ذراع"، وهو يعبر عن طمع البربر وكثرة طلباتهم[1].

من خلال ما سبق تبدو الصورة المنحطة التي رسمها بعض الكتّاب والعامة للبربر في الأندلس، وكان هؤلاء لا يتركون فرصة تمرّ دون أن يعبروا عن كراهيتهم الشديدة للمغاربة، من ذلك أنه "في يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة 361هـ، دار بين الملحقين من طوائف الجند عند اجتماعهم بباب السدّة من قصر قرطبة تنازع أفضى إلى التصايح؛ فتطاول بعضهم على بعض، واختلط بهم سواد أهل قرطبة متعصبين على الطنجيين؛ فنالت الطنجيين جراحات فاشية، وتدّخل وزير الحشم محمد بن قاسم بن طملس وصاحب الخيل زياد بن أفلح وبين أيديهم طبقات الجند؛ فقبضوا على كثير من الطنجيين وأوقعوا بهم، وسجنوا كثيرا منهم"[2].

إن البربر ورغم ما كانوا يقدمونه من خدمات للأندلس وللمسلمين عامة إلا أنهم كانوا في أعين هؤلاء مجرد غزاة جاءوا بهدف الاستحواذ على الامتيازات التي كانت محتكرة من قبل البيوتات العربية التي سيطرت على الوظائف الإدارية والقضائية منذ بداية الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس، كما استحوذت على معظم الأراضي الزراعية.

لقد أدى تغير سياسة الحكم المستنصر تجاه البربر، واعتماد المنصور بن أبي عامر عليهم في تشكيل جيشه إلى بداية منافسة المغاربة للعرب في الوصول إلى المناصب الإدارية والقضائية العليا، وكذا في الحصول على الإقطاعات الزراعية، وهو الأمر الذي أدى إلى هذه الكراهية التي أبداها العرب بصفة خاصة للبربر، وقد زادت حدّتها عندما قام المنصور بن أبي عامر بإلغاء النظام الإقطاعي القبلي في تكوين الجيش واستبداله بتكوين جيش موحد تندرج في فرقه كل العناصر الاجتماعية

(1) عبد العزيز الأهواني - أمثال العامة في الأندلس - دار المعارف - القاهرة - 1962م - ص 265 - 266/عبد الله بن أحمد الزجّالي - أمثال العوام بالأندلس - تحقيق محمد بن شريفة - مطبعة محمد الخامس - فاس - 1975م - ص 45.

(2) ابن حيان - المقتبس - ج 6 ص 78.

الأندلسية من بربر وعرب وصقالبة وغيرهم، ويتقاضى كل جندي فيها راتبا شهريا حسب رتبته، وسنعود إلى موضوع الجيش بأكثر تفصيل في فصول الباب الثاني من هذا البحث.

وأوكل مهمة الإشراف على الأراضي الزراعية إلى جباة تعينهم الدولة لجباية خراجها، وهو الأمر الذي حرم الكثير من الإقطاعيين وأغلبهم من العرب من أراض كانوا يمتلكونها منذ بداية الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس، كما أن اعتماد المنصور بن أبي عامر على البربر في تشكيل الجيش الجديد جعل البيوتات العربية تكن الحقد الشديد لهؤلاء المغاربة لأنها كانت "تعتدّ عليهم ما كان مظاهرتهم العامريين، وتنسب تغلب المنصور وبنيه على الدولة إليهم"، ونتيجة لذلك كله "سخطتهم القلوب، وخزرتهم العيون، ولولا ما لهم من العصبة لاستأصلهم الناس، ولغطت أو لفظت ألسنة الدهماء من أهل المدينة بكراهتهم"[1].

خلاصة القول أن البربر قد تمكنوا من الوصول إلى أعلى المناصب الإدارية والقضائية والعسكرية بفضل قدراتهم الذاتية، وقد مكنتهم الوظائف من تسلق الهرم الاجتماعي، ولكن هذه الوضعية اقتصرت على فئة قليلة من البربر، أما الأغلبية الساحقة فقد ظلّت تمارس أعمالا مختلفة وبخاصة في المجال الزراعي، كما أن صورة البربر كانت سيئة للغاية سواء لدى بعض الكتاب الأندلسيين أو لدى عامتهم التي كانت ترى في المغربي صورة الغازي الذي حرمها من الامتيازات الكبيرة التي كانت تتمتع بها، وبخاصة خلال القرن الرابع الهجري الذي شهد توافدا بربريا كبيرا على بلاد الأندلس بهدف الارتزاق، وبخاصة في الجيش الأندلسي الذي شكله المنصور بن أبي عامر.

كما شهد هذا القرن نبوغا بربريا في مجالات علمية شتى، وهو الأمر الذي انعكس إيجابيا على كثير من البيوتات البربرية التي تمكنت من الوصول إلى أعلى المناصب في الدولة، بل نجحت بعضها في احتكار كثير من الوظائف الإدارية والقضائية.

---

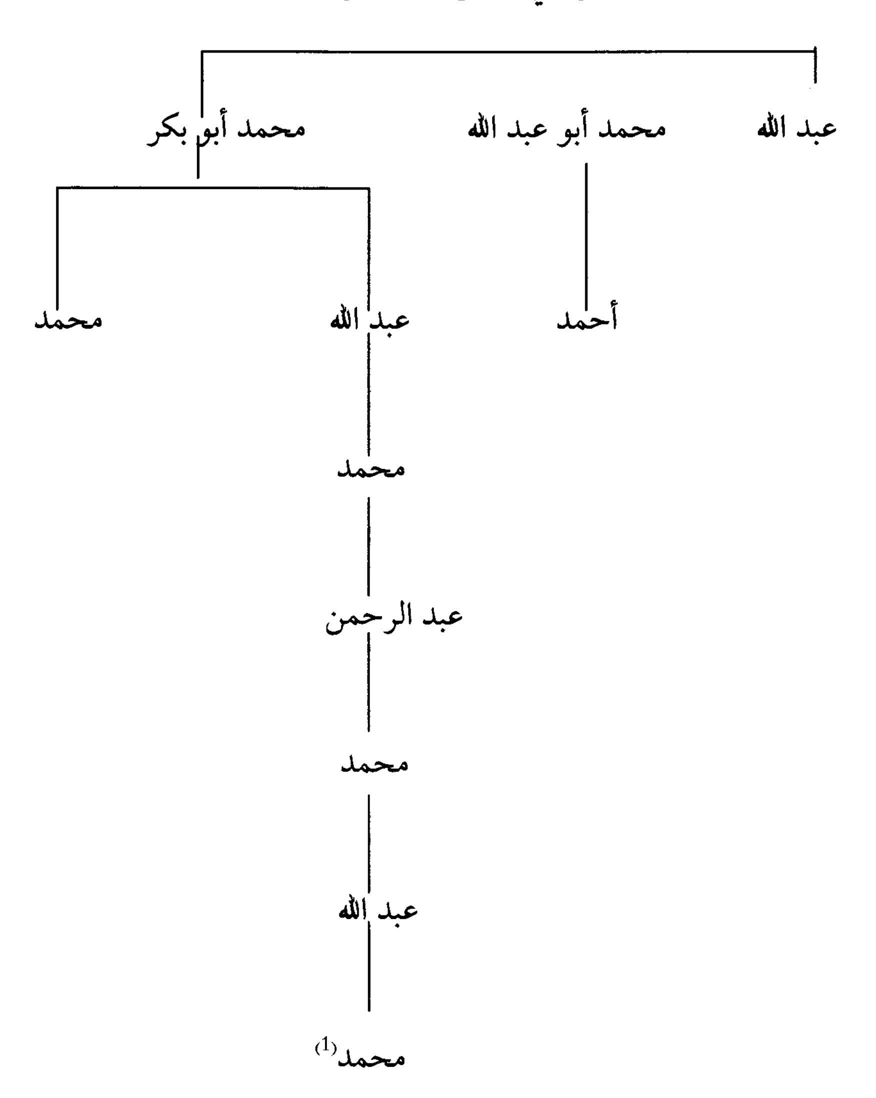
(1) المقّري - نفح الطيب - ج 1 ص 427.

كما أن اعتماد المنصور بن أبي عامر على البربر في تشكيل جيش الأندلس الجديد، ونجاحه بفضل قوة هذا العسكر في بسط سلطانه على الأندلس، وحرمان البيوتات العربية من المناصب العليا قد جعل هؤلاء يضمرون عداوة كبيرة للمغاربة، وسيعبرون عن ذلك بوضوح خلال الفتنة الأندلسية التي ستندلع مع بداية القرن الخامس الهجري (11م).

شجرة أنساب أبرز البيوتات البربرية في الأندلس

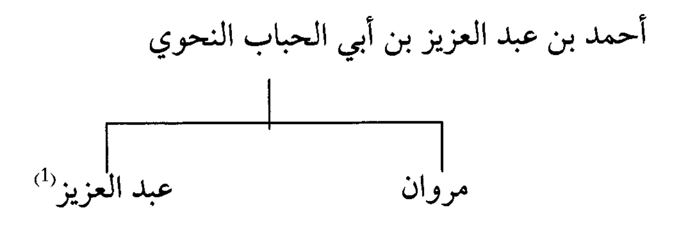
بنو أبي زمنين من قبيلة نفزة

عبد الله بن عيسى بن محمد بن إبراهيم بن محمد
بن أبي زمنين عدنان بن بشير بن كثير



(1) القاضي عياض - ترتيب المدارك - ج2ص259 - 260/ابن الفرضي - تاريخ علماء الأندلس - =

بنو أبي الحباب من قبيلة مصمودة



بنو سكتان من قبيلة مصمودة

حبيب بن واقف بن يعيش بن عبد الرحمن بن مروان بن سكتان المصمودي

عبدالرحمن — مروان

عيسى — محمد — سكتان

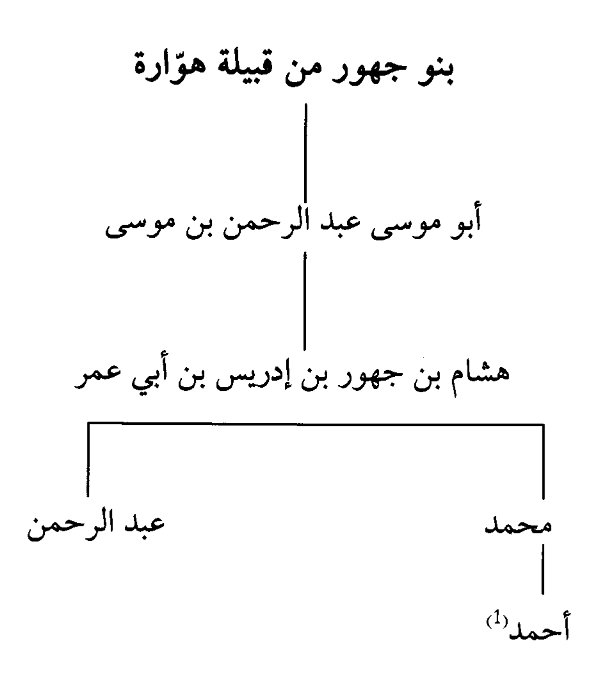
عتيق — عبد الله[2]

=

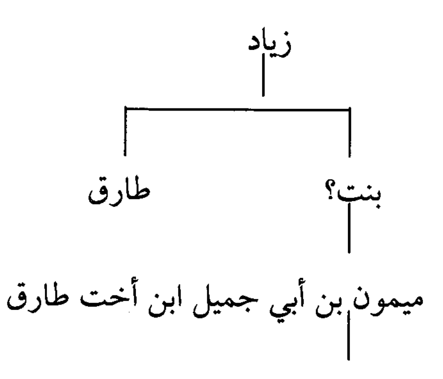
ج1 ص399 H. de Felipe - Opcit - p.378/399..

(1) مجهول - مفاخر البربر - ص217/ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج1 ص25/ H. de Felipe - Opcit - p.366..

(2) ابن الفرضي - تاريخ علماء الأندلس - ج1 ص341 H. de Felipe - Opcit - p.378/341..



بنو عبد الوهاب من قبيلة صنهاجة



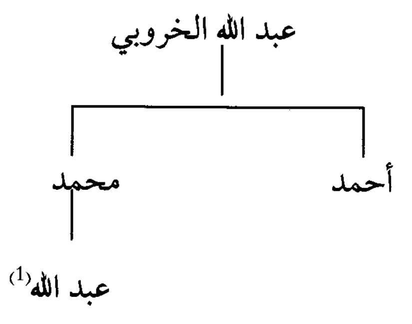
عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب بن عبد القدوس بن يوسف بن أحمد الأنصاري[2]

---

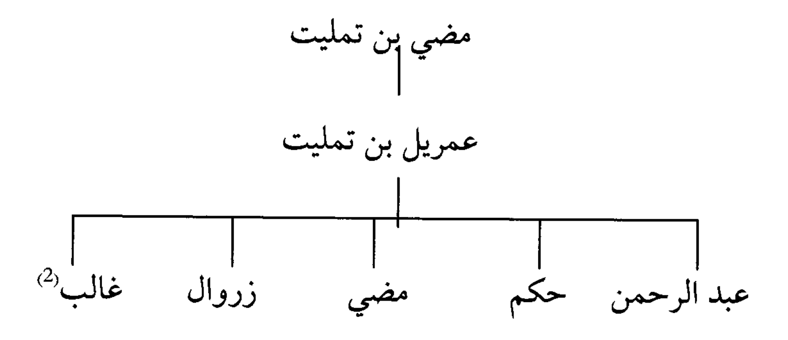
(1) ابن حزم - جمهرة أنساب العرب - ص 500./H. de Felipe - Opcit - p.377.

(2) ابن حزم - ص 500/ مجهول - مفاخر البربر - ص 217.

بنو الخرّوبي من قبيلة زناتة



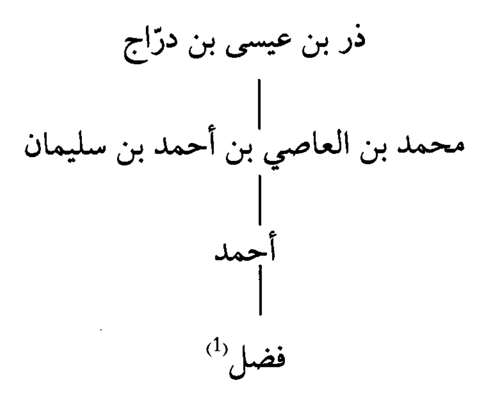
بنو مضي من قبيلة مصمودة



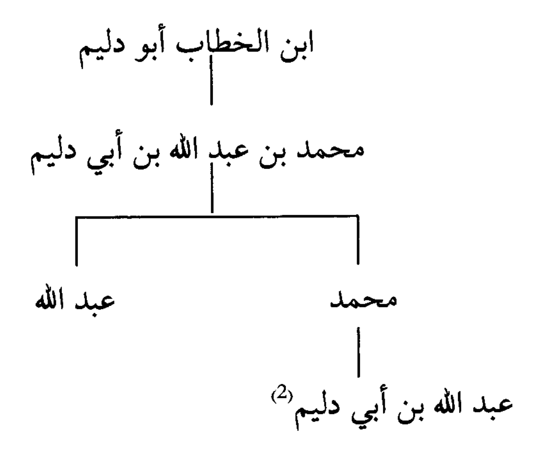
(1) ابن حزم - جمهرة أنساب العرب - ص499/مجهول - مفاخر البربر - ص265/ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص183/H. de Felipe - Opcit - p.369..

(2) ابن حزم - الجمهرة - ص 501/ابن حيان - المقتبس - تحقيق المكي - ص 161 - 162/ نفسه - تحقيق الحجي - ص73/H. de Felipe - Opcit - p.369..

بنو درّاج القسطلي من قبيلة صنهاجة



بنو أبي دليم من قبيلة أزداجة

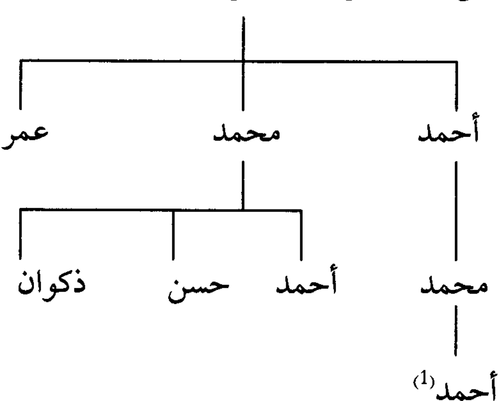


(1) ابن حزم - الجمهرة - ص 501 - 502/ مجهول - مفاخر البربر - ص 264.
H. de Felipe - Opcit - p.364.

(2) الجمهرة - ص 498./H. de Felipe - Opcit - p.364

بنو ذكوان من بربر فحص البلّوط

عبد الله بن هرثمة بن ذكوان بن عبد الله بن عبدوس بن ذكوان



بنو رحيق من قبيلة سوماتة

رحيق بن إبراهيم بن حارث بن خلف بن رشيد

محمد — قاسم — أحمد

محمد

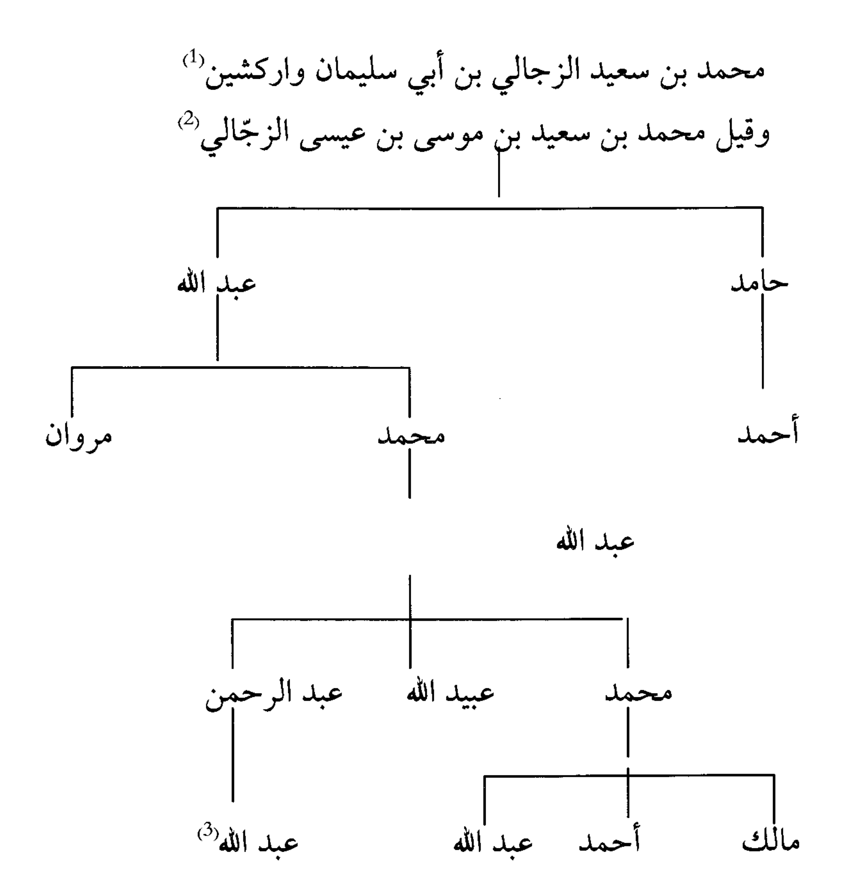
نافع[2]

---

(1) القاضي عياض - ترتيب المدارك - ج2 ص253/ ابن الفرضي - تاريخ علماء الأندلس - ويقول: "إن أصلهم من جيان" - ج1 ص405/.. H. de Felipe - Opcit - p.363.

(2) ابن حيان - المقتبس - ج5 ص356/.. H. de Felipe - Opcit - p.373.

بنو الزجّالي من بني يطوفت - قبيلة نفزة

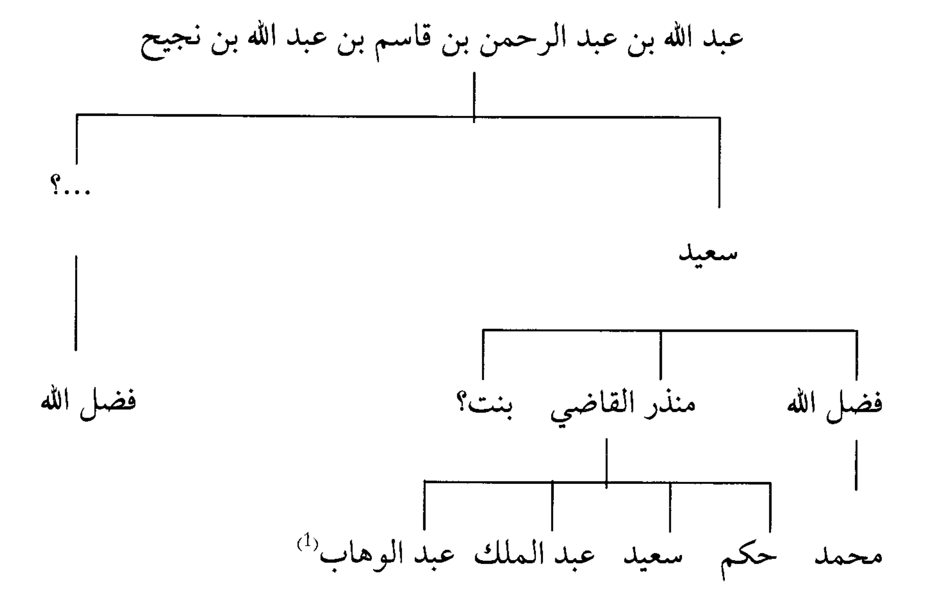


(1) ابن حيان - المقتبس - ملشور - ص 32 - 33.

(2) ابن الفرضي - تاريخ علماء الأندلس نقلا عن المصدر السابق - ص 33.

(3) مجهول - مفاخر البربر، وينسبهم إلى ولهاصة - ص 267/ ابن حزم - الجمهرة، وينسبهم إلى مديونة - ص 500/.. H. de Felipe - Opcit - p.379.

بنو سعيد من سوماتة (قبيلة مديونة)
أو من ولهاصة (قبيلة نفزة)



(1) ابن حزم - الجمهرة - ص 500/ مجهول - مفاخر البربر - ص 213/ ابن خلدون - العبر - ج 11 ص210../ H. de Felipe - Opcit - p.374.

بنو سالم من قبيلة مصمودة

سالم بن ورعمال بن وكذات بن أكللة بن مقر بن أكللة
بن مسالة بن ناكور بن يوطافان بن مسقاط بن مصاد بن مصمود

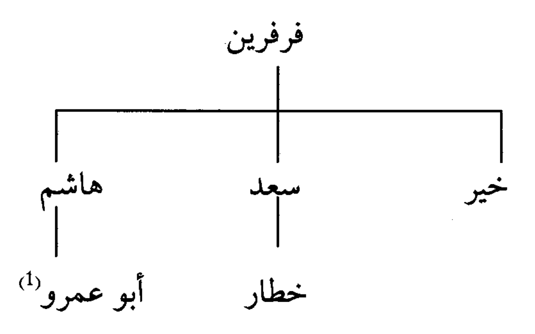
الفرج
يوسف
محمد
عبد الله
تميم أبو جعفر
أحمد
عبد الله[1]

منتل
أزرق
محمد

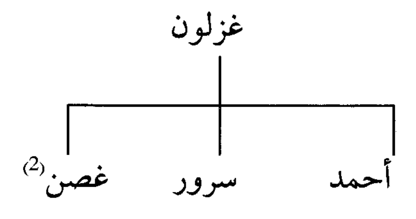
عبيد الله
محمد
عبد الله

(1) ابن حزم – الجمهرة – ص501/مفاخر البربر – ص269./H. de Felipe - Opcit - p.375

بنو فرفرين من قبيلة هوارة



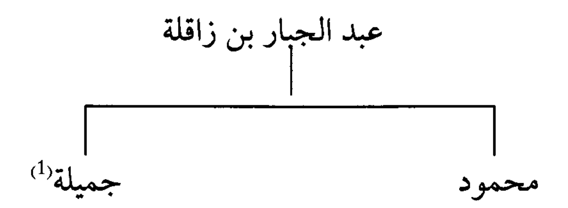
بنو غزلون من قبيلة نفزة



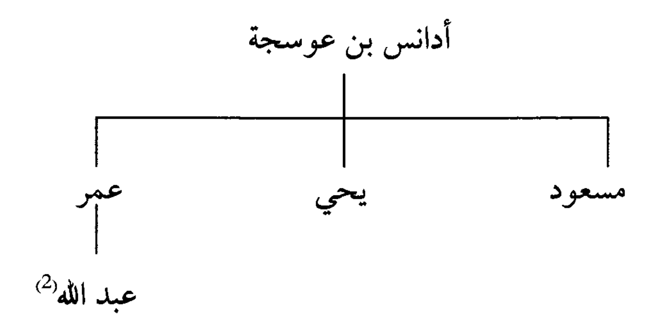
(1) الجمهرة - ص 500/ مفاخر البربر - ص 268.

(2) الجمهرة - ص 499/ مفاخر البربر - ص 268/..H. de Felipe - Opcit - p.365

بنو عبد الجبار من قبيلة مصمودة



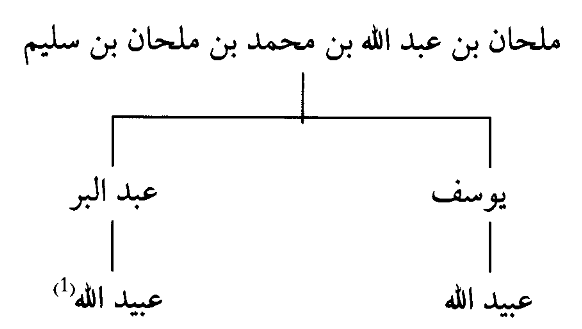
بنو أدانس بن عوسجة من قبيلة مصمودة



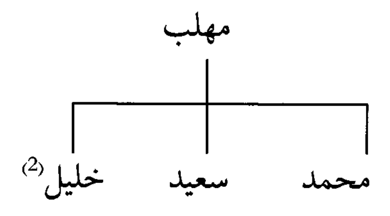
(1) ابن حزم - الجمهرة - ص 501/ النويري - نهاية الأرب - ص 96.

(2) ابن حزم - الجمهرة - ص 501../ H. de Felipe - Opcit - p.90 - 91.

بنو ملحان من قبيلة نفزة



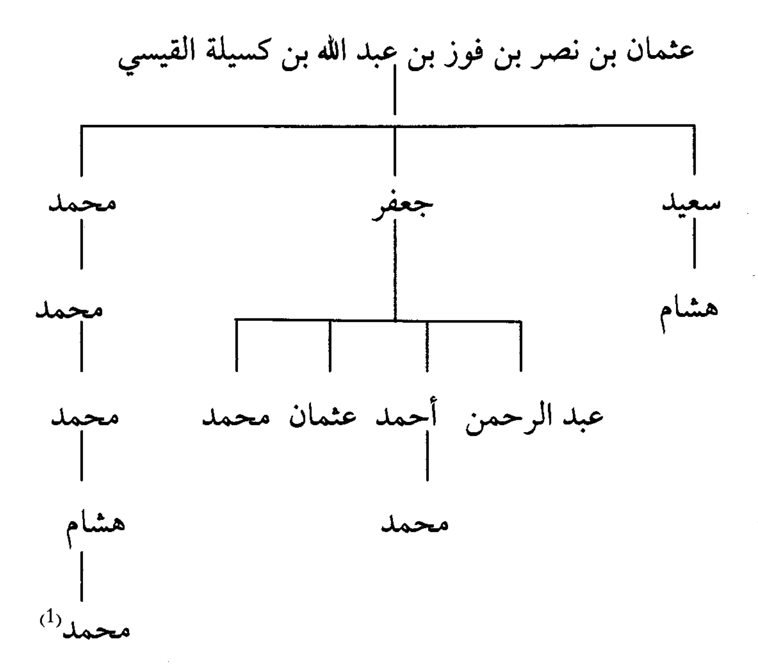
بنو مهلب من قبيلة كتامة



(1) H.de Felipe - op - cit - p.174 - 175.

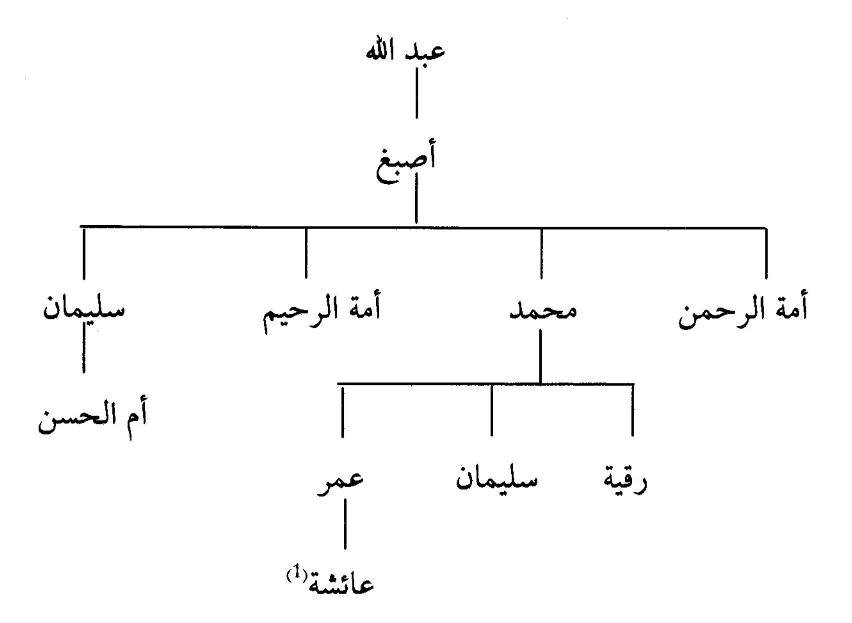
(2) ابن حزم - الجمهرة - ص 501/ ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص137/ ابن حيان - المقتبس - ملشور - ص 31 - 32../ H.de Felipe - op - cit - p.176

بنو المُصْحَفيّ من بربر بلنسية



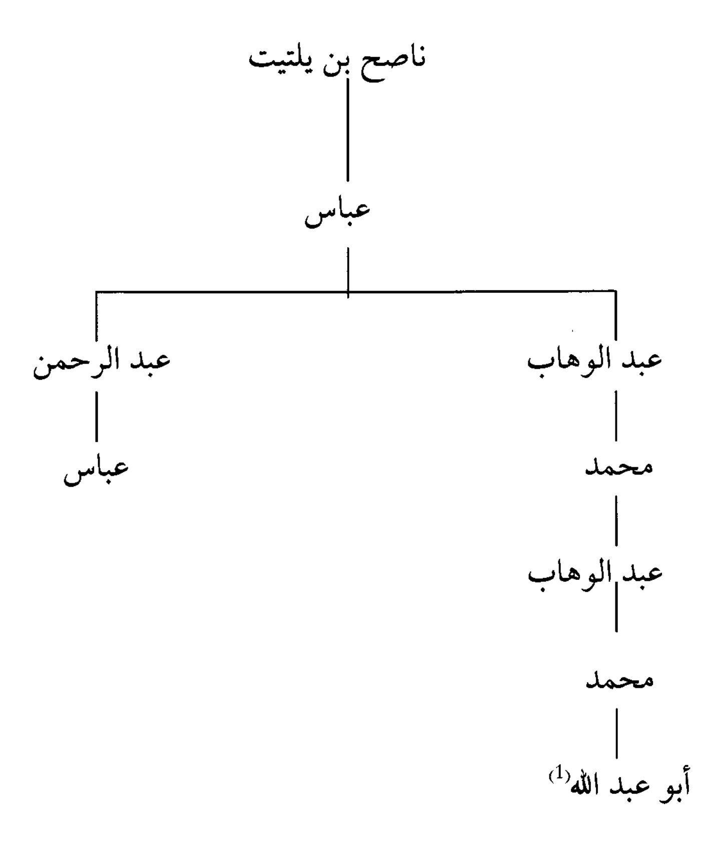
(1) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 254/ ابن الأبّار - الحلّة السيراء - ج 1 ص 257 - 258/ H.de Felipe - op - cit - p.372.

بنو وانسوس من قبيلة مكناسة

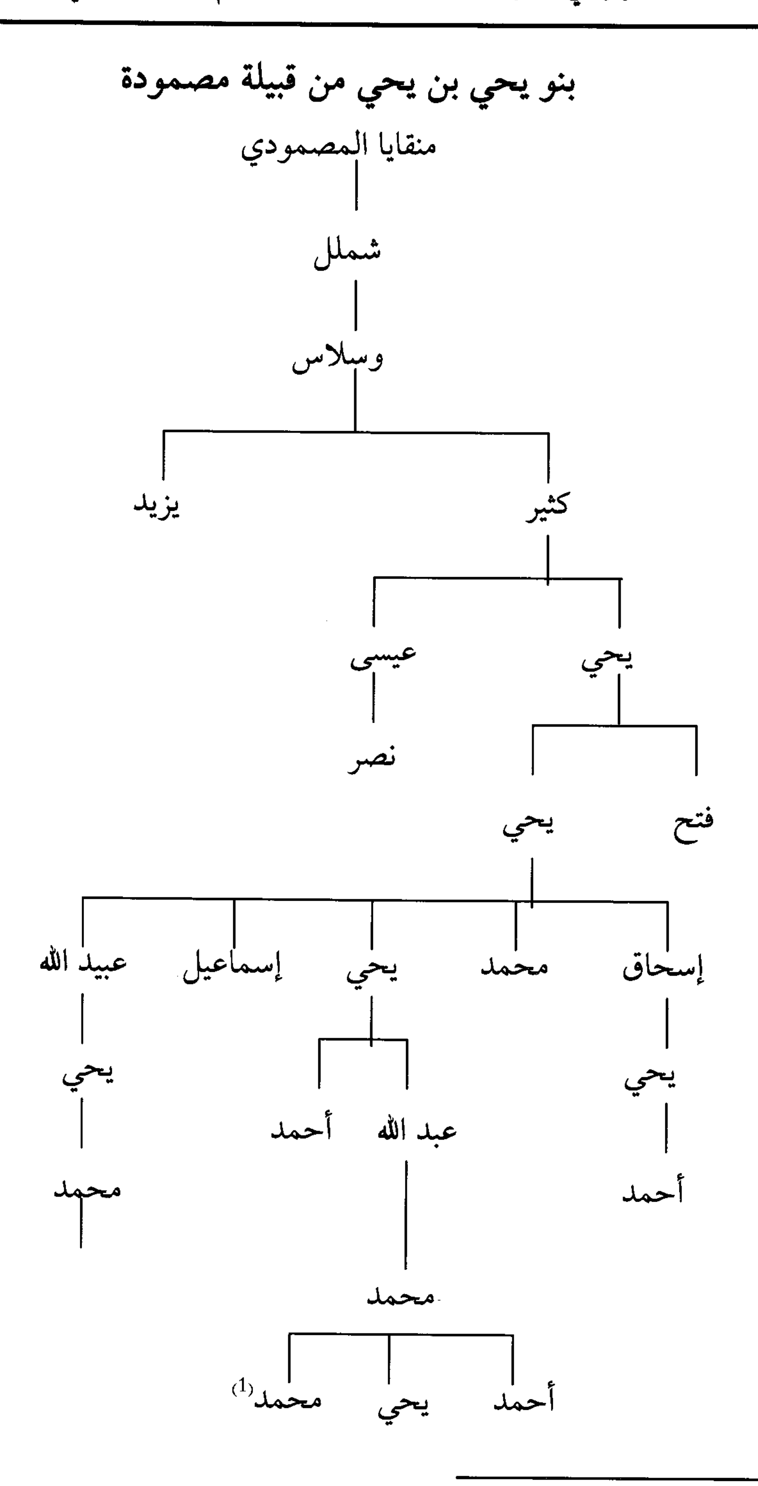


(1) ابن حزم - الجمهرة - ص 499/ ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 152 - ص 164/ مفاخر البربر - ص 266/.. H. de Felipe - Opcit - p.376.

بنو ناصح بن يلتيت من قبيلة مصمودة

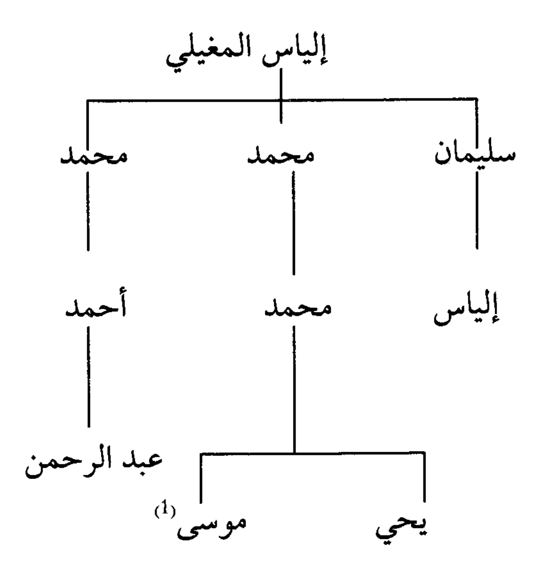


(1) القاضي عياض - ترتيب المدارك - ج1 ص458/مفاخر البربر - ص215/ابن الفرضي - تاريخ علماء الأندلس - ج 2 ص 504 - 505./H. de Felipe - Opcit - p.373



(1) أبو عبد الله بن عبد الملك المراكشي - الذيل والتكملة - ق 1 - ص 188/ ابن حزم - الجمهرة =

بنو إلياس من قبيلة مغيلة



=

- ص 500/مفاخر البربر - ص 269/ H.de Felipe - op - cit - p.368.

(1) مجهول - مفاخر البرب - ص 213/ نفسه - ص 266/ابن حزم - جمهرة أنساب العرب - ص 499/ H. de felipe - Opcit - p. 367.

الباب الثاني

الفتنة الأندلسية وموقف البربر منها (399 هـ - 422هـ/1008 - 1031م)

الفصل الأول: الفتنة الاندلسية: مراحلها وأسبابها.

الفصل الثاني: موقف البربر من الفتنة ومحاولة تحديد المسؤوليات.

الفصل الثالث: نتائج الفتنة الأندلسية.

الفصل الأول

الفتنة الأندلسية (399 - 422هـ/ 1008 - 1031م):

مراحلها وأسبابها

تمهيد:

بقدر ما كانت بداية القرن الرابع الهجري بداية الارتقاء الحضاري لبلاد الأندلس، بقدر ما كانت نهايته بداية أفول نجم العدوة الأندلسية، ذلك أنه قُيّض لهذا البلد وصول رجلين عظيمين ساهما بما امتلكاه من قوة وحزم في تحقيق النمووالتطور في كافة المجالات، ويتعلق الأمر بالخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله الذي "ولي الأندلس وهي جمرة تحتدم ونار تضطرم، وقد عظم الشقاق والنفاق، وارتجّت الآفاق؛ فسكّنها الله بسعده وعزّ نقيبته، وهو الذي استنزل الثوار، وشيّد القصور، وغرس الغروس، وخلّد الآثار، وأعظم في الكفر النكاية؛ فلم يبق عليه في الأندلس مخالف، ولا نازعه منازع، ودخل الناس أفواجا في طاعته، ورغبوا في مسالمته"[1].

كان عهد الناصر بداية الارتقاء وبلوغ السؤدد، إذ حكم البلد في النصف الأول من هذا القرن، وفي نصفه الثاني برز المنصور بن أبي عامر "أسعد أهل الأندلس مولدا، وأشهرهم بأسا وندا، وأبعدهم في حسن الذكر مدى، الحازم العازم، العظيم السياسة، الشديد الصلابة، القوي المنّة، الثابت الموقف، معوّد الإقبال ومبلّغ الآمال، الذي صحبته ألطاف الله الخفية في الأزمات، واطرد له النصر العزيز في نحوسبع وخمسين

(1) ابن الخطيب – أعمال الأعلام – القسم الثاني – ص 29.

من الغزوات"[1]، وبموته انقلبت الحال؛ "فقامت الحروب وفتّنت الرعايا، وهلكت وانشقّت العصا، وضرب طاغية الروم بمن أطاع وجه من عصى"[2].

من خلال ما سبق يبدو جليا الدور الذي قام به كل من الناصر والمنصور في توحيد البلاد، والقضاء على الثوار من جهة، والتخلص من اعتداءات النصارى من جهة أخرى، إضافة إلى ما قاما به من أعمال داخل دار الإسلام في المجالات الاقتصادية والثقافية والعمرانية، وتشهد نتائجها على عظمة الرجلين، ومع ذلك فإن بذور الانهيار ولدت إبّان حكمهما، ذلك أن خلافة الأمويين قد ارتبطت بفرد وليس بنظام، حيث جاء إعلانها منسجما مع الموقع القوي الذي بلغه عبد الرحمن الناصر في الأندلس التي أصبحت مرتبطة بشخصيته، وبالتالي فقد ولدت معه، وغابت مع غيابه، ولئن استمرّت خلال عهد ابنه الحكم المستنصر؛ فذلك لأنه استمدّ رصيده السياسي من أبيه وليس من قوة النظام، وينطبق الأمر نفسه على المنصور بن أبي عامر الذي قضى على كل الكفاءات التي رأى فيها حدّا من سلطانه؛ فسجن وقتل كل من عارضه، ولم يسلم من بطشه لا الصهر ولا الصديق ولا الابن، ولئن حقّق بذلك لنفسه سمعة مكنته من السير بالأندلس قدما نحوالسؤدد، إلاّ أن ذلك سينتهي بموته.

بعد وفاته خلفه ابنه المظفر الذي اتبع سّنة أبيه في الجهاد والغزو، ونجح في ردّ اعتداءات ملوك النصارى، وحافظ على هيبة الدولة وسلامة حدودها، لكن الأمور ستنقلب رأسا على عقب بعد وفاته؛ فبوصول أخيه عبد الرحمن إلى منصب الحجابة، وتطلعه إلى نيل الخلافة، انطلقت الشرارة التي ستشتعل منها نيران الفتنة التي ستؤدي أولا إلى سقوط الدولة العامرية سنة 399هـ - 1008م، وبسقوطها ستعيش الدولة الأندلسية صراعات دامية كان من آثارها قتل كثير من الأندلسيين، وتفكك وحدتهم، وتصدع قوتهم، وإهدار الكثير من قيمهم.

ولكن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن لأول وهلة هوما المقصود بالفتنة؟

---

(1) نفسه - ص 58.

(2) نفسه - ص 58.

وللإجابة عن ذلك لا بدّ من الرجوع إلى المصادر اللغوية التي تجمع كلها على أن كلمة "الفتنة" تعني مجموعة من المعاني؛ فهي مشتقة من الأصل "فتن"، فيقال فتنت الفضة والذهب إذا أذبتهما بالنار من أجل تمييز الرديء من الجيد، وبحسب ما جاء في المصادر اللغوية فإن الفتنة تعني الابتلاء والامتحان والاختبار والإحراق، كما تعني أيضا الضلال والكفر والظلم[1].

وكاصطلاح فهي تعني ما يقع بين الناس من خلاف في الآراء، وما يحدث بينهم من قتال[2]، ومن ذلك كله نخلص إلى أن الفتنة التي نعنيها في بحثنا هذا هي ذلك الخلاف الذي وقع بين فئتين من المسلمين: البربر من جهة والأندلسيين، وبخاصة منهم أهل قرطبة من جهة أخرى حول منصب الخلافة، وقد أدّى ذلك إلى قيام صراع دام بين الطرفين استمرّ طيلة الفترة الممتدة بين حكم محمد بن هشام بن عبد الجبار الأموي وتاريخ إعلان إنهاء الخلافة الأموية بالأندلس.

لم يكن الخلاف حول من يحكم الأندلس السبب الوحيد الذي أدّى إلى اندلاع أحداث الربع الأول من القرن الخامس الهجري، بل كان وراء ذلك جملة من الأسباب سنعود إليها لاحقا.

لقد تميزت هذه الفتنة بتلك الكراهية الشديدة التي كانت بين الإخوة في الدين والشركاء في الوطن البربر من جهة، والأندلسيين من جهة أخرى، تلك الكراهية التي أدّت إلى اندلاع حرب شعواء لا تحترم النساء ولا الأطفال ولا الشيوخ، وتجاوز الغضب ذلك؛ فطال العمران إذ هدمت الدور وخرّبت المباني، وانتهكت حرمة بيوت الله وبخاصة في مدينة الزاهرة التي أزيلت من الخريطة، والزهراء التي طمست أغلب معالمها الحضارية، تلك الكراهية التي جعلت العدو صديقا والأخ عدوا، ويؤكد

---

(1) ابن منظور محمد بن مكرم - لسان العرب - دار الفكر - دار صادر بيروت - ط3 - 1414هـ - 1994م ج13 ص317 - 318/ الزمخشري محمود بن عمر - أساس البلاغة - دار صادر بيروت - ص463/ المنجد في اللغة والأعلام - ص568.

(2) ابن منظور - لسان العرب - ج13 ص319/ الزمخشري - أساس البلاغة - ص463/المنجد في اللغة والأعلام - ص568.

ذلك استعانة الطرفين المتصارعين بالنصارى، الأعداء الحقيقيين، وتمكينهم من رقاب المسلمين؛ فاستغلّ هؤلاء الفرصة، وثأروا لأنفسهم مما جرى لهم على أيدي الفاتحين، وتمكنوا من استرجاع جزء مما فقدوه على أيديهم، وبذلك صار النصارى يتحكمون في مسلمي الأندلس، ويوجهونهم حسب ما تقتضيه مصالحهم.

لقد سعى الإسلام إلى توحيد صفوف معتنقيه، وجعلهم صفا واحدا ضد أعدائهم، وألقى على الأمة الإسلامية مسؤولية حماية الدين، وحراسة دنيا المسلمين، وحذرهم من الفرقة لأنها تقضي على الدين والدنيا معا، ولذلك السبب نهى الإسلام أشدّ النهي عليها لأنها لا تخلف إلا الضرر والفشل والذّل، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾[2]، وإذا كان الإسلام ينهى عن الفرقة والاختلاف والتنافر بين المسلمين؛ فإنه يحذرهم أشدّ التحذير من موالاة الكافرين، وتقديم يد العون لهم، وطلب مساعدتهم ضدّ إخوانهم في الدين، وبمقتضى ذلك فإنه لا يجوز محالفتهم ومناصرتهم ضد المسلمين، إذ أن مناصرة الكافرين فيها ضرر بالغ بالكيان الإسلامي وبحياة أهله وممتلكاتهم، فضلا على إضعاف قوة الجماعة الإسلامية، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[3].

إن ما حدث بالأندلس في بداية القرن الخامس الهجري يبين بلا شك ابتعاد المسلمين عن تعاليم دينهم الحنيف الذي يأمرهم بالإتحاد، وبحلّ النزاعات الواقعة بينهم عن طريق العودة إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم صلّى الله عليه وسلّم، ويحذّرهم كثيرا من الالتجاء إلى الكافر، وطلب المساعدة منه وموالاته، ولكن المسلمين المتصارعين في العدوة الأندلسية أعمتهم الأحقاد، وحالت المصالح الذاتية دونهم ومبادئ دينهم لأنهم كانوا يسعون إلى تحقيق غاية واحدة، ولم تكن وسيلة الوصول

(1) سورة الأنفال - الآية 46.

(2) سورة آل عمران - الآية 103.

(3) سورة النساء - الآية 144.

إليها تهمهم في شيء.

كل ذلك قام به المتصارعون من المسلمين خلال هذه الفتنة من أجل الفوز بالكرسي، هذا "الكرسي" الذي جعل الأخ يقتل أخاه والصديق يخون صديقه.

ترى كيف اشتعلت نيران هذه الفتنة المدمرة؟ وما هي المراحل التي مرت بها؟ وما هي الأسباب البعيدة التي أدّت إلى قيام هذا الصراع الذي لم يجن منه المسلمون سوى القتل والسبي والخراب والدمار؟

تلك هي بعض الأسئلة التي سنحاول الإجابة عنها في هذا الفصل معتمدين في ذلك على المصادر الأندلسية والمغربية التي تطرقت إلى هذا الموضوع، كما سنحاول في الفصل الثاني التعرف على موقف البربر من هذه الفتنة التي يطلق عليها بعض المؤرخين الأندلسيين، وعلى رأسهم ابن حيان، اسم "فتنة البربر"؛ فهل هؤلاء هم الذين أوقدوا نارها؟ وهل يتحملون مسؤولية الأحداث التي وقعت في الأندلس خلال الفترة الممتدة بين نهاية الدولة العامرية أي سنة 399هـ - 1008م، وتاريخ إعلان إنهاء الخلافة الأموية بالأندلس أي سنة 422هـ - 1031م؟

مراحل الفتنة الأندلسية وأبرز أحداثها:

1 - عبد الرحمن شنجول وبداية الفتنة: بعد وفاة المظفر عبد الملك بن محمد بن أبي عامر، تولى أخوه عبد الرحمن، وهو ابن المنصور من الأميرة النافارية المسمّاة عبدة، وقد غلب عليه لقب شنجول أوشنشول نسبة إلى جدّه لأمّه سانشو، وبعد تعيينه حاجبا من قبل الخليفة هشام المؤيد بالله، "نظر إلى الأمور نظرا غير سديد، وانفق الأموال في غير وجهها، وأعان على كثير من الناس وبسط يده عليهم وأخذ أموالهم، ونسب إليهم أباطيل من القول والفعل حتى قلق الناس به، وأبغضوه في الله"[1].

لم يكتف عبد الرحمن بذلك، بل "كان يخرج من منية إلى منية، ومن منتزه إلى

---

(1) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 3 ص 38.

منتزه، وهو مرفوق بالملاهي والمضحكين كما كان يجاهر بشرب الخمر والتهتُّك"[1].

نتيجة لهذه التصرفات أبغضه معظم أهل قرطبة، وبخاصة منهم المروانيين الذين سيزداد حنقهم عليه بعد إقدامه على طلب أمر خطير من الخليفة كان يهدد مصالحهم وامتيازاتهم، ذلك أنه لم يمض على توليه الحجابة سوى شهر ونصف حتى "تصنّع للخليفة هشام بن الحكم، وطلب منه أن يوليه العهد من بعده"[2].

إن ما أقدم عليه عبد الرحمن شنجول لم يتجرّأ على فعله من سبقه في هذا المنصب من البيت العامري، وبخاصة أبوه المنصور محمد بن أبي عامر الذي كان أهلا لأن يطلبه لنفسه، ولكنه لم يفعل، واكتفى بمنصب الحجابة، وهو الذي كان المسيّر الفعلي لشؤون الأندلس، والقائد المحنّك الذي جرّد الغزوات العديدة ضد النصارى، وأذاقهم مرارة الهزيمة خلال كل غزواته حيث لم يهزم قط، ومع ذلك لم يطلب ولاية العهد، ولم يفعل ذلك ابنه المظفر عبد الملك الذي كان شبيها بأبيه في مجال الجهاد ضد النصارى، ولكن عبد الرحمن تجرأ وطلب منصبا لا تؤهله قدراته للوصول إليه فضلا على كونه سيثير الكثير من الأندلسيين ويؤلبهم ضدّه وضدّ الموالين له، وبخاصة أفراد الجيش الذي شكله أبوه.

رغم كل ذلك أصرّ الحاجب على تنفيذ ما طالب الخليفة به، واضطرّ هذا الأخير إلى الاستجابة لذلك الطلب؛ فأخرج كتابا قرئ أمام باب قصر قرطبة بحضور الحاجب وسائر أهل الخدمة وقاضي الجماعة والفقهاء والعدول وأصحاب الشرط ووجوه الناس على طبقاتهم[3].

ومما جاء في هذا الكتاب قول الخليفة: "هذا ما عهد هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين إلى الناس عامة، وعاهد الله عزّ وجلّ من نفسه خاصة، وأعطى به صفقة يمينه بيعة تامة بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة...وتقصّى عند ذلك من طبقات الناس

---

(1) النويري - تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط من كتاب "نهاية الأرب" - ص 125.
(2) ابن عذاري - نفس المصدر - ج 3 ص 38 / ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 90.
(3) النويري - نهاية الأرب - ص 125.

من أحياء قريش وغيرها ممن يستحق أن يسند هذا الأمر إليه، ويعول في القيام عليه ممن يستوجبه بدينه وأمانته وهديه وصيانته بعد إطراح الهوى والتحري للحق، والتزلف إلى الله جلّ جلاله بما يرضيه، وإن قطع الأواصر وأسخط الأقارب؛ فلم يجد أحدا هو أجدر أن يقلده عهده، ويفوض إليه الخلافة بعده بفضل نفسه وكرم خيمه وشرف مركبه وعلو منصبه مع تقواه وعفافه ومعرفته وأشرافه وحزمه وثقافته من المأمون الناصح الحبيب أبي المطرّف عبد الرحمن بن محمد المنصور بن أبي عامر"[1]، وكان ذلك في ربيع الأول 399هـ/نوفمبر 1008م.

يبدو من خلال نص كتاب توليه العهد أن هشام المؤيد قد اضطر إلى الإدلاء بشهادة تناقض تماما حقيقة شخصية عبد الرحمن شنجول التي كان يعرفها العام والخاص، حيث يقول إبراهيم بن القاسم عنه: إنه "افتتح أمره بالخلاعة والمجانة؛ فكان يخرج من منية إلى منية ومن منتزه إلى منتزه مع الخيالين والمغنين والمضحكين، مجاهرا بالهتك وشرب الخمر"[2].

تتفق معظم المصادر التاريخية على أن هشام المؤيد كان مغلوبا على أمره خلال حكمه لبلاد الأندلس إلى درجة أنه كان يرغم على الخروج بزّي النساء خلال نزهاته حتى لا يعرفه الناس، ولذا لا نستغرب أن يصدر عنه عهدا يصف فيه الحاجب العامري بكل هذه الصفات المناقضة لحقيقة شخصيته، لأن ذلك إنما تمّ تحت طائلة التهديد والتخويف، ومن الطبيعي أن أمرا كهذا سيزيد من شعور الغضب لدى بني أمية، وسيحفّزهم أكثر لاستعادة نفوذهم المسلوب من قبل العامريين.

إن الإجراء الذي أجبر هشام المؤيد على القيام به سيجعل البيت الأموي ينظر إلى الحاجب العامري نظرة ملؤها الحقد والكراهية، وهي نظرة تختلف تماما عما كانت عليه في السابق، وبخاصة في عهد أبيه المنصور بن أبي عامر الذي رغم وصوله إلى

---

(1) نفسه - ص 126 - 127/ ابن عذاري - البيان المغرب - ج3 ص44/ ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ق2 ص91/ المقري - نفح الطيب - ج1 ص424.

(2) ابن عذاري - نفس المصدر - ج 3 ص 39.

الحكم عن طريق استعمال القوة للتخلص من أقوى منافسيه، إلا أنه بفضل الانتصارات الكثيرة التي حققها على أعداء المسلمين، والغنائم التي جلبها إلى دار الإسلام، جعلت الناس شبه راضين عنه، أما ابنه عبد الرحمن فلم يقم إلى غاية طلبه ولاية العهد بأي عمل عسكري يثبت به قوة شخصيته، وجدارته بمنصب الحجابة الذي لم يكن ليتولاه لولا قوة من سبقه من البيت العامري، فضلا على أن ما أقدم عليه من طلب ولاية العهد سيحرم بني أمية نهائيا من السلطة التي احتكرها أسلافهم فيما سبق.

ازداد حقد الأمويين خاصة وذوي الجاه من طبقات أهل الخدمة عامة عليه عقب إقدامه على أمر أصبح يتدخل به حتى في أمورهم الخاصة، من ذلك أنه، وللزيادة في إذلالهم، أمرهم بأن "يتزيوا بزي المغاربة، ويخلعوا القلانس المرقشة الملونة التي كانوا يتميزون بها عن العامة، ويتباهون بها على طبقات الرعية، واستبدالها بالعمائم، وتوعدهم إن هم لم يفعلوا ذلك[1]، وصدر هذا القرار في 13 جمادى الأولى 399هـ - 13 يناير 1009م.

نتيجة لهذا القرار الجديد "اهتبل بنو مروان وشيعتهم بالبلد غرة العامريين فيما ارتكبوه من ذلك، فدبّت عقاربهم إلى الناس، وقاموا في قلب الدولة العامرية بجدّ وبصيرة؛ فلم يخذلهم الناس"[2]، ومع ذلك لم يظهروا للحاجب ما كانوا يسرّون، بل ذهبوا "لتهنئة المغرور عبد الرحمن بهذه المنحة التي كانت عندهم أعظم محنة، كلهم يعزّي نفسه، ويكفكف عبرته"[3].

بداية من هذا التاريخ عزم أفراد الأسرة الأموية على إعادة الأمور إلى نصابها، ومن خلال أتباعهم تأكدوا من تأييد معظم أهل قرطبة لهم في مسعاهم المتمثل في التخلص من الإستبداد العامري، واستعادة النفوذ الأموي لمكانته السابقة.

أنكر الناس ما قام به عبد الرحمن إنكارا شديدا ليس لسوء خلقه وفساده

---

(1) نفسه - ج 3 ص 48 / النويري - نفس المصدر - ص 127.
(2) ابن عذاري - نفس المصدر - ج 3 ص 43.
(3) نفسه - ج 3 ص 47.

فحسب لأنها أمور كانت منتشرة في صفوف الكثير من الحكام، بل لتجرئه على إجبار الخليفة على تقليده ولاية العهد التي ترتبط بشرط لم يكن متوفرا فيه، ويتمثل في الانتماء إلى النسب القرشي بينما كان بيت محمد بن أبي عامر يمنيا، إضافة إلى أن عبد الرحمن كان حفيدا لسانشو غرسية، أحد ملوك نافارة النصرانية الواقعة في أقصى شمال العدوة الأندلسية[1].

لقد أثار صدور قرار الخليفة بتولية شنجول العهد ثائرة بني مروان وطبقتي الخاصة والعامة، وبخاصة في عاصمة الخلافة، وعوضا عن البقاء فيها من أجل تهدئة الأوضاع ومواجهة المعارضة، قرر عبد الرحمن القيام بغزوة إلى قشتالة، وذلك سعيا منه لتدعيم مركزه أمام جماهير قرطبة الغاضبة عليه، وكسب تأييدها له، ولكن تسرعه الكبير، وسوء تدبيره جعلاه يقرر أن تكون الحملة في جمادى الآخرة سنة 399هـ (يناير 1009م) أي في فصل الشتاء.

إن اختياره لهذا التاريخ كموعد لانطلاق حملته العسكرية جعلته يرتكب خطأ فادحا آخر، إضافة إلى ما قام به سابقا من أعمال كطلب ولاية العهد وإجبار الخاصة على ارتداء الزّي المغربي، ذلك أن الحكام الذين سبقوه وبخاصة أبوه وأخوه كانوا يجردون غزواتهم لدار الكفر في غيره من فصول السنة، وذلك لعلمهم بقسوة الظروف المناخية السائدة في فصل الشتاء في بلاد الأندلس، وبخاصة في المناطق الشمالية منها.

إن فصل الشتاء الذي اختاره عبد الرحمن للقيام بحملته يتميز بالبرودة الشديدة وتساقط الثلوج والأمطار، وهي الأمور التي تعيق تحرك الجند، وإذا علمنا أن هذه الظروف تكون أشدّ قسوة كلما سرنا نحو أقصى الشمال أدركنا المجازفة التي أقدم عليها الحاجب العامري.

أصرّ شنجول لسوء تدبيره على الخروج إلى الغزو في فصل الشتاء رغم تحذيرات قادة جنده من عواقب الحملة في هذا الظرف العصيب الذي تمرّ به الأندلس،

---

(1) E - Levi Provençal - Op.cit - T. II - P. 293.

خاصة وأنهم قد توصلوا بأخبار أحداث خطيرة يستعد بعض المعارضين للقيام بها[1].

وصل عبد الرحمن إلى جليقية، و"هو على حال من المجانة والخلاعة"[2]، ولكنه لم يحقق أي نصر بسبب البرودة الشديدة السائدة في هذه المناطق من جهة، وفرار النصارى إلى المناطق الجبلية من جهة أخرى، ونظرا لذلك اضطر إلى العودة من حيث أتى، وعندما وصل إلى مدينة طليطلة، بلغته أخبار بقيام محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر بمدينة قرطبة.

اعتقد عبد الرحمن في البداية أن ما حدث في عاصمة الخلافة مجرد عمل منعزل، ولا يهدد بأي حال مركزه، ولكن الأخبار تواترت على مسمعه، ومفادها أن محمدا بن هشام قد دخل القصر بقرطبة، وتغلب على مدينة الزاهرة مقر ملك الدولة العامرية، وأخذ أموالها، ونقل جميع ما فيها إلى العاصمة.

عند ذلك هاله الأمر، وأمر بضبط الجيش، وتحوّل إلى قلعة رباح التي أقام فيها طيلة أربعة أيام، واختلطت عليه الأمور فلم يعد قادرا على اتخاذ قرار يواجه به الوضع المستجد بعاصمة الخلافة الأموية، و"جعل يحلّف رؤساء الجند وأهل الخدمة عند المنبر بإيمان البيعة أن يقاتلوا معه أهل قرطبة"، ومن أجل إقناعهم بالوقوف إلى جانبه "كتب لهم صكوكا بالإنزال في ديارهم وضياعهم، وقدّم جميعهم على الخطط".[3]

ورغم الموقف الحرج الذي كان يمرّ به شنجول إلا أنه لم يغير من سلوكه، حيث كان لا ينتهي كما يقول ابن عذاري "عن شرب الخمر واللواط وأعمال الشرّ"[4]، وهي الصفات القبيحة التي ستؤدي به إلى الهاوية عما قريب، ويتفق معظم المؤرخين مع ابن عذاري في صفات شخصية آخر أفراد البيت العامري المستبد بالسلطة[5].

قرّر شنجول بعد مرور أربعة أيام على مقامه في قلعة رباح العودة إلى قرطبة،

---

(1) Idem - T. II - P. 297.

(2) ابن عذاري - نفس المصدر - ج 3 ص 48.

(3) نفسه - ج 3 ص49/ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ق 2 ص 97.

(4) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 3 ص 49.

(5) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 94/ النويري - نهاية الأرب - ص 125.

واستغرقت الرحلة سبعة عشر يوما حدث خلالها أمر هام جعل ولي العهد يدخل بمفرده إلى حيث سيلقى حتفه، ذلك أن أغلب من كان معه من الجند فارقه عند وصوله إلى منزل هانئ الواقع شمال قرطبة، والتحقوا بالحضرة، وتتمثل أغلبية الجند كما كان الحال في عهد أبيه المنصور وأخيه من بعده في البربر، وهم الذين بدأوا بتركه أولا، وكان ذلك في نهاية جمادى الآخرة 399هـ (1009/02/28م).

كان أول من انصرف عنه من القواد المغاربة محمد بن يعلى وابن عمه بكساس بن سيد الناس وأبويداس بن دوناس اليفرني في جموع زناتة، وزيري بن عرابة المطماطي وزاوي بن زيري وحباسة بن ماكسن بن زيري مع من كان معهما من صنهاجة، وتوالى بعد ذلك رؤساء القبائل البربرية في الانسحاب من صفوفه، ولحق الجميع بالخليفة الجديد محمد بن هشام المهدي بقرطبة[1].

ومن البربر الذين كانوا معه قاضي الجماعة أبوالعبّاس أحمد بن هرثمة بن ذكوان الذي "تبرّأ من عبد الرحمن وفسّقه وكره أمره، كما استعظم ما يدعو إليه الناس من قتال جماعة المسلمين بقرطبة"[2].

وصل عبد الرحمن في نحو خمسين فارسا إلى منزل أرملاط القريب من قرطبة في الثاني من رجب سنة 399هـ (1009/03/2م)، وهناك تركه من بقي معه من الجند[3]، وفي اليوم الموالي اعتقل من قبل جند ابن عبد الجبار بعد إيهامه بالحصول على الأمان من حاكم قرطبة الجديد، ثم قتل[4]، وبذلك انتهت مغامرة عبد الرحمن في محاولته لقيادة بلاد الأندلس، ولكن مؤهلاته لم تكن تتناسب مع منصب هام كالحجابة، هذا المنصب الذي سمح سابقا لأبيه بأن يوصل الأندلس إلى مركز قوة مكنته من إخضاع البلاد داخليا، وإحكام السيطرة على أمراء الممالك النصرانية في الشمال خارجيا.

---

(1) نفسه - ج 3 ص 71 / عبد العزيز فيلالي - ص 252.

(2) ابن عذاري - نفس المصدر - ج 3 ص 67 - 68.

(3) ابن عذاري - نفس المصدر - ج 3 ص 72 - 73./ Lévi Provençal - opcit T II P 304.

(4) نفسه - ج 3 ص 49 ./ Lévi Provençal - opcit T II P 303.

دور محمد بن هشام بن عبد الجبار في الفتنة: كان محمد بن هشام بن عبد الجبار واحدا من أفراد البيت الأموي الذين عمل المنصور محمد بن أبي عامر ومن بعده عبد الملك المظفر على التخلص منهم بهدف الإنفراد بالسلطة.

وتقدم لنا المصادر التاريخية بعض الملامح المتعلقة بشخصية هذا الأموي المتميزة بالاستهتار والمجون والحقد والتسرع، وقد اكتسب هذه الصفات من فترة شبابه حيث كان "يعاشر في مدة استتاره قوما من الصعاليك"[1]، ونتيجة لذلك كان يجهل الآداب السلطانية، ويفتقر إلى الحكمة والتأني والذكاء، وهي شروط ضرورية وجب توفرها فيمن يتولى الحكم، وبخاصة في ظروف عصيبة كالتي مرّت بها العدوة الأندلسية قبل وصوله إلى تولي الخلافة بقرطبة.

لم يتمكن محمد المهدي من التحكم في السلطة بل انساق وراء الموقف الشعبي المتميز بالحقد على البربر الذين "كانت الأموية تعتدّ عليهم ما كان من مظاهرتهم العامريين، وتنسب إليهم تغلب المنصور وبنيه على أمرهم"[2].

كان محمد بن هشام جسورًا، مقدامًا، شجاعًا، ولكن الأمر لم يتهيأ له لهيبة عبد الملك واجتماع جنده، ولم يزل يترصد الأمر حتى مات عبد الملك وخلفه عبد الرحمن، وتطاول لولاية العهد، وأجبر الخليفة هشام على تنفيذ عهده بذلك، واستغلّ محمد بن هشام خروج عبد الرحمن إلى غزوجليقية لتنفيذ ما كان يخطط له.

على إثر خروج الحاجب إلى غزوته التي قصد بها شمال الأندلس، خلا البلد من الجند، وتأتّى لمحمد الشروع في تحقيق ما عجز عنه غيره من بني أمية، وشجّعه على ذلك رجلان هما: حسن بن الفقيه، ومُطرّف بن ثعلبة، واجتمع إليه من أصدقائه من لهم إقدام على كل عظيمة، فدسّ بعضهم إلى بعض، ووزّع عليهم الأموال؛ فاجتمع له منهم نحو أربعمائة رجل، وأيده في مهمته جماعة من المروانيين لخروج الأمر عنهم

(1) النويري - نهاية الأرب - ص 128.

(2) ابن خلدون - العبر - ج 7 ص 325.

وصرفه إلى بني أبي عامر[1].

كان عبد الرحمن قد رتب أمور البلد قبل مسيره، فجعل النظر في الأموال وتدبير البلد إلى أحمد بن حزم وعبد الله بن سلمة المعروف بابن الشرس، وجعل على المدينة عبد الله بن عمروالمعروف بابن عسقلاجة، وهوأحد أفراد البيت العامري، وظنّ شنجول أن دولة بني أبي عامر قد استحكم أمرها، ورغم توصل صاحب المدينة بأخبار تفيد بوجود من يريد القيام على بني أبي عامر، وسعيه للتعرف على هذا المعارض إلا أنه لم يتوصل إلى نتيجة تذكر رغم البحث والمبالغة في مهاجمة كثير من الدور التي شكّ في احتضانها للساعين إلى القيام على الحاجب العامري[2].

بعد الانتهاء من عملية التحضير، شرع المهدي في المرحلة التنفيذية لخطة الاستيلاء على الحكم والإطاحة بالحاجب عبد الرحمن شنجول، وذلك بداية من منتصف جمادى الآخرة من سنة 399هـ - 1009م، حيث بات ابن عبد الجبار بقرطبة، واختار ثلاثين رجلا من أكفأ أصحابه، وأمرهم بأن يدخلوا مسلّحين من باب القنطرة، وأوصاهم بالدخول فرادى، ثم الوقوف على الرصيف المقابل للوادي كما يفعل من يريد التفرج بذلك المكان، والهدف من ذلك هو العمل على عدم جلب الانتباه إليهم، ونفذ أولئك الرجال ما أمرهم به المهدي، وعندما غربت الشمس، ركب محمد بغلته وعبر القنطرة بمفرده ووصل إلى باب السكاك حيث كان نفر من أصحابه في انتظاره، ثم اقتحم بهم الباب، وقصد صاحب المدينة ابن عسقلاجة؛ فدخل عليه وقتله، وعلى إثر ذلك التحق به بقية أصحابه[3].

وصل خبر قيام محمد بن هشام بن عبد الجبار إلى أسماع أهل الزاهرة عند العصر من ذلك اليوم، وقد أصبح جمع الأموي القائم على عبد الرحمن شنجول ومن ورائه هشام المؤيد بالله عظيما بفضل ما انضمّ إليه من العوام وأهل البادية، وبواسطتهم

(1) النويري - نفس المصدر - ص128 - 129.

(2) نفسه - ص 129.

(3) نفسه - ص 129 / ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 110.

تمكن محمد المهدي من الوصول إلى قصر قرطبة من جهة باب السدّة.

لم يصدق أهل الزاهرة حدوث هذا الأمر في البداية، وظنّوا أنه مجرد مناورة قام بها صاحب المدينة، ولكن دخول ابن عبد الجبار القصر أزال الغموض، ومع ذلك فقد اعتصموا بداخل المدينة ليلتهم تلك.

أرسل هشام المؤيد إلى محمد بن عبد الجبار بعد دخوله القصر يطلب الأمان لنفسه مقابل التخلي له عن الحكم، وكان ردّ المهدي أن قال له: "أتراني إنما قمت في هذا الأمر لأقتل أهل بيتي، وإنما قمت غضبا له ولنفسي وبني عمي، فإن خلعت نفسك طائعا قبلت ذلك، وليس لك عندي إلا ما تحب"[1].

بعد اطمئنانه على نفسه وأهله، أرسل هشام المؤيد إلى الفقهاء ووجوه الناس فأحضرهم، وكتب كتاب الخلع لنفسه والبيعة لمحمد الذي قضى تلك الليلة في القصر في الوقت الذي لم يتحرك فيه أهل مدينة الزاهرة، وكانوا جمعا غفيرا منهم أبوعمر وابن حزم وعبد الله بن سلمة وابن أبي عبيدة وابن جهور وجماعة من الفقهاء والوزراء والصقالبة، ونفر من الجند والخزّان والكتّاب[2].

وفي يوم الأربعاء عين ابن عبد الجبار المهدي ابن عمه محمد بن المغيرة حاجبا، وجعل على المدينة ابن عمه أمية بن إسحاق وأمرهما بإثبات كل من جاءهما في الديوان؛ فلم يبق أحد من الناس إلاّ وأتى؛ فكان منهم الزهاد والعبّاد وأئمة المساجد والتجار الأغنياء، وقبض الجميع العطاء، كما التحق بالحاكم الجديد سائر أهل البوادي والأطراف.

لقد تمكن المهدي من الوصول إلى سدّة الخلافة بسرعة كبيرة وبسهولة أكبر تدلّ على هشاشة الحكم القائم بقرطبة، والتنافر الموجود بين الحكام والرعية، وبخاصة بعد إقدام شنجول على طلب الحكم لنفسه، وهوما يعني حرمان الأمويين من ذلك نهائيا، كما أن انضمام معظم أهل قرطبة والمجاورين لها إلى صفوف المهدي يدل أيضا

---

(1) النويري - نفس المصدر - ص 130.

(2) نفسه - ص 130.

على رغبة هؤلاء في الاستفادة من امتيازات الحكم الجديد القائم بالحضرة.

بعد النجاح في إحكام سيطرته على مدينة قرطبة، أرسل المهدي حاجبه على رأس فرقة من العامة الذين أصبحوا يشكلون معظم جنده لمحاربة أهل مدينة الزاهرة، و"لكن هؤلاء ردّوه أقبح ردّ، وهزموه إلى داخل قرطبة، ولكن العامة تكاثروا عليهم فردّوهم على أعقابهم، ودخلوا إلى الزاهرة فنهبوها، واضطرّ الوزراء والصقالبة إلى طلب الأمان من المهدي فأمّنهم"[1].

بعد فرض سيطرته على مدينة الزاهرة، قام حاجب المهدي بنقل ما بها من الأموال والأمتعة والأثاث، كما نهبت دور كثيرة للعامريين بداخلها، ونهب ما حولها من دور الوزراء، وبلغ النهب حدّا لا يتصوره العقل حيث اقتلعت الأبواب والأخشاب.

بعد أربعة أيام من أعمال النهب والتخريب، أمر المهدي العامة بالكف عن تلك الأفعال، ولكنه استمرّ في نقل ما يريد من المدينة، ويقول المؤرخون: إن الذي وصل إليه من مدينة الزاهرة في ظرف ثلاثة أيام بلغ ألف ألف وخمسمائة ألف دينار، ومن الدراهم الأندلسية ألفي ألف ومائة ألف، كما وجد بالمدينة مخابيء عشر فيها على نحومن مائتي ألف دينار[2]، بينما يقول آخرون: "إن الذي وصل إلى القائم بقرطبة خمسة ألاف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار، ومن الذهب ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار، ثم وجد فيها بعد ذلك خوابي مملوءة من الورق مدفونة في الأرض فيها مقدار مائتي ألف دينار"[3].

رغم المبالغة الواضحة في الأرقام إلا أن ذلك يدلّ على الثروة التي جمعها بنو أبي عامر في مدينة الزاهرة التي اتخذوها كمقر لملكهم، كما يدل أيضا على رغبة المهدي في جمع ما يكفيه من مال لتجنيد المزيد من الرجال، والعمل بهم على تدعيم حكمه.

---

(1) نفسه - ص 130.

(2) نفسه - ص 131.

(3) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص61/ ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ق 2 ص 111.

لم يكتف المهدي بنقل الأموال والأمتعة فقط، بل أمر بإحراق مدينة الزاهرة في 20 جمادى الآخرة سنة 399هـ - 1009م، وبداية من هذا التاريخ قطعت الخطبة لهشام المؤيد وشنجول، وخطب لمحمد بن هشام بالخلافة، وفي يوم الجمعة الموالي صلّى بالناس؛ فدعا لنفسه وتلقب بالمهدي، وعقب نزوله من المنبر قرأ كتابا يأمر فيه الناس بالاستعداد لمحاربة عبد الرحمن شنجول.

استجاب أهل الأقاليم من أقصى مناطق الأندلس لنداء الحرب، وحضروا إلى قرطبة مزودين بأسلحتهم، وقام محمد المهدي بتعيين قادة جنده فكان أغلبهم من "الحجّامين والجزّارين والحاكة والزبالين"[1]، بمعنى أنه أسقط من جند الأندلس كل قادته المتخصصين في فنون الحرب، واعتمد على العامة الذين اتخذ منهم الجند، كما جعل منهم القادة.

بعد تحكمه في زمام الأمور بقرطبة، اتخذ المهدي إجراء يقضي بإسقاط سبعة ألاف من جنده، كانوا كلهم من الصقالبة ثم أخرجهم من القصر؛ فتوجهوا إلى شرق الأندلس حيث سيقومون بتأسيس إمارات مستقلة عن قرطبة[2]، ولعل السبب في ذلك هو كون هؤلاء الجند من أفراد الجيش الذي سمح لبني أبي عامر سابقا بالاستبداد بحكم بلاد الأندلس، كما أظهر من الخلاعة واللهو والشرب ما جعل الناس يرون فيه شخصا لا يختلف كثيرا عن شنجول.

ومن أجل ضمان ولاء العامة له ادّعى أن هشام المؤيد قد مات، ولتأكيد ذلك أوقف رجالا من أصحابه على جثة يهودي مات في ذلك الوقت، وكان شديد الشبه بالخليفة الأموي، وشهد هؤلاء عند العامة أنهم وقفوا على هشام ميتا، واتفقوا على أنه مات ميتة طبيعية، وللزيادة في إقناع الناس بذلك حضر بعض الفقهاء والعدول وخلق من العامة إلى القصر، وصلّوا عليه يوم الاثنين لأربع بقين من شعبان سنة 399هـ -

---

(1) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص74 / النويري - نهاية الارب - ص 134.

(2) Levi Provençal Opcit T II P 305.

1009م، أما هشام الحقيقي فقد أخفاه عند وزيره الحسين بن يحي[1].

بعدما نجح المهدي في بسط سلطانه على سدّة الحكم، شرع في اتخاذ إجراءات جلبت إليه كراهية كثير من العناصر الأندلسية، وإلى دار الإسلام بداية التطاحن بين الإخوة، وما انجرّ عنه من تخريب وتدمير ذاتي، من ذلك أنه انقلب على بني عمومته من المروانيين؛ فسجن سليمان بن عبد الرحمن الذي كان قد جعله ولي عهده، وسجن معه جماعة من قريش، كما أظهر بغضه للبربر، وذلك من خلال سبّهم في مجلسه[2].

ولعلّ هذا الإجراء مؤشر على بوادر التذمر من الخليفة الجديد الذي أظهر للجميع بتصرفاته المجانبة لمنطق السياسة الحكيمة عدم أهليته لتولي الحكم بقرطبة، ومن ثم فإن اعتقاله للعديد من بني عمومته هو محاولة منه لإخماد أي حركة تقوم ضده مستقبلا، أما المعاملة السيئة للبربر فإنها أمر بديهي طالما أنه كان من الذين حمّلوا المغاربة مسؤولية الاستبداد العامري بالسلطة، ونتيجة لذلك كسب عداوة هذه الطوائف كلها، وسيتأكد ذلك مع مرور الوقت.

كان البربر يمثلون معظم جند عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر، وعندما رأوا انضمام جميع أهل قرطبة إلى محمد بن هشام بن عبد الجبار أيقنوا بعدم جدوى قتال هؤلاء، وذلك بسبب تخوفهم على مصير أهليهم وأموالهم المتواجدة بالزاهرة وبقرطبة، ونتيجة لذلك اتخذوا قرارهم بالتخلي عن شنجول، والدخول في طاعة الخليفة الجديد، وعند وصولهم إلى منزل هانئ نفّذوا ما اتفقوا عليه، وانسحبوا من جيش عبد الرحمن كما ذكرنا سابقا.

كان البربر ينتظرون قبول المهدي لهم وإبقائه على مكانتهم، ولكنه عوضا عن ذلك "أعلن ببغض البرابرة، وتنقّصهم جهلا بمحلّهم من البأس والعصبية"[3].

---

(1) النويري - نفس المصدر - ص 134 / ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 112.

(2) النويري - نفس المصدر - ص 135 / البيان المغرب - ج 3 ص 77 - 80 / ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ق 2 ص 112 - 113.

(3) نفسه - ص 112 - 113 / ابن عذاري - البيان المغرب - ج 3 ص 78.

استغلّ العامة الذين أصبحوا يشكلون جند المهدي، وجاءوا من مختلف الشرائح الاجتماعية ومن المناطق المتاخمة للحضرة ذلك، وأساءوا إلى المغاربة دون تمييز بين أعيانهم وعامتهم، وكان سبب قيامهم بذلك أن محمد بن هشام بن عبد الجبار قال في ذلك اليوم: لا يركبنّ أحد من الغزاة - ويعني بهم البربر - ولا يحمل سلاحا، وتصادف في ذلك اليوم أن ركب زاوي بن زيري في جماعة من المغاربة، وقصدوا القصر ولكنهم ردّوا عند بابه، فانصرفوا في غاية من الذّل.

وأبرز مثال يثبت هذه الإساءة الناتجة عن الحقد والكراهية التي كان يكنها هؤلاء للبربر ما قام به العامة في حق زعيم صنهاجة زاوي بن زيري بن مناد حيث "احتبس في الباب مدة لا يفرج له ولا يعرف مكانه، وكلّما همّ بالاستقدام ردّوه وقرعوا رأس فرسه، فلما أكثروا عليه جعل يقول: هذا الرأس فاضربوا، فالدابة لا ذنب لها"[1].

استغلّ جند من السفّال ذلك؛ فانثالوا على دور البربر، ونهبوا دور بني ماكسن بن زيري ودورا لبني زاوي بن زيري ودورا كثيرة لجماعة من البربر بالرصّافة.

كانت هذه الحادثة بداية معاناة البربر أمام همجية وكراهية العامة لهم، وعوضا عن الردّ بالمثل فضّل قادة البربر تبليغ حاكم قرطبة الجديد بما حدث لهم، وذلك يوم السبت الرابع من رجب سنة 399هـ - 1009م.

استقبل المهدي وفدا بربريا يضم زاوي بن زيري وحبّوس وحباسة ابني ماكسن وأبا الفتوح بن ناصر؛ فأعلموه بما جرى لهم؛ فاعتذر إليهم ووعدهم بتعويض ما نهب لهم، كما أمر بقتل بعض الجنود الذي اتهموا بتلك الأعمال[2].

كانت الوعود التي قدمها المهدي مجرد كلام لتهدئة خواطر البربر لأن العامة واصلت معاداة هؤلاء، كما قامت بنهب دورهم ولم يسلم منها إلا تلك الدور التي لم تصل إليها الأيدي نتيجة لحلول ظلام الليل، وعلى إثر ذلك اضطرّ البربر إلى مغادرة مساكنهم والالتحاق بأرملاط بعد حوار دار بينهم وبين العامة، وبذلك اشتعلت نار

---

(1) نفسه - ج 3 ص 75.

(2) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 3 ص 75 - 76.

الفتنة بقرطبة بين الطرفين.

ومما زاد الأمور تعقيدا أن المهدي بن عبد الجبار، وعوضا عن الاجتهاد في إطفاء نار الفتنة التي بدأت نارها تتأجّج، "أمر أن ينادى في الناس من أتى برأس بربري فله كذا"، واستغلّ أهل قرطبة ذلك؛ فتسابقوا في قتل من قدروا عليه، واشترك في تلك المهمة الجندي والتاجر، وارتكب هؤلاء من جرّاء ذلك جرائم يندى لها الجبين، ولم يميز هؤلاء بين من قتلوه من سكان قرطبة حيث دخلوا على "وسنار البرزالي وكان ممن له آثار جميلة في الجهاد؛ فذبح على فراشه في داره، ودخلوا على رجل صالح فذبح في داره، ونهبت ديار البربر، وهتكوا أعراض حريمهم، وسبوا نساءهم، وباعوهن في دار البنات، وقتلوا النساء الحوامل، وقتلوا سبعة عشر رجلا من أهل تلمسان قدموا للغزو في ساعة واحدة، وأخرجوا مسلم بن عبد الله الحسني من داره فقتل، وانتهبوا داره، وفضحوا بناته وعياله"، وبلغ العامة ذروة الطغيان عندما قتلوا قوما من أهل خراسان وأهل الشام ظنوا أنهم من البربر[1].

لقد تجلى حقد أهل قرطبة على البربر في أبشع صوره من خلال ما اقترفوه من جرائم وانتهاكات في حق الأبرياء الذين لم يكن لهم ذنب في كل ما جرى بالأندلس إلى حدّ اعتلاء المهدي لسدّة الحكم، إنه الحقد الأعمى الذي جعل هؤلاء "المسلمين" يتجرأون على قتل الشيوخ وانتهاك أعراض النساء وسبيهم، وهي الأمور التي ستجعل البربر يقررون نهائيا التخلي عن بيعتهم للخليفة الجديد، والبحث عن مكان آمن في بلاد الأندلس فضلا على أنها تثبت بما لا يدع مجالا للشك انحراف معظم جند المهدي عن مبادئ الدين الإسلامي الذي يحرم قتل المسلم وإلحاق الأذى به.

لم يستطع النجاة من البربر إلا من فرّ خارج قرطبة أو اختفى كما فعل محمد بن يعلى المغراوي ويصل بن حميد في نفر من بني عميهما وجماعة من البربر، ولم يظهروا بالمدينة إلا بعد أن أمّنهم محمد بن هشام الذي كلّف من ينادي باسمه بإنزال عقوبة الإعدام بكل من يتعرض لبربري أو يؤذيه.

---

(1) نفسه ج3 - ص 80 - 81.

نتيجة للقرار الذي أصدره الخليفة، كفّ الناس عن التعرّض للمغاربة؛ فخرج محمد بن يعلى ومن كان معه من البربر، ودخلوا على المهدي الذي أمرهم بالتخلي عن زيّهم المغربي، وطلب منهم استبداله بملابس العامة؛ فاستجابوا لذلك وفعلوا ما أمرهم به الخليفة[1].

كان قسم كبير من البربر قد غادر مدينة قرطبة نتيجة للمجازر التي ارتكبها العامة في حقهم والتحقوا بأرملاط، وقرروا التوجه إلى الثغر بحثا عن مكان آمن، وقبل تحركهم من مكان تجمعهم، أرسل إليهم محمد بن هشام "يؤمّنهم فلم يردّوا عليه جوابا، وقالوا لرسوله لولا أنك رسول وتاجر لقتلناك"[2]، ولعل السبب الذي دفع المهدي إلى تغيير سياسته تجاه البربر هو خشيته من تحالفهم مع معارضيه من بني أمية وغيرهم، وهو ما سيحدث فعلا بعد ذلك من جهة، وتخوفه من تدهور الأوضاع الاقتصادية بحكم امتهان كثير من المغاربة للنشاط الزراعي، ومن ثم تزويدهم أهل قرطبة بجل ما يحتاجون إليه من مواد غذائية وغيرها من جهة أخرى.

كما ركب أحد وزرائه، ويدعى البكري، وسار في مدينة قرطبة وأرباضها يقول للناس: "قد عفا أمير المؤمنين المهدي عن البربر على أن يرجعوا إلى بلادهم؛ فيصيروا حرّاثين كما كانوا"[3].

لم يلتفت البربر إلى ما اقترحه المهدي عليهم، وواصلوا سيرهم حتى وصلوا إلى قلعة رباح في آخر شوّال، وكان في جملة من سار معهم سليمان بن الحكم الذي غادر قرطبة بعد ما قتل المهدي أفرادا من بني أمية، وعند ما رآه بعض المغاربة سألوه عن نفسه فأخبرهم بحقيقة شخصه، فاجتمعوا إليه وولّوه على أنفسهم[4].

كان سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر لدين الله قد فرّ من مدينة قرطبة طلبا للنجاة عقب قيام المهدي بقتل عدد من بني عمومته ومنهم هشام بن

(1) نفسه - ج 3 ص 82.
(2) نفسه - ج 3ص 82.
(3) نفسه - ج 3 ص 82.
(4) نفسه - ج 3 ص 82.

سليمان بن الناصر، وكان هذا الأخير قد حاول خلع المهدي عند ما رأى سوء تصرفه مع الصقالبة الذين أقصاهم من جنده، ونفاهم إلى شرق الأندلس، ومع البربر الذين حرّض عليهم العامة بمجاهرته ببغضه لهم.

وقد شارك البربر في القوة التي شكلها هشام بن سليمان، وزحفوا معه إلى القصر بقرطبة، وفرضوا حصارا على المهدي مدة يوم وليلة، وذلك في شوال سنة 399هـ بداية جوان 1009م، ولكن هذا الأخير نجح في فك الحصار المضروب عليه، وإلحاق الهزيمة بأعدائه وقتل زعيمهم.

نتيجة لذلك تفرق من التفّ حوله من البربر والصقالبة وغيرهم من البلديين، وبأمر من المهدي قام العامة بمهاجمة من كان بقرطبة من المغاربة؛ فقاموا بقتل البعض، وأسروا البعض الآخر، واضطرّ من أفلت من هذا المصير إلى الفرار، والالتحاق بغيرهم من الفارين، وذلك في عقب شوال من سنة 399هـ - 1009م[1].

<u>الصراع بين سليمان المستعين والمهدي</u>: بايع البربر سليمان بن الحكم بالخلافة فتلقب بالمستعين بالله، ثم ساروا معه إلى قلعة رباح الواقعة بين قرطبة وطليطلة[2]؛ فبايعه أهلها، وذلك في أوائل ذي القعدة سنة 399هـ، ثم تابعوا سيرهم فوصلوا إلى مدينة وادي الحجارة الواقعة على بعد خمسين ميلا من مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط[3]، وهناك التحق بهم أربعمائة فارس بربري كانوا في جملة جند واضح وذلك بعدما همّ بالغدر بهم[4].

وصل البربر بعد التحاق إخوانهم بهم إلى مدينة سالم، وطلبوا من واضح، قائد الثغر الأوسط أن يسعى من أجل عقد صلح بينهم وبين حاكم قرطبة، واشترطوا لعقد

---

(1) نفسه ج 3 ص 83/ابن الخطيب - أعمال الإعلام - ص 113/النويري - نهاية الارب - ص 135.

(2) عبد المنعم الحميري - الروض المعطار - ص 16.

(3) نفسه ص 193/ ابن عذاري - نفس المصدر - ج 3 ص 85
Levi Provençal Opcit T II P 307 - 3.

(4) ابن عذاري - نفس المصدر - ج 3 ص 85.

هذا الصلح أن يعين سليمان بن الحكم وليا للعهد، وأن يتم الاتفاق على أمر يكون فيه صلاح الناس.

رغم ما لحق بهم إلا أن البربر بذلوا جهدهم في سبيل عقد صلح مع الخليفة الأموي كما أن مطالبتهم بتعيين سليمان بن الحكم وليا للعهد يدل على نيتهم في عدم تفريق كلمة المسلمين وتقسيم أهلها إلى شيعتين متحاربتين، كما يدل أيضا على ولائهم للبيت الأموي، وتأييدهم لاستمرار حكم أفراده لبلاد الأندلس، ولكنهم في الوقت ذاته يرفضون الظلم والإستبداد الذي تعرّضوا له من قبل أتباع الخليفة الجديد رغم مبايعتهم له، ولكن واضح رفض هذه الإقتراحات، ولم يكتف بذلك، بل حاول بمساعدة بعض العبيد العامريين إلقاء القبض على سليمان، كما أمر جنده بقتال البربر على أن يستغل العبيد ذلك للقيام بما أمروا به.

إكتشف البربر ما دبره واضح، ونجحوا في التخلص من العبيد العامريين المكلفين باعتقال زعيمهم، ثم حاولوا القضاء على قائد الثغر الأوسط، ولكنهم هزموا من قبله، ونتيجة لذلك انصرفوا عن مدينة سالم، ووصل خبر هذه المناوشات التي وقعت بين البربر وواضح إلى أسماع المهدي بقرطبة؛ فأمر بقراءة كتاب مفتعل على الناس يخبرهم فيه أن البربر قتلوا قتلا ذريعا، وأنه سيصل إلى الحضرة أكثر من ألف رأس من رؤوسهم؛ فاستبشر أهل قرطبة بهذا النصر الوهمي[1].

ويبدو أن المهدي بدأ يشعر فعلا بخطر ما ارتكبه عندما حرّض أتباعه ضد البربر، ولذلك فهو يسعى إلى إبعاد خطرهم عن الحضرة ولو بافتعال هذا الانتصار، كما أنه كان يسعى أيضا إلى الحفاظ على الوحدة الداخلية الكفيلة بالوقوف في وجه خصومه.

رغم مغادرة البربر لمدينة سالم وكفّهم عن قتال أهلها إلاّ أن واضح الفتى فرض عليهم حصارا اقتصاديا حيث منع الناس من حمل شيء من الطعام إلى محلة البربر، وهدّد كل من يقوم بذلك منهم بقتله ومصادرة أمواله، وعلى إثر ذلك القرار

(1) نفسه - ج3 ص 85 - 86.

عاش البربر خمسة عشر يوما بحشيش الأرض، وعندما اشتدّ عليهم الجوع أرسلوا إلى ابن مامة النصراني وهو سانشو غرسية، ملك قشتالة، يقولون له:"قد علمت ما بيننا وبين واضح وابن عبد الجبار، فإن انت رغبت في صلحنا ومسالمتنا فنحن معك عليهما".

وعندما وصلت رسل البربر إلى ابن مامه، وجدت عنده رسل المهدي وواضح يطلبون الصلح معه مقابل إعطائه ما أحبّ من مدائن الثغر، ولتأكيد حسن نيتهم ورغبتهم الأكيدة في الصلح قدموا له هدية كبيرة تضمنت الخيل والبغال وكسى وما لا يحصى من الطرائف والتحف[1].

فضّل ابن مامة في نهاية المطاف البربر على منافسيهم، ولعلّ السبب الذي دفع ملك النصارى إلى تفضيل الاتفاق مع البربر هو علمه المسبق بالمنتصر في هذه المواجهة الدائرة بين الطرفين لأنه سبق أن اختبر مدى قوة الجيش المكون للمعارضة، وذلك من خلال المواجهات العسكرية السابقة التي دارت بينه وبين جند الأندلس المشكل في أغلبيته من البربر في عهد المنصور ابن أبي عامر وابنه المظفر عبد الملك، واشترط عليهم أن يعطوه ما أحبّ من مدائن الثغر عندما يستولون عليها، وقام على الفور بإرسال مساعدات كبيرة إليهم تضمنت كميات كبيرة من الدقيق والعقاقير وأنواع المآكل وألف ثور وخمسة ألاف شاة وجميع ما يصلح أحوالهم حتى الفحم والعسل والسروج والشقق للباسهم وغير ذلك[2].

تنفيذا للاتفاق مع البربر، سار ابن مامة النصراني إلى البربر في جمع كثيف من النصارى، ثم توجهوا معا نحو مدينة سالم، وفي طريقهم إليها أرسلوا إلى واضح الفتى يرغبون إليه في الصلح ولكنه أبى وامتنع عن ذلك، فساروا إلى شرنبة الواقعة على مقربة من قلعة عبد السلام.

وقام واضح بجمع أهل الثغور من أجل محاربتهم وأرسل إليه ابن عبد الجبار غلامه قيصرا بالعسكر من أجل مساعدته في حربه ضد البربر المدعومين بالنصارى،

---

(1) نفسه - ج3 ص 86.

(2) نفسه - ج 3 ص 86 / Levi Provençal - opcit T II P. 308

والتقى الجمعان بشرنبة؛ فاقتتلوا وانهزم واضح، ودارت هذه المعركة بالقرب من قلعة عبد السلام الواقعة إلى الشرق من مدينة مجريط وغير بعيدة عنها[1] وذلك في شهر ذي الحجة من سنة 399هـ (أوت 1009م).

عقب انهزامه انسحب واضح ومن نجا من جنده نحو مدينة قرطبة في يوم الأحد من أواخر ذي الحجة سنة 399هـ (أوت 1009م)[2].

بفضل الانتصار الذي حققه البربر والنصارى على عسكر واضح والمهدي، ملكوا جميع ما كان مع هؤلاء من مال وسلاح، وبالتالي أصبحوا في موقع يسمح لهم بالسير نحوقرطبة[3].

ارتاع المهدي لهزيمة قلعة عبد السلام، ونتيجة لذلك أخذ في تحصين مدينة قرطبة حيث حفر حولها خندقا، وبخاصة في حدود أرباضها الشمالية وفي فحص السرادق، ورتب رجاله على الأسوار والأبواب، وفي هذه الأثناء التحق الفتى واضح قائد الثغر الأوسط بالحضرة في أربع مائة فارس، أما سليمان بن الحكم فقد سار من جهته في جموع البربر وقوات سانشوغرسية في اتجاه العاصمة، وفي 11 ربيع الأول سنة 400هـ (3 نوفمبر 1009م) وصل بقواته إلى وادي أرملاط.

انتقل البربر وحلفاؤهم من وادي أرملاط إلى جبل قنتيش الواقع في شمال شرق القليعة - شرق قرطبة - حيث عسكروا في سفح ذلك الجبل، وعندما علم المهدي بذلك هاجمهم بجند أغلبه من العامة الذين يجهلون فنون القتال، فاشتبك الفريقان، ودارت الحرب بينهما، وكان النصر فيها حليف البربر، وعقب ذلك ارتدّ واضح وجنده على أعقابهم وتبعتهم قوات سليمان بن الحكم، فضاقت عليهم الطرق، ومات منهم عدد كبير إما بالقتل على يد البربر والنصارى أو غرقا أثناء محاولة عبور النهر (وادي أرملاط أو الوادي الكبير)، وقد سميت هذه المعركة في المصادر التاريخية

---

(1) Levi Provençal - opcit T II P 310.

(2) ابن عذاري – نفس المصدر – ج3 ص86 – 87 / L.Provençal - op - cit T. II P.310.

(3) ابن عذاري – نفس المصدر – ج3 ص 87.

وغيرها بمعركة قنتيش، ودارت رحاها في الثالث عشر من شهر ربيع الأول سنة 400هـ الموافق ليوم السبت 5 نوفمبر سنة 1009م.

بلغ عدد القتلى في صفوف جند المهدي عشرة ألاف[1]، بينما يقول ابن الخطيب: "وقتل النصارى يومئذ من أهل قرطبة أزيد من ثلاثين ألفا"[2]، ولعلّ ذلك سهو من الناسخ الذي اختلط عليه عدد الذين قتلوا في المعركة مع عدد الذين قتلهم النصارى من أهل قرطبة الفارين من ساحة القتال، وفي ذلك يقول ابن حيان: "ومال النصارى يومئذ على المنهزمين من المسلمين، فقتلوا منهم في صعيد واحد نيفا على ثلاثة ألاف رجل"[3]، ويؤكد ابن عذاري نفس الأمر[4].

صمد واضح ورجاله حتى أجنّهم الليل، فاستغلوا ذلك للفرار نحو مدينة سالم وتركوا الساحة لسليمان بن الحكم ومن معه من البربر والنصارى.

حاول محمد المهدي عندما وصلته أخبار الهزيمة النكراء التي مني بها جنده في وقعة قنتيش أن ينقذ نفسه؛ فاستعمل من أجل ذلك حيلة حاول بها إبطال دعوى سليمان بن الحكم، حيث عمد إلى إظهار هشام المؤيد بعدما أخفاه كما ذكرنا سابقا وزعم أنه مات، وأجلسه في شرفة قصر قرطبة، وبعث قاضي الجماعة أبا العباس أحمد بن هرثمة بن ذكوان إلى البربر ليخبرهم أن الخليفة هشام المؤيد مازال على قيد الحياة، وأنه يعترف به كخليفة شرعي لبلاد الأندلس، ويعتبر نفسه نائبا له، وعندما أبلغ البربر بذلك سخروا من محمد بن هشام، وقالوا للقاضي البربري: "سبحان الله ياقاضي، يموت هشام بالأمس، وتصلي عليه أنت وغيرك، واليوم يعيش، وترجع الخلافة إليه"[5].

---

(1) نفسه - ج3 ص90/ابن بسام - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - ق1 م1 ص43/ Levi Provençal op - cit T. II P.310.

(2) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ق2 ص 113، ويقول الحميدي عن هذه المعركة: "فلم تكن إلا ساعة حتى قتل من أهل قرطبة نيف على عشرين الف رجل في جبل هناك يعرف بجبل قنطيش" - جذوة المقتبس - ص 22/ الحلة السيراء - ج2 ص6/ نفح الطيب - ج 1 ص 428.

(3) ابن بسام الشنتريني - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - ق1 م1 ص 44.

(4) ابن عذاري - البيان المغرب - ج3 ص 90.

(5) ابن بسام - نفس المصدر - ق1 - م1 - ص43/ L.Provençal opcit T. II - P.310.

بعد فشله في إقناع البربر بمبايعة هشام المؤيد والتخلي عن سليمان بن الحكم، قرّر المهدي الفرار، وخرج من قرطبة متنكرا ليلتحق بمدينة طليطلة.

ودخل زاوي بن زيري القصر يوم الاثنين السادس عشر من ربيع الأول سنة 400هـ الموافق لـ 8 نوفمبر 1009م، وفي اليوم الموالي لحق به سليمان المستعين؛ فبايعه الناس بالخلافة، واستقبله أهل قرطبة بحماسة كبيرة كشأنهم مع كل متغلب ظافر[1]، ثم كلف سليمان بعض الصقالبة بالحفاظ عل الخليفة هشام المؤيد في بعض أجنحة القصر مما يعني أنه وضع مجددا رهن ما يمكن أن يعرف اليوم بالإقامة الجبرية.

اختار البربر الإقامة في مدينة الزهراء لتفادي الصدام مع العامة الحاقدين عليهم، ومع ذلك فقد وقعت عدّة حوادث اعتداء على المغاربة الداخلين فرادى إلى بعض أرباض قرطبة[2].

بعد استقراره بالقصر، أمر سليمان الذي تسمى بـ"الظافر بحول الله" بإنزال جثة عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر من الخشبة التي علقت بها جثته منذ قتله، وقام بدفنه في دار أبيه، كما قام الناس بدفن موتاهم، وتمّ إحصاء القتلى من أهل قرطبة فكانوا نحوا من عشرة ألاف[3]، وبهذا يحسم أمر عدد الذين قتلوا في وقعة قنتيش.

قدم سانشو غرسية ملك قشتاله إلى القصر؛ فاستقبله سليمان بحفاوة كبيرة، وخلع عليه وعلى أصحابه، وطلب من البربر أن يسلموه الحصون التي اشترطها عليهم مقابل مساعدتهم في حربهم ضد المهدي وواضح؛ فقالوا: "ليست الآن بأيدينا، فإذا تمهد سلطاننا أنجزنا لك ما وافقناك عليه"، وبعد أسبوع غادر ملك النصارى قرطبة التي ترك بها حامية تتكون من مائة مقاتل أنزلوا في منية العقاب[4].

وصل المهدي في هذه الأثناء إلى طليطلة، وشرع مباشرة في تدبير أمره،

---

(1) ابن عذاري - البيان المغرب - ج3 ص 89/ابن بسام - الذخيرة - ق1 - م1 - ص44 - 45/ L.Provençal opcit T.II - P311.

(2) ابن بسّام - الذخيرة - ق1 م1 ص 45/ابن عذاري - البيان المغرب - ج3 ص89 - 90.

(3) نفسه - ج3 ص 92.

(4) نفسه - ج3 ص 90 / l.Provençal - opcit T. II - P.311.

وكانت الثغور كلها متمسكة بطاعته وملتفة بدعوته، كما التحق به واضح قائد الثغر الأوسط، ودعا الناس إلى نصرته، وعندما علم سليمان المستعين بما يدّبره المهدي وقائده، خرج بقواته من قرطبة واتجه صوب مدينة طليطلة، وذلك في الحادي عشر من جمادى الآخرة سنة 400هـ (يناير 1010م)، وعندما وصل إليها طلب من أهلها الدخول في طاعته ولكنهم أبوا؛ فانصرف عنهم وتوجه إلى مدينة سالم التي فشل في استمالة أهلها إليه، ولذلك اضطرّ إلى العودة من حيث أتى، وممّا عجل بذلك سوء الأحوال الجوّية (تساقط الثلوج والأمطار بكثرة)، ووصل إلى الحضرة في أواخر شعبان سنة 400هـ (14 أفريل 1010م)[1].

وفي الوقت الذي كان سليمان يحاول فيه استمالة أهل طليطلة ومدينة سالم إلى صفه، سار واضح إلى مدينة طرطوشة، واتصل بأمير برشلونة الكونت ريموند بوريل الثالث وأخيه الكونت أرمنقول صاحب أورخل، واتفق معهما على إمداده بجيش يعينه في قتال البربر بقرطبة مقابل تنازلات عديدة وخطيرة منها "إدخالهم مدينة سالم وتسليمها لهم"، وبذلك تم إخلاؤها ممن كان فيها من المسلمين، وكان "أول موضع دخله النصارى من هذه المدينة مسجدها الذي دقوا فيه الناقوس وحولوا قبلته"، كما اشترط النصارى على واضح "أن يلتزم لكل رجل منهم دينارين في كل يوم وما يقوم به من الشراب والطعام وغير ذلك، وعلى أن لهم كل ما حازوه من عسكر البربر من سلاح وكراع ومال، وأن نساء البربر ودماءهم وأموالهم حلال لهم"[2].

بعد قبوله لكل شروط حاكمي برشلونة وأورخل رغم قساوتها، وهو ما يؤكد حرص المهدي وسعيه الحثيث إلى استعادة كرسي الخلافة ولو تطلب ذلك إباحة دم المسلم وعرضه وماله للعدو النصراني، وهو ما يحرمه الدين الإسلامي، سار الجيش النصراني رفقة واضح نحو مدينة طليطلة، وفي طريقهم إليها وصل أفراد مقدمة جيش النصارى إلى مدينة سرقسطة؛ "فساموا أهلها سوء العذاب في عبيدهم وذراريهم

---

(1) نفسه - ج3 ص 92 - 93 / l.Provençal - opcit T. II - P 312.

(2) ابن عذاري - البيان المغرب - ج3 ص 94 / l.Provençal - opcit - T II - P312.

وتجارهم كما نزلوا في ديارهم"[1].

وعندما وصل النصارى إلى مدينة طليطلة، انضم إليهم المهدي وجنده، وسارت هذه القوات مجتمعة نحو مدينة قرطبة، وعندما بلغت أخبار تحرك هذه الجيوش إلى سليمان المستعين استنفر أهل قرطبة، ولكن دعوته لم تلق الرد الذي كان ينتظره، "حيث أظهر أهل قرطبة العجز عن ذلك وجبنوا عنه، وطلبوا منه معافاتهم فعافاهم"[2]، ومعنى ذلك أن أهل قرطبة لم يكونوا فعلا إلى جانب سليمان، وإنما تظاهروا له بالمبايعة للحفاظ على أرواحهم وممتلكاتهم فقط بينما وقفوا إلى جانب سابقه بكل ما يملكون وضحّوا من أجله بعدد كبير من أفرادهم.

حشد سليمان ما استطاع من الناس مما يعني وقوف جزء من أهل قرطبة إلى جانبه، وخرج مع البربر لملاقاة خصومه، ودار اللقاء بين الطرفين في مكان يعرف بعقبة البقر، ويقع على بعد نحو عشرين كيلومتر من شمال قرطبة[3]، وذلك في منتصف شوال سنة 400هـ (أواخر ماي1010م).

كان البربر بزعامة زاوي بن زيري في المقدمة بينما بقي سليمان المستعين بقواته في مؤخرة الجيش، ودار قتال عنيف بين المغاربة والمهدي وجنده وقوات النصارى التي قتل عدد كبير من أفرادها، وفي مقدمتهم الكونت أرمنقول، وتسميه لمصادر العربية أرمقند.

نجح فرسان النصارى في اختراق صفوف البربر، وقتلوا منهم ثلاثمائة رجل، وعندما رأى سليمان ذلك، ظن أن البربر قد انهزموا؛ فولى هاربا، وتخلى بذلك عن المؤخرة التي كان قد كلّف بحمايتها، ونتيجة لذلك اضطر المغاربة إلى الفرار من ساحة القتال بعدما انسحب أغلب فرسانهم مع سليمان، وارتدّوا نحو مدينة الزهراء؛ فأخذوا أهلهم وأموالهم وغادروها في اتجاه الجنوب، أما سليمان فقد اتجه مع بقية أصحابه

---

(1) ابن عذاري نفس المصدر - ج3 ص 94.

(2) نفسه - ج3 ص 94.

(3) levi Provençal - op cit - TII - P313.

صوب مدينة شاطبة شرقا.

استغلّ عامة قرطبة مغادرة البربر لمدينة الزهراء؛ "فنهبوا ما وجدوا فيها من آلات البربر، وقتلوا من وجدوا بها، ودخلوا الجامع ونهبوا حصره وقناديله ومصاحفه وسلاسل قناديله وصفائح أبوابه"[1].

نلاحظ من خلال ما سبق أنه كلما سنحت الفرصة بذلك إلا واستغلها جزء كبير من أهل قرطبة في إظهار عداوتهم للبربر - إخوانهم في الدين - ولم يكتفوا بذلك بل تجاوزوا كل الحدود عندما صاروا يعتدون على حرمة بيوت الله، وينهبون ما بداخلها وكأنها ملك للمغاربة، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على ابتعاد هؤلاء الأندلسيين عن مبادئ الدين الإسلامي الذي يحرّم الظلم والعدوان وانتهاك الحرمات بمختلف أنواعها.

عودة المهدي إلى الخلافة واستمرار الصراع مع سليمان المستعين:

دخل المهدي إلى قرطبة في اليوم الموالي لوقعة عقبة البقر رفقه واضح وأخذ البيعة لنفسه، وكان هشام المؤيد في مقدمة المبايعين له ثم تلاه أهل قرطبة على اختلاف طبقاتهم، وعقب البيعة مباشرة قرّر القضاء على البربر قبل أن يستعيدوا أنفاسهم ويعودوا لمحاربته كما فعلوا سابقا، ومن أجل تحقيق ذلك طلب من أهل قرطبة منحه الأموال اللاّزمة لخوض الحرب على وجه السلف، ثم منح النصارى ما اشترطوه عليه فيما سبق.

حشد المهدي كل قادر على حمل السلاح، وخرج لملاحقة البربر، وبلغ عدد الذين خرجوا معه ثلاثون ألف فارس إضافة إلى النصارى الذين كانوا معه وعددهم تسعة آلاف[2].

بينما كان ابن عبد الجبار يعدّ العدّة لملاحقة البربر والقضاء عليهم، كان هؤلاء

---

(1) البيان المغرب - ج3 ص94 / الذخيرة - ق1 - م1 ص45/الحلة السيراء - ج2 ص7/ I.
Provençal - op - cit - T. II P. 313 - 314.

(2) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص95 - 96.

قد وصلوا إلى وادي آره أو يارو الواقع على مقربة من مدينة مربلة، وهم في طريقهم نحوالجزيرة الخضراء.

إلتقى الجمعان عند هذا الوادي ودارت بينهما معركة طاحنة كان الانتصار فيها للبربر رغم التفوق العددي لجند المهدي وجيشه الذي قتل من أفراده نحو ثلاثة آلاف جندي، وغرق منهم عدد كبير وغنم البربر الكثير من أسلحتهم وخيلهم ومتاعهم، ودارت هذه المعركة يوم الخميس السادس من ذي القعدة سنة 400هـ (21 جوان 1010م)[1].

ولعلّ السبب الرئيس في انتصار البربر يعود إلى استماتتهم في الدفاع عن أهلهم المرافقين لهم، وبالتالي فإن وجودهم على قيد الحياة أصبح مرتبطا بهذا الانتصار، إضافة إلى أن مكان المعركة كان له هو الآخر دوره في هذا النصر؛ فموقع المعركة منطقة جبلية احتمى بها المغاربة، وكان أمامهم نهر أعاق تحرك أعدائهم من النصارى وجند المهدي، وسنعود إلى هذه الوقعة بأكثر تفصيل في الفصل الثاني من هذا الباب.

عقب انتهاء المعركة، عاد المهدي وواضح ومن نجا من النصارى معهما إلى قرطبة بينما سار البربر نحو ريّة الواقعة في قبلّي العاصمة[2]، حيث التحق بهم سليمان المستعين مع من كان معه من الجند[3].

شرع المهدي بعد عودته إلى قرطبة، وعقب انسحاب النصارى الذين نجوا من المعركة إلى بلادهم، في تحصين المدينة حيث حفر حولها خندقا، وأقام وراءه سور، واتخذ كافة الإجراءات استعدادا لمواجهة البربر، وذلك لاعتقاده بقرب هجومهم على الحضرة، ومع ذلك كله، كان الخليفة "منهمكا في شرب الخمر، ومظاهرا بالفسق، ومضيقا على أهل قرطبة، ومفترسا للتجّار"[4].

(1) نفسه - ج3ص 96.

(2) عبد المنعم الحميري - الروض المعطار - ص79.

(3) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص 96.

(4) نفسه - ج3 ص 99.

كانت هذه السمعة السيئة التي تميز بها المهدي واحدة من الأسباب التي جعلت واضحا، قائد جنده يتغير عليه، ويبدل موقفه المساند له ويكّن له الحقد، ويضاف هذا إلى أسباب أخرى جعلت واضحا والفتيان العامريين يحنقون عليه، ومنها "ما فعله بابن أبي عامر وآل عامر وهشام المؤيد بالله"[1]، إضافة إلى تنازله عن العديد من الأقاليم الإسلامية لصالح النصارى.

ولهذه الأسباب كلها "كان واضح يدبّر في قتله مع طائفة من العبيد"، وفي يوم الأحد ثامن ذي الحجة سنة 400هـ (23 جويلية سنة1010م) قاموا بتنفيد ذلك، حيث دخلوا القصر وأخرجوا هشاما المؤيد، وأقعدوا ابن عبد الجبار بين يديه، ثم "ذبحوه وحزّوا رأسه ورموا بجثته إلى الرصيف"[2].

سعى واضح إلى كسب ودّ البربر، ولذلك عمد إلى إرسال رأس المهدي إليهم، كما نصب جثته في مدينة قرطبة أياما قبل أن تدفن، ويعلق ابن عذاري على مقتل محمد بن هشام بن عبد الجبار فيقول: "وأراح الله من شرّه وفسقه"[3].

هكذا إذا كان مصير محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدي الذي فتح أبواب الفتنة على مصراعيها ببلاد الأندلس التي لم تنعم بالأمن والاستقرار منذ اعتلائه سدّة الحكم، وقد دام حكمه عشرة أشهر وتسعة عشر يوما[4].

تطور الفتنة خلال حكم هشام المؤيد: عادت الخلافة مجددا إلى هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر بعد مقتل المهدي؛ فجدّد له الناس البيعة، وشرع من فوره في اتخاذ جملة من الإجراءات بهدف إعادة الأوضاع إلى سابق عهدها، ومنها تعيين واضح الفتى الكبير لحجابته، والسعي إلى كسب ولاء البربر له، وذلك من خلال إرسال رأس المهدي إلى سليمان المستعين، كما أنه كتب إلى المغاربة يدعوهم

(1) نفسه - ج 3 ص 99.

(2) نفسه - ج3 ص99 - 100/جذوة المقتبس - ص22/الذخيرة - ق1م1ص45/الحلة السيراء - ج 2 ص7/. L. Provençal - opcit - T II. P315.

(3) ابن عذاري - البيان المغرب - ج3 ص100/ ابن بسام - ق1 م1 ص45.

(4) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 - ص50.

إلى الدخول في طاعته، ولكنهم لم يقبلوا دعوته، وأبدوا تمسكهم بولاية سليمان[1]، ولعلّ السبب الرئيس لذلك الرفض هو ما كانوا يكنونه من الحقد الدفين لأهل قرطبة الذين مارسوا في حقهم أنواعا كثيرة من التنكيل والقتل، ثم إن البربر كانوا على علم بأن السلطة الجديدة لم تترسخ أركانها بعد وتتوطد دعائمها، ولذلك سارت جموع البربر نحو مدينة قرطبة، وتمكنت من الإستيلاء على مدينة الزهراء في 23 ربيع الأول سنة 401هـ (4 نوفمبر 1010م) بعد مهاجمتها، وقتل معظم الجند الذين كانوا مرابطين بها، ثم استقر البربر بها إلى غاية أواخر شعبان من تلك السنة، وخلال تلك الفترة كانوا يغيرون على أرباض قرطبة، ويعيثون فيها قتلا ونهبا وتخريبا، ولكنهم لم يهاجموا عاصمة الخلافة الأموية بل اكتفوا بفرض حصار شديد عليها ستكون نتائجه وخيمة على أهلها[2].

نتيجة لما كان يقوم به البربر من قتل وتخريب حول مدينة قرطبة، صار أهلها "في نقص من الأموال والأنفس، وانضاف إلى ذلك الوباء والمرض، "ومع ذلك كله كانوا شديدي الحرص على الخروج من أجل قتال البربر، ولكن القوة كانت تنقصهم من أجل القيام بذلك[3].

ولم يكتف البربر بمهاجمة أرباض قرطبة فقط بل وجهوا ضرباتهم أيضا إلى كور جيان وإلبيرة ومالقة والجزيرة الخضراء، وذلك بهدف إخضاعها لنفوذهم، وإرغام أهلها على مبايعة سليمان المستعين[4].

في هذه الأثناء وصل رسل سانشو غرسية ملك قشتالة، وطلبوا من البربر تسليمهم الحصون الواقعة على الحدود معهم، ولكن هؤلاء وجهوهم إلى هشام المؤيد وحاجبه واضح على اعتبار أن هذه الحصون كانت تابعة لقائد الثغر الأوسط وموالية

---

(1) ابن عذاري - نفس المصدر - ج 3 ص 101.

(2) نفسه - ج3 ص101/ .L. Provençal - opcit. T II P 316

(3) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص 101.

(4) L. Provençal. opcit. T II P 316.

لخليفة قرطبة.

إضطرّ الخليفة الأموي إلى الاستجابة لمطالب النصارى لسببين اثنين: أولهما تفادي عدوانهم على مدن الثغر الأوسط، وثانيهما منع تحالف ممكن مع البربر ضدهم.

وتنفيذا لذلك حضر الفقهاء وقاضي الجماعة والعدول توقيع اتفاق بالشروط التي أملاها النصارى، والمتمثلة بالخصوص في تسليم جملة من الحصون ذات الأهمية الإستراتيجية الكبيرة إذ تعتبر الخط الدفاعي الأول لدار الإسلام، وبلغ عددها ما يقارب المائتي حصن من أهمها إشتيين وقلونية وأوسمة وغرماج، وكانت هذه الحصون قد افتتحت في عهد الحكم المستنصر وبخاصة في عهد المنصور بن أبي عامر[1].

ونتيجة لهذه التنازلات أصبحت حدود الأندلس الإسلامية الشمالية مفتوحة أمام غزوات النصارى، وكان من الممكن تفادي ذلك لو تعقل الطرفان، وتنازل كل منهما عن غطرسته في سبيل تحقيق الهدف الأسمى المتمثل في توحيد الصفوف، ومواجهة الخطر الحقيقي المتمثل في النصارى المتكالبين على بلاد المسلمين.

إستمرّ حصار البربر لعاصمة الخلافة وعيثهم في ضواحيها، ونتيجة لذلك ساءت الأحوال داخل المدينة، ومع ذلك كان أهلها على اختلاف طبقاتهم يتوقون إلى محاربة البربر والقضاء عليهم، ويرفضون كل رأي أو مسعى يسير في اتجاه التفاهم معهم أو عقد الصلح، واضطرّ الخليفة وحاجبه إلى مسايرة موقف الأغلبية الناقمة على المغاربة، وتوفير كل الوسائل التي تمكنهم من تحقيق ذلك، ولكن الإمكانات المالية لم تكن كافية لتزويد الجند بما يحتاجونه من سلاح وكراع.

من أجل توفير المال اللازم لمواجهة متطلبات الحرب، قرر الخليفة هشام المؤيد بالله بيع نفائس القصر وتحفه، وفي هذه الأثناء شعر واضح قائد جيش هشام وحاجبه بصعوبة المهمة التي كلّف بها، وهي القضاء على المحاصرين للحضرة وتأمين أهلها، ولذلك عزم على مراسلة البربر من أجل عقد صلح معهم، وكلف أحد رجاله ويعرف بابن بكر بمهمة الاتصال بهم؛ فاجتمع هذا الأخير مع سليمان المستعين وعاد

---

(1) ابن الخطيب – أعمال الاعلام – ق2 ص117/317 - L. Provençal. opcit. T II P 316.

بردّه، ولكن الجند قتلوه قبل تقديم حصيلة ما جرى بينه وبين خليفة البربر[1]، وهو ما يؤكد من جديد معارضة قسم هام من سكان قرطبة وجندها لأي مشروع يسعى إلى مصالحة البربر.

أمام استحالة تحقيق الصلح والقضاء على المغاربة من جهة، وظهور معارضة ضده في صفوف جند الخليفة هشام المؤيد لقيامه بمساعي الصلح دون استشارته من جهة أخرى، قرّر واضح مغادرة المدينة سرًا والإلتحاق بمدينة سالم، ولكن بعض كبار الجند اكتشفوا أمره فقتلوه، ونهبوا دوره ودور أصحابه، ووجدوا بها مالا كثيرا كان يعتزم الفرار به[2]، وكان قتله في الخامس عشر من ربيع الثاني سنة 402هـ (16 اكتوبر 1011م)[3].

عقب مقتل واضح، عزم هشام المؤيد على مباشرة أمر تسيير شؤون الخلافة بنفسه، ولكنه لم يلبث أن عجز عن ذلك، وعاد الوزراء إلى الحكم بدلا عنه، ومنهم ابن وداعة الذي ولاه الخليفة شرطة المدينة، وهو أبو الحسن علي بن وداعة بن عبد الودود السلمي[4]، ويقول بن بسام إنه: "أحد الفرسان الأبطال ونبهاء الدولة في ذلك الأوان"[5]؛ فاستعمل هذا الأخير الشدّة والحزم من أجل حفظ الأمن والنظام[6]، كما كلف أحد الموالي العامريين ويدعى ابن مناو بتدبير الأمور العامة للدولة، وبفضل الإجراءات التي اتخذها هذان العاملان صمدت قرطبة لمدة سنة ونصف أمام الحصار المضروب عليها من قبل جنود سليمان المستعين، وفي عهدهما وصل قوم من البربر إلى شفير الوادي المقابل للحضرة، ودعوا إلى عقد الصلح بين الطرفين المتنازعين، ولكن الفقهاء

(1) ابن الخطيب - نفس المصدر - ص 117 - 118/ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص104 - 105.

(2) نفسه - ج3 ص104 - 105/ ابن الخطيب - أعمال الاعلام - ص118.

(3) L. Provençal - opcit.T II P 318.

(4) ابن الأبّار - الحلة السيراء - ج1 ص282.

(5) ابن بسام الشنتريني - الذخيرة - ق4 م1 ص53.

(6) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص105.

عارضوا ذلك، وقالوا: إن تمّ هذا كان فيه هلاكنا، واجتمعوا إلى ابن مناو وقالوا حرب البربر أسلم لنا من صلحكم، فاعرضوا عن ذكر الصلح"، وكان هذا الأخير قد أبدى رغبته في عقد الصلح شريطة موافقة هشام المؤيد بالله على بنوده[1].

أيقن الخليفة هشام المؤيد باستحالة الانتصار على أعدائه أو فك الحصار المضروب على قرطبة، كما ازدادت الأحوال سوءا داخل المدينة من جرّاء الحصار المضروب عليها من جهة وقلة الإنتاج الزراعي الناتج عن هجرة المزارعين لأراضيهم، والتجائهم إلى داخل المدينة خوفا من القتل من جهة أخرى، كما أن أهل الثغور الموالين للخليفة هشام المؤيد قد أرسلوا إليه كتبا يعلمونه فيها بعجزهم عن الاستمرار في إرسال الإمدادات إلى الحضرة.

ونتيجة لذلك كله عزم الخليفة هشام على مصالحة البربر بعدما كان يرفض ذلك سابقا، ومن أجل ذلك أرسل إلى زعيمهم زاوي بن زيري كتابا يحثه فيه على تحقيق الصلح بين الطرفين، ويعده في ذات الكتاب بمنحه "ما يشاء من مال أو ولاية"، وجاء ردّ زعيم صنهاجة مخيبا لأمال الخليفة الساعي إلى زرع الفرقة والانقسام في صفوف معارضيه حيث ربط موافقته على عقد الصلح بتأييد أصحابه، ومعنى ذلك إشراك كل زعماء البربر المنضوين تحت لواء المستعين في أمر الصلح، كما أعلمه من جهة أخرى أنه لا يزال، يبذل قصارى جهده "من أجل تأليف كلمة المسلمين، وقطع الفتنة وحقن الدماء"[2].

إن مراسلة الخليفة لزعيم صنهاجة في شأن تحقيق الصلح بين الطرفين تؤكد مكانة البربر في صفوف المعارضة؛ فرغم وجود خليفة ثان مبايع من قبل المغاربة إلا أن هشام اتصل مباشرة بزاوي بن زيري لعلمه أن معظم الجند يدينون له بالطاعة؛ فإذا وافق على الصلح أيده في ذلك بقية زعماء البربر.

على الرغم من فشل المحاولة التي قام بها الخليفة في سبيل عقد الصلح مع

---

(1) نفسه - ج3 ص 107.

(2) نفسه - ج3 ص 108.

المحاصرين للحضرة، وهو ما يثبت التدهور الكبير الذي أصبحت تعيشه من جرّاء الحصار الشديد المضروب عليها من طرف سليمان المستعين وجنده[1]، إلا أن الوزراء والفقهاء الذين كانوا أشدّ المعارضين سابقا لأمر الصلح مع البربر وأرباب الدولة لم ييأسوا من تحقيق الصلح، ويدل على ذلك قيامهم بمحاولة ثانية في نفس الاتجاه حيث كتبوا على لسان الخليفة هشام ووزيره ابن مناو كتابين جديدين، وجّهوا الأول إلى سليمان المستعين يستعطفونه فيه ويرغبونه في قطع الفتنة، وتسليم الأمر إلى هشام المؤيد، ويقترحون عليه أن يكون ولي عهده ومدبّر أمره والقائم بأعباء الخلافة نيابة عنه.

ووجّهوا الكتاب الثاني إلى وزراء البربر وعلى رأسهم زاوي بن زيري بن مناد، وجاء ردّ سليمان في غير المسعى الذي كان يريده مرسلو هذين الكتابين، حيث رمى سليمان المستعين الكتاب بمجرد قراءة السطور الأولى منه معتبرا نفسه أمير المؤمنين الذي يجب أن يطاع من طرف الجميع بما في ذلك من يزعم أنه الخليفة الشرعي، على أساس أن هذا الأخير أي هشام المؤيد قد بايعه عندما دخل قرطبة في المرّة الأولى، وجاء موقف جماعة البربر منسجما مع موقف من بايعوه ليكون خليفة للمسلمين بالأندلس[2].

مرّة أخرى تتأكد الأنانية المفرطة وحب الذات التي ميزت من كان يفترض أن يكونوا في خدمة الصالح العام، والذي يقتضي التضحية بالمنصب إذا كان ذلك هو المخرج للأزمة العويصة التي كانت تواجهها بلاد الأندلس.

إن الرغبة الشديدة في التمسك بالكرسي التي ميزت الخليفة هشام المؤيد من جهة وسليمان المستعين من جهة أخرى جلبت إلى المسلمين وبلادهم الويلات، وكانت سببا في ما حدث وسيحدث لاحقا للعدوة الأندلسية.

وفي الوقت الذي كان فيه أعيان قرطبة وكبار موظفيها يبحثون عن وسيلة

---

(1) ابن الخطيب - أعمال الاعلام - ق2 ص 117.

(2) ابن عذاري - نفس المصدر - ج 3 ص 109.

يخمدون بها نار الفتنة، ويوقفون بها الحصار المضروب على المدينة، كانت الأمور تزداد شدّة على أهلها، وأدّى ذلك إلى حدوث انقسام خطير في صفوف هؤلاء إذ أصبح فريق منهم يرغب في الصلح، أما الآخر فكان يصّر على قتال البربر، ولا يرى وسيلة أخرى بإمكانها حسم الموقف.

في هذه الأثناء حدث أمر خطير سيكون له دور كبير في إشعال نار الحرب بين أهل قرطبة والبربر، ذلك أن جماعة من المغاربة يتقدمهم حباسة بن ماكسن ابن أخي زاوي بن زيري - وكان من فرسان البربر الشجعان - نزلوا في مكان قريب من أسوار الحضرة، وذلك في شوال سنة 402هـ (ماي1012م)، ورآهم أهل قرطبة من وراء الخندق؛ فاستغلّ عدد كبير منهم ذلك، وانقضّوا على حباسة وأصحابه، وبسبب تفوقهم العددي الكبير غلبوهم، وأسروا حباسة، وعندما عرفه الناس "قتلوه وقطعوه قطعا وتهادوا لحمه؛ فأكلوه لما كان أكثر من قتلهم، وما جرّبوه من شجاعته وشدة نكايته"[1].

إن هذا النص، وبغضّ النظر عن المبالغة الكبيرة المميزة له، وبخاصة في قضية أكل لحم البربري، وهو أمر مستبعد جدا، يثبت بما لايدع مجالا للشك الحقد والكراهية الكبيرتين اللتين كان يكنهما أهل قرطبة للبربر عامة ولزعمائهم خاصة.

لقد كان مقتل حباسة بن ماكسن[2] نقطة تحول في سير أحداث الفتنة، إذ بمجرد سماعهم لهذا الخبر اضطرب البربر وتأهبوا للقتال، وفي اليوم الموالي هاجموا قرطبة، وقاتلوا أهلها قتالا شديدا، واستمرّ ذلك بين الطرفين في اليوم الثاني، وخلاله اضطرّ جند هشام المؤيد إلى الخروج من المدينة من أجل مواجهة المغاربة العازمين على دخولها بعد ما اكتفوا سابقا بفرض الحصار عليها وتجويع أهلها، فقتل منهم عدد كبير.

وفي يوم الأحد لأربع بقين من شوّال سنة 403هـ (9ماي 1013م) دارت

---

(1) نفسه - ج 3ص 111 - 112/ ابن الخطيب لسان الدين - الاحاطة في اخبار غرناطة - ج1 ص 312 - 313.

(2) قتل حباسة في شوال سنة 402هـ - ماي 1012م - L. Provençal. opcit T II P 319.

معركة كبرى بين الطرفين، وانتهت بانتصار ساحق للبربر، وقتل عدد كبير من أعدائهم، وكنتيجة لذلك اضطر قاضي الجماعة أبوالعباس أحمد بن هرثمة بن ذكوان إلى الخروج رفقة بعض الفقهاء إلى سليمان المستعين وزعماء القبائل البربرية من أجل طلب الأمان لأهل المدينة، فوافقوا على ذلك مقابل غرامات مالية كبيرة يدفعها سكان الحضرة ولتأكيد الانتصار فتحت أبواب قرطبة ودخل البربر إليها[1].

دخل سليمان المستعين مدينة قرطبة عقب انتصار جنده على جند هشام المؤيد، وذلك في يوم الاثنين لثلاث بقين من شوال سنة 403هـ (10ماي 1013م)، وأول عمل قام به هو استدعاء الخليفة وتوبيخه على ما صدر منه، حيث قال له: "كنت تبرأت لي من الخلافة، وأعطيت صفقة يمينك؛ فنقضت عهدك"؛ فاعتذر له هشام، ثم تبرأ من الخلافة، وخلع نفسه لصالح سيد قرطبة الجديد[2].

بعد حسمه لأمر الخلافة، انتقل سليمان بن الحكم إلى مدينة الزهراء رفقة حاشيته ورؤساء البربر وجندهم؛ فضاقت عليهم بما رحبت نظرا لكثرة أعدادهم، وعجز الزهراء عن استيعابهم، ولذلك نزل علي والقاسم ابني حمود بن ميمون قائدا فرقة العلوية بشقندة، وهي قرية بعدوة نهر قرطبة، وتقع قبالة قصرها[3].

أما هشام المؤيد فقد اختفى ذكره، وتختلف الروايات حول مصيره؛ فبعضها تقول إن سليمان أخفاه حينا ثم قام ابنه محمد بقتله، والبعض الآخر تقول: إنه فرّ من سجنه[4]، ولكن المرجح أنه قتل على يد محمد بن سليمان بن الحكم، وذلك في الخامس عشر من شهر ذي القعدة 403هـ (18 ماي 1013م)، ولكن قاتله سرّب إشاعة

---

(1) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص112/ابن الخطيب - أعمال الاعلام - ص118.

(2) البيان - ج3 ص113/ أعما الأعلام - ق 2 ص 119.

(3) عبد المنعم الحميري - الروض المعطار - ص 104.

(4) ابن الخطيب - أعمال الاعلام - ص 119 - 120/ابن عذاري - البيان - ج3 ص113/الحميدي - جذوة المقتبس - ص21/ابن بسام - الذخيرة - ق1 م1 ص41/النويري - نهاية الأرب - ص 138.

فراره من السجن[1]، وعلى أي حال فإن هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر لم يكن شبيها لا بأبيه ولا بجدّه، فقد عاش طول حياته في الظل وخلف الستار، وترك أمور الجد تدار من قبل المتسلطين على السلطة سواء تعلق الأمر بآل ابن أبي عامر أو من جاء بعدهم من الحجاب والوزراء وقادة الجند الذين حافظوا على السنّة التي سنها محمد بن أبي عامر عندما حجب الخليفة واستبدّ بالأمر دونه.

اتخذ سليمان المستعين سلسلة من الإجراءات بهدف تنظيم شؤون الدولة بعد سنوات الفوضى والاضطرابات التي ميزتها والتي ادّت إلى انحسار سلطة الخلافة حيث لم تعد تتجاوز مدينة قرطبة وما يجاورها، ومن أجل ضمان السير الحسن للعدوة الأندلسية قام الخليفة الجديد بتعيين زعماء البربر الذين بايعوه بالخلافة، وساعدوه في الوصول إلى سدّة الحكم في المناصب العليا للدولة كالحجابة والوزارة وسائر الوظائف الهامة، كما قام بإجراء آخر كان يسعى من ورائه إلى ضرب عصفورين بحجرة واحدة: إرضاء البربر الذين أيدوه، وكان لهم الدور الرئيس في تمكنه من اعتلاء منصب الخلافة من جهة، وإبعادهم عن مدينة قرطبة نظرا للكراهية التي كانت بينهم وبين أهلها من جهة أخرى.

ويتمثل هذا الإجراء في تقسيم بعض أجزاء بلاد الأندلس بين زعماء القبائل البربرية المنضوية تحت لواء الخليفة الجديد، وكان ذلك التقسيم على الشكل التالي:

أعطى سليمان المستعين زاوي بن زيري وبني عمومته الصنهاجيين كورة إلبيرة، وهي من أعظم كور الجنوب وأوسعها مساحة، وأعطى إقليم الجوف المتمثل في الأقاليم الجبلية الواقعة شمال قرطبة إلى المغراويين، ومنح جيان والمناطق التابعة لها لبني برزال وبني يفرن، وأعطى شذونة ومورور لبني دمّر وأزداجة[2]، وهكذا أصبح البربر يسيطرون على معظم مناطق الأندلس الجنوبية والوسطى، وأصبح بإمكانهم تكوين ممالك يصبحون أحرارا في تسييرها سواء في المجال الداخلي أو في الميدان

---

(1) L.Provençal. opcit - T II. P 321.

(2) ابن الخطيب - أعمال الاعلام - ص 119/ابن عذاري - البيان المغرب - ج3 ص113/ L. Provençal - Opcit. T II. P 322 - 323.

الخارجي، وبذلك ابتعد معظم البربر عن قرطبة والفتنة الدائرة بها وبأرباضها خاصة.

إضافة إلى المغاربة، أثبت الخليفة منذر بن يحيى التجيبي العربي في منصبه كحاكم لإقليم الثغر الأعلى وعاصمته سرقسطة نظير الدور الذي قام به في وصول سليمان إلى الخلافة وبخاصة في دخوله الثاني إلى مدينة قرطبة، كما ولى القاسم بن حمود العلوي مدينتي طنجة وأصيلا، وولى أخاه علي بن حمود مدينة سبته رغم تحذير عبد الله البرزالي له من سوء عاقبة هذا الإجراء الأخير[1]، وكأن هذا البربري كان على علم بنوايا الحموديين الخفية.

نتيجة لاستيلاء البربر وخليفتهم سليمان المستعين على مدينة قرطبة، وبسط نفوذهم على معظم المناطق الجنوبية والوسطى لبلاد الأندلس، خاف العبيد العامريون على أنفسهم من انتقام بربري محتمل عليهم نظرا لدورهم الكبير فيما حصل لإخوانهم من قتل وسبى إبان عهد محمد المهدي، ولذلك قرروا الفرار إلى شرق البلاد، وهناك استولوا على بلنسية وشاطبة ودانية وغيرها من المدن الهامة الواقعة في هذا الجزء من العدوة الأندلسية[2]، وبذلك سيكرسون التقسيم الفعلي والكلي للبلاد، ويمهدون لظهور ما سيعرف بممالك الطوائف.

كان هؤلاء الفتيان العامريين قد استقرّوا بشرق الأندلس عقب قيام الفتنة، ونجح عدد منهم في الإستيلاء على الثغور الشرقية، وفي مقدمتهم مجاهد العامري الذي سيطر على دانية والجزائر الشرقية ميورقة ومينورقة ويابسة[3]، وخيران الذي بسط سلطته على ألمرية ومرسية[4]، وقد عاد هذا الأخير إلى قرطبة بعد دخول محمد المهدي إليها بمساعدة النصارى.

---

(1) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص113 - 114 / ابن الخطيب - أعمال الاعلام - ص119/ L. Provençal. Opcit. T II. P 323.

(2) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص 115/ ابن الخطيب - أعمال الإعلام - ص 119.

(3) نفسه - ص 218 / ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص 155.

(4) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 211.

اشترك العامريون في اغتيال محمد بن هشام بن عبد الجبار، وبذلك أعادوا هشام المؤيد إلى سدّة الحكم، واظطرّوا عقب مقتل واضح الفتى، قائد جند هشام وحاجبه، واستيلاء البربر مع سليمان على قرطبة، إلى مغادرة المدينة من جديد والالتحاق بشرق الأندلس[1].

كانت أوضاع الأندلس المتسمة بالانقسام وتوزع السلطة بين العرب والبربر والفتيان العامريين عاملا هاما في ضعفها، وظهور عدد كبير من الطامعيين في اعتلاء سدّة الحكم بها، ويأتي في مقدمتهم علي بن حمود الإدريسي الذي كان سليمان المستعين قد ولاّه حكم سبتة، ولكن طموحه كان أكبر من أن يكون حاكما لمدينة فقط.

بدأ علي بن حمود في الإفصاح عن نواياه عندما قام بقتل قاضي سبتة محمد بن عيسى بن زوبع الذي كان المظفر عبد الملك قد ولاّه قضاءها[2]، والفقيه ابن يربوع كبير المدينة، وذلك بتهمة التجسس لصالح الخليفة الأموي[3]، كما راسل خيران العامري صاحب ألمرية، وأظهر له كتابا زعم أنه تلقّاه من الخليفة هشام المؤيد بالله، يعينه فيه وليا لعهده ويطلب منه أن ينقذه من أسر البربر وسليمان المستعين، ويؤكد ذلك ابن حيان حيث يقول:" وكان هشام بن الحكم عند ما رآه من اضطراب أمره، وتيقنه من انصرام دولته قد صيّر إلى علي بن حمود ولاية عهده وأوصى إليه بالخلافة من بعده، وراسله إلى سبتة بذلك سرّا وولاّه طلب دمه"[4].

خرج علي بن حمود من سبتة سنة 405هـ (1015م) متوجها إلى مدينة ألمرية تلبية لنداء خيران العامري الذي طلب منه القدوم إلى مدينته من أجل وضع خطة تمكنهما من تحقيق هدفهما المشترك المتمثل في دخول الحضرة الأندلسية والتخلص

(1) نفسه - ص 210 / البيان - ج3 ص 166 / محمد عبد الله عنان - دولة الإسلام في الأندلس - العصر الأول - القسم الثاني - ص 658.

(2) ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج2 ص 562.

(3) يذكر ليفي بروفنسال في كتابه أنهما قتلا خلال عام 404هـ/1014م (L.Provençal opcit. T. II - P.324.

(4) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص 114 / ابن الخطيب - نفس المصدر - ص121.

من سليمان المستعين، وقبل ذلك كان علي بن حمود قد ضمن حياد صنهاجة وزعيمها زاوي بن زيري المستقرين منذ سنة 403هـ (1012م) في غرناطة وأحوازها[1]، وذلك بإقرارهم على ما بأيديهم من الأراضي مقابل مساعدته في محاربة خليفة قرطبة.

سار علي بن حمود في السنة الموالية (نهاية 416هـ - 1016م) مع أتباعه إلى مدينة مالقة؛ فسلّمها إليه عامر بن فتوح الفائقي مولى الحكم المستنصر، ثم اتجه إلى ثغر المنكب وهو مرسى على البحر، ويبعد عن غرناطة بأربعين ميلا إلى الجنوب[2]، وعنده التقى مع خيران العامري الذي جاء بقواته.

قام الزعيمان الإدريسي والعامري بتوحيد قواتهما، ثم عكفا على وضع خطة تمكنهما من دخول مدينة قرطبة، وتخليص هشام المؤيد من أيدي سليمان المستعين، وبعد مبايعة علي بن حمود على طاعة المؤيد، سارت القوات المتحالفة نحو العاصمة وفي طريقها إلى الحضرة انضمّ إليها زاوي بن زيري وحبّوس ابن أخيه في قوة من بربر غرناطة.

بعد سماعه بخبر زحف هذه القوات تجاه عاصمته، خرج سليمان للقائهم على رأس جنده، والتقى الجمعان في ظاهر مدينة قرطبة، على بعد عشرة فراسخ منها، ودارت بينهما معركة طاحنة انتهت بانهزام سليمان، وقتل عدد كبير من أنصاره، وأسر عدد آخر إضافة إلى اعتقاله رفقة أبيه وأخيه عبد الرحمن[3].

دخل علي بن حمود عقب انتصاره على سليمان إلى مدينة قرطبة، وذلك في الثاني والعشرين من شهر محرّم سنة 407هـ (1 جويلية 1016م)، وأول عمل قام به عقب دخوله إلى الحضرة هو البحث عن هشام المؤيد، وكان الاعتقاد السائد أن سليمان لم يقتله، وإنما قام بإخفائه في مكان خاص كما فعل معه المهدي محمد بن

(1) L. Provençal. OP. cit. T II P 324.

(2) عبد المنعم الحميري - الروض المعطار - ص 186.

(3) ابن عذاري - البيان المغرب - ج3 ص 116 - 117/ابن الخطيب - نفس المصدر - ص121/ ابن الأبار - الحلة السيراء - ج 2 ص 7.

هشام بن عبد الجبار، وعندما لم يجده وعلم أنه قتل طلب من سليمان وآله أن يدلوه على قبره؛ فأمر بنبش القبر وإخراج جثته، وبعد التأكد من حقيقة شخصه أعيد دفنه بجانب أبيه[1].

بعد تأكده من مقتل هشام المؤيد، قام علي بن حمود بقتل سليمان المستعين وأبيه الحكم وأخيه عبد الرحمن بيده انتقاما للخليفة الأموي من جهة، ومن أجل كسب شرعية لحكمه من جهة أخرى، وعقب ذلك أعلن رسميا عن وفاة المؤيد بالله ودعا إلى البيعة لنفسه فبويع بالخلافة، واتخذ لقب الناصر لدين الله[2]، كما فعل عبد الرحمن الثالث مؤسس الخلافة الأموية بالأندلس.

خلافة بني حمود ومراحلها: باعتلاء علي بن حمود سدّة الحكم بقرطبة، انتهت حياة الدولة الأموية بالأندلس بعد ما عاشت مائتين وستين سنة ميلادية (مائتان وتسع وستين سنة هجرية)، وكانت هذه الدولة خلال عهد هشام المؤيد مجرّد ستار للمتغلبين من بني أبي عامر، ثم شبحا هزيلا يضطرب في غمار الفتنة والفوضى[3].

يعتبر علي بن حمود أول ملوك بني هاشم ببلاد الأندلس، وهوعلي بن حمود بن ميمون بن حمود بن علي بن عبد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وقد بويع له بقرطبة يوم الأحد لثمان بقين من المحرم سنة 407هـ (1 جويلية 1016م)[4].

بعد نجاحه في إحكام سيطرته على زمام الحكم بقرطبة، انتهج علي بن حمود سياسة تقوم على الاستعمال المفرط للقسوة في معاملة البربر، "حتى صار أقل الرعية يرفع أعيانهم إلى الحكام بما شاء من وجوه الدعاوى؛ فتجري عليهم الأحكام"[5]،

(1) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3ص120./ L. Provençal. OP.cit. T II. P 325.

(2) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص120/ ابن الخطيب - نفس المصدر - ص 121.

(3) محمد عبد الله عنان - دولة الاسلام في الأندلس - العصر الأول - القسم الثاني - ص660.

(4) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص119 - 120/ ابن الخطيب - نفس المصدر - ص128.

(5) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص 121.

ويؤكد ابن الخطيب ذلك فيقول: إنه "لما صارت إليه الدولة قهر البرابر"[1].

وعلى النقيض من ذلك عمل جاهدا من أجل كسب رضى أهل قرطبة حيث أظهر عدلا كبيرا دفع ثمنه البربر في أغلب الأحيان، من ذلك أنه أعدم الكثير منهم لأسباب تافهة، منها أنه "ضرب عنق أحد البرابرة على حمل عنب قال أخذته كما يأخذ الناس"، ولم يكتف بإعدامه فقط بل أمر أن "يطاف برأسه في سائر البلد"[2].

بقدر ما كان متشددا مع البربر رغم مساعدتهم له في الوصول إلى الحكم، بقدر ما كان يعامل القرطبيين معاملة حسنة، حيث استعان بالكثير من أولياء الخلافة السابقين في إدارة دواليب الحكم، "ومنهم أبوالحزم بن جهور وأحمد بن برد وغيرهما"[3]، ولعل السبب الذي دفعه إلى القسوة على البربر والرفق بأهل قرطبة هو رغبته الأكيدة في كسب ولائهم له ودعمهم لحكمه، خاصة وأنه يعرف جيدا مدى تقلب هؤلاء على الحكام وقيامهم عليهم.

لم تدم الأوضاع على هذا الحال، إذ سرعان ما استجدّت أحداث أدت إلى تغيير السياسة التي انتهجها علي بن حمود في سالف عهده، ذلك أن خيران العامري الذي ساعده في دخول قرطبة واعتلاء منصب الخلافة سرعان ما انقلب عليه بعد ما تأكد من موت هشام المؤيد، ونتيجة لذلك غادر الحضرة، وعاد من جديد إلى شرق الأندلس التي كان يتواجد بها معظم زعماء الفتيان العامريين وأنصارهم، وهناك أعاد الدعوة لبني أمية من خلال شخص عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر الذي كان قد فرّ من قرطبة خفية.

استدعى خيران هذا الأموي وبايعه مع جملة من أصحابه بالخلافة ولقبوه بالمرتضى، وتمّ ذلك في عام 407هـ (1016م)، وعندما بلغه خبر مبايعة العامريين لهذا الأموي، انقلب علي بن حمود عن سياسة المعاملة الحسنة التي كان ينتهجها مع أهل

(1) ابن الخطيب - نفس المصدر - ص129/ابن بسام - الذخيرة - ق1 م1 ص97.
(2) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص121/ ابن بسام - نفس المصدر - ق1 م1 ص98.
(3) البيان المغرب - ج 3 ص 123 - 124.

قرطبة، وتجلى ذلك في فرض أنواع من المغارم عليهم، وانتزاع السلاح منهم، وامتحان جملة من أعيانهم، كما عزم العلوي الحاكم بقرطبة على اخلاء المدينة، وإبادة أهلها لكي لا يكون فيها خليفة من المروانيين[1]، ومن أجل تحقيق سياسته الجديدة عاد إلى صداقة البربر، وعمل على كسب مساندتهم له فيما قام به من أعمال تجاه أهل قرطبة[2].

وبينما كان علي بن حمود يستعد لمواجهة المرتضى ومن التف حوله من الفتيان العامريين الذين اجتمعوا يومئذ في منطقة جيان، باغته ثلاثة فتيان من صقالبة القصر وهم من موالي بني أمية؛ فقتلوه في الحمام، وذلك في الثاني من ذي القعدة سنة 408هـ (23 مارس1018م)[3].

<u>خلافة القاسم بن حمود</u>: بويع له يوم الثلاثاء رابع ذي القعدة سنة 408هـ (24 مارس 1018م)، بعد مقتل أخيه علي حيث اتصل به زعماء زناتة، وكان يومها واليا على إشبيلية، وأول عمل قام به الخليفة الجديد هو إلقاء القبض على الفتيان الثلاثة المتهمين بقتل أخيه وإعدامهم[4].

استتب الأمر للقاسم وعوضا عن سياسة الشدة التي انتهجها أخوه مع البربر في البداية ثم مع أهل قرطبة في المرحلة الثانية، اتبع القاسم سياسة تقوم على اللين والمسالمة؛ فأحسن إلى الناس ونادى بالأمان وبراءة الذمة ممن تسوّر على أحد، كما أسقط كثيرا من المكوس المفروضة على الرعية، ونتيجة لذلك كله هدأت الخواطر واطمأنّ الناس وانتشر الأمن[5].

باستثناء ما تقدم ذكره، حافظ القاسم بن حمود على كل ما سبق أن قام به أخوه

---

(1) نفسه - ج3 ص121 - 122/ ابن الخطيب - نفس المصدر - ص 129.
(2) نفسه - ص129/ ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص123/ ابن بسام - نفس المصدر - ق1 م 1 ص99.
(3) نفسه - ق1 م1 ص100 - 101/ ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص120 - 122.
(4) نفسه - ج3 ص130/ ابن بسام - نفس المصدر - ق1 م1 ص 481.
(5) نفسه - ق1 م1 ص481/ ابن الخطيب - نفس المصدر - ص130/ النويري - نفس المصدر - ص138/ البيان المغرب - ج3 ص 130.

علي حيث "أقرّ الحكّام وأرباب الألقاب على ما تخلفهم عليه أخوه"[1].

لم يطل عهد الأمن كثيرا في ظل حاكم قرطبة الجديد إذ غلب عليه رؤساء البربر الحاكمين في الكور الجنوبية والوسطى وأمراء الثغر والفتيان العامريين المسيطرين على البلاد الشرقية، وظهر إلى الوجود تحالف سياسي جمع بين منذر بن يحيى التجيبي وابن ذي النون، أمراء الثغر وزهير العامري، وكان هدفه هو العمل على إعادة الدولة الأموية من جديد، ومن أجل ذلك عملوا على تنصيب أحد أفرادها على سدة الحكم، ويتعلق الأمر بعبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر لدين الله[2]، وذلك بعدما بايعوه بالخلافة في عهد علي بن حمود.

بعد مبايعة عبد الرحمن بن محمد المرتضى، غادر التحالف شرق الأندلس في اتجاه مدينة قرطبة بهدف الاستيلاء على الحكم، وذلك في عام 409هـ (1019م)، وفي طريقهم إليها عرّج المتحالفون على مدينة غرناطة من أجل محاربة الصنهاجيين الحاكمين بها.

إندلعت الحرب بين قوات صنهاجة وجيوش المرتضى واستمرت لعدّة أيام، وانتهت بمقتل المرتضى وانهزام جيشه، وغنم البربر جميع ما في محلته[3]، وسنعود إلى هذه الموقعة بأكثر تفصيل عند حديثنا عن دور البربر في الفتنة الأندلسية لاحقا.

عمل القاسم بن حمود على جلب السودان من العدوة المغربية واستعملهم كحرس خاص له، كما أسند إليهم أهم الوظائف العليا في الدولة، وخلال معظم فترة حكمه نعمت قرطبة بالأمن ودام ذلك إلى أن ضعف أمره، وفي هذه الأثناء كان يحيى ابن أخيه المقيم بالعدوة المغربية وأخوه إدريس المتواجد بمالقة يسعيان إلى استعادة ملك أبيهما بسبب خيبة أملهما في عمهما الذي استحوذ على الحكم وحرمهما منه[4].

---

(1) نفسه - ج3 - ص 130.

(2) نفسه - ج3 - ص 130.

(3) ابن عذاري - البيان المغرب - ج3 ص126/ ابن الخطيب - نفس المصدر - ص 131.

(4) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3ص130 - 131/ابن بسام - الذخيرة - ق1 م1 ص481 / L.Provençal. Opcit. T II P332.

إن اختيار الأخوين لمالقة لم يتم عبثا بل كان الهدف من ورائه هو التواجد بمقربة من الحضرة، وفي هذه المدينة شرع يحيى بن علي بن حمود في حشد أنصاره، وعندما علم عمه القاسم بذلك لجأ إلى البربر وطلب منهم التوسط بينه وبينهم.

قام زعماء البربر بدور الوساطة بين الطرفين، ولكنهم لم يوفقوا في التقريب بين العمّ وابن أخيه، وعلى إثر ذلك زحف هذا الأخير بقواته نحو مدينة قرطبة، وخوفا من عواقب الصراع مع ابن أخيه، آثر القاسم الإنسحاب منها، وتوجه نحو مدينة إشبيلية، وذلك في 22ربيع الثاني 412هـ (5 أوت1021م)، وعقب خروجه ضبط البربر القصر في انتظار مقدم الخليفة الجديد[1].

خلافة يحيى بن علي بن حمود: دخل يحيى بن علي بن حمود مدينة قرطبة بعد ثمانية أيام من مغادرة عمه القاسم لها، وبويع له بالخلافة يوم الاثنين مستهلّ جمادى الأولى سنة 412هـ (13 أوت 1021م) وتلقب بالمعتلي بالله.

نجح يحيى ولأول مرة منذ قيام الفتنة الأندلسية في توحيد صفوف سكان قرطبة قاطبة، ويؤكد ذلك ابن حيان حين يقول أنه: "اجتمع عليه الفريقان الأندلسيون والبربر من أهل قرطبة وأعمالها خاصة"[2]، ولعلّ العوامل التي أدت إلى ذلك هي أنه كان يجانب العصبية ويؤثر العدل، ولذلك كله أحبه الناس كما أنه أقرّ أصحاب الخطط على مراتبهم[3].

كان القاسم بن حمود في هذه الاثناء قد استقر في مدينة إشبيلية حيث دعي له بالخلافة وتسمى بأمير المؤمنين، ومعنى ذلك أن العم قد هادن ابن أخيه، واتفقا على أن يعترف كل منهما بصفة صاحبه، ويعلق ابن حزم على ذلك فيقول: "خليفتان تصالحا وهو أمر لم يسمع بأذلّ منه ولا أدلّ على إدبار الأمور: يحيى بن علي بن حمود بقرطبة

---

(1) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص 131/ابن الخطيب - نفس المصدر - ص 131 - 132.

(2) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص131 - 132/ ابن الخطيب - نفس المصدر - ص132/ ابن بسام - نفس المصدر - ق 1 م1 ص 482.

(3) نفسه - ق1 م1 ص482 - 483/ ابن عذاري - نفس المصدر - ج3ص132/ ابن الخطيب - نفس المصدر - ص 132.

والقاسم بن حمود بإشبيلية"[1].

لم يعمّر هذا الوضع الشّاذ طويلا إذ أن البربر من زناتة المتواجدين معه بقرطبة وغيرهم من أهلها خلعوا يحيى بن علي بن حمود في الثاني عشر من ذي القعدة سنة 413هـ (6 فبراير1023م)، واضطروه إلى الفرار من مدينة قرطبة، والإلتحاق من جديد بمدينة مالقة، وتذكر بعض المصادر أن سبب خلعه يعود إلى اتصافه بالكبر والعجب[2]، ونحن من جهتنا نرجح أن ذلك إنما تم بسبب خيبة أمل البربر وبعض أهل قرطبة فيه من جهة، والامتيازات التي عرضها عمه القاسم على المغاربة من جهة أخرى، واستغلّ عمه ذلك؛ فعاد مجددا إلى العاصمة بدعوة من البربر، ودخلها في الثامن عشر من ذي القعدة سنة 413هـ[3].

خلافة القاسم بن حمود الثانية:عقب دخول القاسم بن حمود إلى مدينة قرطبة، جدّدت له البيعة، وتميز حكمه في هذه المرة الثانية بتسلط البربر، ولأول مرة منذ اندلاع الفتنة الأندلسية، على أهل قرطبة وبخاصة في الأسواق حيث اشتدّوا في معاملتهم ومطاردتهم، ونتيجة لذلك اضطر هؤلاء إلى الدفاع عن أنفسهم وإعلان الحرب عليهم.

بدأت الحرب بين الطرفين في يوم السبت عاشر جمادى الأولى سنة 413هـ، وحاول القاسم تجويع معارضيه من خلال قيامه بإغلاق أبواب المدينة، ومنع وصول المؤونة إليهم، ولكن أهل قرطبة تغلبوا عليه، ودخلوا القصر، وأرغموا القاسم على الخروج منه؛ فلجأ إلى البربر.

أغلقت أبواب المدينة طيلة خمسين يوما دار خلالها القتال بين أهل قرطبة وأنصار الخليفة، وانتهى بانتصار أهل قرطبة، وخروج البربر مع القاسم وذلك في 21

---

(1) نفسه - ص132/ ابن عذاري - نفس المصدر - ج 3 ص 132 - 133.

(2) نفسه - ج3 ص132/ ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص132.

(3) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص133/ ابن الخطيب - نفس المصدر - ص133/ ابن بسام - نفس المصدر - ق1 م1 ص 484 - 485.

جمادى الآخرة سنة 414هـ (9 سبتمبر1023م)[1].

انتقل القاسم بن حمود مع البربر إلى مدينة إشبيلية التي كان يتواجد بها ولداه محمد والحسن، ولكن أهلها رفضوا فتح الأبواب له نظرا لكرههم الشديد لمن كان معه من البربر، واكتفوا بإخراج ابنيه إليه ومن كان معهما من المغاربة.

واصل القاسم سيره في اتجاه الغرب فوصل إلى شريش، وهي من كور شذونة وتقع على مقربة من البحر[2]؛ فاستقر بها، وبعد حين حاربه ابن أخيه يحيى وحاصره بداخلها ثم اعتقله وحمله مقيدا مع بنيه إلى مدينة مالقة[3].

بقي القاسم بن حمود في السجن إلى غاية موته خنقا، وذلك سنة431هـ (1039م)، وبذلك انفرد يحيى برئاسة البربر من زناتة، وبالإعتماد عليهم بسط سلطته على شريش ومالقة وألمرية وبايعه اتباعه بالخلافة[4].

عودة الخلافة إلى بني أمية: أجمع أهل قرطبة بعد طردهم للقاسم بن حمود ومن كان معه من البربر على إحياء المجد الأموي، وذلك بردّ أمر الخلافة إلى واحد من أحفاد عبد الرحمن بن معاوية، ورشّح القرطبيون ثلاثة من بني أمية اعتبروهم الأصلح لتولي منصب الخلافة، وهم سليمان بن عبد الرحمن المرتضى ومحمد بن العراقي وعبد الرحمن بن هشام بن عبد الرحمن الناصر لدين الله، واجمعوا أمرهم على اختيار واحد منهم عن طريق الشورى.

خلافة عبد الرحمن بن هشام المستظهر بالله: من أجل اختيار الخليفة

---

(1) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص133 - 134/عبد الواحد المراكشي - المعجب في تلخيص أخبار المغرب - ص79/ابن الخطيب - نفس المصدر - ص133، ويحدّد تاريخ المعركة الفاصلة بيوم12 شعبان سنة 414هـ.

(2) عبد المنعم الحميري - الروض المعطار - ص 102.

(3) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3ص134 - 135/ ابن الخطيب - نفس المصدر - ص 133/ النويري - نفس المصدر - ص139.

(4) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3ص144/عبد الواحد المراكشي - المعجب - ص79 - 80 /النويري - نهاية الارب - ص 140.

الجديد دعي الخاصة والعامة إلى الاجتماع بالمسجد الجامع لمدينة قرطبة، وكان أول المروانيين حضورا إلى هذا الجمع سليمان بن عبد الرحمن بن محمد المرتضى الذي أجمع الحاضرون على اختياره لاعتلاء سدّة الحكم، ويقول ابن الخطيب إنه " أمثل من بقي من أبناء المروانية في هذا الوقت"، ولذلك كتب أهل قرطبة بيعته ولقبوه بالمرتضى"[1].

في الوقت الذي كان أهل قرطبة يستعدون فيه لمبايعة سليمان بالخلافة، فاجأهم عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بحضوره إلى مقر الاجتماع رفقة خلق عظيم من الجند الشاهرين لسيوفهم، وهو الأمر الذي أدى إلى ترويع الوزراء المشرفين على عملية اختيار الخليفة.

لم ينتظر عبد الرحمن اختيار الناس له بل دخل إلى المقصورة وجلس فيها، وهو ما يعني أنه وضع الجميع أمام الأمر الواقع، حيث بايعه الوزراء وكافة الناس في حينه خوفا على أرواحهم، وتم ذلك في السادس عشر رمضان سنة414هـ (2 ديسمبر 1023م)[2].

غادر المستظهر المسجد، ودخل إلى القصر بصحبة ابني عمه المرشّحين للخلافة معه؛ فاعتقلهما عنده[3]، وبهما بدأت سلسلة من الاعتقالات التي سيقوم بها الخليفة في صفوف كل المعارضين له.

بدأ ابن هشام ولايته بإرسال كتب إلى المدن والثغور الأندلسية طالبا من أهلها تأييد بيعته، ولكن آماله في ذلك خابت إذ لم يستجب له أحد منهم، كما قام بإلقاء القبض على عدد من الوزراء والأعيان وصادر أموالهم، وكان هدفه من ذلك هو الإنفراد بالسلطة دونهم، وقد جاء هذا الاعتقال بعد فرضه لمكوس جديدة على أهل قرطبة، وذلك لمواجهة الأزمة المالية الخانقة التي كان يواجهها بيت المال، وكان هؤلاء

(1) ابن الخطيب - نفس المصدر - ص 134.

(2) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص135 - 136/ المراكشي - المعجب - ص83/ ابن الخطيب - نفس المصدر - ص 134.

(3) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص 137.

المعتقلون على رأس معارضي هذه الجبايات المفروضة من طرف الخليفة(1).

إضافة إلى الوزراء والأعيان، ألقى المستظهر القبض على عدد من أبناء عمومته، وسجنهم بالقصر رفقة ابني عمه سليمان بن المرتضى وعبدالرحمن العراقي.

كانت هذه الإجراءات سببا في بداية سخط العامة والخاصة عليه، وتفاقم هذا التذمر العام عندما قام الخليفة المستظهر بالله باستقبال عدد من الفرسان البربر جاؤوا من أجل الإنخراط في خدمته نظرا لقلة عدد أفراد جند الخلافة.

على الرغم من أن هؤلاء المغاربة هم من رعايا الخليفة الأموي، ومن حقهم أن يستقبلوا من طرفه، وينخرطوا في جنده إلا أن العامة لم تنظر إليهم بنفس النظرة، إذ "هاجوا ووثبوا عليه بالقصر، وقتل البرابرة حيث وجدوا"(2).

لم يكتف أهل قرطبة بذلك بل قاموا أيضا بفتح أبواب السجن، وأفرجوا عن كافة المعتقلين، وبذلك قامت الثورة داخل القصر، وعندما رأى المستظهر بالله أنه هالك لا محالة تجرّد من لباسه ودخل الحمام واختفى بداخله، واستغلّ العامة تلك الأوضاع فارتكبوا مجزرة في حق البربر، كما قاموا "بفضح حرم عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار وسبي أكثرهن، وحملهن إلى منازلهم علانية، وجرى عليهن ما لم يجر على حرم سلطان في مدة تلك الفتنة"(3).

في الوقت الذي اختفى فيه عبد الرحمن المستظهر داخل الحمام، خرج الوزراء والأعيان من المطبق؛ فالتفّ بهم الناس، وتغلبوا على القصر، وأجلسوا فيه ابن عمه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله(4).

تمكن القائمون بقرطبة من العثور على الخليفة المستظهر بالله داخل الحمام؛ فاقتادوه إلى ابن عمه وقد بويع مكانه؛ فبطش به أحد الرجّالة القائمين على رأسه فقتله،

---

(1) نفسه - ج3 ص138/. L.Provençal. opcit. T II. P 334

(2) ابن عذاري - نفس المصدر - ج 3 ص 138.

(3) نفسه - ج 3ص 139/ ابن الخطيب - نفس المصدر - ص 135.

(4) نفسه - ص134/ ابن عذاري - نفس المصدر - ج 3 ص139.

وذلك في يوم السبت الثالث من ذي القعدة سنة 414هـ (17 يناير 1024)[1].

خلافة محمد بن عبدالرحمن المستكفي بالله: بايع أهل قرطبة بالخلافة لمحمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر في نفس اليوم الذي قتل فيه الخليفة المستظهر بالله.

كان الخليفة الجديد يفتقر إلى الصفات التي تميز الحكّام عن غيرهم من الرعية، وتسمح له بالقيام بتسيير دواليب الحكم بشكل يستجيب لمتطلبات سكان البلد حيث كان شغوفا بالشرب والمجون، ويؤكد ذلك ابن حيان حيث يقول: إنه "كان منقطعا إلى البطالة، مجبولا على الجهالة، عاطلا عن كل خلّة تدل على فضيلة"[2]، ويضيف في مكان آخر أن أهل التحصيل قد أجمعوا على "أنه لم يجلس في الإمارة مدة تلك الفتنة أسقط منه ولا أنقص، إذ لم يزل معروفا بالتخلف والركّاكة، مشتهرا بالشرب والبطالة، سقيم السّر والعلانية، أسير الشهوة، عاهر الخلوة، ضدّا لقتيله عبد الرحمن المستظهر في اللّب والمعرفة"[3].

ويقول الحميدي إنه: "كان في غاية التخلف، وله في ذلك أخبار يقبح ذكرها، وكان متغلبا عليه طول مدته لا ينفذ له أمر"، ويؤيدهما في ذلك آخرون[4].

لقد قلّد المستكفي منصبا لم يكن مؤهلا له، ومن الطبيعي أن يكون ذلك سببا في انتشار الفوضى داخل البلاد، وفي كافة المجالات، من ذلك أن المناصب العليا في الدولة أصبحت تسند إلى كل من هبّ ودّب، ويؤكد ذلك ابن حيان الذي يذكر أن هذا الخليفة "كان يقول للناس أجمعين: ارتعوا كيف شئتم، وتسموا بما أحببتم من الخطط"، ونتيجة لذلك" تسمى بالوزارة في أيامه مفردة ومثناة، أراذل الدائرة، وأخابث النظّار، فضلا عن زعانف الكتّاب والخدمة، وأما الشرطة العليا وما دونها من رفيع المنازل

(1) نفسه - ج3 ص139/ ابن الخطيب - نفس المصدر - ص135/ الحميدي - جذوة المقتبس - ص 27/ النويري - نهاية الارب - ص 141.

(2) ابن بسام - الذخيرة - ق1م1ص434/ ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص143.

(3) ابن بسام - نفس المصدر - ق 1 م 1 ص 434.

(4) الحميدي - جذوة المقتبس - ص 28/ عبد الواحد المراكشي - المعجب - ص 86.

فحملها كثير من التجار والعامة"[1].

نظرا لكل ما ذكر سابقا كانت مدة حكم المستكفي من أحلك الفترات التي مرّت بها مدينة قرطبة حيث عمت الفوضى وانتشر الفساد، وعانى بيت المال من أزمة مالية خانقة، وأصبح من المستحيل على الخليفة أن يجد المال اللازم لمواجهة متطلباته ومتطلبات أهل قرطبة، ويلّخص ابن حيان عهد الخليفة المستكفي بقوله: "فكانت دولته سبعة عشر شهرا صعابا نكدات، سودا مشوّهات مشئومات"[2].

إن الأحداث التي وقعت خلال عهده تثبت ذلك، ومنها إصداره لأمر يقضي بقتل ابن عمه محمد بن عبد الرحمن بن هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر المعروف بالعراقي، أحد المرشحين سابقا لتولي منصب الخلافة، وذلك في 13 ذي الحجة سنة414هـ (26 فبراير 1024م)[3]، ولا تذكر المصادر سبب اغتياله خنقا إلا أنه من الممكن الترجيح بأن ذلك تم خوفا من منافسته على كرسي الخلافة، وما يؤكد ذلك هو إقدام المستكفي أيضا على اعتقال جماعة من بني عمه وحاشيته ومنهم علي بن أحمد بن حزم وعبد الوهاب ابن عمه وسجنهم بالمطبق، ويقول ابن حيان: أن ذلك تم عندما "اضطربت قرطبة لكثرة من كان فيها من المردة"[4]، ويعني بهم المعارضين للخليفة الجديد، ولا نستبعد إذا أن يكون اغتيال العراقي واعتقال جماعة من بني عمه وحاشيته بسبب سعيهم للإطاحة به نظرا لعدم أهليته للمنصب الذي كان يشغله.

إلى جانب ما ذكر سابقا، قام المستكفي بارتكاب جريمة في حق التاريخ وفي حق الأجيال اللاّحقة له حينما أصدر أمره بهدم قصور عبد الرحمن الناصر المتواجدة بمدينة الزهراء، وبذلك "طمست أعلام قصر الزهراء، واقتلع نحاس الأبواب ورصاص

---

(1) ابن بسام - نفس المصدر - ق 1 م1 ص 434 - 435.

(2) نفسه - ق 1 م 1 ص 437.

(3) ابن حزم الأندلسي - نقط العروس في تواريخ الخلفاء - نشر ك. ف. سيبولد
Revista del centro. estudios historicos de granada y su Reino - 1911 - P 176.

(4) ابن بسام - الذخيرة - ق 1 م1 ص 436.

القني وغير ذلك من الألات، فطوي بخرابها بساط الدنيا وتغير حسنها"[1]، كما أمر أيضا بتخريب ما بقي من قصور المنصور بن أبي عامر بمدينة الزاهرة، وتم ذلك فعلا في عام 415هـ (1025م)[2].

إن هذا الخليفة لم يكتف بالقتل وارتكاب المحرمات فقط بل تجاوزها إلى محو الذاكرة الحية للأمة الإسلامية، وذلك من خلال تدمير ما انجزه ابناؤها العظام من حضارة راقية في العدوة الأندلسية، وكأن الخليفة يريد أن يكون قدوة لأجيال قادمة من الإسبان الذين أعماهم الحقد فقاموا بتخريب وطمس كثير من معالم الحضارة الاسلامية بالأندلس، وكان من الأجدر بهم الاستفادة منها في بناء حضارة راقية كان بإمكانها أن تسمح لهم بتحقيق النهضة قبل غيرهم من الأمم الأوربية الأخرى.

سئم أهل قرطبة ولاية المستكفي نظرا لكل ما اتصف به، والأعمال التي قام بها خلال الفترة القصيرة التي اعتلى فيها سدّة الحكم بالحضرة، ولذلك عزموا على خلعه، وتنفيذا لذلك دخل عليه الوزراء والأعيان عندما بلغهم خبر تحرك يحيى بن علي بن حمود إليهم من مدينة مالقة، فطلبوا منه الخروج معهم لمواجهة عدوهم وأظهروا له تخوفهم على مصيرة إن بقي لوحده في مدينة قرطبة.

خوفا من مصير مجهول أكدته الإضطرابات الواقعة في الحضرة، قرر المستكفي بالله الفرار من القصر؛ "فخرج على وجهه، وقد لبس ثياب الغانيات متنقبا بين امرأتين لم يميز منهما لمرانته على التخنيث"[3]، وعن نهاية حكمه يورد بعض المؤرخين رواية أخرى تقول: إن"عامة أهل قرطبة دخلوا عليه في النهار؛ فقتلوا وزيره أحمد بن خالد الحائك، وخلعوا المستكفي بالله وأخرجوه من قرطبة بعد أن أقام ثلاثة أيام مسجونا لا يصل إليه طعام ولا شراب ثم نفوه"[4]، ونميل نحن إلى ترجيح الرأي

(1) نفسه - ق 1م 1 ص 436.

(2) ابن الخطيب - نفس المصدر - ص 136/ ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص 142.

(3) ابن بسام - نفس المصدر - ق1 م1 ص 436 - 437/ابن الخطيب - نفس المصدر - ص136 /البيان المغرب - ج 3 ص 142.

(4) عبد الواحد المراكشي - ص 86/النويري - نهاية الارب - ص 142/الحميدي - جذوة المقتبس =

الأول الذي أورده مؤرخون عايشوا الحدث أو نقلوا عمن عايشه، وبخاصة منهم ابن حيان المعاصر لأحداث الفتنة برمتها.

إذا كانت الروايات التاريخية قد اختلفت بشأن طريقة نهاية حكمه؛ فإنها على العكس من ذلك قد أجمعت على أن تلك النهاية كانت في يوم الثلاثاء لخمس بقين من ربيع الأول سنة 416هـ (26ماي 1025م)[1].

خرج المستكفي بالله في التاريخ المذكور آنفا باتجاه الثغور الشمالية رفقة جماعة من أصحابه ووصل إلى مدينة أقليش، قاعدة شنتبرية المحصّنة[2]، وفيها "اتهمه بعض رجاله بمال وقتلوه"[3]، وتورد بعض المصادر نهاية أخرى لحياته إذ تذكر أن المستكفي انتهى من الثغور إلى قرية تعرف بـ"شمنت" أو"شمّونت" بالقرب من مدينة سالم، قاعدة الثغر الاوسط ومعه أحد قواده ويدعى عبد الرحمن بن محمد بن السّليم من ولد سعيد بن المنذر، القائد المشهور أيام خلافة عبد الرحمن الناصر، فكره هذا القائد الاستمرار في مرافقته، وعمد إلى دجاجة فدهنها له بعصاره نبات يقال له البيش[4] الذي يكثر بتلك الناحية من بلاد الأندلس؛ فلما أكلها المستكفي مات من حينه؛ فغسله وكفنه وصلى عليه ودفنه[5].

عقب فرار المستكفي بالله، بقي منصب الخلافة شاغرا لمدة ستة أشهر تقريبا، وكأن الطامحين للوصول إليه لم يعودوا متحمسين كثيرا لتولي مهامه، ويمكن تفسير ذلك بأمرين اثنين هما:

=

- ص28.

(1) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص142/ ابن الخطيب - نفس المصدر - ص 136.

(2) عبد المنعم الحميري - الروض المعطار - ص 28.

(3) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص142/ ابن الخطيب - نفس المصدر - ص 136.

(4) البيش نباتات عشبية سامّة من فصيلة الحوذانيات تعيش خاصة في المناطق الجبلية وفيها سمّ قاتل. (المنجد في اللغة والإعلام ص 56).

(5) عبد الواحد المراكشي - نفس المصدر - ص86 - 87/النويري - نهايةالارب - ص142 /الحميدي - نفس المصدر - ص 28.

1 - أن منصب الخلافة أصبح يتميز بالخطورة الكبيرة على صاحبه إذ أنه أودى بحياة عدد من الذين تولوه خلال زمن الفتنة؛ فالمهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار، أول خلفاء الفتنة قتل، ولحقه إلى نفس المصير كل من هشام المؤيد بالله وسليمان المستعين وعلي بن حمود الإدريسي وعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار المستظهر بالله، أما الذين نجوا من القتل فكان مصيرهم الخلع مع الإهانة والإذلال.

2 - يتعلق بامتيازات هذا المنصب، فقد كان قبل قيام الفتنة يسمح لصاحبه بأن يتحكم في كامل تراب العدوة الأندلسية مع ما يدّر عليه ذلك من إيرادات وغنائم وسمعة، أما خلال زمن الفتنة فقد زال كل ذلك إذ أصبح نفوذ خليفة قرطبة لا يتجاوز الأرباض المحيطة بها نظرا لاستقلال معظم المناطق الجنوبية والشرقية وحتى الثغور الشمالية عن مركز الخلافة، وكنتيجة لذلك حرم بيت مال قرطبة من جباية هذه النواحي، وهو الأمر الذي أدى إلى وقوعها في ضائقة مالية خانقة يدل عليها استنجاد حكام قرطبة بأهلها من أجل الحصول على الأموال اللاّزمة لتجنبد الناس أو لتزويدهم بما يحتاجونه من آلات الحرب وغيرها على سبيل المثال لا الحصر.

عودة الأدارسة العلويين إلى حكم الأندلس: بعد الشغور السياسي الذي أشرنا إليه سابقا، أعيدت بيعة يحيى بن علي بن حمود الإدريسي لتولي منصب الخلافة، ومن أجل القيام بالمهام التي يتطلبها هذا المنصب، انتقل من مدينة مالقة إلى العاصمة، ووصل إلى قصرها في يوم الخميس لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة 416 هـ (9 نوفمبر 1025م)[1].

لم يطل مقام يحيى بن علي بن حمود بمدينة قرطبة إذ غادرها في مستهل محرّم من السنة الموالية 417هـ (1026م) وعاد مجددا إلى مالقة قاعدة ملكه، وذلك بعدما كلّف وزيره وكاتبه أبا جعفر أحمد بن موسى[2] ودوناس بن أبي روح بتسيير

(1) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص143/ ابن الخطيب - نفس المصدر - ص 136.

(2) تقول مصادر أخرى أن يحيى بن علي بن حمود استخلف في مكانة عبد الرحمن بن عطاف اليفرني - النويري - نهاية الارب - ص140/عبد الواحد المراكشي - المعجب - ص81 =

شؤونها نيابة عنه، وترك معهما فرقة من البربر للسهر على استتباب الأمن والنظام بداخلها[1].

بعد مرور شهرين من الأمن والاستقرار، عادت الفتنة من جديد إلى مدينة قرطبة، وذلك عقب مقدم الموفق مجاهد وخيران العامريين اللذين حرّضا أهل العاصمة ضد نواب الخليفة والبربر المكلفين بأمن المدينة؛ فثاروا ضدهم وفتكوا بمن كان بداخلها منهم، وكانوا زهاء ألف رجل، وتمكن أبو جعفر أحمد بن موسى ودوناس بن أبي روح من النفاذ بجلدهما من المجزرة، حيث التحق الأول بالخليفة في مدينة مالقة بينما التحق الثاني بزعيم صنهاجة حبّوس بن ماكسن المقيم بمدينة غرناطة عاصمة بني زيري بالأندلس، وقد حدثت تلك المذبحة المرتكبة في حق البربر يوم الثلاثاء لعشر بقين من ربيع الأول سنة 417هـ (ماي 1026م)[2].

وبهذه الحادثة انتهى حكم بني حمود العلويين لبلاد الأندلس، وقد مكنتهم الاضطرابات التي عاشتها العدوة الأندلسية من الوصول إلى حكمها، كما كان للبربر دور هام في اعتلائهم لسدّة الحكم، وإبعاد بني أمية عن كرسي الخلافة لمدة حوالي سبع سنوات إذ تولوا الخلافة فيما بين سنتي 407 و414هـ (1016 - 1023م).

خلافة محمد بن هشام المعتدّ بالله ونهاية الخلافة الأموية: بعد إنهائهم لحكم يحيى بن علي بن حمود، آخر العلويين الذين حكموا مدينة قرطبة، وتولوا خلافة الأندلس في زمن الفتنة، أجمع أهل المدينة على إعادة الحكم إلى بني أمية، وتزعمهم في ذلك الوزير أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور.

اتفق أهل قرطبة على مبايعة هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر لدين الله الذي كان قد فرّ عند مقتل أخيه عبد الرحمن المرتضى سنة 409هـ (1018م) من مدينة قرطبة في جملة أصحابه، والتجأ إلى مدينة البونت الواقعة في

=

/الحميدي - جذوة المقتبس - ص26.

(1) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص143/ ابن الخطيب - نفس المصدر - ص 136.

(2) نفسه - ص 136 - 137 / ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص 143 - 144.

شمال غربي بلنسية حيث دخل في حماية واليها عبد الله بن قاسم الفهري[1].

بعث أهل قرطبة بالبيعة إلى هشام بن محمد، وهو بمقر إقامته بحصن البونت يوم الأحد لخمس بقين من ربيع الآخر سنة 418هـ (جوان 1027م)؛ فتلقب بالمعتدّ بالله، ولكنه بقي في مكان إقامته مدة سنتين وسبعة أشهر، وخلال تلك المدة كان يخطب له بقرطبة التي لم ينتقل إليها إلاّ في الثامن من شهر ذي الحجة من سنة 420هـ (18 ديسمبر 1029م)، وذلك تحت الإلحاح الشديد عليه من طرف أعيان الحضرة نظرا لتفاقم الوضع الأمني في الحضرة، وازدياد الإضطرابات التي نتجت عن التنافس القائم بين الرؤساء المتغلبين على المدينة[2].

استمر هشام المعتدّ في منصب الخلافة لمدة عامين آخرين، وقد استبشر أهل قرطبة بمقدمه، وأقاموا بمناسبة دخوله إلى المدينة احتفالات كبرى، وجاء معه في جملة مواليه رجل يدعى حكم بن سعيد القزاز؛ فقلده هشام زمام الأمور، وأطلق يده في الأموال فاستأثر بكل السلطة وجمع حوله رجالا اعتمد عليهم في الاستبداد بأهل قرطبة، ومن جملة ما كان يقوم به هذا الأخير أي حكم بن سعيد سلب أموال التجار والتكرم بها على رجاله كما كان يجزل لهم العطاء.

أدّت السياسة التي انتهجها حكم بن سعيد إلى أن أبغضه أهل قرطبة، وتربصت به جماعة من الناقمين عليه فقتلته، وطافت برأسه في المدينة، وتركت جثته في العراء، وكان ذلك في الثاني عشر من شهر ذي الحجة سنة 422هـ (30 نوفمبر 1031م)، وتزعم هؤلاء الناقمين على الوزير، ومن ثمّ الخليفة فتى من ابناء عمومة هشام وهو أمية بن عبد الرحمن العراقي[3].

سار أمية بن عبد الرحمن العراقي بعد التخلص من وزير المعتدّ حكم بن سعيد

---

(1) نفسه - ج3 ص145/ابن الخطيب - نفس المصدر - ص138/عبد الواحد المراكشي - المعجب - ص87/ النويري - نفس المصدر - ص 142.

(2) ابن الخطيب - نفس المصدر - ص138/ ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص145/ عبد الواحد - نفس المصدر - ص88.

(3) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص146/ ابن الخطيب - نفس المصدر - ص 138.

القزاز في جموعه إلى القصر حيث وجد الخليفة هشام منهمكا في الشرب والمجون مع نسائه، ذلك أن وزيره كان قد" أكثر له من الشهوات وأعدّ له من القينات والملهيات، فركسه في الصبا بعد المشيب"[1]، واستغلّ الوزير ذلك فاستبدّ بكامل السلطات في غياب الخليفة القوي الذي يقوم بما يناط به من مسؤولية.

بعد دخول أمية إلى القصر، نهبت العامة بعض أجنحته ولولا تدخل الوزير ابن جهور وزجره لهم لما تركوا شيئا منه، واضطر هشام أمام ما شاهد من هرج العامة إلى الخروج من القصر مع ولده ونسائه والتجأ إلى المسجد الجامع، وعند ذلك اجتمع رأي الناس كبارا وصغارا على خلع هشام المعتدّ، والتخلص من بني أمية، وبالتالي إبطال رسم الخلافة كما اتخذوا قرارا بنفي بني أمية وإجلائهم عن مدينة قرطبة[2].

بعد اتفاقهم على ما تقدم ذكره، خلع أهل قرطبة هشام المعتدّ، وقاموا بإبعاده إلى أحد الحصون القريبة ثم غادر الخليفة المخلوع ذلك الحصن بعد أيام يسيرة واتجه إلى الثغر حيث التجأ إلى سليمان بن هود، صاحب لاردة، من أعمال الثغر الأعلى، وبقي عنده إلى غاية وفاته سنة 427هـ (1036م)[3].

رغم ما قرره أعيان قرطبة إلا أن أمية بن عبد الرحمن كان شديد الحرص على تولي الخلافة، ويتجلى ذلك بوضوح من خلال ردّه على أهل قرطبة الذين أعلموه بخوفهم عليه من القتل بسبب انقلاب الناس على بني أمية، وكان ردّه على ذلك قوله لهم: "بايعوني أنتم اليوم واقتلوني غدا"[4]، ولكنه اضطر أمام تهديدات أهل قرطبة الذين أبلغوه بإجماعهم على خلع بني أمية أجمعين إلى مغادرة القصر، ثم غادر قرطبة

---

(1) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص 149.

(2) نفسه - ج3ص151/ ابن الخطيب - نفس المصدر - ص 138 - 139.

(3) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3ص151/عبد الواحد المراكشي - نفس المصدر - ص89، ويقول النويري: "إن وفاته كانت في يوم الجمعة لأربع بقين من صفر سنة428هـ - نهاية الارب - ص143.

(4) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص151.

واختفى عن الأنظار[1].

كانت سنة 422هـ (1031م) نقطة النهاية لدولة بني أمية بالأندلس، إذ "نودي في الأسواق والأرباض ألا يبقى أحد من بني أمية، ولا يكتنفهم أحد"[2]، وبخلع هشام المعتد، آخر خلفاء بني أمية بالأندلس، وضع حدّ وبصورة نهائية للدولة الأموية التي حكمت الأندلس طيلة مائتين وأربعة وثمانين سنة هجرية (مائتين وخمسة وسبعين سنة ميلادية)، حققت خلالها إحدى أعظم حلقات الحضارة العربية الإسلامية، وعقب زوال هذه الدولة "انتزى كل أحد في موضعه، واستبدّ رؤساء الأندلس وثوارها بما في أيديهم من البلاد والمعاقل، وبغى بعضهم على بعض"[3].

هذه هي أهم المحطات التي مرّت بها الفتنة الأندلسية، والتي تميزت بذلك الصراع الدموي الذي دار بين البربر من جهة، وبعض الأندلسيين وبخاصة منهم أهل قرطبة من جهة أخرى، كما تميزت أيضا بتلك الأزمة السياسية الحادة التي تجلّت في العدد الكبير من الذين تولوا منصب الخلافة إذ بلغ عدد الخلفاء خلال زمن الفتنة أي من سنة 399هـ (1008م) إلى سنة 422هـ (1031م) عشرة خلفاء، وهو نفس العدد من الحكام الذين أداروا شؤون الأندلس من تاريخ تأسيس الإمارة الأموية على يد عبد الرحمن بن معاوية سنة 138هـ (755م) إلى قيام الفتنة في قرطبة، وسنعود إلى هذه الفتنة الاندلسية بأكثر تفصيل من خلال محاولة التعرف على أسبابها والمتسببين فيها، إضافة إلى موقف الطرف الرئيس في الفتنة، والمتمثل في البربر ودورهم في مجريات أحداثها.

<u>الأسباب البعيدة لفتنة القرن الخامس الهجري</u>: من خلال استعراضنا لأحداث الفتنة الاندلسية بدا لنا جليا أن هناك أربعة عناصر كان لها النصيب الأكبر في إشعال نارها، ويتعلق الأمر بكل من المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار وعامة

(1) نفسه – ج 3 ص 151.
(2) نفسه – ج 3 ص152.
(3) نفسه – ج 3 ص 152.

قرطبة، ويتحمل هذان الطرفان النصيب الأكبر فيما حدث بالأندلس بداية من سنة 399هـ (1008م)، ويشترك معهما عبد الرحمن شنجول والصقالبة، ولكن بدرجة أقل فيما جرى من اقتتال بين المسلمين، وتخريب وتدمير مسّ المنشآت العمرانية في دار الإسلام، وبخاصة في مدينتي الزاهرة والزهراء.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح علينا هو: هل كانت هذه الأطراف لوحدها مسؤولة عما وقع بالعدوة الأندلسية خلال هذه الفترة، أم أن جذور هذه الأزمة تعود إلى فترات أسبق من التاريخ المذكور سالفا؟

إن المتمعن في أزمة القرن الخامس الهجري، وما تميزت به من اقتتال بين المسلمين وانتهاك لحرماتهم، وتدمير لمنشآتهم العمرانية، والذي طال حتى الأماكن المقدسة لديهم كالمساجد، يتأكد من أن هذه الأزمة لم تكن وليدة نهاية القرن الرابع الهجري، ولكنها تعود بجذورها إلى فترات سابقة يمكن تحديدها ببداية التواجد الإسلامي ببلاد الأندلس، ذلك أننا ومن خلال استعراض تاريخ الأندلس منذ فتحها على يد طارق بن زياد نلاحظ أنه لم يتم القضاء على بعض رواسب الجاهلية، وبخاصة منها العصبية القبلية التي سيكون لها الدور الرئيس في الأحداث التي عاشتها العدوة الأندلسية منذ قيام المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار على الخليفة هشام المؤيد بالله وحاجبه عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر.

وسنحاول من خلال ما سيأتي التعرض إلى الأسباب البعيدة أو الحقيقية التي تقف وراء ما جرى من أحداث خطيرة في دار الإسلام خلال الربع الأول من القرن الخامس الهجري (11م).

1 - **هيمنة العرب على الأندلس**: لقد ساهم العرب والبربر في فتح بلاد الأندلس وإلحاقها بالدولة الإسلامية، وقد اشترك هذان العنصران في معظم مراحل الفتح، وكانا صفا واحدا في مواجهة النصارى، ولكن بمجرد انتهاء عملية الفتح أو قبل ذلك بقليل بدا جليا أن هناك خلاف عميق بين الفاتحين، ذلك أن العرب قد رأوا في أنفسهم الطرف الرئيس الذي تمّ على يديه الفتح، ومن ثمّ احتكروا السلطة السياسية حيث تولى هؤلاء منصب الولاية إضافة إلى كل المناصب الهامة المصاحبة للوالي،

ونتيجة لذلك أبعد البربر، وهم العنصر الذي تحمّل العبء الأكبر في عملية الفتح عن القيادة العليا للبلاد.

لم يكتف العرب بذلك بل استحوذوا على أخصب الأراضي الموجودة في المناطق الجنوبية، وبذلك دفعوا العناصر المغربية إلى المناطق الشمالية القاحلة، وكلفوها بمجابهة النصارى والحيلولة دون توغلهم في النواحي الخاضعة للمسلمين.

لقد بقيت العناصر الاندلسية الأخرى من بربر ومسالمة ومولدين مكتفية بالولاء، ومحرومة من كافة الامتيازات، وهو الأمر الذي جعل هذه العناصر تثور في أحيان كثيرة من أجل المطالبة بحقوقها، وما الثورات وحركات التمرد العديدة التي قامت في بلاد الأندلس إلا دليلا على ذلك.

لقد ظَلّ العرب تلك الفئة المهيمنة على السلطة، والمستأثرة بالامتيازات، وفي نفس الوقت ظلت الفئات الأخرى تجترّ ولاءها السطحي لهذا النظام، مقتربة منه أو مبتعدة حسب تقلب الأحوال، دونما شعور بالولاء الحقيقي أو ارتباط بالمصلحة المشتركة[1].

استفحلت الأمور أكثر في العدوة الاندلسية عقب دخول طالعة بلج بن بشر سنة 123هـ (741م) حيث صادفت قيام ثورة عامة من طرف البربر اضطرت والي الأندلس أنذاك إلى تكليف بلج بمهمة مواجهتها.

تمكن هذا القائد العربي من إخماد الثورة وقمعها بوحشية لا نظير لها، ونتيجة لذلك اضطر الكثير من المغاربة إلى مغادرة العدوة الاندلسية، والعودة إلى بلادهم الأصلية[2]، ومن الأمور الخطيرة التي وقعت خلال المواجهات الدامية بين الطرفين، قيام والي الأندلس ثعلبة بن سلامة بسبي نساء وابناء البربر، ووصلت الجرأة به إلى حدّ

---

(1) إبراهيم بيضون - الدولة العربية في إسبانيا - دار النهضة العربية - بيروت - ط3 - 1406هـ - 1986م - ص 347 - 348.

(2) مجهول - أخبار مجموعة في فتح الأندلس - ص116/ ابن عذاري - البيان المغرب - ج2 ص 30 - 31.

بيعهم في الأسواق[1]، ويحدث ذلك لأول مرة في بلد إسلامي، وفي حق فئة اجتماعية مسلمة كان لرجالها دور هام في إدخال شبه جزيرة إيبيريا تحت راية الإسلام، وقد سبق أن ذكرنا تلك الأحداث المأسوية عند كلامنا عن استقرار البربر ببلاد الأندلس.

إن ما حدث خلال ثورة البربر ضد العرب سنة 123هـ (741م) غرس الأحقاد والكراهية بين الطرفين الرئيسيين المكونين للمجتمع الأندلسي المسلم، وسيكون لهاتين الآفتين دور كبير في تطور تاريخ الأندلس، ويؤكد الرازي ذلك حين يقول: "ومن هذا وأشباهه قدمت العداوة بين بربر الوسط وعرب الأندلس، وتوارثها الابناء عن الآباء إلى اليوم"[2].

لم يكتف الشاميون وهو الأسم الذي عرف به الجند المشكلون لطالعة بلج بن بشر بمحاربة البربر والقضاء على شوكتهم فحسب، بل حاربوا أيضا العرب البلديين - وهم الذين قدموا مع الطلائع الأولى للفتح الإسلامي لبلاد المغرب والأندلس - ويؤكد ذلك ابن القوطية حيث يقول: "وبقي عرب الأندلس وبربرها يحاربون الأمويين والشاميين، ويتعصبون لعبد الملك بن قطن الفهري - والي الأندلس - ويقولون لأهل الشام بلدنا يضيق بنا؛ فاخرجوا عنّا، وكانت الحرب تدور بينهم في الكور التي بقبلي قرطبة"[3].

كان للصراع القبلي بين القيسية واليمينية أثر كبير على الوجود الإسلامي ببلاد الأندلس حيث كادت سلطة المسلمين أن تندثر من جرّاء الحروب الدائرة بين الفريقين، والتي أدت إضافة إلى ما سبق، إلى مقتل الألاف منهم، ويؤكد ذلك ابن خلدون بقوله: "وأجازت عساكر المسلمين ما وراء برشلونة من دروب الجزيرة حتى احتلوا بسائط وراءها، وتوغلوا في بلاد الفرنجة وعصف ريح الإسلام بأمم الكفر من كل جهة، وربما كان بين جنود الأندلس من العرب اختلاف وتنازع أوجب للعدو بعض الكرّ، فرجّع

---

(1) مجهول - فتح الأندلس - ص58/ ابن عذاري - البيان المغرب - ج 2 ص 33.

(2) مجهول - فتح الأندلس - ص 54.

(3) أبوبكر بن القوطية - تاريخ افتتاح الأندلس - ص 30.

الفرنج ما كانوا غلبوهم عليه"[1].

إن هذا الاختلاف والتنازع كان في غالب الأحيان نتيجة للتعصب المفرط الذي ميز القبائل العربية المشاركة في الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس، كما كان للولاة العرب المتولين لزمام قيادة البلاد دورهم في ذلك الاختلاف إذ عوضا عن العمل من أجل تأليف كلمة المسلمين، وتوحيد صفوفهم في مواجهة أعدائهم، نصارى بلاد الأندلس، كانوا كثيرا ما يتحيزون لبني عمومتهم على حساب بقية العناصر القبلية المشكلة للمجتمع الأندلسي، من ذلك أن أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي، الذي ولي على بلاد الأندلس سنة 125هـ، "كان أعرابيا عصبيا أفرط عند ولايته في التعصب لقومه من اليمانية، وتحامل على المضرية وأسخط قيسا"[2]، ويؤكد ذلك ابن القوطية الذي يقول: إنه "أظهر في ولايته الميل على المضرية"[3].

نتيجة لذلك اندلعت الحرب بين المضرية واليمنية، وكان من نتائجها مقتل الوالي وعدد كبير من ابناء عمومته، ووصول يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب الفهري إلى منصب الولاية، وقد استعان هذا الأخير بوزيره الصميل بن حاتم رئيس المضرية بالأندلس الذي "تغلب على الأمر، وتحامل على القحطانية"[4].

استمرّ هذا الصراع القبلي إلى غاية قدوم عبد الرحمن بن معاوية الذي نجح في بداية حكمه في جمع كلمة المسلمين تحت راية الإمارة الأموية الناشئة، ومع ذلك فإن الصراع بين مختلف القبائل العربية لم ينته تماما في عهده.

لقد سعى العرب إلى المحافظة على الامتيازات التي نالوها سابقا لذلك كثرت ثوراتهم ضد عبدالرحمن بن معاوية ولمواجهتهم اضطر الأمير الأموي إلى الاستعانة بالبربر والمماليك، ويؤكد ذلك ابن خلدون فيقول: "وكثرت ثورة رؤساء العرب بالأندلس على عبد الرحمن الداخل، ونافسوه ملكه، ولقي منهم خطوبا عظيمة"، ونتيجة

(1) ابن خلدون - العبر - ج 7 ص 256.
(2) نفسه - ج 7 ص 260.
(3) ابن القوطية - نفس المصدر - ص 32 - 33.
(4) نفسه - ص 33.

لذلك كله "استراب في آخر أمره بالعرب لكثرة من قام عليه منهم"، ومن أجل مواجهة هؤلاء القائمين عليه "رجع إلى اصطناع القبائل من سواهم واتخاذ الموالي"[(1)].

لقد استمرّ العرب في انتهاج أسلوب الثورة والتمرد على السلطة القائمة، وذلك بهدف المحافظة على ما جنوه من امتيازات خلال عهد الولاة لأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم أصحاب الفضل في امتلاك المسلمين لبلاد الأندلس، وبالتالي فمن حقهم دون سواهم الحكم والاستئثار بالوظائف العليا[(2)]، فضلا على امتلاك أخصب الأراضي والضياع، وتجلى ذلك بوضوح في محاولات الإستقلال العديدة التي قامت بها العناصر العربية خلال عهد الإمارة، والتي أدت إلى إضعاف الدولة الأموية بالأندلس، وازدياد أطماع النصارى في النيل من سيادتها.

لقد كانت العصبية القبلية السبب الرئيس في قيام الفتنة بالأندلس، ويؤكد ذلك ابن حيان بقوله: "وكان ابتداء فتنة أهل الجزيرة وانبعاثها بالمعصية بين اليمانية والمضرية، أن أطلق بعضهم على بعض الغارات، واستحلّوا الحرمات وتحلّوا بأخلاق الجاهلية، واتخذوا الحصون والمعاقل المنيعة؛ فارتقوا إليها وأذلّوا البسائط"[(3)].

نتيجة لذلك كله فقد الخليفة الناصر عبد الرحمن والخلفاء الذين تولوا حكم الأندلس بعده الثقة في البيوتات العربية المقيمة بالأندلس، وتحولوا إلى الاعتماد على عناصر اجتماعية أخرى كالصقالبة في عهد الناصر الذي عمل على إتمام المهمة التي بدأها عبد الرحمن الداخل حيث قضى على جذور الفتنة من أساسها، وذلك عن طريق مطاردة القبائل والأسر العربية ذات البأس والعصبية، ونجح في القضاء على رياستها وزعامتها المحلية، وعوّضها باصطناع الموالي والصقالبة الذين منحهم النفوذ والثقة، ونتيجة لذلك استأثروا في عهده بأرفع المناصب في القصر والحكومة والجيش، بينما انصرفت القبائل العربية عن الولاء للخليفة الأموي، كما تخاذلت عن نصرته في غزواته

---

(1) المقري – نفح الطيب – ج 1 ص 333.

(2) ر. دوزي – تاريخ مسلمي إسبانيا – ج 1 ص 154.

(3) ابن حيان – المقتبس – ج 3.ص 52.

ضد النصارى، وبخاصة في موقعة الخندق الشهيرة (327هـ - 939م)، وكان ذلك تعبيرا منها عن سخط الزعماء العرب على السياسة التي انتهجها الناصر حيالهم، والتي أدت إلى إذلالهم، والحطّ من نفوذهم ومكانتهم[1].

استمرّ خلفاء عبد الرحمن الناصر في اتباع نفس السياسة القاضية بإقصاء الأسر العربية؛ فابنه الحكم المستنصر بالله اعتمد على الصقالبة الذين تركهم أبوه، وعلى البربر في آخر عهده، وعلى هذا العنصر الأخير ارتكز المنصور محمد بن أبي عامر خلال حكم هشام بن الحكم في تدعيم مركزه.

لقد قام الحاجب بجلب عدد كبير من المغاربة إلى بلاد الأندلس، واعتمد عليهم سواء في الأعمال الإدارية أوفي المهام العسكرية، ومن خلال حديثنا السابق عن دور البربر في المجال الإداري والعسكري لاحظنا وصول عدد كبير منهم إلى المناصب الإدارية والقضائية، وهو ما يعني حرمان كثير من العرب من هذه الوظائف التي اعتادوا على تقلدها فيما سبق.

إنّ فقدان العرب لهيمنتهم السياسية والاقتصادية سيدفعهم إلى الثورة ضد حكام الأندلس الذين بسياستهم القائمة على الاعتماد على عناصر غير عربية، حرموهم من المناصب القيادية، وبالتالي جعلوا منهم مجرّد عنصر اجتماعي كبقية العناصر الأخرى خلال القرن الرابع الهجري.

لذلك كله حمّل العرب وبخاصة المقيمين منهم بمدينة قرطبة البربر مسؤولية ما وقع لهم خلال حكم المنصور بن أبي عامر وولديه[2]، وكانوا في طليعة المؤيدين للمهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار عند قيامه على عبد الرحمن شنجول، وقد ساموا المغاربة أنواعا من البلاء، وكانوا من أشدّ المعارضين لفكرة الصلح معهم إلى درجة أنهم دفعوا كل ما يملكون من أموال من أجل جلب النصارى، والاستعانة بهم في حروبهم ضد إخوانهم في الدين، وعندما قرر الإسبان مغادرة قرطبة عقب انهزامهم

(1) محمد عبد الله عنان - دولة الإسلام في الأندلس - العصر الثاني - دول الطوائف - ص12.

(2) ابن خلدون - العبر - ج 7 ص 325.

أمام البربر في وادي يارو حزنوا عليهم أشدّ الحزن، كل هذا لأنهم لم يكونوا أبدا على استعداد للعودة إلى طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، والتي تقتضي الاحتكام إليهما لفضّ النزاع القائم في قرطبة.

إن المتتبع لأحداث الفتنة الأندلسية القائمة في القرن الخامس الهجري يلاحظ بدون شك الدور الذي قام به أهل قرطبة، وبخاصة منهم العرب الذين ساندوا المهدي عند قيامه على عبد الرحمن شنجول، وقاموا بنهب دور البربر، وقتل من قدروا عليه، إضافة إلى إزالة مدينة الزاهرة من الخريطة.

ومع ذلك كان هؤلاء القرطبيين أول من كان يقوم على الخلفاء الذين تداولوا على سدّة الحكم خلال نيف وعشرين سنة من زمن الفتنة حيث كانوا يساهمون في تعيينهم كما كانوا يقومون بعزلهم - إما بالقتل أو بالخلع - بمجرد قيامهم بعمل يرى فيه أهل قرطبة مساسا بمصالحهم وعنهم يقول المقري: "وكان أهل قرطبة شديدي التقلب، وقد عرفوا بميلهم إلى السخط على الحكام، وكانوا على حدّ قول ابن سعيد المغربي "يضرب بهم المثل بين أهل الأندلس في القيام على الملوك، والتشنيع على الولاة، وقلة الرضا بأمورهم""[1].

من خلال ما سبق ذكره نصل إلى نتيجة هامة، وهي أن العرب الذين اضطهدوا منذ عهد عبد الرحمن الناصر، وأبعدوا عن أهم المناصب السياسية والعسكرية، وبخاصة خلال عهد المنصور محمد بن أبي عامر وابنه المظفّر عبد الملك، سيعملون على استرداد مكانتهم وزعامتهم القديمة، وعندما قام المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار على الخليفة هشام المؤيد بالله في مدينة قرطبة، وجدوا الفرصة السانحة التي ستمكنهم من ذلك.

لقد بذل العرب جهدهم وإمكاناتهم من أجل العودة من جديد إلى قيادة شؤون العدوة الأندلسية حتى لوكان ذلك على حساب فئة هامة من المجتمع الأندلسي لا لذنب سوى أن أفرادها كانوا يشكلون جزءا هاما من جند الأندلس، وأبلوا في سبيل هذا

---

(1) المقري - نفح الطيب - ج 2 ص 10.

البلد البلاء الحسن، وتشهد على ذلك الانتصارات العسكرية التي حققها حكّام قرطبة بالاعتماد عليهم على حساب النصارى، وذلك طيلة فترة حجابة المنصور بن أبي عامر وابنه عبد الملك.

2 - **سياسة الأمويين بالأندلس**: نجح عبد الرحمن بن معاوية في إحياء دولة بني أمية بالعدوة الأندلسية، وذلك بالإعتماد على العناصر الموالية له وبخاصة القبائل المضرية، وعندما ازداد تمرد العرب عامة والقبائل اليمنية خاصة عليه مال إلى استخدام المماليك والموالي، وبالإعتماد عليهم تمكن من فرض سلطانه على بلاد الأندلس والتخلص من خصومه والمناوئين له.

مهّد عبد الرحمن بن معاوية البلاد لمن جاء بعده من أفراد البيت الأموي الذين أصبحوا يتحكمون في زمام الأمور، ومع ذلك فقد حدثت في عهدهم تصرفات ستكون لها انعكاسات وخيمة على مستقبل بني أمية، ذلك أنه وبسبب المنافسة والصراع على العرش، قام أمراء الدولة الأموية بالتخلص من إخوانهم وبني عمومتهم الطامحين في الوصول إلى سدّة الحكم، من ذلك أن الحكم بن هشام (180 - 206هـ/796 - 822م) قد قام بقتل أعمامه سليمان ومسلمة وأمية[1]، وتبعه في ذلك الأمير عبد الله بن محمد (275 - 300هـ/888 - 912م) الذي قتل ابنيه محمدا والمطرف[2]، واقتدى به حفيده عبد الرحمن الناصر لدين الله فقتل عمّه العاصي[3]، وابنه عبد الله الفاضل الورع على حدّ تعبير ابن حزم[4].

إن هذه الإغتيالات وغيرها التي قام بها أمراء وخلفاء الدولة الأموية تؤكد الصراع الذي كان قائما على السلطة في مدينة قرطبة بين أفراد البيت الأموي، وكانت النتيجة الحتمية لذلك هي اختفاء عدد هام من أبناء البيت الحاكم في العدوة الأندلسية.

---

(1) ابن حزم - نقط العروس - ص 238.
(2) نفسه - ص 180.
(3) نفسه - ص 238.
(4) نفسه - ص 237.

لقد مسّت الاغتيالات عددا من الأمويين الذين كان بإمكانهم تحمّل المسؤولية بكفاءة كبيرة، وبخاصة عبد الله بن عبد الرحمن الناصر الذي اعتلى أخوه الحكم السلطة عوضا عنه، وقد ارتكب هذا الأخير خطأ فادحا عندما عين في منصب الخلافة ابنه هشام، وهو لم يبلغ الحلم بعد.

نتيجة لتولية العهد لهشام، دار صراع داخل أروقة القصر بين حزبين كان كل منهما يسعى إلى بسط نفوذه على الخليفة في غياب من هو أكفأ منه، حيث تكتل الصقالبة من قواد الجند ورؤساء الخدم وموظفي القصر والأقاليم حول فائق وجؤذر، وكانوا "أكثر جمعا وأحدّ شوكة، يظنون أن لا غالب لهم، وأن الملك بأيديهم"[1]، وأخفوا موت الحكم لترتيب الأمور، وتولية المغيرة منصب الخلافة بدلا من هشام بن الحكم[2]، وفي مقابل هذا الحزب تكتل "أصحاب الهاشمية مثل زياد بن أفلح مولى الحكم وقاسم بن محمد ومحمد بن أبي عامر وهشام بن محمد بن عثمان، وجعفر بن عثمان المصحفي الحاجب "الذي استدعى بني برزال إذ كانوا بطانته من سائر الجند، واستحضر قواد الأجناد الأحرار"[3]، وحسم الصراع بين الطرفين لصالح الحزب الثاني الذي نجح في إيصال هشام بن الحكم إلى منصب الخلافة، وذلك بعد التخلص عن طريق محمد بن أبي عامر من المغيرة بن عبد الرحمن الناصر الذي قتل خنقا يوم بيعة ابن أخيه[4]، ومن الصقالبة الذين أبعدوا عن القصر وجردّوا من كافة امتيازا تهم[5].

بداية من هذا التاريخ أي تولي هشام المؤيد بالله الخلافة بدأ نجم بني أمية في الأفول، إذ تمكن محمد بن أبي عامر من الارتقاء إلى منصب الحجابة بعدما نجح في التخلص من جميع منافسيه، واستبدّ بالحكم في غياب خليفة قوي يستطيع أن يمنعه من ذلك.

---

(1) ابن عذاري – البيان المغرب – ج 2 ص 259.

(2) نفسه – ج 2 ص 199.

(3) نفسه – ج 2 ص199.

(4) نفسه – ج 2 ص261/ ابن الحزم – نقط العروس – ص 238.

(5) ابن عذاري – نفس المصدر – ج2 ص 262 - 263.

لقد كان هشام "مندرجا في طي كافله الحاجب المنصور بحيث لا ينسب إليه تدبير، ولا يرجع إليه من الأمور قليل ولا كثير، إذ كان في نفسه وأصل تركيبه مضعفا مهينا مشغولا بالنزهات، ولعب الصبيان والبنات، وفي الكبر بمجالسة النساء ومحادثة الإماء"[1]، ويعطينا أحد الشعراء وصفا بليغا لهشام المؤيد فيقول على لسانه:

أَلَـيْسَ مِـنَ الْعَجَائِـبِ أَنَّ مِثْلِـي ... يَـرَى مَـا قَـلَّ مُمْتَـنِعًا عَلَـيْهِ

وَتُمْلَـكُ بِاسْـمِهِ الدُّنْـيَا جَمِـيعًا ... وَمَـا مِـنْ ذَاكَ شَـيْءٌ فِـي يَدَيْـهِ[2]

لقد أصيب البيت الأموي خلال حكم المنصور محمد بن أبي عامر بضربات أدت إلى اختفاء العديد من أفراده، ويؤكد ذلك النويري حين يقول: "إن المنصور تخوف من بني أمية أن يثوروا به؛ فأخذ في تقتيلهم صغارا وكبارا...حتى أفنى من يصلح منهم للولاية، وفرّق الباقين في البلاد والبوادي"[3].

ويؤيده في ذلك ابن الخطيب الذي يقول: إن الحاجب قد "أمر المروانيين بلزوم منازلهم في المدينة وحظر عليهم الركوب والخروج رأسا إلا لضرورة، ووكل بهم ثقات من مشيخة الفتيان الحكمّيين على دول متعاقبة، يطالعون ما ينكرون من أحوالهم، وأخذهم بتفريق من قولهم إلا لمن يأذن فيه من غلام أو وكيل أو معلّم أو طبيب وحذرهم صحبة سواهم من الناس، وألزمهم القصد في أمورهم، والإقبال على ما يغنيهم، وكان يأخذهم بالخروج معه إلى الغزوات حتى خشعوا واقتصروا على بيوتهم وأهّمتهم أنفسهم"[4].

من جرّاء هذه السياسة أصبح أفراد البيت الأموي ممنوعين من ممارسة أي نشاط يمت بصلة إلى الحكم، وبالتالي صاروا مجرد رعايا بعدما كانت مقاليد البلاد في أيديهم قبل استبداد المنصور بالحكم، وستستمر هذه السياسة بعد وفاة المنصور، ذلك

---

(1) ابن الخطيب - أعمال الإعلام - ج 2 ص 58.

(2) النويري - نهاية الارب - ص 123.

(3) ابن عذاري - نفس المصدر - ج 2 ص 280.

(4) ابن الخطيب - أعمال الإعلام - ق 2 ص 77.

أنه أوصى ابنه عبد الملك بانتهاج نفس أسلوب التعامل مع بني أمية حيث قال له وهو يوصيه: "وصاحب القصر قد علمت مذهبه، وأنه لا يأتيك من قبله شيء تكرهه، والآفة ممن يتولاه ويتلمس الوثوب باسمه، فلا تنم عن هذه الطائفة جملة، ولا ترفع عنها سوء الظن والتهمة، وعاجل بها من خفته على أقل بادرة"[1].

التزم عبد الملك بوصية أبيه، وسار على نهجه في معاملة بني أمية، وكان من ضحاياه هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الذي عزم على خلع هشام بن الحكم بمساعدة وزير الدولة عيسى بن سعيد، ولكن المظفر اكتشف أمره قبل أن يتم فقتل الوزير أولا ثم الحق به هشام وذلك في شهر ربيع الأول سنة 399هـ (1008م)[2]. وكان مقتله من الأسباب الرئيسة التي جعلت ابنه محمد يثور بقرطبة في جمادى الآخرة سنة 399هـ، وكان محمد هذا "يترصد الأمر حتى مات عبد الملك وخلفه أخوه عبد الرحمن، وتطاول لولاية العهد، وخرج للغزاة فخلا البلد من الجند"، وعند ذلك قرر ذلك الأموي القيام على هشام المؤيد بالله، ونجح في الوصول إلى السلطة وقتل الحاجب العامري، وبالتالي إعادة السلطة إلى بني أمية، وأيده في العمل الذي قام به جماعة المروانيين "لخروج الأمر عنهم وصرفه إلى بني أبي عامر"[3].

من خلال ما سبق يتضح جليا أن البيت الأموي كان يحنق على المنصور بن أبي عامر وولديه الذين استبدوا بالحكم، وحرموا الخليفة من ممارسة السلطة الكاملة التي كان يتمتع بها أسلافه من بني أمية، وأكثر من هذا فقد حاول آخر أفراد البيت العامري أن يستحوذ على منصب الخلافة برمته عندما أرغم هشام بن الحكم على جعله وليا لعهده، ومعنى ذلك حرمان الأمويين من العودة مجددا إلى ممارسة مهام الخلافة.

لقد كانت هذه الأسباب مجتمعة وراء سعي الأمويين إلى الإطاحة بالبيت العامري، والعودة من جديد إلى سدّة الحكم وممارسة صلاحيات الخليفة كاملة، وهو

---

(1) نفسه - ص 81.

(2) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص 34 - 35 / النويري - نهاية الأرب - ص 128.

(3) نفسه - ص 128 - 129.

الأمر الذي تحقق على يد المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار.

لم يكن هذا الأموي أهلا لمنصب الخلافة بسبب طول معاشرته للصعاليك والسفلة، وهو الأمر الذي جعله يرتكب أخطاء فادحة أدت إلى فقدانه للسيطرة على زمام الأمور، كما أنه بتصرفاته هذه قد جعل أفرادا آخرين من بني عمومته ينافسونه في الوصول إلى الحكم، ونتيجة لذلك تداول على منصب الخلافة طيلة فترة الفتنة سبعة أفراد من البيت الأموي كانوا حريصين كلهم على قيادة البلاد رغم عدم توفر معظمهم على المؤهلات الضرورية لذلك المنصب، وأبرز مثال يوضح هذه الرغبة الجامحة في الجلوس على كرسي الخلافة مثال أحد أفراد البيت الأموي، ويدعى أمية بن عبد الرحمن العراقي الذي يصفه ابن حيان بشدة التهور والجهالة.

قام هذا الأموي على هشام المعتدّ بالله، وعندما قال له أهل قرطبة: "إنا نخاف عليك في هذا اليوم القتل لما نرى من انقلاب الناس عليكم"، كان ردّه بأن قال لهم: "بايعوني أنتم اليوم واقتلوني غدا" حرصا منه على الخلافة، ولكن أهل قرطبة كانوا قد اتخذوا قرارهم بخلع بني أمية أجمعين وإنهاء الخلافة[1].

لم يكن أمية بن عبد الرحمن بن هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الوحيد من أفراد البيت الأموي الذي سعى إلى نيل السلطة مهما كان الأمر بل هناك كثيرون غيره، والقاسم المشترك لجميع هؤلاء الطامعين في إعتلاء سدّة الخلافة هو إنعدام الكفاءة والقوة والحزم التي تميز بها مؤسس الخلافة الأموية بالأندلس، والذي كان الاستثناء الوحيد رفقة ابنه الحكم - ولكن بدرجة أقل بكثير من أبيه - خلال القرن الرابع الهجري وما يليه إلى غاية إلغاء الخلافة الأموية بالعدوة الأندلسية.

3 - **الإستبداد العامري ودوره في الفتنة**: بوفاة الحكم المستنصر بالله، إنفجر الصراع بين أجنحة الطبقة الحاكمة، وذلك بهدف الإنفراد بالسلطة حيث شكل الصقالبة من قواد الجند ورؤساء الخدم وموظفي القصر والأقاليم بقيادة فائق وجؤذر

(1) ابن عذاري - نفس المصدر - ج 3 ص 150 - 151.

الطرف الأول، وكان هؤلاء "أكثر جمعا وأحدّ شوكة"،[1] وقد سعوا إلى إخفاء موت الحكم المستنصر من أجل ترتيب الأمور وتولية المغيرة بن عبد الرحمن الناصر بدلا من هشام بن الحكم.

في مقابل هذا الطرف المشكل من الصقالبة، تكونت كتلة ثانية جمعت "أصحاب الهاشمية مثل زياد بن أفلح مولى الحكم وقاسم بن محمد ومحمد بن أبي عامر وهشام بن محمد بن عثمان وجعفر بن عثمان المصحفي الذي استدعى بني برزال إذ كانوا بطانته من سائر الجند واستحضر قواد الأجناد الأحرار"[2]، وحسم الصراع بين الطرفين لصالح الفريق الثاني، ويعود الفضل في ذلك إلى جرأة محمد بن أبي عامر الذي قتل المغيرة خنقا يوم بيعة ابن أخيه هشام بن الحكم،[3] وبدأ بذلك مرحلة الإرتقاء التي ستسمح له بالإستبداد بالحكم في مدينة قرطبة، وذلك بعد ما تخلص من كافة منافسيه.

يصور لنا أحد المؤرخين بدقة بالغة كيفية وصول محمد بن أبي عامر إلى هرم السلطة بالعدوة الأندلسية؛ فيقول: "وكان المنصور آية من آيات فاطره دهاء ومكرا وسياسة، عدا بالمصاحفة على الصقالبة حتى قتلهم وأذلّهم، ثم عدا بغالب الناصري على المصاحفة حتى قتلهم وأبادهم، ثم عدا بجعفر بن الأندلسي على غالب حتى قتله، ثم عدا بنفسه على جعفر وقتله، ثم انفرد بنفسه وصار ينادي صروف الدهر: هل من مبارز؟ فلما لم يجده، حمل الدهر على حكمه؛ فانقاد له وساعده؛ فاستقام أمره منفردا بمملكة لا سلف له فيها"[4].

ينتمي محمد بن أبي عامر إلى نسل عبد الملك المعافري، أحد المجاهدين الداخلين مع طارق بن زياد ويتصل نسبه ببني عامر، إحدى قبائل اليمن، وقد استوطن جدّه بإقليم الجزيرة الخضراء، وكان أبوه من علماء عصره، أما هو فقد رحل شابا إلى

---

(1) نفسه - ج 2 ص 259.
(2) نفسه - ج 2 ص 260.
(3) نفسه - ج 2 ص 261.
(4) نفسه - ج 2 ص 286 / ابن الخطيب - نفس المصدر - ق 2 ص 77.

مدينة قرطبة من أجل طلب العلم والتمرس بالأدب.

بدأ حياته العملية ككاتب عرائض على باب قصر الخليفة بقرطبة، ثم انتقل إلى العمل في داخل القصر حيث اختارته صبح أم هشام بن الحكم ليكتب عنها ثم زكته لدى الخليفة الحكم المستنصر؛ فقلدّه بعض المناصب المالية والقضائية، كما أسند إليه مهمة الإشراف على أموال ابنه الأمير هشام ولي العهد، وعند وفاة الخليفة سنة 366هـ (976م) كان محمد بن أبي عامر أحد الشخصيات الكبيرة في القصر والمرموقة في الدولة.

نجح ابن أبي عامر بفضل مساعدة جعفر بن عثمان المصحفي حاجب هشام المؤيد وصبح أم الخليفةالمعجبة به في الوصول إلى أن يكون الرجل الأول والحاكم الأوحد لبلاد الأندلس بدون منازع، وبخاصة بعد تخلصه من كافة منافسيه كما يوضح ذلك النص الذي أوردناه نقلا عن ابن عذاري، والذي تؤكده نصوص أخرى[1].

بعد تخلصه من الصقالبة وعلى رأسهم جؤذر وفائق، وقضائه على جعفر بن عثمان المصحفي وغالب قائد الثغر الأعلى وجعفر بن علي الأندلسي، انفرد محمد بن أبي عامر بزعامة العدوة الاندلسية وبخاصة بعد ما حجب الخليفة هشام عن الناس، وبذلك صار المتصرف الوحيد في كل شؤون الدولة[2].

كان ابن أبي عامر محبا للجهاد، كثير الغزوات حتى قيل إنه كان يغزو كل عام مرتين، وأن غزواته بلغت نيفا وخمسين غزوة، وأن النصر كان دائما حليفا له حتى استحق بجدارة لقب المنصور، وقد اجتاحت جيوشه عدة مرات أقاليم نصارى الشمال الأندلسي، وانتصرت عليهم في قشتالة وجليقية وقطلونية[3]، ويؤكد ذلك ابن خلدون

---

(1) ابن عذاري - نفس المصدر - ج2 ص256 وما بعدها / ابن الخطيب - نفس المصدر - ص59 وما بعدها / ابن الابار - الحلة السيراء - ج1 ص268 - 269/ابن سعيد - المغرب - ج1 ص 136 - 137.

(2) ابن خلدون - نفس المصدر - ج7 ص318 - 319/ المقري - نفس المصدر - ج1 ص396 - 397.

(3) نفسه - ج 1 ص 400.

فيقول: "إنه ردّد الغزو بنفسه إلى دار الحرب، فغزا اثنتين وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه، لم ينكسر له فيها راية ولا فلّ له جيش ولا أصيب له بعث ولاهلكت سرية"[1].

نجح محمد بن أبي عامر في ظرف وجيز في الارتقاء إلى قمة هرم السلطة وفرض سلطانه على كافة رجال الدولة، واستعمل من أجل تحقيق ذلك كل الوسائل المباحة وغير المباحة، وفي غمرة ارتقائه إلى السلطة، قضى على الكثير من الكفاءات التي كان بإمكانها تقديم الكثير إلى الدولة، ولم يسلم من ذلك لا الصديق ولا الصهر ولا الابن، إذ قتل المنصور ابنه عبد الله الذي اشترك في حركة تمرد ضد أبيه، كما أنه وجّه ضربات موجعة لبني أمية حيث "أخذ في تقتيلهم صغارا وكبارا، حتى أفنى من يصلح منهم للولاية وفرّق الباقين في البلاد والبوادي"[2].

قام المنصور بذلك كله لأنه تخوّف من ثورة هؤلاء المروانيين ضده ولكن النتيجة هي أنه أكسب عداوة بني أمية والموالين لهم إلى دولته، ولذلك أصبحوا يتحينون الفرص للثورة، والتخلص من استبداد الحاجب العامري.

إضافة إلى استبداده بالحكم وبطشه بالمروانيين، قام المنصور بن أبي عامر بعمل آخر جلب له مزيدا من الحقد والكراهية، ويتعلق بالإصلاح العسكري الذي قام به والعناصر التي اعتمد عليها لتكوين جيشه الجديد.

لقد اهتم ابن أبي عامر بإنشاء جيش خاص يدين له بالولاء التام، ويعطينا عبد الله بن بلقين سبب إنشائه فيقول إن المنصور: "توقع من أجناده الاتفاق على بعض ما يخلّ بدولته إذ كانوا صنفا واحدا، وتألّبهم على معصية أمره متى أمر بما أحبّوا أو كرهوا، فنظر في ذلك بعين اليقظة، وسوّل له رأيه أن تكون أجناده قبائل مختلفة وأشتاتا متفرقة، إن همتّ إحدى الطوائف بخروج عن الطاعة غلبها بسائر الفئات[3].

كان الجيش قبل المنصور بن أبي عامر ينقسم إلى قسمين:

---

(1) ابن خلدون - نفس المصدر - ج 7 ص 320.

(2) النويري - نهاية الأرب - ص 123.

(3) عبد الله بن بلقين - كتاب التبيان - ص 57.

1 - جيش دائم منتظم يستقر بالعاصمة، ويتقاضى أفراده عطاء ثابتا، ويتمثل في فرقة الحرس النظامية التي كانت تشكل في معظمها من الصقالبة.

2 - جيش إقطاعي تمثله القبائل العربية والمغربية التي وزعت على الكور والمدن الأندلسية بعد الفتح الإسلامي حيث منحت هذه القبائل حق استغلال الأراضي الزراعية وجباية عطائها من الأموال التي تقدمها هذه الأراضي، وذلك مقابل المساهمة في الغزوات التي يجردها حكام قرطبة على النصارى وعلى القائمين عليهم من الثوار.

وعند وصول المنصور إلى سدّة الحكم، رأى أن هذا النظام العسكري بإمكانه أن يتسبب في ظهور الحزازات والفتن بين أفراد الجيش أو يؤدي إلى تمرد البعض على أوامره، وقد حدث ذلك فيما سبق وبخاصة في عهد عبد الرحمن الناصر عندما خذل العرب الخليفة، وتسببوا في الهزيمة النكراء التي أصيب بها المسلمون في موقعة الخندق سنة 327هـ (939م) لأنهم نقموا على الخليفة اعتماده على الصقالبة في قيادة الجيش حيث أسند هذه القيادة إلى مملوكه نجدة الصقلبي[1].

لهذه الأسباب قرر المنصور تغيير نظام الجيش، فجعله وحدة نظامية خاضعة لقيادته المباشرة أي أنه جعل الجيش بأكمله جيشا نظاميا دائما، يتكون من فرق متعددة، وكل فرقة تتألف من عناصر مختلفة كالعرب والبربر والصقالبة، وكل جندي منهم يتقاضى راتبا شهريا تدفعه الدولة له حسب رتبته بدلا من تحصيل ذلك عن طريق الإقطاع كما كان في العهد السابق له[2].

نتيجة لهذا التغيير الذي أدخله المنصور على نظام الجند بالعدوة الأندلسية، زالت العصبية القبلية بين أفراد الجيش، إذ سمح التنظيم الجديد باحتكاك العناصر المختلفة للمجتمع الأندلسي بحكم تواجدها مع بعضها البعض في فرق هذا الجند، وبحكم اشتراكها في الغزوات العديدة التي جرّدها الحاجب ضد النصارى، والتي كللت بالانتصارات التي حققها المسلمون على أعدائهم، وهو ما يعني امتلاء أيديهم

---

(1) أحمد مختار العبادي - في تاريخ المغرب والأندلس - ص 197.

(2) نفسه - ص 243.

بالغنائم، وهي كلها أمور تثبت نجاعة هذا النظام العسكري الجديد.

في مقابل ما سبق ذكره جلب هذا التنظيم الجديد للمنصور مزيدا من عدم الرضا، إذ أن ما قام به الحاجب أدى إلى نتائج سلبية يوضحها أبو بكر الطرطوشي حيث يقول: "وسمعت بعض شيوخ الأندلس من الأجناد وغيرهم يقولون لما كانت الأرض مقطعة (مملوكة) في أيدي الأجناد، فكانوا يستغلونها ويرفقون بالفلاحين، ويربونهم كما يربي التاجر تجارته، وكانت الأرض عامرة، ويقولون: ما زال أهل الإسلام ظاهرين على عدوهم وأمر العدو في ضعف والأموال وافرة والأجناد متوافرين والكراع (الخيل) والسلاح فوق ما يحتاج إليه إلى أن كان الأمر في آخر أيام ابن عامر فردّ عطايا الجند مشاهرة بقبض الأموال على النطع، وقدم على الأرض جباة يجبونها، فأكلوا الرعايا، واجتاحوا أموالهم واستضعفوهم، فتهاونت الرعايا وضعفوا عن العمارة، فقلت الجبايات المرتفعة إلى السلطان، وضعفت الأجناد وقوي العدو على بلاد المسلمين حتى أخذ الكثير منها"[1].

يبدو جليا من خلال نص الطرطوشي أن الإصلاح الذي أدخله المنصور على نظام الجيش الأندلسي كان سببا في تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية من جهة، وتجلى ذلك في إهمال الملاكين لأراضيهم وانخفاض الانتاج الزراعي، وبالتالي مداخيل المزارعين وجبايات الدولة، كما كان للإصلاح ذاته من جهة أخرى انعكاسات سلبية على قوة الجيش في حدّ ذاته، وبدا ذلك واضحا من خلال ضعف الجنود واكتساح العدو لأراضي المسلمين، وفي هذا الاتجاه يذهب أحمد مختار العبادي الذي يرى أن هذا الإصلاح كان سببا في فساد الجيش.

لكننا بالعودة إلى المصادر التاريخية نلاحظ أن العكس تماما هو الذي حدث، إذ تجمع هذه الأخيرة على أن الجيش الذي شكله المنصور كان من القوة بحيث أنه حقق للأندلس الانتصار في جل المعارك التي خاضها ضد النصارى سواء بقيادة

---

(1) أبو بكر الطرطوشي - سراج الملوك - تحقيق محمد فتحي أبو بكر - الدار المصرية اللبنانية - القاهرة - ط 1 - 1414هـ - 1994م - ج2 ص 498 - 499.

الحاجب،[1] أو بقيادة ابنه المظفر عبد الملك،[2] وبفضل هذه الانتصارات استعاد العامريان جل الأراضي التي سبق وأن أخذها نصارى الممالك الشمالية أثناء فترات الضعف التي مرّت بها الدولة الأموية بالأندلس، ويؤكد ذلك أبو بكر الطرطوشي عند كلامه عن فساد الحكام والنتائج المترتبة عن ذلك حيث يقول: "إذا اختلّ أمر السلطان دخل الفساد على الجميع.. كيف لا وفي زوال السلطان أو ضعف شوكته سوق أهل الشر ومكسب الأجناد ونفاق أهل العبارة والسوقة واللصوص والمناهبة"[3].

من المؤكد أن النص الأول للطرطوشي يتعلق بالجيش في عهد حكام الأندلس خلال زمن الفتنة أوما بعدها، ولا ينطبق على مواصفات الجيش الأندلسي خلال عهد المنصور وابنه المظفر عبد الملك الذي كان الدعامة الأولى للحاجب في الإستبداد بالحكم وغزو النصارى في عقر دارهم.

لقد تمكن هذا الجيش من الانتصار على أعدائه، وإعادة حدود دار الإسلام إلى عهدها الأول، ولكن الخطأ الذي ارتكبه المنصور هو عدم قيامه بتعمير المناطق التي استرجعها،[4] حيث اكتفى بجعلها مناطق عازلة أو مناطق منزوعة السلاح بالتعبير المعاصر، وحاول ابنه عبد الملك استدراك ذلك عندما شجّع المسلمين عقب غزو برشلونة سنة 393هـ (1003م) على الإقامة بالمناطق التي فتحها حيث "عهد وقت الفتح إلى المجاهدين ألا يحرقوا منزلا ولا يهدموا بناء لما ذهب إليه من إسكان المسلمين فيه"، ولتمكينهم من ذلك "شرع لوقته في إصلاح ما تهدم"، إضافة إلى أنه "نادى في المسلمين من أراد الإثبات في الديوان بدينارين في الشهر على أن يستوطن في هذا الحصن فعل، وله مع ذلك المنزل والمحرث"، وكانت الاستجابة كبيرة حيث

---

(1) النويري - نهاية الأرب - ص123/ ابن خلدون - العبر - ج7 ص320.

(2) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص87/النويري - نفس المصدر - ص125/اليان المغرب - ج 3 ص3.

(3) الطرطوشي - نفس المصدر - ج 1 ص 200.

(4) حسين مؤنس - معالم تاريخ المغرب والأندلس - ص 403.

"رغب في ذلك خلق عظيم واستقروا به في حينهم"[1].

من المؤكد أن هذه السياسة الجديدة التي انتهجها عبد الملك المظفر كانت ستؤدي إلى تعمير الكثير من المناطق التي تمّ استرجاعها من قبل المنصور وابنه، لو قيض للأندلس حاكم شبيه بالأول، ولكن وصول عبد الرحمن شنجول وتصرفاته الطائشة كانت السبب في ضياع هذه المكاسب المحققة من قبل أبيه وأخيه.

إن الإصلاح الجديد الذي أدخله المنصور على نظام الجيش أدى فعلا إلى ظهور سخط كبير في أوساط البيوتات العربية ذلك أن النظام القديم كان يقوم على أساس القبيلة العربية حيث كانت الكور الأندلسية مقطعة على الأجناد العرب الذين كانوا يقيمون فيها ويستغلون أراضيها، وفي مقابل ذلك يقدمون خلال الغزوات التي يقوم بها حكام قرطبة عددا معينا من الجند يتناسب مع حجم الكورة، وكان المنصور بإصلاحه هذا يسعى إلى القضاء على العصبية العربية من خلال قضائه على هذا النظام، وقد اعتمد في تشكيل جيشه على عناصر طارئة تمثلت في البربر بصفة خاصة، وأصبح هؤلاء بعد قليل معظم جنده وخاصته، ونتيجة لذلك حنق عليه العرب، وكانوا من الملتحقين الأوائل بالمهدي عند قيامه على هشام المؤيد وحاجبه عبد الرحمن شنجول العامري[2].

ولكن هل جرّد المنصور العرب فعلا من أراضيهم؟ وهل كان العرب على حق عندما ناصبوا حاجب هشام العداء وشجعوا المهدي على الإطاحة بولده وبالتالي على دولته؟

إن العودة إلى المصادر التاريخية تمكننا من الإجابة على هذه التساؤلات حيث تذهب هذه المؤلفات إلى أن المنصور لم يحرم هؤلاء العرب من أراضيهم بل إنه طلب منهم دعم هذا الجيش بالمال، وفي ذلك يقول مؤلف كتاب التبيان: "وحضّ عامة المسلمين على الغزو، فعجز عن ذلك رعية الأندلس وشكوا إليه ضعفهم عن الملاقاة

---

(1) ابن عذاري - نفس المصدر - ج 3 ص 7.

(2) حسين مؤنس - نفس المرجع - ص 394.

وشغلهم بالغزوات عن عمارة أرضهم؛ فقاطعهم على أن يشتغلوا بعمارة أرضهم ويعطوا من أموالهم كل عام ما يقيم به من أجناد من يكفيهم ذلك على اتفاق ورضى منهم، فضرب عليهم الإقطاع وحصّل في الدواوين جميع أموال الناس وكسرها عليهم وفرض بينهم ما لا يرتزق منه الجيش"،[1] ويؤكد ابن الخطيب قضية إعفاء الناس من المشاركة في الجهاد بداية من سنة 388هـ (998م)؛ حيث يقول: إن في هذا العام "صدر الأمر من المنصور بإعفاء الناس من إجبارهم على الغزو استغناء بعدد الجيش واستظهارا بأصيل العزّ"[2].

إن النص الذي أورده عبد الله بن بلقين يثبت بما لا يدع مجالا للشك أن المنصور بن أبي عامر لم يقض على الاقطاع السائد في بلاد الأندلس قبله، وبالتالي فإنه لم يقض على امتيازات الأسر العربية، وكل ما قام به هو تكليفها عوضا عن تزويد الجيش بعدد من رجالها كما كانت تفعل سابقا بتقديم نصيب من المال يستعمله الحاجب في دفع عطاءات الجند أي رواتبهم وتوفير ما يحتاجون إليه من عتاد عسكري.

والظاهر من هذا الكلام هو أن المنصور بن أبي عامر لم يعد بحاجة إلى الرجال بقدر ما هو بحاجة إلى الأموال التي يجند بها هؤلاء ويدفع رواتبهم الشهرية، وبالتالي فإن القضاء على الإقطاع، وبالتالي امتيازات الأسر العربية لم يكن سوى مبرر لما سيقوم به العرب خلال زمن الفتنة، والتي كان منبعها بالدرجة الأولى العصبية القبلية وبخاصة بين المضرية واليمنية التي كان يمثلها المنصور بن أبي عامر وولديه المظفر وعبد الرحمن.

لقد كانت سياسة المنصور بن أبي عامر سببا في ظهور التذمر في أوساط المروانيين والقبائل العربية لأنه حرم الطرف الأول من حكم بلاد الأندلس، والطرف الثاني من عدة امتيازات نظرا لاعتماده على المغاربة في المجال العسكري والإداري،

(1) عبد الله بن بلقين - نفس المصدر - ص 58.

(2) ابن الخطيب - نفس المصدر - ص 68.

ولذلك حقد عليه هؤلاء وصاروا يبحثون عن الفرصة التي تمكنهم من العودة مجددا إلى سابق عهدهم أي السيطرة على السلطة السياسية، واحتكار المناصب العسكرية والإدارية وما تدره من امتيازات اقتصادية ومكانة اجتماعية.

تزعم المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار المروانيين وقادهم نحو استعادة كرسي الخلافة مع كافة صلاحياته عند ما قام على الخليفة المؤيد بالله وحاجبه عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر واستغلت القبائل العربية ذلك الأمر فانضمت إلى الثائر وسعت من خلال مساعدته في تحقيق مسعاه إلى تحقيق مآربها، ومن أجل ذلك كانت في أحيان كثيرة تنقلب حتى على الخلفاء الذين ساعدتهم في الوصول إلى منصب الخلافة إذا أحسّت من أحدهم ميلا إلى أعدائهم التقليديين وأعني بهم البربر أو من يواليهم.

من خلال تتبع أحداث الفتنة نلاحظ التدخل المستمر لهؤلاء العرب في تسيير الأمور وذلك إما بمعارضتهم الشديدة لأي صلح مع المغاربة أو عن طريق التخلص من الخلفاء بمجرد قيامهم بأي عمل يدل على ميلهم إلى الطرف المضاد حتى وإن كان مسالما من ذلك مثلا قيامهم على المستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام الذي بايعوه في السادس عشر من رمضان سنة 414هـ (1023م) بسبب إكرامه لوفد من البربر قدم عليه وبلغت بهم الجرأة إلى حدّ قتل الضيوف والخليفة في يوم السبت الثالث من ذي القعدة سنة 414هـ (1024م)[1].

4 - **الصقالبة ومحاولة استعادة نفوذهم**: بدأ استخدام الصقالبة منذ أيام الأمير الحكم الربضي بن هشام، ونتيجة لذلك تزايد عددهم وبخاصة في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله حيث بلغ عدد الرجال منهم 3750 فردا[2].

لقد صار هؤلاء الصقالبة يشكلون طبقة جديدة في المجتمع الأندلسي، ونالت هذه الطبقة الاجتماعية امتيازات واسعة نظرا للمراكز الهامة التي كانت تحتلها، ويؤكد

(1) ابن الخطيب - نفس المصدر - ص 135 / ابن عذاري - نفس المصدر - ج 3 ص 138.

(2) ابن الخطيب - نفس المصدر - ص 40.

ذلك ابن الخطيب فيقول: إن الصقالبة كانوا "مستأثرين بما خلف حجاب القصر، وكانوا ينيفون عن الألف، فيهم الأكابر المسمون بالخلفاء، زهاء عشرين فتى، يجرون دنيا الملوك العظام، يتقدم الجماعة فائق وجودر"،[1] ويؤكد ذلك ابن عذاري فيقول: "كان الصقالبة أكثر جمعا وأحدّ شوكة، يظنون أن لا غالب لهم وأن الملك بأيديهم وكانوا نيفا على ألف مجبوب، فحسبك ما يتبعهم، وكان رأسهم فائق المعروف بالنظامي صاحب البرد والطراز، ويليه صاحبه جودر صاحب الصاغة والبيازرة،[2] وإليهما كان أمر الغلمان الفحول بخارج القصر"[3].

لقد إهتم الناصر ومن بعده الحكم المستنصر بالصقالبة، فاستكثروا منهم وكانوا خاصتهم كما كلفوهم بالكثير من المهام ومنها قيادة الجيوش، ويرجع السبب في ذلك إلى رغبتهم في التخلص من هيمنة البيوتات العربية على كافة المناصب السياسية والإدارية والعسكرية.

حاول هؤلاء الصقالبة عند وفاة الحكم المستنصر الاستئثار بالحكم من خلال تعيين خليفة يسير في ركبهم ويتعلق الأمر بالمغيرة بن عبد الرحمن الناصر ولكنهم فشلوا في تحقيق ذلك، إذ تمكن محمد بن أبي عامر من قتل مرشحهم وكبح جماحهم، وذلك من خلال قتل البعض منهم، ونفي البعض الآخر من قادتهم[4].

نتيجة لذلك كله كان هؤلاء الصقالبة أيضا من الناقمين على الحكم العامري، ولذلك سيكون لهم شأن كبير خلال الفتنة الأندلسية إذ بايعوا المهدي، وكانوا من بين أفراد جنده، وكان لزعمائهم دور كبير في الصراع الدائر بين المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار وأتباعه من جهة، والبربر من جهة أخرى، وسبق أن رأينا كيف أن واضح

---

(1) نفسه - ص 60.

(2) البيازرة مفرده البيزر، وهو حامل البازي (نوع من الصقور)، ويقصد به المكلف بتربية هذا الطائر المخصص للصيد من طرف الخليفة. المنجد في اللغة والأعلام - ص 36/ L.Provençal. opcit. T II. P 129.

(3) ابن عذاري - نفس المصدر - ج 2 ص 259.

(4) نفسه - ج 2 ص 263.

الفتى صاحب مدينة سالم كان سببا في ثورة البربر عندما فرض عليهم حصارا اقتصاديا، وكيف أنه جنّد النصارى وتنازل لهم عن الكثير من المدن والحصون مقابل محاربة المغاربة.

إلى جانب واضح الفتى، كان خيران ومجاهد العامريان من بين أبرز الصقالبة خلال هذه الفتنة، وكانا وراء تعيين المرتضى في منصب الخلافة وقيادة حملة عسكرية كان هدفها القضاء على الخليفة الإدريسي المتواجد بقرطبة، وفي طريقهم إليه حاولوا إلحاق ضربة بالبربر المقيمين بغرناطة رغم توقفهم عن المشاركة في أحداث الفتنة، واكتفائهم بحكم غرناطة التي أسسوا بها إحدى أبرز ممالك الطوائف.

5 - **رغبة الذلفاء في الأخذ بثأر ولدها:** من بين الأسباب البعيدة لقيام الفتنة الأندلسية الرغبة الحثيثة التي أبدتها الذلفاء أم عبد الملك المظفر بن محمد بن أبي عامر في الأخذ بثأر ابنها.

لقد اتهمت الذلفاء زوجة المنصور محمد بن أبي عامر عبد الرحمن شنجول بقتل ولدها، ويؤكد ذلك ابن عذاري فيقول: "إنه احتيل عليه بشربة دسّت له مسمومة من قبل أخيه عبد الرحمن بيد أحد خدم عبد الملك المظفر، فاضت نفسه منها"،[1] ويؤيده في ذلك ابن الخطيب الذي يقول: "وكان من قدر الله أن اتهمت أمه الذلفاء، حظية المنصور بالتدبير عليه وقتله بالسّم، أخاه عبد الرحمن المتأمّر بعده"[2].

نتيجة لذلك حقدت عليه، وسعت للأخذ بثأرها منه، ومن أجل تحقيق ذلك اتصلت ببني مروان أعداء قومها، وشجعتهم على القيام عليه، واسترجاع ملكهم المغتصب، وكان الواسطة بين الطرفين بشرى الصقلبي الذي كان في صباه مملوكا لبني مروان ثم انتقل إلى الخدمة عند آل أبي عامر، ومع ذلك لم يتخل عن التشيع لبني أمية.

كلفت الذلفاء هذا الصقلبي بالاتصال بأبناء الناصر وتحريضهم على الثورة ضد عبد الرحمن شنجول وإبلاغهم بأنها مستعدة لتوفير الأموال التي يحتاجون إليها من

---

(1) نفسه - ج 3 ص 37.

(2) ابن الخطيب - نفس المصدر - ص 109.

أجل تحقيق ذلك مقابل الأخذ لها بثأرها وثأر ولدها.

وجّه المروانيون بشرى الصقلبي نحو محمد بن هشام بن عبد الجبار الذي قتل والده على يد المظفر عبد الملك بن محمد بن أبي عامر رفقة وزيره عيسى بن سعيد في سنة 397هـ (1006م)،[1] وأعلموه بأنه ثائر جسور مخاطر، وقد بلغهم أنه طلب هذا الأمر منذ مقتل أبيه على يد العامريين، ومن أجل تحقيق ذلك اجتمع إليه عدد كبير من شرار الناس واعلموه بتأييدهم له في طلبه لكرسي الخلافة.

إتصل الخادم الصقلبي بمحمد بن هشام، ونقل إليه من الذلفاء أم المظفر ما قوى عزمه، وحمل إليه من قبلها ما قوي به على أمره، وعقب ذلك استظهر بسائر ولد أبيه الناصريين وسائر المروانيين؛ فجدّوا في مساعدته ودعمه وكلمتهم يومئذ في بغض العامريين متفقة، وبايعوه سرّا، ثم قام محمد بإرسال جماعة من دعاة أبيه فاستمالوا عددا كبيرا من الموالين للحاجب عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر[2].

تمكن محمد بن هشام بن عبد الجبار بفضل الدعم المالي الذي قدمته الذلفاء من تجنيد عدد كبير من الرجال الذين نجح بواسطتهم في الإستيلاء على السلطة، والفتك بالحاجب العامري، وبذلك وضع حدا للإستبداد العامري، وبعث من جديد ملك بني أمية فعليا في العدوة الأندلسية، ولكنه في الوقت ذاته فتح أبواب الفتنة التي ستزجّ بالأندلس في نفق مظلم ميّزه الإقتتال بين المسلمين، وتدمير ما أنجزوه سابقا من بناء وعمران، إضافة إلى أن هذه الفتنة ستعصف نهائيا بالحكم الأموي، وتؤدي إلى إنهاء الخلافة الأموية، واقتسام الأندلس فيما بين عدد كبير من الممالك الصغيرة المتحاربة فيما بينها والمستعينة بالنصارى على بعضها البعض.

هذه حسب رأينا هي أبرز الأسباب التي أدت إلى قيام الفتنة الاندلسية، وسنعود إلى ذات الموضوع عند محاولتنا تحديد المسؤولين عن التدمير الذاتي الذي شهدته دار

---

(1) ابن عذاري - نفس المصدر - ج 3 ص 33 - 35 / النويري - نهاية الأرب - ص 128.

(2) نفسه - ج3 ص52 - 53/ ابن الخطيب - نفس المصدر - ص109 /النويري - نفس المصدر - ص 128.

الإسلام في بلاد الأندلس، ولكننا قبل ذلك سنتطرق إلى موقف البربر من الفتنة الدائرة رحاها في قرطبة بصفة خاصة، ودورهم في سير أحداثها لنصل في آخر المطاف إلى استجلاء حقيقة الموقف البربري، وبالتالي تأكيد أو تفنيد ما ذهبت إليه بعض المصادر، وبخاصة تلك التي ألفها المؤرخ الأندلسي ابن حيان، والتي حمّلت المغاربة مسؤولية ما جرى في العدوة الأندلسية، وتبعتهم في ذلك مؤلفات المؤرخين المعاصرين الذين حمّل بعضهم البربر مسؤولية ما حدث بالأندلس من قتل وخراب ودمار، والذي لم يستفد منه إلاّ النصارى المتربصين بالمسلمين والساعين إلى طردهم من العدوة الأندلسية.

الفصل الثاني

موقف البربر من الفتنة ومحاولة تحديد المسؤوليات

أ - موقف ودور البربر في فتنة القرن الخامس الهجري.

ب - محاولة تحديد المسؤوليات في قيام الفتنة الأندلسية.

لعب البربر دورا هاما في تاريخ بلاد الأندلس وبخاصة في المجال العسكري حيث ساهموا كما عرفنا سابقا بقسط كبير في فتح بلاد الأندلس، وفي قيام الإمارة الأموية بها، إضافة إلى دورهم الكبير في الجهاد ضد النصارى، والتصدي لغاراتهم على دار الإسلام، وبخاصة في عصر الخلافة حيث أصبح الاعتماد عليهم في ذلك بشكل كبير.

إزداد الاعتماد على البربر في عهد المنصور محمد بن أبي عامر الذي عمل على تشكيل جيش جديد يدين له بالولاء التام، ذلك أنه "توقع من أجناده الاتفاق على بعض ما يخلّ بدولته إذ كانوا صنفا واحدا، وتألبهم على معصية أمره متى أمر بما أحبوا أوكرهوا"، وبهدف منع حدوث ذلك "سوّل له رأيه أن تكون أجناده قبائل مختلفة وأشتات متفرقة، إن همّ أحد الطوائف بخروج عن الطاعة غلبها بسائر الفئات"[1]

لقد كان نظام الجيش الأندلسي قبل وصول المنصور إلى قمة هرم السلطة

---

(1) عبد الله بن بلقين - كتاب التبيان - ص 57.

مرتبطا بنظام الأرض، حيث كان يتم إقطاع كور معينة للأجناد العرب خاصة، فيقيمون فيها؛ ويستغلون أراضيها؛ ويقدمون مقابل ذلك عددا معينا من الرجال، ويتناسب هذا العدد مع حجم الكورة، وعندما جاء محمد بن أبي عامر انتهج نظاما جديدا جعل فيه الجيش يضم أفرادا ينتمون إلى عدة قبائل، ويعتمدون في معاشهم على رواتب يؤديها لهم مشاهرة، وكان يسعى من وراء ذلك إلى جعل هذا الجيش يشعر بالانتماء إليه، والطاعة العمياء له.

أصبح البربر يشكلون العمود الفقري لهذا الجيش الجديد، وبواسطته تمكن المنصور من فرض هيمنته على بلاد الأندلس، كما حقق الانتصار في كل الغزوات التي جرّدها ضد أعدائه، وبخاصة ضد الممالك المسيحية في الشمال.(1)

ومن أجل دفع رواتب الجند، "اتفق المنصور مع زعماء البيوتات العربية المقطعة على أن يشتغلوا بعمارة أرضهم، ويعطون من أموالهم كل عام ما يقيم به من أجناد على اتفاق ورضى منهم، فضرب عليهم الإقطاع؛ وحصّل في الدواوين جميع أموال الناس وكسرها عليهم، وفرض بينهم مالا يرتزق منه الجيش".(2)

نتيجة لهذه السياسية التي اتبعها المنصور بن أبي عامر، توافد عليه عدد كبير من المغاربة، وصاروا العدّة في الجيش؛ والموثوق بهم عند اللقاء؛ ومعترك الوغاء".(3)

استمرّ هذا الوضع في عهد ولديه المظفر عبد الملك وعبد الرحمن شنجول، وهو الأمر الذي جعل جلّ العرب عامة، وأهل قرطبة خاصة ينظرون إلى المغاربة نظرة حقد وكراهية، وسيتجلى ذلك بوضوح خلال الفتنة التي قامت بمدينة قرطبة بداية من سنة 399هـ (1008م).

---

(1) النويري - نهاية الارب - ص 122 - 123/ ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 65 - 66/ الفتح بن خاقان - مطمح الانفس - 388 - 389/ ابن عذاري - نفس المصدر - ج2 ص 279.

(2) عبد الله بن بلقين - نفس المصدر - ص 58.

(3) نفسه - ص57/ ابن الخطيب - نفس المصدر - ص 66.

فماذا كان موقف البربر عند قيام هذه الفتنة؟ وما هو دورهم في سير أحداثها؟

ذلك ما سنحاول الإجابة عليه من خلال تتبع الأحداث التي جرت ببلاد الأندلس بداية من التاريخ المذكور آنفا، ولكن مع التركيز على موقف البربر بالنسبة لتطورات الفتنة.

تجمع المصادر التاريخية المغربية والأندلسية على أن محمد بن هشام بن عبد الجبار بقيامه على عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر والخليفة هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر قد فتح أبواب الفتنة[1] التي ستعاني منها العدوة الأندلسية طيلة أزيد من ثلاث وعشرين سنة، فما هو الموقف الذي اتخذه البربر عند قيام هذه الفتنة؟ وماذا كان رد فعلهم بعد بلوغ خبر قيام المهدي على الخليفة الأموي إلى أسماعهم؟

لقد كان البربر عندما وصل خبر قيام محمد المهدي بقرطبة ومبايعة أهلها له مع الحاجب عبد الرحمن شنجول الذي كان قد خرج بهم وتوجه نحو الشمال بهدف محاربة النصارى، وكان المغاربة يشكلون معظم الجند الذي خرج معه من قرطبة سنة 399هـ، ورؤساءهم يومئذ زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي وبنو ماكسن بن أخيه، ومحمد بن عبد الله البرزالي، ويصل بن حميد المكناسي، وزيري بن عرابة المطماطي وأبو زيد بن دوناس اليفرني، وعبد الرحمن بن عطاف اليفرني وأبو نور بن أبي قرّة اليفرني، وأبو الفتوح بن ناصر وخزرون بن محصن المغراوي وبكساس بن سيد الناس ومحمد بن ليلى المغراوي فيمن إليهم من عشائرهم".[2]

ولما بلغه خبر قيام المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار بقرطبة، قام عبد الرحمن شنجول المتواجد آنذاك في قلعة رباح الواقعة بين عاصمة الخلافة ومدينة

---

(1) سنعود لاحقا إلى موضوع المسؤول عن إشعال نار الفتنة الأندلسية، ومختلف الآراء المتعلقة بذلك.

(2) ابن خلدون – نفس المصدر – ج 7 ص 324 - 325.

طليطلة[1] يستحلف الجند على نصرته ضد القائم عليه، وأول من طلب منه ذلك محمد بن يعلى الزناتي، فدنا هذا الأخير منه وسأله كاتب شنجول: "أتحلف لولى العهد أنك تنصره ولا تخذله"، وكان عبد الرحمن في هذه الأثناء صامتا لا يستطيع الكلام نتيجة لما شرب من خمر، فقال الزعيم البربري: "نحن تحت بيعة تقدمت في أعناقنا"، وألحّ عليه الكاتب؛ "فحلف له حلفة مكره وغموس"، ولكنه عندما خرج ولقي ابن عمه بكساس بن سيد الناس وجماعة من وجوه زناتة، اختلى بهم في خندق، وتعاهد الجميع على التخلي عن شنجول، وترك القتال عنه.[2]

لقد قرر البربر سرّا التخلي عن عبد الرحمن شنجول لأنهم لم يجدوا فيه الخصال الواجب توفرها فيمن يريد أن يقود الأندلس، وسيشرعون في تنفيذ قرارهم عند اقتراب الحاجب العامري من العاصمة، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح هو، هل اتخذ البربر هذا الموقف لأن عبد الرحمن لم يكن الرجل المناسب لتولي حكم الأندلس أم أن هناك أسباب أخرى جعلتهم يتخلون عنه؟

عندما خرج المغاربة مع حاجب هشام المؤيد وولي عهده، تركوا في مدينة قرطبة أهلهم وممتلكاتهم، وعندما وصلتهم الأخبار المتعلقة بقيام المهدي ومبايعة أهل الحضرة له خافوا على ما تركوا فيها، كما أيقنوا بعدم قدرتهم على قتال أنصار المهدي، لذلك كله رأوا أن الحل الأمثل هو التخلي عن قائدهم الأعلى، والعودة إلى العاصمة ليكونوا بالقرب من أهلهم وممتلكاتهم.[3]

إلى جانب الأسباب السالفة الذكر، يوجد دافع آخر جعلهم يتخلون عن شنجول، ذلك أنهم اعتقدوا أن محمد بن هشام لم يقم ضد الخليفة هشام وإنما كان داعيا له، وبالتالي فإن الحركة التي قام بها لم تكن تهدف سوى إلى التخلص من الاستبداد العامري، وإعادة السلطة الفعلية إلى بني أمية.

---

(1) الحميري أبو عبد الله - الروض المعطار - ص 163.

(2) ابن عذاري - نفس المصدر - ج 3 ص 67.

(3) نفسه - ج 3 ص 67.

هذه الأسباب مجتمعة جعلت البربر يتفقون على التخلي عن عبد الرحمن، والالتحاق بديارهم، وشرعوا في تنفيذ قرارهم بمجرد وصولهم إلى منزل هانئ القريب من مقر الخلافة، حيث "نزع عنه عامة البربر، فسار إلى قرطبة أبو زيد بن دوناس اليفرني في جماعته، وزيري بن عرابة المطماطي، وحباسة بن ماكسن بن زيري الصنهاجي في جماعته من إخوانه، وتوالى الناس يتبع بعضهم بعضا، ووصل أبو العباس بن ذكوان قاضي الجماعة ووجوه الصقالبة العامريين ووجوه الأندلس"،[1] ونتيجة لذلك صار شنجول في نفر يسير من حرمه وحشمه، ومعه عدد من النصارى.

إلتحق البربر جميعا بالمهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار، وأعلنوا مبايعتهم له، فماذا كان ردّ فعله تجاه ذلك؟ وماذا كان ردّ فعل عامة قرطبة وبخاصة الموالين لبني أمية منهم تجاه المغاربة؟

تحدث ابن خلدون عن موقف أهل قرطبة وبخاصة الموالين للبيت المرواني منهم فقال: "كانت الأموية تعتدّ عليهم ما كان من مظاهرتهم العامريين، وتنسب إليهم تغلب المنصور وبينه على أمرهم"، ولذلك كله "سخطتهم القلوب وخزرتهم العيون، وتنفست بذلك صدور الغوغاء من أذيال الدولة، ولفظت به ألسنة الدهماء من المدينة".[2]

إن ابن خلدون الذي أوردنا كلامه وغيره من المؤرخين يجمعون على أن العرب كانوا يكنون حقدا دفينا تجاه البربر، وقد ذكرنا سابقا بعض النصوص التي أوردها هؤلاء، والتي تثبت ذلك عند حديثنا عن المكانة الاجتماعية للمغاربة في بلاد الأندلس، ولقد تأكد هذا الحقد بعد قيام الفتنة في سنة 399هـ، وكان المشجع عليه محمد المهدي، ذلك أنه وعوضا عن قبول البربر، وإدخالهم ضمن قواته والاستعانة بهم في مصلحة الدولة كما فعل أسلافه، أظهر موقفا معاكسا لذلك حيث ناصبهم

---

(1) نفسه - ج 3 ص 70 - 71.

(2) ابن خلدون - نفس المصدر - ج 7 ص 324 - 325.

العداء، واتبع معهم سياسة الإهانة والإيذاء عقابا لهم على وقوفهم إلى جانب المنصور بن أبي عامر وولديه من بعده، وبخاصة المظفر عبد الملك قاتل أبيه هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر.

كان من الواجب على المهدي بصفته الحاكم الأعلى لبلاد الأندلس أن ينتهج معهم، باعتبارهم جزءا من المجتمع الأندلسي، سياسة أخرى تقوم على قبول ولائهم، والاعتماد عليهم لإعادة الأندلس إلى سابق عهدها من القوة والمجد، خاصة وأن هؤلاء البربر قد جاءوا إلى هذه البلاد من أجل الارتزاق، وذلك عن طريق العمل في المجال العسكري، وفي هذا الإطار شاركوا في الجهاد ضد النصارى، وقد أبلوا في ذلك بلاء حسنا، ولا يتحملون أية مسؤولية في تغلب المنصور على بني أمية لأن هدفهم كان خدمة الدولة، وتنفيذ ما أمر به قائدها الأعلى، والدليل الذي يثبت ذلك هو تخلّيهم عن ابن المنصور بن أبي عامر عند ما طلب منهم مساعدته في قتال المهدي وأهل قرطبة.

لقد كان موقف ابن عبد الجبار العدائي سببا في الكثير من الأذى الذي لحق بالبربر، ولم يقتصر هذا العداء على عقليات العامة البسيطة بل تجاوزه إلى العلماء والمشايخ الذين لم يقلوا عن العامة تعصبا وحقدا على المغاربة؛ فأحد العلماء "استقبلهم شاهرا سيفه يناديهم، إلي يا حطب النار، طوبى لي إن كنت من قتلاكم"،[1] كما اعتبر أهل الأندلس وبخاصة منهم العلماء شهيدا كل شخص قتل على أيدي المغاربة، فهذا ابن بشكوال يتحدث عن أحد العلماء بقوله: "ثم ختم الله له آخر ذلك بالسعادة فقتله البرابرة يوم تغلبهم على قرطبة".[2]

ومن ذلك أيضا ما نقله أبو محمد علي بن أحمد، وهو يتحدث عن أبي الوليد عبد الله بن محمد الفرضي حين يقول: "فأخبرني من رآه بين القتلى ودنا منه فسمعه يقول: بصوت ضعيف وهو في آخر رمق "لا يكلم أحد في سبيل الله، والله أعلم بمن

(1) ابن بشكوال - كتاب الصلة - ج 2 ص 46.

(2) نفسه - ج 2 ص 460.

يكلم في سبيله إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثعب دما، اللون لون الدّم، والريح ريح المسك"،[1] كأنه يعيد على نفسه الحديث الوارد في ذلك، قال: ثم قضى نحبه على إثر ذلك.[2]

عمل خليفة قرطبة الجديد على النيل من البربر فأمر ألا يركبوا خيلا ولا يحملوا سلاحا، كما أساء معاملتهم، ولم يفرّق بين زعمائهم وعامتهم، وأبرز مثال على ذلك ما جرى لزعيم صنهاجة زاوي بن زيري بن مناد الذي "حبسه جند المهدي عند باب القصر مدّة لا يفرج له ولا يعرف مكانه، وكلما همّ بالاستقدام ردّوه وقرعوا رأس فرسه، فلما أكثروا عليه جعل يقول: هذا الرأس فاضربوا فالدابة لا ذنب لها".[3]

كانت هذه المعاملة السيئة التي عومل بها زعيم صنهاجة - التي كان أبناؤها المتواجدين ببلاد الأندلس من بين أبرز الفرسان في الجيش، وكثيرا ما كان لهم الدور الحاسم في المعارك التي خاضها حكام قرطبة ضد النصارى، تلك المعارك التي استفاد منها أهل الأندلس من خلال الغنائم التي كان هذا الجيش يغنمها عقب الانتصارات المتتالية التي حققها على الممالك النصرانية - بداية لسلسلة من الاعتداءات التي طالت البربر وممتلكاتهم.

ففي يوم الرابع من رجب سنة 399هـ (1008م) نهبت العامة دور بني ماكسن بن زيري، ودورا لبني زاوي بن زيري، ودور كثيرة لجماعة من البربر

---

(1) رواه البخاري وقال: حدّثنا عبد الله بن يوسف: أخبرنا مالك بن أبي الزّناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم مبتورا من العبارة "و جرحه يثعب دما " (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي - صحيح البخاري - كتاب الجهاد والسير - باب من يخرج في سبيل الله ضبطه وخرّج أحاديثه مصطفى ديبا البغا - موفم للنشر - الجزائر - دار الهدى - عين مليلة - 1992م - ج3 ص1032 رقم 2649/ السيد سابق - فقه السنة - دار الكتاب العربي - بيروت - ط8 - 1407هـ - 1987م - ج3 ص18.

(2) الحميدي - جذوة المقتبس - ص 223.

(3) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 3 ص 75.

بالرصافة[1]، وهي من أرباض قرطبة وتقع في الجهة الجوفية منها.[2]

قال إبراهيم بن القاسم: "وكان سبب ذلك أن محمد بن عبد الجبار برداءته وسوء تصرفه قال في ذلك اليوم: لا يركب أحد من الغزاة ولا يحمل سلاحا ولا يأت القصر، واتفق أن ركب زاوي بن زيري في جماعة معه فردّوا عن باب القصر، وانصرفوا على غاية الذلّ، وانثال حينئذ جند من السّفال على دور البربر فنهبت دور بني ماكسن بن زيري ودور لبني زاوي بن زيري ودور كثيرة لجماعة من البربر بالرصافة، وعندما بلغ ذلك صاحب المدينة، ضرب رقاب ثلاثة من الذين اشتركوا في النهب".

وطلب زعماء البربر مقابلة الخليفة؛ فاستقبل وفدا يضم زاوي بن زيري ومعه حبوس وحباسة ابني ماكسن بن زيري وأبو الفتوح بن ناصر، وأخبره هؤلاء بما جرى لهم على أيدي جنده فاعتذر لهم عن ذلك، ووعدهم بتعويض ما نهب منهم، كما أصدر أمره بضرب أعناق بعض المتهمين بأعمال النهب التي مسّت المغاربة.[3]

استمرّ جند المهدي وعامة قرطبة في أعمالهم العدائية تجاه البربر، وبخاصة بعد فشل المحاولة التي قام بها أحد الأمويين ضد المهدي، ويتعلق الأمر بهشام بن سليمان بن الناصر الذي قام على الخليفة يوم الخميس الخامس من شوال سنة 399هـ، والتفّ حوله جملة من البربر وجماعة من الجند الذين أسقطهم المهدي من الجيش الأندلسي.[4]

دارت الحرب بين جند الخليفة وأتباع هشام طيلة يومين متتالين، وانتهت بانتصار المهدي وفرار الموالين لعدوه إلى خارج مدينة قرطبة، ومن جملة الفارين البربر،[5] وأعقب ذلك نهب دور جماعة من خواص هشام بن سليمان كما نهبت دور

---

(1) نفسه – ج 3ص 75.
(2) الحميري – الروض المعطار – ص 78.
(3) ابن عذاري – البيان المغرب – ج 3ص 75 – 76.
(4) أعمال الأعلام – ص113/ نهاية الارب – ص135 وينفي ابن عذاري مشاركة البربر في المحاولة التي قام بها هشام – البيان – ج3 ص79.
(5) ابن الخطيب – نفس المصدر – ص113/ النويري – نفس المصدر – ص 135/جذوة المقتبس – =

المغاربة، ولم تسلم منها إلا الدور التي حال غروب الشمس بينها وبين جند المهدي.[1]

انتقل البربر إلى أرملاط الواقعة بالقرب من قرطبة عشية يوم الجمعة بعد محاورة دارت بينهم وبين العامة،[2] وكانت هذه المحاولة التي قام بها المغاربة لإيقاف الظلم والعدوان المسلطين عليهم، والتي باءت بالفشل على ما يبدو، البداية الحقيقية للصراع القائم بقرطبة بينهم وبين عامة العاصمة، والذي سيزيد ابن عبد الجبار في إذكاء ناره بتصرفاته وإجراءاته الانتقامية، من ذلك أنه أمر أن ينادي عقب ذلك في الناس أنه من أتى برأس بربري فله كذا.[3]

لقد أصبحت رؤوس البربر بثمن، وأصبح بإمكان جند المهدي وأهل قرطبة أن يحققوا أمانيهم المتمثلة في الانتقام من المغاربة، وبالفعل فقد شرع أهل المدينة في قتل كل من قدروا عليه، واشترك في هذا العمل غالبية عناصر المجتمع القرطبي.

قام أهل قرطبة من جرّاء ذلك بارتكاب مجازر ذهب ضحيتها عدد كبير من الأشخاص الذين يشتركون معهم في الانتماء إلى دين الإسلام، دين الأخوة والتسامح، من ذلك أنهم "دخلوا على وسنار البرزالي وكان ممن له أثار جميلة في الجهاد فذبحوه على فراشه، ودخلوا على رجل صالح فذبح في داره، ونهبوا ديار البربر، وهتكوا أعراض حريمهم، وسبوا نساءهم وقاموا ببيعهن في دار البنات، وقتلوا النساء الحوامل".

إن هذه الأعمال الشنيعة تعبر فعلا عن الحقد الذي أصبح يميز أهل قرطبة تجاه كل من هو بربري، بل في أحيان كثير ذهب ضحية هذا الحقد من لم تكن له علاقة بالأندلس قبل هذا التاريخ، من ذلك أن أتباع المهدي "قتلوا سبعة عشر رجلا من أهل تلمسان قدموا للغزو في ساعة واحدة، وأخرجوا مسلم بن عبد الله الحسني من داره وقتلوه، ولم يكتفوا بذلك بل ربطوا حبلا في رجله وجرّوه إلى حفرة تقع بجوار داره

=

ص22/ المعجب - ص 65.

(1) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص81/ ابن الخطيب - نفس المصدر - ص 113.

(2) نفسه - ص 113.

(3) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص 81/ النويري - نهاية الأرب - ص 135.

تعرف بحفرة طالوت فألقوه فيها، ونهبوا داره وفضحوا بناته وعياله، وقتلوا قوما من أهل خراسان والشام اعتقدوا أنهم من البربر".(1)

نتيجة لهذه الأعمال الانتقامية المرتكبة من قبل أهل قرطبة، اضطر كثير من المغاربة إلى الاختفاء عند من يثقون بهم من أهل العاصمة إلى أن ألغى محمد بن هشام قراره حيث نادى مناد له بضرب عنق كل من تسوّل له نفسه الاعتداء على بربري أو التعرض له، وعلى إثر ذلك كفّ الناس عنهم، "وأحضر جماعة من البربر منهم محمد بن يعلى المغراوي ويصل بن حميد ونفر من بني عمهما وجماعة من البربر إلى المهدي فألبسهم القلانس والأردية وأمرهم أن يغيروا زيهم وأن يتزيوا بزي جار وبخلع العمائم ففعلوا، ودخلوا عليه في ذلك الزي".(2)

أصبح البربر كما نلاحظ مجبرين على التخلص من لباسهم المميز لهم ليسمح لهم بالحياة بين أهل قرطبة، والاندماج في المجتمع الأندلسي أصبح مشروطا بالتخلي عن ملامح الشخصية المغربية، والغريب في الأمر هو أن الذي طلب منهم ذلك لم يكن سوى الحاكم الأول للعدوة الأندلسية الذي كان من المفروض أن يوفر الأمن لكافة رعاياه مهما اختلفت أشكالهم وملامحهم الخارجية.

إن تغيير الزي الخارجي الذي فرضه المهدي على البربر يؤكد شيئا واحدا هو أن زمام الأمور لم تكن بيده، وإنما بأيدي جنده وعامة قرطبة الذين أصبحوا يتصرفون كما يشاؤون، وبالتالي أصبحوا يقودون قاطرة الأندلس شيئا فشيئا نحو الاقتتال بين الإخوة والدمار الذاتي.

نتيجة لكل ما لحق بهم من أذى في أنفسهم وممتلكاتهم وحتى هويتهم اضطرّ البربر إلى مغادرة قرطبة - تلك المدينة التي كانوا يدخلونها دخول الأبطال عقب العودة من الغزوات التي كانوا يقومون بها ضد النصارى في الشمال، ويستقبلون بحفاوة كبيرة من قبل أهلها في وقت ليس بالبعيد كثيرا وهم محملين بالغنائم - علّهم يجدون مواطن

---

(1) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص81 / النويري - نهاية الأرب - ص 135.

(2) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص 82.

أخرى بالعدوة الأندلسية تفتح لهم أبوابها وتسمح لهم بالعيش في كنف السلم والأمن، فهل سيعثرون على ذلك الموطن الآمن؟

اجتمع البربر في أرملاط وقرروا التوجه نحو الثغر الأوسط من أجل التخلص من بطش أهل قرطبة، وفي تلك الأثناء تغيرت سياسة المهدي تجاههم حيث أرسل إليهم مبعوثا يعلمهم بأن الخليفة يؤمنهم عل حياتهم وممتلكاتهم، ولكنهم لم يردوا على ما عرض عليهم، ومع ذلك لم ييأس المهدي من استجابتهم لعرضه حيث كلف البكري، وهو أحد وزرائه بالسير في قرطبة وأرباضها لإبلاغ الناس بأن أمير المؤمنين "قد عفا عن البربر على أن يرجعوا إلى بلادهم فيصيروا حرّاثين كما كانوا".[1]

إن التحول الذي حدث في سياسة المهدي تجاه البربر يؤكد بأنه بدأ يشعر بارتكاب خطأ فادح عندما أساء إليهم وسمح للعامة وجنده بالاعتداء عليهم وعلى ممتلكاتهم خاصة وأنهم أولي بأس وشدة، فخشي انقلابهم ضده، وبخاصة إذا استعان بهم أحد الطامحين إلى القيام بمثل ما قام به من انقلاب على الخليفة الشرعي والإطاحة به والحلول بمكانه، كما أن اشتراطه تأمين البربر مقابل عودتهم إلى خدمة الأرض يدل على أن قسما من المغاربة كانوا يمارسون النشاط الزراعي، وبالتالي فهم الذين يزودون أهل قرطبة بما يحتاجونه من مواد غذائية، ولذلك فإن الاستمرار في معاداتهم والإساءة إليهم سيؤدي حتما إلى التخلي عن ممارسة نشاطهم وهو ما يعني حرمان العاصمة وأسواقها خاصة من التزود بما تحتاج إليه، وما سيترتب على ذلك من أخطار.

رغم إلحاحه على تأمين البربر إلا أن هؤلاء قرروا نهائيا مغادرة قرطبة وأرباضها، وهو ما يؤكد اقتناعهم بأن السلطة الفعلية لم تكن في يد الخليفة وإنما في أيدي أطراف أخرى محيطة به، وهو الاستنتاج الذي نخرج به من خلال الحوار الذي دار بينهم وبين مبعوث آخر للمهدي، ذلك أن "محمد بن هشام قد أرسل عباسا البرزالي إليهم فلحقهم بقلعة رباح وقال لهم: قد أمّنكم أمير المؤمنين أمانا تاما فارجعوا إلى دوركم ومحالكم، فقالوا ليس إلى رجوعنا من سبيل لأنه إن أمّننا لم تؤمننا رعيته،

(1) نفسه – ج3 ص 82/ ابن الخطيب – نفس المصدر ص113.

وإن أمّنتنا عامته لم يؤمننا جنده".[1]

لقد استعمل المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار كل الوسائل من أجل إقناع البربر بضرورة العودة إلى ديارهم بقرطبة وضواحيها، بما في ذلك الاعتماد على إخوانهم لإقناعهم بذلك الأمر، ولكن البربر وبعد ما عانوه من ويلات على أيدي سكان العاصمة لم يعودوا يثقون في أحد، ومع ذلك ما زالوا مصّرين على عدم قتال مناوئيهم من أهل الأندلس.

انقسام المجتمع الأندلسي وبداية الصراع: غادر البربر أرملاط ووصلوا إلى قلعة رباح في آخر شوال سنة 399هـ، وكان من بين المهاجرين معهم سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الذي فرّ من قرطبة عقب قتل عمّه من قبل المهدي طلبا للنجاة فصار في جملة البربر، وعندما عرف هؤلاء حقيقته اجتمعوا إليه وولوه عل أنفسهم وعقدوا له البيعة بالخلافة[2].

إن العمل الذي قام به البربر سيكرّس نهائيا انقسام الأندلسيين إلى فريقين، أحدهما بزعامة محمد بن هشام بن عبد الجبار وقاعدة حكمه قرطبة، وثانيهما بقيادة سليمان بن الحكم ومقره المؤقت قلعة رباح، وسيكون لهذا الانقسام الأثر المدمر على العدوة الأندلسية وأهلها وبخاصة المسلمين منهم.

وصل البربر إلى مدينة سالم وكان بها واضح الفتى قائد الثغر الأوسط، والموالي للمهدي، فطلب منه المغاربة عقد صلح بينهم وبين الخليفة واشترطوا عليه أن يعين سليمان بن الحكم وليا لعهده والاتفاق على ما يكون فيه صلاح الناس جميعا، ولكن واضحا أبى ولم يكتف بذلك بل سعى إلى اعتقال خليفة البربر، حيث كلف جماعة من العبيد العامريين كانوا مع خصومه بتلك المهمة، ولكن المغاربة اكتشفوا أمرهم، وقتلوهم قبل أن يصلوا إليه في خضم المعركة الدائرة رحاها بين الطرفين،

---

(1) ابن عذاري - البيان - ج 3 ص 84 - 85.

(2) نفسه - ج 3 ص 84 / ابن الخطيب - نفس المصدر - ص 113 / النويري - نهاية الأرب - ص 135.

وتمكن خلالها أربعمائة فارس بربري من الالتحاق بإخوانهم بعد انسحابهم من الجيش المرابط بمدينة سالم.

تعتبر هذه المعركة أول مواجهة مسلحة بين البربر وأتباع الخليفة، ومن خلالها نلاحظ دور المحرّض الذي قام به الصقالبة في هذه الأزمة، وبخاصة الدور الذي قام به واضح الفتى الذي لم يكتف برفض دور الوساطة بين الطرفين فحسب بل ساهم بقسط كبير في إشعال فتيل الحرب التي ستأتي على الأخضر واليابس، وخاصة في قرطبة وضواحيها.

وصلت الأخبار المتعلقة بهذه المعركة إلى أسماع أهل قرطبة، واستغلها المهدي لكسب المزيد من الشعبية، ولطمأنة أنصاره على تحكمه في زمام الأمور، أمر بقراءة كتاب "يخبر فيه بأن البربر قتلوا قتلا ذريعا، وأنه سيصل أكثر من ألف رأس من رؤوسهم إلى الحضرة".[1]

لم تكن الأخبار التي روج لها المهدي سوى إشاعات كان الهدف منها كسب تأييد أهل العاصمة من جهة، وتشويه صورة البربر من جهة أخرى باعتبارهم أصبحوا يعتدون على المجتمع الأندلسي برمّته.

وستزداد الأمور تعقيدا بعد هذه المعركة التي دارت بين البربر وقائد الثغر الأوسط بعد القرار الخطير الذي اتخذه واضح، والذي يقضي بفرض حصار اقتصادي على المغاربة حيث "نادى مناديه في سائر الثغور من حمل شيئا من الطعام إلى محلّة البربر فقد حلّ ماله ودمه".[2]

إن هذا الأمر الخطير الذي أقدم عليه واضح الفتى يؤكد العداوة التي كان يكنها الصقالبة للبربر رغم أنهم لم يأتوا إلى هذه المناطق إلا من أجل العيش في كنف الأمن والسلم، ولم يعلنوا الحرب لا على واضح ولا على أي من مدن الثغور إلا بعد ما ناشبهم قائد الثغر الأوسط القتال، وكان ذلك بالنسبة إليهم قضية حياة أو موت.

---

(1) ابن عذاري - البيان - ج 3 ص 85 - 86.

(2) نفسه - ج 3 ص 86 / L.Provençal - opcit. T II. P 308.

كان للحصار الاقتصادي الذي فرضه واضح على البربر نتائج مباشرة على تطور أحداث الفتنة وذلك من خلال إدخال طرف ثالث في النزاع القائم بين المسلمين لحد الساعة ويتمثل هذا الطرف في النصارى.

لقد عانى البربر ويلات الجوع، واضطروا طيلة خمسة عشر يوم إلى أكل حشيش الأرض، وعندما اشتدّ عليهم الأمر، خاصة وأنهم مرفقين بأبنائهم ونسائهم، اضطرّوا مرغمين إلى مراسلة النصارى ليوضحوا لهم أمر العداوة الكائنة بينهم وبين واضح والخليفة من جهة، وليطلبوا منهم عقد صلح معهم من جهة أخرى، وقد سبق أن أشرنا إلى هذا الصلح الذي عقد بين الطرفين[1] عند تطرقنا إلى تطور الفتنة الأندلسية في الفصل الأول من هذا الباب.

لم يكتف محمد بن هشام المهدي وواضح الفتى بتقتيل البربر ونهب ممتلكاتهم، وفرض الحصار الاقتصادي عليهم، بل سعيا كذلك إلى الاستعانة بالنصارى من أجل القضاء عليهم نهائيا، وإزالة وجودهم في بلاد الأندلس.

نظرا لكل هذه الأسباب اضطرّ البربر إلى توقيع الصلح مع النصارى، وكنتيجة لذلك زودهم هؤلاء بما يحتاجون إليه من مواد غذائية، ومعدات حربية لمواجهة خصومهم[2].

وتنفيذا للاتفاق المبرم بين الطرفين سار ابن مامة النصراني كما يسميه ابن عذاري، أوشانجه بن غرسية بن فرذلند كما يسميه ابن الخطيب[3] إلى البربر بنفسه في جمع كبير من النصارى، ثم تحول الجميع نحو مدينة سالم، وعندما وصلوا إليها راسلوا حاكمها وعرضوا عليه الصلح، وكانوا يهدفون من وراء ذلك إلى تفادي القتال مع المسلمين وإقامة الحجة عليهم، ولكن واضح الفتى رفض العرض وتحصن داخل المدينة.

---

(1) ابن عذاري - البيان - ج3 ص86/ ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص113/ - L. Provençal - Opcit. T II p 308.

(2) البيان المغرب - ج 3 ص 86.

(3) نفسه - ج 3 ص 86 / ابن الخطيب - نفس المصدر - ص 113.

واصل البربر سيرهم ووصلوا إلى شرنبة، وهو مكان يقع على مقربة من قلعة النهر أو قلعة هنارس الحالية،[1] وفي هذه الأثناء قام واضح بتجنيد أهل الثغور من أجل محاربتهم، كما أرسل إليه المهدي العسكر بقيادة غلامه قيصر، والتقى الجمعان ودارت بينهما معركة طاحنة بالقرب من قلعة عبد السلام الواقعة بضواحي قلعة النهر، وذلك في شهر ذي الحجة 399هـ (1009م)، وانتهت بانهزام واضح وأسر من كان معه، وقتل البربر بعضهم، وعفوا عن البعض الآخر[2].

كانت المعركة التي خاضها البربر ضد قوات المهدي وواضح فرصة لاقتناء الأسلحة اللازمة لمواجهة جند قرطبة وعامتها، حيث ملكوا "جميع ما كان في عسكر واضح من مال وسلاح وغير ذلك"،[3] كما كانت أول مواجهة حقيقية بين الطرفين، وستكون فاتحة صراع مدمّر سيدفع المسلمون من الجانبين ثمنا فادحا له.

بداية من هذا التاريخ بدأ البربر ينغمسون شيئا فشيئا في الفتنة، وكان ردّهم أعنف مما كان يتصور أهل قرطبة وجندها الذين بادروهم بالعدوان؛ فقتلوا رجالهم وسبوا نساءهم ونهبوا ممتلكاتهم وأخرجوهم من ديارهم، ففي يوم الأربعاء الحادي عشر من ربيع الأول سنة 400هـ (1009/11/3م) نزل البربر في وادي أرملاط - أحد روافد الوادي الكبير - وقاموا بإحراق فندق ابن أبي الأصبغ الوزير والمنية وغيرها من المرافق.[4]

على الرغم مما حدث سابقا، فإن المهدي كان يأمل في إقناع البربر بوضع السلاح، والدخول في طاعته متناسيا أنه كان السبب الرئيس في دفعهم إلى رفع السلاح والتوجه إلى العاصمة من أجل الاستيلاء عليها، ومن أجل تحقيق هدفه كان يستعمل إخوانهم في الاتصال بهم، وهو ما يعني أن فئة من المغاربة لم يغادروا قرطبة، وكانوا إلى حدّ الساعة في موقف الحياد في الصراع الدائر بالأندلس.

---

(1) محمد عبد الله عنان - دولة الإسلام في الأندلس - ع1 ق2 ص 646.

(2) ابن عذاري - البيان - ج3 ص86 - 87./ L. Provençal - opcit. T II p 310.

(3) البيان - ج 3 ص 87.

(4) نفسه - ج 3 ص88 / L. Provençal. Opcit. T II p 310.

طلب المهدي محمد بن هشام من قاضي الجماعة أبي العباس أحمد بن ذكوان أن يسير إلى إخوانه ويكلمهم في هذا الموضوع، ولكنه اعتذر للخليفة، ثم وجه نفس الطلب إلى يصل بن حميد اليفرني لكنه خاف من الخروج إليهم لأنه لم يسر معهم عندما غادروا مدينة قرطبة، ولم يقف إلى جانبهم في مواجهة خصومهم.[1]

من خلال ما سبق يتبين أن هناك جماعة من البربر لم تخرج من عاصمة الخلافة، واضطرت بالتالي إلى التستر داخل منازل من يثقون بهم من الأصدقاء حتى لا يتعرضوا إلى القتل، ولكن وضعهم سيتغير عقب هزيمة جيش واضح والمهدي أمام البربر حيث أمرهم هذا الأخير بالخروج من أرباض قرطبة، ومغادرة الأندلس في اتجاه العدوة المغربية، ومعنى ذلك أن الخليفة يريد التخلص منهم حتى لا يقفوا إلى جانب إخوانهم المرابطين بضواحي المدينة.[2]

إشتد الأمر على هؤلاء البربر لأنهم كانوا يعلمون أنهم إذا ما خرجوا من الأماكن التي كانوا يقيمون بها فسيتعرضون لا محالة إلى القتل، خاصة وأنهم سمعوا بتجمع أهل قرطبة وأرباضها أمام القصر، و"طالبوا بقتل هؤلاء البربر الذين مازالوا يعيشون معهم لأنهم يعتبرون أن هؤلاء مع نساءهم وأولادهم هم أخطر من البربر المتواجدين خارج قرطبة وأرباضها".[3]

نزل البربر كما قلنا سابقا بوادي أرملاط، وبذلك اقترب الخطر من العاصمة مقر الخليفة المهدي الذي سنّ قانون التجنيد الإجباري حيث "نادى مناديه أن يخرج كل من بلغ الحلم من سائر الناس، فلم يتأخر أحد".[4]

إجتمع البربر مع سليمان بن الحكم ونزلوا في سفح جبل يعرف باسم جبل قنتيش[5]، وذلك يوم الخميس الحادي عشر من ربيع الأول سنة 400هـ (3 نوفمبر

---

(1) ابن عذاري - البيان - ج 3 ص 87.
(2) نفسه - ج 3 ص 87.
(3) نفسه - ج 3 ص 87 - 88.
(4) نفسه - ج 3 ص 88 - 89.
(5) وهو موضع يقع شمال شرقي القليعة غير بعيد عن ملتقى وادي أرملاط بالوادي الكبير - ابن =

1009م)، وكان واضح الفتى قد وصل إلى نفس المكان قبلهم بيومين في أجناده من رجال الثغر، وقلده الخليفة أمر الحرب، واحتشد معه الناس القادمون من الكور والبادية وقد لبوا نداء المهدي،[1] وعند هذا الجبل ستقع أول مواجهة حقيقية بين الطرفين المتصارعين.

إضافة إلى الاستنفار العام الذي فرضه خليفة قرطبة، قام هذا الخير أيضا بحفر الخنادق في الضواحي الشمالية للمدينة وبفحص السرادق،[2] وذلك للزيادة في وسائل حماية المدينة أمام الخطر المحدق بها.

بدأت المعركة يوم السبت الثالث عشر من ربيع الأول سنة 400هـ (11/5/ 1009م)، وتميزت بتسرع أهل قرطبة في الهجوم على خصومهم، وبذلك خالفوا قائدهم في الخطة التي وضعها من أجل تحقيق النصر، واستغل البربر ذلك وهم أهل الحرب على عكس جند المهدي الذي كان يتشكل في أغلبيته الساحقة من أفراد لا علاقة لهم البتة بفنون القتال، ويعطينا ابن عذاري صورة توضح ذلك فيقول عن جيش المهدي: "وكان من قواده القصايري الطبيب وابن عامر الوكيل وغيرهما، ومعهم قوم من الحوّاتين والجزارين وأشباههم، قد لبسوا الدروع عليهم والبنود والطبول بين أيديهم، فكانوا فضيحة وضحكة لمن رآهم، والبلد قد غصّت أرباضه ورحابه ومقابره بأهل البوادي والمحشودين من مدائن الأندلس وأقاليمها".[3]

عقب الهجوم الذي قام به جند المهدي محمد بن هشام، والذي يدل على عدم التزامهم بأوامر قائدهم وتوجيهاته، استعمل البربر معهم خطة الفرّ والكرّ حيث انسحبوا من أمام المهاجمين حتى "إذا تمكنوا منهم عطفوا عليهم"، وهاجمهم ثلاثون فارسا منهم فهزموهم، وأدّى ذلك إلى انتشار ذعر كبير في صفوف جند الخليفة وتقهقرهم

=

الأبار - الحلة السيراء - ج2 ص6/ L. Provençal. opcit. T II p 310.

(1) ابن بسام - الذخيرة - ق1 م1 ص43.

(2) ابن عذاري - البيان - ج3 ص 87 / L. Provençal. opcit T II. p 310.

(3) ابن عذاري - نفس المصدر - ج 3 ص 88.

إلى الخلف حيث سقط بعضهم على بعض، ونتيجة للازدحام الكبير تشعبت الطرق بهم؛ فتناشبوا وقتل بعضهم بعضا.[1]

استغلّ البربر الفوضى العارمة التي سادت في أوساط خصومهم، فوضعوا السيوف عليهم بمساعدة حلفائهم النصارى، وقتلوا في هذه الوقعة عالما وأبادوا أمة، ولم يختلف مصير من تمكن من الفرار أمام الزحف البربري النصراني إذ "غرق كثير منهم في الوادي".[2]

إختلفت المصادر حول عدد القتلى من جند الخليفة، وقد سبق أن ذكرنا ذلك عند حديثنا عن المراحل التي مرت بها الفتنة الأندلسية، وتراوح هذا العدد ما بين عشرة آلاف[3] وثلاثين ألفا،[4] ومن المؤرخين من أخذ بالحلّ الوسط؛ فأورد رقم عشرين ألف قتيل،[5] ومهما يكن العدد الحقيقي للقتلى فإن المهم والأخطر في نفس الوقت هو أن هذه الوقعة كانت نقطة تحول في تاريخ الأندلس إذ كرّست نهائيا الفرقة بين البربر وغيرهم من أهل الأندلس، وبخاصة المقيمين منهم في مدينة قرطبة وأرباضها، كما كانت سببا في موت عدد كبير من العلماء والفقهاء وأئمة المساجد والمؤرخين،[6] فضلا على أنها مكنت النصارى من التدخل المباشر في شؤون المسلمين، وبالتالي المساهمة في إضعافهم ليسهل عليهم فيما بعد استرجاع ما أمكنهم من أراضي دار الإسلام، والأخذ بثأرهم منهم على حدّ تعبير ابن الخطيب[7]، ذلك أن النصارى "مالوا يومئذ على المنهزمين من المسلمين فقتلوا منهم في صعيد واحد نيفا على ثلاثة آلاف

---

(1) ابن بسام - الذخيرة - ق1 م1 ص43/ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص89/ L. Provençal opcit T II. p 310.

(2) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص89/ L.Provençal. opcit. T II p 310.

(3) ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص90/ ابن بسام - نفس المصدر - ق1 م1 ص43.

(4) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص113.

(5) الحميدي - جذوة المقتبس - ص22/ابن الابار - الحلة السيراء - ج2 ص6/عبد الواحد المراكشي - المعجب - ص65.

(6) المراكشي - المعجب - ص 66/ الحميدي - جذوة المقتبس - ص 22.

(7) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 113.

رجل".[1]

لقد كانت موقعة قنتيش كارثة كبرى بالنسبة لأهل قرطبة وجندها، فهي فضلا على مقتل الآلاف منهم في خضّم المعركة، قد أدّت إلى تخلي قائد الثغر الأوسط عنهم إذ فرّ في جنح الظلام والتحق بمدينة سالم رفقة رجاله، ونتيجة لذلك انفتحت أبواب قرطبة أمام البربر فانبسطوا في أرضها يقتلون ويأسرون.[2]

أيقن المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار أن أيامه أصبحت معدودة على رأس قرطبة، ولذلك قرر استعمال آخر أوراقه من أجل كسب ودّ البربر وطاعتهم له، فأخرج هشام بن الحكم المؤيد بالله من المخبأ الذي وضعه فيه، وأظهره على شرفة القصر حتى يتسنى للناس رؤيته، ثم أرسل في طلب القاضي أبي العباس بن ذكوان وأمره بالتوجه إلى البربر وإعلامهم بأنه قائم دون هشام المؤيد، وهو نائب عنه كالخليفة والحاجب وبذلك فهو يقر أن هشاما المؤيد هو أمير المؤمنين،[3] وقد عرفنا سابقا رد البربر على هذا العرض عندما تناولنا تطور أحداث الفتنة الأندلسية.

بعد فشله في إقناع البربر بالدخول في طاعته، اختفى المهدي بقرطبة، وفي يوم الاثنين خرج أهل المدينة وكأن شيئا لم يكن منهم إلى سليمان بن الحكم لأداء فروض الطاعة كعادتهم مع كل متغلّب على مدينتهم، وأحسن الخليفة الجديد لقاءهم والردّ عليهم[4].

دخل سليمان قصر قرطبة في السابع عشر من ربيع الأول سنة 400هـ (11/9/ 1009م)، وكان زاوي بن زيري قد سبقه في ذلك بيوم واحد، وأعقب ذلك قيام بعض عبيد البربر بنهب دور من أرباض المدينة فضربت رقاب أربعة منهم، وأدى ذلك إلى استتباب الأمن بالعاصمة وضواحيها.[5]

---

(1) ابن بسام – الذخيرة – ق 1 م1 ص 44.
(2) نفسه – ق1 م1 ص 44/ ابن عذاري – البيان المغرب – ج 3 ص 89.
(3) نفسه ج3 ص89/ ابن الخطيب – أعمال الأعلام – ص 113.
(4) البيان المغرب – ج 3 ص 89.
(5) نفسه – ج 3 ص 90.

رغم معاقبتهم للعبيد الذين أخلّوا بالأمن داخل المدينة، وعدم تعرضهم لأهلها بسوء إلا أن هؤلاء استمروا في عدائهم للبربر حيث كانوا "لا يألونهم إلا شرا وكل من وجدوه منهم في خلوة أو منفردا قتلوه غيلة، وكان البربر إذا دخلوا أسواق قرطبة تخوفوا من العامة، فإن صهل فرس على فرس، قامت نفرة لتعصب العامة عليهم وبغضهم فيهم"، ومع ذلك كله فإنهم لم يردّوا بالمثل على خصومهم بل كانوا "ينهون سفهاءهم وعبيدهم أن يمدّ أحد منهم يده إلى أندلسي".[1]

إن هذا الموقف الحكيم الذي اتخذه البربر رغم المعاناة التي كانوا يعانونها أمام اعتداءات أهل قرطبة يؤكد رغبتهم الأكيدة في إخماد نار الفتنة القائمة، وإعادة استتباب الأمن، وبالتالي يدحض ما كتبه بعض المؤرخين[2] من أنهم كانوا سبب الفتنة وموقدي نارها والمستفيدين من ثمارها، وسنعود إلى هذا الموضوع لاحقا من خلال محاولة تحديد المسؤولية في أحداث الفتنة الأندلسية.

لقد كان بإمكان البربر بفضل الإمكانات المتوفرة لديهم والقوة والشجاعة التي يمتازون بها - وقد أثبتوا ذلك عندما كانوا يشكلون نواة الجيش الأندلسي التي يعتمد عليها في مواجهة الأعداء - القضاء على أعدائهم بسهولة، ولكنهم عوضا عن ذلك صبروا وتحملوا الأذى الذي لحق بهم أملا في أن يكف الطرف الثاني عن العدوان ولكن دون جدوى.

رغم انتصار البربر الساحق على أهل قرطبة وجندها، وسيطرتهم على المدينة إلا أنهم لم يسعوا إلى الانتقام من أهلها الذين سبق وأن أذاقوهم ألوانا من التنكيل والإساءة بل قاموا بتسليط أشد العقوبات على عبيدهم الذين نهبوا بعض الدور التابعة لسكان أرباض عاصمة الأندلس.

موقف البربر من الفتنة بعد عودة المهدي إلى قرطبة: عقب دخول البربر إلى مدينة قرطبة، غادرها المهدي في اتجاه الثغر الأوسط ووصل إلى مدينة

---

(1) نفسه - ج 3 ص 92.

(2) سيرد ذكر هؤلاء المؤرخين عند تطرقنا إلى محاولة تحديد المسؤوليات في قيام الفتنة لاحقا.

طليطلة في نهاية السنة، وبفضل ولاء واضح قائد الثغر نجح في حشد جيش قوامه أربعين ألف جندي منهم تسعة آلاف نصراني من قطلونية، وسار به في اتجاه عاصمة الخلافة الأموية، وعندما وصلت الأخبار المتعلقة بمقدمه "استنفر المستعين بالله الناس وخرج إلى لقائهم في الرابع عشر من شوال عام 400هـ"[1] (ماي 1010م).

كان البربر يشكلون أغلبية الجيش الذي خرج مع سليمان لمواجهة المهدي وجنده وحلفائه من النصارى، ومن أجل تحقيق النصر وضع زعماء القبائل خطة حكيمة حيث جعلوا الفرسان بقيادة سليمان في مؤخرة الجيش، وطلبوا منه أن لا يبرح مكانه مهما كانت مجريات القتال، وقاموا بتوزيع بقية القوات في المقدمة.

بدأت المعركة بتقدم المغاربة نحو عدوهم، وردّ عليهم النصارى بحملة كبيرة جعلت البربر يفرجون عليهم ليتمكنوا منهم عندما يصيروا في وسطهم، وعندما رأى سليمان خيل النصارى وهي تخترق صفوف جنده ظن أنهم انهزموا وفرّ من ساحة القتال رفقة من كان معه من الجند.

كانت الخطة التي انتهجها البربر ناجحة بحيث مكنتهم من محاصرة الإفرنج، ومن ثمّ انقضّوا عليهم وتمكنوا من قتل ملكهم أرمنقول ومائتين من كبار قومه، ولكنهم فوجئوا بمغادرة المستعين لساحة الوغى لأن ذلك قد أدى إلى كشف مؤخرة جيشهم، ونتيجة لذلك اضطرّوا إلى الانسحاب من موقع المواجهة مع جند المهدي وحلفائه، وقصدوا مدينة الزهراء التي استقروا بها حتى لا يجاوروا أهل قرطبة الناقمين عليهم، وبعد وصولهم إليها أخرجوا أسرهم وغادروا المدينة.[2]

يصور لنا ابن حيان ما جرى للبربر عقب موقعة عقبة البقر عن طريق الرواية التي استقاها من أحد المغاربة الذين عايشوا ذلك، ويتعلق الأمر بسعيد المرابط الذي قال: "لما انهزمنا من عقبة البقر ووصلنا إلى قرطبة لنحمل عيالنا وأهلينا، استعجلنا الخروج منها وخرجنا مع ذلك من باب واحد، ولقينا من الازدحام عليه برحا من

(1) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 114 / ابن عذاري - البيان - ج 3 ص 95.
(2) ابن عذاري - البيان - ج3 ص95/ ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص114 - 115.

الضيق والصعوبة، وهلك من عيالنا وضعيفنا في ضغطة الخروج وشدة الهرب لفرط المخافة خلق كثير لم تكن بهم نهضة، وعبرنا النهر أسفل الزهراء وهو كبير فقدنا فيه من عيالنا وأبنائنا واتباعنا خلقا".[1]

لقد غادر البربر مدينة الزهراء دون أن يحملوا معهم ما يحتاجون إليه من غذاء، ولا ما يستعينون به لحمل عيالهم وضعفائهم عليه، ونتيجة لذلك "بسطوا أيديهم بالغارة على الحاضرة وقراها، وهي يومئذ مشحونة بالدواب والأقوات والأمتعة، فأخذوا كل ما أصابوه فيها من دابة، وحملوا العيال والضعفاء والقرابة عليها"[2] ولكن إلى أين اتجه البربر؟ وماذا كان هدفهم من تلك الوجهة؟

يجيبنا ابن حيان نقلا عن الذين عايشوا تلك الأحداث فيقول: إن البربر "استقبلوا نحو الساحل حيارى، يحسبون كل صيحة عليهم، وأعظم أملهم أن يأمنوا على أنفسهم وأهليهم ويعطوا المراكب وينصرفون إلى بلدهم".[3]

لقد قرر المغاربة بعد طول المعاناة مغادرة العدوة الأندلسية التي تنكر أهلها لهم وضيّقوا عليهم الأرض بما رحبت، ولكن هل تركهم هؤلاء يعودون إلى بلدهم؟ وهو الأمر الذي يؤكده ابن الخطيب حيث يقول: إنهم "ساروا بعيالهم وأولادهم يحملونهم على سروج دوابهم وغير ذلك إلى جهة البحر الزقاقي (البحر الأبيض المتوسط) تجاه بلادهم الغربية".[4]

سمح فرار سليمان المستعين نحو شاطبة، وخروج البربر من مدينة الزهراء وهروبهم نحو الجنوب لمحمد بن هشام بن عبد الجبار بالعودة مجددا إلى مدينة قرطبة، وبعدما جدّد البيعة لنفسه "أقسم بالإيمان المغلظة أن لا يستقر ولا يحل شعار

(1) أبوبكر بن العربي المعافري - كتاب ترتيب الرحلة للترغيب في الملّة - مخطوط بالخزانة العامة - الرباط رقم ك 1275 الورقة 156.

(2) نفسه - ورقة 156.

(3) نفسه - ورقة ص 156.

(4) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 115.

الحرب حتى يفرغ من أمر البربر"،[1] وكان هؤلاء قد نزلوا بوادي يارو من أحواز مربلّة الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط جنوبا.

بعد إعداد العدة وتشكيل جيش قوامه ثلاثون ألفا من المسلمين وتسعة آلاف من النصارى، لحق المهدي بالبربر عند وادي يارو يوم الخميس السادس من ذي القعدة سنة 400هـ (1010/06/21م)، ودارت بين الطرفين معركة غير متكافئة بين جيش جرار وهو جيش المهدي وجند البربر وهم في عدد قليل وعدّة أقل، ومع ذلك انتصرت الفئة القليلة التي كانت ترى أن الانتصار بالنسبة إليها يعني حياة عيالها وأولادها، ويقول ابن الخطيب متحدثا عن جنود ابن عبد الجبار وعن نتيجة المواجهة: "وبلوا من البربر قتال المستميت الذي لا يطمح في الحياة، ومن قاتل كذلك فقد كتب الله له الصائلة"،[2] ونتيجة لهذه الروح التي قاتل بها المغاربة، "انهزم واضح وابن عبد الجبار والفرنج أعظم هزيمة عن عدد قليل ذليل إلا أنه أثبت رجله في مستنقع الموت، ولم يعول على الحياة"، وكانت حصيلة المعركة أن "قتل من الفرنجة يومئذ أكثر من ثلاثة آلاف، وغرق منهم بوادي السقائين - وهو وادي يارو - خلقا كثيرا، واحتوى البرابر ما في عساكرهم وعسكر واضح وابن عبد الجبار من مضارب ومال وسلاح ودواب".[3]

يصف لنا سعيد المرابط معركة وادي يارو، وكان من الذين شهدوها عيانا فيقول: "ولحق بنا المهدي في جموعه فنزل إزاءنا، بيننا وبينه النهر، فلما نظرنا إلى كثرة جموعه وتكركرها في النزول، أيسنا من الحياة وطابت بالموت أنفسنا دون أن نعاين سبي حرمنا، وعمدنا إليهن في الوقت فاستندناهن ورحالنا إلى جبلين وعرين مشرفين بالضاحية، وتعبنا للقتال بكل جهة، ووقفنا نلاحظ نزول القوم إزاءنا...وسمع المهدي ضجيج نسائنا وصبياننا إلى الله عزّ وجل واستغاثتهم لما عاينوه، فكأنه أشفق عليهم وقال للحاجب واضح فيما بلغنا: "ما ترى في مراسلة هؤلاء القوم نعرض عليهم

---

(1) نفسه - ص 115.

(2) صال فلان على فلان بمعنى استطال عليه وقهره - الزمخشري - أساس البلاغة - ص 365.

(3) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 115 / ابن عذاري - البيان - ج 3 ص 96.

الرجوع إلى الطاعة خوفا من أن يصطلموا فيستأسد علينا هذا الطاغية؟ فأنكر ذلك عليه"، ويضيف البربري متحدثا عن بداية القتال فيقول: "وتقدم عدو الله للحرب قبل إقامة التعبئة واقتحم الوادي إلينا في جمعه العرمرم، فاستقبلهم حماة القوم وعامتهم بنو برزال وقد تناهت خيلهم أربع مائة فارس، وصنهاجة معهم في مقدار مائة وخمسين فارسا...واستحرّ القتل، فقتل من وجوه بني برزال في الكبّة بضعة عشر رجلا، ومن صنهاجة نفر".[1]

لاحظ زعماء البربر قوة جيش المهدي وبخاصة فرسان النصارى، وبدا لهم من خلال ذلك السبيل الذي يمكنهم من تحقيق النصر حيث نادى بعض شيوخهم على الرجال المقاتلين بالبربرية "الخيل الخيل"، فاتكئوا بالرماح على خيول الكفرة، فنكسوهم وردوهم على الأعقاب بعد أن قتل منهم في تلك الورطة نيف على ثلاثة مائة فارس، واقتحموا النهر على مخاضه فغرق منهم خلق كثير..."وألوت بسائر الناس الهزيمة...وغنم البرابرة المحلة بأسرها وسرادق المهدي وبيت ماله، وغنموا محلة الإفرنجة بأسرها، وحصلوا على ما لا تقدر قيمته".[2]

ورغم قلة عددهم، حقق البربر انتصارا كبيرا على المهدي وجنده، وبذلك اثبتوا قوتهم، تلك القوة التي كانت ستمكنهم من تغيير مجريات الأمور في العاصمة لو استعملوها عقب قيام المهدي واستيلائه على سدّة الحكم، ولكنهم آثروا اتخاذ موقف يجنب دار الإسلام والمسلمين ويلات الفتنة والاقتتال وتدمير الذات.

لقد كان أكثر القتلى في موقعة وادي يارو من جند النصارى المحالفين للمهدي، ويورد ابن حيان جملة من الروايات التي استقاها من الذين حضروا وقائعها من ذلك أن "جماعة من البرابر ذكروا أن الذي حزّوه في هذه الوقعة من رؤوس أعداء الله الكفرة خاصة إثر انهزامهم ألف رأس وثلاث مائة سوى الغرقى منهم في

---

(1) يحدد ابن عذاري خسائر البربر في وادي يارو فيقول: إنه "قتل أبو يداس بن دوناس اليفرني وقتل من بني يفرن وبني برزال سبعة عشر فارسا ومن سائر البربر خمسة عشر فارسا". البيان المغرب - ج3 ص98.

(2) أبو بكر بن العربي - ترتيب الرحلة - ورقة 156 - 157.

النهر وكانوا خلقا كثيرا، وذكر عن أبي تمام بن مهرية أو مسوية أنه سأل عبد الرحمن بن هشام بن سليمان العراقي ابن عم سليمان المستعين الذي شهد الموقعة فقال: "جمع البرابر رؤوس من قتلوه في هذا المأقط بحضرتي معدودة وانتهت إلى ألف وخمسمائة وزيادة".[1]

"وذكر عنه أيضا أن الإفرنجة كان اعتراضهم بقرطبة عند خروجهم إلى البرابر، إلى وادي أره تسعة آلاف وخمسمائة فارس وبضعة عشر فارس، وأنهم لما انصرفوا من واد أره اعترضوا ثانية عند دخولهم قرطبة فكانوا في خمسة آلاف وخمسمائة والبضعة الزائدة، فكان القتلى والغرقى منهم أربعة آلاف فارس والله أعلم".[2]

وتذكر مصادر أخرى أن عدد القتلى في صفوف الفرنجة بلغ يومئذ أكثر من ثلاثة آلاف، وغرق منهم بوادي السقائين وهو وادي ياروخلقا كثيرا.[3]

من خلال ما سبق نلاحظ إجماع المؤرخين على الانتصار الكبير الذي حققه البربر في معركة وادي يارو، تلك المعركة التي كان من المفروض أن تكون نهاية لوجودهم ببلاد الأندلس كما كان يعتقد المهدي وواضح ومن كان معهما من النصارى، ولكن تكتل القبائل البربرية وصمودها حال دون ذلك.

لقد شاركت معظم القبائل في مواجهة المهدي وجنده، فحتى المغاربة الذين كانوا يقفون على الحياد إلى هذا الوقت ومنهم بنو برزال وبنو يفرن قد وقفوا إلى جانب إخوانهم، ولعلّ العامل الرئيس الذي دفعهم إلى ذلك هو تكالب أهل قرطبة على من بقي منهم في العاصمة وأرباضها عقب مغادرة جلّ البربر لها إثر موقعة عقبة البقر، ويؤكد ذلك ابن الخطيب حيث يقول: إنهم "انحازوا إلى الزهراء، فرفعوا أولادهم وفرّوا على وجوههم، ومضى سليمان فارا إلى شاطبة، وخرج أهل قرطبة، فانتهبوا أثاث

(1) نفسه - ورقة 158.

(2) نفسه ورقة 159.

(3) أعمال الأعلام - ص 115/ابن عذاري - البيان - ج3 ص98/ ابن خلدون - العبر ج13 ص22 /عبد الواحد المراكشي - المعجب - ص89.

البربر وقتلوا من وجدوا".[1]

لقد كان للبربر الذين التحقوا بإخوانهم حديثا دور كبير في الانتصار الباهر المحقق على المهدي وجنده في موقعة وادي يارو، وبخاصة بني برزال الذين بقوا في قرطبة عندما غادرها جلّ المغاربة بعد أعمال القتل والنهب التي تعرضوا لها من قبل أهل هذه المدينة وجندها.

إضافة إلى ما سبق ذكره، كانت معركة وادي يارو نقطة تحول في موقف البربر من سير أحداث الفتنة، إذ نلاحظ أنهم تحفظوا حتى ساعة قيام هذه المواجهة في مسألة المعاملة بالمثل حيث امتنعوا عن القتل والنهب رغم ما كانوا يتعرضون له من طرف أعدائهم، ولكنهم ابتداء من هذا التاريخ سيتحولون إلى ممارسة نفس الأعمال تجاه المعارضين لهم، وهو الأمر الذي سيزيد من حدّة الفتنة، ويعرض المجتمع الأندلسي عامة وأهل قرطبة وأرباضها خاصة إلى المزيد من المآسي.

عقب انهزامه في معركة وادي يارو، عاد محمد بن هشام المهدي إلى عاصمة ملكه، وأمر بحفر خندق حولها استعدادا لمواجهة البربر القادمين نحوها، وأقام بينه وبين المدينة سورا للزيادة في تحصينها إلا أن هؤلاء لم يسعوا إلى الاستيلاء على قرطبة ولكنهم اكتفوا بالإغارة على نواحيها، وتمكنوا من السيطرة على جبل ببشتر الذي يمتاز بكثرة مياهه وأشجاره وثماره، وبه حصن منيع يبعد عن قرطبة بثمانين ميلا[2] فزاد ذلك في قوتهم.[3]

بعد مقتل محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدي في الثامن من ذي الحجة سنة 400هـ (1010/07/23م) على يد الصقالبة، عاد كرسي الخلافة إلى هشام بن الحكم للمرة الثانية، وأول عمل قام به الخليفة هو مراسلة البربر ودعوتهم إلى الدخول في طاعته، ولكنهم لم يستجيبوا لطلبه نظرا لنفورهم الشديد من أهل قرطبة وجندها،

---

(1) ابن الخطيب - أعمال الإعلام - ص115/ ابن عذاري - البيان - ج 3 ص95.

(2) ابن عبد المنعم الحميري - الروض المعطار - ص 37.

(3) البيان المغرب - ج3 ص99 / العبر - ج7 ص324 - 325 / أعمال الأعلام - ص 116.

وبخاصة من قادة الصقالبة المتحكمين الحقيقيين في زمام الأمور.

استمر البربر في أعمالهم الانتقامية حيث نزلوا بشقندة وفجّ المائدة يغيرون ويقتلون، وفي هذه الأثناء كان هشام ورعيته وواضح وجنده عاجزين عن الخروج من العاصمة من أجل مواجهتهم، وكانوا مكتفين بمراقبة الأوضاع من وراء الأسوار.

تمكن البربر من دخول مدينة الزهراء في 23 ربيع الأول سنة 401هـ (11/4/1010م)، وكان بها قسم من الجند المكلفين بحراستها فقتلوا بعض الحراس منهم ثم رحلوا عنها لخمس بقين من شعبان، واستمروا في الإغارة على أدنى البلد وأقصاه ينهبون ويخربون ويقتلون[1]، ويفقرون المدائن والقرى بالسيف، وينهبون كل ما يجدون من أموال.[2]

لم تعد هذه الممارسات مقتصرة على قرطبة وأحوازها فقط بل انتقلت إلى غيرها من الكور الأندلسية، من ذلك أن قوما من البربر ساروا من جيان إلى بلنسية فأغاروا عليها، وحازوا منها على خمسمائة فرس كانت للسلطان، وأسروا ثلاثمائة رجل من وجوه الجند والكتّاب والعمّال الذين كانوا متواجدين بها،[3] كما قام البربر أيضا بالسير نحو مالقة وإلبيرة وما اتصل بأحواز قرطبة "يخربون الديار، وينسفون النعام، ويسبون الحريم، ويصادرون بالفداء من يتهّم باليسار من الرعية، وطلبوا الناس بالأموال، وقطعوا الميرة عن قرطبة".[4]

وفي جمادى الآخرة خرجوا من جيان إلى أرملاط وقد ملأوا أيديهم من البقر والغنم حتى عجزوا عن ضبط ذلك، وكنتيجة مباشرة لقطع الميرة عن قرطبة، كان جياع هذه المدينة يسرون ليلا على الرعاة فيأخذون ما قدروا عليه، وعندما زاد ذلك منهم ترصد لهم البربر فكانوا يقتلون في كل ليلة العشرة والعشرين والثلاثين، وقتلوا منهم في

---

(1) البيان المغرب - ج3 ص100 - 102 / أعمال الأعلام - ص 117.

(2) ابن الابار - الحلة السيراء - ج 2 ص 7.

(3) البيان المغرب - ج 3 ص 105.

(4) أعمال الأعلام - ص 117.

ليلة واحدة أكثر من مائة قرطبي فانقطعوا عن غنم البربر جملة.[1]

على الرغم من كل الأعمال التي كانوا يقومون بها إلا أن البربر كانوا يسعون إلى عقد الصلح مع حكام قرطبة، من ذلك أن قوما من البربر وصلوا إلى شفير الوادي المقابل للعاصمة ودعوا إلى الصلح، ووافق على ذلك ابن مناو ذي الوزارتين، ولكن الفقهاء أنكروا ذلك واقنعوا الناس بأن الحرب أسلم لهم من الصلح، ونتيجة لذلك استمرت الفتنة في حصد أرواح الأبرياء داخل مدينة قرطبة.[2]

ونتيجة لتدهور الأوضاع داخل عاصمة الخلافة، سعت طائفة من أهل المدينة إلى تحقيق الصلح مع البربر، وتجسد ذلك في سنة 402هـ (1011م) حين كتب هؤلاء القرطبيين كتابين أحدهما من هشام المؤيد إلى سليمان المستعين، والثاني من ابن مناو إلى زعماء القبائل البربرية يستعطفونهم فيهما إلى قطع الفتنة وتسليم الأمر إلى هشام المؤيد، ويقترحون أن يكون سليمان ولي عهده ومدّبر أمره القائم بأعباء الخلافة عنه.

قام أعيان البلدة بإيصال الكتابين إلى من يعنيه الأمر حيث دخلوا على سليمان ودفعوا إليه الكتاب الموجّه له، وبمجردّ أن رأى عنوان كتابه "من عبد الله هشام بن الحكم أمير المؤمنين إلى سليمان بن الحكم" رمى به، وقال: أنا هو أمير المؤمنين وأما هشام فلا يستحق ذلك، وأيده في ذلك جماعة البربر حين قالوا: "هذا أمير المؤمنين ليس سواه ولا يكون غير هذا"، كما سلم الوفد كتابا آخر من وزراء قرطبة إلى جماعة وزراء البربر، وكان ردهم هو تمزيق الكتاب أسوة بخليفتهم سليمان بن الحكم.[3]

لقد كانت الأنانية المفرطة التي تحلى بها كل من الأمويين هشام المؤيد وسليمان المستعين، ورغبتهما الكبيرة في المحافظة على كرسي الخلافة الصوري سببا في استمرار الفتنة، وبالتالي استمرار التمزق الذي سرى في جسم المجتمع الأندلسي المسلم، وكان بالإمكان تفادي كل هذه المشاكل لو احتكم الطرفان إلى الحكمة

---

(1) البيان المغرب - ج 3 ص 106 - 107.

(2) نفسه - ج 3 ص 100 - 101.

(3) نفسه - ج 3 ص 109.

والتعقل وترجيح المصلحة العليا لجماعة المسلمين.

دخول البربر مدينة قرطبة وأعمالهم فيها: جرى في آخر ذي الحجة سنة 402هـ (بداية صيف 1012م) حدث خطير سيكون له انعكاس مباشر على مصير مدينة قرطبة وأهلها، ذلك أن جماعة من البربر ومنهم خزرون بن محمد وحباسة بن ماكسن الذي كان يعتبر من أشجع فرسان البربر نزلوا بغربي الوادي الكبير، وبعد ما قاتلوا أهل قرطبة قتالا شديدا توجهوا إلى مكان آمن لأخذ قسط من الراحة، فنزلوا عن خيلهم وسرّحوها، وبينما هم كذلك أبصرهم جمع من أهل العاصمة من وراء الخندق وهم آمنون، فانقضّ عليهم سبعون فارسا وعدد المغاربة لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، ودارت جرّاء ذلك معركة غير متكافئة قتل فيها عدد كبير من القرطبيين، ولكن هؤلاء تمكنوا في نهاية المطاف من طعن حباسة واعتقاله بينما فرّ أصحابه.

أخذ أتباع المهدي الفارس البربري إلى العاصمة، وعندما عرفه أهلها قتلوه ومثلوا بجثته،[1] وعندما وصل خبر مقتله إلى أخيه حبوس وعمّه زاوي بن زيري وأهل بيته، صمموا على الثأر له، وبداية من اليوم الموالي بدأوا في تنفيذ خطتهم حيث قاتلوا أهل قرطبة قتالا شديدا، ونصبوا لهم كمائن ناوشوهم من خلالها وأطمعوهم في النصر لكي يتمكنوا من إخراجهم عن خندقهم، وعندما تم ذلك قام البربر من ورائهم فقتلوهم، وفي يوم الأحد لأربع بقين من شوال سنة 403هـ (9 ماي 1013م) اجتمع أهل قرطبة وخرجوا لقتال البربر ولكنهم هزموا هزيمة منكرة اضطرتهم إلى طلب الأمان من أعدائهم.

خرج القاضي أبو العباس أحمد بن ذكوان مع بعض الفقهاء وكانوا سابقا من أشدّ المعارضين لأي صلح مع المغاربة إلى سليمان بن الحكم ورؤساء القبائل البربرية فطلبوا منهم الأمان؛ فأمنوهم مقابل غرامات مالية كبيرة فرضوها على أهل قرطبة،[2]

---

(1) نفسه - ج 3 ص 111 - 112/الإحاطة في أخبار غرناطة - ج1 ص 312 - 313/
L. Provençal.opcit. T II. P 319.

(2) ابن عذاري - البيان المغرب - ج3 ص112 / ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص118.

وبذلك سقطت المدينة في أيديهم.

وكان البربر قبل هذا الحدث قد دخلوا أرباض قرطبة عنوة وسعوا إلى الانتقام من أهلها الذين ساموهم كل أنواع التنكيل قبل هذا التاريخ، وكان انتقامهم أكبر من أن يوصف، ويؤكد ذلك ابن الخطيب حيث يقول: "واقتحم البرابرة أرباض قرطبة عنوة؛ فكان الأمر في هول يومها يجلّ عن الوصف، ويشذّ عن العبارة من استيلاء السيف والسبي والنار والتخريب".

بعد استسلام أهل قرطبة، دخل البربر المدينة رفقة سليمان، وذلك يوم الاثنين لثلاث بقين من شوال سنة 403هـ (1013/05/10م)، فخلع هشام المؤيد للمرة الثانية، وبويع لسليمان المستعين، ومع دخول البربر إلى المدينة وتحكمهم فيها بدأ الانتقام من أهلها، وكانت نقطة انطلاق أخذ الثأر من قاتل حباسة بن ماكسن، وفي ذلك يقول ابن عذاري: "وعند دخوله قرطبة أتى إلى حبوس بن ماكسن رجل من أهلها فعرّفه بقاتل أخيه، فركب في بعض أصحابه ودخل المدينة، وأهلها ينظرون إليه نظر المغشي عليه من الموت حتى أتى إلى دار قاتل أخيه؛ فاستخرجه وقتله وأضرم داره نارا وحرقها، ووجد له مالا فأخذه، ومن جملة ما وجد له أربع عشرة جارية وفرشا كثيرة وسلاحا وافرة، واستخرج أخاه فما وجد إلا عظامه، "وهاله المنظر وزاد في حنقه على أهل قرطبة فأقسم، وقال "والله لا كان عندي أمان لعبد من عبيد بني أمية أبدا"، ونتيجة لذلك خافه الناس وهرب الكثير منهم، واستغل المغاربة ذلك فاستولوا على ديارهم وأموالهم، "واقتسموا البلد بين أنفسهم، وملكوه لا ينازعهم فيه أحد إلاّ قتلوه ولا يمتنع عليهم موضع إلا حرقوه وخرّبوه".[1]

وفي نفس الاتجاه يذهب ابن الأبار، وهو يتحدث عن البربر عقب معركة وادي يارو حيث يقول: إنهم "دخلوا قرطبة عنوة في صدر شوال سنة ثلاث وأربعمائة فاستباحوها وقتلوا أهلها"،[2] ولكن ذلك تم قبل عهد الأمان الذي منح لأهلها من قبل

(1) ابن عذاري – البيان المغرب – ج 3 ص 115.

(2) الحلة السيراء – ج 2 ص 7.

المغاربة، ويؤيده في ذلك النويري الذي يقول: "ووضع البربر أيديهم في الناس فاستباحوا الأموال والحريم".[1]

لقد كان حجم الانتقام البربري بقدر ما قام به أهل قرطبة وجندها ضد إخوانهم في الدين وجيرانهم في الموطن، وإن كان دونه في البشاعة، وهو ما يؤكد ابتعاد الطرفين - المغاربة والأندلسيين - عن جادة الصواب، وانحرافهم الكبير عن تعاليم دينهم الحنيف الذي يجعل المسلمين "أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين".[2]

لقد انعكست الآية تماما في العدوة الأندلسية خلال نيف وعشرين سنة حيث أصبح الأخ عدوا بينما صار العدو الحقيقي هو الولي الحميم الذي يسعى المسلم إلى طلب الصلح منه، والاستعانة به ضد أخيه من أجل غاية واحدة هي الوصول إلى سدّة الحكم أو المحافظة على السلطة، ولو كان ذلك على حساب الآلاف من الأبرياء الذين سيذهبون ضحية لهذه الأطماع.

عاشت قرطبة وأرباضها ظروفا قاسية عقب دخول البربر إليها حيث قتل عدد كبير من أهلها وبخاصة من علمائها، ويأتي على رأسهم ابن الفرضي صاحب تاريخ علماء الأندلس، كما انتهبت دورا كثيرة وبخاصة تلك التي كان يملكها أثرياء المدينة، ويؤكد ذلك ابن حزم عندما يقول: "ووقع انتهاب جند البربر منازلنا في الجانب الغربي بقرطبة ونزولهم فيها"،[3] وسنعود إلى هذا الموضوع بتفصيل أكبر في الفصل الثالث المخصص لنتائج الفتنة الأندلسية.

استمرت أعمال القتل والنهب إلى غاية سنة 404هـ حسب ابن عذاري الذي يقول: "وفي هذه السنة كفّ البربر عن أهل قرطبة"،[4] بينما يرى ابن حيان أن ذلك تواصل طيلة عهد سليمان بن الحكم، ويؤكد ذلك وصفه لسنوات حكمة إذ يقول: إنها "كانت كلها شدادا نكدات، صعابا مشئومات، كريهات المبدأ والفاتحة، قبيحة المنتهى

---

(1) النويري - نهاية الأرب - ص 136.

(2) سورة المائدة - الآية 54.

(3) ابن حزم - طوق الحمامة - ص117 - 320/118 L. Provençal. Opcit. T II p.

(4) البيان المغرب - ج 3 ص 115.

والخاتمة، لم يعدم فيها حيف، ولا فورق فيها خوف، ولا تمّ سرور، ولا فقد محذور مع تغير السيرة، وخرق الهيبة واشتعال الفتنة، واعتلاء المعصية، وظعن الأمن، وحلول المخافة".[1]

ومن جهتنا نميل إلى الرأي الأول ويدفعنا إلى ذلك الموقف العدائي الذي يبديه ابن حيان تجاه البربر من جهة، والإجراء الذي اتخذه الخليفة الجديد والقاضي بتوزيع بعض كور الجنوب على القبائل البربرية التي كانت السند الرئيس والمدعم الأساسي لوصوله إلى سدّة الخلافة من جهة أخرى، وقد كان لهذا الإجراء أثر كبير في تحول البربر عن مدينة قرطبة، وابتعاد معظم المغاربة عن المشاركة في الأحداث الدائرة رحاها بعاصمة الخلافة، ويؤكد رأينا هذا قلة الإشارات الواردة عن ذلك في المصادر التاريخية عند تطرقها لأحداث الفتنة بعد سنة 404هـ.

انتقل سليمان المستعين وجموع البربر المنضوين تحت لوائه من مدينة قرطبة إلى مدينة الزهراء، ونظرا لكثرة عددهم اضطرّ قسم كبير منهم إلى النزول بما اتصل بها من الأرباض بينما أقام علي والقاسم ابني حمود الإدريسيين، قائدا فرقة العلوية بشقندة.

قام سليمان بتقسيم جزء من بلاد الأندلس على زعماء القبائل البربرية في نفس السنة التي بويع فيها بالخلافة للمرة الثانية بمدينة قرطبة،[2] وتحجم المصادر في أغلبيتها الساحقة عن ذكر أسباب هذا الإجراء الذي اتخذه الخليفة، والذي فتح به عهد تشرذم العدوة الأندلسية إلى ما سيعرف فيما بعد بممالك الطوائف.

من خلال تتبع الأحداث التي مرت بها بلاد الأندلس يمكن استنتاج بعض الأسباب التي جعلت الخليفة يتخذ ذلك القرار، ومنها تخوفه من انقلاب البربر عليه كما انقلبوا سابقا على عبد الرحمن شنجول حاجب هشام المؤيد، ومن خلال ذلك أراد إبعادهم عن قرطبة، ويضاف إلى ذلك رغبته في تفادي احتكاكهم بأهل العاصمة نظرا للأحقاد والضغائن الموجودة بين الفريقين، والتي سبق أن كانت من الأسباب الرئيسة

(1) ابن بسام – الذخيرة – ق 1 م 1 ص 36.

(2) ابن عذاري – البيان المغرب – ج 3 ص 113/ابن الخطيب – أعمال الأعلام – ص 119.

للاقتتال الدائر بين هذين العنصرين من عناصر المجتمع الأندلسي، كما أن منح البربر أجزاء من بلاد الأندلس يمكن اعتباره بمثابة المكافأة لهم مقابل ما قدموه من خدمة له، فبدونهم لم يكن من الممكن له أن يعتلي كرسي الخلافة، وما يؤكد ذلك هو اعترافه بالعربي منذر بن يحيى التجيبي كحاكم لمدينة سرقسطة والثغر الأعلى على اعتبار أنه الوحيد من حكام الكور العرب الذين ساندوا ودعموا سليمان المستعين بينما امتنع الباقي عن ذلك، وكانوا دائمي الولاء للمهدي في البداية، ثم للمؤيد هشام بن الحكم عقب مقتل الأول.

ويضاف إلى ما سبق ذكره سبب آخر، ويتمثل في رغبة البربر في الحصول على موطن يوفر الأمن والقوت لأهلهم، ويؤكد ذلك ابن الخطيب حيث يقول إنه: "لما استقرّ صاحبهم بمقر الخلافة وفي أيديهم زمامه ولحكمهم يرجع نقضه وإبرامه، طلبوه بالبلاد التي يحرزون بها أولادهم وحرماتهم ويرجعون إلى فوائدها في حاجات أقواتهم إذ لا يأمنون على أنفسهم تمالؤ البلديين في زمن من الأزمان".[1]

إن الأحداث التي عرفتها الأندلس عامة وقرطبة بصفة خاصة تؤكد فعلا أن الأحقاد بين البربر وغيرهم قد وصلت إلى حدّ يستحيل معه أن يتعايش العنصران مع بعض، ولذلك لاحظنا الإصرار العنيد لأهل قرطبة في محاربة خصومهم ومحاولة القضاء عليهم، وتجلى ذلك بوضوح في ملاحقتهم لهم وهم متوجهين إلى بلادهم، ولو تمكنوا منهم لقضوا عليهم في موقعة وادي يارو إلاّ أن استماتة البربر وإصرارهم على حماية أولادهم وحريمهم جعلهم ينتصرون، وبالتالي يبدأون في ملاحقة أعدائهم والعمل على الردّ بالمثل عليهم، وهو ما تحقق بانتصارهم على القرطبيين، ودخول مدينتهم، وتنصيب خليفة جديد على بلاد الأندلس.

قام سليمان المستعين بتقسيم جنوب الأندلس على القبائل البربرية، فأعطى إلبيرة إلى صنهاجة وبقيت بيد حبوس بن ماكسن وذريته حوالي مائة سنة، وأعطى بلاد الجوف أي المناطق الواقعة شمال مدينة قرطبة - وهي مناطق جبلية - إلى مغراوة،

(1) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص228.

وأعطى جيان والأقاليم التابعة لها إلى بني يرزال، وأعطى شذونة ومورور والحصون التابعة لها إلى بني دمر وأزداجة، كما ولى القاسم بن حمود طنجة وأصيلا، وولى أخاه علي بن حمود سبتة.[1]

إضافة إلى ذلك أصبحت الوظائف العليا للدولة كلها في يد البربر حيث كان منهم الحاجب والوزير، ويعتبر ابن عذاري أن دولة المستعين بالله هي "أول دولة البرابر بقرطبة"،[2] ويقول ابن الأثير: إنهم "كانوا الحاكمين في دولة المستعين، ولا يقدر على خلافهم لأنهم كانوا عامة جنده وهم الذين قاموا معه حتى ملّكوه".[3]

كان تقسيم بعض بلاد الأندلس من طرف المستعين فرصة مكنت البربر من إقامة ممالك مستقلة سيكون لها دور هام في تاريخ العدوة الأندلسية وبخاصة خلال فترة حكم ملوك الطوائف، كما أن هذا الإجراء قد أنهى بجزء كبير دورهم في الفتنة الأندلسية إذ لا نكاد نعثر فيما بعد هذا التاريخ إلا على شذرات قليلة إن لم نقل نادرة جدا لمشاركتهم في أحداث الفتنة.

موقف البربر من الفتنة على عهد الأدارسة (407 - 414هـ/1016 - 1023م): عقب تقسيم جنوب الأندلس ووسطها عليهم، غادر أغلب البربر قرطبة وأرباضها وتوجهوا نحو الكور التي كانت من نصيبهم، ولم يبق منهم بالعاصمة إلا قسم قليل ضمن جند المستعين بالله الذي أطيح به من قبل أتباع علي بن حمود الإدريسي، وقد سعى هذا الأخير الذي لا ينتمي إلى البيت الأموي إلى كسب تأييد أهل قرطبة، ولم يجد أحسن من اضطهاد البربر لعلمه بحقدهم عليهم.

اعتلى علي بن حمود الإدريسي سدّة الخلافة في محرم سنة 407هـ (جويلية 101م)، وتميز في بداية حكمه بمعاداة البربر حيث كان يفرض عليهم ألوانا من القهر والتعسف بحجة أنهم كانوا سند سليمان بن الحكم الذي اتهمه بقتل هشام المؤيد، وقد

---

(1) ابن عذاري - البيان المغرب - ج3ص113 - 114/ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص119.
(2) البيان المغرب - ج 3 ص114.
(3) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج 7 ص 268.

أوردنا فيما سبق أمثلة عديدة عن المعاملة التي عامل بها هذا العلوي من بقي من المغاربة في قرطبة.[1]

لقد تعرض البربر عقب وصول علي بن حمود إلى منصب الخلافة لكثير من المضايقات والأذى، ومع ذلك لم يثوروا ضده، ولم يسعوا إلى خلعه كما فعل أهل قرطبة فيما بعد، كما أنهم لم يتعرضوا إلى سكان العاصمة، وينطبق نفس الأمر تقريبا على أولئك الذين انتقلوا إلى الكور التي وزعها عليهم سليمان المستعين كما ذكرنا سابقا، ورغم حيادهم وتوقفهم عن أعمال النهب والقتل التي قاموا بها فيما سبق، والإكتفاء بالعيش في كنف الأمن والطمأنينة داخل المدن التي استقروا بها، تعرضوا إلى هجمات شنّها عليهم خصومهم وبخاصة منهم الفتيان العامريون.

بعد مساهمتهم الكبيرة في تولية علي بن حمود، وعقب تأكدهم من موت هشام المؤيد، انسحب الصقالبة إلى الشرق ونصبوا عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك ابن الناصر لدين الله خليفة عليهم وذلك في سنة 407هـ - 1016م.

اجتمع عبد الرحمن بن محمد الملقب بالمرتضى بالموالي العامريين وغيرهم وتوجهوا إلى قرطبة بهدف قتال القاسم بن حمود وإزاحته من منصب الخلافة، وعوض التوجه إلى مقر الخلافة الأندلسية، قرروا السير نحو مدينة غرناطة التي كانت مقر دولة صنهاجة بقيادة أميرها زاوي بن زيري.[2]

وكان القاسم بن حمود قد تولى الخلافة بعد مقتل أخيه علي على يد ثلاثة فتيان من الصقالبة بمساعدة بربر زناتة الذين كانوا ضمن جند قرطبة حيث ضبطوا القصر، وأرسلوا إلى أخيه الذي كان عاملا على إشبيلية فقدم إليها، وخلف أخاه في السابع من ذي القعدة سنة 408هـ (1018/03/28م)[3].

زحف عبد الرحمن بن محمد المرتضى بمن كان معه من العساكر التابعين

(1) ابن بسام - الذخيرة - ق1 م1 ص97/البيان المغرب - ج3 ص121/أعمال الأعلام - ص129.
(2) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 130.
(3) البيان المغرب - ج 3 ص 122.

لأمراء الثغر والفتيان الصقالبة[1] على غرناطة، وهدفهم القضاء على الصنهاجيين المستقرين بها منذ سنة 403هـ.

خاف أهل غرناطة وارتاعوا بسبب كثرة عدوهم، ولكن زعيمهم زاوي بن زيري أحكم لهم التدبير؛ فخرجوا منتصرين على أعدائهم، ذلك أن المرتضى وعندما اقترب منهم، كتب إلى أميرهم يدعوه إلى الطاعة والدخول في الجماعة، وعندما قريء عليه ذلك قال زاوي لكاتبه: أكتب على ظهر كتابه "قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرِينَ"[2] إلى آخر السورة لا تزده؛ فلما وصلت إلى المرتضى، أعاد إليه كتاب وعيد وتهديد؛ فلما قريء على زاوي بن زيري قال لكاتبه: أكتب له "أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ كَلاً سَوْفَ تَعْلَمُونَ"[3] لا تزده حرفا؛ فازداد المرتضى غيظا، ويئس من استجابته له والدخول في طاعته.

نتيجة لفشله في إقناع زاوي وقومه بالانضواء تحت لوائه بالطرق السلمية، لجأ المرتضى إلى القوة، وبذلك بدأ القتال بين الطرفين، ودام عدة أيام، وكان النصر حليف البربر لسببين هما استبسال فرسانهم في حربهم ضد أعدائهم، وغدر الصقالبة وأمراء الثغر بخليفتهم حيث اتفقوا سرا مع زعيم صنهاجة على إسلامه، والإنسحاب من ساحة القتال، وقد سبق أن أوضحنا ذلك.

هزم المرتضى ثم قتل من طرف الصقالبة، وعقب انتهاء المعركة استولى البربر على جميع ما كان في محلته، "وسبقهم زاوي إلى سرادق المرتضى؛ فحازه بما حواه مما كان الأمراء قد جمعوا له، وكان أمراؤه والوجوه من عسكره قد تجمعوا وجاءوا مجيء من لا يشك في الظفر؛ فساقوا مع أنفسهم رفيع الحلية كي يتباهوا بذلك في غرناطة وقرطبة إذا دخلوها، حتى أن كثيرا من التجار اغتروا بذلك الخائن؛ فصحبوه

---

(1) أعمال الأعلام - ص 130.

(2) سورة الكافرون - الآية 1.

(3) سورة التكاثر - الآيات 1. 2. 3.

مبادرين مسرّة الفتح فخابوا وخسروا أموالهم"[1].

إن هذه المعركة تؤكد بلا شك الحقد الذي مازال يكنّه قسم من المجتمع الأندلسي للبربر، وهو الأمر الذي اقتنع به زعيم صنهاجة زاوي بن زيري، ويورده لنا حفيده عبد الله بن بلقين في كتابه حيث يقول: "إن زاوي بن زيري لما بصر بهذا الحال، ورأى تألب أهل الأندلس عليهم وبغضهم لهم، عمل بذلك فكرته، وقال: " قد علمت وأيقنت أن هذا يكون دأبهم أبدا، وإن كنا قد منحنا الظفر في أول صفقة، لم نأمنهم على أنفسنا وديارنا كل حين، وهم إن قتل منهم واحد خلفه ألف مع ميل جنسيتهم من الرعايا إليهم، فتكون الزيادة فيهم والنقصان منا، ولا يموت لنا نحن أحد ونخلفه أبدا"[2]

إن هذا الشعور بالحقد الذي يؤكد عليه زعيم صنهاجة هو الذي جعله يتخذ قراره بالعودة إلى افريقية، وحاول إقناع أفراد عشيرته بالخروج معه إلا أنهم رفضوا الإنصياع لرأيه، ولعل التفسير الأرجح لهذا القرار الرافض هو تعود الصنهاجيين على الحياة ببلاد الأندلس من جهة، وتوفرهم على وطن يوفر لهم الأمن والحماية، ويتعلق الأمر بمملكة غرناطة من جهة أخرى.

رغم محاولة أبناء عشيرته الذين سعوا إلى إقناعه بالبقاء معهم إلا أن زاوي تمسك برأيه القاضي بالعودة إلى بلده؛ فركب البحر بأهله ولحق بافريقية في سنة 410هـ - 1019م[3].

إن قرار زاوي بن زيري يدل على أن الأحقاد قد أخذت بعدا كبير بين الأندلسيين والبربر، وهو الأمر الذي يجعل التعايش مستحيلا بين الفريقين، ومع ذلك نجح أحد الأدارسة العلويين، وهو يحيى بن علي بن حمود الذي بويع له بالخلافة عقب فرار عمه القاسم بن حمود سنة 412هـ - (1021م) في لمّ شمل المسلمين المتناحرين في قرطبة بصفة خاصة، حيث "اجتمع عليه الفريقان: الأندلسيين والبربر من

(1) ابن العربي - نفسه - ورقة 153 - 154/الذخيرة - ق1م1ص453 - 454/ البيان - ج3 ص 125 - 126/أعمال الأعلام - ص130 - 131.

(2) عبد الله بن بلقين - كتاب التبيان - ص 63.

(3) الذخيرة - ق1 م1 ص 458.

أهل قرطبة وأعمالها خاصة"[1]، وتكاد تكون المرّة الأولى منذ اندلاع فتيل نار الفتنة التي يجتمع فيها الطرفان على خليفة واحد، ولكن هذه المصالحة لم تدم طويلا إذ يذكر ابن حيان أن الفتنة عادت من جديد، ويتهم "عفاريت زناتة في التضييق عليه في التكاليف"[2]، وكان عمه القاسم بن حمود الذي عينه الزناتيون خليفة بعد مقتل أخيه علي بن حمود سنة 408هـ (1017م) قد خرج من قرطبة عندما رأى جور البربر وقلة طاعتهم، واستقرّ بإشبيلية التي دعي له فيها بالخلافة، وكان يسمى بأمير المؤمنين.

وعندما رأى البربر منصب الخلافة شاغرا، طلبوا من ابن أخيه أن يتولاه؛ فاستجاب يحيى لذلك ودخل قرطبة، وبويع له بها سنة 412هـ (1021م)، وتسمى هو الآخر أيضا بالخلافة وإمرة المسلمين[3].

لم يرض البربر عن يحيى بن علي بن حمود فقاموا بخلعه سنة 413هـ (1022 م)، واضطروه إلى الفرار من قرطبة، ونصبوا في مكانه عمه القاسم بن حمود مجددا[4]، ولكن عهد هذا الخليفة العلوي لم يدم سوى سبعة أشهر حيث ثار عليه أهل قرطبة بسبب ما اجتمع حوله من البربر، وأجمعوا على خلعه، وقاموا بفرض حصار عليه داخل القصر، ثم اخرجوه منه فتوجه رفقة جنده إلى الربض الغربي في يوم الثلاثاء لتسع بقين من جمادى الآخرة، وأصبح هو المحاصر لمدينة قرطبة، ودام ذلك مدة شهرين كانت الحرب خلالهما سجالا بين الطرفين إلى أن تمكن أهل قرطبة من الانتصار عليه؛ فاضطرّ إلى الفرار رفقة أتباعه في الثاني عشر من شهر شعبان سنة 414هـ[5].

لا تعطينا المصادر سبب هذا التغير المفاجيء في موازين القوى داخل قرطبة، ولكن الاحتمال الأرجح هو وصول نجدات من الاندلسيين المناوئين للبربر،

---

(1) نفسه - ق1 م1 ص482 / البيان - ج3 ص 131 - 132 / أعمال الأعلام - ص132.

(2) الذخيرة - ق1 م 1 ص482 - 483.

(3) البيان المغرب - ج3 ص132 - 133 / أعمال الأعلام - ص132.

(4) البيان المغرب - ج3 ص 133 / أعمال الأعلام - ص 133.

(5) البيان المغرب - ج3 ص133 - 134/أعمال الأعلام - ص 133/نهاية الأرب - ص139.

وانضمامهم إلى أهل قرطبة، وبالتالي رجّحوا كفتهم، ومكنّوهم من الانتصار على خصومهم، وإخراجهم من مدينتهم.

وعن سبب ثورة أهل قرطبة على القاسم بن حمود وجنده ومجريات الصراع الذي دار بين الطرفين يقول بن عذاري: "إن البربر تسلطوا على أهل قرطبة في الأسواق، وبرزوا لقتالهم، ونصبوا الحرب عليهم فتقاتلوا قتالا شديدا يوم السبت عاشر جمادى الأولى، ثم سكنت الحرب إلى يوم الخميس، وجرى بينهم الصلح في هذه المدة، والقاسم في القصر يظهر لأهل قرطبة أنه معهم، ثم انتشرت الحرب يوم الجمعة بعد الصلاة إلى عشي النهار؛ فتغلّب أهل قرطبة على القصر، ودخلوا فيه، وخرج القاسم عنه وانحاش إليه البربر وقاتلوا أهل قرطبة، وغلقت أبواب المدينة كلها فلم يفتح لها باب مدة من خمسين يوما، والقتال في كل يوم يتصل، وكان البربر ألافا، وانتهى القتال بانهزام البربر وخروجهم من قرطبة[1].

بعد انهزامهم أمام أهل قرطبة، توجه القاسم بن حمود بمن كان معه من البربر نحو مدينة إشبيلية التي كان عاملها فيما سبق، ولكن أهلها أوصدوا أبوابها في وجهه، ورفضوا دخوله رفقة أتباعه إلى المدينة بسبب كراهيتهم للبربر، ولم يكتفوا بذلك بل قاموا باخراج ولدي القاسم ومن كان معهما من المغاربة منها[2].

وفي هذه الأثناء قام أهل قرطبة بإعادة منصب الخلافة إلى آل مروان؛ فعينوا أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر في ذلك المنصب، ويتعلق الأمر بعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمستظهر بالله[3] الذي لم يطل عهده بالقصر إذ ثار عليه أهل قرطبة الذين رأوا أنه ارتكب جريمة عندما استقبل جماعة فرسان من البربر، وقام بإكرامهم وإنزالهم معه في القصر، ورغم قلتهم على ما يبدو فإن الدائرة هاجت، وقالوا للعامة: "نحن الذين قهرنا البرابرة وطردناهم عن قرطبة، وهذا الرجل يسعى في ردهم

(1) البيان المغرب - ج 3 ص 134.

(2) البيان المغرب - ج3 ص134 - 135.

(3) يذكر ابن الخطيب أنه لقب بـ"الظافر بالله" - أعمال الأعلام - ص134.

إلينا وتمكينهم من نواصينا".

كان لخطاب أعيان قرطبة وقعة على العامة إذ ثار هؤلاء ووثبوا على القصر وقتلوا البربر حيث وجدوهم، ولم ينتهوا عند ذلك الحدّ بل قتلوا الخليفة المستظهر الذي نصبوه بالأمس القريب خليفة[1].

عادت الخلافة من جديد إلى العلويين عقب خلع المستكفي بالله حيث بويع يحيى بن علي بن حمود المعتلي بالله للمرّة الثانية، وذلك في يوم الخميس لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة 416هـ (1025/11/9م)؛ فقدم إلى قرطبة ولكنه لم يلبث أن غادرها في الثامن من المحرم سنة 417هـ (1026/11/1م)، وعاد إلى مدينة مالقة، وأناب عنه في عاصمة الخلافة وزيره وكاتبه أبو جعفر أحمد موسى ودوناس بن أبي روح، ولكنهما اضطرا إلى الفرار منها عقب قيام أهل قرطبة بقتل من كان عندهم من البربر الذين كلفهم الخليفة بالسهر على الأمن داخل القصر، وتقول المصادر التاريخية أن عدد الذين قتلوا منهم بلغ ألف رجل، وأن الذي حرّض أهل قرطبة على القيام بذلك العمل هما مجاهد وخيران العامريين، وهو ما يثبت من جديد الدور الذي قام به الصقالبة في إذكاء نار الفتنة بالأندلس، وتحريض الأندلسيين على البربر[2].

كانت هذه أبرز المحطات التي مرّ بها موقف البربر، ومن ثمّ دورهم في الفتنة القائمة بالأندلس بداية من سنة 399هـ (1008م)، وقد لاحظنا من خلال تتبعنا لأحداثها أن البربر قد اتخذوا موقفا حكيما عندما تخلوا عن عبد الرحمن شنجول لانعدام مؤهلات الحاكم الكفء فيه من جهة، ولرغبته في محاربة أهل قرطبة، والتخلص من المهدي من جهة أخرى، والتحقوا بالخليفة الجديد محمد بن هشام المهدي، ولكن سوء تصرف هذا الأخير، والذي تجلى في تشجيع أهل قرطبة وجندها على المساس بحياة وممتلكات البربر جعلت هؤلاء يصبرون زمنا لعلّ الخليفة واتباعه يعودون إلى رشدهم، ولكن صبرهم نفذ عندما ازداد العدوان عليهم.

---

(1) البيان المغرب - ج3 ص 138 - 139.

(2) نفسه - ج3 ص143 - 144 / أعمال الأعلام - ص 136 - 137.

نتيجة لذلك اضطروا إلى الدفاع عن أنفسهم وأهلهم وأموالهم، وهوحق مشروع لهم، ويؤكد هذه الحقيقة زعيم صنهاجة زاوي بن زيري فيقول: "وأما سوى ذلك مما يخصنا نحن، فاعلموا أنه لم نأت الأندلس إلا وأجلبنا مع أنفسنا من الأموال ما لا نحتاج فيه إلى أحد، بانين على الإقامة إن اضطررنا إليها، ولم نأتها عن فاقة ولا سعاية، إنما جئناها رغبة في الجهاد، وأن تكون كفايتنا التي شهرنا بها على العدو دون سائرهم، وأن نفني باقي أعمارنا في طاعة الله، إلى أن دفعتنا الأقدار إلى ما ترون، ونحن لم نطلب أحدا ولا تعدّينا على بشر، وهؤلاء باغون متطاولون، ومن "بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ"،[1] ومن قتل دون ماله وأهله فهو شهيد"[2].

لقد جاء البربر إلى الأندلس فرارا من إنعدام الأمن والاستقرار في بلادهم، وكانوا في هذه البلاد عند حسن ظن قادتهم بهم حيث ابلوا البلاء الحسن في الذود عن حمى الإسلام في وقت تكالب فيه النصارى على المسلمين وبلادهم، وساهموا تحت قيادة حكام الأندلس - خلفاء وحجّاب - في رفع لواء الدولة الإسلامية عاليا، ولكن ذلك كله لم يشفع لهم أمام قسم من إخوانهم تجردوا من كل القيم النبيلة لدينهم الحنيف وراحوا يعاملونهم معاملة أقل ما يقال عنها أنها لم تكن لتوجّه إلى الأخ في الدين والوطن، وعندما زاد الأمر عن حدّه اضطرّ البربر إلى الدفاع عن أنفسهم، ولكنهم لم يكتفوا بذلك بل تجاوزوه في بعض الأحيان ليصبحوا مثل المعتدين عليهم في السابق.

لقد انغمس البربر في الفتنة كما فعل أهل قرطبة وجندها؛ فصاروا يقتلون وينهبون ويفسدون، وبذلك كانوا السبب في انتشار المجاعة والأوبئة داخل مدينة قرطبة، والتي سيدفع ثمنها عدد كبير من الناس.

بداية من اعتلاء الحموديين الأدارسة لسدة الخلافة سيتعرضون من حين لآخر إلى العدوان، وفي أحيان كثيرة دون مبرر مقنع، ولكن التفسير الوحيد الذي يبرر هذه

---

(1) سورة الحج - الآية 60.

(2) كتاب التبيان - ص 61.

الإعتداءات التي طالت البربر تكمن في الحقد الذي كان يكنه أهل الأندلس وبخاصة منهم العرب من أهل قرطبة لهم.

لقد كان بالإمكان تفادي تلك الفتنة التي قتل فيها الأخ أخاه، ودمّر فيها الأبناء ما أنجزه الأباء العظماء سواء في المجال السياسي أو الاقتصادي أو العمراني أو الثقافي لو تحلى المتصارعون بالحكمة، ولو لجأوا إلى القاسم المشترك الذي يجمع بينهم، ألا وهو الدين الإسلامي، ولكن ابتعاد أهل الأندلس عن ذلك، وبخاصة منهم الفقهاء - الذين كان دورهم سلبي للغاية خلال الفتنة بل كان قسم منهم يحرّض على الظلم والعدوان - جعل دار الإسلام تعيش فترة عصيبة في حياتها، تلك الفترة التي ستكون بداية تشرذم الأندلس، واستغل النصارى ذلك فأصبحوا يحرضون المسلمين على الاقتتال ليسهل عليهم فيما بعد القضاء على الطرف المنتصر ولكن الضعيف بسهولة أكبر.

بعد استعراضنا للمراحل التي مرت بها الفتنة الاندلسية، ومحاولة التعرف على الأسباب البعيدة التي أدّت إلى قيامها، وبعد تعرفنا على موقف الطرف الرئيس في هذه الفتنة ألا وهو البربر، والدور الذي قام به هؤلاء خلال أحداثها يحق لنا في الأخير أن نتساءل عن المسؤول الحقيقي الذي تسبب في قيام هذه الفتنة؛ فهل هو البربر أم الصقالبة؟ وهل هم العرب أم أبناء البيت الأموي؟ ذلك ما سنحاول أن نتطرّق إليه من خلال العنصر اللاحق.

ب - محاولة تحديد المسؤوليات في قيام الفتنة الأندلسية

محاولة تحديد المسؤوليات في قيام الفتنة الأندلسية: بعد استعراضنا للمراحل التي مرت بها الفتنة الأندلسية القائمة في مطلع القرن الخامس الهجري (11 م)، وتعرفنا على الأسباب الكامنة وراء اندلاعها، وعلى الموقف الذي اتخذه البربر منها، والدور الذي لعبوه في أحداثها باعتبارهم الطرف الرئيس فيها، يحق لنا أن نتساءل عن المسؤول الذي أدى إلى قيامها.

للإجابة على هذا السؤال يجدر بنا أن نعود إلى المراحل التاريخية التي مرت بها بلاد الأندلس قبل قيام الفتنة، واستعراض الأطراف المختلفة التي كان لها دور فعال في التاريخ الأندلسي، ومن خلال ذلك يمكننا الإجابة على التساؤل الذي طرحناه سابقا.

تختلف المصادر التاريخية في تحديد المسؤول المباشر عن إشعال نار فتنة القرن الخامس الهجري؛ فمنها من يحمّل مسؤولية إشعال نارها إلى البربر، ويأتي على رأس قائمة المؤرخين الذين قالوا بذلك المؤرخ الأندلسي ابن حيان القرطبي الذي يسميها بـ"فتنة البرابر"،[1] ويصفها بـ"الفتنة البربرية الشنعاء المدلمهة، المفرّقة للجماعة، الهادمة للمملكة المؤثلة، المغربة الشأو على جميع ما مضى من الفتن الإسلامية"[2]، ويحدد هذا المؤرخ المسؤول الرئيس عن قيامها، ويتمثل في زعيم صنهاجة زاوي بن زيري حيث يقول ابن حيان في إحدى رسائله عند ما بلغه خبر وفاته بإفريقية: "ونعي إلينا عدو نفسه زاوي بن زيري، موقد الفتنة بعد الدولة العامرية"[3].

ويورد لنا مؤلف "مفاخر البربر" قولا آخر لابن حيان يؤكد من خلال ما سبق تحميله مسؤولية قيام الفتنة إلى المغاربة؛ فعند حديثه عن ثوار البربر وفتنتهم بالأندلس يقول مؤرخ الأندلس: "وهذه ناذرة من طخيات[4] هذه الفتنة البربرية المبيدة"[5].

ويضيف ابن حيان أيضا عند كلامه عن اجتباء فرسان البربر من قبل الحكم المستنصر إلى الأندلس قائلا: "فكان ذلك سببا لتقدمهم طوائف الجند الأندلسي، وهدمهم للملك العادي، وإلقاحهم للفتنة البربرية الحالقة"[6].

---

(1) ابن بسام الشنتريني - الذخيرة - ق1 م1 ص61.

(2) نفسه - ق1 م1 ص 576.

(3) نفسه ق1 م1 ص588.

(4) الطخية - الطخية أو الطخية: هي الظلمة أو القطعة من السحاب - المنجد في اللغة والأعلام ص 462.

(5) مجهول - مفاخر البربر - ص 184.

(6) المقتبس - ج 6 ص 189.

ويشير أيضا إلى أن المنصور بن أبي عامر لما استولى على زمام الأمور بقرطبة حجر على الخليفة هشام المؤيد، واستظهر بهؤلاء البرابرة وعلاّهم على طبقات أجناده، وانتهى الأمر بهم إلى ما هم الآن بصدده من إبطال الخلافة وتفريق الجماعة، والتمهيد للفتنة والاشراف بالجزيرة على الهلكة"[1].

من خلال النصوص التي أوردناها سابقا يتبين جليا أن المؤرخ الأندلسي ابن حيان يرى أن المسؤول الأول والوحيد عن قيام الفتنة بالعدوة الأندلسية هو البربر، وتعدد النصوص التي أوردها المؤلف تثبت تأكيده على ذلك الأمر، وسنعود إلى مناقشة ذلك لاحقا.

ومن المؤرخين الذين جاروه في قوله ابن الحسن النباهي الذي يقول: "ولما قامت فتنة البرابر"[2]، وابن الخطيب الذي يسميها بالفتنة البربرية[3].

ومنهم أيضا الفتح بن خاقان الذي يقول متحدثا عن المنصور بن أبي عامر إنه: "أذلّ قبائل الأندلس بإجازة البرابر، وأخمل بهم أولئك الأعلام الأكابر؛ فإنه قاومهم بأضدادهم، واستكثر من أعدائهم حتى تغلبوا على الجمهور وسلبوا عنهم الظهور، ووثبوا عليهم الوثوب المشهور الذي أعاد أكثر الأندلس قفرا يبابا، وملأها وحشا وذئابا، وأعراها من الأمان برهة من الزمان"[4].

إلى جانب هؤلاء المؤرخين الذين حمّلوا مسؤولية قيام الفتنة إلى البربر، هناك فريق من المؤرخين الذين يلقون ذلك الأمر على محمد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدي، وهو أول خلفاء الفتنة الأندلسية، ومن أبرز المؤرخين الذين قالوا بذلك ابن الابار الذي يؤكد أنه "باعث الفتنة بالأندلس، وموقد نارها الخامدة، وشاهر سيفها المغمد"[5].

---

(1) نفسه - ص 193.
(2) تاريخ قضاة الأندلس - ص117.
(3) الاحاطة في أخبار غرناطة ج1 ص93.
(4) ابن خاقان - مطمح الأندلس - ص 389/ البيان المغرب - ج2 ص274.
(5) ابن الأبار - الحلة السيراء - ج2 ص5.

ويقول في موضع آخر من مؤلّفه متحدثا عن الفتنة القائمة بالأندلس، "وأول من أرّث نارها، وأورث شنّارها محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدي"،[1] ومنهم ابن عذاري المراكشي الذي يقول عند تعريفه بالمهدي: "وهو كان باب الفتنة، وسبب الشقاق والنفاق"[2].

ويضيف نفس المؤلف عند حديثه عن قيام المهدي قائلا: "وهذا ما فعل السفيه ابن عبد الجبار ورأيه سبب الفساد والفتنة العظيمة الطويلة التي يسميها أهل الأندلس بالفتنة البربرية، ولو سمّوها بفتنة ابن عبد الجبار لكان الأحق والأولى"[3].

ومنهم المقري الذي يقول، وهو يتحدث عن قيام المهدي: "ولقد كان قيامه مشؤوما على الدين والدنيا؛ فإنه فاتح أبواب الفتنة بالأندلس، وماحي معالمها حتى تفرّقت الدولة وانتثر السلك وكثر الرؤساء، وتطاول العدو عليها وأخذها شيئا فشيئا حتى محا إسم الإسلام منها"[4].

وهناك من يحمل مسؤولية قيام الفتنة للحاجب عبد الرحمن شنجول، ومنهم ابن عذاري الذي يقول: "وكان السبب في ادعاء العهد الباعث على الفتنة"[5]، ويجاري ابن سعيد المغربي رأي هذا الأخير؛ فيلقي مسؤولية قيام فتنة القرن الخامس الهجري على عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر فيقول: "إنه قام نحسا على نفسه وعلى أهل الأندلس فمنه انفتح باب الفتنة العظمى وفسد الناموس"[6].

مثلما اختلف المؤرخون القدامى في تحديد المسؤول عن قيام فتنة القرن الخامس الهجري، إختلف المؤرخون المعاصرون في ذات الموضوع؛ فهناك فريق حمّل المسؤولية في ذلك إلى البربر، وأبرزهم السيّد عبد العزيز سالم الذي يقول: "إن

(1) نفسه - ج2 ص 30.
(2) البيان المغرب - ج 3ص 50.
(3) نفسه - ج 3 ص 76.
(4) المقري - نفح الطيب - ج 1 ص 577.
(5) ابن عذاري - البيان - ج 3 ص 42.
(6) ابن سعيد المغربي - المغرب في حلي المغرب - ج 1 ص 146.

العنصر البربري الذي كان متفوقا في العدد على العنصر العربي هو المسؤول الأول عن النكبة التي أصابت قرطبة خاصة، والأندلس بقيام الطوائف عامة"، ويضيف قائلا: و"على هذا العنصر تقع تبعة سقوط الخلافة بقرطبة"، ويؤكد الدور الذي قام به المغاربة فيقول: "والواقع أن البربر هم الذين أشعلوا نار الفتنة في قرطبة، وهم الذين أفادوا منها أكبر فائدة بعد أن عجّلوا بسقوط الخلافة الأموية، إذ تمكنوا من تأسيس دويلات بربرية"[1]، ويؤيّده في ذلك محمود علي مكي الذي يسمي فتنة القرن الخامس الهجري بالفتنة البربرية[2].

وهناك من ألقى باللآئمة على ابن عبد الجبار باعتباره أول من قام خلال هذه الفتنة، وبسياسته أدى إلى إشعال نارها، ومنهم حمدي عبد المنعم الذي يتكلم عن قيام الثورة في قرطبة ضد العامريين بزعامة محمد بن هشام بن عبد الجبار حيث يقول: "وكان المتآمرون قد اتفقوا على القيام بالثورة بمجرد خروج عبد الرحمن شنجول إلى الغزو"[3]، وبالفعل فقد أعلنوا الثورة في قرطبة في السادس عشر من جمادى الأولى سنة 399هـ (1008/11/15م).

وهناك فريق من المؤرخين حمّل مسؤولية اندلاع نيران الفتنة لأهل قرطبة، ومن أبرز ممثليه محمد عبد الله عنان الذي يقول: "فلما خرج عبد الرحمن إلى الغزو، كان الشعب يضطرم سخطا وبغضا وازدراء، وكان يرقب أول بادرة للإنفجار؛ فلما وقعت هذه البادرة بوثوب محمد بن هشام لبى الشعب لفوره دعوة الخروج، ولم يفكر في شيء من العواقب"[4].

بعد استعراض أراء المؤرخين القدامى والمعاصرين يتبين جليا الإختلاف الموجود بينهم حول تحديد المسؤول الحقيقي عن قيام فتنة القرن الخامس سواء بين

(1) السيّد عبد العزيز سالم - قرطبة حاضرة الخلافة - ص 120.

(2) ابن حيان - المقتبس - ج2 ص 9، 17،23 وما بعدها.

(3) حمدي عبد المنعم محمد - دراسات في التاريخ الأندلسي - مؤسسة شباب الجامعة - إسكندرية 1990 - ص 26.

(4) عبد الله عنان - دولة الإسلام في الأندلس - العصر الأول - القسم الثاني - ص 638 - 639.

أفراد الفئة الأولى أو أعضاء المجموعة الثانية.

من المؤكد أن الفتنة التي قامت خلال بداية القرن الخامس لا يمكن ردّها إلى شخص واحد أو فئة واحدة، ذلك أن ما حدث سنة 399هـ (1008م) كانت أسبابه متواجدة قبل هذا التاريخ، وقد عرفنا أهم الأسباب التي كانت وراء إندلاع الفتنة فيما سبق إلا أن السبب المباشر لها كان في بداية هذا القرن الخامس الهجري، فما هو هذا السبب؟ ومن المسؤول المباشر عن إندلاع هذه الفتنة التي لم تحمل معها إلا المآسي للإسلام والمسلمين بالعدوة الأندلسية؟

يقول ابن حيان إن المسؤولية تقع على عاتق البربر كما ذكرنا ذلك سابقا من خلال جملة النصوص التي أوردناها، ولكن الحقيقة التي يصعب إنكارها، والتي يجمع عليها مختلف المؤرخين هي أن المؤرخ الأندلسي كان يمتاز بكراهيته الكبيرة للعنصر البربري، ويتجلى ذلك من خلال العبارات والأوصاف التي يستعملها عند كلامه عنهم، فهو يحمّلهم كل الأحداث المؤلمة التي وقعت في الأندلس، بل يجعل منها أسوأ فتنة وقعت في التاريخ الإسلامي.

كان ابن حيان يكن للبربر كراهية شديدة تشع على ظاهر الصفحات التاريخية التي كتبها، فهو يندد بقسوتهم وحقدهم الدفين على الدولة الأندلسية"[1]، ويصفه أحد المؤرخين "بالكره الشديد للبربر"[2].

ولم يكن ابن حيان الوحيد الذي كان يكن الكراهية للبربر والحقد عليهم، ذلك أن المصادر التاريخية تحفل بالكثير من الإشارات التي تؤكد هذا الشعور من العنصر البربري، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك عند كلامنا عن المكانة الاجتماعية للبربر ونظرة المجتمع الأندلسي إليهم.

ولم يقتصر ذلك على العامة فقط بل تعداه إلى العلماء والفقهاء، من ذلك أن ابن حزم يقول عنهم: "وكفار البربر كانوا أشرّ كفار، فإنهم ليسوا أهل كتاب ولا ارتباط

---

(1) ابن حيان – المقتبس: تحقيق د. محمود علي مكي ص 114.

(2) R Menendez Pidal - Historia de Espana - tV - Espana Musulmana - Espasa calpe - Madrid - 1973 - p.43.

بشرع، وكذلك مسلموهم شرار المسلمين وأكثرهم غائلة"[1]، وكأن الإسلام لم يغير شيئا من طبيعة هؤلاء البربر على غرار ما قام به الدين الجديد بخصوص العرب الذين لم يكونوا أهل كتاب قبل ظهور الإسلام أيضا.

ومن ذلك أيضا أن أحد العلماء "استقبلهم شاهرا سيفه يناديهم إلي إلي، ياحطب النار طوبى لي إن كنت من قتلاكم"[2]، واعتبر أهل الأندلس شهيدا كل شخص قتل على يد البربر خلال الفتنة الأندلسية؛ فابن بشكوال يتحدث عن أحد العلماء بقوله: " ثم ختم الله له آخر ذلك كله بالسعادة؛ فقتله البرابرة يوم تغلبهم على قرطبة"[3]، ويتعلق الأمر بأبي الوليد القاضي المعروف بابن الفرضي صاحب كتاب "تاريخ علماء الأندلس".

من خلال ما سبق وما ذكرناه عند حديثنا عن المكانة الاجتماعية للبربر في بلاد الأندلس يبدو جليا للعيان أن هناك نفور شديد من قبل الأندلسيين وبخاصة منهم العرب تجاه البربر، وقد بدأ هذا النفور والبغض حسب أغلب الروايات التاريخية منذ قيام البربر بثورة ضد العرب في سنة 123هـ (740م)، وإخراجهم من المناطق الشمالية التي كانوا يقيمون فيها إلى جوارهم، وكان رد الفعل العربي، وبخاصة من قبل الجند الشاميين بقيادة "بلج بن بشر" عنيفا وقاسيا إذ قاموا بتقتيل فظيع للمغاربة، ولم يكتفوا بذلك بل وصلت بهم الجرأة إلى حد سبي الأطفال والنساء، وبيعهم بالمزاد لمن يدفع أقل، وقد سبق أن ذكرنا ذلك، ومن هنا كان من الطبيعي أن توجه أصابع الاتهام إلى البربر، وتحميلهم مسؤولية ما جرى بالأندلس، فهل هذا صحيح؟

إن المتتبع لأحداث الفتنة الأندلسية كما فعلناه سابقا من خلال استعراضنا لمجريات أحداثها، والتعرف على الموقف البربري من أحداثها، ودورهم في سيرها سيتأكد بلا شك أنهم لم يكونوا السبب المباشر في إندلاعها، ذلك أنهم لم يكونوا

---

(1) مجهول - فتح الأندلس - ص 55.

(2) ابن بشكوال - الصلة - ج2 ص 460.

(3) نفسه - ج2 ص 460.

متواجدين بقرطبة عندما بدأت أحداث الفتنة حيث أجمعت المصادر التاريخية بما في ذلك ما كتبه ابن حيان أنهم خرجوا مع شنجول في الغزوة التي قام بها عقب تعيين هشام له وليا للعهد، وذلك في حوالي منتصف جمادى الأولى 399هـ، وتعرف هذه الغزوة باسم "غزوة الطين"[1]، وعندما اقتحم شنجول والبربر الذين كانوا معه أرض جليقية بعدما قدموا إليها من طليطلة، وصل إليهم الخبر بقيام محمد بن هشام بن عبد الجبار[2].

عقب تواتر أخبار قيام المهدي في قرطبة، حاول عبد الرحمن شنجول أن يقنع البربر بمحاربته والقضاء عليه، وهو ما يعني إدخال قرطبة خاصة، والأندلس عامة في دوامة الحرب التي يقاتل فيها المسلم أخاه، ولكن البربر رفضوا ذلك، ولسان حالهم ابن يعلى الزناتي الذي دعاه عبد الرحمن، وطلب منه الإلتزام مع قومه على محاربة أهل قرطبة ونصرة الخليفة المظلوم؛ فقال له: "لن يقاتل عنك أحد من زناتة والناس تبع لهم"[3]، رغم ما قدم لهم من مكافآت حيث "كتب لهم صكوكا بالإنزال في دورهم وضياعهم، وقدم جميعهم على الخطط"[4].

اتفق البربر الذين كانوا مع عبد الرحمن في غزوته إلى جليقية على عدم الدخول في حرب ضد أهل قرطبة، ونفذوا ما اتفقوا عليه عندما وصلوا - وهم في طريق العودة - إلى منزل هانئ حيث "افترق الناس عنه ووصلوا قرطبة، وتركوه في نحو خمسين فارسا ثم هبط إلى أرملاط فزال عنه من بقي معه"[5].

وكان البربر في مقدمة من ترك عبد الرحمن، ويؤكد ذلك ابن خلدون فيقول: "حتى إذا قرب من الحضرة تسلل عنه الجند ووجوه البربر، ولحقوا بقرطبة"، ولم

(1) النويري - نهاية الأرب - ص 127/البيان المغرب - ج 3 ص 48.
(2) نفسه - ج 3 ص 48 - 49.
(3) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 97.
(4) ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 49.
(5) نفسه - ج 3 ص 49/ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 98.

يكتفوا بترك شنجول فقط بل "بايعوا المهدي القائم بالأمر"(1).

لقد كان البربر بحكم انتمائهم للجند الأندلسي يعتبرون أنفسهم في خدمة الخلافة، ولا يرتبطون بأحد، ولهذا السبب نراهم يتخلون عن عبد الرحمن شنجول رغم ما أجزل لهم من عطاء، ويلتحقون بقرطبة ليبايعوا الخليفة الجديد القائم بها، وهو المهدي.

لكن ماذا كان ردّ فعل القائم بقرطبة تجاه ذلك؟ لقد أساء ابن عبد الجبار التصرف لأنه ناصب البربر العداء حيث أمر بأن "لا يركبوا ولا يتسلحوا، وردّوا في بعض الأيام من باب القصر، وانتهبت العامة دورهم"، كما كان المهدي "مظهرا لبغضهم، مجاهرا بسوء الثناء عليهم، وبلغهم أنه أسرّ الفتك بهم"(2).

لقد كان أولئك البربر الذين ناصبهم المهدي ذلك العداء الشديد وحرّض العامة على الإعتداء عليهم، قد جاءوا إلى هذه البلاد من أجل الإرتزاق في صفوف الجيش الأندلسي، وكانوا بأعداد كبيرة يتزعمهم عدد من خيرة زعمائهم، ونتيجة لعملهم في هذا المجال اتخذوا الأندلس موطنا لهم، وجاء المهدي ليحاول القضاء عليهم مع أن الواجب كان يحتّم عليه، وبخاصة بعد دخول البربر في طاعته، أن يؤمّنهم على مراكزهم ومكانتهم لأنهم جاءوا إلى هذه البلاد من أجل الإشتراك في الجهاد ضد النصارى، وقد أبلوا في ذلك بلاء حسنا، وسبق أن عرفنا الدور الكبير الذي قاموا به في محاربة النصارى والمناوئين للسلطة الحاكمة، ولا يتحمّلون أي ذنب إذا كان المنصور بن أبي عامر قد استعملهم للوصول إلى التحكم في الخلافة، والحجر على الخليفة هشام المؤيد.

لقد تعرّض البربر من جرّاء هذا الموقف العدائي للمهدي إلى القتل والسبي والنّهب حيث كان أهل قرطبة "لا يألونهم إلا شرا، وكل من وجدوه منهم في خلوة أو منفردا قتلوه غيلة، وكان البربر إذا دخلوا أسواق قرطبة تخوفوا من العامة لتعصبهم

(1) ابن خلدون - العبر - ج 7 ص 324/ ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 112.
(2) ابن خلدون - العبر - ج 7 ص 325.

عليهم وبغضهم فيهم، وكان من المنطقي أن يردّ البربر على العدوان بالعدوان، ولكننا نجدهم مع كل ما حدث لهم "صابرون ينهون سفهاءهم وعبيدهم أن يمدّ أحد منهم يده إلى أندلسي"[1].

ولكن استمرار الإعتداءات اضطرتهم إلى البحث عن حلّ ينجيهم من كل ما وقع لهم، وكان من الممكن أن يستعملوا من أجل ذلك سلاحهم وما كانوا يتميزون به من فروسية وشجاعة في قتال أعدائهم، ولكنهم اكتفوا بمساندة أحد الأمويين الذي حاول التخلص من المهدي عندما لاحظ أنه لم يكن جديرا بقيادة الأندلس، ويتعلق الأمر بهشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الذي قام على المهدي في يوم الخميس لخمس خلون من شوّال سنة 399هـ (1008م)، وبعد قتال قصير انسحب البربر وأسر هشام بن سليمان وجيء به إلى المهدي فضرب عنقه[2].

ونتيجة لموقف البربر المساند لهشام، أقدم المهدي على إجراء خطير سيجعل البربر يقرّرون الإنسحاب من قرطبة والتوجّه إلى الثغر، ذلك أن محمد بن هشام أمر عقب هذه المحاولة "الإنقلابية" بأن ينادى في البلد "من أتى برأس بربري فله كذا وكذا"، واستغلّ أهل قرطبة هذه الفرصة التي منحها الخليفة لهم، فشرعوا في قتل من قدروا عليه من البربر وسبي نسائهم"[3].

إن المواقف السابقة كلها كانت تدفع البربر إلى الدفاع عن أنفسهم وأهليهم، وكان من حقّهم أن يردّوا على أنفسهم ما لحق بهم من الأذى، وإن كانوا قد تجاوزوا في بعض الأحيان الحدود المعقولة، إلا أن ذلك يجد تفسيره في الطرق التي استعملها المهدي وأهل قرطبة بصفة خاصة في الإعتداء عليهم، ومعنى ذلك أن مشاركتهم في الفتنة الأندلسية كان نتيجة لتصرفات من أوقد نار الفتنة أولا، وهو بالدرجة الأولى ابن عبد الجبار وأهل قرطبة، ولا يجانب ابن حيان الحقيقية في بعض الأحيان، حيث ينقل

---

(1) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 3 ص 92.

(2) الحميدي - جذوة المقتبس - ص 22/ عبد الواحد المراكشي - المعجب - ص 65.

(3) النويري - نهاية الأرب - ص 135/ البيان المغرب - ج 3 ص 81.

عنه مؤلّف مفاخر البربر كلاما عن بني يرزال يقول فيه إنهم كانوا "يخدمون في عسكره إلى أن توفي ابن أبي عامر، وتفرقت الجماعة، وانشقت العصا، وصار أمر المسلمين شيعا؛ فكسحوا في الحروب والفتنة والنّهب كما فعل غيرهم"[1].

ويؤكد نفس الأمر عند حديثه عن بني يفرن فيقول: إنهم "كانوا يخدمون في عسكر محمد بن أبي عامر؛ فأقاموا بالأندلس إلى أمدّ الجماعة ونزول الفتنة المبيدة؛ فكسحوا في الفتنة كما فعل غيرهم"[2].

مما سبق يتبين أن مشاركة البربر في الفتنة قد جاءت كنتيجة للظروف العامة التي مرّت بها الأندلس في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجريين، وأن قضية الفتنة لم ترتبط بالبربر كمفجرين لها بقدر ما كانت ضرورة حتمتها عليهم سياسة المهدي وأتباعه من أهل قرطبة، وبخاصة سفّال القوم.

وحتى عندما خرج البربر من قرطبة على إثر الإعتداءات التي قام بها أهلها وجندها بتحريض من المهدي، فإن الكثير من بطونهم بقوا في الحضرة، ويدلنا على ذلك إرسال الخليفة المهدي لأحد قادة البرازلة إلى قلعة رباح، وتكليفه بمهمة لدى جموع البربر التي غادرت الحضرة، وبايعت سليمان المستعين[3].

من خلال التتبع الدقيق لما جاء في المصادر التاريخية عامة والمتعلقة بتاريخ الأندلس بصفة خاصة يتأكد لنا أن البربر لم يكونوا مفجري الفتنة الأندلسية بقدر ما كانوا من ضحاياها، ودليلنا في ذلك ما تعرضوا له من القتل والسبي والنهب على أيدي العامة، وجند قرطبة الموالين لابن عبد الجبار، ولقد حاول البربر أن يتفادوا ذلك كله؛ فانحرفوا عن شنجول لأنه دعاهم إلى قتال الموالين للمهدي كما أنهم، وبمجرّد عودتهم إلى قرطبة، بايعوا الخليفة الجديد، وأظهروا تمسكهم بالدولة القائمة في الأندلس، وهو ما ينفي عنهم بدون شك التهمة التي كان يوجّهها إليهم أهل ألأندلس

---

(1) مجهول - مفاخر البربر - ص 182.

(2) نفسه - ص 183 - 184.

(3) حمدي عبد المنعم محمد حسين - دراسات في التاريخ الأندلسي - ص 29.

قاطبة وأهل الحضرة خاصة، والمتمثلة في "مظاهرتهم للعامريين ومساعدة المنصور بن أبي عامر وولديه في التغلب على أمر الأندلس"[1].

لقد بذل البربر جهدا كبيرا بغية تفادي ما وقع، وحتى عندما تعرضوا إلى القتل، وتعرضت دورهم إلى النهب، واعتدي على زعمائهم؛ فإنهم لم يردّوا بالمثل، بل أرسلوا وفدا بقيادة زعمائهم بهدف الاتصال بالمهدي وإعلامه بما وقع لهم، ورغم أنه أظهر لهم أنه سيعاقب المتسببين في ذلك إلا أن الأعمال الانتقامية استمرت ضدهم، وبخاصة بعد فشل محاولة الإطاحة بالمهدي على يد أحد الأمويين، ورغم ذلك كانوا متمسكين بالطاعة، ودليلنا في ذلك منعهم لعبيدهم من الردّ على المعتدين، لأن الخليفة الموجود في قرطبة لم يعد يعترف بهم كإحدى فئات شعب الأندلس، وبالتالي أصبحوا مجبرين على الدّفاع عن أنفسهم، ولعلّ ما يؤكد ذلك هو الحوار الذي دار بين البربر وأهل إلبيرة عندما عزم المرتضى على توجيه الضربة الأولى إليهم قبل التوجّه إلى الحضرة، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك آنفا.

ويؤكد ابن حيان ثراء الصنهاجيين الذين دخلوا إلى الأندلس بدعوة من المظفر عبد الملك بن محمد بن أبي عامر حيث يقول: إنه "أدخله - أي زاوي بن زيري - بمن معه من إخوته وهم من سعة نعمة وبعد الهمم واستصغار الرغائب فيما يكون عليه أشباههم من أبناء الملوك؛ فاستقلّوا ما وصلهم به عبد الملك على كثرته"[2].

عمل البربر بعد مبايعتهم للمستعين على مواصلة محاولات الصلح بينهم وبين المهدي، ولذلك اتصلوا بواضح قائد الثغر الأوسط، واقترحوا عليه القيام بدور الوساطة بين الطرفين من أجل مصلحة البلاد والعباد، ولكن قائد المهدي لم يكتف برفض فكرة الصلح بين البربر والخليفة بل أعلن عن حصار اقتصادي على المغاربة، وهو الأمر الذي انعكس سلبيا عليهم ولولا مساعدة النصارى، أعداء الطرفين الحقيقي لمات هؤلاء المسلمين جوعا في دار الإسلام وبسبب المسلمين.

---

(1) ابن خلدون - العبر - ج 7 ص325.

(2) عبد الله بن بلقين - كتاب التبيان - ص 61.

عند هذا الحد لم يعد بإمكان البربر أن يصبروا أكثر من الوقت الذي مضى، وأصبحوا مجبرين على الرد بالمثل، وإن كانوا في أحيان كثيرة قد تجاوزوا الحدّ في الانتقام من الذين اعتدوا عليهم مع الإشارة هنا إلى أن الأعمال الانتقامية التي قام بها البربر لم تنطلق إلا بعد انتصارهم على الجند الأندلسيين في موقعة عقبة البقر[1]، مما يعني أنهم صبروا للأذى والعدوان طيلة اثنين وعشرين شهرا من قيام المهدي بقرطبة[2].

والغريب في الأمر هو أنه بالرغم من وجود هذه الأدلة في أمهات المصادر الأندلسية، إلا أن بعض الكتاب يحملون البربر المسؤولية الكاملة فيما وقع بالأندلس وبخاصة المشارقة، وعلى رأسهم كما ذكرت سابقا السيد عبد العزيز سالم الذي يذكر في البداية أن العنصر البربري هو" المسؤول الأول عن النكبة، وعليه تقع تبعة سقوط الخلافة بقرطبة، مع أن البربر وبداية من سنة 407هـ (1018م) لم يعد لهم إلا دور ثانوي في الفتنة، وسيكون الصراع محصورا بين الخلفاء الحموديين من جهة، وعامة قرطبة من جهة ثانية.

ولتبرير حكمه، يقول السيد عبد العزيز سالم: إن البربر أشعلوا نار الفتنة في قرطبة، وهم الذين أفادوا منها أكبر فائدة، إذ تمكنوا من تأسيس دويلات بربرية[3]، والسؤال الذي يطرح نفسه علينا: هل هذا دليل لحصر المسؤولية في البربر؟ ثم هل كانوا الوحيدين الذين استفادوا من الفتنة؟

إن تتبع مراحل الفتنة الأندلسية وبخاصة قيام ممالك الطوائف يبين بوضوح أن العناصر الأندلسية الأخرى قد استفادت كذلك من هذه الأوضاع حيث أسس كل من العرب والصقالبة عدة إمارات مستقلة، وبلغ عدد الإمارات العربية أحد عشر إمارة بينما بلغ عدد الإمارات التي أسسها البربر ستة فقط، وهي أصغر مساحة مقارنة بالمناطق التي امتدت عليها الإمارات العربية[4].

---

(1) ابن بسام - الذخيرة - ق4 م1 ص 81.

(2) حمدي عبد المنعم محمد - دراسات في التاريخ الأندلسي - ص 34 - 35.

(3) عبد العزيز سالم - قرطبة حاضرة الخلافة - ص 120.

(4) إبراهيم بيضون - الدولة العربية في اسبانية - صص 405 - 408.

والسؤال الذي يطرح نفسه بعد هذا، هل البربر هم المستفيدون الوحيدون من نتائج الفتنة الأندلسية؟ والجواب طبعا هو لا حسب ما ذكرناه سابقا، وسنعود إلى هذا الموضوع لاحقا عند تطرقنا إلى نتائج الفتنة.

يضيف السيد عبد العزيز سالم كتبرير لما قام به العرب تجاه البربر حيث يتكلم عن اندماج العرب مع أهل البلاد من المسالمة والمولدين من أجل تكوين حزب يمثل التيار البلدي أو القومي في الأندلس، والذي كان من أهم أهدافه تطهير البلاد من العناصر الطارئة الدخيلة بربرية أو صقلبية"[1]، وهذا كلام خطير، ذلك أنه يتبنى فكرة تقوم على أساس ملكية العرب لبلاد الأندلس مع المسالمة والمولدين، ومعنى ذلك إقصاء العناصر الأخرى المكونة للمجتمع الأندلسي، إذ يسميها "الدخيلة".

إن البربر كانوا السبّاقين إلى دخول الأندلس، وعلى عاتقهم قام الفتح الإسلامي، وبفضلهم دخلت شبه جزيرة إيبيريا إلى حظيرة الإسلام، وإليهم أيضا يعود الفضل في قيام الدولة الأموية، وقد سبق أن أوضحنا ذلك، ثم إن البربر الطارئين قد لعبوا أيضا دورا كبيرا في الذّود عن حمى الدولة الإسلامية، ومواجهة الأعداء المتربصين بها.

كل هذا جعل البربر يعتبرون أنفسهم جزءا لا يتجزأ من المجتمع الأندلسي، وإن كان أهل الأندلس يعيبون عليهم مساندتهم للمنصور بن أبي عامر، ومساعدته من أجل الإستحواذ على السلطة والإستبداد بالأندلس، فذلك ليس ذنبهم لأن مهمتهم كانت محصورة في العمل العسكري، والجندي هو الخادم المطيع لرئيسه المباشر، ورغم مكانتهم إلا أن البربر كانوا يعانون كثيرا من تعصب العرب ضدهم، وقد سبق أن أوضحنا ذلك.

إن البربر قاموا في كل وقت بما كان مطلوب منهم، وكانت الأندلس بالنسبة إليهم هي أساس وجودهم، وأكبر دليل على ذلك هو رفضهم لما طلبه منهم عبد الرحمن شنجول، وتخليهم عنه عندما لاحظوا أن أهدافه أصبحت تتعارض مع

---

(1) السيد عبد العزيز سالم - قرطبة خاضرة الخلافة - ص 121.

المصلحة العامة للشعب الأندلسي، وما التحاقهم بقرطبة ومبايعتهم للمهدي إلا دليل يثبت بما لا يدع مجالا للشك تمسكهم بالخلافة والسلطة التي تمثلها.

إلى جانب اتهامهم بتفجير الفتنة بقرطبة، يتهم البربر أيضا بأعمال التخريب التي طالت المظاهر العمرانية لقرطبة وأحوازها، ولكن هل هذا صحيح.

إن العودة إلى المصادر التاريخية وبخاصة منها الموضوعية، تؤكد أن البربر لم يكونوا لوحدهم من قام بتخريب المنشآت العمرانية، وعلى الأقل فإنهم لم يكونوا البادئين بهذه الأعمال، ذلك أن المهدي استغل إقبال عامة قرطبة عليه عقب قتله صاحب المدينة في عهد عبد الرحمن شنجول "ليحركهم على العامرية"، ونتيجة لذلك قصدت أمم من أخلاط الناس الزاهرة وانتهبتها، واقتسمت الأيدي كل ما اشتملت عليه من مال مخزون وآلة ومتاع وعدد سلطانية وفرش وآنية"، ولم يكتف الناس بذلك بل "اقتلعوا الأبواب الوثيقة والخشب الضخمة"[1].

لم تتوقف أعمال النهب عند هذا الحدّ بل استولى المهدي من خلال جنده على كل الأموال التي كانت موجودة في مدينة المنصور، وليت الأمر توقف عند هذا الحدّ فقط بل انطلقت عملية أخطر عقب ذلك كله حيث "أمر بهدمها وحطّ أسوارها وقلع أبوابها وتشعيث قصورها وطمس آثارها"، وطلب من القائمين بذلك أن يسرعوا في إنهاء هذه الأعمال التخريبية خوفا من عودة عبد الرحمن شنجول وجند البربر.

إجتهد الناس في أعمال الهدم إلى درجة يعجز عنها الوصف، ويعبر عن ذلك ابن الخطيب فيقول: إنهم "بلغوا من تدمير تلك المدينة الجليلة ما لا تبلغه الدهور المتعاقبة، فأصبحت بلقعا كأن لم تغن بالأمس"[2].

لقد كانت مدينة الزاهرة على حدّ تعبير ليفي بروفنسال أكثر المنشآت الخلافية زوالا، إذ لم يكن قد مضى على بنائها أكثر من ثلاثين عاما، وكان زوالها شاملا"[3]،

---

(1) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 110 - 111.

(2) نفسه - ص 111 / ابن عذاري - البيان - ج 3 ص 64.

(3) E.levy Provençal - l'Espagne Musulmane au 10eme siècle - p.330 - 331.

وبالإضافة إلى هذه المدينة التي أزيلت من الخريطة، تأثرت منازل البربر التي كانت موجودة بربض بلاط مغيث، وهو من الأرباض الغربية لمدينة قرطبة، حيث استولى عليها الخراب بعد خروج أهلها عنها، وقد أشار ابن حيان إلى ذلك في قوله: "وممن رثى قرطبة أيضا من وجوه أهلها وأرباب النعم المؤثلة بها، وأكثر التفجع على دياره منها لما استولى الخراب عليها عند فرار البربر عنها، الفقيه الأديب أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، ابن وزير آل عامر الأكبر، فإني وجدت بخطه في خبر ذكره قال: وقفت على أطلال منازلنا بحومة بلاط مغيث من الأرباض الغربية ومنازل البربر المستباحة، فرأيتها قد امّحت رسومها وطمست أعلامها وخفيت معاهدها وغيرها البلى؛ فصارت صحاري مجدبة بعد العمران"[1].

ويؤكد ابن حزم أن ذلك حدث بعد ثلاثة أيام من قيام محمد المهدي في قرطبة،[2] وهو ما يؤكد أن الذين قاموا بأعمال التخريب والنهب إلى الدرجة التي أدت إلى تغيير مظاهر العمران بهذا الربض من مدينة الحضرة، لم يكونوا البربر لأنهم كانوا متواجدين في الثغر الأوسط رفقة عبد الرحمن شنجول.

إلى جانب تخريب مدينة الزاهرة، قام واضح بإصدار أمر بهدم منية الرصافة، وقام السفهاء من جند الخلافة بتنفيذ ذلك؛ فخرّبوها وحرقوها وقطعوا ثمارها بعدما كان يضرب بها المثل في الحسن والجمال، وكل ذلك خوفا من أن يدخل البربر منها إلى الحضرة أثناء حصارهم لها[3].

استغلّ عامة قرطبة خروج البربر من مدينة الزهراء بعيالهم وأولادهم وأموالهم وتوجههم نحو الجنوب ليدخلوها ويكرروا ما فعلوه سابقا حيث نهبوا ما وجدوا فيها من آلات البربر، وقتلوا من وجدوا فيها، والأخطر من ذلك أنهم "دخلوا الجامع ونهبوا حصره وقناديله ومصاحفه وسلاسل قناديله وصفائح أبوابه، وتمّ ذلك عقب يوم السبت

---

(1) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 106/ ابن حزم - طوق الحمامة - ص 94.

(2) نفسه - ص 111.

(3) ابن عذاري - البيان - ج 3 ص 102.

منتصف شوّال سنة 400هـ (1009م)، وعقب عيد الفطر من هذه السنة قام قوم من أهل قرطبة بإحراق الزهراء كما استولوا على ما بقي من قناديله وصفائح أبوابه ومنبره وحصره"[1].

من خلال ما سبق ذكره يتجلى بوضوح أن البربر لم يكونوا البادئين في عملية التخريب التي مسّت مظاهر العمران المتواجدة بالأندلس عامة وبقرطبة خاصة، وأن الذين قاموا بذلك هم جند ابن عبد الجبار المؤلف في أغلبيته الساحقة من سفّال القوم، إضافة إلى أهل قرطبة الذين كانوا يكنون حقدا كبيرا للبربر وللدولة العامرية.

لذلك كله نعتقد أن الذين أوقدوا نار الفتنة، وقاموا بالأعمال التخريبية الأولى هي العناصر التي ذكرناها سابقا، ونتيجة لتماديها في أعمال القتل والنهب والتخريب ستؤدي إلى إثارة العناصر المغربية التي كانت ملتزمة إلى غاية هذا الوقت بنوع من الحياد.

صحيح أن البربر عندما كسحوا في الفتنة كما كسح غيرهم سيكون تأثيرهم أكبر، وذلك نظرا لقوتهم العسكرية، وتمرسهم على القتال على عكس جند أهل قرطبة الذين كانوا من أصحاب الحرف والأعمال فضلا عن الأشخاص الذين كانوا في السجون بسبب ما ارتكبوه من أخطاء ضد المجتمع، والذين أفرج عنهم عقب قيام المهدي بقرطبة ضد الخليفة هشام، ومع ذلك فإنهم كانوا بمثابة ضحايا لهذه الفتنة المدمرة التي أوقد نارها، وشجّع على استمرارها ثلاثة عناصر رئيسة هي بنو أمية والصقالبة وعامة قرطبة، وسنتعرف على دور كل طرف منها في هذه الفتنة من خلال العناصر اللاحقة من هذا البحث.

دور محمد بن هشام بن عبد الجبار في اندلاع الفتنة الأندلسية: تتفق جلّ المصادر التاريخية على أن موقد نار الفتنة في قرطبة هو أحد أفراد الأسرة الأموية الحاكمة بالأندلس، ويتعلق الأمر بالمهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار الذي قام على الخليفة هشام بمساعدة عامة قرطبة، وتجمع المصادر أيضا على أن هذا الأموي

---

(1) نفسه – ج 3 ص 107.

كان يتميز بالاستهتار والمجون والحقد والتسرع، وقد ورث هذه الصفات عن فترة شبابه، حيث كان يعاشر في مدة استتاره قوما من الصعاليك"[1].

ولكن ما هو السبب الذي يجعل أحد أفراد البيت الأموي يستتر ويعاشر الصعاليك؟

إن الإجابة على هذا السؤال، نجدها في المصادر التاريخية التي تورد لنا صور كثيرة عن المعاملة التي عومل بها بني أمية في ظل الحكم العامري؛ فإضافة إلى حجب الخليفة هشام عن أنظار الناس، وإبعاده عن تسيير شؤون الدولة، قام المنصور بن أبي عامر الذي تخوف من ثورة بني أمية ضده بتقتيلهم صغارا وكبارا حتى أفنى من يصلح منهم للولاية، وفرّق الباقي في البلاد والبوادي"[2]، وقبل موته أوصى ابنه عبد الملك بالحفاظ على هذه المعاملة تجاه المروانيين[3].

لقد كان محمد بن هشام بن عبد الجبار بالصفات التي ذكرناها سابقا يجهل الآداب السلطانية، ويفتقر إلى الحكمة والتأني والذكاء، وهي شروط ضرورية لمن يتولى الحكم، وبخاصة في فترة زاد فيها الغليان الشعبي من جراء الأعمال والتصرفات التي قام بها عبد الرحمن شنجول، لذلك لم يستطع التحكم في الأمور إضافة إلى أنه انساق مع الموقف الشعبي المعادي للبربر الذي كانت العناصر الموالية للأمويين "تعتد عليهم ما كان من مظاهرتهم العامريين، وتنسب إليهم تغلب المنصور وبنيه على أمرهم"[4].

كان من الممكن تفادي ما وقع في الأندلس لو تحلى ابن عبد الجبار بالصفات التي كان يمتاز بها جدّه الناصر عبد الرحمن الذي نجح خلال ظرف زمني وجيز في إخماد الفتن التي كانت قائمة في بلاد الأندلس، كما أوصلها فيما بعد إلى أوج الإزدهار والتقدم، ولكنه عوضا عن ذلك، وبتصرفاته أوصلها إلى الإنفجار الذي أدى

(1) النويري - نهاية الأرب - ص12 / ابن عذاري - البيان - ج 3 ص 50.
(2) النويري - نهاية الأرب - ص 123.
(3) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 81.
(4) ابن خلدون - العبر - ج 7 ص 325.

إلى قتل الآلاف من المسلمين، وتدمير وتخريب الكثير من مظاهر التطور الحضاري الذي بلغته الأندلس.

فمنذ اعتلائه سدّة الحكم أعلن عداءه لعنصر هام من عناصر المجتمع الأندلسي، ألا وهو البربر، حيث أمر أتباعه بنهب دورهم في الزاهرة، والإعتداء على أهاليهم، ولم يكتف هؤلاء بذلك بل استرقّوا الكثير منهم إضافة إلى ذلك أمر بمنعهم من ركوب الخيل وحمل سلاحهم، وهو يعرف أنهم كانوا الأغلبية في الجند الأندلسي، ولم يعودوا إلى قرطبة إلا من أجل تفادي الحرب بين عناصر المجتمع الإسلامي، ولو كانوا كما كان يظن العامة عبيد البيت العامري لاستجابوا لطلب الحاجب المتمثل في العودة معه، وقتال القائمين بقرطبة، ولكنهم فضّلوا، وحقنا لدماء المسلمين، أن يتخلوا عن هذا الأخير، ويعودوا إلى الحضرة ويبايعوا المهدي.

لم يكتف المهدي بذلك، بل أمر جنده بردّهم في بعض الأيام من باب القصر، واستغلّ العامة ذلك ليقوموا بأعمال نهب على حساب دور البربر، وحاول هؤلاء أن يوقفوا هذه الأعمال بالطرق السلمية؛ فاتصلوا بالخليفة وأعلموه بما جرى لهم؛ فاكتفى بمعاقبة بعض المتسببين في تلك الأعمال، ومع ذلك استمر في بغضه لهم[1].

لقد اعتمد المهدي على فئة من المجتمع الأندلسي، كانت سببا في حدوث هذه التصرفات، ذلك أنه بمجرد قيامه، أمر عامة قرطبة التي التحقت به إلى كسر السجن؛ فخرج منه اللصوص وأرباب الجرائم، والتحقوا بالمهدي فأثبتهم في جنده، وبلغ عدد من تبعه من سفلة قرطبة، وأثبت أسماءهم في العطاء خمسون ألف رجل قاموا بعد التفافهم بالخليفة الجديد بنهب مدينة الزاهرة، واقتسام ما اشتملت عليه من مال مخزون وآلة ومتاع وعدد سلطانية وفرش وآنية، ووصلت تصرفاتهم إلى حدّ أقتلاع الأبواب الوثيقة والخشب الضخمة، وختموا هذه الأعمال بتدمير كلي للمدينة بأمر من المهدي[2].

---

(1) نفسه - ج7 ص 325.

(2) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 110 - 111.

ويعطينا إبراهيم بن الرّقيق صورة موجزة ومعبرة عمّا حدث عند وصول المهدي إلى سدّة الحكم حيث يقول: "ومن أعجب ما رأينا أنه كان من نصف نهار يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة إلى نصف نهار يوم الأربعاء الذي يليه، فتحت مدينة قرطبة، وهدّمت مدينة الزاهرة، وخلع خليفة وهو هشام بن الحكم، وولي خليفة وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار، وزالت دولة بني أبي عامر، وحدثت دولة بني أمية، وقتل وزير وهو ابن عسقلاجة، وأقيمت جيوش من العامة، ونكب خلق من الوزراء، وولي الوزارة آخرون، وكان ذلك كله على أيدي عشرة رجال فحّامين وحجّامين وجزّارين وحاكة وزبّالين، وهم جند ابن عبد الجبار[1].

إن هذه الخلاصة الدقيقة تعبر عما حدث بقرطبة من تغيرات خلال أربع وعشرين ساعة، ومن خلال ما حدث خلال هذه الفترة الزمنية القصيرة يتبين بوضوح أن الانطلاقة كانت توحي بما سيقع بعد ذلك لأنه لا يمكن أن ننتظر الخير من جند لا يفقهون في أمور السياسة شيئا، فضلا على أن الأعمال التي قامت في هذا اليوم الأول تدل على نية محاربة الآخر ونفيه من الوجود، ويدل على ذلك هدم واحدة من أجمل المدن التي انجزها المسلمون بالأندلس، وهي مدينة الزاهرة عاصمة المنصور بن أبي عامر، ويدل ذلك كله على حقد كان متأصلا في نفوس بعض الأندلسيين الذين سنحت لهم الفرصة كي يعبروا عنه بجلاء خلال الأحداث التي قامت بقرطبة في جمادى الآخرة من سنة 399هـ (1008م).

إضافة إلى ذلك؛ فإن وصول شخص مثل ابن عبد الجبار إلى السلطة، وهو الشخص الذي عاش حياته كلها مع المنحرفين لا يمكن أن تأتي إلا بالخراب والدمار، وقد تأكد ذلك منذ بداية حكمه حيث اتخذ إجراءات كانت كلها تصّب في اتجاه واحد ألا وهو إذكاء نار الفتنة، ذلك أنه أقدم عقب تمكنه من مقاليد الحكم على إسقاط حوالي سبعة ألاف من جنده المتمرسين بشؤون القتال والحرب، وهو ما يعني أنه استبدلهم بآخرين لا علاقة لهم بالعمل العسكري، ولا بالصفات الواجب توفرها في

(1) النويري - نهاية الأرب - ص 134/ البيان - ج3 ص 74.

هذه الفئة، ومنها التزام أوامر القائد، إضافة إلى ذلك أظهر الخليفة الجديد من الخلاعة واللهو والشرب ما كان يجعله مشابها لعبد الرحمن شنجول، وهي الصفات التي أدت إلى كره الرعية له، حيث استعمل له من الخمر مائة خابية، واستعمل له مائة بوق للزمر، ومائة عود للضرب، واشتري له صقلبي كان يتعشقه، وبعث إلى نساء كان يصاحبهن؛ فظهر من فسقه واختلال دينه وعقله أمر لا يظهر إلا من أهل الدعارة المتهتكين فيها، فكان هذا من جملة أسباب القيام عليه واشتعال الفتنة لديه، ولم يزل طول مدته مشتهرا بالفسق، مظهرا للخلاعة، لا يفيق من سكر، ولا يرع عن منكر بالنساء والصقالبة والملاهي حتى قال بعضهم فيه:

أمير الناس سخنة كل عين ... يبيت الليل بين مخنثين
يجشم ذا ويلثم خدّ هذا ... ويسكر كل يوم سكرتين
لقد ولوا خلافتهم سفيها ... ضعيف العقل شينا غير زين

وقيل فيه أيضا:

أشأم خلق على العباد ... والناس من حاضر وباد
أبو الوليد الذي اقشعرت ... لنحسه شعرة البلاد
كان على قومه جميعا ... مزار عاد لقوم عاد[1]

لم يعاد المهدي البربر والموالين للبيت العامري فقط بل أساء إلى بني عمومته أيضا، حيث أقدم على سجن محمد بن عبد الجبار وسليمان بن عبد الرحمن الذي كان قد عيّنه فيما سبق ولي عهده، كما سجن جماعة من قريش، وأدّت هذه الأعمال كلها إلى نفور طائفة من بني أمية منه، وهو ما سيؤدي إلى ظهور نزاع بين أفرادها على السلطة، وسينتج عن ذلك الصراع حروب مدمرة سيدفع ثمنها غاليا المجتمع الإسلامي بالأندلس عامة[2].

---

(1) ابن عذاري - البيان المغرب - ج3 ص 80.

(2) النويري - نهاية الأرب - ص 134 - 135/ ابن عذاري - البيان - ج 3 ص 78 - 79/ ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 112 - 113.

لم يكتف محمد بسجن بعض أبناء عمومته بل أقدم في الرابع من شوال سنة 399هـ على قتل هشام بن سليمان بن عبد الرحمن وأخيه أبو بكر، وذلك بعد محاولتهم خلعه نتيجة لسوء تصرفاته، ولكنهم فشلوا وأسروا ثم قتلوا، وهو ما أدى إلى فرار كثير من الأمويين خارج قرطبة، والتفافهم حول الناقمين على المهدي، ومن هؤلاء سليمان بن الحكم الذي سيبايعه البربر بالخلافة، وسيكون المنافس الرئيس لابن عبد الجبار[1].

يتفق جلّ المؤرخين على أن أكبر خطأ ارتكبه المهدي يتمثل في إساءة التصرف مع البربر حيث ناصبهم العداء، بينما كان الأجدر به أن يسهر على تأمين أموالهم ومراكزهم ومكانتهم ضمن صفوف المجتمع الأندلسي.

لقد قدم هؤلاء البربر إلى الأندلس وهدفهم الرئيس هو المشاركة بأنفسهم وأموالهم في الجهاد ضد القوى المسيحية المتكالبة على دار الإسلام، وكان لهم الدور الرائد في ذلك المجهود الحربي، وقد خدموا الدولة الأندلسية بالدرجة الأولى، ولا يتحملون أي ذنب إذا كان المنصور بن أبي عامر، وهو الرجل القوي في الدولة، قد استعملهم من أجل السيطرة على مقاليد الحكم، والاستبداد بالسلطة على حساب بني أمية، وبخاصة في ظل وجود خليفة ضعيف لم يبلغ الحلم بعد، وهو هشام بن الحكم.

لقد كان ما ارتكبه المهدي خطأ فادحا، لأن أولئك البربر كانوا يمثلون قوة لا يستهان بها حيث حرّض الخليفة الجديد على قتلهم، ووصلت به الجرأة إلى أن جعل لرؤسهم أسعارا، كما فتك أتباعه بالكثير منهم، وفي مقدمتهم عدد من زعمائهم، ونهبوا دورهم، واغتصبوا نساءهم وسبوهم، ونتيجة لذلك كله كان المهدي وأتباعه السبب الرئيس الذي دفع البربر بعد ما بايعوا القائم بقرطبة، ودانوا بطاعته إلى الخروج من العاصمة، والتوجه إلى قلعة رباح الواقعة في شمال هذه الأخيرة، وذلك في أوائل ذي القعدة من سنة 399هـ (جوان - جويلية 1008م)، وعندما وصلوا هناك بايعوا أمويا

---

(1) النويري - نفس المصدر - ص 134/ابن الخطيب - نفس المصدر - ص 113/ ابن عذاري - نفس المصدر - ج3 ص 80 - 81.

آخر، ويتعلق الأمر بأحد أحفاد عبد الرحمن الناصر، ويدعى سليمان بن الحكم.

وبذلك انقسم المجتمع الأندلسي إلى قسمين، يسعى كل طرف منهما إلى الاستحواذ على السلطة، ولم تكن تهمه الوسيلة التي تحقق له ذلك بقدر ما يهمه الوصول إلى تحقيق مبتغاه، ونتيجة لذلك قامت الحرب الطاحنة بين الإخوة في الدين والوطن، وأدّت إلى تمزق الوحدة الإسلامية بهذا الصقع، وطمع الأعداء المتربصين بدار الإسلام.

مسؤولية عبد الرحمن شنجول في الفتنة الأندلسية: إلى جانب المهدي، هناك شخص آخر تذكره المصادر كأحد الموقدين لنار الفتنة الأندلسية، ويتعلق الأمر بثالث أفراد الدولة العامرية، وهو عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر الذي تولى حجابة هشام المؤيد بعد وفاة أخيه عبد الملك المظفر سنة 399هـ (1008م).

ومن ألأمور التي قام بها، وأدت إلى قيام الفتنة في قرطبة، إرغام الخليفة هشام بن الحكم على تقليده ولاية العهد، وقد أنكر الناس ذلك إنكارا شديدا، وذلك لأسباب عديدة منها سوء خلق وفساد عبد الرحمن حيث ما إن اعتلى سدّة الحكم حتى افتتح عهده بالخلاعة والمجانة، وكان يخرج من منية إلى منية، ومن منتزه إلى منتزه بالملاهي والمضحكين، ويجاهر بشرب الخمر والتهتك، إضافة إلى أنه تجرأ على هشام المؤيد، وضغط عليه كي يقلده ولاية العهد للخلافة، وفضلا على ذلك كله كان حفيدا لسانشو ملك نافارة المسيحية[1].

والذي لاشك فيه أن صدور القرار القاضي بتوليته عهد الخلافة قد جلب إليه سخط بني مروان بالدرجة الأولى، واستنكار الفقهاء والعامة والخاصة على السواء بمدينة قرطبة، وعوض البقاء فيها، ومجابهة المعارضين له، ومحاولة إيجاد حلّ لتفادي المواجهة، فضّل شنجول الهروب خارج المدينة، وذلك من خلال تجريد غزوة على بلاد النصارى في الشمال، وكأنه يريد أن يبرهن للناس أنه أولى بالخلافة من غيره، وذلك بتحقيق انتصار على النصارى.

---

(1) أعمال الأعلام - ص 90.

إن عبد الرحمن شنجول وقع عند خروجه في خطأ أكبر من السابق، ذلك أن من سبقه من الخلفاء الأمويين والحجاب العامريين، وأعني بهم أباه محمد وأخاه عبد الملك كانوا يخرجون للغزو في غير فصل الشتاء بينما سوء تدبير هذا الحاجب العامري جعله يخرج فيه، وتوجه إلى الشمال الإسباني من أجل مواجهة النصارى، ولكنه لم يلتق بأي مسيحي، ذلك أن الجميع قد التجأوا إلى الجبال للإحتماء من شدة البرد السائد في هذه المناطق، كما أن الثلوج والأمطار المتساقطة في هذا الفصل جعلت تحرك الجند من الصعوبة بمكان.

إن هذه العوامل مجتمعة جعلته يعود إلى مدينة طليطلة دون تحقيق أي انتصار على أعدائه، وكان خروجه إلى غزو جليقية في ربيع الآخر سنة 399هـ (يناير 1009م)[1].

أما السبب الآخر الذي جعل أهل قرطبة ينفرون منه، ويكنون له العداوة فيتمثل في ذلك الأمر الذي أصدره عقب تقليده ولاية العهد، والمتمثل في إرغامهم على لبس العمامة، وكان هذا الزي مقصورا على البربر قبل ذلك؛ فكأنه أراد بذلك أن يحط من شخصيتهم، ويجعلهم يشبهون المغاربة الذين كانوا يمقتونهم، ونتيجة لذلك أظهر سكان العاصمة العداء لشنجول، وصاروا يتحينون الفرص للتخلص منه، ومن الاستبداد العامري الذي كان يمثله[2].

نتيجة لكل ما سبق، سخطت عليه العامة وبخاصة أهل قرطبة إضافة إلى الفقهاء، وعلى رأسهم قاضي الجماعة البربري أبو العباس أحمد بن ذكوان الذي كان يتبرأ منه ويفسقه ويكره أمره، ويستعظم ما يدعو الناس إليه من قتال جماعة المسلمين بقرطبة[3].

---

(1) النويري - نهاية الأرب - ص 126 - 127/ البيان المغرب - ج 3 ص 48 - 49 / أعمال الأعلام ص 97.

(2) النويري - نهاية الأرب - ص 127 / البيان المغرب - ج 3 ص 48.

(3) نفسه - ج 3 ص 67.

دور العامة في إذكاء نار الفتنة: لقد كان للعامة في مدينة قرطبة دور كبير في إذكاء نار الفتنة القائمة بالأندلس، ذلك أنهم قد ساهموا بتصرفاتهم في دفع البربر إلى ردّ فعل عنيف تجاه ما لحقهم من اعتداءات، ويؤكد هذه الحقيقة السيد عبد العزيز سالم الذي يتراجع عن حكمه السابق، والمتمثل في أن البربر هم السبب الرئيس في قيام الفتنة، وأنهم الذين أوقدوا نارها، ثم يناقض نفسه فيقول: "ولا ينبغي أن نغفل مسؤولية محمد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدي في اصطناع أراذل العامة، واستظهاره بسفلة القوم من محترفي الإجرام واللصوصية الذين كان ظهورهم في المجتمع القرطبي وبالا على الدولة، فقد نتج عن ذلك أن استبدّ هؤلاء العامة وداخلهم الغرور واستغلوا الظروف الحرجة التي كانت تجتازها البلاد لتحقيق مآربهم؛ فهاجموا دور البربر بالرصافة وانتهبوها، ودفعوهم إلى محاربتهم، والانتقام منهم عند دخولهم قرطبة في سنة 403هـ، ولذلك تقع عليهم مسؤولية ما حلّ بقرطبة من كوارث ونكبات، وما انتهت إليه الفتنة من الإطاحة بالخلافة الأموية[1].

منذ قيام المهدي على هشام المؤيد بالله، التحق أهل قرطبة وبخاصة منهم العرب بمحمد بن هشام بن عبد الجبار، وكانوا في معظمهم ناقمين على البربر مساعدتهم للمنصور بن أبي عامر في الوصول الحكم والإستبداد بالسلطة، ولذلك وجدوا الفرصة سانحة للانتقام منهم، ونتيجة لذلك ارتكبوا في حقهم العديد من الانتهاكات حيث انتهبوا دورهم واعتدوا على نسائهم وأولادهم، كما ظل المهدي معاديا لهم، ويؤكد ذلك ابن الخطيب حيث يقول: "والتفّ الجيش الغازي مع عبد الرحمن بن أبي عامر على صاحب الأمر ودانوا بطاعته؛ فكان من أسباب إدباره قعود من وكّل بأبوابه من السفلة ومحدثي الاستعمال والاستخدام من أراذل العامة المتجندة بكل من يجب برّه وتسويده من وجوه الناس وأعلام الجلّة وشيوخ البرابرة؛ فكانوا يطالبونهم بإلقاء السلاح ويبادرونهم بالنّجه ويسمعونهم الخنى من غير تمييز بين أعلاهم وأدناهم حتى انبعثوا منهم حقدا، وأثاروا على إسلام ابن عامر ندامة، وهاجت

(1) السيد عبد العزيز سالم - قرطبة حاضرة الخلافة - ص 121.

طائفة، فتعدّت على دور البرابرة بالرصافة فنهبتها، ففسدت طاعته، وانحرفت النفوس عنه"[1].

وعندما بايع البربر هشام بن سليمان الذي حاول خلع ابن عمه الخليفة عندما لاحظ سوء تصرفه، ثار ضدهم السواد الأعظم بتحريض من المهدي الذي جعل لرؤوسهم أثمانا، ووجد العامة ضالتهم، والفرصة السانحة للانتقام من البربر حيث نهبوا دورهم، وقتلوا أبناءهم، وسبوا نساءهم، وهي الأمور التي جعلتهم يقررون مغادرة قرطبة، ويلتحقون بقلعة رباح أين اجتمعوا مع جملة الناقمين على المهدي وأتباعه[2].

لقد بلغ حقد القرطبيين على البربر درجة جعلتهم يظهرون حزنا شديدا على فراق النصارى لهم، ذلك أن المهدي، وبعد انهزامه أمام سليمان المستعين، قد استعان بالنصارى لمواجهة ابن عمه المتغلب عليه، وبعد انهزامه في معركة وادي يارو في ذي القعدة سنة 400هـ (جوان 1009م) رحل الفرنج على الفور، وعادوا إلى بلادهم "وكان حزن القرطبيين على رحيلهم عظيما حتى أنهم كانوا يتبادلون فيما بينهم عبارات العزاء أسفا على رحيلهم، وجزعا من سيطرة البربر عليهم بعد مغادرة حماتهم من الفرنج"[3].

أصبح أهل قرطبة كنتيجة لما قاموا به ضد البربر من أشدّ الناس نفورًا من الصلح، ويؤكد ذلك ابن الخطيب حيث يقول: "وارتكب العوام والرعاع بين المنافرة للبربر والمجانبة الطبيعية وعدم الإغماض في استصلاحهم مرتكبا من اللجاج والتصامم"، ويضيف قائلا: "فلقد كانت من واضح وهشام في بعض الأحايين مراودة في السلم والصلح، وصل الكلام فيها من قبل القوم رجل خيّر يعرف بابن بكر، وقع الناس عليه فقتلوه ومثلوا به، وقد عجز صاحب الأمر عن نصره"[4].

وفي نفس السياق يقول إبراهيم بن القاسم: "وكان أهل قرطبة على حال

---

(1) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 112.

(2) ابن خلدون - العبر - ج7 ص325 / النويري - نهاية الأرب - ص 135 / ابن عذاري - البيان المغرب - ج 3 ص 51.

(3) نفسه - ج 3 ص 98 - 99 / المراكشي عبد الواحد - المعجب - ص 42.

(4) أعمال الأعلام - ص 117.

شدّتهم وعظيم محنتهم لاحّين في الفتنة والتعصب على البربر، ومن ذكر الصلح قتل، حتى أن رجلا من وجوه أهل العلم قال في الجامع: اللهم أصلح علينا؛ فقتل في مكانه، وقال آخر في الجامع: إن الله أحب الصلح، وأمر به فقتل في الحين"[1].

لقد أعمى الحقد عيون أهل قرطبة إلى درجة أنهم أصبحوا يعارضون كل من يدعو إلى إصلاح ذات البين رغم أن الطرف الثاني لم يكن سوى إخوانهم البربر الذين يجمعهم بهم الدين الإسلامي الحنيف، دين الأخوة والمساواة.

لم يعد القرطبيون يعارضون فكرة الصلح فقط مع خصومهم بل أصبحوا يكلفون أنفسهم ما لا يطيقون في سبيل الاستمرار في قتال خصومهم، وعندما نفذت الأموال التي كانت معهم وتبرعوا بها من أجل تجهيز الجيوش المكلفة بحرب البربر، "اضطرّ هشام إلى إخراج ما في قصره من حاي ثمينة وذخيرة وآنية فضة وذهب وثوب ومتاع حتى الكتب وغيرها" من أجل توفير مستلزمات الجيش ووسائل القتال، وعندما عجز عن ذلك، واشتدت الأزمة، واشتكى السلطان إلى الناس لعلهم يوفرون له ما يواجه به البربر لكنهم أظهروا له عجزهم عن ذلك، وقالوا: "لم يبق فينا مطمع ولا علالة! فاخرج بنا إلى العدو؛ فإننا لا نقيم على هذه الحالة، والموت خير منها"[2].

إن أهل قرطبة قد اثبتوا بتصرفاتهم هذه حقدهم الدفين على أناس كان من المفروض أن يكونوا إخوة لهم، فقد جاءوا من بلادهم، واستقروا إلى جانبهم، وساهموا بقسط كبير في حمايتهم من هجمات النصارى المتربصين بالمسلمين، ومقابل هذا المجهود الكبير، والتضحية التي قدمها البربر، أظهر القرطبيون عداوة كبيرة تجاههم، وكان من الممكن أن يتفادوا كثيرا مما وقع في قرطبة لو تحلوا بما يفرضه عليهم الدين الإسلامي من تسامح وأخوة تجاه الأعداء؛ فما بالك بمن ينتمي إلى نفس العقيدة، وقد شهد عليهم ابن مامة النصراني (غرسية بن شانجة) قائد النصارى المتحالفين مع المستعين ببعدهم عن كثير من الفضائل التي جاء بها الدين الإسلامي

---

(1) البيان المغرب – ج 3 ص 103.

(2) أعمال الأعلام – ص 117 - 118.

حيث يقول: "كنا نظن أن الدين والشجاعة والحق عند أهل قرطبة؛ فإذا القوم لا دين لهم، ولا شجاعة فيهم، ولا عقول معهم، وإنما اتفق لهم ما اتفق من الظهور والنصر بفضل ملوكهم؛ فلما ذهبوا انكشف أمرهم، أما العقول فإن البربر قتلوهم يوم السبت والخوف قائم بهم ثم أتوا إليهم يوم الاثنين على البغال، وأما الشجاعة فانهزم جندهم وملوكهم وجميعهم في أقل من مائتي فارس، وأما الدين فإن أصحابي هؤلاء يعني النصارى يغيرون ويسرقون ثم يأتي أهل قرطبة فيشترون منهم نهبهم وأموال أصحابهم المسلمين؛ فلا يرجع أحد عنها منهم"[1].

إن الحكم الذي أصدره قائد النصارى، ورغم قساوته يدل فعلا على انحراف أهل قرطبة عن تعاليم الدين الذي جعل منهم إخوة لغيرهم من المسلمين القاطنين بالأندلس، وكان من المفروض أن يكبت هذا الدين جموحهم، ويدفعهم إلى محاولة الضغط على الخليفة، وإجباره على انتهاج سياسة يكون فيها صلاح البلاد والعباد، ولكنهم عوضا عن ذلك شجعوه كما شجعوا العامة بتصرفاتهم هذه على المزيد من سفك الدماء، ونشر الفرقة، وتمزيق الوحدة الإسلامية القائمة بالأندلس، ومن ثمّ تسهيل مهمة الأعداء الذين أصبحوا يتنافسون من أجل التحالف مع أحد الطرفين المتصارعين من أجل الحصول على امتيازات أكبر، وكانت هذه الامتيازات طبعا على حساب المسلمين قاطبة.

إن حقد أهل قرطبة على البربر المسلمين مثلهم جعلهم يستخفون بالإسلام في هذه الفتنة، ذلك "أن رجلا نصرانيا وقف في أعظم شوارع قرطبة فقال:... ونال منه صلى الله عليه وسلم؛ فلم يكلمه أحد منهم بكلمة؛ فقال رجل من المسلمين غيرة للنبي: "ألا تنكرون ما تسمعون؟ أما أنتم مسلمون؟ فقال له جماعة من أهل قرطبة: "إمض لشغلك"، وكان الإفرنج إذا سمعوا الآذان للصلاة يقولون قولا لا يذكر؛ فلا يعترض عليهم أحد بشيء[2].

---

(1) البيان المغرب – ج 3 ص 90.

(2) نفسه – ج3 ص97 - 98.

إضافة إلى استخفافهم بالإسلام، وعدم الحفاظ على حرمته، والضرب على أيدي المتطاولين عليه والساعين إلى النيل منه، استولى العامة على مال الأحباس المودع في مقصورة الجامع حيث كسروا باب المقصورة، وأخذوا ما فيها من أموال بعدما رفض قاضي الجماعة ابن ذكوان الاستجابة لطلبهم المتمثل في تقديم هذه الأموال إليهم من أجل تسليمها إلى الأفرنج كمكافأة لهم على قتلهم للمسلمين[1].

من خلال كل ما سبق يتبين جليا أن أهل قرطبة قد ساهموا بقسط كبير في إذكاء نار الفتنة، والزيادة في امتداد لهيبها ليشمل جزءا كبيرا من بلاد الأندلس، ذلك أن حقدهم على البربر، وتحميلهم مسؤولية ما قام به المنصور بن أبي عامر من استبداد في حق بني أمية جعلهم يقفون في أغلبيتهم الساحقة إلى جانب "موقد نار الفتنة الأندلسية"، ويقدمون له المساندة التامة فيما قام به من أعمال، ويؤيدونه في السياسة التي انتهجها، والتي أضرّت كثيرا بمصالح المسلمين وبلادهم.

إن الدعم المطلق الذي منحه القرطبيون لخليفتهم الجديد قد جعل بلاد الأندلس تدخل في نفق مظلم لمدة اثنتين وعشرين سنة، وكانت نتائجها وبالا على المسلمين وعلى الحضارة التي أنجزوها.

لقد تصدع البيت الأندلسي بفعل هذا الموقف الذي اتخذه أهل قرطبة، كما سمح للنصارى باقتناص الفرصة من أجل التوسع على حساب دار الإسلام، وكسب المزيد من الأراضي، وذلك عن طريق تحالفهم مع الطرفين المتصارعين المشكلين من المسلمين الذين تناسوا في غمرة تلك الموجه من الكراهية والنفور المبادىء والقيم التي جعلتهم يفتحون الأندلس، ويبسطون سيطرتهم على أهلها، وينجزون فيها حضارة تعتبر من أزهى الحضارات التي عرفتها القارة الأوروبية.

دور الصقالبة في إذكاء نار الفتنة: كان الصقالبة في الأصل رقيقا من سبي الشعوب السلافية الذين تم بيعهم إلى مسلمي الأندلس الذين أطلقوا عليهم هذا الإسم، وعمّموه فيما بعد ليشمل الموالي الذين جلبوهم من مختلف البلدان الأوروبية.

---

(1) نفسه - ج 3 ص 98.

كان أغلب هؤلاء الصقالبة عند جلبهم إلى قرطبة أطفالا صغارا من الجنسين، وقد تمت تربية الذكور منهم تربية عسكرية، واستخدموا في أعمال القصر والحرس والجيش، وتدرجوا في الرقي حتى صار منهم الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة الأموية كما برز منهم الأدباء والشعراء[1].

زاد استخدام الصقالبة في عهد عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله حيث بلغ عددهم عند وفاته 3750 فردا من الذكور فقط[2].

وعند وفاة الحكم المستنصر بالله "كان الصقالبة أكثر جمعا وأحدّ شوكة، يظنون أن لا غالب لهم، وأن الملك بأيديهم، وكانوا نيفا على ألف"[3].

وعقب وصول المنصور بن أبي عامر إلى منصب الحجابة "بدأ بالصقالبة الخصيان خدّام القصر فنكبهم"[4]، وذلك بسبب معارضتهم لتولي هشام بن الحكم منصب الخلافة، ثم عاد ليستعملهم من جديد في صفوف الجيش الجديد الذي كوّنه بالإعتماد على البربر، وبذلك ازداد عدد فتيانه الأكابر، وبلغ عددهم ستة وعشرين خليفة في عهد ابنه المظفر الذي ضاعف مؤنتهم أضعافا كثيرة"[5]، وهو ما يدل على تزايد عددهم في عهده، ومن أشهرهم في هذا الوقت واضح الفتى صاحب الثغر الأوسط، ومجاهد وخيران العامريان الذين سيكون لهم دور كبير في تأزم الأوضاع بالأندلس في بداية القرن الخامس الهجري.

كان هؤلاء الصقالبة من أقرب المساعدين على نجاح حركة المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار بقرطبة حيث بايعوه سرا[6]، ومن أبرز الصقالبة الذين كان لهم دور كبير في إذكاء نار الفتنة بالعدوة الأندلسية، وتحريض المسلمين على التناحر فيما بينهم

---

(1) أحمد مختار العبادي - في تاريخ المغرب والأندلس - ص 256 - 257.
(2) أعمال الأعلام - ص 40.
(3) البيان المغرب - ج 2 ص 259.
(4) نفسه - ج 2 ص259.
(5) أعمال الأعلام - ص 103 - 104.
(6) نفسه - ص 109.

واضح الفتى، صاحب مدينة سالم الذي كتب إلى المهدي بالطاعة مباشرة بعد استيلائه على مقاليد الحكم بالحضرة.

لم يكتف واضح الفتى بالدخول في طاعة الخليفة الجديد فقط، بل كان السبب الرئيس في دفع البربر إلى الانتقام من الأندلسيين، وبالتالي الانغماس في الفتنة، ذلك أن هؤلاء قد توجهوا بعد مبايعتهم سليمان بن الحكم بالخلافة إلى مدينة سالم، وطلبوا من صاحبها أن يسعى في الصلح بينهم وبين محمد بن هشام بن عبد الجبار، واشترطوا عليه أن يكون زعيمهم ولي عهده، وفي مقابل ذلك ينعم الناس بالسلم والأمن، ولكنه رفض القيام بذلك[1].

كان بالإمكان تفادي ما وقع لاحقا في العدوة الأندلسية من اقتتال وتدمير لو استجاب واضح لطلب البربر الذي كان فيه صلاح البلاد والعباد، ولكنه بموقفه والقرار الذي اتخذه قد زاد من الأحقاد والرغبة في الانتقام بين الطرفين المتصارعين[2].

بداية من هذا التاريخ سيصبح الإستنجاد بالنصارى أمرا مألوفا لدى المسلمين المقيمين بالأندلس، وقد ساعد هؤلاء على انتصار البربر وخليفتهم المستعين على جيش المهدي الذي التجأ بدوره إلى النصارى، وطلب مساعدتهم له مقابل تسليمهم مدينة سالم التي أخلاها من المسلمين المقيمين بها، ونتيجة لذلك دخل الفرنج قاعدة الثغر الأوسط وملكوها، ولم يكتفوا بذلك بل "ساموا أهل سرقسطة سوء العذاب في عبيدهم وذراريهم وتجارتهم"، كما نزلوا في ديارهم[3].

تمكن المهدي محمد بن هشام بفضل مساعدة النصارى له، ودعم واضح الفتى الذي قلده أمر الحرب وعساكر الثغور من دخول مدينة قرطبة مجددا، وعقب ذلك "قامت هذه القوات مجتمعة بقتل "كل متشبه بالبربر، وكل عدوي ومن لم ير العدوة ولا سمع بها إسرافا وتجاهلا وجرأة على الله سبحانه وطغيانا، حتى أن كل من بينه وبين

---

(1) البيان المغرب - ج 3 ص 85.

(2) أعمال الأعلام - ص 114.

(3) البيان المغرب - ج 3 ص 94 / أعمال الأعلام - ص 113.

أحد عداوة قال هذا بربري فقتل، ولم يسأل عنه"، ولم يكتف خصوم البربر بذلك بل قاموا بما هو أقسى منه، حيث "قتلوا الأطفال وشقوا بطون الحوامل، وأخذوا ابنة رجل من البادية، وكانت جميلة حسنة، وعرف أبوها العلج الذي أخذها فوقف إلى واضح، وقال له: إن فلانا العلج أخذ ابنتي وليست بربرية؛ فقال له: لا تتكلم في شيء من هذا، فما إلى ردّها من سبيل، وعلى ذلك عاهدناهم"[1].

إن هذه الأعمال الإجرامية التي قام بها جند النصارى، وهو أمر طبيعي والجند المسلم الموالي للمهدي محمد بن هشام وواضح الفتى قائد حربه لها دور كبير في زيادة مآسي المسلمين من جهة، وازدياد حدّة الأحقاد بين فئات المجتمع الأندلسي، ومن ثم الرغبة الكبيرة للبربر في الثأر لقتلاهم، والدفاع عن أنفسهم، وسيؤدي ذلك كله إلى بداية الصراع المسلح والدامي بين الإخوة في الدين والوطن.

كان واضح وجنده سببا في تمكن المهدي من مقاليد الحكم بقرطبة، كما كان سببا في زواله، ذلك أنه "كان يحقد عليه ما فعله بابن أبي عامر وآل عامر مع ما يراه في انهماكه في الزنا والخمر والجور"، ولهذه الأسباب كلها "كان يدبر في قتله مع طائفة من العبيد إلى أن أمكنه ذلك في يوم الأحد الثامن من ذي الحجة من سنة أربعمائة"[2].

إضافة إلى ذلك أقدم واضح الذي تولى حجابة هشام المؤيد الذي نصّبه خليفة عقب مقتل المهدي، على عمل آخر طمس من خلاله صفحة ناصعة من صفحات الحضارة الإسلامية بالأندلس، وذلك حين أمر أتباعه بتخريب منية الرصافة[3]، وقد أشرنا إلى ذلك سابقا.

إضافة إلى واضح، قام صقالبة آخرون بدور كبير في إذكاء نار الفتنة القائمة بقرطبة خاصة والأندلس عامة، وقد ذكرنا فيما سبق الدور الخطير الذي لعبه كلا من مجاهد وخيران العامريان في الصراع المرير بين الأندلسيين والبربر.

---

(1) البيان المغرب – ج 3 ص 97/ابن حيان – من نصوص كتاب المتين – تحقيق عبد الله محمد جمال الدين – المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة – 1418هـ – 1997م – ص 29.

(2) البيان المغرب – ج 3 ص 99 – 100 / من نصوص كتاب المتين – ص 30.

(3) البيان المغرب – ج 3 ص 102.

إن هذه الأعمال وغيرها التي قام ها الصقالبة، وبخاصة زعماؤهم الذين كانوا في كثير من الأحيان المسيرين الحقيقيين للدولة خلال زمن الفتنة، كانت سببا هاما في ازدياد حدّة الأزمة، واشتعال نيران الفتنة، وإتيانها على الأخضر واليابس ببلاد الأندلس.

من خلال كل ما سبق، يبدو لنا جليا أن الذي تسبب في إشعال نار الفتنة بالأندلس، وبالتالي في الصراع المرير الذي مزق المجتمع الإسلامي هو محمد بن هشام بن عبد الجبار الذي لم يعرف كيف يدبر الأمور بقرطبة بعد استيلائه على الحكم بها، وفسح المجال للسفلة من أهل قرطبة؛ فعاثوا فيها فسادا، وتسببوا بتصرفاتهم الهمجية ضد فئة هامة من عناصر المجتمع القرطبي في إثارة الأحقاد بين الإخوة، ونتيجة لذلك قامت حرب مدمرة بين البربر من جهة، والأندلسيين من جهة أخرى، وكان للصقالبة فيها دور بارز تمثل في التحريض على الصراع من خلال رفض القيام بدور الوساطة لإصلاح ذات البين، ومحاولة إيجاد حل يرضي طرفي النزاع، وفرض الحصار الاقتصادي على أناس لجأوا إلى الثغور الشمالية، وكلهم أمل في أن يجدوا فيها الأمن والاستقرار بعدما أذاقهم أهل قرطبة مرارة القتل والسبي والنهب.

وإذا كانت هذه الأطراف الثلاثة تتحمل المسؤولية الكبرى في الأحداث المؤسفة التي وقعت في العدوة الأندلسية، فإن الأطراف الأخرى تتحمل بدورها نصيبا فيما جرى، إما بموقفها السلبي جدا كالفقهاء والقضاة بصفة خاصة، أو الحاجب العامري شنجول الذي بتهوّره وسوء تدبيره منح الفرصة لأفراد البيت الأموي في محاولة استرجاع ما ضاع منهم من سلطة وامتيازات.

الفصل الثالث

نتائج الفتنة الأندلسية

1 - النتائج السياسية للفتنة

2 - تأثير الفتنة على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية

3 - تخريب المنشآت العمرانية

4 - الأوضاع الثقافية خلال زمن الفتنة

عاشت الأندلس بداية من تاريخ سقوط الدولة العامرية سنة 399هـ (1008م) واحدة من أصعب الفترات التي مرّت بها في تاريخها.

لقد عاشت فتنة تقاتل فيها الإخوة، ودمّروا كل ما بناه أسلافهم، ولم يكتفوا بذلك، بل استعانوا بأعدائهم ومنحوهم القلاع والمدن التي سبق أن ضحّى من أجلها الفاتحون وتكبّدوا خلالها الصعاب، ويأتي الخلف ليسلّمها إلى النصارى؛ فيستولي عليها هؤلاء دون قتال.

حدث ذلك كله لأنّ بعض الأفراد رغبوا في السلطة، ومن أجل الوصول إليها استعملوا كافة الوسائل، وأحلّوا المحرّمات، وتحالفوا مع الأعداء، ومن خلال ما سيأتي سنحاول التعرف على أهم النتائج التي ترتبت عن هذه الفتنة سواء في المجال السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو الثقافي.

فبالإضافة إلى موت الآلاف من المسلمين، وتدمير مظاهر العمران، تفككت الوحدة الإسلامية، وهذه في نظري أخطر نتائج هذه الفتنة لأن هذا التفكك سيفسح

المجال واسعا أمام النصارى المتربصين بالمسلمين، وسيستغل هؤلاء ذلك ليضربوا المسلمين ببعضهم البعض، وفي ذلك إضعاف لدار الإسلام وتقوية لدار الكفر.

بدأت بوادر الكارثة التي حاقت بالأندلس الإسلامية تلوح في الأفق منذ ذلك الحين، فقد قرّر كل فريق أن يستعين على خصمه بنصارى الشمال، وبذلك مهّدوا لهم الطريق من أجل أن يشفوا غليلهم من أحفاد الناصر والمنصور، وأن يتعرفوا على مواطن الضعف، وأن ينفذوا سياستهم المتمثلة في ضرب كل فريق بالآخر، وأن يستولوا في النهاية على المعاقل والحصون التي كان النّاصر والمنصور قد أفنيا حياتهما في بنائها، وشحنها بالسلاح والرجال، وجعلها درعا يذود عن البلاد، وقاعدة انطلاق لغزواتهما في أراضي نصارى الشمال، كل ذلك حدث في بلاد الأندلس، ولم يمض عن آخر غزوة للمسلمين في أراضي النصارى أكثر من سنة واحدة.

النتائج السياسية للفتنة:

لقد كانت الفتنة الأندلسية سببا في حدوث انقسام خطير في صفوف المجتمع الأندلسي، ومن جرّاء ذلك أصبح المسلمون منقسمين إلى حزبين متصارعين فيما بينهما، أحدهما يتشكل من البربر الذين أجمعت على كرههم سائر الفئات الأخرى، والثاني يجمع بقية عناصر المجتمع الأندلسي وبخاصة العرب والصقالبة، وفي غمرة الحقد والكراهية التي ميّزت العلاقات بين الطرفين استعان كل طرف منهما بأحد ملوك إسبانيا النصرانية ضد الآخر من أجل الظفر بمنصب الخلافة في قرطبة.

انتهز ملوك الإسبان هذه الفرصة من أجل استعادة ما فقدوه سابقا، ومن أبرز الذين كانوا طرفا في هذا الصراع حاكم قشتالة شانجة بن غرسية الذي تسميه بعض المصادر العربية ابن مامة النصراني، الذي استعان به سليمان المستعين والبربر.

إضافة إلى تزويدهم بما يحتاجونه من مواد غذائية لمواجهة الحصار الاقتصادي الذي فرضه عليهم واضح قائد جند المهدي، شارك معهم في محاولة السيطرة على قرطبة، وبفضل هذه المساعدة تمكن المستعين والبربر من تحقيق انتصار كبير على قوات قرطبة، وكان للنصارى دور كبير في هذه المعركة، إذ "مالوا يومئذ على

المنهزمين من المسلمين فقتلوا منهم في صعيد واحد نيفا على ثلاثة آلاف رجل"، وكانوا قبل ذلك قد ساهموا في تحقيق الانتصار على جيش المهدي وواضح الفتى، حيث "وضع البرابرة والنصارى السيوف على أفراد الجيش، وقتلوا في هذه الوقعة، وهي وقعة قنتيش التي دارت رحاها يوم السبت 13 ربيع الأول سنة 400هـ (1009م) عشرة آلاف جندي وأزيد"[(1)]، وذكر ابن الخطيب أن النصارى قتلوا أزيد من ثلاثين ألفا من أهل قرطبة، ويبدو أنه سهو منه، ولكن تعليقه على هذه المجزرة التي ارتكبها النصارى في حق المسلمين مهمة جدا إذ يقول: إنها "كانت أول ثارات المشركين على المؤمنين"[(2)].

والحقيقة التي لا جدال فيها أن النصارى وجدوا الفرصة سانحة للانتقام من المسلمين الذين اكتسحوا أراضيهم وأرغموهم على الخضوع لهم فيما سبق وبخاصة في عهد النّاصر والمنصور حيث أصبح الحاكم النصراني لا يهنأ بسلطته إلا إذ اكتسب ودّ ومباركة حاكم المسلمين.

لم يشارك النصارى في محاربة المسلمين من أجل الثأر فقط، ولكنهم اشترطوا على سليمان والبربر قبل التوجه معهم إلى ساحة الوغى التنازل لهم عن عدد من الحصون، وقد وافق الطرفان على ذلك شريطة تحقيق الهدف، وهو السيطرة على البلاد، وبما أن ذلك لم يتم فقد أصبح البربر وقادتهم في حلّ من العقد الذي وقّعوه مع سانشو بن غرسية بن فرذلند[(3)].

قلنا سابقا أنه بفضل مساعدة النصارى انتصر سليمان والبربر ودخلوا قرطبة، واضطرّ الخليفة السابق إلى الفرار نحو الشمال حيث التحق بواضح الفتى قائد الثغر، ومن أجل استعادة الحكم اتصل المهدي بقومس برشلونة ريموند بوريل الثالث وأخيه أرمنجول (ويسميه العرب أرمقند) أمير أرخيل.

---

(1) ابن حيان أبو مروان - من نصوص كتاب المتين - ص 29.
(2) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 113.
(3) البيان المغرب - ج 3 ص 83 / أعمال الأعلام - ص 113.

اتصل واضح قائد جند المهدي بحاكمي الإفرنج، ونجح في إقناعهما بقتال سليمان المستعين ومن معه من البربر إلا أن هؤلاء استغلوا الفرصة ليطلبوا من المسلمين التنازل لهم عن مدينة سالم، ووافق المهدي وواضح على ذلك، وقاما بإخلائها ممن كان فيها من المسلمين؛ فدخلها الكافرون وملكوها، وكانت قبل ذلك قاعدة الثغر الأوسط.

انطلقت قوات الإفرنج من برشلونة، ووصلت طلائعهم إلى مدينة سرقسطة "فساموا أهلها سوء العذاب في عبيدهم وذراريهم وتجارهم، كما نزلوا في ديارهم، ثم سار بهم واضح إلى طليطلة ليجتمع مع ابن عبد الجبّار"[1]، وأول ما دخلوا من المدينة الجامع حيث ضربوا فيه الناقوس إيذانا بعودة المسيحية إلى ربوعه، كما حوّلوا قبلته، ولم يكتفوا بذلك بل اشترطوا على واضح أن يلتزم لكل رجل منهم دينارين كل يوم، ويوفر لهم ما يحتاجونه من الشرّاب واللّحم وغير ذلك من المواد الغذائية، ويجري على القومس في كل يوم مائة دينار، إضافة إلى ما يحتاجه من الطعام والشرّاب وغير ذلك، ويضاف إلى ذلك كله أن لهم كل ما استولوا عليه من عسكر البربر، من سلاح وكراع ومال، كما أن نساء البربر ودماءهم وأموالهم حلال لهم لا يحول أحد بينهما، إضافة إلى شروط أخرى، ورغم قساوتها، فإن واضح التزم بتنفيذ كل ذلك، ولم يكن يهمه أبدا الثمن بقدر ما يهمه نصرة قائده المهدي بن عبد الجبّار[2].

إن هذه الشروط القاسية، وقبول واضح لها يدل بوضوح على أن الأخوة الإسلامية التي كانت تربط بين أفراد المجتمع الأندلسي لم يعد لها أي وجود، وأصبح المسلم يبيع إخوانه في الدين والوطن مقابل الظفر بالكرسي.

ورغم انهزام المهدي وواضح ومن معهما من جند النصارى في موقعة وادي آرو التي دارت في ذي القعدة سنة 400هـ (1010م)[3] إلا أن المهدي وواضح التزما

---

(1) البيان المغرب - ج 3 صص 93 - 94/ أعمال الأعلام - ص 113.

(2) ابن عذاري - نفس المصدر - ج 3 ص 94.

(3) نفسه - ج 3 ص 96/ ابن الخطيب - نفس المصدر - ص 115.

بتنفيذ شروط النصارى الذين وصلت رسلهم إلى قرطبة، "وأحكمت الشروط على تسليم أزيد من مائتي حصن مما فتح الملوك المجاهدين من بني أمية وكافل أمرهم المنصور وولده، وحضر لذلك الفقهاء والقضاة والمفتون"(1).

ويضيف ابن عذاري في ذات الموضوع قائلا: "ولما وصل الرسل إلى قرطبة حضر الفقهاء والقاضي والعدول، وكتبوا كتابا بالشروط وتسليم الحصون للنصارى...فكان الذي صار لابن مامة جميع الحصون التي كان أخذها الحكم بن عبد الرحمن ومحمد بن ابي عامر وابنه المظفر"(2).

لقد كانت الفتنة سببا في ضياع الكثير من المناطق التي كان قد استولى عليها حكام المسلمين السابقين، ذلك أن المتنافسين على سدّة الحكم بقرطبة والطامعين في الوصول إليها جعلوا نصب أعينهم غاية واحدة سعوا إلى تحقيقها، وهي الوصول إلى الكرسي، ولم يكن يهمهم أبدا الوسائل التي استعملوها من أجل تحقيق ذلك.

أصبح ملوك النصارى بداية من هذه السابقة يهددون باستمرار أحد الطرفين بمساعدة الآخر كلما أرادوا الحصول على جزء من العدوة الأندلسية، من ذلك ما يورده ابن عذاري الذي يقول: "وسمع اللّعين ابن شانجة أيضا بما سلّم إلى اللّعين ابن مامة دونه من الحصون؛ فكاتب يطلب حصونا أخر، وتوعّد وتهدّد؛ فأجيب إلى ما سأل من ذلك، وكتب بتسليمها إليه، وهذا كله لجاجا في ألاّ يصالح البربر"(3).

لقد أدى الإصرار العنيد للوصول إلى الحكم بين أفراد الأسرة الأموية إلى فقدان مساحات شاسعة من أراضي المسلمين، واستيلاء النصارى عليها دون بذل مجهود كبير في ذلك إذا استثنينا هزيمتهم الكبيرة في موقعة وادي آرو، وصار بإمكانهم انطلاقا من حاجة المتقاتلين فيما بينهم من المسلمين أن يضموا المزيد من الأراضي، وبالتالي يقتربون أكثر فأكثر من هدفهم الأساسي المتمثل في استرجاع كامل بلاد

---

(1) نفسه – ص 117.
(2) البيان المغرب – ج 3 ص 103.
(3) نفسه – ج 3 ص 104.

الأندلس، وهو ما تمّ فعلا مع استمرار التطاحن بين أفراد المجتمع الإسلامي، وسيزداد ذلك أكثر بعد انقسام الدولة الإسلامية إلى مجموعة من الممالك المستقلة عن بعضها، والمتحاربة فيها بينها.

انقسام الأندلس إلى ممالك مستقلة:

كانت سائر العناصر التي تعاونت في إقامة وتدعيم النظام الذي أقامه المنصور تتربص ببعضها البعض، ويخشى كل منها على مركزه وسلطانه، وكانت ثمة معارك خفية تجري بين البربر وخصومهم من الصقالبة في القصر والحكومة، وكان بنو أمية يميلون إلى الصقالبة مواليهم القدماء، ويكرهون البربر إذ كانوا السند الرئيس الذي اعتمد عليه المنصور من أجل سلب سلطانهم، كما كانت البطون العربية تكن العداوة للطرفين أي الصقالبة والبربر، ولكنها ترى أن المغاربة هم الخصم الأكبر لها.

وهكذا اجتمعت هذه العوامل لتحدث أثرها في الوقت الملائم، وعندما وقع الإنفجار وانهارت الدولة العامرية، ظهرت في الميدان ثلاث قوى متصارعة فيما بينها، وأصبح التحالف يتم في غالب الأحيان بين كل عناصر المجتمع الأندلسي ضد الطرف البربري، وتتمثل هذه القوى الثلاث الرئيسة في:

1 - بني أمية الذين التفوا حول راية خلافتهم بالأندلس، وسعوا إلى إعادة إحياء تراث بيتهم المغصوب.

2 - طوائف البربر التي تحاول الدفاع عن نفسها أمام هجمات العناصر الأندلسية الأخرى من جهة، والإحتفاظ بالرياسة والامتيازات التي اكتسبتها خلال خدمتها للدولة الأندلسية، وبخاصة في عهد المنصور بن أبي عامر وابنائه من جهة أخرى.

3 - الأسر العربية التي اضطهدت وأبعدت عن الميدان، وبخاصة في عهد الناصر والمنصور، والتي تحاول استرجاع مكانتها وزعامتها القديمة في المجالين السياسي والعسكري.

وإلى جانب هذه القوى الثلاث الرئيسة، لعبت طائفة الفتيان الصقالبة أو

العامريين دورا هاما خلال الفتنة، وسعت إلى انتزاع نصيبها من أسلاب الدولة الأندلسية[1].

نتيجة للصراع الدائر بين هذه الأطراف الثلاثة المتمثلة في البربر والعرب والصقالبة انقسمت الأندلس إلى مجموعة من الممالك، حيث سيطر البربر على المثلث الجنوبي من العدوة الأندلسية، وبسطوا سلطانهم على معظم القواعد الواقعة جنوبي نهر الوادي الكبير مثل قرمونة وإستجة ومورور وأركش ورندة ومالقة وغرناطة، إضافة إلى بعض المناطق الشرقية والشمالية الغربية.

أما العرب فقد بسطوا سلطانهم على معظم القواعد الأندلسية الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية وسرقسطة وبلنسية ومرسية والمرية، ونال الصقالبة نصيبهم من العدوة الأندلسية؛ فسيطروا على معظم المناطق الشرقية، وعلى المرية لفترة زمنية قصيرة[2].

كانت الفتنة الأندلسية القائمة بداية من سنة 399هـ (1008م) سببا في انقسام الأندلس الإسلامية إلى ممالك عديدة بلغت في مجموعها ستا وعشرين مملكة، وبذلك ضاعت جهود قرن كامل بذله الحكّام السابقين في توحيد البلاد، وبخاصة من قبل عبد الرحمن الناصر، ونتيجة لذلك عادت الأوضاع السياسية إلى ما كانت عليه قبل توليه الحكم سنة 300هـ (912م)، وتكرست هذه الوضعية السياسية من جرّاء السياسة التي انتهجها ملوك الطوائف، والقائمة على الصراع الدائر بينهم، ومواصلة الاستعانة بالنصارى ضد أعدائهم، وباستمرار هذه السياسة تمكن ملوك النصارى من التوسع على حساب العديد من المدن والحصون الهامة، والتي سيستخدمونها كقواعد لانطلاق عملية الاسترداد[3].

---

(1) عبد الله عنان - دولة الإسلام في الأندلس - دول الطوائف - صص12 - 13.

(2) نفسه - ص 14/أحمد مختار العبادي - في تاريخ المغرب والأندلس - صص255 - 257.

(3) ابن الخطيب - نفسه - ص 114 - 117 - 144/ رجب محمد - العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف - دار الكتب الإسلامية - دار الكتاب المصري - د ك.اللبناني - القاهرة - بيروت - بدون تاريخ ص 272 / ابن الأبّار - الحلة السيراء - ج 2 ص 29 - 30/ هنري بيريس - الشعر الأندلسي في عصر الطوائف - =

لكن متى بدأت ظاهرة الانقسام هذه، والتي مسّت بلاد الأندلس، وأدّت إلى إضعافها وطمع النصارى فيها؟

تعود جذور هذا التفكك إلى بداية الفتنة، وأول من قام بإنشاء دويلات مستقلة هم الصقالبة الذين عايشوا تغلب البربر على قرطبة سنة 403هـ (1013م) وخافوا من بطشهم، لذلك فرّ معظمهم إلى شرقي الأندلس، وهناك قاموا بإنشاء ممالك خاصة بهم، ويؤكد ذلك ابن عذاري حيث يقول: "ولما استولى البربر مع سليمان على قرطبة خاف العبيد العامريين على أنفسهم؛ فهربوا إلى شرق الأندلس، واستولوا على بلنسية وشاطبة ودانية وغيرها"[1].

وتأكد هذا التفكك عند ما أقدم سليمان المستعين على تقسيم المناطق الجنوبية من بلاد الأندلس على رؤساء قبائل البربر وبعض العرب المحالفين له، وكانت هذه الخطوة التي أقدم عليها سليمان المستعين البذرة الأولى لحالة التشرذم التي ستعيشها العدوة الأندلسية، والتي ستتأكد عقب إعلان ابن جهور عن إنهاء الخلافة سنة 422هـ (1031م)، وبذلك تكوّنت في الأندلس مجموعة من الممالك المستقلة عن بعضها، والمتحاربة فيما بينها، والمستعينة بالنصارى من أجل تحقيق النصر، وكسب المزيد من الأرض، ولكن في مقابل التنازل للطرف النصراني عن جزء من تراب المملكة المهزومة في المعركة.

قيام الممالك البربرية:

عقب انتصار البربر على أهل قرطبة ودخولهم إليها، وتنصيب سليمان المستعين في منصب الخلافة سنة 403هـ (1013م)، طلب رؤساء البربر من الخليفة الجديد نصيبا من بلاد الأندلس حتى يتمكنوا من العيش فيها، ويوفروا الحماية لأولادهم وأزواجهم فيها، إضافة إلى استغلال أراضيها من أجل توفير القوت

=

ترجمة الطاهر أحمد مكي - دار المعارف - القاهرة - ط 1 - 1408هـ - 1988م - ص 18.

(1) البيان المغرب - ج 3 ص 115.

لذويهم[1]، وبذلك فهم يسعون إلى تفادي ما حدث لهم سابقا مع أهل الأندلس الذين منعوا عنهم الأكل عندما فرض عليهم واضح قائد جند المهدي الحصار الاقتصادي حيث اضطروا إلى أكل حشائش الأرض، ولولا مساعدة النصارى لهم وتزويدهم بالمواد الغذائية لهلكوا من جرّاء ذلك، كما أن أبناءهم وأهاليهم قد تعرّضوا للقتل والسبي، وديارهم قد تعرضت إلى النهب من قبل جند العامة الذين التحقوا بالمهدي، وسعوا إلى الانتقام من البربر الذين اتهموهم بمساندة البيت العامري، وتقديم يد العون له فيما قام به من استبداد سياسي، وإذلال للأسر العربية والبيت الأموي وسلب الحكم منه.

استجاب المستعين لطلب البربر، ووزع عليهم معظم الجزء الجنوبي من العدوة الأندلسية، ونتيجة لذلك تشكلت مجموعة من الممالك البربرية التي سيكون لها دورا هاما في تطور التاريخ الأندلسي، وتتمثل هذه الدول فيما يلي:

1 - **دولة بني خزرون:** (402 - 461هـ/1011 - 1068م) ينتمي بنو خزرون إلى بني يرنيان، إحدى بطون زناتة، وقد أسس هذه الدولة أبو عبد الله محمد بن خزرون بن عبدون الخزري أمير بني يرنيان الذي ظهر أيام الفتنة بمدينة قلشانة الواقعة بكورة شذّونة[2]، وذلك في سنة 402هـ (1011م)، ثم تغلب على أركش[3] القريبة من شذونة، وهي من أعظم معاقل الأندلس[4]، فملكها وأقام بها دولة مستقلة تشمل المناطق المجاورة لها وتلقب بعماد الدولة، وكان زعيما جسورا، مقداما، سفاكا للدماء، ونتيجة لذلك هابه الناس، واستمرّ في الحكم حتى وفاته سنة 420هـ (1029م)، ثم خلفه ابنه عبدون بن خزرون الذي تلقب بالقائم، وقد بايعته البلاد المجاورة لأركش وشريش والجزيرة الخضراء، ودامت دولته إلى سنة إحدى وستين وأربعمائة للهجرة.

(1) ابن الخطيب - المصدر نفسه - ص 228.
(2) الحميري - الروض المعطار - ص 162.
(3) نفسه - ص14.
(4) البيان المغرب - ج 3 ص 294 / أعمال الأعلام - صص 238 - 239/ محمد عبد الله عنان - دول الطوائف - ص 155.

2 - دولة بني زيري بغرناطة: (403 - 483هـ/1012 - 1090م) دخل جماعة من بني زيري إلى الأندلس في عهد المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر، وكان من أبرز رجالهم شيخهم وأميرهم زاوي بن زيري بن منّاد وابني أخيه ماكسن حباسة وحبّوس.

وقدّم هؤلاء خدمات جليلة للدولة الأندلسية من خلال انخراطهم في صفوف الجند، وقيامهم بواجب الجهاد ضد النصارى، واستمرّ ذلك الدور إلى غاية انهدام الإمامة وانشقاق عصا الجماعة.

كان بنو زيري قد خرجوا مع عبد الرحمن شنجول في غزوته الموجهة إلى جليقية عند ما قام المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبّار في قرطبة على الخليفة هشام، ونجح في الإستيلاء على سدّة الحكم، وعندما بلغ الخبر إلى الجند المرافق لشنجول انسحب البربر ومنهم بنو زيري، وعادوا إلى قرطبة لضمان أمن أهلهم وممتلكاتهم كما أنهم بايعوا المهدي، ولكن هذا الأخير كان يصرح بنكبتهم، ولا يقدر على كتمان ذلك، وكان قد أمر الموكلين ببابه بمنع أعيانهم من الدخول إلى القصر، ولم يكتف هؤلاء بذلك بل أهانوا زعماء بني زيري.

نتيجة لازدياد الإعتداءات عليهم من قبل أهل قرطبة، اضطروا إلى مغادرة ديارهم، والانضمام إلى صفوف الناقمين على حكم ابن عبد الجبّار، واشتركوا معهم في تعيين المستعين خليفة عليهم، ونجحوا معه في الدخول إلى قرطبة في 27 شوال 403هـ (1013/05/10م)، وكان بنو زيري من البربر الذين حصلوا على جزء من بلاد الأندلس.

أعطى سليمان صنهاجة ومنهم بنو زيري إلبيرة[1] التي عرض أهلها على زاوي وقومه الأموال والسكنى مقابل حماية ديارهم والدفاع عنها عندما رأوا اختلاف سلاطين الأندلس بعد زوال الدولة العامرية، وخافوا على مدينتهم، وقد وافق زاوي على هذا العرض، وسكن المدينة رفقة عشيرته وابن أخيه حبّوس بن ماكسن بن زيري،

(1) ابن عذاري - البيان المغرب - ج 3 ص 113/ ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 119.

وبايعته مدينة جيان وحصن آشر[1] الذي يقع في غربي غرناطة في منتصف الطريق بين لوشة واليسانة، ويصفه الإدريسي بأنه حصن حسن كثير العمارة، آهل وله سوق مشهودة[2].

خاف أهل الأندلس أن تقوى شوكة زاوي بن زيري وابن أخيه بإلبيرة وضواحيها؛ فاحتشدوا ضدهما، وقرروا تجريد حملة للقضاء عليهما، وعندما علم زاوي وابن أخيه بذلك جمعوا أهل إلبيرة وقالوا لهم: "نحن لم نأت لفساد دياركم ولا قهرناكم على استيطانها، وإنما كان ذلك على اختياركم لنا، وهذه الفئات مقبلة لطلبنا؛ فإن استوثقنا منكم دافعنا عنكم، وإن كانت الأخرى؛ فاعلمونا نمضي عنكم على أجمل وجه؛ فلن نعدم الخير بسيوفنا"، وفي هذا الكلام ما يدلّ على أن البربر لم يكونوا البادئين بالعدوان على أهل الأندلس عند قيام الفتنة بقرطبة، ولو كانوا كذلك لاستعملوا قوتهم من أجل حكم إلبيرة مع العلم أن أهلها كانوا عاجزين عن حماية أنفسهم نظرا لضعفهم وكثرة الخلافات بينهم، وكان ردّ أهل إلبيرة أن قالوا لهم: "أثبتوا في قتال عدوكم، والدفاع عنا وعن أنفسكم؛ فنحن رعتيكم الطائعة وأسيافكم القاطعة"[3].

لاحظ بنو زيري أن إلبيرة بموقعها الجغرافي لا تصلح للدفاع، لذلك اختاروا مكانا يقع في جبل قريب منها؛ فرحلوا إليه بأهلهم وأموالهم، وشرعوا في بناء مدينة غرناطة التي ستحتل مكان إلبيرة عما قليل[4]، وبذلك مدّن زاوي هذه المدينة وزادها تشييدا ومنعة، وأقام بها ملكا، وأثّل بها سلطانا لذويه[5].

شارك الصنهاجيون في الإطاحة بسليمان المستعين، وتنصيب علي بن حمّود الإدريسي خليفة بقرطبة في المحرم من سنة 407هـ (1016م)، ونتيجة لذلك فرّ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر إلى شرق الأندلس،

(1) عبد الله بن بلقين - كتاب التبيان - ص 59.

(2) الإدريسي - القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس - ص 298.

(3) عبد الله بن بلقين - نفس المصدر - ص 60.

(4) نفسه - صص59 - 60/ ابن سعيد - المغرب في حلى المغرب - ج 2 ص 106.

(5) ابن الخطيب - الإحاطة في أخبار غرناطة - ج 1 ص 514.

وأعلن نفسه خليفة وتسمى بالمرتضى، وفي السنة الموالية اجتمع عليه أكثر ملوك الطوائف، وبخاصة الصقالبة خيران وزهير العامريان ومنذر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة والثغر الأعلى، وإسماعيل بن عبد الرحمن بن ذي النون صاحب طليطلة، واتفقوا على السير إلى قرطبة لتنصيبه خليفة، وفي طريقهم مالوا إلى غرناطة لمحاربة زاوي بن زيري بسبب عدم مبايعته للمرتضى، وخوفا من ازدياد قوته[1].

نزلت جموع المهاجمين بظاهر غرناطة وعلى مقربة منها، ولم يكن بناء المدينة قد انتهى، وكتب المرتضى إلى زاوي يدعوه إلى طاعته، ويأمره بالخروج من المدينة، ولكن زعيم صنهاجة لم يعبأ به، وردّ عليه بشكل من التحدي الذي أثار غيظه، وجمع رجاله، وطلب من ابن أخيه حبوس والي جيان وحصن آشر من قبله القدوم إليه؛ فجاءه في جميع عسكره[2].

اقتتل الطرفان اقتتالا شديدا ودامت الحرب بينهما أياما، وعندما طالت أرسل زاوي إلى خيران العامري يذكره بوعده، وكان هذا الأخير قد كتب إلى ابن زيري الصنهاجي، وضمن له تخلي الموالي العامريين وأصحاب رياسة الثغور عن نصرة المرتضى المرواني مقابل قيام زاوي بقطع الطريق عليه، وهو متوجه إلى قرطبة، وأجابه الصقلبي إلى طلبه، وفي الغد انسحب خيران ومنذر برجالهما[3].

وعقب ذلك دبّت الهزيمة في صفوف جند المرتضى، وفرّوا من ساحة الوغى، وفرسان بني زيري يطاردونهم في تلك المضائق، يقتلون منهم ويأسرون، وخاف المرتضى أن يقبض عليه؛ ففرّ للنجاة بنفسه، وكان خيران العامري قد وضع عليه عيونا

---

(1) ابن عذاري - نفس المصدر - ج 3 صص121 - 125/ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص130 /المقّري - نفح الطيب - ج1 ص484 - 485.

(2) كتاب التبيان - ص 61 - 62/ البيان المغرب - ج 3 ص 125 - 126/ ابن الخطيب - الإحاطة - ج 1 ص 515 - 516.

(3) ابن بسام الشنتريني - الذخيرة - ق1 م1 ص 454/ البيان - ج3 ص 126/ ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 131.

حتى لا يخفي أثره؛ فلحقوه بقرب وادي آش وهجموا عليه وقتلوه[1]، ودارت تلك الوقعة في الثالث من جمادى الأولى سنة 409هـ (1018م)[2]، وكان فيها أول انتصار لبني زيري على المروانيين، ونتيجة لذلك هابهم الناس، وانقادت لهم الرعايا، وتوطّد ملكهم بغرناطة، وطاعت لهم أكثر بلاد أعدائهم المهزومين[3].

وعلى إثر هذا الانتصار صمّم زاوي على الرحيل إلى وطنه إفريقية بعد حصوله على إذن من صاحبها المعزّ بن يوسف بن زيري وأجمع معظم المؤرخين على أن سبب عودته إلى بلده هو تخوفه من ردّة فعل الأندلسيين لهول ما عاينه من اقتدارهم، وإشرافهم على التغلب عليه في الحرب التي دارت بينهما ولولا تخاذل أمراء الأندلس عن نصرة المرتضى وغدرهم به لما تحقق له النصر، كما أيقن أيضا بأن أهل الأندلس قد اعتادوا على بغضهم له ولقومه، وحاول إقناع عشيرته بصواب رأيه لكنه لم يفلح في ذلك، وغادر غرناطة رفقة أسرته سنة 410هـ (1019م)[4].

ويروي الأمير عبد الله أنه ما إن خرج زاوي من غرناطة حتى كتب شيوخها المستخلفون إلى حبّوس يحثونه على القدوم إلى البلد لتولي أمره قبل أن يطمع فيه غيره؛ فأسرع حبّوس وانتقل إلى غرناطة أين تلقته صنهاجة بالطاعة وبايعته وانقادت لملكه.

قسم حبّوس البلاد على أقاربه وبني عمه، وكان يستشيرهم في كل مسألة، كما أنشأ جيشا مكنه من حماية بلاده من غارات ملوك الطوائف المجاورين له، والطامعين

---

(1) ابن بسام - نفس المصدر - ق 1 م 1 ص 454/ ابن عذاري - نفس المصدر - ج 3 ص 126/ ابن الخطيب - نفس المصدر - ص 131.

(2) ابن الخطيب - الإحاطة - ج 3 ص 467/ أعمال الأعلام - ص 131.

(3) عبد الله بن بلقين - التبيان - ص 62/ ابن عذاري - البيان المغرب - ج 3 ص 127/ ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 131.

(4) كتاب التبيان - ص 63/ البيان المغرب - ج 3 ص 128/ ابن بسام - الذخيرة - ق 1 م 1 ص 458.

في الإستيلاء على أراضيه، وضبط النظام والأمن، وفي أيامه اتسع ملكه فشمل قبرة[1].

هذه بإيجاز المراحل التي مرت بها دولة بني زيري الصنهاجية في مرحلتها التأسيسية، وسيكون لها شأن كبير في تاريخ العدوة الأندلسية وبخاصة في الصراع الدائر بين ملوك الطوائف من جهة، وبين الطامعين في الجلوس على سدّة الخلافة بقرطبة من جهة أخرى.

دولة بني رزين (403 - 497هـ/1012 - 1104م): تقع دولة بني رزين أو إمارة شنتمرية، وتعرف أيضا بشنتمرية ابن رزين في بسيط سهل خصيب من الأرض، يقع جنوب الثغر الأعلى، وفي شمال شرق الثغر الأوسط عند منابع نهر خالون أحد فروع نهر إبرو، وتحدّها شرقا جبال بني رزين، وينتسب بنو رزين إلى جدّهم الأعلى رزين البرنسي، أحد أعيان البربر الداخلين إلى الأندلس في جيش طارق بن زياد، وينتمي إلى هوارة، إحدى بطون البرانس، وكان منزل بني رزين في قرطبة، ثم نزعوا إلى الثغر، ونزلوا بأراضي السهلة، واستقرّوا هنالك سادة وحكاما، وعند اضطرام نار الفتنة، تطلع زعيمهم يومئذ، وهو أبو محمد هذيل بن عبد الملك بن خلف بن لب بن رزين المعروف بابن الأصلع إلى الاستقلال بما في يده من الأراضي على غرار ما فعله جاره إسماعيل بن ذي النون؛ فأعلن استقلاله عن حكومة قرطبة، واستبدّ بحكم شنتمرية وأعمالها، وذلك في سنة 403هـ (1012م) وتلقب بالحاجب عز الدولة، ولكنه في نفس الوقت اعترف بطاعة الخليفة سليمان المستعين ولو إسميا، وقنع هذا الأخير بذلك؛ فأقره على ما بيده من الأعمال[2].

حاول الحاجب منذر بن يحيى التجيبي صاحب الثغر الأعلى إخضاع هذيل لسلطته مثلما فعل مع غيره من صغار أمراء الطوائف؛ فأبى ودافع عن نفسه، ونتيجة

(1) كتاب التبيان - ص 64/ البيان المغرب - ج 3 ص 264/ أعمال الأعلام - ص 229.

(2) البيان المغرب - ج 3 ص 181/ ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 205/ ابن بسام - الذخيرة - ق 3 م 1 ص 109 - 110/ ابن الأبار - الحلة السيراء - ج 2 ص 108/ عبد الله عنان - دول الطوائف - ص 253 - 254.

لذلك نشأت الخصومة بينهما، وتمكن هذيل من الصمود أمام أطماع جاره بفضل مناعة عاصمته وشجاعة رجاله، وتحالفه مع الموالي العامريين أعداء منذر[1].

إقتصر هذيل على ضبط بلده، ولم يسع إلى التوسع على حساب غيره لذلك استقام أمره، وبفضل خصوبة أراضي إمارته التي لم يكن " في بلد الثغر أخصب بقعة من سهلته المنسوبة إلى بني رزين" كثر ماله وصار ينافس جاره إسماعيل بن ذي النون[2].

اتبع هذيل سياسة الحياد؛ فلم يتدخل في أي نزاع أو حلف على غرار ما فعله أمراء الطوائف القائمين في بلاد الأندلس، ونتيجة لذلك نجح في الحفاظ على سلامة مملكته، وتفادي ضغط مملكة قشتالة المسيحية[3].

كان هذيل من أحبّ أمراء عصره إلى شعبه، وقد استمرّ في حكم إمارته الصغيرة مدة ثلاث وثلاثين سنة قضاها كلها في الأمن والسلام والرخاء، وكانت وفاته في سنة 436هـ (1045م)[4].

دولة بني برزال (404 - 453هـ/1013 - 1067م): إنتظم بنو برزال في خدمة الأمويين منذ جوازهم إلى الأندلس في عهد الحكم المستنصر، واستمرّوا على نفس الحال في عهد ابنه هشام المؤيد وحاجبه المنصور بن أبي عامر الذي عين كبيرهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله البرزالي حاكما على مدينة قرمونة في أواخر الدولة العامرية؛ فاستقر فيها مع أهله وأصحابه إلى أن وقعت الفتنة؛ فكسح فيها بنو برزال كما

---

(1) أعمال الأعلام - ص 205/البيان - ج 3 ص 181 - 182/الذخيرة - ق 3 م 1 ص 110/الحلة السيراء - ج 2 ص 108 - 109.

(2) البيان - ج3 ص182/أعمال الأعلام - ص206/الحلة السيراء - ج 2 ص 109/ الذخيرة - ق 3 م1 ص 110.

(3) البيان المغرب - ج 3 ص 183/ أعمال الأعلام - ص 206/ الذخيرة - ق 3 م 1 ص 111/ عنان - دول الطوائف - ص 254.

(4) عبد الله عنان - نفس المرجع - ص 255.

فعل غيرهم من البربر المقيمين في العدوة الأندلسية[1].

وعندما اشتدت الفتنة وتفرقت الجماعة دعا أبو عبد الله البرزالي لنفسه في كورة قرمونة الواقعة إلى الشمال الشرقي من مدينة إشبيلية في منحنى الوادي الكبير، وكانت تشمل إلى جانب قاعدتها مدينة قرمونة الحصينة مدينة إستجة الواقعة في الشرق، ومدينة المدوّر الواقعة غربي قرطبة على نهر الوادي الكبير[2].

بويع أبو عبد الله البرزالي بقرمونة سنة أربع وأربعمائة (1013م) فضبطها، وجمع رجالها ورتب جنودها، وواسى رعيتها ونشر العدل فيها، ونتيجة لذلك كله مالت إليه النفوس، وعمرت البلاد وسادها الأمن، كما بايعته مدن إستجة وأشونة والمدوّر وغيرها من البلاد؛ فأمنت كلها بأمنه، وكثر خيرها بيمنه[3].

وبذلك أصبحت دولة قرمونة من أهم الممالك القائمة بالعدوة الأندلسية، وكانت في الدرجة الثانية من حيث الأهمية بالنسبة للممالك البربرية، ويصف ابن الخطيب مؤسس هذه الإمارة بقوله: "وكان هذا الرئيس يلي باديس من ملوك البرابرة في جلالة الشأن، وقوة السلطان بقية أمراء البرابر المسلطين في هذه الفتنة، وأعظمهم شأنا في الدهاء والرجولة، وأبصرهم بتدبير العساكر، وأربطهم جأشا على الخطوب المتعلقة، وكان مشهورا بذخيرة عتيدة من صامت المال"[4].

ونتيجة لذلك حالفه القاضي ابن عبّاد صاحب إشبيلية، وكان يعتمد عليه في مواجهة خصومه، ورحّب البرزالي بهذا التحالف لحماية دولته من شرّ بني حمود وأطماعهم في إمارته، ومن ثمار هذا التحالف اشتراك أبي عبد الله مع صاحب إشبيلية

---

(1) مجهول - مفاخر البربر - ص 182/ ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 237/ ابن عذاري - البيان - ج 3 ص 267 - 268.

(2) عبد الله عنان - نفسه - ص 148.

(3) ابن عذااري - نفسه - ج3 ص311 - 312/ابن الخطيب - نفسه - ص237/ عبد الله عنان - نفسه - ص149.

(4) ابن الخطيب - نفسه - ص 236.

في حملته على مدينة باجة التابعة لبني الأفطس، أصحاب بطليوس سنة421هـ[1].

كما أن البرزالي استنجد بحليفه عندما استولى يحيى بن حمود المعتلي على عاصمة إمارته، ونجح ولده إسماعيل في قتل الحمودي واسترجاع قرمونة، وذلك في المحرم من سنة 427هـ (1036م)[2]، ولكن هذا التحالف سرعان ما زال إذ تحول ابن عباد فجأة إلى مخاصمة البرزالي، وسيّر إليه قوات تمكنت من الإستيلاء على إستجة ثم قرمونة، وعجز البرازلة عن مواجهة صاحب إشبيلية، لذلك استغاثوا بإخوانهم البربر الذين لبّوا النداء، وقدم زعيمهم باديس بن حبّوس صاحب غرناطة وإدريس المتأيد صاحب مالقة؛ فهزموا جيش ابن عباد، وقتلوا أميره إسماعيل، واستردّوا قرمونة، وذلك في أوائل المحرم من سنة 431هـ (1039م)[3]، وبعد ذلك بثلاث سنوات توفي أبوعبد الله محمد البرزالي بعد حكم دام ثلاثين سنة[4].

دولة بني دمر (403 - 459هـ/1012 - 1066م): كان بنو دمر من البربر الساكنين بالجبل المصاقب لقابس، وهم فخذ من زناتة ومن الإباضية، وقد وفد جدّهم أبو تزيري إلى الأندلس في عهد المنصور بن أبي عامر، وخدم كغيره من البربر في الجيش الأندلسي، وعندما قامت الفتنة بقرطبة انحاز إلى مورور فاستقرّ بها، وبسط عليها سلطانه، وكانت هذه المنطقة تشغل رقعة صغيرة تمتد حول المدينة، وتصل جنوبا حتى وادي لكّة[5].

وبعد وفاته سنة 403هـ (1013م) خلفه ولده نوح ابن أبي تزيري الدمري، واستمرّ في حكم مورور لمدة ثلاثين سنة تقريبا[6].

دولة بني يفرن (431 - 457هـ/1039 - 1065م): خدم بنو يفرن كغيرهم

---

(1) عبد الله عنان - دول الطوائف - ص 150.

(2) البيان المغرب - ج 3 صص 199 - 202/ عبد الله عنان - نفسه - ص 150.

(3) البيان المغرب - ج 3 صص 199 - 203.

(4) نفسه - ج 3 صص 312/ عبد الله عنان - دول الطوائف - ص150.

(5) نفسه - ص 154.

(6) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 239/ عبد الله عنان - نفسه - ص 154.

من القبائل البربرية التي هاجرت إلى الأندلس خلال القرن الرابع الهجري (10م) في الجيش الأندلسي الذي شكله المنصور بن أبي عامر، وعندما انتهت الدولة العامرية، وقامت الفتنة بقرطبة، وتفرقت القبائل البربرية في النواحي إثر قيام المستعين بالله بتقسيم أجزاء من الأندلس على رؤساء المغاربة، ومنهم بنو يفرن الذين حصلوا على جيان وذواتها رفقة بني برزال[1]، وذلك في سنة ثلاث وأربعمائة للهجرة.

استقر بنو يفرن في ولاية تاكرّنا، واتخذوا من قلعتها رندة عاصمة لهم، وهي معقل حصين بالأندلس من أعمال تاكرّنا، ويقع ما بين إشبيلية ومالقة[2]، وكان زعيمهم يومئذ أبو نور هلال بن أبي قرّة بن دوناس اليفرني، الذي بويع له بعد موت إدريس بن علي بن حمود سنة 406هـ[3]، ثم "خطب له بمالقة وسائر بلاد رية، وكانت بينه وبين المعتضد بن عباد مداخلة ومصاحبة"[4].

ويقول ابن الخطيب إنه "كان جسورا، مقداما، عزيز الجانب ببأس رجاله ووعورة رحاله وحصانة قلاعه"[5].

كان قيام أبي نور هلال بن أبي قرّة في سنة 406هـ، وما يدفعنا إلى ذلك هو تلك الإشارات العديدة الواردة في المصادر الأندلسية والمغربية، حيث يتفق جلّ مؤلفيها على أن بني يفرن كانوا من البربر الذين حصلوا على قسم من بلاد الأندلس منحهم إياه المستعين بالله سنة 403هـ (1012م)، وفي ذلك يقول ابن عذاري:" وأعطى بني برزال وبني يفرن جيّان وذواتها"[6]، ويؤيده ابن الخطيب في ذلك حيث يورد نفس

---

(1) البيان المغرب - ج 3 ص 113/ ابن الخطيب - نفسه - ص 119.

(2) مجهول - مفاخر البربر - ص 184/ ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج 3 ص 73/ عبد الله عنان - دول الطوائف - ص 102.

(3) يبدو أن الناسخ قد حرّف تاريخ تولي أبو نور هلال الحكم في رندة، وذلك بقوله: "إن ذلك جاء عقب وفاة إدريس بن علي بن حمود" الذي يذكر ابن عذاري تاريخ وفاته، وكانت سنة 431هـ - 1039م - البيان - ج 3 ص 312 / نفسه - ج 3 ص 192.

(4) ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 312 - 313.

(5) ابن الخطيب - نفسه - ص 238.

(6) ابن عذاري - نفسه - ص 113.

العبارة[1].

وعند كلامه عن بني برزال يذكر ابن عذاري الدول المجاورة لهم فيقول:" وجاورهم بنو يفرن من ناحية تاكرنا"[2]، مع العلم أن دولة بني برزال تأسست سنة 404هـ أي في بداية الفتنة، وهو نفس الأمر الذي يؤكده ابن الخطيب حين يتكلم عن رؤساء الطائفة البربرية فيقول:" ويستوي من بعدهما من أمراء البرابر في الحال منهم بيت أبي نور بن أبي قرّة بن دوناس اليفرني أمير الفريق من بني يفرن المتغلبين على كورة تاكرنا لأول الفتنة"[3]، وبما أن الفتنة قامت في سنة 399هـ (1008م)؛ فإن الأقرب إلى الصواب هو قيام دولة بني يفرن في بداية القرن الخامس الهجري، وليس في سنة 431هـ (1039م)، وهو تاريخ انتهت فيه الفتنة، وبدأ فيه عصر ملوك للطوائف.

دولة بني الأفطس (413 - 487هـ/1022 - 1094م): أسسها أبو محمد عبد الله بن مسلمة المعروف بابن الأفطس، وينتمي إلى مكناسة، وأصله من فحص البلوط، وكان عبد الله هذا رجلا كثير المعرفة والدهاء، بعيد النظر، وافر الحزم والسياسة[4].

كان عبد الله بن محمد بن مسلمة في البداية وزيرا يساعد الفتى سابور الفارسي أحد فتيان فائق الخادم مولى الحكم المستنصر الذي استبدّ بحكم مملكة بطليوس عقب انهيار الدولة العامرية، وكانت هذه المملكة تشمل رقعة كبيرة تمتد من غرب مملكة طليطلة عند مثلث نهر وادي يانة غربا إلى المحيط الأطلسي، وتشمل أراضي البرتغال كلها تقريبا حتى مدينة باجة في الجنوب، وكانت عاصمتها مدينة بطليوس، ومن أهم مدنها ماردة ويابرة وأشبونة وشنترين وشنترة وقلمرية وغيرها[5].

(1) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 119.
(2) ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 268.
(3) ابن الخطيب - نفسه - ص 238.
(4) ابن الأبّار - الحلة السيراء - ج 2 ص 96 / ابن عذاري - البيان - ج 3 ص 235 - 236/ ابن خلدون - العبر - ج 7 ص 344 / عبد الله عنان - دول الطوائف - ص 82.
(5) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 183 / ابن عذاري - البيان - ج 3 ص 236 / عبد الله عنان =

كان عبد الله قبل ذلك واليا على ماردة، وعندما انتزى سابور بالحكم، أصبح الوزير المكلف بتدبير شؤون المملكة، وكان هو الحاكم الحقيقي، وعند وفاة سابور سنة413هـ (1022م)، استولى عبد الله على السلطة، وضبط المملكة، وتلقب بالمنصور، وأصبح سيد المملكة الحقيقي، رغم وجود ولدين للصقلبي إلاّ أنهما لم يبلغا الحلم بعد[1].

كان عبد الله بن محمد بن مسلمة المعروف بابن الأفطس رجلا كثير المعرفة والدهاء، بعيد النظر، وافر الحزم والسياسة[2]، وهي الصفات التي مكنته من إدارة شؤون مملكته بمقدرة وبراعة، ومع ذلك فإنه كان شديد الحذر من تحركات جاره الجنوبي أبي القاسم بن عباد، صاحب مملكة إشبيلية، ويعود ذلك إلى اتساع رقعة مملكته، وتباعد قواعدها الأخرى في الجنوب والشرق، وهو ما يجعل الدفاع عنها من الأمور الصعبة، وقد تأكدت مخاوف عبد الله عندما استغل ابن عبّاد قيام ثورة محلية في مدينة باجة، وأرسل إليها حملة بقيادة ولده إسماعيل ومعه قوة من جند حليفه البرزالي صاحب قرمونة، وتمكنت هذه القوات من محاصرة قوات ابن الأفطس وأسر معظم أفرادها، ومن بينهم محمد بن الأفطس ولد المنصور الذي لم يطلق سراحه إلاّ سنة421هـ[3].

ثم تجددت الحرب بين الطرفين عندما جرّد ابن عباد حملة أخرى بقيادة ابنه إسماعيل، وتوغلت شمالا في أراضي ابن الأفطس وعاثت فيها، وفي طريق عودتها فاجأها حاكم بطليوس بقوة كثيفة نجحت في أسر معظم عسكر صاحب إشبيلية، وفتكت بمعظم جنده، وكان ذلك في سنة 425هـ (1034م)[4].

=

- نفس المصدر - ص 81.

(1) ابن الخطيب - نفسه - ص 183 / ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 236.

(2) عبد الله عنان - نفسه - ص 82.

(3) ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 202 - 203.

(4) ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 203 / عبد الله عنان - نفسه - ص 82 - 83.

واجه ابن الأفطس عقب ذلك النصر الكبير ثورة قامت في مدينة أشبونة، وتزعمها عبد الملك وعبد العزيز ابني سابور حاكم بطليوس السابق اللذان غادرا بطليوس عقب وفاة أبيهما، واستقرا في ثغر أشبونة، ثم ثار عبد العزيز، واستولى على حكم المدينة، وخلفه أخوه في حكمها بعد وفاته، ولكن سوء تسييره لحكمها أدى إلى انتشار الفوضى، والتجاء أهل المدينة سرا إلى ابن الأفطس حيث طلبوا منه إرسال وال من قبله إليها، واستجاب عبد الله فأرسل ابنه محمد في قوة كبيرة مكنته من دخول أشبونة بسهولة، واضطرّ عبد الملك إلى طلب الآمان لنفسه وأهله؛ فمنحه ابن الأفطس ما طلب[1].

استمرّ ابن الأفطس في تنظيم شؤون مملكة الشاسعة الأطراف، وفي تحصين ثغورها، وتقوية جيوش الدولة، وذلك كله استعدادا لعدوان محتمل يقوم به بنو عباد ضده، واستمر على هذه الحال إلى غاية وفاته سنة 437هـ (1045م)[2].

دولة بني ذي النون بطليطلة (428 - 478هـ/1036 - 1085م): ينتمي بنو ذي النون إلى قبيلة هوارة، وينسبون إلى جدّهم زنون الذي تصحف بطول المدة فصار ذو النون[3].

ظهرت أسرة بني ذي النون على مسرح تاريخ الأندلس منذ عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الذي عيّن جدهم سليمان بن ذي النون حاكما لحصن أقليش مكافأة له على اعتنائه بأحد كبار خصيانه الذي اعتلّ في طريق عودة الأمير من إحدى غزواته إلى الثغر الأعلى[4]، ويقول ابن حيان: إن الحكم المستنصر بالله "سجّل لمطرّف بن إسماعيل بن عامر بن ذي النون على وبذة حصنه، وأضيف إليه أكثر حصون

(1) ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 237.

(2) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 183/ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 236/ عبد الله عنان - دول الطوائف - ص 84.

(3) ابن الخطيب - نفسه - صص 176 - 177/ ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 276.

(4) ابن حيان - المقتبس - القسم الثاني - ص 18/ ابن بسام الشنتريني - الذخيرة - المجلد 4 ق 1 ص 142.

كورة شنتبرية وقراها، وذلك في جمادى الأولى سنة 363هـ[1]، ومع ذلك فإن ابن الخطيب وابن عذاري ينكران جملة وجود مؤشرات تدل على مكانة هؤلاء المغاربة، وبالعكس فهما يشيران إلى أنه "لم يكن لبني ذي النون رياسة ولا نباهة إلاّ في دولة المنصور محمد بن أبي عامر"[2]، وهذا التأكيد مخالف لكل المصادر الأخرى التي ثثبت مكانة بني ذي النون سواء من خلال خدماتهم للأمراء الأمويين، وتولي مناصب إدارية في دولتهم، أو قيامهم ضد حكام قرطبة كما فعل موسى بن ذي النون الذي خرج عن الطاعة في سنة260هـ (874)[3]، وابنه الفتح الذي خرج في بداية حكم عبد الرحمن الناصر بقلعة رباح وأحوازها[4].

سطع نجم بني ذي النون في عهد المنصور بن أبي عامر حيث تولى أفراد من هذه الأسرة البربرية قيادة الجيوش وإمارة الأقاليم، ومنها تولي أحدهم كورة شنتبرية في نهاية حكم العامريين[5]، وعند قيام الفتنة عيّن سليمان المستعين عبد الرحمن بن ذي النون حاكما على أقليش[6]، واستغل هذا الأخير وفاة الفتى واضح العامري ليستولي على قلعة قونقة ويضمها إلى حكمه، كما بسط سلطته على كورة شنتبرية بأكملها، وعندما اضطرمت الفتنة، وانهارت السلطة المركزية، أعلن إسماعيل استقلاله بالمناطق التي كانت خاضعة لحكمه، ولم يكتف بذلك، بل ضمّ أيضا طليطلة والمناطق التابعة لها، وذلك استجابة لسكان هذه المدينة الذين وجّهوا دعوة إلى عبد الرحمن بن ذي النون لتولي الأمر في مدينتهم بعدها أساء عبد الملك بن متيوة السيرة فيهم، واستجاب ابن ذي النون لطلبهم فأوفد إليهم ابنه إسماعيل الذي تولى حكم طليطلة وأعمالها،

---

(1) ابن حيان - نفسه - ص 150.
(2) ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 276/ ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 177.
(3) عبد الله عنان - نفسه - ص 95 - 96.
(4) ابن حيان - المقتبس - ج 5 صص 53 - 54.
(5) ابن الخطيب - نفسه - ص 177 / ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 276.
(6) يذكر ابن خلدون أن ذلك كان سنة 409هـ - 1018م - العبر - ج 7 ص 347.

وتلقب بالظافر بداية من سنة 427هـ (1036م)[1].

كانت مملكة بني ذي النون تشمل رقعة كبيرة من بلاد الأندلس حيث تمتد شرقي مملكة بطليوس من قورية وترجالة نحو الشمال الشرقي حتى قلعة أيوب وشنتمرية الشرق جنوب غربي مملكة بني هود في الثغر الأعلى، وتمتد شمالا فيما وراء نهر تاجة متاخمة لمملكة قشتالة، وجنوبا حتى حدود مملكة بني جهور بقرطبة عند مدينتي المعدن والمدور، ومن أهم أعمال هذه المملكة إلى جانب العاصمة مدينة سالم ووادي الحجارة وقونقة ووبذة وأقليش وطلبيرة وترجالة وغيرها[2].

وتكمن أهمية هذه المملكة في كونها تواجه المعاقل النصرانية التي تسعى إلى استغلال حالة التمزق التي يعيشها المسلمون من أجل الإستمرار في عملية الإسترداد، وسيكون لهذا الموقع أهميته في توجيه سياسة بني ذي النون التي ستقوم على التصدي للنصارى من جهة، ومواجهة الممالك الإسلامية المجاورة لهم، والساعية إلى التوسع على حسابهم من جهة أخرى.

إعتمد إسماعيل في تسيير أمور المملكة على شيخ البلدة أبي بكر الحديدي، وكان" من أهل العلم والدهاء والعقل، وحسن النظر في صلاح البلاد، وكان لا يقطع أمرا دونه، ويشاوره في مهمات أموره"[3].

إستمرّ على هذه الحال إلى غاية وفاته سنة 435هـ (1043م)؛ فخلفه ولده يحيى بن إسماعيل الذي تلقب بالمأمون، و"جرى على سيرة أبيه في استعمال قانون العدل، وجرى مع ابن الحديدي على سنن أبيه؛ فاستقامت طاعته وضخم ملكه"[4].

هكذا إذا كانت الفتنة القائمة بالأندلس سببا في ظهور ممالك بربرية، كان الحكام فيها من أصل مغربي، وقد نافس هؤلاء نظراءهم من العناصر الاجتماعية

---

(1) البيان المغرب - ج3ص276 - 277/ابن الخطيب - نفسه - ص177/الذخيرة - م4 ق1ص 142 - 143/عبد الله عنان - نفسه - ص 96 - 97.

(2) حسين مؤنس - معالم تاريخ المغرب والأندلس - ص 419/ عبد الله عنان - نفسه - ص 95.

(3) ابن الخطيب - نفسه - ص 177/ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 277.

(4) ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 277/ابن الخطيب - نفسه - ص 177.

الأخرى المكونة للمجتمع الأندلسي، وبخاصة العرب في تولي السلطة، والقيام بواجباتها أحسن قيام، بل هناك من الحكام البربر من تفوق على غيره من العناصر الأخرى سواء من الناحية السياسية والعسكرية، أو من الناحية الحضارية، ومن ذلك أن مملكة بني زيري كانت واحدة من أقوى ممالك الطوائف القائمة بالأندلس، وفي مؤسسها يقول ابن الخطيب: إنه "بنى ملكا شامخا وغلب نظراءه، واستولى على كورتي جيّان وقبرة وما إلى ذلك، وحمى رعيته من سائر المنتزين بحوزه"[1].

وعن ابنه باديس بن حبّوس يضيف قائلا: "وتناهى أمره في الجلالة، وأذعنت له الأعداء وانضافت إلى إيالته البلاد، إلى أن ملك كورة رية وقنسرين، وعظمت جبايته، وضخم أمره، وتعددت جيوشه"[2]، وعن دولته يقول ابن حيان: "وأما أرفع أملاك البرابرة في هذا الوقت شأنا وأشدّهم سلطانا وأكثرهم رجالا وأوسعهم أعمالا فباديس بن حبوس من سلطان صنهاجة، ويستخدم الكثير من قبائل زناتة، الممتد سلطانه اليوم على ما بين أطراف كورتي بسطة وجيّان إلى ما بين مالقة وإستجة، وما تحت ذلك من إقليم قرطبة[3].

وتليها من حيث القوة دولة بني برزال، وعن مؤسسها محمد بن عبد الله البرزالي يقول ابن الخطيب: "وكان هذا الرئيس يلي باديس من ملوك البرابرة في جلالة الشأن وقوة السلطان، وأعظمهم شأنا في الدهاء والرجولة، وأبصرهم بتدبير العسكر، وأربطهم جأشا على الخطوب المقلقة"[4].

ولا يقلّ عنهما في المكانة السياسية والعسكرية المظفر محمد بن عبد الله بن مسلمة المعروف بابن الأفطس الذي أقام ملكا عظيما بهذا الثغر الجوفي - المعروف بالبرتغال - ضاهى فيه مصاقبيه ابن عباد وابن ذي النون"[5].

---

(1) ابن الخطيب - نفسه - ص 229/ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 264.
(2) ابن الخطيب - نفسه - ص 230.
(3) نفسه - ص230.
(4) نفسه - ص 236.
(5) ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 237.

إن هذه الإشارات كلها تثبت بما لا يدع مجالا للشك أن فئة من البربر لا تقل كفاءة عن بقية العناصر الأخرى في تسيير أمور الدولة والارتقاء بها إلى السؤدد، وإذا كانوا قد حرموا في المراحل الأولى من حكم بلد كان لهم الدور الرئيس في فتحه، فإنهم الآن يبرهنون على هذه المقدرة والكفاءة التي حرموا من إبرازها في أوقات سابقة.

لم تتفوق الممالك البربرية عسكريا على غيرها من دول الطوائف فقط، بل فاقتها أيضا في امتلاك الثروات، وبخاصة الأموال بغض النظر عن أوجه صرفها من ذلك أن حسام الدولة أبو مروان بن رزين" كان أول من بالغ بالثمن في شراء القينات، اشترى جارية ابن عبد الله المتطبب بعد أن أحجمت الملوك عنها لغلاء سومها بثلاثة آلاف دينار فملكها، وابتاع معها كثيرا من القينات المشهورات، فكانت ستارتة أرفع ستارات الملوك بألأندلس"[1].

ولم يتمكن هذا الحاكم من شراء القينات والإكثار منهن لو لم تكن له من الأموال ما يفوق العدّ، كيف لا وهو يملك "أخصب بقعة في بلد الأندلس، وهي سهلة بني رزين، ولذلك كثر ماله ونافس جاره وشبيهه في جمع المال إسماعيل بن ذي النون"[2].

إن توفر الإمكانات المالية أدى إلى الرخاء الاقتصادي لذلك لجأ الكثير من أهل الأندلس إلى هذه الممالك واستوطنوا أراضيها، بل كان العرب يثورون ضد بني جلدتهم، ويطلبون من البربر تولي أمور بلادهم كما فعل أهل طليطلة الذين ثاروا ضد حاكمهم العربي وخلعوه، وطلبوا من عبد الرحمن بن ذي النون أن يتولى أمرهم؛ فأرسل إليهم ابنه إسماعيل الذي استولى على ملك طليطلة وبلادها، وساس أهل مملكته سياسة استقاموا عليها"[3].

---

(1) ابن الخطيب - نفسه - ص 206 / ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 183.
(2) ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 182 / ابن الخطيب - نفسه - ص 206.
(3) ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 276 - 277 / ابن الخطيب - نفسه - ص 177.

تأثير الفتنة على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية:

من الثابت أن الحياة الاجتماعية لأي جماعة ما ترتبط إلى حدّ كبير بالوضعية الاقتصادية للبلد الذي يعيشون فيه؛ فكلما كان الأمن والرخاء الاقتصادي، كلما كان المستوى المعيشي جيد، والعكس يحدث في حالة انعدام الأمن والتدهور الاقتصادي.

لقد بلغت الأندلس الذروة في المجال الاقتصادي خلال عهد الخلافة، بفضل ما توفر لها من الأمن والاستقرار، واللذان يعتبران العامل الرئيس في ازدهار اقتصاد دولة ما، إضافة إلى ما كانت تدره الغزوات التي جرّدها الخلفاء والمنصور وابنه على ممالك النصارى، والتي كانت في غالب الأحيان تنتهي بالانتصارات الكبيرة التي يحققها المسلمون والغنائم التي يحصلون عليها، وكانت هذه الأخيرة تستعمل في البناء والتشييد إضافة إلى حصول الناس على نصيبهم منها.

ولكن الأمور انقلبت رأسا على عقب بعد قيام الفتنة، ذلك أن العامل الرئيس المؤدي إلى الرخاء الاقتصادي وارتفاع المستوى المعيشي وهو الأمن والاستقرار قد زال بفعل الحروب الطاحنة التي دارت بين المسلمين، وعوض توجيه السيوف والنبال والرماح إلى أعداء الملّة والدين، أصبحت توجّه نحو الإخوة في الدين، ولم يقتصر القتل على المتحاربين بل تعداه إلى كافة الفئات الاجتماعية، ولم يستثن من ذلك لا الطفل ولا المرأة ولا الشيخ.

لقد تجرد الأندلسيون خلال هذه الفتنة من كل الصفات التي جعلت منهم المجتمع الفاضل الذي يحمي الضعيف ويبطش بالقوي، وأصبح الفتك بالصبي والمرأة من الأمور المستباحة.

لقد دفع المجتمع الأندلسي ثمنا باهظا خلال هذه الفتنة، فمنذ بدايتها تعرض الناس إلى المحن، وأول ضحايا ما أصاب الأندلس، هم البربر الذين طردوا من ديارهم بالزاهرة والزهراء، حيث أمر المهدي أتباعه بعد انتهائهم من تحويل كل ما كان بالزاهرة "بهدمها وحطّ أسوارها، وقلع أبوابها إلى درجة أنها أصبحت بلقعا كأن لم تغن

بالأمس"[1]، كما نهبت دور بني ماكسن بن زيري ودور بني زاوي، ودور كثيرة لجماعة من البربر في يوم السبت لأربع خلون من رجب سنة 399هـ[2]، ومعنى ذلك أن ساكنيها قد أجبروا على الرحيل، وبالتالي أصبحوا بلا مأوى كما طرد البربر القاطنين بقرطبة، وبذلك اضطروا إلى الإلتحاق بصفوف الناقمين على المهدي خارج قرطبة، وحاول البربر التوجه إلى الثغر لعلّهم يجدون هناك من يمد لهم يد المساعدة، ويوفر لهم الأمن والمأوى.

وعقب فشل ثورة قادها هشام بن سليمان بن الناصر على حكمه "أحال المهدي على من كان بقرطبة من البربر عامة الحضرة؛ فاستحالوا عليهم قتلا وأسرا وغارة حتى استرقوا كثيرا منهم"، ونتيجة لكل ما تعرضوا له "فرّ من قدر على الفرار منهم، والتأموا مع غيرهم من المنهزمين، وأقاموا سليمان بن الحكم"[3].

وأما الذين لم يقدروا على الفرار فقد كان مصيرهم القتل، ذلك أن" ابن عبد الجبّار أمر أن ينادى في الناس: من أتى برأس بربري فله كذا"، وبما أن الفتنة هي فرصة العامة في النهب والسلب؛ فقد "تسارع أهل قرطبة في قتل من قدروا عليه؛ فلم يبق تاجر ولا جندي إلاّ عمل مجهوده في ذلك؛ فدخلوا على وسنار البرزالي، وكان ممن له آثار جميلة في الجهاد؛ فذبح على فراشه في داره، ودخلوا على رجل صالح فذبح في داره، ونهبت ديار البربر وهتك حريمهم وسبي نساؤهم وباعوهن في دار البنات، وقتلوا النساء الحوامل، وقتلوا سبعة عشر رجلا من أهل تلمسان قدموا للغزو في ساعة واحدة، واستنزل مسلم بن عبد الله الحسيني من داره فقتل وربط في رجله حبل وجرّ به إلى حفرة بجوار داره تعرف بحفرة طالوت؛ فألقي فيها، وانتهبت داره وفضحت بناته وعياله، وقتل قوم من أهل خراسان، وأهل الشام على أنهم بربر، وأمعن أهل قرطبة في هذه القبائح"[4].

---

(1) ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 64.

(2) نفسه - ج 3 ص 75.

(3) نفسه - ج 3 ص83.

(4) نفسه - ج 3 ص8.

إن هذا النص يثبت بما لا يدع مجالا للشك أن قسما كبيرا من أهل الأندلس قد تجرّدوا فعلا من كل صفات الإسلام، إن لم نقل الإنسانية، وإلاّ فكيف يمكن تفسير ما حدث في قرطبة رغم أن الذين تعرضوا للقتل والسبي لم يكن لهم ضلع فيما قام به هشام بن سليمان بن الناصر، بل هناك من لا يمت بأية صلة للبربر الذين حملهم أهل قرطبة مسؤولية استبداد بني أبي عامر، وأرادوا بذلك الانتقام منهم.

هكذا إذا كان مصير من لم يقدر على الفرار، وأما الذين نجحوا في الخروج من قرطبة فقد تعرضوا إلى ما هو أخطر، ذلك أن واضح الفتى صاحب مدينة سالم أمر من ينادي " في سائر الثغور: من حمل شيئا من الطعام إلى محلّة البربر، فقد حلّ ماله ودمه"[1].

ونتيجة لذلك تعرض البربر إلى حصار اقتصادي اضطروا نتيجة له إلى أكل حشيش الأرض، وأشرفوا على الهلاك لولا استنجادهم بالنصارى الذين لم يبخلوا عليهم بشيء مما طلبوه، ولكن في مقابل وعود قدموها لهم بمنحهم جزءا من دار الإسلام إذا ما ظفروا بالسلطة في قرطبة، وبداية من ذلك التاريخ أصبح المسلمون يستعينون بالنصارى على إخوانهم في الدين، واستغل الأسبان ذلك للانتقام منهم، واسترجاع ما أمكنهم من الحصون والقلاع والمدن التي فتحها قادة المسلمين فيما سبق.

وكانت بداية الصراع بين البربر المدعمين بالنصارى وجيش المهدي في موقعة قنتيش، ودارت هذه المعركة في 13 ربيع الأول سنة 400هـ (1009/11/3م)، وذهب ضحيتها عدد كبير من المسلمين من أتباع المهدي ابن عبد الجبّار، وتختلف الروايات التاريخية في تحديد عددهم؛ فابن عذاري يذكر أن عدد القتلى من أهل قرطبة كان نحوا من عشرة آلاف، ويؤيده في ذلك ابن حيان القرطبي[2]، أما عبد الواحد المراكشي فيقول إنه قتل من أهل قرطبة نيف وعشرون ألف رجل في جبل هنالك يعرف بجبل قنطش،

---

(1) نفسه - ج 3 ص 86.

(2) ابن بسام الشنتريني - الذخيرة - ق 1 م 1 ص 43/ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 90.

وهي الوقعة المشهورة"[1].

ويشذّ عنهم ابن الخطيب حين يقول: "وقتل النصارى يومئذ من أهل قرطبة أزيد من ثلاثين ألفا"[2]، ولعلّ في هذا الرقم الأخير مبالغة، ولكن الواضح أن عدد الذين قتلوا كان كبيرا إذ لا يقل عن العشرة آلاف، والأخطر من ذلك أن قتل هؤلاء أو العدد الأكبر منهم كان على يد النصارى، ولهذا تكتسي ملاحظة ابن الخطيب أهمية كبيرة حين يصف هذه المعركة بأنها أول ثأر للنصارى من المسلمين.

سيستمر القتل والنهب بعد ذلك إذ سيلجأ ابن عبد الجبّار إلى النصارى، ويأتي بهم لمواجهة سليمان، وعقب موقعة عقبة البقر التي انتهت بدخول المهدي إلى قرطبة وفرار سليمان المستعين والبربر منها، أمر ابن عبد الجبار وواضح جندهما بقتل كل من وجدوا بها من البربر[3]، ولم يكتفوا بذلك بل "قتلوا كل متشبه بالبربر، وكل عدوي ومن لم ير العدوة ولا سمع بها إسرافا وتحاملا وجرأة على الله سبحانه وطغيانا، حتى أن كل من بينه وبين أحد عداوة قال هذا بربري فقتل ولم يسال عنه، وقتلوا الأطفال وشقوا بطون الحوامل"[4].

ولم يكتفوا بذلك بل قرروا ملاحقة الفارين من المغاربة نحو بلادهم، والتقوا بهم بوادي يارو حيث دارت المعركة التي ستقلب موازين القوة إذ انتهت بانتصار ساحق للبربر رغم قلّة عددهم، وبداية من هذه الموقعة سيتحول البربر إلى الهجوم، وبالتالي إلى القتل والنهب كما فعل أهل قرطبة قبل ذلك، ويعطينا ابن عذاري الصورة التي أصبح عليها أهل الأندلس من جرّاء ذلك فيقول: "وفي سنة إحدى وأربعمائة نزل البربر قرطبة، ودخلوا الزهراء يوم السبت لست بقين من ربيع الأول منها، وكان بالزهراء طائفة من الجند يحفظونها؛ فحكم عليهم بقتل بعضهم وإبقاء بعضهم"، وفرضوا الحصار على مدينة قرطبة، ثم "رحل البربر من الزهراء لخمس بقين من

(1) المراكشي - المعجب - ص 66.
(2) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 113.
(3) ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 95.
(4) نفسه - ج 3 ص 97.

شعبان، وجعلوا يغيرون على أدنى البلد وأقصاه ينهبون ويخربون ويحرقون ويقتلون، وإن جرّد إليهم واضح خيلا لم يقصدوهم خوفا منهم ويكتفوا بنهب ما أفضله البربر في القرى والأقاليم ويرجعون، وانضمّ أهل البوادي من كل ناحية خوفا من البربر؛ فصاروا أكثر من أهلها، ومات أكثرهم جوعا بها ومقتولا بخارجها"[1].

لقد أصبحت قرطبة الملجأ الوحيد لكل المقيمين بالبوادي والقرى، وبذلك صارت مدينة مزدحمة بالسكان، وهوما سينتج عنه ظواهر اجتماعية خطيرة منها: قلة المواد الغذائية وغلاء الأسعار وعجز العامة عن شرائها، وبذلك ستنتشر المجاعة إلى درجة أن "أهل قرطبة أكلوا الميتة"[2]، والأوبئة التي فتكت بالعديد من الناس، ويؤكد ذلك ابن حزم فيقول: "توفي أخي أبي بكر رحمه الله في الطاعون الواقع في قرطبة في شهر ذي القعدة من سنة إحدى وأربعمائة، وهو ابن اثنين وعشرين عاما"[3].

وكما نلاحظ فإن موت أبي بكر وهو شاب يدل على أن الطاعون كان فتاكا، وبالتالي فإن الأطفال والشيوخ سيكونون أكثر تعرضا للموت من جراء ذلك، ويؤكد حدوث هذا الوباء ابن بشكوال الذي يورد في كتابه ترجمة لعالمين ماتا من جراء ذلك، وتتعلق الأولى بأحمد بن محمد بن سعيد بن الحباب بن الجسور الأموي، وهو من أهل قرطبة، وكان أول شيخ سمع منه أبو محمد بن حزم قبل الأربعمائة، ومات في منزله ببلاط مغيث يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي القعدة سنة 401هـ، وكانت وفاته في الطاعون[4].

أما الثانية فتخص أبا حفص عمر بن حسين بن محمد بن نايل الأموي، وكان شيخا صالحا من بيت علم ودين، وقد سمع الناس منه كثيرا، وقال ابن حيان إنه توفي

---

(1) ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 102 / ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص116/ ابن بسام - الذخيرة - ق 1 م 1 ص45.

(2) ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 106.

(3) ابن حزم - طوق الحمامة في الألفة والالاف - ص 117.

(4) ابن بشكوال - الصلة - ج 1 ص 29.

في الوباء لثمان خلون من ذي القعدة سنة إحدى وأربعمائة[1].

ومن المؤكد أن عدد الذين ماتوا من جرّاء هذا الطاعون كان كبيرا، وبخاصة في الظروف التي كانت تمر بها مدينة قرطبة، والمتمثلة في انتشار الجوع وكثرة القتلى وتعفن بعض الجثث نتيجة لتخوف الناس من دفن موتاهم خوفا من القتل على يد البربر الذين كانوا يسيطرون على ضواحي الحضرة، وهي المناطق التي تتواجد بها المقابر.

إستمر الحصار على قرطبة، واشتدّ معه حال أهلها حتى "أكل الناس الدم من مذابح البقر والغنم وأكلوا الميتة وأل... البالية، وكان قوم في السجن؛ فمات منهم رجل؛ فأكلوه"[2].

لقد حصدت الفتنة الألاف من الأرواح سواء أولئك الذين قتلوا في ساحات القتال أو الذين ماتوا من جرّاء المجاعة والأوبئة، أو الذين ماتوا وهم يسعون إلى كسب المال حيث كان جياع أهل قرطبة يهاجمون ليلا الرعاة المتفرقين في ضواحي المدينة، ويستولون على ما يقدرون على حمله من الماشية، ثم يعودون إلى قرطبة لبيعها إلى القادرين على شرائها، وعندما استفحل أمر هؤلاء اللصوص، جند البربر لهم من يفتك بهم؛ فكانوا يقتلون منهم كل ليلة "العشرة والعشرين والثلاثين، وقتلوا منهم في ليلة واحدة أكثر من مائة"، ومنذ تلك الليلة توقفوا عن عملهم هذا، واكتفوا بسرقة مواشي أهل البلد وبيع لحمها إلى سكان الحضرة؛ فيشتريها هؤلاء ولا يبالون بمصدرها[3].

لم يقتصر القتل والنهب على عاصمة العدوة الأندلسية بل اتسع ليشمل معظم المدن الواقعة في الجنوب، ويؤكد ذلك ابن عذاري حيث يقول: "وانتهى البربر إلى مالقة؛ فعاثوا في نواحيها، وقتلوا من أهلها، ثم مالوا إلى إلبيرة؛ فنهبوا وخربوا وسبوا النساء"[4]، ويؤيده في ذلك ابن الخطيب الذي يقول: "وانتشر البرابر على كور الأندلس،

---

(1) نفسه – ج 1 ص 375.
(2) ابن عذاري – نفسه – ج 3 ص 106.
(3) ابن عذاري – نفسه – ج 3 ص 106.
(4) نفسه – ج 3 ص 102.

مالقة وإلبيرة وما اتصل بأحواز قرطبة.. يسبون الحريم"[1]، "ودخلوا الجزيرة فقتلوا من وجدوا بها.. وسبوا ذراريها"[2].

إضافة إلى المدن الجنوبية التي تعرضت إلى أعمال القتل والنهب من قبل البربر، تعرضت جلّ المدن الأخرى إلى نفس المحنة، ولم يسلم من ذلك إلاّ مدينتي طليطلة ومدينة سالم، وبلغ القتل درجة جعلت الراكب يمشي شهورا لا يرى أحدا في طريق ولا قرية"[3].

أصبح القتل من الأمور العادية، ويؤكد ابن عذاري ذلك فيورد لنا أمثلة كثيرة عن قتل أشخاص في مدينة قرطبة لأسباب واهية، من ذلك قتل رجل من وجوه أهل العلم قال في الجامع: اللّهم أصلح علينا، ورجل آخر قال في الجامع: إن الله أحبّ الصلح، وقتلت إمرأة جاءت من الفرن، وأوقعت قدرا فانكسرت، وكانت سوداء؛ فقالوا: بربرية سوداء، وأخرى لأنها أوقعت جرّة فانكسرت[4].

إن هذه الأعمال التي قام بها الطرفان البربري والأندلسي تثبت النفرة الشديدة التي تكلم عنها ابن حزم، والتي كانت متأصلة بين البربر وغيرهم، وبخاصة أهل قرطبة، ووجدت في الفتنة القائمة في القرن الخامس المتنفس الملائم لها، وتفنن الطرفان المتصارعان في التعبير عن ذلك، وكانت النتيجة هي إزهاق الأرواح البريئة لأناس بسطاء، ذنبهم الوحيد هو تواجدهم في مواطن الصراع الدائر بين الفريقين.

إضافة إلى أعمال القتل التي تعرّض لها أفراد المجتمع الأندلسي بجميع مكوناته، فرض الطرفان المتصارعان على السكان دفع الإتاوات والضرائب الباهظة، ويؤكد ذلك ابن حزم حيث يقول:"وشغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء أرباب دولته، وامتحنا بالاعتقال والإغرام الفادح"[5].

---

(1) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 117.

(2) ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 102.

(3) نفسه - ج 3 ص 104.

(4) نفسه - ج 3 ص 103.

(5) ابن حزم - طوق الحمامة - ص 111.

ويذهب ابن عذاري في نفس الاتجاه؛ فيقول: "إن محمد بن هشام المهدي" طلب من أهل قرطبة تقويته بمال؛ فجمعوه له على وجه السلف"[1].

إن طلب المهدي يثبث أن بيت المال لم يعد قادرا على توفير المال اللازم الذي تحتاجه الدولة في هذا الوقت المتأزم، وما طلب هذه المبالغ المالية من الرعية إلا من أجل استخدامها في محاربة البربر، ذلك أن النصارى الذين استنجد بهم واضح لمساعدته في استعادة مدينة قرطبة" قد شرطوا عليه أن يلتزم لكل رجل منهم دينارين في كل يوم، وما يقوم به من الشراب واللحم وغير ذلك، ويجري على القومس في كل يوم مائة دينار، وما يقوم به من الطعام والشراب وغير ذلك"[2].

وعندما نعرف أن عدد جند النصارى الذين جاءوا لنصرة المهدي كانوا تسعة ألاف رجل، ندرك حجم المبالغ المالية التي سيقدمها سكان قرطبة[3].

ومع ذلك فإن أهل قرطبة، ومن أجل قتال البربر والانتقام منهم تكلفوا ببذل الأموال اللازمة لتزويد الجيش بما لا يقل عن خمسمائة فرس، وبذلوا منها حتى "تلفت أموالهم"[4]، ولم تف الأموال التي وفرها أهل قرطبة لتشكيل الجيش القادر على إلحاق الهزيمة بالمغاربة"؛ فأخرج السلطان ما في قصره من حلي ثمينة وذخيرة وآنية فضة وذهب وثوب ومتاع"[5].

جمع أهل قرطبة مالا كثيرا للأفرنج، وعندما رأوا أنه غير كاف "سألوا القاضي ابن ذكوان أن يدفع إليهم مال الأحباس المودع في مقصورة الجامع؛ فامتنع عليهم؛ فكسروا باب المقصورة وأخذوه؛ فدفعوه إلى الأفرنج"[6].

إن الرغبة الجامحة لأهل قرطبة في محاربة البربر جعلتهم يكلفون أنفسهم

---

(1) ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 95 - 96 / ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 115.

(2) ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 94.

(3) ابن الخطيب - نفسه - ص 115 / ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 96.

(4) ابن الخطيب - نفسه - ص 117.

(5) نفسه - ص 117.

(6) ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 98.

ويكلفون الدولة ما لا تطيقان من جمع الأموال، وهو الأمر الذي سيؤدي إلى وقوع ضائقة مالية خانقة ستجعل الناس عاجزين عن توفير ما يطلبه النصارى لمحاربة البربر، وبالتالي سيبقى أهل قرطبة لوحدهم في مواجهة أعدائهم.

إضافة إلى الأزمة المالية الخانقة التي عاشتها قرطبة خلال حكم المهدي وهشام المؤيد الثانية، ستعاني الأندلس عامة من تدهور فظيع في الأوضاع الاقتصادية حيث أدت الحروب الطاحنة الدائرة بين المتصارعين على السلطة إلى نزوح أهل البادية نحو المدن، وبخاصة نحو مدينة قرطبة[1]، وهو ما يعني إهمال الأراضي الزراعية التي توفر الغذاء، وتوفر مصدر دخل هام للدولة، ويؤكد ذلك ابن خلدون فيقول: "واشتدّ الأمر بقرطبة، وعظم الخطب، وقلت الأقوات"[2].

ويضيف ابن عذاري في ذات الموضوع قائلا: "وقطع البربر الميرة عن قرطبة"، ونتيجة لذلك كله "اشتدّ بها الجوع وعدمت المآكل"[3]، ومات الآلاف من الناس من جرّاء ذلك، كما انتشرت الأوبئة والأمراض الفتاكّة نتيجة لعدم حصول الناس على الغذاء الكافي لحفظ توازن الجسم.

من المؤكد أيضا أن هذه الحروب ستؤدي إلى تعطيل كل نشاط صناعي، وعرقلة المبادلات التجارية، ذلك أن هذه الأخيرة تحتاج إلى عامل رئيس هو توفر الأمن والاستقرار، وهو العامل الذي أصبح منعدما بفعل الأحداث القاسية التي كانت تمر بها العدوة الأندلسية إلى درجة جعلت "الراكب يمشي شهورًا لا يرى أحدًا في طريق ولا قرية"[4].

إن تدهور الأوضاع الاقتصادية وانعدام الأمن والاستقرار بالأندلس عامة، وبمدينة قرطبة خاصة سيجعل الغالبية الكبرى من الأندلسيين يعانون من نتائج الفتنة، ويكتوون بلهيب نارها، ويدفعون الثمن الغالي من جرّاء أحداثها، وكان من المفروض

---

(1) نفسه - ج 3 ص 102.

(2) ابن خلدون - العبر - ج 7 ص 349.

(3) ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 102.

(4) نفسه - ج 3 ص 104.

أن ذلك كله سيجعلهم يعودون إلى التمسك بدينهم، ومحاولة العودة إلى رشدهم، ولكن العكس هو الذي حدث، حيث انتشرت نتيجة لهذه الفتنة ظواهر أقل ما يقال عنها أنها نوع من اللامبالاة بالقيم الدينية التي سمحت لهم بالأمس القريب ببسط نفوذهم على بلاد الأندلس، ومن ذلك اعتداءهم على حرمة بيوت الله؛ فكم من مسجد دمر بمدينة الزاهرة التي أمر المهدي "بهدمها وحطّ أسوارها، وقلع أبوابها، وتشعيث قصورها، وطمس آثارها"[1].

وكان المنصور بن أبي عامر قد "توسع في اختطاطها، وتولع بانتشارها في البسيطة وانبساطها، وبالغ في رفع أسوارها، وثابر على تسوية أنجادها وأغوارها؛ فاتسعت هذه المدينة في المدة القريبة، وبني معظمها في عامين"[2]، وانتقل إليها المنصور بن أبي عامر سنة 370هـ - 981م، ومما يدل على كثرة المساجد بها العبارة التالية التي أوردها المقري عند كلامه عن مصيرها حيث قال:" وخربت الزاهرة، وذهبت كأمس الدابر، وخلت منها الدسوت الملكية والمنابر"[3].

إضافة إلى مساجد الزاهرة التي أزيلت تماما، تعرّض المتصارعون إلى المساجد الأخرى المتواجدة بقرطبة وأرباضها، وفي ذلك يقول ابن عذاري: "وخرج عامة قرطبة إلى الزهراء فنهبوا ما وجدوا فيها من آلات البربر، وقتلوا من وجدوا بها، ودخلوا الجامع، ونهبوا حصره وقناديله ومصاحفه وسلاسل قناديله وصفائح أبوابه"،[4] وكان ذلك في عهد المهدي ابن عبد الجبار.

وفي سنة 401هـ - 1010م "أحرق قوم من أهل قرطبة جامع الزهراء، وأخذوا ما بقي من قناديله وصفائح أبوابه ومنبره وحصره"[5]. وبذلك اختفى هذا المسجد الذي

(1) نفسه - ج 3 ص 64 /ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 111.

(2) ابن عذاري - نفسه - ج3 ص274 - 275/المقري - نفح الطيب - ج1 ص579/الحميري - الروض المعطار - ص 81.

(3) المقري - نفسه - ج 1 ص 590.

(4) ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 95.

(5) نفسه - ج 3 ص 107.

كان رمزا لسيادة الإسلام بهذه المدينة التي شيدها عبد الرحمن الناصر.

وقد بلغ من استخفاف أهل قرطبة بالإسلام في هذه الفتنة ما يفوق حد الوصف، ولم يعد الناس يذودون على حرمة هذا الدين إذا ما تعرض له الأعداء بالإهانة، من ذلك "أن رجلا نصرانيا وقف في أعظم شوارع قرطبة فقال:...، ونال منه صلى الله عليه وسلم وشرّف وكرّم؛ فلم يكلمه أحد منهم بكلمة، وتدخل أحد الحاضرين غيرة للنبي، وكان حاضرا في تلك الحادثة؛ فقال: "ألا تنكرون ما تسمعون؟ أما أنتم مسلمون؟ فقال له جماعة من أهل قرطبة: إمضي لشغلك"[1].

ويورد نفس المؤلف دليلا آخر يثبت عدم مبالاة أهل قرطبة بقيم دينهم، من ذلك عدم اعتراضهم على الأفرنج الذين كانوا إذا سمعوا الآذان للصلاة يقولون قولا لا يذكر[2].

إضافة إلى ذلك كله؛ كان القرطبيون يقبلون على ارتكاب كل المحرّمات فضلا على أعمال القتل والنهب التي تعرّض لها الأبرياء من المجتمع الأندلسي، وانتهاك حرمة المساجد، حيث "كان شرب الخمر ظاهرًا، والزنا مباحا واللّواط غير مستور، ولا ترى إلا مجاهرًا بمعصية"،[3] وقدوة القوم في ذلك المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبّار.

إن هذه الأعمال المنكرة التي يحرّمها الدين الإسلامي كانت من الأمور العادية في ظلّ هذه الفتنة المبيدة التي لم يشهد لها التاريخ الإسلامي مثلا، لقد تجاوز أهل الأندلس كل الحدود، ولذلك لم يكن ما حدث لهم فيما بعد من تطاول العدو عليهم، وضرب بعضهم ببعض إلاّ نتيجة لإعراضهم عن المقومات الأساسية التي جعلت منهم أسياد الأندلس، بل وأسياد أروبا في عصور الإسلام الزاهرة بهذا البلد الأوروبي.

---

(1) نفسه - ج 3 ص 97 - 98.

(2) نفسه - ج 3 ص 98.

(3) ابن عذاري - نفسه ج3 ص106.

تخريب المنشآت العمرانية:

إلى جانب القتل والسبي الذي طال سكان الأندلس عامة، وأهل قرطبة خاصة، كانت الفتنة الأندلسية سببا في تدمير كبير طال المنشآت العمرانية التي بذل خلفاء قرطبة وحجّابها مجهودات جبارة من أجل تشييدها لتكون مفخرة للإسلام، ودليلا على الحضارة الراقية التي أنجزها المسلمون في قارة كانت في الوقت ذاته تعيش في ظلمات الجهل والتخلف في كافة الميادين.

إنها المرة الأولى التي يقوم فيها المسلمون بتدمير واسع لكل منجزاتهم الحضارية، وكأن الانتقام من البشر لم يعد كافيا؛ فتحوّل إلى الثأر من الحجارة الصمّاء التي استعملها الحكام في البناء والتشييد، وإلاّ فبماذا نفسّر قيام أهل قرطبة بأمر من المهدي بإزالة مدينة بأكملها، لا ذنب لها سوى أن بانيها كان المنصور بن أبي عامر الذي استبد بالحكم دون البيت الأموي، واضطهد الأسر العربية التي كانت تتحكم في مقاليد السلطة وخيرات البلاد.

لقد انصبّ غضب العامة على العامريين، وعلى مدينة الزاهرة التي أسسّها المنصور بن أبي عامر سنة 368هـ - 979م حيث قصدتها حشود هائلة من أخلاط الناس بأمر من محمد بن هشام بن عبد الجبّار المهدي لكونها حصن العامرية المنيع ومعقلها الأعظم، وحاولوا اقتحامها، ولكن رجال حاميتها ردّوهم عن أسوارها، وفي صباح اليوم التالي: أي يوم 16جمادى الآخرة 399هـ - 1008م أرسل المهدي ابن عمه مع فرقة من رجاله لمخاطبة أهل الزاهرة، وذلك من أجل حثّهم على الإستسلام، وانضم إليه من العامة حشود لا حصر لها ولا عدّ، تدفقت على المدينة كالسيل الجارف، وتمكنوا من اجتياح أسوارها، ونقب ثغرات فيه، وبعد دخولهم إلى المدينة، انتشروا في قصورها ينهبون ما يقع بأيديهم من مال وتحف وعدّة وسلاح وذخائر، و"تقسّمت الأيدي كل ما اشتملت عليه من مخزون وآلة، ومتاع وعدد سلطانية وفرش

وآنية حتى اقتلعت الأبواب الوثيقة والخشب الضخمة[1].

وبعد الانتهاء من ذلك، أمر ابن عبد الجبّار بنقل ما بقي من أموال وذخائر الزاهرة، ثم أصدر أمره بعد ذلك "بهدمها وحطّ أسوارها، وقلع أبوابها، وتشعيث قصورها وطمس آثارها...وسوّغ الناس إنقاضها؛ فبلغوا من تدمير تلك المدينة الجليلة ما لا تبلغه الدهور المتعاقبة، ونتيجة لذلك كله أصبحت الزّاهرة "بلقعا كأن لم تغن بالأمس"[2].

ويذكر المقري نقلا عن المطمح، ما جرى لمدينة الزّاهرة فيقول: "وخرّبت الزّاهرة ومضت كأمس الدابر، وخلت منها الدسوت الملوكية والمنابر، واستولى النهب على ما فيها من العدّة والذخائر والسّلاح وتلاشى أمرها؛ فلم يرج لفسادها صلاح، وصارت قاعا صفصفا، وأديلت بأيام السرح عن أيام الفرح والصفاء"[3].

لقد كانت مدينة الزّاهرة على حدّ قول ليفي بروفنسال أكثر المنشآت الخلافية زوالا، إذ لم يكن قد مضى على بنائها أكثر من ثلاثين عاما، وكان زوالها شاملا[4].

وكما نلاحظ فإن الحقد الأعمى قد دفع عامة قرطبة إلى ارتكاب جريمة في حق الإسلام والمسلمين من خلال تخريبهم لمدينة يقول عنها ابن عذاري: "وما علم النّاس مدينة بالأندلس بل ببلاد الإسلام كلّه كانت أعظم بركة في الجهاد والمال منها، وأبهج غرّة وأشدّ مملكة وأكثر جيوشا وحاشية وأتم سعادة وأطيب بقعة من هذه المدينة الزاهرة"[5].

لم تكن الزاهرة المدينة الوحيدة التي تعرّضت إلى التخريب، بل طالت تلك الآفة البشرية مدنا أخرى: منها مدينة قرطبة التي كانت مسرحا لأغلب المواجهات العسكرية الدائرة بين الطرفين المتصارعين، ومن المناطق التي مسّها الخراب بلاط

---

(1) ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص111.
(2) نفسه - ص111/ ابن عذاري - نفسه ج3 ص64.
(3) المقرّي - نفح الطيب - ج1 ص 589 - 590.
(4) L.Provençal - L'Espagne Musulmane au 10éme siecle - pp 330 - 331.
(5) ابن عذاري: نفسه ج3 ص64.

مغيث من الأرباض الغربية لمدينة قرطبة، وذلك بعد خروج أهله عنه، وأغلبهم من البربر حين كثر الإعتداء عليهم من قبل عامة قرطبة، وقد نقل ابن حزم وصفا دقيقا للصورة التي أصبح عليها هذا الحي حيث يقول: "ولقد أخبرني بعض الورّاد من قرطبة، وقد استخبرته عنها، أنّه رأى دورنا ببلاط مغيث في الجانب الغربي منها، وقد امّحت رسومها، وطمست أعلامها، وخفيت معاهدها، وغيّرها البلى، وصارت صحاري مجدبة بعد العمران، وفيافي موحشة بعد الأنس، وخرائب منقطعة بعد الحسن، وشعابا مفزّعة بعد الأمن، ومأوى للذئاب، ومعازف للغيلان، وملاعب للجان، ومكامن للوحوش بعد طول غنائها برجال كالسيوف، وفرسان كالليوث، وخرائد كالدمى تفيض لديهم النعم الفاشية، تبّدد شملهم، فصاروا في البلاد أيادي سبا، فكأن تلك المحاريب المنمقة، والمقاصير المزيّنة التي كانت تشرق إشراق الشمس، ويجلو الهموم حسن منظرها حين شملها الخراب، وعمّها الهدم؛ فأصبحت أوحش من أفواه السّباع فاغرة، تؤذن بفناء الدنيا.."[1].

إنّ هذا الوصف الدقيق يثبت بصفة قطعية ذلك التخريب والتدمير الذي طال كل ما بناه السّابقون من الحكّام المسلمين ورعاياهم في بلاد الأندلس، والمؤسف للغاية أن ذلك لم يكن بفعل أعداء المسلمين، بل كان بأيدي هؤلاء لا لشيئ سوى للرغبة الجامحة في الفوز بالسلطة، والانتقام من الطرف الثاني المنتمي إلى نفس الدين والبلد.

استمرت أعمال التخريب والتدمير باستمرار الفتنة، ومن ذلك ما قام به واضح الفتى قائد جند المهدي الذي أمر بهدم الرّصافة[2] وإحراقها، لأنه تخوف من أن يتمكن البربر من الدخول إلى الحضرة من ناحيتها، وذلك عندما كان هؤلاء يحاصرون المدينة،

---

(1) ابن حزم - طوق الحمامة - ص 94 / ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص106 - 107.

(2) الرصافة: هي إحدى المنتزهات والأرباض التي بناها عبد الرحمن بن معاوية، وكانت شمالي غرب قرطبة، وقد اتخذ بها قصرا حسنا، وأحاطه بجنان واسعة، ونقل إليها غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية حتى صارت من أجمل منتزهات قرطبة. - المقري - نفح الطيب - ج 1 ص 466 - 467.

وتمّ ذلك العمل الشنيع في ربيع الأول سنة401هـ - 1010م[1].

وفي نفس الشهر دخل البربر بقيادة المستعين مدينة الزهراء، ثم رحلوا عنها لخمس بقين من شعبان، وشرعوا في أعمال التخريب حيث كانوا "يغيرون على أدنى البلد واقصاه، ينهبون ويخربون ويحرقون ويقتلون"،[2] ثم انتقلوا إلى مالقة "فعاثوا في نواحيها وقتلوا من أهلها، ثم مالوا إلى إلبيرة فنهبوا وخربوا... ثم دخلوا الجزيرة؛ فقتلوا من وجدوا بها، وهدموا دورها"[3].

بعد موجة التخريب والتدمير التي ألحقوها بالمدن والقرى الأندلسية التي لم يستثن منها ابن الخطيب إلاّ طليطلة ومدينة سالم، عاد البربر إلى فرض الحصار على قرطبة، وخلال ذلك كانوا "يترددون إليها بأنواع النهب والفتك إلى أن هلكت القرى والبسائط، وعدمت المرافق"[4].

لقد صار إصرار البربر كبيرا على الفتك بأهل قرطبة الذين ساموهم أشد أنواع القتل والتنكيل قبل ذلك، ولم يثنهم عن ذلك لا دينهم الذي يحثهم على العفو عند المقدرة، ولا العقاب الإلهي الذي سلط على أعدائهم المقيمين داخل المدينة، ذلك أنه في سنة 401هـ - 1010م حدث سيل عظيم بنهر الوادي الكبير، وأدى إلى هدم نحو ألفي دار بأرباض قرطبة، وما لا يحصى من المساجد والقناطر، كما أدى إلى وفاة حوالي خمسة آلاف نفس ردما وغرقا، وذهاب أمتعة الناس وأموالهم، وهدم جزء كبير من السور الذي كان يحمي المدينة، وردم جزء من الخندق الذي أقامه المهدي للحيلولة دون اقتحام البربر لقرطبة، حدث ذلك كله في ثلاثة أيام[5].

رغم ما وقع للمدينة، استمر البربر في حصارهم لها إلى غاية 26 شوال سنة 403هـ حيث اقتحموا أرباضها عنوة، ونشروا الدمار والخراب أينما حلوا

(1) ابن عذاري - البيان - ج 3 ص 102.

(2) نفسه - ج 3 ص 102.

(3) نفسه - ج 3 ص 102/ أعمال الأعلام - ص 117.

(4) ابن خلدون - العبر - ج 7 ص 327.

(5) ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 105.

بساحاتها، ويؤكد ابن الخطيب ذلك حيث يقول: "فكان الأمر في هول يومها يجلّ عن الوصف، ويشذّ عن العبارة من استيلاء السيف والسبي والنار والتخريب"[1].

ومع ذلك فنحن نستبعد حدوث تجاوزات كبيرة خلال اقتحام البربر للمدينة ذلك أنه بعد القتال الذي دار بين الفريقين خارج أسوار المدينة وانهزام أهلها، "خرج القاضي ابن ذكوان مع بعض الفقهاء إلى سليمان ورؤساء القبائل البربرية فطلبوا منهم الأمان فأمّنوهم" مقابل دفع غرامات ماليه كبيرة"[2].

وعندما صار البربر أسياد قرطبة اكتفوا بمعاقبة قاتل حباسة بن ماكسن حيث قتل حبوس المعني بالأمر، وأضرم داره نارا، كما قام المغاربة بإحراق وتخريب أي موضع يمتنع عليهم، ومن المؤكد أن هذه المواضع كانت قليلة، ذلك أن معظم الذين اعتدوا على البربر فيما سبق قد غادروا المدينة، ويؤكد ذلك ابن عذاري حيث يقول: "وهرب كثير منهم، وأسلموا ديارهم وأموالهم؛ فاحتوت البربر عليها، واقتسموا البلد بين أنفسهم وملكوه"[3]، وفي سنة 404هـ - 1013م توقف البربر عن أعمالهم الانتقامية ضد أهل قرطبة[4].

توقفت أعمال التخريب التي مسّت المنشآت المعمارية الأندلسية مؤقتا بداية من هذا التاريخ، ولكن هذه الآفة ستعود من جديد في عهد أحد خلفاء بني أمية المتأخرين، ويتعلق الأمر بالمستكفي محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر (414 - 416هـ/1023 - 1025م)؛ فخلال حكمه القصير "استؤصل بقية قصور جده الناصر بالخراب، وطمست أعلام قصر الزهراء، واقتلع نحاس الأبواب ورصاص القنى وغير ذلك من الآلات؛ فطوي بخرابها بساط الدنيا، وتغير حسنها إذ كانت جنة الأرض"[5].

(1) ابن الخطيب - نفسه - ص 118.

(2) ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 112 / ابن الخطيب - أعمال الأعلام - ص 118.

(3) ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 115/ ابن الخطيب - نفسه - ص 119.

(4) ابن عذاري - نفسه - ج 3 ص 115.

(5) ابن بسام الشنتريني - الذخيرة - ق 1 م 1 ص 436.

هكذا اكتملت الصورة القاتمة التي أرادها مسلموالأندلس لبلادهم؛ فبعدما تعاونوا سابقا في إقامة صرح المجد الإسلامي فوق تراب القارة الأوروبية، وبلغوا في ذلك غاية لم تصل إليها أنحاء أخرى منها، ها هم اليوم يعودون إلى تخريب بيوتهم بأنفسهم، متناسين في الوقت ذاته أنهم إخوة أولا، وأنهم وسط أعداء تكالبوا عليهم وعزموا على إخراجهم من بلاد الأندلس ثانيا، فبماذا يمكن تفسير كل هذا التخريب والتدمير الذاتي؟ هل بالحقد الكامن في النفوس؟ أم بالعصبية العمياء التي عادت من جديد بعدما سعى الإسلام إلى تخليص الناس منها ومن آفاتها؟

مهما يكن التفسير، فإن المؤكد هو أن المسلمين قد كانوا سببا في طمس معالم حضارة زاهية بذل في إنجازها حكام الأندلس السابقين النفس والنفيس، في ظروف تتسم بالعداء الشديد الذي كان يبديه نصارى العدوة الأندلسية المدعومين من قبل نصارى أوربا عامة، ولم يتفطن هؤلاء المسلمين إلى أن الخلاف بينهم وتفرقة صفوفهم سيكون معول الهدم الذي سيسهل مهمة النصارى، ويحقق لهم الغاية.

4 - الأوضاع الثقافية خلال زمن الفتنة:

مرّت الأندلس بفترة عصيبة من تاريخها تميزت بالاقتتال الدائر بين المسلمين، والتخريب والتدمير للكثير من المنشآت المعمارية التي كانت إلى وقت قريب مفخرة للإسلام والمسلمين بهذا الصقع من العالم الإسلامي.

وكان من نتائج هذا كله أن تعطل النشاط الثقافي والعلمي، وبخاصة في مدينة قرطبة التي لم تكن العاصمة السياسية للأندلس فحسب بل كانت أيضا "وطن أولي العلم والنهى، وينبوع متفجر العلوم، وبستان ثمرة الخواطر، وبحر درر القرائح، ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر، وفرسان النظم والنثر، وبها انتشأت التأليفات الرائعة، وصنّفت التصنيفات الفائقة"، ويعطينا ابن بسام سبب ذلك؛ فيقول: "إن أفقهم القرطبي لم يشتمل قط إلا على أمل البحث لأنواع العلم والأدب"[1].

---

(1) ابن بسام الشنتريني - الذخيرة - ق 1 م 1 ص 33.

لقد تعطل النشاط الثقافي والعلمي بفعل هذه الفتنة المبيدة التي نتج عنها إغلاق المدارس التي كانت تزخر بها أرباض قرطبة، وانفضّت حلقات الدرس التي كانت تعجّ بها جنبات المساجد وما أكثرها، كما ترك الكثير من أهل العلم القرطاس والقلم، واستبدلوهما بالرمح والحسام، وانغمسوا مع الخائضين في حروب الفتنة، ونتج عن ذلك موت العديد منهم إبان المواجهات والوقائع التي جرت بينهما.

كانت مقدمة الركود الثقافي والعلمي الذي عاشته الأندلس ما حدث لمكتبة الحكم المستنصر الذي كان على حدّ تعبير ابن الخطيب "جماعا للكتب"[1] " في أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله، ويؤكد ذلك ابن حزم حيث يقول نقلا عن تليد الخصي - وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان - : إن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، وفي كل فهرسة خمسون ورقة[2]، ليس فيها إلاّ ذكر اسماء الدواوين فقط"[3].

كان الحكم يبعث في الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار، ويرسل إليهم الأموال لشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه، وجمع بداره الحذاق في صناعة النسخ، والمهرة في الضبط، والإجادة في التجليد؛ فأوعى من ذلك كله، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده إلاّ ما يذكر عن الناصر العباسي بن المستضيء"[4].

لقد جمع الحكم من الكتب "ما لا يحدّ ولا يوصف كثرة ونفاسة حتى قيل إنها كانت أربعمائة ألف مجلّد[5]، فماذا كان مصيرها أثناء الفتنة؟

لم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة إلى أن بيع أكثرها أثناء الحصار الذي فرضه البربر على المدينة، وقد أمر بذلك واضح حاجب هشام المؤيد من أجل توفير الأموال

---

(1) ابن الخطيب - نفسه - ص 41.

(2) يقول المقري: "وفي كل فهرسة عشرون ورقة" - نفح الطيب - ج 1 ص 385.

(3) ابن حزم - جمهرة أنساب العرب - ص 100/المقري - نفح الطيب - ج 1 ص 385 - 386.

(4) نفسه - ج 1 ص 386/ ابن خلدون - العبر - ج 7 ص 317.

(5) المقري - نفسه - ج 1 ص 395.

التي احتاج إليها هشام لمواجهة المحاصرين له، أما الكتب التي بقيت بعد عملية البيع هذه فقد نهبت عقب دخول البربر إلى مدينة قرطبة في 26 شوال 403هـ (9 ماي1013م)(1).

هكذا كان مصير هذه الخزانة الفريدة من نوعها، والتي بذل الحكم الأموال الطائلة من أجل جمعها، ومكنت المؤلفين من أمهات المصادر التي كانوا في حاجة إليها من أجل الدراسة والتأليف، ولذلك السبب كانت قرطبة كما ذكرنا سابقا قبلة لطلاب العلم والدارسين له، ومن المؤكد أن هذه الكتب لم تكن الوحيدة التي تعرضت إلى الضياع، بل لقد طالت الفتنة الكثير مما ألفه العلماء، ومن ذلك ما يورده ابن حزم، وهو يتحدث عن دخوله مدينة قرطبة في عهد القاسم بن حمود حيث يقول: "فلم أقدم شيئا على قصد ابي عمر القائم بن يحيى التميمي أخي عبد الله رحمه الله؛ فسألته عن حاله وعزّيته عن أخيه...ثم سألته عن أشعاره ورسائله إذ كان الذي عندي منه قد ذهب بالنهب...فأخبرني عنه أنه لما قربت وفاته، وأيقن بحضور المنية، ولم يشك في الموت، دعا بجميع شعره وبكتبي التي كنت خاطبته أنا بها؛ فقطعها كلها، ثم أمر بدفنها"(2).

لقد اختفت هذه الأشعار والكتب باختفاء صاحبها، ولم يكن الوحيد الذي عايش الفتنة، ولذلك فمن المؤكد أن المئات بل الآلاف من الكتب والرسائل التي ألفها الأندلسيون قد ضاعت في غمرة هذا الإقتتال الدائر في دار الإسلام ببلاد الأندلس، وبالتالي فقد حرمت الأجيال اللاحقة من أمهات الأسفار التي ألفها العلماء والكتاب، والتي كان من الممكن أن تبقى لو حكم أهل العدوة الأندلسية الأخوة التي تجمع بينهم عوضا عن العصبية العمياء التي تبيح قتل الأخ لأخيه، وتدمير ما أنجزه الآخر لا لسبب سوى لكونه لا ينتمي إلى نفس القبيلة.

إلى جانب فقدان المكتبات العامرة وإتلاف المؤلفات، كانت الفتنة الأندلسية

---

(1) ابن خلدون – العبر – ج 7 ص 317/ المقري – نفسه – ج 1 ص 386.

(2) ابن حزم – طوق الحمامة – ص 119.

سببا في موت العديد من العلماء البارزين في الساحة الأندلسية، ويمكن تصنيف هؤلاء العلماء حسب مكان وفاتهم إلى ثلاثة أنواع.

1 - علماء ماتوا في حروب الفتنة ومنهم:

أ - في وقعة قنتيش: التي دارت بين البربر وأهل قرطبة يوم 13 ربيع الأول 400هـ (نوفمبر1009م)، وقد اشترك فيها عدد كبير من العلماء، وأبرز الذين قتلوا منهم في ساحة الوغى:

1 - أحمد بن مطرّف بن هاني الجهني، ويكنى أبا عمر، ذكره الخولاني وقال: كان على هدى وسنة، مجانبا لأهل البدع، فاضلا، صالحا، حافظا مجودا للقرآن، حسن اللفظ به، وقتل بجبل قنتيش شهيدا في سنة 400هـ[1].

2 - محمد بن عبد السلام الأديب المعروف بالتدميري، سكن قرطبة ويكنى أبا عبد الله، روى عن أبي عبد الله بن مفرج وغيره، وحدث عنه أبوعبد الله بن عابد، وذكر أنه كان صاحبه عند الشيوخ في السماع، وقال انتفعت به في مدارسة العلم، وكتبت عنه المناسك لسحنون بن سعيد، وقال: فقد في وقعة قنتيش سنة أربعمائة، ذكره ابن حيان، وقال كان خيرا، ورعا عابدا، متفننا في العلوم، ذا حظ من الأدب والمعرفة[2].

3 - أبو عثمان سعيد بن عثمان البربري النحوي، ويعرف بابن القزّاز، وقد فقد في وقعة قنتيش؛ فلم يوجد حيا ولا ميتا يوم السبت للنصف من ربيع الأول سنة أربعمائة[3].

4 - عمر بن عثمان بن خطار بن بشير القرطبي أبو حفص، وهو إمام مسجد ياسر، وكان عالي الإسناد، توفي بقنتيش سنة 400هـ[4].

ب - في وقعة عقبة البقر: التي دارت في 5 شوال سنة 400هـ (

(1) ابن بشكوال - الصلة - ج 1 ص 23.
(2) نفسه - ج 1 ص 463.
(3) نفسه - ج 1 صص 204 - 206.
(4) نفسه - ج 1 ص 423.

ماي1010م)، وأبرز الذين قتلوا فيها:

1 - أبو عمر أحمد بن بريل المقري القرطبي: أخذ عن أبي الحسن الأنطاكي المقريء بقرطبة، وجود بمصر أيضا، وسمع الحديث، وكان أحد القراء المجودين الحفاظ، من أهل الحجا والفضل، قتل بعقبة البقر صدر شوال سنة 400 مع المقريء ابن الغمّاز، وكان صاحبه[1].

2 - أبو أيوب سليمان بن هشام بن وليد بن كليب المقريء، المعروف بابن الغمّاز، سكن قرطبة، وأخذ بها من أبي الحسن الأنطاكي، وقال عنه أبو عمر بن الحذاء: كان أحفظ من لقيت بالقراءات، وأكثر ملازمة للإقراء بالليل والنهار، وكان أطيب من لقيت صوتا بالقرآن، وكان ذا ضبط وحفظ للحروف، وحسن اللفظ بالقرآن، أجلسه سليمان المستعين للإقراء بالمسجد الجامع بقرطبة، وخرج معه يقيم له صلاته؛ فأصيب معه في الهزيمة بوقعة البقر في صدر شوال سنة أربعمائة[2].

3 - أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قند اللّغوي ويعرف بالطليطلي، أخذ عن أبي محمد الأصيلي الحافظ وعن أبي عبد الله محمد بن عشية النحوي، وتصرّف في الأحكام، وكان من أهل البراعة والمعرفة والنفاذ في الفقه والحديث، والإفتنان في ضروب العلم والتحقيق، ومن بينها بعلم الغريب وحفظ اللغة، وتوفي في الوقعة التي كانت بين سليمان بن الحكم والمهدي بعقبة البقر سنة أربعمائة، وكان من أصحاب سليمان وممن رفع مكانه وأدناه، ذكره ابن حيان[3].

4 - أبو عبد الله محمد بن عيسى المعروف بابن البريلي، من أهل تطيلة وقاضيها، رحل إلى المشرق وحجّ سنة381هـ، ولقي مشيخة المصريين وأخذ عنهم، كان موصوفا بالعلم والصلاح والفقه والشجاعة والجهاد، وقد خرج مع المهدي محمد بن هشام لنصرته؛ فقتل بعقبة البقر في صدر شوال سنة أربعمائة[4].

---

(1) نفسه – ج 1 ص 25.

(2) نفسه – ج 1 ص 192.

(3) نفسه – ج 1 ص 244.

(4) نفسه – ج 2 ص 463.

5 - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى المعروف بابن الفضّال، من أهل قرطبة، روى عن عبد الوراث بن سفيان وأبي محمد الأصيلي، ولزم أبا عمر بن أبي الحباب النحوي، وكان يتولى قراءة كتب الأدب عليه، توفي في عقبة البقر في صدر شوال سنة 400هـ[1].

2 - علماء قتلوا بقرطبة وأرباضها: (شوال 403هـ - أفريل 1013م)

1 - أبو عمر أحمد بن محمد بن مسعود المعروف بابن الجباب، وهو من أهل قرطبة، كانت له عناية بالعلم، قتله البربر يوم دخولهم قرطبة، يوم الاثنين لست خلون من شوال سنة 403هـ[2].

2 - أبو القاسم خلف بن سلمة بن خميس من أهل قرطبة، روى عن عباس بن أصبغ وابن مفرج وغيرهما، وحدث وأخذ عنه، وكان أحد العدول، قتله البربر يوم دخولهم قرطبة في شوال سنة 403هـ[3].

3 - ابو سلمة الزاهدي، الإمام بمسجد عين طار بقرطبة، كان قديم الزهد والتقشف، وكان ممن فتن بمحمد المهدي، وأسرّ معه التدبير، وعندما وقع بأيدي البرابرة يوم تغلبهم على قرطبة ذبحوه في منزله، وذلك يوم الاثنين لست خلون من شوال سنة 403هـ، ذكره ابن حيان[4].

4 - أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي الحافظ، ويعرف بابن الفرضي، من أهل قرطبة، وهو صاحب تاريخ علماء الأندلس، رحل إلى المشرق وحجّ سنة 382هـ، وأخذ العلم بمكة ومصر وبالقيروان عن أبي محمد بن ابي زيد

(1) نفسه - ج 2 ص 463.
(2) نفسه - ج 1ص 32.
(3) نفسه - ج 1 ص 160.
(4) نفسه - ج 1 ص 227.

الفقيه وأبي جعفر أحمد بن سحنون وأحمد بن نصر الداودي، ثم انصرف إلى قرطبة، وقد جمع علما كثيرا، صنف كتابه في تاريخ علماء الأندلس، وبلغ فيه النهاية والغاية من الحفل والإتقان، وجمع كتابا في أخبار شعراء الأندلس، وجمع في المؤتلف والمختلف كتابا حسنا.

قال ابو مروان بن حيان: كان ممن قتل يوم فتح قرطبة، وذلك يوم الاثنين لست خلون من شوال سنة 403هـ، الفقيه الراوية، الأديب الفصيح، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي المعروف بابن الفرضي الذي تقلد قراءة الكتب بعهد العامرية، واستقضاه محمد المهدي بكورة بلنسية[1].

5 - أبو عبد الله محمد بن سعيد السري الأموي الحرّار، من أهل قرطبة، ومن تأليفه: "جامع واضح الدلائل"، وكتاب "روضات الأخبار في الفقه"، وكتاب "عمل المرء في اليوم والليلة"، وقدم من طليطلة مجاهدا، أخرجه محمد بن أبي عامر عن قرطبة لعصبية ثم عاد إليها، كانت العامة تعظمه، قتله البربر يوم دخولهم، وكان قد استقبلهم شاهرا سيفه يناديهم، إليّ إليّ ياحطب النار، طوبى لي إن كنت من قتلاكم حتى قتلوه، ذكر وفاته ابن حيان[2].

6 - أبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد الأموي، من أهل قرطبة ويعرف بالجالطي، كان من أهل العلم والدراية والرواية والحفظ، ذاكرا للأخبار والشواهد، تقلّد الصلاة بالمسجد الجامع بالزاهرة؛ فكان آخر خطيب قام على منبره، وتقلد أيضا أحكام الشرطة للخليفة هشام بن الحكم، ثم ختم الله له ذلك كله بالسعادة؛ فقتله البرابرة يوم تغلبهم على قرطبة في جوف بيته مدافعا عن أهله وولده، ذكره الخولاني وقال: قتله البربر فمات شهيدا[3].

7 - أبو محمد عبد الله بن محمد الثقفي السوسي، دخل الأندلس، وسكن

---

(1) نفسه - ج1 صص 246 - 248/ الضبي - بغية الملتمس - ص 290 - 291.

(2) ابن بشكوال - نفسه - ج 2 ص 465.

(3) نفسه - ج 2 صص 465 - 466.

قرطبة، كان واحد عصره في صناعة الطب، والبصر بعلوم الحكمة، والتصرف في أفانينها، ذا علاجات نافعة، وإليه تنسب المجربات التي جمع أو جمعت له، قتله البرابرة بقرطبة في صدر شوال سنة 403هـ[1].

8 - أبو عثمان سعيد بن منذر بن سعيد، وهو ابن قاضي الجماعة منذر بن سعيد البلوطي، من أهل قرطبة، روى عن أبيه وغيره، وكان خطيبا بليغا، ذكيا، نبيها، قتل يوم تغلب البرابرة على قرطبة[2].

3 - علماء قتلوا خارج هذين الموضعين:

1 - أبو مروان عريب بن محمد بن مطرف بن عريب، من أهل قرطبة، كان من أهل الأدب، والمعرفة، حسن الإيراد للأخبار، استقضي في الفتنة على كورة رية، وقتل خطأ على باب داره في ربيع الآخر من سنة 409هـ، ذكر وفاته ابن حيان[3].

2 - أبو بكر يحيى بن عبد الرحمن بن وافد اللّخمي، قاضي الجماعة بقرطبة، سمع بقرطبة من أبي عيسى الليثي ثم رحل إلى المشرق؛ فحج، كان فقيها حافظا، ذاكرا للمسائل، بصيرا بالأحكام، استقضاه الخليفة هشام بن الحكم بقرطبة مرتين؛ فقضى بين الناس أحسن قضاء، وسار بأحسن سيرة، ولما قامت الفتنة كان ابن وافد أحد الأشدّاء على البربر، وأكبر الناس نفارا منهم، وعند ما تغلبوا على قرطبة سنة 403هـ اشتدّ طلبهم عليه، وعندما عثروا عليه ساقوه راجلا، مكشوف الرأس، والمنادي ينادي عليه: "هذا جزاء قاضي النصارى ومسبب الفتنة"، وهو يقول مجاويا: "بل والله ولي المؤمنين وعدو المارقين، أنتم شر مكانا، والله أعلم بما تصفون"، أمر سليمان المستعين بصلبه، ثم وردت عليه شفاعات من الفقهاء والصالحين الذين لا يرى رد طلبهم؛ فرفع عنه الصلب والمثلة، وأمر بضمّه إلى المطبق حيث امتنع عن الأكل، ونتيجة لذلك اعتلّ

(1) ابن الأبّار - التكملة لكتاب الصلة - ج 2 ص 302.
(2) ابن بشكوال - الصلة - ج 1 ص 208.
(3) نفسه - ج 2 ص 426.

وأخرج ميتا منتصف ذي الحجة سنة 404هـ[1].

3 - أبو محمد خلف بن علي بن ناصر بن منصور البلوي السبتي الزاهد، قدم من سبتة، واستقرّ بالأندلس، روى بالمشرق عن أبي محمد بن أبي زيد الفقيه، كان زاهدا متبتلا سائحا في الأرض، راوية للعلم، حسن الخط، ضابطا لما كتب، قدم قرطبة وسكن مسجد متعة، وتعبد فيه، كان الصلحاء والزهاد يقصدونه هناك، وسمع منه جماعة من علماء قرطبة وغيرها، توفي أبو محمد السبتي بإلبيرة في صدر الفتنة البربرية سنة 400هـ[2].

4 - أبو سعيد خلف بن سعيد الجراوي المالقي، ويعرف بابن أمينة، أجاز مختصر النحوي للمدونة، قال ابن حيان: "كان قدومه إلى قرطبة في عام 393هـ، وحمل عنه بها علم كثير، وكان له من القاضي ابن ذكوان خاصة، أغري به العامة؛ فأضجعوه وذبحوه عند قيام المهدي، وقتل العامة البرابرة سنة 400هـ، وقيل بل شدخوا رأسه بالحجارة، وأنه سألهم أن يمهلوه حتى يصلي ركعتين؛ ففعلوا، رحمه الله وكان ذلك بمالقة"[3].

5 - سعيد بن محمد المعافري اللغوي القرطبي أبو عثمان، ويعرف بابن الحداد، أخذ عن أبي بكر بن القوطية، وهو الذي بسط كتابه في الأفعال وزاد فيه، وقد توفي بعد الأربعمائة شهيدا في بعض الوقائع[4].

6 - أبو عبد الملك راشد بن إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم بن راشد القرطبي، له رحلة إلى المشرق، كتب فيها عن يوسف بن أحمد الطلمنكي وأبى القاسم السقطي وأبي جعفر الداودي وغيرهم، وهو ابن أخت القاضي ابن وافد، وقد تولى معه خطة الردّ خلال الفتنة، وبعد محنة خاله فرّ من قرطبة في اتجاه الجوف؛ فذبح في الطريق

---

(1) نفسه - ج 2 ص 627/ النباهي - تاريخ قضاة الأندلس - ص 117 - 118.

(2) ابن بشكوال - الصلة - ج 1 ص 174 - 175.

(3) نفسه - ج 1 ص 175.

(4) نفسه - ج 1 ص 209.

سنة 404هـ، وكان من أهل العناية بالعلم والجمع له[1].

7 - أبو عبد الله الحسين بن يحيى بن عبد الملك التجيبي القرطبي، كان حافظا للمسائل على مذهب مالك، ذاكرا لأصولها، رحل إلى المشرق سنة 348هـ، وأخذ عن أبي بكر الآجري كثيرا من تصانيفه، ولي خطة الوثائق السلطانية في صدر دولة المظفر عبد الملك بن أبي عامر، واستقضي بباجة وأوكشونبة ثم بمدينة سالم ثم بجيان، توفي في صدر الفتنة البربرية يوم الخميس لثمان خلون من ذي القعدة بعد إختفاء، ومحنة عظيمة نالته[2].

هذه عينة من العلماء الذين ذهبوا ضحية الفتنة القائمة في الأندلس، ونلاحظ أن الغالبية العظمى منهم ماتوا في قرطبة، وذلك عقب دخول البربر إليها في شوال سنة 403هـ بحيث بلغ عدد المقتولين عشرة كلهم من أهل قرطبة، ثمانية منهم قتلوا في نفس تاريخ دخول البربر، أما الإثنان الآخران، وهما القاضي ابن وافد وابن أخته فقد قتلا في السنة الموالية، الأول داخل السجن جرّاء "الإضراب عن الطعام"، والثاني أثناء فراره من عاصمة الخلافة، ولكن هذه الأرقام لا تعطينا الحقيقة كلها حيث أن جلّ المؤرخين يجمعون على أن عددا كبيرا من الفقهاء وأئمة المساجد سقطوا قتلى في وقعة قنتيش، ومنهم الحميدي الذي يقول متحدثا عنها: "وهي الوقعة المشهورة، ذهب فيها من الخيار وأئمة المساجد والمؤذنين خلق عظيم"[3].

ويذهب عبد الواحد المراكشي في نفس الاتجاه حيث يقول عنها: "فلم تكن إلاّ ساعة حتى قتل من أهل قرطبة نيف وعشرون ألف رجل في جبل هنالك يعرف بجبل قنطش، وهي الوقعة المشهورة، ذهب فيها من الخيار والفقهاء وأئمة المساجد والمؤذنين خلق كثير"[4].

الملاحظة الثانية التي نخرج بها من خلال هذه العينة من العلماء المقتولين

(1) نفسه - ج 1 ص 184.

(2) نفسه - ج 1 ص 139.

(3) الحميدي - جذوة المقتبس - ص 22.

(4) عبد الواحد المراكشي - المعجب - صص 65 - 66.

خلال الفتنة هي أن أغلب هؤلاء كانوا يؤيدون طرفا ضد الأخر؛ فمعظمهم من أهل قرطبة، وكانوا إلى جانب المهدي أو هشام المؤيد سواء منهم الذين شاركوا في المعركتين الدائرتين بين البربر وجند المهدي، أو الذين تعرضوا للقتل عقب دخول البربر إلى قرطبة في صدر شوال سنة 403هـ، وكأن هذا الدخول كان فرصة للمغاربة الذين اضطهدوا من قبل أهل قرطبة، وأخرجوا من ديارهم، وانتهكت حرماتهم، وصودرت أموالهم للأخذ بالثأر، ولذلك كان عدد القتلى كبيرا في صفوف سكان الحضرة، وبخاصة في أولئك الذين أيدوا المهدي أو هشام المؤيد، وشجّعوه على محاربة البربر، وملاحقتهم بعد فرارهم نحو الجنوب.

نتيجة لأعمال القتل التي تعرض لها علماء الأندلس اضطرّ الكثير منهم إلى الفرار من ساحات المواجهة الدامية بين الطرفين المتصارعين، وقد انقسم العلماء في هذا العمل إلى صنفين: الأول فرّ من قرطبة التي شهدت أكبر المواجهات الدامية، وانتقل إلى المدن والجهات التي توفر الأمن لأصحابها، ومنها مدن الشمال المتاخمة لممالك النصارى أو إلى الشرق حيث تأسست ممالك الصقالبة، ومن أبرز الأمثلة على ذلك هجرة أبو محمد علي بن حزم الذي أخرج من قرطبة سنة 402هـ بسبب مناصرته لبني أمية، وتمسكه بحقهم في العرش؛ فتوجه إلى ألمرية وأقام بها، ومنها ناصر عبد الرحمن المرتضى الذي فشل في الوصول إلى الخلافة، وأسر ابن حزم في الموقعة التي دارت بين جيش المرتضى والصنهاجيين بقيادة زاوي بن زيري سنة 409هـ - 1018م، وعندما أطلق سراحه لجأ إلى شاطبة، وألف فيها كتاب "طوق الحمامة"، وبقي فيها إلى غاية سنة 414هـ - 1023م، وهي السنة التي عيّنه عبد الرحمن المستظهر فيها وزيرا له[1].

ويشترك معه في ذلك أبو عمر أحمد بن درّاج القسطلي الذي عاصر فتنة القرن الخامس، ولذلك وجدناه يبحث عن المكان الآمن، ويضطره ذلك الوضع المتردي إلى الإرتحال عن قرطبة، ويعبر ابن حيان عن ذلك فيقول: "وكان ممن طوّحت به تلك

---

(1) أنخل قنثالث بالنثيا - تاريخ الفكر الأندلسي - ص 214.

الفتنة الشنعاء، واضطرته إلى النجعة؛ فاستقرى ملوكها أجمعين ما بين الجزيرة الخضراء فسرقسطة من الثغر الأعلى، يهز كلا بمديحه، ويستعينهم على نكبته"[1]، وانتهى به الترحال إلى سرقسطة حيث أكرمه وآواه أميرها المنذر بن يحيى؛ فبقي عنده حتى توفي سنة 421هـ - 1030م[2].

أما الصنف الثاني من العلماء فقد أختار الهجرة إلى خارج الأندلس، ومن أبرز الأمثلة على ذلك أبو العلاء صاعد بن الحسن بن عيسى الربعي البغدادي اللّغوي الذي قدم إلى الأندلس سنة380هـ - 990م، وكان عالما باللغة والآداب والأخبار، حسن الشعر، وقد جمع للمنصور كتابا سماه "الفصوص في الأداب والأشعار والأخبار" سنة 385هـ - 996م، وعقب قيام الفتنة خرج من الأندلس، وقصد صقلية التي مات بها سنة 417هـ - 1026م[3].

وابو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أبي يزيد خالد الأزدي المصري الصواف الذي قدم إلى الأندلس من مصر سنة 394هـ وكان رجلا أديبا، حافظا للحديث وأسماء الرجال والأخبار، وله أشعار حسان في كل فن، وسكن قرطبة إلى أن وقعت الفتنة؛ فخرج من الأندلس، وقال ابن حيان: إنه توفي بمصر سنة 410هـ - 1019م[4].

إلى جانب هؤلاء العلماء الذين هجروا موطنهم، هناك من فضل البقاء في داره، واتباع سياسة محايدة تجاه الصراع القائم بين البربر وأهل قرطبة، ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما قام به أبو بكر حمام بن أحمد بن عبد الله بن محمد القرطبي الذي ذكره أبو محمد بن حزم وقال: كان واحد عصره في البلاغة وفي سعة الرواية، ضابطا لما قيّده، وأضاف قائلا: "لا أدري أحدا سلم من الفتنة سلامته مع طول مدته فيها؛ فما شارك فيها بمحضر ولا بيد ولا بلسان مع ذكائه وحزمه وقيامه بكل ما يتولى، وقد ولي قضاء يابرة

---

(1) ابن بسام - الذخيرة - ق 1 م 1 ص 60 - 61.

(2) أحمد أمين - ظهر الإسلام - ص 130 - 131.

(3) ابن بشكوال - الصلة - ج 1 ص 232 - 233/ الحميدي - جذوة المقتبس - ص 214.

(4) ابن بشكوال - الصلة - ج 1 ص 337.

وشنترين وأشبونة وسائر الغرب طيلة أيام المظفر وأخيه عبد الرحمن شنجول ودولة المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار وسليمان بن الحكم المستعين والمؤيد بالله هشام بن الحكم المستنصر في دولته الثانية إلى أن توفي بقرطبة في رجب سنة 421هـ - 1030م[1].

وتنطبق نفس الميزة على المؤرخ الأندلسي أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان (377 - 469هـ/988 - 1076م) الذي لم يغادر قرطبة حتى وفاته، ومع ذلك لم يصب بمكروه، ومما مكنه من ذلك هو ابتعاده عن موالاة أحد طرفي النزاع القائم في العدوة الأندلسية[2].

لقد كان للفتنة كما نلاحظ تأثيرها البالغ على الحياة الثقافية والعلمية وبخاصة في المناطق التي شهدت أحداث النزاع الدموي الدائر بين الأطراف المتصارعة على سدة الحكم ومع ذلك فإنها لم تقض على النشاط العلمي كلية، ذلك أن بقية من العلماء الأندلسيين الذين أدركوا ذلك الإزدهار الكبير الذي شهدته الأندلس خلال فترة الخلافة أو انتفعوا بقوة الدفع التي أعطتها فترة الحجابة للرقي العلمي والثقافي، وبخاصة في عهد المنصور محمد بن أبي عامر، قد ساهموا في استمرار التطور الحضاري ويدل على ذلك بروز عدد كبير من العلماء خلال فترة الفتنة أو ما بعدها، ومن أبرز هؤلاء أبومحمد بن حزم، وأبومروان بن حيان، وأبوعمر بن دراج القسطلي.

ويضاف إلى ذلك عامل آخر ساهم في استمرار النشاط العلمي والثقافي وازدهاره خلال زمن الفتنة، ويتمثل في قدوم العديد من أعلام المغرب والمشرق إلى بلاد الأندلس، ونشرهم لمعارفهم، ومن أبرز من دخل الأندلس خلال زمن الفتنة، وساهم في ذلك:

- أبو الحسن علي بن سعيد بن أحمد الهواري الفاسي الذي قدم إلى الأندلس

(1) نفسه - ج 1 ص 150 - 151.

(2) ابن حيان - المقتبس - تحقيق محمود علي مكي - ص31.

سنة 399هـ - 1008م واستقرّ بطليطلة، وحدّث بها، وسمع منه الناس كثيرا(1).

- أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجاوي العدوي الذي قدم الأندلس سنة 406هـ - 1015م، وجال في أقطارها؛ فبلغ ثغورها ولقي ملوكها، وكان إماما في العربية، متمكنا في علم الأدب، مذكورا بالتقدم في علم المنطق، وخلال تنقله بالأندلس أملى كتابا في شرح الجمل لأبي القاسم الزجّاجي، وروى كثيرا من الأدب واللغات(2).

- أبو الفضل عبيد الله بن سعد بن علي بن مهران الدمشقي الذي قدم إشبيلية سنة 416هـ - 1025م، وكان من أهل العلم والفضل، وروايته واسعة عن جماعة من العلماء بالحجاز والعراق ومصر والشام(3).

- أبو العرب محمد بن تميم بن أبي العرب التميمي القيرواني الذي قدم الأندلس تاجرا سنة 416هـ، وكان من أهل الفضل والثقة، واسع الرواية، وكان من أهل الصدق والتحرّي فيما ينقله، وقد روى عن أبيه كثيرا وعن غيره من شيوخ قرطبة(4).

- أبو عمرو عثمان بن الحسن بن عثمان بن أحمد بن الخصيب البغدادي الذي قدم إلى الأندلس سنة 417هـ - 1026م وأقام بإشبيلية، وكان يروي عن أبي طاهر المقريء البغدادي الذي قرأ عليه بالقراءات السبع كما روى عن جلة البغداديين، وكان مجودا للتلاوة، محسنا، عالما بمعاني القرآن(5).

إضافة إلى هذين العاملين ساهم عامل آخر في استمرار النشاط العلمي والثقافي ببلاد الأندلس، ويتمثل في وجود الأمن والاستقرار في بعض الأقاليم الأندلسية البعيدة عن مراكز الفتنة، ومن أبرز هذه الأقاليم شرق الأندلس والمناطق الشمالية المتاخمة للممالك النصرانية، ونتيجة للأمن الذي نعمت به هذه الأقاليم

(1) ابن بشكوال - نفسه - ج 2 ص 406.

(2) الحميدي - جذوة المقتبس - ص 161 - 162/ ابن بشكوال - نفسه - ج 1 ص 125.

(3) نفسه - ج 1 ص 294.

(4) نفسه - ج 1 ص 567.

(5) نفسه - ج 1 ص 399.

قصدها علماء حاضرة الخلافة الأموية، كما استقر بها العلماء الوافدين من خارج بلاد الأندلس، وبفضل الرعاية التي أولاها حكام هذه الأقاليم للعلم والعلماء، ازدهرت العلوم ونشطت الحركة الثقافية بها، وبالتالي ساهمت هذه المناطق في إثراء الحضارة العربية الإسلامية.

باستثناء استمرار النشاط العلمي والثقافي في بعض الأقاليم الآمنة؛ فإن بلاد الأندلس في أغلب جهاتها قد عاشت واحدة من أحلك الفترات التاريخية التي مرت بها في حياتها.

لقد تحالف المسلمون ومدّوا يد المساعدة لبعضهم البعض في عملية الإقتتال التي راح ضحيتها ألاف القتلى من المسلمين عامة، والأبرياء منهم بصفة خاصة، والتدمير الذاتي الذي طال المنشآت العمرانية التي سهر الحكام الأوائل على بنائها، وأنفقوا من أجل ذلك مئات الألاف من الدنانير والدراهم، والأخطر من ذلك كله هو الانقسام السياسي الذي فكك أوصال العدوة الأندلسية، وجعل أهلها شيعا، يحارب بعضهم بعضا، ويستعين كل طرف منهم بأعداء الدين الإسلامي من أجل تحقيق النصر على الطرف المعادي.

إن المنطق العدائي الذي ساد بين الإخوة في الأندلس كان حافزا قويا دفع النصارى وشجعهم على عملية الإسترداد، وقد نجم عن ذلك تكالب هؤلاء على أراضي المسلمين وممتلكاتهم فضلا عن أرواحهم التي أصبحت تزهق أمام الملأ، ومقدساتهم التي صارت تنتهك في غياب كلي للغيورين من أبناء العدوة الأندلسية على دينهم ومقدساتهم، وقد أصبح همّ هؤلاء جميعا هو توجيه كل الإمكانات البشرية منها والمادية من أجل تحقيق غاية واحدة هي قتال المسلم والتخلص منه بحجة أنه يشكل الخطر الحقيقي، ولم يفكر هؤلاء البتة في مصير الإسلام والمسلمين بهذا الجزء من العالم الإسلامي.

الخاتمة

بعد استعراضنا لمجمل محاور البحث نخلص إلى النتائج التالية:

1 - لقد شهدت العدوة الأندلسية تدفق أعداد كبيرة من المغاربة عقب الفتح الإسلامي لها، واستقرّ هؤلاء إلى جانب إخوانهم من العرب في البلاد، ولكن دخول الشاميين بقيادة بلج بن بشر سيتسبب في قيام حرب دامية بين الطرفين كان من نتائجها إخلاء المناطق المتاخمة للنصارى من المسلمين، وعودة الكثير من المغاربة إلى بلادهم.

2 - لقد كان للبربر دور كبير في فتح بلاد الأندلس، كما ساهموا بقسط وافر في نشر الإسلام بربوعها، وقاموا بحماية ثغورها الشمالية والشمالية الشرقية من إعتداءات النصارى.

3 - كان للبربر مكانة هامة في الجيش الأندلسي حيث شكلوا أحد العناصر التي سمحت للأمير عبد الرحمن بن معاوية بتأسيس دولته، كما اعتمد عليهم الأمراء والخلفاء من بعده في غزواتهم ضدّ النصارى وضد المنتزين عليهم من العرب والمولدين خاصة، وخلال ذلك برز العديد منهم، وتولى أحدهم القيادة العليا للجيش الأندلسي.

4 - كان اعتماد المنصور في تشكيل جيشه الجديد على المغاربة بصفة خاصة حيث استدعاهم إلى الأندلس، وأغدق عليهم الأموال، وكان البربر عند حسن ظنه بهم؛ فمكنوه من تحقيق الانتصار في كل الغزوات التي قادها، وبخاصة على النصارى، واسترجاع كثير من الأراضي التي كانوا قد استولوا عليها.

5 - تمكن البربر من تولي عدد كبير من الوظائف الإدارية والقضائية خلال القرن الرابع الهجري على عكس الفترة السابقة، وذلك نظرا لجملة من العوامل أبرزها إرتفاع مستواهم العلمي ودخولهم تحت ولاء البيت الأموي أو غيره من

البيوتات العربية.

6 - لقد برز عدد كبير من المغاربة في المجال العلمي خلال القرن الرابع الهجري، وبخاصة في العلوم الدينية والآداب، وأدى ذلك إلى ازدياد الإعتماد عليهم في الوظائف العليا.

7 - كان البربر في طليعة الفاتحين لبلاد الأندلس، ولكن ثمار الفتح جناها العرب الذين استحوذوا على أخصب الأراضي، ومن ثم فإن أغلب المغاربة كانوا يمتهنون حرفا وضيعة، ولم تنجُ من هذه الوضاعة إلاّ الفئة القليلة التي تمكنت من بلوغ مستوى علمي عال أو حصلت على إقطاع نظير الخدمات العسكرية المقدمة إلى السلطة الحاكمة.

8 - لقد سعى بعض كتاب وأدباء الأندلس إلى احتقار البربر، وتشويه صورتهم، والنظر إليهم نظرة استصغار وإذلال، ولم يميزوا في ذلك بين المغاربة البسطاء أو الذين تقلدوا المناصب العليا في الدولة.

9 - مرّت الأندلس بفترة عصيبة خلال الربع الأول من القرن الخامس الهجري، تجاوز فيها التقتيل والتخريب بين المسلمين حدود الوصف، واستغلّ النصارى ذلك من أجل الاستحواذ على أجزاء كبيرة من أراضي المسلمين، والمشاركة في قتل الألاف منهم.

10 - بذل البربر جهودا كبيرة بهدف إخماد نار الفتنة، وذلك من خلال رفض قتال القائمين على الخليفة هشام وحاجبه، ومبايعتهم للخليفة الجديد، وسعيهم إلى تحقيق الصلح، ولكن اعتداءات عامة قرطبة بتحريض من المهدي عليهم جعلتهم يضطرون إلى الدفاع عن أنفسهم، وبالتالي الإنغماس كما فعل غيرهم في أعمال القتل والنهب والتدمير.

11 - لا يتحمل البربر مسؤولية الفتنة القائمة بالأندلس لأن المتسبب فيها هو المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار، وساعده على ذلك أهل قرطبة، وبخاصة العامة والصقالبة الذين سعوا إلى التخلص نهائيا من البربر، وهو ما أدّى إلى احتدام الصراع الدموي بين الإخوة في الدين والوطن.

12 - لقد كان للفتنة القائمة في الربع الأول من القرن الخامس الهجري نتائج سلبية كثيرة أبرزها: التفكك السياسي، وانقسام الأندلس بين دول الطوائف، وتكالب العدو النصراني عليها، والألاف من القتلى والدمار والخراب الذي طال المنشآت العمرانية، وبخاصة في مدينتي الزاهرة والزهراء، وتدهور الأوضاع الاقتصادية، وركود الحركة العلمية والثقافية في مدينة قرطبة، كما كان لديها نتائج إيجابية منها إزدهار الحركة العلمية في المدن البعيدة عن قرطبة التي توفر فيها الأمن والتشجيع للعلماء الذين أبدعوا في شتى التخصصات، ويدلنا على ذلك انتماء أبرز علماء الأندلس إلى هذه الفترة التاريخية، أي القرن الخامس الهجري، ومنهم ابن حيان وابن حزم وابن درّاج القسطلي الشاعر وغيرهم.

فهرس المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم

ثانيا: البخاري عبد الله بن محمد: صحيح البخاري - ضبط مصطفى ديب البغا - موفم للنشر الجزائر - دار الهدى عين مليلة - 1992م.

ثالثا: المصادر المخطوطة: -

1 - أبو بكر بن العربي المعافري - كتاب ترتيب الرحلة للترغيب في الملة - مخطوط رقم ك 1275 - الخزانة العامة - الرباط.

2 - مجهول: ذكر بلاد الأندلس وفضلها - مخطوط رقم 558 - الخزانة الملكية - الرباط.

3 - مجهول: - مفاخر البربر ضمن مجموع رقم ك 1275 الخزانة العامة الرباط.

رابعا: المصادر المطبوعة: -

4 - ابن الأبار القضاعي - التكملة لكتاب الصلة - تحقيق عبد السلام الهرّاس دار الفكر - بيروت - 1415هـ - 1995م.

5 - ابن الأبار القضاعي - الحلة السيراء - تحقيق حسين مؤنس - دار المعارف - القاهرة - ط 2 - 1985م.

6 - ابن الأبار القضاعي - إعتاب الكتاب - تحقيق صالح الأشتر - مطبوعات مجمع اللغة العربية - دمشق - 1961م.

7 - ابن الأثير الجزري - الكامل في التاريخ - مراجعة وتعليق نخبة من العلماء - دار الكتاب العربي - بيروت - ط 5 - 1405هـ - 1985م.

8 - ابن الأحمر إسماعيل - بيوتات فاس الكبرا - دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط - 1972

9 - الإدريسي أبو عبد الله الشريف - القارة الافريقية وجزيرة الأندلس من كتاب نزهة المشتاق - تحقيق إسماعيل العربي - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - 1983م.

10 - الإصطخري إبراهيم بن محمد - المسالك والممالك - تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - القاهرة - 1381هـ 1961م.

11 - ابن بشكوال خلف بن عبد الملك - كتاب الصلة - تحقيق السيد عزت العطار الحسيني مكتبة الخانجي - القاهرة - ط 2 - 1414هـ - 1994م

12 - البكري أبو عبيد - كتاب المسالك والممالك - تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري الدار العربية للكتاب - تونس - 1992م.

13 - البكري أبو عبيد - جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك - تحقيق عبد الرحمن علي الحجي - دار الإرشاد - بيروت - 1387هـ - 1968م

14 - البلاذري أحمد بن يحي - فتوح البلدان - تحقيق عبد الله أنيس الطبّاع وعمر أنيس الطبّاع - منشورات مؤسسة المعارف - بيروت - 1407هـ - 1987م.

15 - التنبكتي أحمد بابا - نيل الإبتهاج بتطريز الديباج - إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة - منشورات كلية الدعوة الإسلامية - طرابلس - ط 1 - 1989م.

16 - التنسي أبو عبد الله - تاريخ دولة الأدارسة من كتاب نظم الدُر والعقيان - تحقيق وتقديم عبد الحميد حاجيات - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - 1984م.

17 - الثعالبي عبد الملك بن محمد - يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة - القاهرة - ط2 - 1375هـ - 1956م.

18 - ابن حزم الأندلسي - جمهرة أنساب العرب - مراجعة وضبط لجنة من العلماء - دار الكتب العلمية - بيروت - ط1 - 1403هـ - 1983م.

19 - ابن حزم الأندلسي - نقط العروس في تواريخ الخلفاء - نشر C.F.Seybold in Revista Del Centro De Estudios Historicos De Granada y Su Reino - Granada - 1911.

20 - ابن حزم الأندلسي - طوق الحمامة في الألفة والألاف - تحقيق حسن كامل الصيرفي - دار الفكر - القاهرة - 1383هـ - 1964م.

21 - ابن حزم الأندلسي - الردُ على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى - تحقيق إحسان عباس - مكتبة دار العروبة - القاهرة - 1960م.

22 - الحميدي الأزدي - جدوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس - تحقيق روحية عبد الرحمن السويفي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط1 - 1417هـ - 1997م.

23 - الحميري محمد بن عبد المنعم - صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار - نشر إ. لافي بروفنصال - القاهرة - 1937م.

24 - الحنبلي ابن عماد - شذرات الذهب في أخبار من ذهب - تحقيق لجنة إحياء التراث - منشورات دار الأفاق الجديدة - بيروت - بدون تاريخ.

25 - ابن حوقل أبو القاسم - كتاب صورة الأرض - دار الكتاب الإسلامي - القاهرة - بدون تاريخ.

26 - ابن حيان القرطبي - المقتبس من أنباء أهل الأندلس - تحقيق محمود علي مكي - دار الكتاب العربي - بيروت - 1393هـ - 1973م

27 - ابن حيان القرطبي - المقتبس في تاريخ رجال الأندلس - نشر الأب

ملشور م. أنطونية بولس كتنر الكتبي - باريس - 1937م.

28 - ابن حيان القرطبي - المقتبس في تاريخ الأندلس - تحقيق إسماعيل العربي - منشورات دار الآفاق الجديدة - الدار البيضاء - ط1 - 1411هـ - 1990م.

29 - ابن حيان القرطبي - المقتبس - الجزء الخامس - نشر وتحقيق ب.شالميتا وف.كورنطي وم.صبح وغيرهما - المعهد الإسباني العربي للثقافة - كلية الآداب بالرباط - مدريد - 1979م.

30 - ابن حيان القرطبي - المقتبس في أخبار بلاد الأندلس - تحقيق عبد الرحمن علي الحجي - دار الثقافة - بيروت - 1983م.

31 - ابن حيان القرطبي - من نصوص كتاب المتين - تحقيق عبد الله محمد جمال الدين - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة - 1418هـ - 1997م.

32 - ابن خاقان الفتح بن محمد - مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس - دراسة وتحقيق محمد علي شوابكة - دار عمار - مؤسسة الرسالة - ط1 - 1403هـ 1983م

33 - الخشني محمد بن حارث - أخبار الفقهاء والمحدثين - دراسة وتحقيق ماريا لويس آبيلا ولويس مولينا - المجلس الأعلى للأبحاث العلمية - مدريد - 1992م.

34 - الخشني محمد بن حارث - قضاة قرطبة وعلماء افريقية - تحقيق السيد عزت العطار الحسيني - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط2 - 1415هـ - 1994م.

35 - ابن الخطيب لسان الدين - الإحاطة في أخبار غرناطة - تحقيق محمد عبد الله عنان - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط2 - 1393هـ - 1973م.

36 - ابن الخطيب لسان الدين - تاريخ إسبانية الإسلامية أو كتاب أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام - تحقيق إ. ليفي بروفنسال - دار المكشوف - بيروت - ط2 - 1956م.

37 - ابن الخطيب لسان الدين - المغرب العربي في العصر الوسيط وهو القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام - تحقيق وتعليق احمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني - دار الكتاب - الدار البيضاء - 1964م.

38 - ابن الخطيب لسان الدين - رقم الحلل في نظم الدول - تعليق وتقديم عدنان درويش - منشورات دار الثقافة - دمشق - 1990م.

39 - ابن خلدون عبد الرحمن - ترجمان العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر - دار الكتاب اللبناني - مكتبة المدرسة - بيروت - 1983م.

40 - ابن خلدون يحي - بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد - الجزء الأول - تحقيق عبد الحميد حاجيات - المكتبة الوطنية - الجزائر - 1400هـ - 1980م.

41 - ابن خلكان أبو العباس - وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - الطبعة الأولى - 1367هـ - 1948م.

42 - ابن خير الإشبيلي أبو بكر - فهرسة ما رواه عن شيوخه - نشر فرنشكة قدارة زبيدين - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط3 - 1417هـ - 1997م.

43 - الداودي أحمد بن نصر - كتاب الأموال - تحقيق رضا محمد سالم شحادة - مركز أحياء الثرات - الرباط - بدون تاريخ.

44 - الرقيق ابراهيم بن القاسم - تاريخ افريقية والمغرب - تحقيق عبد الله العلي الزيدان وعزالدين عمر موسى - دار الغرب الإسلامي - بيروت - ط1 - 1990م.

45 - الزبيدي محمد بن الحسن - طبقات النحويين واللغويين - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف - القاهرة - ط2 - 1973م.

46 - الزجالي عبد الله بن أحمد - أمثال العوام في الأندلس - تحقيق محمد بن شريفة - مطبعة محمد الخامس - فاس - 1975م.

47 - ابن أبي زرع الفاسي - الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس - دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط - 1973م.

48 - الزمخشري محمود بن عمر - أساس البلاغة - دار صادر - بيروت - ط1 - 1412هـ - 1992م.

49 - الزهري محمد بن أبي بكر - كتاب الجغرافية - تحقيق محمد حاج صادق - منشورات مجلة الدراسات الشرقية - دمشق - 1968م.

50 - ابن سعيد المغربي - كتاب الجغرافية - تحقيق إسماعيل العربي - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - الطبعة الثانية - 1982م.

51 - ابن سعيد المغربي (علي بن موسى) - المغرب في حلى المغرب - تحقيق خليل المنصور - دار الكتب العلمية - بيروت - ط1 - 1417هـ - 1997م.

52 - السيد سابق - فقه السنة - دار الكتاب العربي - بيروت - ط8 - 1407هـ - 1987م.

53 - السيوطي جلال الدين - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنجاة - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الفكر - بيروت - ط2 - 1399هـ - 1979م.

54 - الشنتريني ابن بسام - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - تحقيق إحسان عباس - الدار العربية للكتاب - ليبيا - تونس - 1395هـ - 1975م.

55 - صاعد الأندلسي أبو القاسم - طبقات الأمم - مطبعة السعادة - القاهرة - بدون تاريخ.

56 - الصفدي صلاح الدين - الوافي بالوفيات - نشر هلموت ريتر - دار النشر فرانز شتاين - فسبادن - 1962م.

57 - الضبي أحمد بن يحي - بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس - تحقيق روحية عبد الرحمن السويفي - دار الكتب العلمية - بيروت - 1417هـ - 1997م.

58 - الطبري محمد بن جرير - تاريخ الطبري وهو تاريخ الرسل والملوك ومن كان في زمن كل منهم - تقديم ومراجعة صدقي جميل العطار - دار الفكر - ط1 - 1418هـ - 1998م.

59 - الطرطوشي محمد بن الوليد - سراج الملوك - تحقيق محمد فتحي أبو بكر - الدار المصرية اللبنانية - القاهرة - ط1 - 1414هـ - 1994م.

60 - ابن عبد الحكم عبد الرحمن بن عبد الله - فتوح افريقية والأندلس - تحقيق عبد الله أنيس الطباع - مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر - بيروت - 1964م.

61 - ابن عبد الحليم صالح - كتاب الأنساب - دراسة وتحقيق محمد يعلى - المجلس الأعلى للأبحاث العلمية - الوكالة الاسبانية للتعاون الدولي - مدريد - 1996م.

62 - عبد الله بن بلقين - كتاب التبيان - تحقيق أمين توفيق الطيبي - منشورات عكاظ - الرباط - 1995م.

63 - ابن عبدون التيجيبي محمد بن أحمد وآخرون - ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب - تحقيق إ. ليفي بروفونسال - مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة - 1955م.

64 - ابن عذاري المراكشي - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - الأجزاء الأول والثاني والثالث - تحقيق ومراجعة ج.س.كولان وإ.ليفي بروفنسال - دار الثقافة - بيروت - ط 2 - 1400هـ - 1980م.

65 - العذري أحمد بن عمر المعروف بابن الدلائي - نصوص عن الأندلس من كتاب "ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى

جميع الممالك" - تحقيق عبد العزيز الأهواني - مطبعة معهد الدراسات الإسلامية - مدريد - 1965م.

66 - ابن عياض اليحصبي القاضي - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك - تحقيق محمد سالم هاشم - دار الكتب العلمية - بيروت - ط1 - 1418هـ - 1998م.

67 - ابن فرحون المالكي - الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب - دراسة وتحقيق مأمون بن محي الدين الجنان - دار الكتب العلمية - بيروت - ط1 - 1417هـ - 1996م.

68 - ابن الفرضي الأزدي محمد بن يوسف - تاريخ علماء الأندلس - ج1 - تحقيق إبراهيم الأبياري - دار الكتاب اللبناني - مكتبة المدرسة - بيروت - ط1 - 1403هـ - 1983م.

69 - ابن الفرضي الأزدي - تاريخ علماء الأندلس - الجزء الثاني - تحقيق إبراهيم الأبياري - دار الكتب الإسلامية - دار الكتاب المصري (القاهرة) - دار الكتاب اللبناني - بيروت - ط1 - 1404هـ - 1984م.

69 - ابن قتيبة الدينوري عبد الله بن مسلم - الإمامة والسياسة - تحقيق خليل المنصور - دار الكتب العلمية - بيروت - ط1 - 1418هـ - 1997م.

70 - القلقشندي أحمد بن علي - نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب - دار الكتب العلمية - بيروت - ط1 - 1405هـ - 1984م.

71 - ابن قنفد القسنطيني أحمد بن حسن - كتاب الوفيات - تحقيق عادل نويهض - منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت - ط4 - 1403هـ - 1983م.

72 - ابن القوطية أبو بكر - تاريخ افتتاح الأندلس - تحقيق إسماعيل العربي - م.و.ك - الجزائر - 1989م.

73 - الماوردي أبو الحسن علي بن محمد - الأحكام السلطانية والولايات

الدينية - دار الكتب العلمية - بيروت - ط1 - 1405هـ - 1985م.

74 - مجهول - كتاب أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بها تحقيق إسماعيل العربي - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - 1989م.

75 - مجهول - كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار - نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد - دار النشر المغربية - الدار البيضاء - 1985م.

76 - مجهول - كتاب ذكر سبب فتح الأندلس وأمرائها - دراسة وتحقيق لويس مولينا - المجلس الأعلى للأبحاث العلمية - الوكالة الاسبانية للتعاون الدولي - مدريد - 1994م.

77 - مجهول - مفاخر البربر - دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية - رسالة ماجستير غير مطبوعة - معهد التاريخ - جامعة وهران - السانية - 1417هـ - 1996م.

78 - المراكشي أبو عبد الله بن عبد الملك - الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة - تحقيق محمد بن شريفة - دار الثقافة - بيروت - بدون تاريخ.

79 - المراكشي عبد الواحد - المعجب في تلخيص أخبار المغرب - تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي - دار الكتاب - الدار البيضاء - ط7 - 1978م.

80 - المقَّري التلمساني أحمد - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - تحقيق إحسان عباس - دار صادر - بيروت - بدون تاريخ.

81 - الناصري أحمد بن خالد - الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى - تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري - دار الكتاب - الدار البيضاء - 1418هـ - 1997م.

82 - النباهي الأندلسي ابن الحسن - تاريخ قضاة الأندلس أو المرقبة العليا

فيمن يستحق القضاء والفتيا - تحقيق د. مريم قاسم طويل - دار الكتب العلمية - بيروت - ط1 - 1415هـ - 1995م.

83 - النويري أحمد بن عبد الوهاب - تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب - تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد - دار النشر المغربية - الدار البيضاء - 1984م.

85 - ياقوت الحموي - معجم البلدان - دار بيروت - دار صادر - بيروت - 1404هـ - 1984م.

86 - اليعقوبي أحمد: - كتاب البلدان - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط1 - 1408هـ - 1988م.

خامسا: المراجع العربية والمعرُبة:

87 - احمد أمين - ظهر الإسلام - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الخامسة - بدون تاريخ.

88 - أرسلان شكيب - الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية - دار الكتب العلمية - بيروت - ط1 - 1417هـ - 1997م.

89 - الأهواني عبد العزيز - أمثال العامة في الأندلس - دار المعارف - القاهرة - 1962م.

90 - بالنثيا أنخل قنثالث - تاريخ الفكر الأندلسي - ترجمة حسين مؤنس - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة.

91 - البارودي رضوان - بنو يفرن في بلاد المغرب والأندلس - دار نشر الثقافة - الاسكندرية - 1991م.

92 - بحوث ندوة الأندلس - الدرس والتاريخ - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية2 - 4 ذو القعدة 1414هـ/ 13 - 15 أفريل 1994م.

93 - بن منصور عبد الوهاب - قبائل المغرب - المطبعة الملكية - الرباط -

1388هـ - 1968م

94 - بن منصور عبد الوهاب - أعلام المغرب العربي - المطبعة الملكية - الرباط - 1406هـ - 1968م.

95 - بوتشيش ابراهيم القادري - أثر الأقطاع في تاريخ الأندلس السياسي من منتصف القرن الثالث الهجري حتى ظهور الخلافة - منشورات عكاظ - الرباط - 1992م.

96 - بوز فارس - تاريخ العرب في الأندلس - منشورات جامعة دمشق - دمشق - 1416هـ - 1995م.

97 - بوزياني الدراجي - القبائل الأمازيغية - دار الكتاب العربي - الجزائر - ط1 - 1999م.

98 - بيريس هنري - الشعر الأندلسي في عصر الطوائف - ترجمة الطاهر أحمد مكي - دار المعارف - القاهرة - ط1 - 1408هـ - 1988م.

99 - بيضون ابراهيم - الدولة العربية في اسبانيا - دار النهضة العربية - بيروت - ط3 - 1406هـ - 1986م.

100 - الجيوسي سلمى الخضراء - الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت - ط2 - 1999م.

101 - الحجي عبد الرحمن علي - التاريخ الأندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة - دار القلم - دمشق - ط4 - 1415هـ - 1994م.

102 - حمادة محمد ماهر - المصادر العربية والمعرَّبة - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط6 - 1407هـ - 1987م.

102 - حمادة محمد ماهر - الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمال افريقيا: دراسة ونصوص - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط2 - 1406هـ - 1986م.

103 - حمدي عبد المنعم محمد حسني - ثورات البربر في الأندلس في

عصر الإمارة الأموية - مؤسسة شباب الجامعة - اسكندرية - 1993م.

104 - حمدي عبد المنعم محمد حسين - دراسات في التاريخ الأندلسي: دولة بني برزال في قرمونة - مؤسسة شباب الجامعة - اسكندرية - 1990م.

105 - الخربوطلي علي حسني - الإسلام في حوض البحر المتوسط - دار العلم للملايين - بيروت - ط1 - 1970م.

106 - الخربوطلي علي حسني - غروب الخلافة الإسلامية - مؤسسة المطبوعات الحديثة - القاهرة - د.ت.

107 - دوزي رينهاترت - تاريخ مسلمي اسبانية - ج1 - ترجمة حسن حبشي - دار المعارف - القاهرة - 1382هـ - 1963م.

108 - دوزي رينهارت - المسلمون في الأندلس - ج2 - ترجمة حسن حبشي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - 1414هـ - 1994م.

109 - روم لاندو - الإسلام والعرب - ترجمة منير البعلبكي - دار العلم للملايين - بيروت - ط1 - 1962م.

110 - زبيب نجيب - الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس - دار الأمير للثقافة والعلوم - بيروت - ط1 - 1415هـ - 1995م.

111 - الزركلي خير الدين - الأعلام - دار العلم للملايين - بيروت - ط8 - 1989م.

112 - سرور محمد جمال الدين - سياسة الفاطميين الخارجية - دار الفكر العربي - القاهرة - 1994م.

113 - السيد محمود - تاريخ العرب في بلاد الأندلس - مؤسسة شباب الجامعة - اسكندرية - 1999م.

114 - السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي - تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس - دار النهضة العربية - بيروت - 1969م.

115 - السيد عبد العزيز سالم - في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس - مؤسسة شباب الجامعة - اسكندرية - 1985م.

116 - السيد عبد العزيز سالم - تاريخ المغرب الكبير - ج2 - دار النهضة العربية - بيروت - 1981م.

117 - السيد عبد العزيز سالم - التاريخ والمؤرخون العرب - دار النهضة العربية - بيروت - 1981م.

118 - السيد عبد العزيز سالم - تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس - مكتبة الأنغلو مصرية - القاهرة - ط2 - 1986م.

119 - السيد عبد العزيز سالم - قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس - دار النهضة العربية - بيروت - 1972م.

120 - شرف الدين محمود عبد الفتاح - تاريخ السيادة الإسلامية على الأندلس - مكتبة الآداب القاهرة - 1999م.

121 - شكري فيصل - حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول - دار العلم للملايين - بيروت - ط5 - 1980م.

122 - شلبي سعد إسماعيل - البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر: عصر ملوك الطوائف - دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة - 1978م.

123 - الصوفي محمد خالد - تاريخ العرب في اسبانيا - دار الكاتب العربي - ط1 - 1966م.

124 - الصوفي خالد - تاريخ العرب في اسبانيا - المطبعة التعاونية - دمشق - 1959م.

125 - الطاهري احمد - عامة قرطبة في عصر الخلافة - منشورات عكاظ - الرباط - 1988م.

126 - طويل مريم قاسم - مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر - مكتبة

الوحدة العربية - الدار البيضاء - دار الكتب العلمية - بيروت - ط1 - 1414هـ - 1994م.

127 - العبادي احمد مختار - في التاريخ العباسي والأندلسي - دار النهضة العربية - بيروت - بدون تاريخ.

128 - العبادي احمد مختار - في التاريخ العباسي والفاطمي - دار النهضة العربية - بيروت - 1971م.

129 - العبادي احمد مختار - في تاريخ المغرب والأندلس - دار النهضة العربية - بيروت - 1978م.

130 - عباس رضا هادي - الأندلس: محاضرات في التاريخ والحضارة - منشورات إلجا فاليتا (مالتا) 1998م.

131 - عبد الحليم رجب محمد: - العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف - دار الكتب الإسلامية - د. ك. م. القاهرة - د.ك.ل. بيروت 1985م.

132 - عتيق عبد العزيز - الأدب العربي في الأندلس - دار الآفاق العربية - القاهرة - بدون تاريخ.

133 - العربي إسماعيل - دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - 1983م.

134 - عنان محمد عبد الله - دولة الإسلام في الأندلس - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط4 - 1417هـ - 1997م.

135 - عويس عبد الحليم - العصبية القومية وأثرها في سقوط الأندلس - ندوة الأندلس: الدرس والتاريخ - جامعة الإسكندرية - كلية الآداب - دار المعرفة الجامعية - 1414هـ - 1994م.

136 - فراد محمد أرزقي - القوى المغربية في الأندلس خلال عهد ملوك

الطوائف - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - 1991م.

137 - فيلالي عبد العزيز - العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - 1982م.

138 - القاسمي جاسم بن محمد - تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس - مؤسسة شباب الجامعة - اسكندرية - 1999م.

139 - قزيحة رياض - الفكاهة في الأدب الأندلسي - المكتبة العصرية - الطبعة الأولى - 1418هـ - 1998م.

140 - كحيلة عبادة - القطوف الدواني في التاريخ الإسباني - المطبعة الإسلامية الحديثة - القاهرة - ط1 - 1419هـ - 1998م.

141 - كحيلة عبادة - المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب - المطبعة الإسلامية الحديثة - القاهرة - 1418هـ - 1997م.

142 - كمال السيد أبو مصطفى - تاريخ الأندلس الاقتصادي في عصري دولتي المرابطين والموحدين - مركز الاسكندرية للكتاب - اسكندرية - بدون تاريخ.

143 - كمال السيد أبو مصطفى - مالقة الاسلامية في عصر دويلات الطوائف - مؤسسة شباب الجامعة - الاسكندرية - 1993م.

144 - لقبال موسى - المغرب الاسلامي - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - الطبعة الثانية - 1981م.

145 - ليفي بروفنسال إ. - الحضارة العربية في اسبانيا - ترجمة الطاهر أحمد مكي - دار المعارف - القاهرة - ط3 - 1414هـ - 1994م.

146 - مسعد سامية مصطفى - صور من المجتمع الاندلسي - عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية - القاهرة - ط1 - 1998م.

147 - مصطفى أبو ضيف أحمد - القبائل العربية في الاندلس - دار النشر المغربية - الدار البيضاء - 1983م.

148 - المنجد في اللغة والأعلام - دار المشرق - بيروت - الطبعة الحادية والثلاثون - 1991م

149 - المنوني محمد وآخرون - التاريخ الأندلسي من خلال النصوص - شركة النشر والتوزيع المدارس - الدار البيضاء - ط1 - 1412هـ - 1991م.

150 - المنوني محمد - المصادر العربية لتاريخ المغرب - ج 1 - منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية - الرباط - 1404هـ - 1983م.

151 - مؤنس حسين - فجر الأندلس - الدار السعودية للنشر والتوزيع - جدة - الطبعة الثانية - 1405هـ - 1985م.

152 - مؤنس حسين - معالم تاريخ المغرب والأندلس - دار الرشاد - القاهرة - الطبعة الثالثة - 1420هـ - 1999م.

153 - مؤنس حسين - موسوعة تاريخ الأندلس - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة - ط1 - 1416هـ - 1996م.

154 - هيكل أحمد - الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة - دار المعارف - القاهرة - ط12 - 1997م.

سادسا: المجلات والدوريات العربية: -

155 - دنون طه عبد الواحد - استقرار القبائل البربرية في الأندلس - مجلة أوراق - المعهد الاسباني العربي للثقافة - مدريد - العدد الرابع - 1981م - صص 35 - 48.

156 - ناز عصمت - الاختلافات بين العرب والبربر والصقالبة في الأندلس - مجلة دراسات أندلسية - مطبعة المغاربة - تونس - عدد 22 - ربيع الأول 1420هـ - جوان 1999م - صص 55 - 75.

1- سابعا: المراجع الأجنبية:

157 - Albonoz, Claudia Sanchez: - L'Espagne Musulmane - Trad. Claude Faraggi - opu - publisud - 1985.

158 - Asin Palacios, Miquel: - Contribucion à la Toponimia Arabe de Espana - Madrid - 1944.

159 - Dhina, Amar: - Grands Tournants de L'Histoire de L'Islam - S.N.E.D - Alger - 1978.

160 - DE Felipe, Helena: - Identidad y onomastica de los Bereberes de Al - Andalus - C.S.I.C - Madrid - 1997.

161 - Guichard pierre: - Structures Sociales Orientales et Occidentales dans L'Espagne Musulmane - Mouton - Paris - Lahaye - 1977.

162 - Lebon Gustave - La Civilisation des Arabes - S.N.E.D - Alger - 1969.

163 - Levi - provençal E: - L'Espagne Musulmane au $10^{éme}$ Siecle - Ed Larose - paris - 1932.

164 - Levi - provençal: - Histoire L'Espagne Musulmane - G.P Maisonneuve - E.J. Brill - paris - Leiden - 1950.

165 - Levi - provençal: - Seville Musulmane au début du $12^{éme}$ Siecle - Le Traité D'ibn Abdun - Ed Maisonneuve - paris - 1947.

166 - Madoz p: - Diccionario Geografico - Estadistico - Historico de Espana y sus posesiones de ultramar - Madrid - 1848 - 1850.

167 - Menendez pidal Ramon: - Historia de Espana T1 Espana Musulmana (711 - 1031) - Espasa - caple s.a - Madrid - 2^{da} Ed. 1957.

168 - Montagne R: - La vie Sociale et politique des berbers, Regards sur le Maroc - Cheam - Paris - 1986.

169 - Prieto y vives Antonio: - Los Reyes de Taifas Centro de Estudios Historicos - Madrid - 1926.

170 - De Valdevellan Luis G: - Historia de Espana Antigua y Medieval - Ed. Alianza Editorial - Madrid - 1988.

ثامنا: المجلات والدوريات الأجنبية:

171 - Guichard pierre: - Faut - il en finir avec les Berberes de valence? In Al qantara - vol XI - fasc. 1 - Madrid - 1990.

172 - Manzano Moreno Eduardo: - Bereberes de Al - Andalus: Los Factores de una evolucion Historica in Alqantara - Revista de Estudios Arabes - Vol. XI - Fasc. 1 - Madrid - 1990.

173 - Sanchez Manuel: - Al - Andalus (711 - 1031) in Historia - Ano y Extra xy - Madrid - oct. 1980.

174 - Scales Peter: - A proletarian Revolution in the 11^{th} Century Spain in Alqantara - vol. XI. Fasc 1 - Madrid - 1990.

فهرس الموضوعات

BERBERS OF ANDALUSIA

And Their attitude concerning the troubles of The fifth century of The Hegira
92-422 H. = 711-1031 A.D.

by

Dr. ʿAbdul-Qādir Būbāyah

